

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

معالم الحضارة العربية

في القرن الثالث الهجري

أحمد عبد الباقي

معالم الحضارة العربية

في القرن الثالث الهجري



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

معالم الحضارة العربية

في القرن الثالث الهجري

احمد عبد الباقي

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٦٩١٦٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

الطبعة الاولى

بيروت، أيار/ مايو ١٩٩١

المحتويات

مقدمة

لا يخفى أن مسيرة الحضارة في تاريخ أية أمة من الأمم لا يمكن فصلها بين قرن وآخر، إلا أن بعض مظاهرها تطغى وتبرز فتسم العصر بطابعها. ومع تواصل قافلة الحضارة العربية عبر قرون عديدة فإن القرن الثالث كان عصر بحث وترجمة وتأليف، مما ساعد على ظهور معالم الحضارة العربية فيه، في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، تلك المعالم التي بلغت ذروة الازدهار في القرن التالي. فقد شهد القرن الثالث ازدهاراً في الحياة الاقتصادية بجوانبها المختلفة. فكان من نتائج الاهتمام بالزراعة وما يتعلق بها من شؤون الري وبناء السدود، أن صار ما بين بغداد والكوفة سواداً تشتبك فيه الأنهار، وكثرت الزروع والبساتين في أرباض بغداد. كما صار نهر الاسحاقي الذي أحياه المعتصم بالله بعد بناء سامراء، محور العمران في الجانب الغربي من المدينة حيث انتشت المزارع والبساتين وقامت القرى العديدة. ونستخلص من جداول قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، أن ايرادات العراق كانت تمثل ٣٩ بالمئة من ايرادات الدولة العربية، ومعظمها من جباية الغلات الزراعية المستوفاة من السواد حيث بلغت نسبتها ٦٥ بالمئة من مجمل ايرادات العراق، وهي تعطي صورة جلية عن ازدهار الزراعة آنذاك.

وفي ميدان الصناعة نشطت صناعة النسيج والسجاد، والمعادن، والفخار والخزف والزجاج، والصابون والعطور، وغيرها من الصناعات، لتتلاءم وحاجيات المجتمع الجديد والمرحلة الحضارية التي وصلت إليها الدولة العربية. وتوسعت المبادلات التجارية ونشطت حركة نقل البضائع والمواد بين مختلف الأقاليم والولايات. وفي التجارة الخارجية مخرت السفن العربية عباب بحر الروم، كما كانت تنقل البضائع بين الموانىء العربية وبلدان الشرق الأقصى عبر الخليج العربي والمحيط الهندي. واستطاع التجار العرب أن يطردوا التجار اليهود من البحار، عندما وسعوا تجارتهم نحو بلاد الروس وبلدان حوض البلطيق.

وكان هذا الازدهار الاقتصادي عاملاً قوياً في النهضة العلمية العربية التي شهدها هذا

القرن، وقد عمّت هذه النهضة أرجاء الدولة العربية. ونرى من الضروري أن نكرر ما سبق أن قلناه في مقدمة كتابنا عن سامراء ان كلمة العرب بمعناها الواسع لم تعد تقتصر على سكان البلاد فقط، بل إنها شملت جميع الأمم والشعوب التي حمل العرب الدين الاسلامي إليها، واتخذت من العربية لغة لها، وانضوت تحت راية الدولة العربية. ومن ثم فإن الحضارة التي ظهرت معالمها في هذا القرن وازدهرت في القرن التالي كانت حضارة عربية.

وقد كانت حركة الترجمة التي ابتدأت في منتصف القرن الثاني، قد اتسعت وازدهرت في هذا القرن، وتمخضت عن نقل عديد من كتب اليونان في مواضيع مختلفة، فساعدت في بناء صرح الحضارة العربية. وواضح أن ازدهار هذه الحضارة في القرن الرابع إنما كان ثمرة ما بذله أعلام القرن الثالث الذين أغنوا العلم بترجماتهم وتصانيفهم ونتائج تجاربهم، بحيث يمكن القول إنهم أرسوا أسس أكثر العلوم وحددوا محتواها، وأظهروا في ذلك من المبادرات والانجازات ما لم يسبقهم إليه أحد. فكان من ذلك شجرة باسقة فارعة آتت أكلها بعد حين، فكان من خير الثمرات وأنضجها.

ومن الحق أن نقول إن أمة العرب تميزت في فتوحاتها على كثير من الأمم بأنها كانت أمة بنّاءة. فحيثما وجد العرب في البلاد التي أفاءوا عليها ظل الاسلام، صناعة متميزة، أو عمراناً شامخاً، أو علماً قائماً، عملوا على تطويره وتحسينه. وهم لم يكتفوا باقتباس بعض ما وجدوه من ذلك وصيانته من الضياع والتلف، بل انهم تبنّوه وصححوا أخطاءه وأضافوا إليه، فكانوا بناة حضارة بكل معنى الكلمة. وهذا ما سيلمسه القارىء الكريم في هذا الكتاب. فقد أفاد العرب مما ترجموه من الكتب اليونانية، فتعرفوا على منطق أرسطوطاليس واستقراء سقراط، فانتهجوا في أعمالهم وأبحاثهم العلمية طريق المنطق والاستقراء مع دقة الملاحظة والاعتماد على التجربة. فجمعوا الحقائق من مختلف مصادرها في أي موضوع عالجوه، واستخرجوا منها ما توصلوا إليه من آراء ونظريات. وقد تميزوا بأنهم لم يقفوا عند حدود النظريات كما فعل اليونان، بل طبقوا ذلك ما استطاعوا عملياً، فصنعوا الساعات المائية والمزاول الشمسية، والأدوات المختبرية، وأقاموا المراصد الفلكية وصنعوا ما تحتاجه من أجهزة وأدوات.

لقد تفجرت قابلياتهم العلمية وظهر منهم عدد كبير من أعلام العلماء في مختلف أفانين المعرفة ممن يفخر بهم التاريخ العربي الاسلامي، واستطاعوا أن يرتفعوا في خلاله بالحياة الفكرية والدراسة العلمية إلى أسنى مقام. فقد توسعت الدراسات القرآنية، وثبتت أصول الحديث فوضعت كتب الصحاح الستة، واستقرت المدارس الفقهية على أيدي عدد من كبار الفقهاء، وتجرد علم التاريخ من الجغرافيا والخبر وصنفت أهم كتب التاريخ فيه. أما في النواحي العلمية والفلسفية، فقد قطعوا أشواطاً مهمة في ميادين العلوم الطبيعية واقتربوا كثيراً من بعض الحقائق العلمية. فقد وضعوا «الصِّفر» قيد الاستعمال في العلوم الرياضية وجعلوا الجبر علماً متقناً تقدموا به مراحل عما كان معروفاً عنه، ووضعوا أسس الهندسة التحليلية، وأوجدوا علم المثلثات، وتوصلوا في أرصادهم الفلكية إلى معرفة أوج الشمس ومدارها ومدار القمر والكواكب الأخرى، والحركة البطيئة في تقدم الليل والنهار. وكانوا قد تنبهوا إلى أن ما

يظهر من دوران الكواكب إنما هو دوران الأرض وليس الشمس والفلك. أما انجازاتهم في الكيمياء وفنون الميكانيكا وفي علمي الحيوان والنبات، فقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية. وبرز في ذلك علماء مشهورون خلدوا أسماءهم بملاحظاتهم ومبتكراتهم. ولعل أهم ما يمكن الاشارة إليه من هذه المواضيع تصنيفهم المواد الكيميائية، وقولهم بحركة الأجسام ذاتياً بطبيعتها، وتفسير سقوط الأجسام والتجاذب بينها عندما تختلف كتلتها، ومبتكراتهم في علم الميكانيكا والاستفادة منها في الحياة العملية، ونقضهم نظرية الابصار اليونانية بأن قالوا إن الرؤية تحصل من سقوط أشعة الجسم المرئي على العين.

أما في ميدان الفلسفة والطب، فقد استطاع فيلسوف العرب الكندي أن يضع أسس الفلسفة العربية الاسلامية، ويمهد بآرائه الجريئة طريق الفلسفة للآخرين. أما في الطب فقد بلغ العرب شأواً بعيداً في تقدمهم بعلمي الطب والصيدلة وفي شؤون الرعاية الصحية، إذ برز عدد من الأطباء العباقرة كان لهم أثر واضح في ذلك بما اكتشفوه من الحقائق الطبية، وعوارض بعض الأمراض، وما صنفوه من الكتب والرسائل، كما أنهم مهروا في تركيب العقاقير فساعدوا على تقدم الصيدلة التي كانوا روادها حقاً.

ولقد حاولنا أن نتلمس في هذا الكتاب معالم هذه الحضارة، فجاءت دراستنا في أحد عشر فصلاً قدمنا في الفصل الأول موجزاً عن دواوين الدولة العربية وولاياتها واداراتها. وحددنا في الفصل الثاني معالم المجتمع العربي وأسلوب معيشة الناس في سكنهم وطعامهم ولباسهم وأعيادهم ووسائل لهوهم. وعقبنا في الفصل الثالث بدراسة الأحوال الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة مع حالة الدولة المالية. أما في الناحية العلمية فقد خصصنا الفصل الرابع للعلوم الدينية التي تناولت الدراسات القرآنية، والحديث، والمذاهب الفقهية، وعلم الكلام. وتناولنا في الفصل الخامس حركة الترجمة التي توسعت في هذا القرن، وأبرز رجالها وأعمالهم، وأشرنا إلى ما يتعلق بعالم الكتب من الخزائن التي انتشرت في أنحاء البلاد، مما توفر لنا عنه معلومات واضحة. وخصصنا الفصل السادس للغة العربية وآدابها، النثر وأبرز كتّابه، وتطور الشعر ونقده وأغراضه ومن اشتهر من الشعراء في كل غرض منها. وعرضنا في الفصل السابع مراحل تقدم علم التاريخ وظواهر تطور الجغرافيا. ودرسنا في الفصل الثامن ظواهر تقدم العلوم الطبيعية. وفي الفصل التاسع أوضحنا ما وصلت إليه العلوم الرياضية الحساب والجبر والهندسة، وعلم النجوم في الهيئة وأحكام النجوم (التنجيم). وخصصنا الفصلين العاشر والحادي عشر لموضوع الفلسفة العربية، وتقدم الطب، ومن اشتهر من الفلاسفة والأطباء. وقد ثبتنا التواريخ كافة بالسنة الهجرية، ووضعنا في آخر الكتاب جدولاً بما يقابل ذلك من السنوات الميلادية.

وختاماً، نرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا في عرض صورة واضحة لصفحة زاهية من تاريخ أمتنا المجيدة، معتذرين عما جاء في عملنا من نقص، إذ الكمال لله وحده، وهو ولي التوفيق.

احمد عبد الباقي

الفصل الاول

دَوَاوِينُ الدَّولة العَرَبيَّة وَولاياتها

أولاً: الدواوين

كان بعض دواوين الدولة قد نشأ منذ أيام الخلفاء الراشدين، وقد طورت هذه الدواوين وأعيد تنظيمها في عهد الأمويين بحسب الحاجة التي كانت قائمة آنذاك. ويذكر اليعقوبي الدواوين التي كانت قائمة عند انتقال الحكم إلى العباسيين والتي نقلها أبو جعفر المنصور إلى مدينة بغداد عند تأسيسها، وهي: ديوان الرسائل، ديوان الخراج، ديوان الخاتم، ديوان الجند، ديوان الحوائج، وديوان الأحشام[1]. ثم يضيف ديوان الصدقات[2]. وقد تطورت هذه الدواوين وأضيف إليها فيما بعد دواوين أخرى نشأت الحاجة إليها ولا سيما في أيام أبي جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد.

وعندما انتقل مركز الخلافة إلى سامراء كانت الدواوين قد استقرت أسسها وتعينت واجباتها إلى حد غير قليل، لأن أعمال بعض الدواوين كانت تتداخل بأعمال غيرها مما يجعل من الصعوبة تعيين الحدود الفاصلة بينها بدقة[3]. وكان يرأس كل ديوان موظف مسؤول يسمى صاحب الديوان. وقد أنيط الاشراف على الدواوين بالوزراء باعتبار أن الوزير رئيس السلطة المركزية. وكان لبعض الدواوين الرئيسة فروع في الولايات المهمة. فقد كان هناك

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، ص ٢٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

(٣) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، ج ١، ص ١٢٥

ديوان للخراج في كل من الكوفة والبصرة ومصر والشام[4]، وفي ارمينيا وأذربيجان ومكة والمدينة المنورة واليمن والجزيرة[5].

ويشير اليعقوبي إلى أن المعتصم بالله خصص موضعاً لبناء الخزائن الخاصة والعامة عندما بنى سُرَّ من رأى (سامراء). كما يشير إلى أن جميع دواوين الدولة نقلت من سُرَّ من رأى إلى مدينة المتوكلية التي بناها المتوكل على الله واتخذها مقراً له، ويذكر منها ديوان الخراج، وديوان الضِّياع، وديوان الزمام، وديوان الجند والشاكرية، وديوان الموالي والغلمان، وديوان البريد[6].

وفي ما يلي استعراض للدواوين التي كانت قائمة في خلال القرن الثالث، مع بيان أهم أعمالها وواجباتها، وسنعتمد على كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر، إلا إذا أشرنا إلى مصدر آخر[7].

١ ـ ديوان بيت المال

ويُعرف بالديوان السامي، ويعتبر أصل الدواوين ومرجعها، إذ تدوّن في جرائده جميع ما يرد إلى بيت المال من عين وغلال وغنائم وأعشار. ويشرف كذلك على ما يخرج من وجوه الإنفاق والاطلاقات. فيتولى إثبات ما تنفقه سائر الدواوين بمصادقته. وعلى صاحب هذا الديوان أن يتثبت من صحة ما تحصَّل من الايراد، ويتخذ لأصناف الأموال الخزائن لحفظها وصيانتها[8]. ونظراً لأهمية هذا الديوان فقد كان لصاحبه علامة خاصة يضعها على الكتب والصكوك والاطلاقات، يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويطالبون بها إذا لم يجدوها، بحيث لا تنفذ كتب الانفاق ما لم تكن تحمل تلك العلامة. وقد اتخذت هذه العلامة لئلا يتخطى المدبرون هذا الديوان فيختل أمره. وكان على صاحب هذا الديوان أن يقدم إلى الوزير ختمة ـ أي تقريراً شهرياً ـ بكل ما يسجل ايراداً لبيت المال، وما ينفق منه ومن الدواوين الأخرى. وما يرفعه من الختمات تشتمل على ما يرفع إلى دواوين الخراج والضياع من سائر الايرادات، وما يرفع إلى ديوان النفقات مما يطلق في وجوه الانفاق. وكان المتولي له جامعاً للنظر في الأمرين ومحاسباً على الأصول والنفقات.

---

(٤) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، الوزراء والكتاب، حقّقه مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٨٩٩)، ص ١٢٤، ١٤١ و١٦٧ على التوالي.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

(٦) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٦١ و٢٦٧ على التوالي.

(٧) أبو الفرج قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، حقّقه محمد حسين الزبيدي (بغداد: دار الحرية، ١٩٨١)، ص ٢١ ـ ١٢٩.

(٨) الحسن بن عبد الله العباسي، آثار الأُول في ترتيب الدول (مصر: مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ)، ص ٧٤.

٢ ـ ديوان النفقات

يتولى تدوين ما ينفق أو يخرج من الأموال العامة للإنفاق على الجيش وغيره، فهو ينظر في المصروفات كافة، وله علاقة مباشرة بديوان بيت المال، ويمكن اعتباره جزءاً متمماً له. كما أنه يتولى توفير احتياجات دار الخلافة، فيصرف أرزاق منتسبيها من موظفين وخدم، ويحاسب متعهدي التجهيزات للدار، وينفق على ما فيها من الخيل والبغال وغيرها من الدواب، وعلى ساستها والقوّام عليها. ويتولى الإنفاق على إنشاء المباني أو ترميم القائم منها. ونظراً لسعة واجبات هذا الديوان وأعماله، فإنه يقسم إلى عدد من المجالس بحسب تلك الواجبات، منها:

أ ـ مجلس الجاري: ويتولى العمل بما يتعلق بديوان الجيش، وينظم سجلات المسترزقة بحسب أصنافهم وأوقات استحقاقهم للأرزاق.

ب ـ مجلس الأنزال: ويقوم بمحاسبة متعهدي أرزاق الجيش من الخبز واللحم والحلوى والفاكهة والثلج والحطب والزيت والحيوان وغير ذلك، والتثبت من مبالغها بالنسبة إلى أصنافها ونوعياتها وأوزانها.

ج ـ مجلس الكراع: ويتولى أمر علوفة الدواب ومحاسبة العلّافين على العلوفات المقدمة، وأمر المروج المخصصة لرعيها، كما يتولى أمر معالجتها، وشؤون سواسها.

د ـ مجلس البناء والمرمّة: وهو يكبر ويصغر حسب ميول الخلفاء إلى البناء والتعمير، ويقوم بمحاسبة القُوّام والمهندسين وسائر الصنّاع كالنجارين والمزوِّقين والمذهِّبين وغيرهم، وباعة مواد البناء من جص ونورة وآجر. ويحتاج المحاسب لذلك إلى معلومات حسابية وهندسية.

هـ ـ مجلس الحوادث: ويتولى أمر النفقات الحادثة، أي الطارئة، أو الاستثنائية، بجميع أصنافها ووجوه إنفاقها.

ويعتبر ديوان النفقات أرفع الدواوين إذ إنها ترجع كلها إليه في أمورها، كما ترفع إليه حساباتها ليستوفي عليها، ويطالبها بالأموال وما يتعين من المصالح. ويسمى صاحبه (المستوفي) الذي ينبغي أن يكون عارفاً بالحساب والمكاييل والمقاييس والأسعار، وبجميع صنوف البضائع والمواد والأثاث، وغيرها، وملماً بالرسوم[9].

٣ ـ ديوان الخراج

وهو أهم الدواوين، إذ يتولى أمور الجباية والحفاظ على حقوق بيت المال في ضريبة الخراج والنظر في مشاكلها. كما يقوم بتقديم حسابات الضرائب في مختلف الولايات. وعلى

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٧٢.

صاحب هذا الديوان أن يكون ذا معرفة بالمساحة والحساب، وأن يتصف بالعدالة والأمانة ليأخذ الحق فلا يحيف أو يضيع[10]. وسوف نتناول موضوع الخراج وصاحب ديوانه بشيء من التفصيل في البحث الخاص بمالية الدولة.

٤ ـ ديوان الجيش

ويسمى ديوان الجند أيضاً، وفيه تحفظ سجلات بأسماء الجند وأنسابهم ومراتبهم وأرزاقهم وأعطياتهم. ويجب أن يكون صاحب هذا الديوان خبيراً بشؤون الجيوش والعروض ومراتب الرجال وموقعهم في الدولة، وأن يتقن أمر الحلية وشيات الدواب والسلاح، أي أنه يجب أن يكون خبيراً بكل ما يتعلق بالجيش، لأن هذا الديوان هو أساس انتظامه[11].

ويقسم ديوان الجيش إلى عدة مجالس أهمها مجلسان، هما مجلس التقرير ومجلس المقابلة. وينظر مجلس التقرير في استحقاق الرجال وأوقات أعطياتهم، وسياقة أيامهم وشهورهم، وتقرير ما يحتاج إلى اطلاقه لهم من الأرزاق في وقت وجوبها، وتجريد النفقات التي تنفذ لوجوهها.

أما مجلس المقابلة فإنه ينظر في الجرائد ـ السجلات ـ ويدقق الأسماء، ومنازل الأرزاق، ومنه تصدر الكتب الخاصة بذلك، كما يرد إليه ما يتعلق بها من الكتب. وهذا المجلس مسؤول عن تثبيت صفات الرجال، وشيات الدواب. إذ كان من المعتاد أن تثبت حلية كل رجل ـ أو صفاته المميزة ـ فيذكر سنه، ولونه، وسمات وجهه، وما إذا كان في جسمه خال أو وشم، فيوصف ويذكر موضعه من جسمه. وكانوا يدوّنون الحلية بمنتهى الدقة والتفصيل، لأنه كلما كثرت العلامات الفارقة كان ذلك أثبت للحلية. أما شيات الدواب فتتناول ذكر نوع الدابة، ثم اللون، وإن كان في الدابة سمة خاصة أشير إليها وإلى موضعها من جسمها، وإن لم يكن بها سمة أصلاً قيل عنها إنها غفل.

ولكتّاب ديوان الجيش أحكام وألفاظ وتعابير خاصة قد يقع اللبس فيها على من لم يعتدها. وقد ذكر قدامة بن جعفر جانباً منها[12].

٥ ـ ديوان البريد

يتولى هذا الديوان نقل الرسائل والأوامر والأخبار بين حاضرة الخلافة والولايات. ويقوم صاحبه بعرض الأخبار التي ترد من جميع النواحي، إلى الخليفة، أو انه يعمل بها جوامع لها ـ مختصرات وخلاصات ـ ويقدمها إليه. كما أنه مسؤول عن أمور المرتبين في السكك وحملة البريد، من حيث تقليدهم ودفع أرزاقهم والإشراف على أعمالهم. لذا وجب

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٧١.

(١١) المصدر نفسه، ص ٧٠.

(١٢) انظر: قدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص ٣١ ـ ٣٢.

أن يكون ثقة متحفظاً عارفاً بجميع المسالك والطرق إلى مختلف النواحي والأطراف. وكان يستعان به عندما يُراد إنفاذ جيش إلى جهة ما من أطراف الدولة، ليشير إلى أقصر الطرق وأسلمها للوصول إليها. ويعتبر مسؤولاً عن حفظ أمن الطرق وصيانتها من اللصوص، وطرق الأعداء، وتسلل الجواسيس(١٣).

وعلى صاحب البريد أن يرفع إلى الخليفة تقارير عن سلوك الموظفين والعمال وأعمالهم، وعن الحوادث المهمة وما يلفت النظر من أحوال الناس، وأسعار المواد الغذائية، وعن أخبار الأعداء. ولذا فقد كانت له عيون ودسائس من النساء والصبيان ومن أصحاب الحرف والصناعات(١٤) يوافونه بكل ما يرون وما يسمعون. إلا أنه يبدو أن بعض أصحاب البريد كانوا يجانبون الحقيقة في تقاريرهم عن أعمال الولاة، ويسيئون استخدام مناصبهم، وان بعضهم تنقصه الأمانة، مما لفت نظر قاضي القضاة أبي يوسف فنبّه الخليفة هارون الرشيد إلى ذلك بقوله «بلغني عن ولاتك على البريد والأخبار في النواحي تخليط كثير ومحاباة فيما يحتاج إلى معرفته عن أمور الولاة والرعية، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس، وربما كتبوا في الولاة بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم. وهذا ما ينبغي أن تتفقده، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار... وتقدم إليهم أن لا يحملوا على دواب البريد إلا من تأمر بحمله في أمور المسلمين، فإنها للمسلمين»(١٥).

ومما يؤيد ملاحظة أبي يوسف عن عمال البريد ما ذكره ابن طيفور وهو ليس بعيد عهد منه، من انهم كانوا يرفعون الأخبار إلى المأمون ولو لم تصح بالعدول. ويقول صاحب الخبر: لو لم نرفع إلا ما يثبت بالعدول لم يتهيأ ذلك في السنة إلا مرة أو مرتين(١٦). وهذا يعني أنهم يرفعون ما يشاع من الأخبار دون تمحيص أو تدقيق. ويذكر المقريزي «ولما اشتد الخلاف بين الموفق وأحمد بن طولون وحاول تنحيته، أخبر عامل البريد أحمد بن طولون بذلك، فاحتاط لنفسه وعمل على احباط جهود الموفق»(١٧)، مما يستدل منه عدم أمانة صاحب البريد هذا. وكان بعض الخلفاء واثقين من عدم صدق صاحب البريد وأمانته، فإن المتوكل على الله لما ولّى ابن الكلبي على البريد احلفه بالطلاق بألا يكتمه شيئاً من أمر الناس جميعاً حتى من أمره هو نفسه(١٨).

---

(١٣) العباسي، المصدر نفسه، ص ٨٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(١٥) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري، الخراج، ط ٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٣٣)، ص ١٨٦.

(١٦) أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور، بغداد، عني بنشره عزت العطار (القاهرة: مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ١٩٤٩)، ص ٦٨.

(١٧) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار اقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ٢ ج (مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤)، ج ٢، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(١٨) أبو الفرج علي بن الحسين الاصبهاني، الأغاني (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، [د.ت.])، ج ١٠، ص ٥٥.

وكان من المعتاد أن ينظم في أوقات الحرب بريد خاص اضافة إلى البريد الاعتيادي، لتأمين السرعة في ايصال الرسائل وأخبار الحرب وغيرها، بين ميادين المعارك وحاضرة الخلافة. وقد بلغ البريد درجة عالية من التنظيم بحيث كان عماله يوافون الخلفاء، بالأخبار مرة أو مرتين في اليوم. فإذا صلُّوا المغرب وافوهم بما حدث طول النهار، وإذا صلوا الصبح كتبوا إليهم بما جرى في الليل من أمور، مما يسَّر للخليفة أن يقف على كثير مما يحدث في أرجاء الدولة الواسعة.

وكان الخليفة أبو جعفر المنصور أبدى اهتماماً كبيراً بالبريد، وقد وضع نظام خيول النوبة[19]. كما كان المعتصم بالله شديد الاهتمام بشؤون البريد، فقد رتب بريداً خاصاً عندما بعث عجيف بن عنبسة لحرب الزط والقضاء عليهم، بما كفل وصول أخبار الحملة إليه يومياً[20]، بحيث كان على علم مستمر بأخبارها. وكذلك أوعز بتنظيم بريد خاص عندما بعث جيوشه لقطع دابر الخُرَّمِيَّة، مما أمن وصول الأخبار إليه أو أوامره إلى القواد خلال أربعة أيام أو أقل[21]. فكان يطلع على سير المعارك، ويوجه قائد الحملة، وهو في عاصمته سامراء. كما أنه استخدم الحمام لنقل الرسائل في هذا البريد[22].

أورد قدامة بن جعفر نسخة عهد بولاية بريد تتضمن واجبات صاحب البريد، ويعطينا صورة عما صار إليه هذا الديوان من تقدم وتنظيم في نهاية القرن الثالث[23]. وكان البريد خاصاً بمراسلات الدولة، وينقل أحياناً إضافة إلى الرسائل أشخاصاً من رجال الدولة وغيرهم ممن يراد إيصالهم بسرعة. كما يقوم بنقل المواد والأمتعة الخاصة بالخليفة.

وكانت طرق البريد تقسم إلى محطات تسمى السكك، وبين كل سكة وأخرى فرسخان[24]، (الفرسخ ثلاثة أميال). وقد استخدمت للبريد الخيل والجمال وبخاصة الجمازات منها وهي الإبل السريعة الجري. وكانت كل سكة منها مزودة بالخيل وغيرها، وبالراكبين من حملة البريد. وقد يركب حامل البريد الطريق كله، أو انه يسلم البريد إلى حامل آخر ليواصل

---

(١٩) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (مصر: مطبعة الموسوعات، ١٨٩٩)، ص ٢٤٠.

(٢٠) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨)، ج ٩، ص ٨.

(٢١) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥٢.

(٢٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ٥٦.

(٢٣) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٥٠ - ٥٢.

(٢٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ٦٦، وشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥)، ج ١، ص ٣٦.

السير به. كما كانوا يستخدمون بين بعض السكك السعاة من الركاضين المشهورين بسرعة الجري[٢٥].

وقد تضمن كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه احصائيات قيمة عن البريد على عهده. ولهذه الاحصائيات أهمية خاصة لأن واضعها كان يتولى البريد مدة من الزمن، وقد جاء فيه أن عدد سكك البريد تسعمئة وثلاثون سكة، وان نفقات الدواب وأثمانها وأرزاق البنادرة والفرانقيين لسنة واحدة مئة ألف دينار وتسعة وخمسون ألفاً ومئة دينار[٢٦].

٦ ـ ديوان الرسائل

يتولى هذا الديوان تحرير كتب الخليفة وأوامره إلى الولاة والقواد وكبار الموظفين، وكتب التقليد، وتحرير الرسائل السياسية، وهي الكتب التي يوجهها الخليفة إلى ملوك الدول الأجنبية. ويعتبر هذا الديوان من أخطر الدواوين لأن صاحبه يصدر الكتب بعد أن يختم عليها بختم الخليفة، وهو يجلس مع الخليفة إذا ما جلس للنظر في المظالم. ولذلك لا بد أن ينتخب من أرفع طبقات الناس، اضافة إلى كفايته العالية في البلاغة ومختلف العلوم. والشروط التي يلاحظها الخليفة عند اختياره عديدة، وقد أحسن استيعابها عبد الحميد الكاتب في الرسالة المنسوبة إليه والموجهة إلى صنف الكتّاب. فهو بعد أن يمهد لأهمية هذه الوظيفة، يعدّد الصفات التي يجب توفرها فيمن تعهد إليه، وأهمها: أن يكون حليماً مقداماً، مؤثراً للعفاف والعدل، كتوماً للأسرار، قد نظر في كل فن من فنون العلوم وأخذ منه ما يساعده على معرفة ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيُعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيىء لكل وجه هيئته[٢٧].

وكانت هناك نماذج لبعض الكتب المهمة، على صاحب هذا الديوان أن يكون عارفاً بها، لا سيما عهود التعيين الخاصة بالقضاة، وولاية الحرب، وولاية الثغور والبريد. وتتضمن هذه العهود واجبات صاحبها وخطة عمله المرسومة له. وقد ذكر قدامة بن جعفر بعضاً من العهود المذكورة في الفصل الخاص بديوان الرسائل. كما ذكر النويري الأمور التي يجب أن يراعيها الكاتب في كتابة التقاليد والمنشورات وأمثالها، منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال أو لقب صاحب التقليد أو اسمه، بحيث لا يكون المطلع عليها بعيداً عن هذه الأحوال، ثم يستصحب ما يناسب الغرض ويوافق القصد. وأن يراعي المناسبة وما تقتضيه

---

(٢٥) متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٢٦) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، المسالك والممالك، تحقيق ميخائيل دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٨)، ص ١٥٣.

(٢٧) انظر نص الرسالة في: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٧٤ ـ ٧٨، وأبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، ٧ ج (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ١٣٥ ـ ١٣٧.

الحال، فلا يعطي أحداً فوق حدّه، ولا يضعه بأكثر مما يراد لمثله. وأن لا يصف المتولي بما يكون فيه تعريض بالمعزول وتنقص له. وأن يتخير الكلام والمعاني مما يشيع ويذيع[٢٨].

ومن المعتاد أن تحفظ نسخ من كتب الخليفة وأوامره، بعد أن تختم النسخة الأصلية بالشمع وترسل إلى الجهة المطلوبة. ويتولى ديوان خاص حفظ هذه النسخ هو ديوان الخاتم الذي كان يلحق عادة بديوان الرسائل للصلة الوثيقة بينهما.

٧ ـ ديوان التوقيع والدار

مهمة هذا الديوان جمع القصص والرقاع التي ترفع إلى الخليفة، وشرح ما فيها، ورفعها إليه. فإذا وافق الخليفة على ما تضمنه الطلب، أو أبدى ملاحظات حوله، وقّع صاحب هذا الديوان بخطه بما أوعز به الخليفة. وكانت هذه التوقيعات عادة من الجمل المختصرة البليغة. وقد بلغ بعضها الغاية في البلاغة والمعنى. ويطلق على هذا الديوان اسم الحوائج أيضاً.

وكان صاحب ديوان التوقيع يكتب بقرار الخليفة أو ملاحظاته إلى صاحب ديوان الدار، فيكتب ديوان الدار إلى صاحب الديوان الذي يتعلق به موضوع الطلب، فإذا كان ذا علاقة بالخراج مثلاً كتب إلى ديوان الخراج. وذكر قدامة نسخة من نص الكتاب الذي كان يوجه من ديوان الدار إلى الديوان ذي العلاقة.

٨ ـ ديوان المستغلات

يتولى صاحب هذا الديوان ادارة ممتلكات الدولة من العقارات، وربما بعض الأراضي في المدن، وأما عامة الأراضي فلا علاقة له بها. ويتولى صاحب ديوان الضياع ادارة ضياع الخلافة والاشراف على شؤونها وتحصيل ايراداتها والقيام بما تحتاجه من صيانة وتعمير. أما الضياع الخاصة بأفراد الأسرة المالكة فلها شأن آخر.

٩ ـ ديوان الصدقات

تنحصر مهمة هذا الديوان في جباية موارد الزكاة وغيرها من الصدقات وتوزيعها على مستحقيها وفق الأحكام الشرعية. وسنوضح الأحكام الخاصة بما تؤخذ عنه الزكاة، والجهات التي توزع عليها شرعاً، ومواصفات المتولي شؤون هذا الديوان في الفصل الخاص بموضوع مالية الدولة.

---

(٢٨) أبو العباس احمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، [د.ت.])، ج ٧، ص ٢٠٢.

١٠ ـ ديوان المصادرة

كان الخليفة أبو جعفر المنصور قد أحدث هذا الديوان ليتولى تسجيل الأموال المصادرة بأنواعها المختلفة، وأسماء من صودرت منهم، وإدارة ما يتعلق بتلك الأموال. وتدوّن وثائق هذا الديوان بنسختين، إحداهما للوزير والأخرى تحفظ في الديوان. وقد أصبحت لهذا الديوان أهمية خاصة في عهد خلفاء سامراء لكثرة ما صودر من أموال الوزراء والكتّاب والقضاة، لا سيما في عهد المعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله، وفي أيام المعتمد على الله.

١١ ـ ديوان الفضّ

ترد إلى هذا الديوان جميع الرسائل الموجهة إلى الخليفة، فيفضها ويلخص محتواها ليطلع عليها الخليفة ويوقع ما يراه بشأنها. ويقول قدامة إن هذا ما كان الأمر جارياً عليه عندما كان الخلفاء يتولون النظر في الكتب بأنفسهم. أما بعد ان عُهد بذلك إلى الوزراء، فإن الكتب بعد فضها ترسل إلى الوزير. كما انتقل هذا الديوان إلى ديوان الوزير وصار متوليه كاتباً في ديوان الوزير أيضاً يعمل بإمرته.

١٢ ـ ديوان المواريث

أحدث هذا الديوان في عهد المعتمد على الله آخر خلفاء سامراء، بعد أن فرضت ضريبة المواريث[29]. وقد بُرر فرض هذه الضريبة بالاستدلال بما أوصى به رسول الله ﷺ بأن يدفع ميراث من لا وارث له إلى أكبر قبيلته، أي أن للإمام أن يقرر ما يشاء بميراث من لا وارث له. وكانت السنة قد جرت بأن أهل كل ملة يرثون من هو منهم إذا لم يكن للمتوفى وارث من ذوي رحمه. وبفرض هذه الضريبة اعتبرت تركة من لا وارث له ايراداً لبيت المال، مما تطلب إحداث هذا الديوان. ويظهر أن إنشاء هذه الضريبة جاء نتيجة لما أصاب بيت المال من ارهاق بسبب الفتن والحروب الداخلية.

إلا أن هذه الضريبة لم تستمر طويلاً، فقد الغاها المعتضد بالله في سنة ٢٨٣ وأمر بأن يُرد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته، وأن يصرف جميع عمال المواريث في سائر النواحي، ويُرد النظر في أعمال المواريث إلى الحكام على ما لم يزل عليه قبل أيام المعتمد على الله[30].

---

(٢٩) عريب بن سعد الكاتب القرطبي، صلة تاريخ الطبري، تحرير ميخائيل دو غويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٧)، ص ١١٨.

(٣٠) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، ص ١٤، وأبو الحسين هلال بن المحسن الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، [د.ت.])، ص ٢٧٠.

١٣ - ديوان الزِّمام

يتولى الإشراف على الدواوين الأخرى ومرافقها وتدقيق أعمالها، وبخاصة ما يتعلق بالنواحي المالية منها. وهو أشبه بديوان رقابة المحاسبات، أو الرقابة المالية في الدول الحديثة. وقد أحدثه الخليفة المهدي لما رأى ضرورة مراقبة الدواوين في أعمالها[٣١]. وعندما لمس أثره في سير أعمال الدواوين أنشأ ديواناً يجمع دواوين الأزمّة وينظم عملها، هو ديوان زمام الأزمة[٣٢]. ولأهمية دواوين الأزمّة فقد أسس ما يماثلها في بعض الولايات كولاية الشام مثلاً[٣٣].

١٤ - دواوين أخرى

وكانت هناك دواوين أخرى محدودة الواجبات كديوان الموالي والغلمان الذي استحدث في عهد سامراء وأشار إليه اليعقوبي عندما ذكر الدواوين التي نقلت إلى مدينة المتوكلية عند تأسيسها، مما سبقت الإشارة إليه. ويظهر أن الحاجة ظهرت إليه في أيام المعتصم بالله الذي أكثر من شراء الموالي الأتراك، ليتولى شراءهم والنظر في شؤونهم المختلفة. وديوان الأحشام، المسؤول عن شؤون الموظفين ومن هم في خدمة دار الخلافة[٣٤]. وديوان الطراز، الذي يشرف على شؤون دور الطراز التي تقوم بنسج وخياطة ووشي الملابس والشارات الرسمية لدار الخلافة، وعمل الأعلام.

ثانياً: الولايات والأقاليم

١ - ولايات الدولة العربية

يتضح مما ذكره ابن الأثير عن الولايات في عهد أبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين، ان عدد ولايات الدولة العربية كان اثني عشرة ولاية[٣٥] هي: ولاية الموصل، ولاية الجزيرة، ولاية الكوفة، ولاية البصرة، ولاية الشام، ولاية مصر، ولاية فارس، ولاية خراسان، ولاية السند، ولاية اذربيجان، ولاية ارمينيا، ولاية الجبال. ويظهر من جدول جباية الدولة على عهد المأمون، كما أورده ابن خلدون أن عدد الأقاليم كان واحداً وثلاثين اقليماً[٣٦]. وبقي ترتيب هذه الأقاليم بعد انتقال مركز الخلافة إلى سامراء، وذلك حسبما يظهر

(٣١) الطبري، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٤٢، والجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١٤٦.
(٣٢) الجهشياري، المصدر نفسه، ص ١٦٦.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨.
(٣٤) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة (بغداد: مطبعة نجيب، ١٩٥٠)، ص ١٩٩.
(٣٥) أبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٣ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥ - ١٩٦٧)، ج ٥، ص ٣١٣ - ٣٤٥، وجرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٢)، ج ١، ص ٩٦، ويضيف الحجاز واليمامة واليمن.
(٣٦) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٩٨ - ٩٩.

من جداول الجباية على عهد المعتصم بالله، التي ذكرها قدامة بن جعفر عدا بعض التغييرات. فقد أدمجت بعض الأقاليم بغيرها، وأحدثت ولايات جديدة تضم أقاليم أخرى، بحيث أصبح عدد الأقاليم اثنين وأربعين اقليماً[٣٧]. إلا أن هذه الأقاليم لم يكن كل منها ولاية، لأن بعض الولايات كانت تتألف من عدة أقاليم، مثل ولاية الجبل أو الجبال التي كانت تضم الأقاليم التالية[٣٨]: همدان، الري، اصبهان، ماه الكوفة (الدينور)، ماه البصرة (نهاوند)، قم، قاشان، شهرزور، حلوان. كما كانت ولاية خراسان تضم الأقاليم الاسلامية شرقي المفازة الكبرى. مما يمكن القول إن الولاية كانت الوحدة الادارية الرئيسة، والاقليم وحدة ادارية ثانوية. وبهذا كانت ولايات الدولة العربية في القرن الثالث كالآتي:

أ ـ ولايات المشرق

وهي ولايات القسم الشرقي من الدولة، وفيما يلي موقع كل من هذه الولايات مع قواعدها وأهم مدنها:

(١) ولاية السواد

وتشمل هذه الولاية القسم الجنوبي من سهل ما بين النهرين، أي بلاد بابل القديمة. وأهم مدن السواد، بغداد وسامراء والكوفة وواسط والبصرة، وهي المدن التي أسسها العرب بعد تحرير هذه المناطق، وأحدثها سامراء. كما كان من مدنها الأخرى، المدائن وميسان والأنبار والحيرة.

وبغداد هي مدينة السلام بناها أبو جعفر المنصور في الجانب الغربي من نهر دجلة، وبنى لابنه المهدي في الجانب الشرقي الذي كان يدعى عسكر المهدي لأن المهدي عسكر فيه حين أخرجه أبوه إلى الري. وكان المنصور ابتاع أرض مدينة السلام واقطع أهل بيته وقواده وجنده وكتّابه. وجعل مجمع الأسواق بالكرخ وأمر التجار فابتنوا الحوانيت، وكان بناؤها سنة ١٤٥. وقد لعبت بغداد، ولا تزال، دوراً خطيراً في تاريخ الأمة العربية، وكانت وما زالت مركزاً للحضارة العربية الاسلامية. وبقيت بغداد عاصمة للدولة حتى أيام المعتصم بالله، فبنى سامراء وانتقل إليها واتخذها عاصمة للدولة في سنة ٢٢٢ وظلت حاضرة للخلافة حتى سنة ٢٧٩ حينما عاد المعتضد بالله إلى مدينة السلام، فهُجرت سامراء.

أما الكوفة فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب إلى سعد بن أبي وقاص قائد الجبهة الشرقية للفتوح العربية، يأمره أن يتخذ للمسلمين دار هجرة، وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً. فأتى سعد موضع الكوفة ـ بقرب مدينة الحيرة ـ فاختطها، واقطع الناس المساكن فبنوها، وأنزل القبائل منازلهم، وبنى مسجدها، وذلك في سنة ١٧. ولما تولى

---

(٣٧) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

(٣٨) زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٢، ص ٤٣.

المغيرة بن شعبة على الكوفة وسّع مسجدها. إلا أن زياد بن أبيه عندما ولي عليها أحكم بناء المسجد وبنى دار الامارة[39].

وأحدث الحجاج مدينة واسط في سنة ٨٤ وبنى مسجدها وقصر الامارة. وكانت واسط أرض قصب فسميت واسط القصب[40]. وكانت من المدن الرئيسة في القرن الثالث، وكثيراً ما كان يقيم فيها الموفق المتسلط على أخيه المعتمد على الله، فكانت تبدو كأنها العاصمة الثانية إلى جانب سامراء.

ولما نزل القائد عتبة بن غزوان منطقة الخزينة جنوبي السواد، استأذن الخليفة عمر بن الخطاب في أن يختط فيها مدينة فأذن له. فبنى دار الامارة، وبنى الناس مساكنهم من القصب. وبنى عتبة مسجداً من القصب أيضاً. ولما تولى أبو موسى الأشعري في سنة ١٦ ولاية البصرة اختط الناس وبنوا المنازل، وبنى أبو موسى دار الإمارة باللبن والطين. ولما تولى زياد بن أبيه عليها زاد في المسجد زيادة كبيرة وبناه بالآجر والجص وسقّفه بالساج. ثم وسع المسجد ثانية في عهد المهدي وابنه هارون الرشيد فأضيف إليه عدد من البيوت وجدد بناؤه[41].

(٢) ولاية الجبال

وتسمى ولاية الجبل أيضاً، وهي تقع شرقي ولاية السواد، وتشتمل على بلاد مادي القديمة، وتتكون من مناطق جبلية، ولهذا أطلق البلدانيون العرب عليها اسم اقليم الجبال[42]. وأهم مدن هذه الولاية همدان - وهي اكتبانا القديمة عاصمة مادي - وتعتبر قاعدة الولاية. والري وهي أكبر مدن الولاية وقد جدد الخليفة المهدي بناءها بعد أن خسفت المدينة القديمة، وجعل لها خندقاً، وبنى بها مسجداً جامعاً، وذلك في سنة ١٥٨، وأنزل بها بعض القبائل العربية[43]. ثم اصبهان، والدينور، وقم وهي مدينة استحدثها العرب ولم يكن للعجم أثر فيها، مصّرها طلحة بن الأحوص الشعري، وأصلها سبع قرى فتحها العرب فعمروها واستوطنوها وسميت باسم أكبر تلك القرى كمندان، فأسقطوا بعض حروفها، فسميت بعد تعريبها قماً[44]. ثم مدينة نهاوند وهي تماثل همدان فتحت عنوة بعد معركة نهاوند

---

(٣٩) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، راجعه وعلّق عليه رضوان محمد رضوان (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، [د.ت.])، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٤٢ - ٣٤٤.

(٤٢) غي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية: يتناول صفة العراق والجزيرة وإيران وأقاليم آسيا الوسطى منذ الفتح الاسلامي حتى أيام تيمور، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٤)، ص ٢٢٠.

(٤٣) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣١٥ - ٣١٦؛ وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ١١٧ - ١١٨.

(٤٤) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٩٧.

في سنة ٢١ وهي من فتوح أهل الكوفة، ولما صُيِّرت الدينور لهم، وهي من فتوح أهل البصرة، عوَّض البصريون نهاوند فسميت ماه البصرة، وسميت الدينور ماه الكوفة، وذلك في أيام معاوية بن أبي سفيان(٤٥). ومدينة قزوين وهي مدينة كبيرة فتحت صلحاً في أيام عثمان بن عفان، واتخذها العرب قاعدة لغزو الديلم. وقد بنى بها هارون الرشيد جامعاً وسوَّرها وحط عنها الخراج لقاء مبلغ سنوي مقطوع قدره عشرة آلاف درهم، لأهميتها في صد هجمات القبائل التركية(٤٦).

(٣) ولاية خوزستان

وهي ولاية الأحواز، وتقع جنوبي شرقي ولاية السواد، محصورة بين اقليم الجبال من الشمال والخليج العربي من الجنوب. أهم مدنها الأحواز وهي قاعدة الولاية، وتُستر وهي أكبر مدنها واسمها القديم ششتر، وبعض الناس يجعلها من البصرة لقربها منها، ومنها الهرمزان الذي استحياه عمر بن الخطاب فتواطأ مع أبي لؤلؤة على قتل الخليفة(٤٧).

(٤) ولاية فارس

يمتد هذا الإقليم على الساحل الشرقي للخليج العربي بين ولاية الأحواز في الغرب واقليم كرمان في الشرق. وأهم مدنه شيراز قاعدة الولاية وقد مصَّرها العرب إذ اتخذوا موضعها معسكراً لهم عند فتح بلاد فارس(٤٨). ومن المدن المهمة الأخرى اصطخر وهي مدينة قديمة، ويَزد وأرَّجان.

(٥) ولاية كرمان

يقع هذا الاقليم شرقي اقليم فارس، وأهم مدنه السيرجان التي كانت قاعدة الولاية منذ الفتح العربي حتى منتصف القرن الرابع وكانت تسمى القصرين(٤٩). ثم كرمان وقد سماها العرب بروسير، وهرمز وهي فرضة الاقليم عند مدخل الخليج العربي. وقد افتتح كرمان مجاشع بن مسعود عنوة ففر كثير من أهلها فركبوا البحر وأتى بعضهم سجستان، فاقطع العرب منازلهم وأراضيهم واحتفروا القنوات وعمروها(٥٠).

---

(٤٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣١٣، والبلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٤٦) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣١٩، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٣.

(٤٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩ ـ ٣١.

(٤٨) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية: يتناول صفة العراق والجزيرة وإيران وأقاليم آسيا الوسطى منذ الفتح الاسلامي حتى أيام تيمور، ص ٢٨٤.

(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٨٨، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٩٥.

(٥٠) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٦) ولاية مكران

هذه الولاية امتداد للمفازة الكبرى نحو الجنوب، وأهم مدنها قصدار أو قُـزدار[٥١]، وتيز، وهي فرضة الولاية على الخليج العربي.

(٧) ولاية ارمينيا

وهي بلاد تكتنفها الجبال المنيعة، تقع شمالي ولاية اذربيجان، وقاعدتها دَبِيل، وتطل عليها جبال ارارات التي ينبع منها نهر الفرات. وقد افتتح اغلب مدن أرمينيا في أيام عثمان بن عفان[٥٢]. ويقسمها البلدانيون إلى أربعة أقسام[٥٣] هي: أرمينيا الأولى وتشمل السِّيسَجان وأرّان، وتفليس، وبرذعة، والبيلقان، وشردان. وأرمينيا الثانية وتشمل جُـرْزان، وصُغدبيل، واللكُز. وأرمينيا الثالثة وتشمل دبيل ونشوى. وأرمينيا الرابعة وتشمل شمشاط وخلاط وقاليقلا . وقيل هي ارمينيتان: الكبرى خلاط ونواحيها، والصغرى تفليس ونواحيها[٥٤].

(٨) ولاية اذربيجان

وهي بلاد جبلية يحدها شرقاً بحر الخزر، وغرباً الجزيرة، وشمالاً ارمينيا، وجنوباً اقليم الجبال. فتحها المغيرة بن شعبة عنوة في سنة ٢٢، ونزلت فيها بعض القبائل العربية وغلب كل قوم على ما أمكنهم[٥٥]. وأهم مدنها تبريز وكانت قرية صغيرة حتى نزلها محمد بن الرواد الأزدي المتغلب على أذربيجان في أيام المتوكل على الله، ثم ان الوجناء بن الرواد واخوته بنوا فيها قصوراً فنزلها الناس واتسعت[٥٦]، وأصبحت قاعدة للولاية. ثم أردبيل وكانت قصبة الولاية قبل الفتح العربي[٥٧]. ومَرَنْد وقد حصنها محمد بن البعيث لما خرج في أيام المتوكل على الله[٥٨]. ووَرْثان التي بناها مروان بن محمد عندما كان والياً على ولاية اذربيجان[٥٩]. والمراغة التي بناها مروان بن محمد كذلك في أيام ولايته، ثم بنى خزيمة بن خازم أحد قواد هارون الرشيد لها سوراً وحصّنها[٦٠].

---

(٥١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٣.

(٥٢) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٢٠٠، وأحمد بن محمد بن الفقيه الهمداني، مختصر كتاب البلدان، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٥)، ص ٢٩٢.

(٥٣) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٩٧؛ ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٢٢، والهمداني، المصدر نفسه، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٥٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٠.

(٥٥) البلاذري، المصدر نفسه، ص ٣٢٢، والهمداني، المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٥٦) الهمداني، المصدر نفسه، ص ٢٨٥، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣.

(٥٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٥.

(٥٨) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٠.

(٥٩) الهمداني، المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٩) ولاية الران

يعتبر اقليم الران جزءاً من ارمينيا ، كما أشرنا آنفاً، وهو يشغل المثلث المحصور بين نهري الكر والرس، وقصبته برذعة وهي أكبر مدن الاقليم(٦١). وأهم مدنه الأخرى البيلقان، وشمكور التي أعاد بناءها القائد بغا وسماها المتوكلية في سنة ٢٤٠(٦٢) في أيام المتوكل على الله.

(١٠) ولاية الديلم

وقد سماها العرب الجيل أو جيلان، وتقع غربي طبرستان جنوبي بحر الخزر، وتشغل القسم الرسوبي من المنطقة. ويقول ياقوت إن الجيل هم أهل جيلان(٦٣)، وأهم مدن الاقليم روباذ ولاهجان.

(١١) ولاية طبرستان

تشمل هذه الولاية المنطقة الجبلية الممتدة على الساحل الجنوبي لبحر الخزر، وأهم مدنها سارية وهي قاعدة الولاية، وقد اتخذها الحسن بن زيد العلوي قاعدة له عندما تغلب على طبرستان(٦٤). ثم مدينة آمل، ومدينة شالوس.

(١٢) ولاية جُرجان

يمتد هذا الإقليم شرقي بحر الخزر، وهو محصور بين البحر، وولاية خراسان وكان يُلحق بها أحياناً. وقاعدته مدينة جرجان وهي أكبر مدنه. وقيل إن أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة(٦٥). ومن مدنها المهمة استراباذ.

(١٣) ولاية خراسان

كان اسم خراسان يطلق على جميع الولايات الاسلامية الواقعة شرقي المفازة الكبرى حتى جبال الهند، وتنتهي حدودها الشمالية الشرقية عند نهر جيحون، أي انها كانت تشمل جميع بلاد ما وراء النهر عدا سجستان. وكانت قاعدة الولاية مدينة مرو قبل أن ينتقل منها الطاهريون إلى نيسابور التي تقع غربيها. وقد أقام الخليفة المأمون في مرو عندما كان بخراسان. ويقول ياقوت الحموي إنه كان بها على أيامه (٥٧٤ ـ ٦٢٦) عشر خزائن للكتب الموقوفة، وانه استفاد من كتبها، وأكثر مؤلفاته كانت مما جمعه من تلك الخزائن(٦٦). وأهم مدن خراسان الأخرى طوس التي دفن بها هارون الرشيد والإمام علي الرضا، ثم هجرت بعد

---

(٦١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٩.
(٦٢) الهمذاني، المصدر نفسه، ص ٢٩٣.
(٦٣) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠٢.
(٦٤) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٢٧٤.
(٦٥) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٩.
(٦٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٤.

ذلك وقامت بدلاً عنها مدينة مشهد. ثم مدينة هراة، وبلخ التي يقال إن الاسكندر المكدوني بناها، وكانت تسمى الاسكندرية[٦٧].

(١٤) ولاية قومس

يقع هذا الاقليم بين ولاية طبرستان من الشمال والمفازة الكبرى من الجنوب، وقاعدته الدامغان وهي مدينة كبيرة تحيط بها الجبال. وأهم مدنه الأخرى بسطام. وقد فتح العرب اقليم قومس عنوة بعد أن تم لهم فتح الري[٦٨].

(١٥) ولاية سجستان

كان اسم الولاية قديماً سيستان، وسماها العرب عند فتحها سجستان، وتُسمّى سجز أيضاً[٦٩]. تقع هذه الولاية شمالي اقليم مكران، وتحدها ولاية خراسان من الشمال وولاية السند من الشرق. أهم مدنها زَرَنج وهي قاعدتها، وبُست وقندهار. وفي هذه الولاية قامت امارة الصفاريين شبه المستقلة (٢٥٣ ـ ٢٩٩). وقد فتح سجستان عاصم بن عدّي التميمي في أيام عمر بن الخطاب[٧٠].

ب ـ ولايات ما وراء النهر

أطلق البلدانيون هذا الاسم على الأقاليم الممتدة وراء نهر جيحون، وأطلقوا عليها أحياناً اسم «الهيطل»، والهياطلة سكانها وهم أقوام تركية. وهي تشتمل على ستة أقاليم، ثلاثة منها هي أقاليم نهر جيحون، وهي: خوارزم، والصُغد، والصَغانيان. وثلاثة هي أقاليم نهر سيحون، وهي: فرغانة، والشاش، وأشروسنة.

ويقع اقليم خوارزم جنوبي بحيرة خوارزم ويشغل دلتا جيحون، وكانت له قاعدتان، الأولى الجرجانية وتقع على الجانب الغربي من النهر واسمها القديم أركنج. ويقول ياقوت الحموي إن أهل خوارزم يسمونها كركانج فعربت إلى الجرجانية[٧١]. والأخرى يقال لها كاث في الجانب الشرقي من النهر، وأهم مدن الاقليم الأخرى زمخشر، وخيوه.

ويشمل اقليم الصغد الأراضي الخصبة بين نهري سيحون وجيحون، وأهم مدنه سمرقند وهي قاعدته، وقد اشتهرت بصناعة الورق مبكراً، وكانت تصنع فيها أنواع مختلفة جيدة منه. وبخارى وهي من أعظم مدن ما وراء النهر وبناؤها خشب مشبّك[٧٢].

---

(٦٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.
(٦٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣١٤.
(٦٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٩.
(٧٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٣٨.
(٧١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٢.
(٧٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.

ويقع اقليم الصغانيان جنوبي شرقي اقليم الصغد في أعالي نهر جيحون. وأهم مدنه الصغانيان وهي قاعدة الاقليم وهي كثيرة القرى وتتميز برخص العيش وسعته، وترمذ أشهر مدن الاقليم وأكثرها عمراناً(٧٣).

ويمتد اقليم فرغانة على ضفاف نهر سيحون الشمالية وقاعدته مدينة فرغانة التي كانت تسمى قديماً آخسيكث(٧٤). ويقع شماله اقليم الشاش وقاعدته مدينة الشاش التي تعتبر أوسع مدن ما وراء النهر وأكثرها عمارة، وهي ثغر مهمّ في مواجهة القبائل التركية(٧٥)، وتسمى اليوم طشقند. أما اقليم أشروسنة فيقع غربي الشاش وفرغانة وقاعدته مدينة أشروسنة ويقال لها بُنْجُكيث، ومن مدنه الأخرى زامين وهي مدينة قديمة جداً، وتسمى كذلك سيذه(٧٦).

ومن الجدير بالإشارة أن الغالبية العظمى من الموالي والغلمان الأتراك الذين استخدموا في الجيش العربي كانوا من ولايات ما وراء النهر: الصغد وفرغانة والشاش واشروسنة:

ـ ولاية السند

وتعتبر ولاية السند آخر حدود الدولة العربية من جهة الشرق وقاعدتها المنصورة، وقد بناها منصور بن جمهور الكلبي في العهد الأموي(٧٧). ومن مدنها الأخرى الديبل وتقع على ساحل البحر، والمُلتان التي افتتحها محمد بن القاسم في أيام الوليد بن عبد الملك(٧٨).

ج ـ ولايات المغرب

هي الولايات الواقعة في القسم الغربي من الدولة العربية، وهي:

(١) ولاية الجزيرة

وهي القسم الشمالي من وادي الرافدين وتشتمل على الأراضي المحصورة بين النهرين، ويفصلها في حدها الجنوبي عن السواد تكريت على دجلة والأنبار على الفرات. وتحتوي على ديار ربيعة الممتدة على ضفاف دجلة الغربية وقاعدتها الموصل. وديار مضر الممتدة على جانبي الفرات وقاعدتها الرقة، وتقع عند مصب نهر البليخ في الفرات.

وقد تم فتح الجزيرة كلها على عهد عمر بن الخطاب، وأكثرها فتح صلحاً على يد

---

(٧٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.
(٧٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٣.
(٧٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٧٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٢٨.
(٧٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١١، والبلاذري، المصدر نفسه، ص ٤٣١، وفيه: بناها عمرو بن محمد بن القاسم.
(٧٨) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٨.

القائد عياض بن غُنم الذي فتح حران والرُّها والرقّة وقرقيسيا ونصيبين وسنجار[٧٩]. وكان الخليفة عمر بن الخطاب ولّى عتبة بن فرقد السلمي الموصل في سنة ٢٠ فقاتل أهل نينوى واستولى على حصنها، ثم عبر دجلة فصالحه أهل الحصن الآخر على الجزية. ولما تولى الموصل هرثمة بن عرفجة البارقي كان بها بِيَع ومنازل فمصَّرها هرثمة وأنزل العرب فيها واختط لهم، وبنى المسجد الجامع. وولى عبد الملك بن مروان ابنه سعيداً على الموصل فبنى لها سوراً حصيناً[٨٠].

وتعتبر الموصل احدى قواعد بلاد الاسلام كبراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة، وتعتبر باب العراق، وهي تصل بينه وبين الجزيرة[٨١].

أما الرَّقّة فهي مدينة مشهورة على الفرات فتحها عياض بن غنم صلحاً. وهي ذات بساتين كثيرة، وتتمتع بمناخ طيب وبخاصة في الصيف، وقد بنى فيها هشام بن عبد الملك قصرين[٨٢]. كما كان يقصدها في الصيف بعض خلفاء بني العباس.

(٢) شبه جزيرة العرب

وكانت شبه جزيرة العرب تقسم إلى عدد من الولايات هي: الحجاز وأهم مدنها مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف. ويمتد الحجاز على الساحل الشرقي لبحر القُلْزُم. ثم اليمن وحضرموت ومَهْرة وتؤلف القسم الجنوبي من شبه الجزيرة، وتمتد على ساحل البحر العربي. ثم عُمان واليمامة والبحرين، وتكوِّن القسم الشرقي من شبه الجزيرة وتمتد على ساحل الخليج العربي. ثم نجد، وهي الهضبة الوسطى من شبه الجزيرة، ثم البادية التي تؤلف القسم الأعظم من شبه الجزيرة، وبالنظر لسعتها قسمها البلدانيون إلى القسم الشمالي ويسمى بادية الجزيرة، والقسم الجنوبي وهو بادية العراق، والقسم الغربي وهو بادية الشام.

(٣) بلاد الشام

ويقصد بها سوريا الطبيعية، وكانت تضم خمسة أجناد هي: (جند دمشق) وقاعدته مدينة دمشق، وهي مدينة قديمة اشتهرت بعد الفتح الاسلامي بجامعها الذي بناه الوليد بن عبد الملك، وكان ابتدأ بعمارته في سنة ٨٧ وقد استعظم الناس ما أنفقه عليه، وكان يعمل فيه عشرة آلاف عامل مدة تسع سنين[٨٣]. ثم (جند فلسطين) وقاعدته مدينة الرملة، وكانت

---

(٧٩) البلاذري، المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٨١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٣، ويقول ان الذي بنى سورها هو مروان بن محمد.

(٨٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٨٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦، واحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ٢، ص ٢٨٤، وفيه أنه ابتدأ بعمارته سنة (٨٨).

مدينة عظيمة اختطها ومصّرها سليمان بن عبد الملك، وكانت رباطاً مهماً لغزو المسلمين. وقد اضطر صلاح الدين الأيوبي إلى تخريبها خوفاً من استيلاء الافرنج عليها[84]. و(جند الأردن) وقاعدته مدينة طبريا، وهي مدينة صغيرة تطل على بحيرة طبريا. و(جند حمص) وقاعدته مدينة حمص، وهي بلدة واسعة قديمة، وكانت مسورة ولها قلعة حصينة[85]، وبها قبر القائد العربي خالد بن الوليد، وهي تقع بين دمشق وحلب. ثم (جند قنّسرين) وقاعدته مدينة حلب، وهي مدينة قديمة، ويقال إن الذي بناها هو سلوقس بعد موت الاسكندر بقليل، كما يقال إن العمالقة الذين خرجوا من غور الأردن قصدوا تلك الناحية وبنوا مدينة حلب لتكون حصناً لهم. وقد اشتهرت قلعتها التي بنيت على تل عال يحيطها خندق عظيم، وكان الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي قد جدّد عمارتها وحفر خندقها[86].

(٤) ولاية مصر

كانت تشمل اضافة إلى بلاد مصر، البُجَة والنوبة، أي ما يسمى ببلاد السودان اليوم. وأهم مدن الولاية الفسطاط وهي قاعدتها، ثم الاسكندرية ودمياط والفيوم وتنِّيس. وكان الموضع الذي نصب فيه عمرو بن العاص فسطاطه لما فتح مصر قد سمّي بالفسطاط، ثم خططه وبنى فيه مدينة عرفت بالاسم نفسه، وبقي ولاة مصر ينزلونها. ويظهر أنها بقيت عامرة حتى القرن الخامس[87].

أما الاسكندرية فهي مدينة قديمة جدد بناءها الاسكندر المكدوني، وهي الميناء الرئيس لمصر. فتحها عمرو بن العاص في سنة ٢٠، وقد اشتهرت بمنارتها.

ودمياط مدينة قديمة أيضاً على زاوية بين النيل والبحر المتوسط، وكانت من الثغور العربية في القرن الثالث، وقد اشتهرت آنذاك بصناعة النسيج وبخاصة الثياب الرفيعة الجليلة القدر مثل القصب والشرب والقلمون. وقد هاجمها الروم أيام المتوكل على الله، فأمر والي مصر أن يبني لها حصناً منيعاً وأن ينشيء أسطولاً بحرياً للدفاع عنها وعن سواحل مصر.

والفيُّوم مدينة قديمة أسست في أيام الفراعنة، وتقع في منطقة زراعية تكثر فيها المزارع والبساتين. أما تنِّيس فهي جزيرة في بحيرة تنِّيس بين الفرما ودمياط، اشتهر ملاحوها بمهارتهم فكانوا يقلعون بريح واحدة في جهتين مختلفتين. فتحها عمرو بن العاص، وسماها العرب ذات الأخصاص لأن بيوتها كانت خصاصاً من قصب. ثم عُمِّرت وشيد لها سور في ولاية عنبسة بن اسحاق أيام المتوكل على الله[88]. وكانت في هذا القرن من أهم المدن الصناعية في

(٨٤) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٦٩ - ٧٠.
(٨٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠٣.
(٨٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣ - ٢٨٦.
(٨٧) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦٣ - ٢٦٥.
(٨٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١ - ٥٢.

مصر، اشتهرت بصناعة المنسوجات الكتانية، وكان أكثر أهلها حاكة، وقد أشرنا إلى أهميتها في الباب الخاص بالصناعة.

(٥) ولاية افريقيا

أطلق العرب اسم افريقيا على ساحل افريقيا الشمالي المقابل لجزيرة صقلية. ويقول ياقوت الحموي إنهم سموها بهذا الاسم لأنها فرّقت بين مصر والمغرب. ولما ولى عثمان بن عفان عبد الله بن أبي سرح على مصر أمره بفتح افريقيا وأمده بجيش ففتحها عنوة سنة ٢٩ وتعاقب عليها عدد من الولاة كابدوا كثيراً من اضطراباتها وخروج قبائلها حتى أيام هارون الرشيد فأقطعها لابراهيم بن الأغلب الذي أسس امارة بني الأغلب واستمرت حتى أواخر القرن الثالث.

وأهم مدن افريقيا بعد تونس مدينة القيروان التي اتخذها بنو الأغلب أول أمرهم قاعدة لهم. وكان قد أسسها عقبة بن نافع في سنة ٤٨ وبنى جامعها[٨٩].

ثالثاً: ادارة الولايات

١ ـ امارة الولاية

يقسم الماوردي امارة الأمصار إلى نوعين: امارة عامة، وامارة خاصة. والامارة العامة قد تكون امارة استكفاء أو امارة استيلاء. وامارة الاستكفاء، وتسمى امارة التفويض أيضاً، هي التي يعقدها الخليفة لمن يختاره فيفوض إليه ولاية بلد أو إقليم ويجعله عامَّ النظر في جميع شؤونه، ويمنحه صلاحيات مطلقة تقترب من صلاحيات الخليفة نفسه، بحيث يتولى تدبير أمور الجيش من حيث تنظيمه والانفاق عليه، والنظر في الأحكام، وتقليد القضاة، وجباية الخراج، وقبض الجزية، والزكاة والصدقات، وتقليد من دونه من العمال والموظفين. وعليه كذلك حماية الدين وإقامة الحدود الشرعية، وتدبير أمور الحجاج من ولايته ومن يمر بها منهم، والإمامة في صلوات أيام الجمع والأعياد. وإذا كان بلده متاخماً للعدو وجب عليه جهاد ذلك العدو[٩٠]. وكان كل أمير مفوض يتصرف في ادارة إمارته تصرف الحاكم المستقل بجميع شؤونها الداخلية، فيجبي الأموال وينفق منها ما تحتاجه امارته من نفقات الجيش، وأرزاق الموظفين، واصلاح السدود، وحفر الترع والأنهار، وغير ذلك من أوجه الانفاق، ثم يبعث بما يتبقى لديه إلى بيت المال في حاضرة الخلافة.

---

(٨٩) حول افريقيا، انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٨ ـ ٢٣١، وحول القيروان، انظر: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٩٠) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٩)، ص ٢٤ ـ ٢٥.

أما امارة الاستيلاء فهي التي يعقدها الخليفة مضطراً لأحد الأمراء على اقليم ما ويفوض إليه أمر ادارته، بعد أن يكون ذلك الأمير قد تغلب بالقوة على الاقليم. فيكون هذا الأمير مستقلاً عن الخليفة فعلاً وتابعاً له اسماً. فلا يربطه به سوى اعتراف الخليفة بامارته، واعترافه هو مقابل ذلك بسلطة الخليفة الدينية وما يتبع ذلك من مراسم، كالدعاء للخليفة في خطبة الجمعة والعيدين، وضرب السكة باسمه، وتقديم الهدايا إليه في المناسبات. وعلى الأمير بالاستيلاء أيضاً أن يستلزم بحفظ منصب الخلافة وحماية الدين واقامة الحدود الشرعية، كما يتعهد بنصرة الخليفة إذا ما استعان به لحرب العدو أو لاخضاع فتنة أو اضطرابات داخلية، وان لا يستولي على الأموال إلا ما كان مشروعاً منها[91].

وكان هذا النوع من الامارة سبيلاً لقيام امارات شبه مستقلة في أنحاء مختلفة من الدولة العربية. وسنوضح فيها بعد العوامل التي كانت تؤدي إلى قيام مثل هذه الامارات ونشرح علاقاتها بالخلافة.

أما الامارة الخاصة فهي أن يقتصر تعيين الوالي على أمور الجيش وتدبير شؤون الناس وأمنهم وحماية الدين. أما أمور القضاء وجباية الخراج وأموال الجزية والصدقات فإن الخليفة يعين الموظفين المختصين بذلك إلى جانب الوالي المذكور[92].

لقد كان ما ذكرناه من أنواع الإمارة هو الأسلوب المتبع في العهد العباسي في هذا القرن. إذ كان الخلفاء يفوضون العمال في الأقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان وافريقيا تفويضاً عاماً، فيكونون شبه مستقلين عن الخلافة. وكانوا يفوضون أحياناً بعض أفراد أسرتهم كأولادهم وإخوتهم أو أحد كبار قوادهم امارة إحدى الولايات النائية أو أكثر. وقد جرت العادة أن يرسل هذا خليفة عنه أو أكثر لادارة شؤون الولاية أو الولايات التي فوض إمارتها، ويوليه عليها ولاية خاصة. ويبقى هو في منصبه الأصلي قريباً من الخليفة.

٢ ـ تعيين الولاة

كان على رأس كل ولاية من ولايات الدولة العربية رجلان، أولهما الأمير، والثاني العامل الذي يسمى عادة صاحب الخراج لأن واجبه حمل صافي خراج الولاية إلى بيت المال في العاصمة. وكان العامل يخاطب في المراسلة كما يخاطب الأمير، كما أن منشورات الخليفة أو الوزير ترسل إلى كل منهما في وقت واحد. ولكن الأمير يمتاز على صاحبه العامل بأنه له الصلاة بالناس ويُدعى له في خطبة الجمعة والعيدين بعد الدعاء للخليفة. وهذا مما يجعله رئيس المسلمين جميعاً في ولايته. فقد كانت ولاية مصر مثلاً يتولاها واليان أحدهما للحرب والصلاة، والآخر للخراج، حتى إذا جاء أحمد بن طولون أميراً عليها جمع بين الولايتين واصبح مستقلاً بشؤون ولايته.

---

(٩١) المصدر نفسه، ص ٢٧ ـ ٢٩.
(٩٢) المصدر نفسه، ص ٢٦ ـ ٢٧.

وعندما يعين أحد الولاة على إحدى الولايات فإنه يحمل معه عهد ولايته، وعند تسلمه العمل من سلفه يجمع الناس في المسجد الجامع ويقرأ عليهم عهد تعيينه[٩٣]. ويتضمن عهد الولاية صلاحيات الوالي ونطاق عمله ولا سيما في أمور الجباية، منعاً للتعسف في جمع الأموال. إلا أن الولاة قلّما كانوا يلتزمون بتلك الحدود، فكانوا أميل إلى التعسف والتعنّت. فعندما عين محمد بن داود بن عيسى في سنة ٢٢١ والياً على مكة والمدينة، جاء في عهد تعيينه «أن يأخذ من الذهب الذهب ومن الفضة الفضة ومن الحب الحب ومن الغنم الحافر ومن الابل الخف». وعندما حلّ موسم الجباية ولى رجلاً من بني جُمَح أمر الجباية في سكسك وبني عامر، فأحصى ماشيتهم وفرض عليهم أن يؤخذ عن كل فريضة دينار. فامتنعوا عليه واتهموه بأنه خارجي يريد أن يغتصب أموالهم. وأوضحوا له أن عهد الوالي نص على أن يكون من كل فريضة شاة وغاية ثمنها سبعة إلى ثمانية دراهم. فحاربهم وحاربوه حتى قتل. ولما بلغ الوالي الخبر دعا أخا الجمحي وولاه أمر الجباية مكان أخيه وأذن له أن يسخر الأعراب وغيرهم ويستعين بهم على إرغام العصاة. فخرج هذا واستباح الحيين المذكورين[٩٤].

وأورد قدامة بن جعفر نماذج من عهود تعيين الولاة. فقد جاء في نسخة عهد بولاية المعونة والحرب[٩٥]: بأن الخليفة لم يولّه ما ولاّه إلاّ رجا أن يكون عنده من الضبط والكفاية ما يرد به أهل العبث والفساد، وتصلح معه الرعية والبلاد، ويأمره أن يتجنب مساخط الله ومحارمه، ويكفّ جنده وموظفيه وحاشيته عن ظلم أحد من الرعية، وأن يقارع أعداء الله في البلاد، وأن يرعى الجند ويتفقد شؤونهم ويهتم بسلاحهم ودوابهم، ويمنعهم من النزول على أحد الرعية في منزله إلا بإذنه وطيب نفسه، وأن لا يأخذ أي شيء إلا بثمن. وأن يتعهد الثغور، ويحترس من وقوع الخلل فيها، ويتفقد من في الحبوس فيطلق الأبرياء أو من كان جرمه لا يوجب إطالة حبسه. وأن لا يأخذ أحداً بشبهة قبل أن تظهر الدلائل البينة على جرمه. وعلى أن لا يمضي حداً أو ينفذ حكماً في قود أو قصاص إلا بعد أن يستطلع رأي الخليفة فيه. ويأمره أن يقرأ هذا العهد على من قِبَله ويعلمهم حسن رأي الخليفة بهم، وأنه يتوخى صلاحهم وتأمين العدل لهم.

كما أورد قدامة نسخة عهد لرجل من بني هاشم بتقليده الصلاة، ونصه[٩٦]: «هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان حين ولاه الصلاة بناحية كذا وكذا. أمره بتقوى الله وخشيته في سرائره وعلانيته، وصيانة عرضه ومذهبه، وتطهير خلقه وسيرته، إذ كانت الصلاة من أعمدة الدين التي لا يجوز أن يتولاها غير الطاهرين المهذبين. وآمره أن يقيم الصلاة لأوقاتها ولا يؤخرها إذا حضر حينها وأن لا يخدجها - أي ينقص بعض أركانها - ولا ينقصها إذا كان به يأتم من يصلي خلفه، وصلاة جميعهم في عنقه، وأن يكون دخوله فيها بإخبات - باطمئنان - ودعة وهدوّ واستكانة. وآمره أن يرتّل قراءته إذا قرأ، وأن يسمع من خطبه إذا

---

(٩٣) حول تعيين الولاة، انظر: أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، إحياء التراث الاسلامي؛ ١٠ (بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، ١٩٧٤)، ج ١، ص ٢٠٥.

(٩٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٩٥) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٤٤ - ٤٧.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٤٣ - ٤٤.

خطب، وأن يضع كل كلام في موضعه، وكل قول في المحل اللائق به. وأمره إذا أحكم ذلك من نفسه حتى يستمر عليه في قوله وفعله، أن يختار من يخلفه وينوب منابه جارياً فيه مجراه، إما من أقرباء أمير المؤمنين، أو من أفاضل المسلمين. هذا عهد أمير المؤمنين إليك، فاعتمد مرضاته باتباعه، وتوخ موافقته بالوقوف عند ما أمر به وحده، ومستشعراً في جميع ذلك خشية الله ومراقبته، وفي كل ما يأمر به تقى الله وطاعته. وأمير المؤمنين يسأل الله أن يحسن توفيقك وتسديدك وإرشادك لما فيه جمال أمرك وصواب فعلك».

وجرت العادة أن لا يترك العامل في ولايته زمناً طويلاً لئلا يستأثر بالسلطة أو يمتنع على الدولة. وإذا ما عزل من منصبه طُلب إليه أن يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته، وكان أقل شك في صدقه كافياً لمصادرته[٩٧].

وعلى الرغم من أن الوالي يُعين ويعزل من قبل الخليفة الذي يحدد صلاحياته، فإن سلطته ونفوذه كانا يتوقفان على شخصيته وكفايته، وبعده عن مركز الخلافة من جهة، وعلى قوة الخليفة وضعفه من جهة أخرى.

٣ ـ نشوء الامارات المستقلة

إن سعة ارجاء الدولة العربية، وبعد مراكز الولايات والأقاليم عن حاضرة الخلافة أدّيا إلى لامركزية واسعة ساعدت بعض الولاة من ذوي الطموح على أن يحكموا ولاياتهم كأمراء شبه مستقلين عن مركز الخلافة، ويزعموا لأنفسهم الحق في تعيين من دونهم من العمال، ويصبحوا أصحاب السيادة في ولاياتهم. ويتوارث أبناؤهم أو اخوانهم الامارة من بعدهم. وهذا ما حدث في بعض الامارات الناشئة في هذا القرن. فقد قامت امارة بني الأغلب في افريقيا، وامارة الطاهريين في خراسان، وامارة الطولونيين في مصر، وامارة الصفارين في سجستان. إذ حكمت في كل من هذه الولايات أسرة تولى أبناؤها امارتها بالوراثة.

وكانت علاقة هذه الولايات بالخلافة لا تتعدى الاعتراف بسلطة الخليفة. وهذا الاعتراف يتمثل في أن يعهد الخليفة إلى الوارث بالإمارة دعماً لشرعية حكمه، ويدعاء الوالي للخليفة في خطبة الجمعة والعيدين، وضرب اسم الخليفة على السكة، وأن يرسل إلى بيت المال مبلغاً يتفق عليه، أو بعض الهدايا، سنوياً. وقد يحاول بعض الولاة التهرب والتحرر من قسم من هذه الارتباطات تبعاً لقوة مركزه تجاه الخليفة. على أن العلاقة بين هذه الامارات شبه المستقلة والخلافة تميّزت بأنها كانت وديـة، إلا في بعض الأحيان، إذ كانت تسوء إلى درجة قيام الحرب بينهما، كما حدث مع بني طولون في مصر ومع الصفارين في المشرق.

٤ ـ الشرطة

ومما له علاقة بإدارة الولاية ومعاونة الوالي في إقرار الأمن الداخلي وحماية النظام فيها، رئاسة الشرطة. وقد اعتبرت الشرطة من أهم مكونات النظام الاداري للدولة العربية. ويرى

---

(٩٧) الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة، ص ١٠٨.

ابن خلدون أن أصل وضعها في الدولة العربية في أيام العباسيين كان لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبرائها أولاً ـ أي التحقيق فيها ـ ثم إقامة الحدود بعد استيفائها[98] ـ أي التهم التي تعرض في الجرائم. ويقوم صاحب الشرطة بالتحقيق فيها، وعند ثبوتها يتولى فرض العقوبة، إذا لم تعرض على القضاء. ويتضح مما أورده ابن خلدون أن واجبات الشرطة في القبض على المجرمين وإقامة الحدود عليهم كانت جزءاً من واجبات القاضي، فأفردت منه وأنيطت بصاحب الشرطة الذي يلاحق أهل الريب ويضرب على أيدي المجرمين.

ولأهمية واجبات الشرطة كان الخلفاء ينتخبون رئيسها من كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ممن يحظى بثقتهم وتأييدهم، ويُدعى صاحب الشرطة. ومقر عمله في حاضرة الخلافة، ويساعده عدد كبير من أفراد الشرطة من مختلف الرتب. أما في الولايات فكان الوالي يعين من يراه لرياسة شرطة ولايته، ويكون هذا الرئيس مسؤولاً تجاهه.

وكان الشرطة يقومون بالطواف طول الليل إلى صلاة الفجر لحماية الأمن وحراسة أموال الناس وبيوتهم، وسلاحهم السيف والطبر.

ولما كان من واجبات الشرطة مجازاة الجناة على جرائمهم مما يتطلب إقامة الحدود عليهم في أحيان كثيرة، فإن كاتب الشرطة يجب أن يكون ملماً بأحكام الشريعة في العقوبات، لأن أكثر عمله مجازاة الجناة على جناياتهم. ويورد قدامة بن جعفر العقوبات الشرعية التي يفرضها كاتب الشرطة على مختلف الجرائم والجنايات، وكان إذا ما أشكل عليه أمر منها، رجع بذلك إلى الفقهاء[99].

أما الصفات التي يجب أن تتوفر في صاحب الشرطة ليؤدي عمله على الوجه الأكمل فعديدة، أهمها[100]: أن يكون حليماً مهيباً، دائم الصمت، طويل الفكر، بعيد الغور، وأن يكون نظره شزراً، قليل التبسم، غير ملتفت إلى الشفاعات، وأن يكون غليظاً على أهل الريب في تصاريف الحيل، شديد اليقظة، وأن يكون حفيظاً ظاهر النزاهة، عارفاً بمنازل العقوبة، غير عجول. وأن يمنع المظلوم من الانتصار لنفسه بيده، بل ينهي حاله إليه ليقابل بما يستحق.

٥ ـ الحِسْبَة

من المؤسسات المهمة التي انفردت بها الدولة العربية «الحِسْبَة» ويُسمى متوليها المُحتسِب. ويعرِّف الماوردي الحسبة: انها أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله[101]. وعقد لها في كتابه فصلاً خاصاً بها تناول فيه أحكامها من الناحية الفقهية، وبيّن

(٩٨) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٣٧.

(٩٩) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(١٠٠) شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك (القاهرة: دار الشعب، ١٩٨٣)، ص ١٦٢.

(١٠١) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٠٨.

علاقتها بالقضاء، وأسهب في شرح مهام المحتسب. وكذلك فعل القاضي أبو يعلى الحنبلي[102]. والواقع أن الحسبة كانت تنفيذاً للأمر القرآني الكريم ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .﴾[103].

وكانت الحسبة تناط أحياناً بالقاضي مع ما بين العملين من التباين، فعمل القاضي يقوم على الأناة والتحقيق، وعمل المحتسب يقوم على الشدة والسرعة في الفصل[104]. وقد أجمل ابن خلدون أعمال المحتسب بالبحث عن المنكرات وتعزير أصحابها وتأديبهم، وحمل الناس على المصالح العامة في المدينة كمنع المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من المبالغة في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها، ومنع المعلمين في المكاتب من الابلاغ في ضربهم الصبيان المتعلمين، وله أن يحكم فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين، وأن يحمل المماطلين على الإنصاف. ولا يتوقف حكم المحتسب على تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك أو يُرفع إليه[105].

إن واجبات المحتسب عديدة ومختلفة وكلها تستهدف تطبيق أحكام الشريعة في الأمور العامة، فهو بالإضافة إلى ما ذكره ابن خلدون يحافظ على الآداب العامة ويشرف على نظام الأسواق فيحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعيق ذلك حركة المرور، ويعاقب من يرفع الأثمان، ويكشف عن الموازين والمكاييل منعاً للتطفيف. وكان للموازين والمكاييل دار خاصة وكان المحتسب يطلب إلى جميع الباعة الحضور إلى هذه الدار ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها، فإن وجد في بعضها خللاً أوجب على صاحبها اصلاحها، والا صادرها وأمره بشراء غيرها صحيحة مضبوطة[106].

وممن يجب على المحتسب مراقبتهم من أهل الصنائع ثلاثة أصناف: صنف يُراقب ما إذا كان مؤهلاً للعمل الذي يحترفه كالأطباء والصيادلة والمعلمين، فيُقر منهم من توفر علمه وحسنت طريقته، ويمنع من قصرّ وأساء عن الاستمرار في عمله[107]. وشبيه بهذا إذا وجد من يتصدى لعلم الشرع وهو ليس من أهله، من فقه ووعظ، بحيث لا يأمن اغترار الناس به في التحريف أو سوء التأويل، عليه أن يمنعه ويُظهر للناس أمره لئلا يغتروا به[108].

---

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٨ - ٢٢٤، ومحمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى، الأحكام السلطانية، صحّحه وعلّق عليه محمد حامد الفقي (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨)، ص ٢٦٨ - ٢٩٢.

(١٠٣) القرآن الكريم، «سورة آل عمران،» الآية ١٠٤.

(١٠٤) الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة، ص ٣١٣.

(١٠٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٢٣.

(١٠٦) الدوري، المصدر نفسه، ص ٣١٤.

(١٠٧) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٢٢١.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٢١٦ و٢٢١.

وصنف يُراقب أمانته في عمله كالصاغة والحاكة والصباغين، لأنهم ربما هربوا بأموال الناس، أو أساؤوا الاستعمال فيها، فيراعي الثقة والأمانة منهم فيقرُّهم على أعمالهم، ويبعد من ظهرت له خيانته، ويُشهر أمره لئلا يُغترَّ به، أو يخدع من لا يعرفه[١٠٩].

وصنف يراقب نوعية عمله من حيث الجودة والرداءة، وعليه أن ينكر فساد العمل ورداءته وإن لم يكن هناك مستعدٍ. أما إذا استعداه خصم أنكر عمل الصانع وزجره على رداءة عمله، وإذا ما ترتب على عمله تأديب أو غرم ألزمه به[١١٠].

ومن واجبات المحتسب الأخرى أنه إذا وجد رجلاً يتعرض لمساءلة الناس في طلب الصدقة، وعلم أنه غني إما بمال أو عمل، أنكر عليه ذلك وأدّبه ومنعه منه واعلمه بأن الصدقة محرَّمة على المستغني عنها. وإذا ما رأى السائل ذا جلد وقوة على العمل زجره وأمره أن يحترف عملاً ما، فإذا أقام على التسوُّل عزّره وأدّبه حتى يقلع عنه[١١١]. وإذا ما استعداه عبد في امتناع سيده من كسوته والانفاق عليه، أمره بهما وأخذه بالتزامهما[١١٢]. وعلى المحتسب أيضاً أن يمنع من التكسب بالكهانة واللهو ويؤدب على ذلك[١١٣].

أما بالنسبة إلى أهل الذمة، فعلى المحتسب أن يأخذهم بما شرط عليهم من لبس الغيار والمخالفة في الهيئة. وعليه أن يمنع عنهم من يتعرض لهم بأذى، ويؤدب من خالف ذلك[١١٤].

وقد ذكر الشيزري في كتابه عن الحسبة الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى الحسبة. وخلاصتها: أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة وأن يعمل بما يعلم بحيث لا يكون فعله مخالفاً لقوله. وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى، وأن يكون مواظباً على سنن رسول الله ﷺ. وليكن من شيمته الرفق ولين القول وسهولة الأخلاق عند أمره الناس ونهيهم. وأن يكون عفيفاً عن أموال الناس متورعاً عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات لأن ذلك رشوة. وعليه أن يلزم أعوانه وغلمانه بما التزمه بهذه الشروط، لأن أكثر ما تتطرق التهمة إليه إنما تكون من أعمالهم، فإن علم أن أحدهم أخذ رشوة أو قبل هدية صرفه من العمل لتنتفي عنه الشبهة[١١٥].

أما الماوردي فيرى من شروط والي الحسبة أن يكون حراً عدلاً ذا رأي وصرامة في الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة، ولا يشترط أن يكون من أهل الاجتهاد[١١٦].

---

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٢٢١ - ٢٢٢.
(١١٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.
(١١١) المصدر نفسه، ص ٢١٥.
(١١٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٣.
(١١٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.
(١١٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.
(١١٥) عبد الرحمن بن نصير الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحرير السيد الباز العريني؛ إشراف محمد مصطفى زيادة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦)، ص ٦ - ١٠.
(١١٦) الماوردي، المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

إن الحسبة كما رأينا تمثل رقابة الدولة على الأسواق وشؤون البيع والشراء، وعلى المتصلين بالناس بحكم عملهم كالمتطببين والصيادلة والمعلمين والمهنيين بمختلف المهن ذات الاتصال بالناس. وقد حرص الفقهاء على تبيين الأحكام الشرعية الكفيلة بمقاومة الغش، والتي تنظم العلاقة في شؤون البيع والشراء، ولا سيما ما يتعلق بغذاء الناس وشرابهم ودوائهم وكسائهم. وقد تضمنت كتب الحسبة تلك الأحكام، وتكاد تكون شاملة. إلا أنه مما تجدر ملاحظته أن ما وضحه الفقهاء من أحكام للتعامل إنما هي أحكام نظرية أكثر من أن تكون قائمة على الواقع العملي لحياة الناس. فهي تعطينا صوراً مثالية لما تفترضه أحكام الفقه فيما يجب أن تكون عليه حالة التعامل بين الناس.

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

أولاً: الطبقات الاجتماعية

كان الناس بصورة عامة طبقتين رئيستين، الأولى الطبقة الخاصة والثانية الطبقة العامة.

١ ـ الطبقة الخاصة

وتتكون من الأسرة الحاكمة وعلى رأسها الخليفة ورجال الدولة وأبناء البيوتات العريقة. وكانت الأسرة الحاكمة عباسية من بني هاشم: عباسيين وعلويين أو طالبيين، وكانوا يسمّون الأشراف[1] لقرابتهم من الرسول العربي ﷺ. ويقول الماوردي «وقد تقدم بنو هاشم لأن النبوة فيهم»[2]. ولما وضع الديوان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب جعل بنو هاشم في المقدمة[3]. وقد خصصت لهم الأعطيات، وحرمت عليهم الصدقة تنزيهاً لهم. وكان لهم نقيب يعيِّنه الخليفة، وقد يكون هناك نقيبان ينظر أحدهما في مصالح العلويين، ويتولى الآخر أمور العباسيين[4]. والنقابة في رأي الماوردي موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف، ويُختار النقيب عادة من أجلّهم بيتاً

---

(١) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦)، ج ١، ص ٢٥٦، والمحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٥٥)، ج ٣، ص ٢٩٠.

(٢) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، عُني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٩)، ص ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(٤) ظهير الدين علي بن محمد الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، عني بتحقيقها كوركيس عواد وميخائيل عواد (بغداد: مطبعة الارشاد، ١٩٦٢)، ص٢٣.

وأكثرهم فضلاً، وأجزلهم رأياً، بحيث تجتمع فيه شروط الرياسة والسياسة. وقد تكون نقابته عامة أو خاصة[5].

وبلغ عدد العباسيين في عهد المأمون ثلاثة وثلاثين ألفاً بين ذكر وأنثى[6]. أما العلويون فكانوا أضعاف هذا العدد، وهم منتشرون في أكثر أقاليم الدولة العربية كمصر والمغرب واليمن وخراسان، وفي المدن الرئيسة مثل مكة والمدينة والبصرة والكوفة وبخارى. إضافة إلى بغداد وسامراء. ويعتبر الهاشميون أرفع قدراً بعد الخليفة، وعندما يكونون بحضرته يجلسون على الكراسي، ويجلس سائر الناس دونهم على الوسائد والبسط[7]. وكان الخلفاء يغدقون على البارزين منهم المنح والهدايا كسباً لولائهم، كما حصرت بهم بعض المناصب المشرفة كإمارة الحج التي يتولاها عادةً أمراء من البيت العباسي، والإمامة في المساجد المهمة وبخاصة في بغداد وسامراء. ويورد قدامة بن جعفر نسخة عهد لرجل من بني هاشم بتقليده الصلاة، ومما جاء فيه: إن الصلاة من أعمدة الدين التي لا يجوز أن يتولاها غير الطاهرين المهذبين، ويوصيه ألا يختار خليفة عنه إلا أن يكون من أقرباء أمير المؤمنين أو من أفاضل الناس[8].

وكان الهاشميون يتقاضون رواتب من بيت المال. فقد خصص في جدول النفقات أيام المعتضد بالله ما مجموعه ٣٦٠٠ دينار شهرياً لرواتب أولاد الخلفاء السابقين ومشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب منهم، وجمهور بني هاشم من العباسيين والطالبيين[9]. كما كانت امارة بني طولون في أيام مؤسسها تجري الجرايات على الأشراف العلويين الموجودين في مصر[10]. والمراتب المشرّفة التي أشرنا إليها كانت تناط في أغلب الأحيان بالعباسيين، وذلك لاستمرار موقف العلويين المناوىء للخلافة العباسية. على أن بعض الخلفاء كان يولي العلويين رعاية خاصة كالمأمون والمعتصم بالله والواثق بالله والمنتصر بالله.

ويظهر أن ما يخصص لبني هاشم من رواتب وأعطيات كان يتأخر أحياناً فتسوء أحوالهم المالية. فقد اجتمع في النصف الأول من رجب سنة ٢٥١ من كان منهم ببغداد وصاروا إلى دار محمد بن عبد الله أمير بغداد وصاحوا بالخليفة المستعين بالله، وتناولوا محمداً بالشتم،

---

(٥) الماوردي، المصدر نفسه، ص ٨٢ - ٨٣.

(٦) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ٢٨، والعيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، ٤ ج (النجف: مطبعة النعمان، ١٩٧٢)، ج ٣، ص ٣٥١.

(٧) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٢)، ج ٥، ص ٢٠.

(٨) أبو الفرج قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، حقّقه محمد حسين الزبيدي (بغداد: دار الحرية، ١٩٨١)، ص ٤٣ - ٤٤.

(٩) أبو الحسين هلال بن المحسن الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، [د.ت.])، ص ٢٥.

(١٠) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٢، ص ١٥٩.

القبيح، وقالوا: قد مُنعنا أرزاقنا وتُدفع أموال إلى غيرنا ممن لا يستحقها، ونحن نموت هزلاً وجوعاً[11].

ونعني بأرباب البيوتات العريقة أصحاب الأنساب من العرب ممن كانوا قد فرضت لهم الأعطيات من بيت المال عند تأسيس الديوان، كما أشرنا آنفاً. أما رجال الدولة فهم الوزراء والكتّاب، والقوّاد، والولاة، وأمثالهم من أرباب المناصب العالية.

لقد كان أبناء الطبقة الخاصة يعيشون حياة مترفة لضخامة ايراداتهم من رواتبهم وأعطيات الخلفاء لهم، وإيرادات ضياعهم ومستغلاتهم. فكانوا يسكنون القصور الضخمة ويرفلون بأغلى الملابس وأثمن الحلى، ويتناولون ما لذّ وطاب من طعام وشراب. فقد كان لعجيف بن عنبسة، قائد حرس المعتصم بالله، ضياع تبلغ غلّتها في كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم[12]. وأهدى سَلَمة بن سعيد، كاتب شجاع أمّ المتوكل على الله، إلى ابنها الخليفة في أيام صيام النصارى، من طعامهم، جوناً كان فيه غضار صيني ملون وجامات بلّور محلاة بالذهب والفضة، بلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار[13]. وعندما صادر الموفق وزيره صاعد بن مخلد قبض له ولأخيه عبدون ولولديه وزوجته ألف ألف دينار، ووجد له أربعة آلاف رأس من الدواب[14].

ومن الدلائل الواضحة على ثرائهم الفاحش ما تعرضوا له من مصادرات في خلال هذا القرن، وعلى عهد عدد من الخلفاء، بحيث غدت أموال مصادراتهم أحد أبواب موارد الدولة. ومن أهم المصادرات التي تمّت في هذا القرن ما ذكره ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان[15] من أن الخليفة المعتصم بالله لما غضب على وزيره الفضل بن مروان صادر أمواله وأثاث بيوته مما بلغت قيمته ألفي ألف دينار.

وكان الخليفة الواثق بالله قد وصل إلى سمعه أن أغلب الوزراء والكتّاب ورؤساء الدواوين قد جمعوا ثروات طائلة بصورة غير مشروعة، فحاول أن يحدّ من استغلالهم مراكزهم، فأمر بحبس عدد منهم وإلزامهم بدفع مبالغ معينة قارب مجموعها ألفي ألف دينار[16].

---

(١١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨)، ج ٩، ص ٣٢٧.

(١٢) أبو الحسن أحمد بن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، التراث العربي؛ ١ (الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٥٩)، ص ٢٢٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(١٥) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ٣، ص ٢١٤.

(١٦) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٢٥، وأبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٣ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧)، ج ٦، ص ١٠.

وصادر المتوكل على الله عدداً كبيراً من الوزراء وأصحاب الدواوين وكبار الكتاب وأخذ من أموالهم مبالغ كبيرة. فصادر طبيبه بختيشوع بن جبرائيل الذي كان من كبار الأثرياء مرتين، وصادر وزيره محمد بن عبد الملك الزيّات، وقاضي قضاته أحمد بن أبي دؤاد وابنه أبا الوليد وأخذ منهما أموالاً وجواهر. كما قبض علي عمر الرخجي وأخيه واحتوى أموالهما. وأمر بمحاسبة أبي الوزير أحمد بن خالد وأخذ منه مالاً كثيراً وحلي ومتاعاً، وصادر ضياعه وضياع ابن أخيه. وأخذ من نجاح بن سلمة وكاتبه مبالغ كبيرة.

وصادر الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله والقائم بشؤون الخلافة[١٧] دونه، وزير أخيه سليمان بن وهب وابنه عبيد الله بن سليمان وبعض أصحابهما وقبض أموالهم وضياعهم. كما صادر وزيره صاعد بن مخلد وجميع أهله وأخذ منهم ما مجموعه ألف ألف دينار وأربعة آلاف رأس من الدواب[١٨].

ولما مات عبيد الله بن سليمان، وهو وزير للمعتضد بالله، عزم الخليفة على أن يستصفي أمواله، فحضر ابنه القاسم بن عبيد الله فكتب خطاب ضمان بألفي ألف دينار، فاستردّه المعتضد[١٩]. وسخط المعتضد بالله على نديمه ومستشاره أحمد بن الطيب فصادر أمواله[٢٠].

وتوسعت عملية المصادرات في عهد الخليفة المقتدر بالله، حتى قيل عن وزيره أحمد بن عبد الله الخصيبي إنه لا يحسن شيئاً من مهام الوزارة غير المصادرات[٢١].

ومن مظاهر بذخ الخلفاء وأبناء الطبقة الخاصة إسرافهم في الإنفاق على تشييد القصور الفخمة المحاطة بالأسوار العالية تتوزع فيها الأبراج. وكان بعض هذه القصور من السعة وتعدد القاعات والأروقة والمرافق، يبدو كأنه مدن خاصة تضم عشرات البيوت والساحات والنافورات وتتخللها الحدائق والبساتين. ومن أشهر القصور التي أنشئت في القرن الثالث الهجري تلك التي بناها الخليفة المعتصم بالله وابنه المتوكل على الله في مدينة سامراء وأنفقا عليها مبالغ طائلة. ويقدر الشابشتي في كتابه الديارات[٢٢] المبالغ التي أنفقها المتوكل على الله

---

(١٧) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٢٠٦ و٢٢٢؛ الطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٦١ - ١٦٢، ١٩٥ و٢١٥، وابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٧.

(١٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٤٧ و٤١٩.

(١٩) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (مصر: مطبعة الموسوعات، ١٨٩٩)، ص ٢٣٢.

(٢٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٥٩.

(٢١) أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، تجارب الأمم، نسخه وصحّحه هـ. ف. أمدروز (مصر: مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٩١٤)، ج ١، ص ٤٥.

(٢٢) أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢ (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٦)، ص ١٥٩.

في تشييد قصوره بما مجموعه مئتا ألف ألف وأربعة وسبعون ألف ألف درهم ومئة ألف دينار. أما ياقوت الحموي فيقدر النفقات المذكورة بمئتي ألف ألف وأربعة وتسعين ألف ألف درهم[٢٣].

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى قصرين كبيرين شيِّدا في خلال النصف الثاني من هذا القرن هما قصر التاج بدار السلام، وقصر ابن طولون بمصر. أما قصر التاج فقد ابتدأ الخليفة المعتضد بالله ببنائه وأكمله ابنه خمارويه بعده. وقد تميز هذا القصر بواجهته الفخمة المؤلفة من خمسة عقود يقوم كل منها على عشر أساطين. واشتهر هذا القصر بخاصة في عهد الخليفة المقتدر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٢٩٥هـ، والذي كان أكثر خلفاء بني العباس بذخاً وإسرافاً، إذ يقدَّر مجموع ما أنفقه مدة خلافته نيفاً وسبعين ألف ألف دينار. ومن مظاهر بذخه ما حشده من الفرش والستائر وسائر الأثاث في قصور الخلافة العديدة ولا سيما قصر التاج، عندما وصل إلى بغداد وفد ملك الروم في سنة ٣٠٥هـ. وقد أسهب الخطيب البغدادي في تاريخه[٢٤]، والرشيد بن الزبير في كتابه الذخائر والتحف[٢٥]، ومسكويه في كتابه تجارب الأمم[٢٦] وياقوت الحموي في معجم البلدان[٢٧] في وصف قدوم الوفد المذكور على الخليفة. وخلاصة ما جاء في المصادر المشار إليها: أن دار الخليفة زيِّنت بأجنحتها المختلفة بصورة لا مثيل لها. ونقتصرها على وصف مجلس الخليفة وما اتخذ فيه من الفرش والستائر. فقد عُلِّق من الستائر اثنا عشر ألفاً وخمسمئة من الستور الصنعائية والأرمينية والواسطية، السواذج منها والمنقوشة، والدبيقية المطرَّزة. وفرش من الأنخاخ والبسط في القاعات والممرات التي سار فوقها الوفد الرومي من باب العامة حتى حضرة الخليفة. سوى ما فرش في المقاصير والمجالس من الأنماط الطبرية والدبيقية، وبلغ اثنين وعشرين ألف قطعة، مع مئة مرقد من الديباج مع بسطها.

وأدخل الوفد على الخليفة في قصر التاج وهو على سرير أبنوس مفروش بالدبيقي المطرز بالذهب، وعليه السواد وعلى رأسه الطويلة. وكان على يمين السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة، وعن يسرته عقود أخرى من أكبر الجواهر وأغلاها قيمة يغلب ضوؤها على ضوء النهار. والوزير واقف بين يدي الخليفة ومن دونه الحجّاب والخدم وقوفاً. وأمر الخليفة بفتح قبة الشجرة، وكانت فيها شجرة من الفضة وزنها خمسمئة ألف درهم أشجارها من الذهب، وعليها أطيار مصوغة من الذهب والفضة تصفر بحركات قد جعلت لها. وكانت هذه الشجرة من أثمن مقتنيات المقتدر بالله. فكان تعجّب الرسل مما شاهدوه عظيماً.

(٢٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥)، ج ٣، ص ١٧٥.

(٢٤) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ١، ص ١٠٠ - ١٠٥.

(٢٥) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١٣٠ - ١٣٩.

(٢٦) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٥٣ - ٥٥.

(٢٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢١.

أما قصر ابن طولون فقد شيّده أمير مصر أحمد بن طولون، وجدّده ابنه خمارويه وأضاف إليه. وقد وصفه المقريزي في خططه[28]، إذ يقول ما خلاصته: وزاد خمارويه في قصر أبيه ووسعه بما أضافه إليه، ومن أبرز منشآته فيه أنه بنى مجلساً كبيراً برواقه سمّاه «بيت الذهب» طليت حيطانه كلها بالذهب المطعّم بالأحجار الكريمة بأحسن نقوش. كما زيّنه بصور بارزة من الخشب تمثّله مع المغنيات والحظايا تزين رؤوسهن تيجان الذهب المرصعة بأصناف الجواهر. وأقام أمام هذه القاعة فسقية واسعة ملأها زئبقاً، لأنه كان يشكو الأرق فوصف له طبيبه أن يعمل هذه البركة الزئبقية، وجُعلت لها في أركانها سكك من الفضة ليُربط بها فراش من الجلد المحشو بالهواء. وعندما ينام عليه يهتز تحته بحركة الزئبق، ولا يزال حتى ينام. وقد أنفق على ذلك مالاً كثيراً. فكان للبركة في الليالي المقمرة منظر جميل عجيب.

وحوّل خمارويه الميدان الكبير الذي أنشأه أبوه إلى بستان زرع فيه أصناف الشجر وأنواع النخيل وزيّنه بأنواع الأزهار والرياحين. وزرع الريحان على شكل نقوش وكتابات. وزيادة في البذخ كسا جذوع النخيل بالنحاس المذهب وجعل الماء يخرج من تضاعيف جذوعها فينحدر إلى فساقيّ يفيض منها الماء ليسقي البستان. وسرّح في البستان أنواع الطيور الجميلة والطواويس ودجاج الحبش ونحوه.

ولعل أجمل ما أضافه على القصر إضافة إلى فسقية الزئبق أنه شيد في القصر قبّة شاهقة العلو سمّاها الدكة. وقد جمل حيطانها بالزخارف والنقوش بألوان مختلفة. ووضع على نوافذها الستائر التي تقي الحر والبرد. وفرش أرضها بالفرش النادر الغالي الثمن، وكان قد خصص لكل موسم فرشاً خاصاً به. ومن يجلس في هذه الدكة يشرف منها على ما في القصر من الأبنية والحدائق، وعلى جميع أنحاء المدينة وفي وسطها نهر النيل.

وبنى في جانب من القصر داراً للوحوش التي كان يقتنيها كالسباع والنمور والفهود والزرافات والفيلة، وجعل لكل صنف منها جناحاً خاصاً به، وعليها رجال موكلون بخدمتها ورعايتها.

٢ ـ الطبقة العامة

أما الطبقة العامة فهم بقية الرعية، وكانوا من أمم شتى، وأصناف مهنية مختلفة، منهم أصحاب مهن راقية محترمة، وآخرون أصحاب مهن دنيّة حقيرة. كما كان منهم التجار والمزارعون والفلاحون، فضلاً عن العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء والصيادلة وأهل الفن. وكان الفقهاء وعلماء الدين والشعراء والأطباء وأهل الفن أرقى درجات الطبقة العامة. وكانوا بمواهبهم وكفاياتهم يكسبون الأموال الكثيرة، وبخاصة من تقرّب منهم إلى الخلفاء وكبار رجال الدولة، كالشعراء والأطباء والندماء والمغنين. فقد ظهر عدد من الشعراء ممن امتدحوا الخلفاء والوزراء والقواد، فحصلوا منهم على المنح والأعطيات الوفيرة. كما برز

---

(٢٨) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ٢ ج (مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤)، ج ١، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

عدد من الأطباء فاختصّوا بالخلفاء والوزراء، وكسبوا كثيراً من الأموال، وعاش بعضهم حياة مترفة لا تقل عن حياة الخلفاء والوزراء. فقد كان الطبيب بختيشوع بن جبرائيل يضاهي الخليفة في اللباس والفرش[29]. ومثل ذلك بعض المغنين والموسيقيين الذين اختص بهم الخلفاء وكانوا يستحسنون موسيقاهم وغناءهم ويطربون له، فيفيضون عليهم بالأعطيات والمنح. فقد كان اسحاق الموصلي يلبس مُطرف خزّ قيمته مئة ألف درهم[30]. ويعيش حياة مرفّهة رغم أنه كان من الطبقة العامة. فقد كتب مرة إلى الوزير الفضل بن الربيع وقد عتب عليه في شيء بلغه عنه «إن لكل ذنب عفواً وعقوبة، فذنوب الخاصة عندك مستورة مغفورة، فأمّا مثلي من العامة فذنبه لا يغتفر، وكسره لا يُجبر»[31].

وكان للعلماء والفقهاء والأطباء والمهندسين والأدباء والشعراء دور كبير جداً في التقدم الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة العربية في القرن الثالث والقرن الذي تلاه، إذ ساهموا في حركة الترجمة والتأليف، وكان منهم كبار الفقهاء والعلماء والأدباء والمؤرخين ممن ندين لهم كثيراً لما تركوه من بصمات في مسيرة الحضارة العربية الاسلامية. وكان الخلفاء وكبار رجال الدولة يغدقون على العلماء ورجال اللغة والأدب، كما كان لبعضهم رواتب من بيت المال. وكنا أشرنا إلى ازدهار الصناعة والزراعة والتجارة في هذا القرن وذكرنا أحوال ممتهنيها. ويمكن القول إن هذه الفئات من الطبقة العامة كانت تمثل ما ندعوه اليوم بالطبقة المتوسطة، في المجتمع العربي آنذاك.

وبرز من هذه الطبقة الاجتماعية عدد من الأعلام ممن اشتهروا من أبناء هذا القرن، وكان لهم حظ وافر من التعليم وتأثير مهم في الحياة العلمية والأدبية والاجتماعية والفنية، نذكر منهم فيلسوف العرب يعقوب بن اسحاق الكندي الذي لم يترك جانباً من جوانب المعرفة إلا وكان له فيه أثر مهم؛ وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي تمكن بما وهبه الله تعالى من قوة الحافظة وسرعة الخاطر أن يلمّ بمختلف العلوم والمعارف ويحصل على ذخيرة مهمة من ثقافة عصره، فبرع في اللغة وآدابها والعلوم القرآنية وعلم الكلام والطبيعيات والفلسفة والجغرافيا والتاريخ. وابن قتيبة عبد الله بن مسلم الذي اشتهر بمعارفه الواسعة في العلوم الدينية وفي التاريخ والأدب، وأبا جعفر محمد بن جرير الطبري الفقيه المؤرّخ الذي كانت كتبه في التفسير والفقه والتاريخ منهلاً لطلاب هذه العلوم؛ والبتّاني محمد بن جابر بن سنان الحرّاني الصابي صاحب الزيج المعروف باسمه، وأشهر علماء الفلك والرياضيات في عصره؛ وحنين بن اسحاق العبادي الطبيب المترجم وصاحب السهم الوافر في حركة الترجمة، فكان أبرز المترجمين وأكثرهم مهارة في هذا القرن.

كما اشتهر في علم الحديث من أبناء هذه الطبقة أصحاب الكتب الصحاح الستة الذين

---

(٢٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠١.

(٣٠) أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، الأغاني (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، [د.ت.])، ج ١٠، ص ١٢٠.

(٣١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٢٠.

سنذكرهم ومصنفاتهم بشيء من التفصيل في الفصل القادم من الكتاب. كما اشتهر من كبار المحدِّثين الآخرين الإمام أحمد بن حنبل.

وكان من أبرز علماء اللغة في هذا العصر من أبناء الطبقة العامة المبرّد محمد بن يزيد، وأحمد بن يحيى الملقب بثعلب. ومن الشعراء اشتهر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، والبحتري الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي. وأبرز المغنين اسحاق بن ابراهيم الموصلي. وآخرون كثيرون غير من ذكرنا في مختلف حقول المعرفة.

أما بقية أبناء الطبقة العامة، وهم يؤلفون السواد الأعظم منها، فكانوا من الفلاّحين وأرباب المهن المختلفة من سكان المدن والأرياف. وسكان المدن من العامة يتألفون من الصناع والحرفيين، كالبنائين، والنجارين، والحدادين، والخياطين، والحلاقين، والخبازين، والقطانين، والصباغين، والنحاسين، والأساكفة، والصاغة، ومن الباعة كالبقالين، والجزارين، والزياتين، والبزازين، وباعة الحلوى، والمخضرات، ومواد العطارة، وغيرهم. وتضمنت كتب الحِسْبة مختلف أرباب المهن والباعة[32]. أما سكّان الريف، وهم الأكثرية الساحقة من الطبقة العامة، فإنهم يتألفون من الفلاحين، والأكرة الذين يعملون في الزراعة في مواسم معينة، وعدد كبير من العبيد ممن يعملون في الزراعة كذلك. وكان هذا الجزء الكبير من الطبقة العامة من أهل المدن والأرياف أميين على درجة كبيرة من الجهل والسذاجة. يقول عنهم المسعودي «ومن أخلاق العامة أن يسودوا غير السيد، ويفضلوا غير الفاضل، ويقولوا بعلم غير العالم، وهم أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول، والفضل والنقصان، ولا معرفة للحق من الباطل عندهم»[33]. ويقول: «ذكر لي بعض اخواني أن رجلاً من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام، على جارٍ له أنه يتزندق. فسأله الوالي عن مذهب هذا الرجل، فقال: إنه مرجىء قدري إباضي رافضي. . . وأنه يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل عليَّ بن العاص. فقال له الوالي: ما أدرى على أي شيء أحسدك، على علمك بالمقالات، أو على بصرك بالأنساب»[34].

٣ ـ الرقيق

كان مصدر الرقيق في بداية الفتوحات العربية من أسرى الأعداء ممن لم يعتنقوا الاسلام، أو لم يدخلوا في ذمة المسلمين. إذ يقسم الأسرى والسبايا بأن يكون للدولة الخمس يُصرف في الصالح العام، وتوزع أربعة الأخماس على المقاتلين. فيُعطى الفارس سهمين والراجل سهماً واحداً[35]. ولم ينفرد العرب بهذه المعاملة للأسرى، فقد كان ذلك مرعياً عند

---

(٣٢) عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحرير السيد الباز العريني، إشراف محمد مصطفى زيادة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦)، ص ٤ ـ ٥، وضياء الدين محمد بن محمد بن الإخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي (كيمبرج: مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧)، ص ٤ ـ ٧.

(٣٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٤٣.

(٣٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢.

(٣٥) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١١٢ و١٢٥.

الأمم الأخرى. فمن كان يقع من المحاربين العرب في أيدي الروم مثلاً، لكثرة الحروب معهم، كان نصيبه الاسترقاق. إلا أن الدولة العربية كانت تعنى بافتدائهم إما بالمال وإما بإطلاق ما يقابلهم من أسرى الأعداء.

ونظراً لتوسّع الفتوحات العربية، كثر الرقيق المجلوب من البلاد المفتوحة، وشاع استخدامهم. إذ كان الأسرى والسبايا يوزعون على ذوي العلاقة من المحاربين جنداً وقواداً، وأكثر هؤلاء يبيعون ما يزيد عن حاجتهم منهم. فاتسعت معاملات شراء أنواع الرقيق واستجلابها، فصارت تجارة واسعة، كان لها في بغداد سوق خاصة[٣٦]. وعندما أنشئت سامراء أقيمت فيها سوق كانت تقع في الشارع الأعظم، وهي مربعة الشكل بها طرق متشعّبة وعلى جانبيها الغرف والحوانيت للرقيق أيضاً[٣٧].

ويعتبر الرقيق ملكاً لصاحبه، له أن يبيعه أو يهبه أو يعتقه. ولصاحب الأمَة أن يستمتع بها ويستولدها باعتبارها ملك يمينه، سواء أكان متزوجاً أو غير متزوج، وإذا ما ولدت منه كان ابنها حراً، وسميت هي «أم ولد» ورغم رقّها فلا يجوز له أن يبيعها أو يهبها، وتصبح حرة عند وفاته[٣٨].

ومع أن الاسلام لم يُلغ الرقّ فقد أمر بحسن معاملة الرقيق وعدم تكليفهم بما لا يطيقون من الأعمال، وشجّع على عتقهم، أي تحريرهم من عبودية الرق، بل إنه اعتبر ذلك من أجلّ الأعمال. فقد جاء في الآيات الكريمة ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فكُّ رقبة﴾[٣٩]. وقد أكّدت آيات أخرى من القرآن الكريم على ذلك. فقد ورد في الآية الكريمة ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾[٤٠] وشجّعت الآية الكريمة ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾[٤١] على الزواج من ملك اليمين إذا كانوا صالحين.

وللعبد أن يشتري حريته من مالكه، فقد جاء في الآية الكريمة ﴿... والذين يبتغون الكتاب ممّا ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أَرَدْنَ تحصناً ..﴾[٤٢]. أي أن المملوك إذا كان أميناً وكان ذا كسب وأراد أن يكاتب سيده على مبلغ معين لقاء عتقه فليكاتبه، سواء أدّى المبلغ عاجلاً أو آجلاً. وأوجب الإسلام

---

(٣٦) احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، ص ٢٤٨.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٣٨) احمد أمين، ضحى الاسلام، ط ٧ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤)، ج ١، ص ٨١ - ٨٢.

(٣٩) القرآن الكريم، «سورة البلد»، الآيات ١١ - ١٣.

(٤٠) المصدر نفسه، «سورة النساء»، الآية ٣٦.

(٤١) المصدر نفسه، «سورة النور»، الآية ٣٢.

(٤٢) المصدر نفسه، «سورة النور»، الآية ٣٣.

إعانة المكاتبين وإعطاءهم سهمهم الذي جعل الله لهم من بيت المال. قال الإمام علي كرم الله وجهه: يُحطُّ له الربع ـ أي من المبلغ الذي كاتب سيده عليه. وعن ابن عباس قوله: يرضخ له من كتابته شيئاً، أي أن على سيده أن يتنازل له عن جزء من المبلغ المكاتب عليه. وعن عمر بن الخطاب أنه كاتب عبداً له يكنى أبا أمية، وهو أول عبد كُوتب في الإسلام، فأتاه بأول نجم، فدفعه إليه فقال: استعن به على مكاتبتك. فقال: لو أخّرته إلى آخر نجم، قال عمر: أخاف أن لا أدرك ذلك[43]. ومنع الاسلام إكراه الأمة على البغاء، وهذا ما أكّده القسم الأخير من الآية الكريمة مارة الذكر. كما خصص الاسلام قسماً من أموال الزكاة لعتق الرقيق. وذلك ما جاء في الآية الكريمة ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب...﴾[44] أي في فك الرقاب بإعانة المكاتبين، وقيل الأسرى، وابتياع الرقيق وعتقهم[45].

وللرسول ﷺ عديد من الأحاديث يحض بها على عتق العبيد ومعاملتهم بالحسنى وأن لا يُكلّفوا فوق طاقتهم. فقد جعل للرجل الذي يعتق أمته ويتزوجها مثلين من الأجر، فقال: «ثلاثة لهم اجران... ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدّبها فأحسن تأديبها وعلّمها فأحسن تعليمها ثم اعتقها فتزوجها فله أجران»[46]. وقال ﷺ: «إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فاعينوهم»[47]. وقال ﷺ بهذا المعنى: «للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل ما لا يطيق»[48]. وأمر ﷺ ألا ينادى عليهم بلفظ العبودية، فقال: «لا يقل أحدكم عبدي، أمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، وليقل غلامي، جاريتي، وفتاي، وفتاتي»[49]. وعن الإمام علي كرم الله وجهه قال: «كان آخر كلام رسول الله ﷺ: أوصيكم بالصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[50].

كما جعل الاسلام تحرير الرقاب كفّارة لبعض الذنوب، فقد جاء في الآية الكريمة ﴿... من قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله...﴾[51]. وفي آية أخرى ﴿والذين

---

(43) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ٣، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(44) القرآن الكريم، «سورة التوبة،» الآية ٦٠.

(45) الزمخشري، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣.

(46) أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، الأدب المفرد (طشقند: مطبعة الأوفسيت، ١٩٧٠)، ص ٦١.

(47) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(48) المصدر نفسه.

(49) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(50) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المستطرف من أخبار الجواري، حقّقه صلاح الدين المنجد، رسائل ونصوص؛ ٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٣)، ج ٢، ص ٧٥.

(51) القرآن الكريم، «سورة النساء،» الآية ٩٢.

يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا. . . ﴾[٥٢]. وقال الرسول ﷺ: «من لطم عبده أو ضربه حداً لم يأته فكفارته عتقه»[٥٣].

وكان عتق الرقيق يتم على نطاق واسع في بعض المناسبات. وقد يشتري بعض الناس الرقيق لغرض عتقهم. فقد اعتق المتوكل على الله عند إعذار ابنه المعتز ألف عبد وأمر لكل منهم بمئة درهم وثلاثة أثواب[٥٤].

وقد سمي الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً[٥٥]. وكان من الطبيعي أن تختلف قيمة المملوك أو العبد ذكراً كان أو أنثى، بما يحسن من الأعمال، وحملة السلاح منهم أعلى منزلة من غيرهم، وقد صار منهم قواد وأمراء بارزون في الجيش العربي، وكان لكثير منهم شأن كبير في سير الأحداث ومصائر الخلفاء.

وكان الصقالبة والترك المصدر الذي لا ينضب معينه من المماليك. وما كان يجلب إلى حاضرة الخلافة، بغداد أو سامراء، من الصقالبة يأتي من بلاد الفرنج عن طريق الأندلس. ويقول المقدسي: «إن بلدهم خلف خوارزم، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس ليخصون، ثم يخرجون إلى مصر والروم، ويقعون إلى الشام وآثور»[٥٦]. أو أنهم يؤتى بهم من الشرق مما يسبيه الخراسانيون أو يتاجرون به. وكان الرقيق من الترك يجلب من فرغانة واسبيجاب[٥٧]. وقد اشتهرت سمرقند برقيقها، ويقول ابن حوقل عنها: «وسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر، وخير الرقيق مما وراء النهر تربية سمرقند»[٥٨]. ويقول عن رقيق خراسان «وأنفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك، ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الأرض، ولا يدانيه في القيمة والحسن. وغير غلام رأيته قد بيع بخراسان بثلاثة آلاف دينار. وتبلغ عندهم الجارية التركية ثلاثة آلاف دينار. ولم أر بجميع اقطار الأرض من الرقيق ما بلغ من غلام ولا جارية رومية ولا مولدة، ولا سمع في خبر ولا أثر إلا ما كان معه آلة السماع مع الحذق البارع والأداء الصحيح»[٥٩].

أما العبيد فيعتبر المقدسي أرض السودان موطنهم، وهم على ثلاثة أنواع: جنس يحملون إلى مصر وهم أجود الأجناس، وجنس يحملون إلى عدن وهم البربر وهم شرّ أجناس الخدم، والجنس الثالث على شبه الحبش[٦٠]. فكانت أهم أسواق هذا الصنف من الرقيق مصر وشبه جزيرة العرب وشمال افريقيا، وكانت القوافل تأتي بهم من الجنوب[٦١].

---

(٥٢) المصدر نفسه، «سورة المجادلة»، الآية ٣.
(٥٣) الشابشتي، الديارات، ص ١٥١، وابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١١٥.
(٥٤) الشابشتي، المصدر نفسه، ص ١٥١، وابن الزبير، المصدر نفسه، ص ١١٥.
(٥٥) زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٥، ص ٢٢.
(٥٦) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ٢٤٢.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٥.
(٥٨) أبو القاسم محمد بن علي الموصلي بن حوقل، صورة الأرض (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤)، ص ٤٠٧.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.
(٦٠) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٤٨.
(٦١) أمين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ٨٥.

توسعت تجارة الرقيق وأخذ النخاسون يسلكون مختلف سبل الغش لبيع ما لديهم، مما تطلب من المشتري مزيداً من الحذر لئلا يخدع. وقد تكوّن نتيجة نشاط هذه التجارة عديد من الملاحظات والمقاييس التي تساعد المشتري على أن يحقق غرضه ويأمن الغش والتدليس. وقد جمع الطبيب أبو الحسن المختار بن حسن بن عبدون المعروف بابن بطلان المتوفى سنة ٤٥٥ عدداً من الملاحظات والوصايا التي تساعد المشتري، وصنفها في رسالة سماها رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد[٦٢]. ومما جاء فيها أن من الضروري أن يتفحص المشتري أعضاء الرقيق كالرأس والصدر والأطراف والحواس للاطمئنان على سلامتها وخلوها من العيوب التي تعيقها في أداء وظيفتها[٦٣]. وهناك قواعد للتعرف على أخلاق الجواري المعروضات للبيع، بقياس الفراسة، منها: دلائل الحواجب، فإن غزارة شعرها دليل الهمّ، وطولها إلى نحو الصدغ دليل التيه والصلف، وطولها نحو الأنف دليل على البله. والفم إذا اتسع كان دليلاً على الشجاعة، وإذا غلظت شفته دلّ ذلك على الحمق. أما الأذن فإن عظم حجمها دليل الجهل والدهاء وطول العمر، وبالضد من ذلك صغرها. والصوت العظيم دليل الشجاعة، وسرعة الكلام دليل العجلة والبله، وحسن الصوت دليل الرعونة. والتنفس الطويل دليل رداءة الهمة. أما العنق فإن صغرها دليل المكر، وطولها دليل الجبن، وغلظها دليل الشجاعة. وتدل الخطى الواسعة على التأني[٦٤].

وهناك بعض الاختبارات للتأكد من أن الجارية المعروضة للبيع تحسن ما يدّعيه بائعها من اتقانها الطبخ مثلاً، أو إجادتها الغناء، أو الرقص، أو الزمر، أو الضرب على العود[٦٥].

وعلى المشتري أن يتنبّه إلى أنواع الغش والتدليس التي يلجأ إليها النخاسون أو بائعو الجواري لإظهار الجارية بأحسن المواصفات المطلوبة وأكثرها قبولاً. فثمة وسائل ومعالجات مختلفة يتخذونها لتغيير الألوان، لتصيير السمراء ذهبية أو بيضاء، أو تحمير الخدود، أو تغيير الشعور إلى السواد الحالك، أو تجعيد الشعور السبطة، أو تطويل الشعور بأن يوصلوا في طرفها من جنسها. كما أنهم يستعملون من الوصفات ما يزيل آثار الجدري والنمش والوشم وما يزيل الكلف من البشرة، أو يزيل روائح الأنف، أو يجلو الأسنان، أو يطيب نكهة الفم، أو يغير زرقة العين ويجعلها كحلاء، أو صبغ البياض الذي في سواد العين، أو اتخاذ بعض أو يغير لتصير الأمة الثيب بكراً، أو لإخفاء الحمل عن المشتري[٦٦].

ومن الضروري ألاّ يتسرع المشتري بل عليه التحرز وتكرار الرؤية، وتدقيق الفحص قبل أن يقرر الشراء. لأن النظرة الأولى لا تكفي للإحاطة بما ذكرناه من أنواع التدليس.

---

(٦٢) أبو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان، رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، تحقيق عبد السلام محمد هارون، سلسلة نوادر المخطوطات؛ ٤ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤).

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٤.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣٦٧ ـ ٣٧٠.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

وعليه كذلك أن يتعرف على سبب البيع قبل ابتياع المملوك، ويلاحظ جرأته على مولاه وطاعته له. وإذا ما ابتاعه فلا يطمعه، ولا يسمح له بمخالطة المفسدين من المماليك[٦٧]. وإذا ما كان المشتري من الرؤساء فعليه أن يكون حذراً عند شراء خادم أو جارية، من أن يكون مدسوساً عليه لإيذائه أو نقل أسراره وأخباره[٦٨].

وميّز ابن بطلان بين العبيد والإماء بحسب أجناسهم، ومن يصلح للخدمة من الإماء وأيهن للمتعة، وأي أجناس الرقيق عبيد طاعة وولاء، وأيهم لا يصلحه إلا الكد والعصا، فقال: «من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية، ومن أرادها خازنة وحافظة فرومية، ومن أرادها للرضاعة فزنجية، ومن أرادها للغناء فمكية. ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال، أي للحراسة، فالهند والنوبة، ومن أرادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة»[٦٩].

٤ - الجواري

إن ازدياد الثروة لدى كبار رجال الدولة وأغنياء التجار جعلهم يتوسّعون في اقتناء الجواري لمختلف أنواع الخدمة، أو لاتخاذهن للمتعة ولمجالس اللهو والسمر، حتى عجّت القصور والبيوت بهن. وكنّ من أمم وشعوب متعددة تختلف في لغاتها وطبائعها وعاداتها. وصرن جزءاً من المجتمع العربي الاسلامي يؤثرن فيه ويتأثرن به. فظهرت الحاجة إلى العناية بتربيتهن وإعدادهن، ولا سيما الموهوبات منهن، بتعليمهن الأدب والشعر وأفانين الموسيقى والغناء. وكلما أجادت الجارية هذه الفنون أو بعضها نفق سوقها وغلا ثمنها. فلا غرابة أن يصير تعليم الجواري والبلوغ بهن درجة الحذق والمهارة عملاً مجزياً. فكان أحدهم يشتري الجارية التي يتوسم فيها الموهبة والذكاء أو اللباقة، فيعلّمها ويدرّبها ثم يبيعها بأضعاف ثمن شرائها. فالجارية التي تحذق الغناء تزيد قيمتها على مئة ألف درهم[٧٠]. فقد اشترى ابراهيم بن المهدي شارية بثلاثمئة دينار وعلّمها الغناء وأحسن تخريجها حتى نبغت فيه واشتهرت، فلما أعطاه المعتصم بالله سبعين ألف دينار ثمناً لها امتنع عن بيعها[٧١]. واشترى رجل من أثرياء البصرة جارية فأحسن تعليمها، ولما أملق حملها إلى السوق فاشتراها أمير البصرة بمئة ألف درهم[٧٢]. واشترى الواثق بالله قلم الصالحية، وهي جارية مولّدة حسنة الغناء والضرب بعشرة آلاف دينار[٧٣]. واشترى رجل جارية تحسن النوح في العزاء لا مثيل لها بثلاثين ألف درهم عزّيّة[٧٤].

---

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٧.
(٦٨) المصدر نفسه، ص ٣٥٦.
(٦٩) المصدر نفسه، ص ٣٧٨.
(٧٠) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ١٣ و١٦٢.
(٧١) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ١٠.
(٧٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١٣.
(٧٣) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٤٧.
(٧٤) محمد بن أحمد أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، تحرير آدم متز (هيدلبرغ: مطبعة كارل ونتر، ١٩٠٢)، ص ٨٣.

وكان لبعض خلفاء بني العباس الألف جارية وما جاوزها[٧٥]. وقد اشتهر المتوكل على الله بكثرة الجواري «يقال إنه كان له أربعة آلاف سرية»[٧٦] واعتاد الأمراء والعمال وغيرهم أن يتقربوا إلى الخلفاء بإهدائهم الجواري الفائقات الجمال، أو المتقنات الغناء والرقص. فقد أهدى اسحاق الموصلي جارية اسمها شجن إلى الواثق بالله وكانت مغنية بارعة[٧٧]، وأهدى إليه المغني عمرو بن بانة جاريته فريدة وكان قد ربّاها وعلّمها الغناء، فصارت أثيرة عند الواثق بالله[٧٨]. ولما آلت الخلافة إلى المتوكل على الله أهدى إليه طاهر بن عبد الله أمير خراسان هدية فيها مئتا وصيف ووصيفة، وفي الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدّبها وثقفها وعلمها صنوف العلم، فحسن موقعها من الخليفة وحلّت من قلبه محلاً جليلاً[٧٩]. ولما استخلف المعتضد بالله أهدى إليه ابراهيم بن أحمد الأغلبي خمسين جارية ومئة خادم[٨٠].

ومن الطبيعي أن يصبح بعض الجواري الحسان أو المغنيات المتقنات أو الشاعرات الموهوبات، سيدات الدار التي يحللن بها، بل لقد أصبح بعضهن سيدات قصر الخلافة. وكان لبعضهن ممّن صرن أمهات أولاد دور مهم في سياسة الدولة، بحكم تأثيرهن في أزواجهن وأولادهن من الخلفاء.

وكان إلى جانب الجواري المغنيات اللواتي اختص بهن الخلفاء والأمراء والأغنياء، قيان اتخذن الغناء مهنة لهن. ويظهر أنّ المغنيات المشهورات في بغداد في القرن الرابع كنّ من الجواري[٨١]. وكذلك كن في القرن الثالث، فقد اشتهر من المغنيات عريب وشارية وكانتا تتنافسان في الغناء ووضع الأصوات، وغدا الناس متحازبين بعضهم مع شارية وبعضهم مع عَريب، ومال كل حزب إلى من يتعصب لها من الاستحسان والطرب واقتراح الأصوات، وكانت جواري كل منهما تغني صنعة سيدتها لا تتجاوزها[٨٢].

ويصنّف ابن بسطلان الجواري بحسب البلدان التي جلبن منها، ويعدّد البارز من صفات كل منهن. فيقول عن الجواري الهنديات إنهن لهن حسن القوام وسمرة اللون، مع حظ وافر من الجمال، مع صفرة، وصفاء بشرة وطيب نكهة ولين نَعْمة، لكن الشيخوخة تسرع إليهن، وهن يصلحن للولد. وعن السنديات إنهن أشبه بالهنديات إلا أنهن يمتزن بدقة

---

(٧٥) الحسن بن عبد الله العباسي، آثار الأول في ترتيب الدول (مصر: مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ)، ص ١١١.

(٧٦) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٢٢.

(٧٧) الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٦٢.

(٧٨) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٥٠.

(٧٩) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٤ - ١٢٥.

(٨٠) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٤٤.

(٨١) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٧٨.

(٨٢) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٤، ص ٢١٢.

الخصور وطول الشعور. وعن القندهاريات إنهن مشابهات للهنديات أيضاً إلا أن لهن فضيلة على كل الناس فإن الثيب منهن تعود كالبكر. وعن المدنيات إنهن سمر الألوان معتدلات القوام، اجتمعت فيهن حلاوة القول ونَعمة الجسم، وهن قنوعات بالقليل لا يغضبن ولا يصخبن. وعن الطائفيات فإنهن سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحاً، وأحسنهم فكاهة، ولكنهن لسن بأمهات أولاد، يكسلن في الحيل، ويهلكن عند الولادة. وعن البربريات قالوا إنهن على الأكثر سود، ويوجد فيهن الصفر، والشجاعة والسرقة فيهن طبع وغريزة ولذا لا يؤتمنّ على مال، إلا أن البربريات المغربيات مطبوعات على الطاعة، نشيطات للخدمة ويصلحن للولد. وعن الزنجيات فإن مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن، وتحددت أسنانهن، وقل الانتفاع بهن، والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهروب، والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن. وقيل: لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع. وهن أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق، وفيهن جلد على العمل. أما الحبشيات فالغالب عليهن نَعْمة الأجسام ولينها وضعفتها، يتعاهدهن السل، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص، وفيهن سلاسة انقياد، ويصلحن لـلائتمان على النفوس، ويمترن بضعف الأجسام، وهن قصار الأعمار. وأما النوبيات فهن من جملة أجناس السودان ذوات ترف ولطف وقصف، وهواء مصر يوافقهن لأن ماء النيل شربهن. وإذا انتقلن إلى غير مصر تسلطت عليهن العلل والأمراض، أخلاقهن طاهرة وصورهن مقبولة، فيهن عفة وتصوُّن وإذعان للمولى كأنهن فطرن على العبودية. وأما التركيات فقد جمعن الحسن والبياض والنَعْمة، ووجوههن مائلة إلى الجهامة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة. وقد توجد فيهن السمراء الأسيلة، ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية، وهن كنوز الأولاد ومعادن النسل، وفيهن نظافة ولباقة، لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة، وفيهن أخلاق سمحة وقلة وفاء. وأما الروميات فبيض شقر سباط الشعور زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة. يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن. ولا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة. وأما الأرمنيات فالملاحة فيهن لولا ما فيهن من وحشة الأرجل، مع صحة بنية وشدة أسر وقوة. وقل ما يوجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع ولفظ، وهن عبيد كد وخدمة، وليس فيهن فضيلة غير تحمل العناء والأعمال الثقيلة. وهذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب(٨٣).

ويقول أحد سماسرة الرقيق: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهي بنت تسع حجج، وتلبث بمكة ثلاث حجج، ثم تجيء إلى العراق وتثقف فيه، ثم تباع وهي بنت خمس وعشرين سنة، تكون قد جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث المكيات وآداب العراقيات(٨٤).

---

(٨٣) ابن بطلان، رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد، ص ٣٧٢ - ٣٨٧.
(٨٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

٥ ـ تأثير الجواري والقيان

لقد كان تأثير الجواري والقيان في الحياة الاجتماعية شديداً واضحاً، فقد كنّ وسيلة لنشر الفنون الجميلة وما يتبعها من رقيّ الذوق الفني والشعور بالجمال وتقديره. فنشرن أنواعاً من الظرافة في أزياء الملابس وألوانها ومناسبات لبسها، وفي حب الأزهار وتعشقها، وكتابة الأشعار الرقيقة والجمل الظريفة على العصائب والمناديل وأكمام الملابس وجيوبها، وعلى الوسائد. كما نشرن بعض أساليب التجميل كالعناية بتصفيف الشعر وترقيق الحواجب. ومن الجدير بالذكر أن بعض الجواري أقمن على الدِّين الذي كن عليه كالنصرانية والوثنية، وكان مواليهن حتى من الخلفاء يحترمون دينهن ويسمحون لهن بالفروض والطقوس الخاصة في الأعياد وغيرها، الأمر الذي يظهر مدى التسامح الديني الذي كان من مميزات الحضارة العربية الاسلامية.

ومما يظهر شدة أثر القيان والجواري في المجتمع العربي أن الجاحظ عميد الأدب في القرن الثالث وضع فيهن رسالة سمّاها رسالة القيان ذكر فيها موقف الشريعة من اقتنائهن، وتأثيرهن في ظهور التسامح الخلقي، وأشار إلى براعتهن في الغناء ونظم الشعر. وأشاد بفضائلهن وسكون النفس إليهن لأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض، لأن اللذات كلها إنما تكون بالحواس، فللعين النظر إلى القينة الحسناء، وإذا رفعت عقيرتها تغني حدّق إليها الطرف وأصغى نحوها السمع، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي للقلب ما أفاد منها قبل صاحبه. فيتولد منه مع السرور حاسة اللمس. فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع في شيء قط، ولم تؤدّ الحواس مثلها[٨٥].

كما يذكر الجاحظ ما ينشأ من الفتنة في مجالسة القيان، لأن القينة لا تخلص في ودها، وانها لا تفتأ تنصب الأحابيل والشراك لجرّ المغانم وتحقيق المكاسب. وهو يرى ذلك أمراً طبيعياً في الجارية بحكم نشأتها وتربيتها، بل إنها مضطرة إليها بحكم صنعتها[٨٦].

ويشارك صاحب الموشّى الجاحظ في ذم القيان إذ يقول: لم يبتل أحد من أهل المروءات والادب، ولا امتُحن الفتيان ببلية هي أعظم من هواهن. لأن حبهن حب كذوب، وعشقهن عشق مشوب، وهواهن منسوب إلى الملل ليس بثابت ولا متصل، وإنما هو لطمع وغرض. وهن سريعات الغضب، يستدل على ذلك بأفعالهن الردية وأخلاقهن السيئة. وان محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال، وتنتقل عند الإفلاس والإقلال[٨٧].

وكان للجواري تأثير مهم آخر في المجتمع، ذلك أنهن حجبن الأحرار من النساء عن

---

(٨٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسالة القيان، ص ٧٠.

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٨٧) أبو الطيب محمد بن أحمد الوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، حقّقه كمال مصطفى، ط ٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٣)، ص ١١٦ ـ ١١٧.

الحياة الاجتماعية والثقافية. إذ اتخذ الرجل في حياته هذه طائفة من الجواري الأديبات الشاعرات والمغنيات، دون زوجته الحرَّة التي أخذ يحرص على أن لا يراها أحد من الرجال غيره وغير الأقربين من محارمها. فكان ذلك سبب الحجاب الذي لفَّ المرأة العربية المسلمة قروناً عديدة، وما ترتب على ذلك من عزلتها وجهلها. ويذكر القاضي التنوخي أن امرأة من أهل الأنبار كانت قد جاوزت الأربعين سنة، خرجت من بيتها إلى بغداد في محنة عرضت لها، فرأت في طريقها جملاً يدير دولاباً، فسألت عنه وحلفت بالله أنها ما رأت جملاً قط[88]. وذلك ناشىء لا شك من احتباسها في بيتها، وتشديد الحجاب عليها.

ثانياً: طراز المعيشة

١ ـ المساكن

كشفت الحفريات التي أجريت في أطلال سامراء أن أغلب البيوت كانت مشيَّدة على طراز واحد هو الطراز المعروف بالحيري بكمين. وهو طراز وصفه المسعودي وعزا إحداثه إلى المتوكل على الله. وكان قد أحدثه قديماً أحد ملوك الحيرة فنسب إليها، وهو يتألف من إيوان وعلى جانبيه غرفتان يمتد أمامهما رواق متصل بالإيوان[89]. وقد شاع هذا الطراز في بناء البيوت في بغداد وسامراء منذ أيام المتوكل على الله. وكان المترفون من الناس يلجأون في الصيف إلى تبريد بيوتهم باستعمال الخيش بوضعه حول الغرف المراد تبريدها ويبلونه بالماء دوماً فيبرد الجو، أو أن يكبسوا قطع الثلج وعليها غلمان يروِّحون بمراوح فيبرد هواء المكان الذي وضع الثلج في مدخله أو قريباً من إحدى نوافذه. وكان في قصر الخليفة عدد من الغلمان عليهم عريف، يتناوبون في رش الخيش الذي فيه[90]. كما كانوا يدفئون البيوت في الشتاء بحرق الفحم في مواقد توضع في الغرف. وكان طبيب البلاط بختيشوع بن جبرائيل يسكن بيتاً فخماً في سامراء بناه في أيام المتوكل على الله[91]. وقد وصف أحد أصحابه ما شاهده من وسائل تبريده وتدفئته، قال: دخلت إلى بختيشوع في يوم شديد الحر، وهو جالس في مجلس مُخَيَّش بعدة طاقات من الخيش، وفي وسطه قبة عليها أكسية من قصب مظهر بدبيقي قد صبغ بماء الورد والكافور والصندل، وعليه جبة يماني سعيدي مثقلة، ومطرف قد التحف به. فعجبت من زيِّه، فحين حصلت معه في القبة نالني من البرد أمر عظيم، فضحك وأمر لي بجبة ومطرف، وقال: يا غلام اكشف جوانب القبة، فكشفت فإذا أبواب مفتوحة من جانب

(٨٨) المحسن بن علي التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، تحقيق عبود الشالجي، ٨ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧١)، ج ٨، ص ٢٣٦.

(٨٩) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٨٧.

(٩٠) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٣٨.

(٩١) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٦١.

الإيوان إلى مواضع مكبوسة بالثلج فيخرج منها البرد الذي لحقني. ولما كان في صلب الشتاء دخلت عليه يوماً والبرد شديد، وعليه جبة محشوة وكساء، وهو جالس في طرمة في الدار على بستان غاية في الحسن، وعليها سمّور قد ظُهِّرت به، وفوقه أكسية حرير مصبغ وأَبْود مذهب مخرّق، وخادم يوقد العود الهندي، وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة. فلما حصلت معه في الطرمة وجدت من الحر أمراً عظيماً. فضحك وأمر لي بغلالة قصب. وتقدم وكشف جوانب الطرمة فإذا مواضع لها شبابيك خشب بعد شبابيك حديد، وكوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون في ذلك الفحم بالزقاق التي تكون للحدادين[٩٢]. وكان بختيشوع يأمر غلمانه بأن يجعلوا أجاجين الدبس في سطوح الدار ليجتمع الذباب عليه فلا يقرب من أهل الدار[٩٣].

وكانوا يستخدمون المراوح للتبريد في بعض البيوت، وهي قطع من القماش السميك شبيهة بشراع السفينة، تربط بسقف البيت الذي يراد تبريده، ويُشدُّ بها حبل يُجَسُّ به بعد أن يرش عليها الماء، فتأتي بتحريكها بنسيم بارد من الهواء[٩٤]. كما استعملوا المذابّ من الخوص[٩٥]. وتفننوا في تزيينها بالنقوش وكتابة ما يناسب من الأشعار عليها[٩٦]. وكانت المذابّ التي تستخدم في حضرة الخليفة عند جلوسه أو في مواكبه تقمّع بالذهب والفضة[٩٧]. واستخدموا المراوح اليدوية. وقد اعتاد الظرفاء أن يكتبوا على وجهيها أو على وجه واحد منها أبياتاً من الشعر، وكانت كالمذاب تتخذ من الخوص أيضاً[٩٨].

وكانت بيوت الأغنياء من الناس تغشّى سقوفها بالساج وتُزيّن تعاريجها بالأبنوس والعاج[٩٩]. وقد يكسون جدران الغرفة بالأقمشة الثمينة كالخزّ وغيره[١٠٠]. ذكر المغني محمد بن الحارث أن الواثق بالله بعث في طلبه ذات ليلة، قال: فذهبت لأدخل على رسمي حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبّسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبّسة بمثل ذلك، وإذا الواثق بالله في صدره على سرير مرصع بالجوهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب[١٠١].

---

(٩٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

(٩٤) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، ج ٢، ص ١٧٤.

(٩٥) الشابشتي، الديارات، ص ١٨٥.

(٩٦) الوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ٢٤٧.

(٩٧) أبو الحسين هلال بن المحسن الصابيء، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٤)، ص ٩١.

(٩٨) الوشّاء، المصدر نفسه، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٩٩) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٥.

(١٠٠) الشابشتي، الديارات، ص ٤٣.

(١٠١) الأصبهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١١٦.

ويتألف فرش البيوت المترفة عادة من الزلالي والطنافس والأنخاخ والقُطف والمقاعد والأنطاع والنمارق والحصر العبادانية التي تطوى كما تطوى الثياب، والدسوت الممزوجة بالذهب، ومطارح الديباج المقصّب بالذهب والمحشو بريش الصعو[١٠٢]. وأحسن أصناف الفرش ما كان يجلب من أرمينيا، ويتألف فرش البيت الأرمني من عشر مصليات بمخادّها ومساندها ومطارحها وأنخاخها وبساطها، وهو مطرز بالذهب، وثمنه خمسة آلاف دينار[١٠٣]. وكان هذا الفرش لنفاسته يُهدى إلى الخلفاء[١٠٤]. أما الأسرّة فكانت من الأبنوس المزيّن بالعاج[١٠٥]. وتتخذ الكلل من الألوان الزاهية للتوقي من البعوض[١٠٦]. ويقول الجاحظ إن زي مجالس الخلفاء في الشتاء والصيف واحد، وهو فرش الصوف لأنهم يرون ذلك أكمل وأجزل وأفخم وأنبل[١٠٧].

أما الفرش الرخيص الذي يستعمله سواد الناس فلا يتعدى الزلالي الرخيصة، والقطف السوادية، والمسوح الكردية[١٠٨].

وكانت الأدوات واللوازم البيتية في البيت الاعتيادي هي: طست وابريق، وجرار وكيزان وقدور وجامات وسُكُرّجات وغضائر، وصوانيّ وأطباق، وقناني وأقداح[١٠٩]. ومن الطبيعي أن تختلف نوعية هذه الأدوات واللوازم، فمنها البسيط الرخيص، ومنها الجيد الغالي الثمن. وذلك يتوقف على منزلة صاحب البيت الاجتماعية وحالته المالية. فكان بعض الأثرياء يستعملون الأطباق والكؤوس من الذهب، مما دفع الخزافين إلى ابتكار الخزف الذهبي لصنع الغضائر والأطباق والكؤوس.

وقد استخدم الناس للإنارة ليلاً السُرُج والشموع. ويستخدم المترفون لأسرجتهم زيتاً لا رائحة له مما يستخدم في الطبخ، ويستخدم غيرهم أنواعاً رخيصة من الزيوت. وكان أهل اليمن يوقدون مصابيحهم بدهن السمك ويحمل إليهم من مهرة[١١٠]. واستخدم أهل مصر زيت الفجل للغرض نفسه، وقد أشرنا إلى ذلك في فصل الصناعة. وكانت الشموع أنواعاً،

---

(١٠٢) الزلالي جمع الزلّية وهي البساط، والأنخاخ جمع النخ وهو البساط الطويل، والنمارق هي الوسائد الصغيرة يتكأ عليها، والصعو طائر أصغر من العصفور.

(١٠٣) التنوخي: الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ٨٣، ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٨، ص ٥٢.

(١٠٤) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٤٥.

(١٠٥) الوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ٢٣٣.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

(١٠٧) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط ٣، ٤ ج (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٨)، ج ٣، ص ١١٥.

(١٠٨) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٧.

(١٠٩) الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٢٧.

(١١٠) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠٠.

منها العادي الذي يستخدمه سواد الناس، ومنها المعنبر والمكفّر، أي المخلوط بالعنبر والكافور، لكي تلطف رائحة الشمع المحترق. ومن الأسرجة نوع يسمى (المنارة) وهي سراج بخمس فتائل[١١١]، وقد يتخذها الأغنياء من الذهب والفضة، ويتخذها غيرهم من النحاس. وقد استخدموا النفّاطة للإضاءة، ويظهر من اسمها أنها سراج يوقد بالنفط. وقد ورد ذكرها في كتاب الفرج بعد الشدة، قال «فقعدت في ثيابي وجاء الليل فجعلت بين يديّ نفاطة»[١١٢]. وقال كذلك «استقبلني موكب فيه من الشموع والنفاطات ما أضاء منه الطريق فصار كالنهار»[١١٣]. كما ورد في جدول النفقات اليومية لبلاط المعتضد بالله مبلغ أربعة دنانير يومياً لأثمان النفط والمشاقة للنفاطات والمشاعل، إلى جانب ما خصص للزيت والشمع[١١٤].

٢ ـ الطعام

لعل أقدم كتاب وصل إلينا في الطبخ إبان ازدهار الحضارة العربية، هو كتاب الطبيخ لمؤلفه محمد بن الحسن بن محمد البغدادي، ألّفه سنة ٦٢٣ أي قبيل سقوط بغداد بثلاث وثلاثين سنة[١١٥]. ورغم بعد زمن هذا الكتاب عن القرن الثالث، إلاّ أنه يلاحظ أن معظم ما جاء فيه من أنواع الطبيخ وأصناف المخللات والحلويات قد ورد ذكره في حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر أحمد الأزدي من أبناء القرن الرابع[١١٦]. مما يستدل منه أن الأطعمة المعروفة في القرن السابع لم تكن تختلف كثيراً عما كانت عليه في القرن الرابع، ولا نبعد عن الواقع إذا ما قلنا إنها كانت نفسها. ولهذا اعتمدنا على كتاب الطبيخ المذكور في توضيح بعض أنواع الطبيخ، والمخللات والمطيبات والحلويات مما ورد ذكره في كتاب الأزدي الذي اعتمدنا على ما جاء فيه من الطعام، وما يتعلق به في بحثنا هذا، لقرب عهد مؤلفه من العصر الذي نبحث فيه.

عند عرضنا أصناف المواد الغذائية التي كانت مألوفة آنذاك نلاحظ أن قوام الطعام كان يتألف من الخبز واللحم والسمك والرز والمخضرات، وأن الزيت المستخدم في طهي الطعام هو زيت السمسم، ودهن الألية المسليّة، إلا أن كثيراً من الأغنياء كانوا يستعملون دهن اللوز والجلوز ـ الصنوبر ـ ولهم في دورهم رحى يستخرج عليها دهن اللوز[١١٧]. ويكاد اللحم

---

(١١١) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٤٥.

(١١٢) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ١٠٣.

(١١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٩.

(١١٤) الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٤.

(١١٥) محمد بن الحسن الكاتب البغدادي، الطبيخ، نشره داود الجلبي (الموصل: مطبعة أم الربيعين، ١٩٣٤).

(١١٦) يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ص ٣٤٥.

(١١٧) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٢، ص ٩.

يدخل في جميع أنواع الطبيخ. أما الرز فكان يطبخ باللبن، ويسمى أرزاً بلبن أو رخامية[118]، أو أن يطبخ بالفلفل ويسمى أرزاً بالفلفل أو مجدرة[119]، أو يطبخ بالرشتة ويسمى الأطرية[120]. كما يدخل الرز في بعض أنواع الطبيخ كالشوربا والمهلبية والاسفيذباجة والعرسية، وهي هريسة الرز[121].

وكانوا يسمون التوابل «الأبازير» وما كان شائع الاستعمال منها: الكسفرة، والزنجبيل، والفلفل، والدار صيني (القرفة)، والقرنفل، والمصطكى. ومن أنواع المخللات التي كانت تزين بها الموائد: النعناع المخلل، والباذنجان والخيار واللفت، وكلها مخللة، والباذنجان المحسي، أي المسلوق بالخل والمكبوس بالشيرج[122]. ومن المطيبات التي كانت توضع مع الطعام على المائدة: الزيتون المبخّر، والخل بالخردل واللوز، والباقلاء بخلّ وشيرج، والملح المطيّب وهو المطحون ناعماً والمخلوط بمسحوق الكسفرة والسمسم وحب القنب والأنسون بعد تحميصها، وقد يُلوّن باللون الأصفر بماء الزعفران، أو باللون الأحمر بماء السماق، أو باللون الأخضر بماء السلق[123].

وإلى جانب أنواع الطبخ باللحم كانت هناك أنواع متعددة لطبائخ الدجاج والأسماك، كالمطجن منها أو المشوى أو المسلوق أو المقلي[124].

ولقد تنوع الطعام وعرف الناس أنواعاً عديدة من الطبيخ والمخللات والحلويات والنقول والفواكه والأنبذة. وكان المترفون يتأنّقون في طعامهم وشرابهم ويتخذون ما لذّ وطاب منها. أما طعام العامة فكان يقتصر على وجبة واحدة وهو في العادة من التمر والسمك ولحم البقر الرخيص الثمن. والهريسة وحلاوة التمر من لذائذ الطعام عندهم[125]. أما الفقراء فلهم في لحم البقر وعصيدة التمر كفاية[126].

وكان الخلفاء في بغداد وسامراء يُعنون بطعامهم وشرابهم، ولا يتناولون شيئاً إلاّ بحضور طبيبهم. وكان الطبيب الماهر يوحنا بن ماسويه يقف على رؤوس الخلفاء الذين خدمهم، وهم المأمون، والمعتصم بالله، والواثق بالله، والمتوكل على الله، ومعه الجوارشنات

---

(١١٨) الكاتب البغدادي، الطبيخ، ص ٧.

(١١٩) المصدر نفسه، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٢٨، ٣١ ـ ٣٢ و٥٢ على التوالي.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(١٢٤) حول الدجاج، انظر: المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ٥١، وحول السمك، انظر: المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦٤.

(١٢٥) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨)، ص ٢٧٤.

(١٢٦) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ١، ص ١٢١.

الماضمة المسخنة المقوية للحرارة في الشتاء، والأشربة الباردة في الصيف[١٢٧]. وكانت موائدهم عامرة بأنواع المأكولات والمشروبات، وتضم أصناف الأطعمة والفاكهة والحلوى وغيرها، وتحمل إليهم بعض أنواع الخضر والفاكهة من مختلف الأقاليم، وهم ينفقون عليها كثيراً. فقد كان الخليفة المأمون ممن يهتمون بالطعام ويتذوق الطيب منه. ويظهر أنه كان يجيد الطبخ ويتبارى فيه مع المقرّبين إليه. ويروي المسعودي قصة رجل عامي وجد في آخر الليل فجيء به إلى ديوان الخليفة، وكان عنده أخوه المعتصم، ويحيى بن أكثم، ومحمد بن عمرو الرومي، وكان قد طبخ كل واحد منهم قدراً. فقال المأمون للرجل: قد طبخ كل واحد منا قِدْراً، فكل من كل واحد منها قَدَراً، وأخبرنا عن فضائلها وما ترى من طيبها. فأكل الرجل من أول قدر، وهي للمأمون، فقال عنها هذه كأنها مسكة وطباخها حكيم لطيف، وذاق الثانية، وكانت للمعتصم، فقال وهذه كأنها الأولى وطبخت بيد واحدة، وذاق الثالثة وهي لعمرو فأثنى عليها. ولما ذاق الرابعة ذمها وطعن بمعرفة صاحبها أصول الطبخ، وكانت قِدْر يحيى بن أكثم، فأكرم المأمون الرجل وأخرجه[١٢٨].

وكان المعتصم بالله شديد الاعتناء بالطعام ويحسن طبخه[١٢٩]. وهو أول من ثرد الطعام وكثره حتى بلغت نفقات مائدته في اليوم ألف دينار[١٣٠]. وقد أمر يوماً ندماءه بأن يطبخ كل منهم قِدْراً لمعرفة أحسنهم طبخاً، وحكّم قاضي قضاته أحمد بن أبي دؤاد، فجعل هذا يأكل من أول قدر أكلاً تاماً. فقال المعتصم بالله: هذا ظلم، قال: وكيف ذلك؟ قال لأني أراك أمعنت في هذا اللون وستحكم لصاحبه. قال: يا أمير المؤمنين عليّ أن آكل من هذه القدور كلها كما أكلت من هذه القدر. فتبسم الخليفة وقال: شأنك إذن. فأكل من جميعها كما ذكر، ثم قال: أما هذه فقد أحسن طبخها إذ أكثر خلّها وأقلّ زيتها. أما هذه فقد طيّبها طابخها باعتدال توابلها، وأما هذه فقد حذق من عملها بقلة مائها وكثرة مرقها، حتى وصف القدور كلها بأوصاف سُرَّ لها أصحابها. ثم أكل مع القوم كما أكلوا[١٣١].

واشتهر الواثق بالله وقاضي قضاته أحمد بن أبي دؤاد بأنهما من الأَكَلَة المشهورين[١٣٢]. يقول المسعودي: كان الواثق بالله من شدة الشهوة للطعام والنهمة فيه على الحالة المشهورة

---

(١٢٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٤٦.

(١٢٨) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٧ ـ ١٨.

(١٢٩) الشابشتي، الديارات، ص ١٨٦.

(١٣٠) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩)، ص ٣٣٧.

(١٣١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٩٧ ـ ٩٨، والتنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٧، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(١٣٢) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه ورتّب فهارسه أحمد أمين، أحمد الزين وابراهيم الابياري، ٧ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠ ـ ١٩٥٣)، ج ٦، ص ٣٠٠، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٤)، ص ١١.

المتعالمة، ويروي خبراً يستدل منه شدة ولع الواثق بالله بالطعام[١٣٣]. ولشدة ولع الواثق بالله بالطعام واهتمامه بما يتعلق به أن اتخذ خواناً من الذهب مؤلفاً من أربع قطع، وجميع ما عليه من الصحون والأقداح من الذهب. وقد سأله ابن أبي داؤد أن لا يأكل عليه للنهي الوارد في الحديث الشريف عنه. فأمر أن يكسر ذلك ويضرب دنانير تحمل إلى بيت المال[١٣٤]. وكانت هذه المائدة وصحافها وأقداحها قد أمر الواثق بالله بصنعها من الذهب الذي صار إليه عند وفاة والي السند عمران بن موسى[١٣٥].

ومما يذكر عن نهم الواثق بالله في الطعام أنه كان يأكل في أكلة واحدة أربعين باذنجانة، حتى ان أباه بعث إليه من يقول له: ويلك متى رأيت خليفة أعمى! يشير بذلك إلى أن الإكثار من أكل الباذنجان يسبب العمى، فقال للرسول: اعلم أمير المؤمنين أني تصدّقت بعيني جميعاً على الباذنجان[١٣٦].

وعرف عن المتوكل على الله أنه كان يتذوّق الطعام ويتخيّر الجيد منه. وقد أعجب يوماً بقدر سكباج رآها تُطبخ على احدى السفن فاستطاب رائحتها، فأمر فقدمت إليه، فأكل منها واطعم من كان عنده من ندمائه. ثم ملأ القدر دراهم وأعادها إلى أصحابها[١٣٧]. وبعث مرة إلى ابراهيم بن العباس الشاعر الكاتب، وكان قد ابتدع «الابراهيمية» وهي نوع من طبيخ اللحم بمواصفات خاصة، يأمره أن يصف له هذه الطبخة، فكتب له صفتها[١٣٨]. وبلغت نفقات المطابخ في الدار على عهده مئتي ألف دينار سنوياً[١٣٩].

على أن بعض الخلفاء اقتصدوا في نفقات موائدهم، ومنهم من قام بذلك زهداً واقتصاداً في الأموال العامة كالمهتدي بالله، فقد كان الخلفاء قبله ينفقون على موائدهم كل يوم عشرة آلاف درهم، فأزال ذلك وجعل لمائدته ولسائر مؤنه في كل يوم نحو مئة درهم، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم[١٤٠].

ومنهم من قام بذلك تقتيراً وبخلاً، فإن المعتضد بالله رغم امتلاء خزائنه بالأموال كان شحيحاً ينظر فيها لا ينظر فيه العوام. حكى عبد الله بن حمدون أحد ندمائه قال: «إنه امر ان تنقص حشمه ومن كان يجري عليه الانزال، من كل رغيف أوقية، وأن يبتدأ بأمر خبزه... فتعجبت من ذلك في أول أمره، ثم تبينت القصة، فإذا أنه يتوفر في ذلك في كل شهر مال عظيم»[١٤١].

---

(١٣٣) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٧٦ - ٧٧.
(١٣٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٤٣.
(١٣٥) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١٨٥.
(١٣٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٣٠٠.
(١٣٧) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٩٩.
(١٣٨) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ٥٣.
(١٣٩) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢١٩.
(١٤٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٨٩ - ١٩٠.
(١٤١) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣٢.

ونهج ابنه المكتفي بالله نهجه إذ أوكل على مائدته بعض خدمه وأمره أن يحصي ما فضل من الخبز عليها، فما كان من المكسر عزله للثريد، وما كان من الصحاح رُدَّ إلى مائدته من الغد، وكان يفعل مثل ذلك بالبوارد والحلواء[142].

ومن دلائل اهتمام الخلفاء بالطعام وعنايتهم به وتذوقهم له أن سميت بعض الأطعمة بأسماء بعضهم، كالمنصورية، والمأمونية، والمتوكلية، والمعتضدية[143]. وقد صنف في الطبخ في خلال هذا القرن عدد من الكتب، منها: كتاب الطبيخ لابراهيم بن المهدي، وصنف كل من ابراهيم بن العباس الشاعر الكاتب، وعلي بن يحيى المنجم نديم خلفاء سامراء، كتاباً في الطبيخ[144].

أ ـ أنواع الطعام

يصف صاحب حكاية أبي القاسم البغدادي مائدة للمترفين وأخرى من موائد الفقراء، وسنحاول أن نلخصها في ما يأتي لنتعرف على ما كان يقدم على موائد الطعام من الأطعمة والأشربة وأنواع المخللات والفواكه والحلويات[145].

إن الخبز على مائدة المترفين رغفان من دقيق فائق طحن العروب[146]، أبيض في صفرة الذهب، يصر تحت الأضراس ويتعلك، والنظر إليه يشبع. وخبز آخر قد جعل في رغيفه اللوز المرضوض والفستق المقشور وحبة الخضراء والسمسم المقلوّ، والكمون، فهو بقل وأدم ونزهة للنظر.

والمشهيات سكاريج من الصيني بيض ولازوردية وخمرية وصفر وحمر، فيها الجبن الحريف الذي يفتق الشهية، وزيتون مدخّن مخلوط باللوز المقشور والصعتر، وجبن رومي مقلوّ أبيض مشرَّب بصفرة، وسلجم أبيض وأحمر كأنه لب الخبز منقوع بالخل، ومخلل الخيار والباذنجان أو المنقوعان بماء الرمان، وسَكْرُجة بلور فيها ماء اللميوا ـ أي عصير الليمون ـ وماء الحصرم. ومن البوارد غضائر قد ملئت بفراريج كسكر[147]، وكبود الدجاج المسمَّن، وصدور

(١٤٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨١.

(١٤٣) السيوطي، المستطرف من أخبار الجواري، ج ١، ص ١٧٧، وأبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٤٠ ـ ٤٤.

(١٤٤) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ١٧١ و٤٥٤.

(١٤٥) أبو المطهر الأزدي، المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٢.

(١٤٦) العروب هي المطاحن التي تنصب وسط النهر وتدار بقوة الماء.

(١٤٧) كَسْكَر كورة واسعة كانت قصبتها واسط، اشتهرت بالفراريج لأنها تكثر بها جداً. ويقول ياقوت الحموي انه رأى أنها تباع: أربعة وعشرون فروجاً بدرهم واحد. وقد يجلب إليها من بعض أعمالها فيربى بها وينسب إليها. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.

البط، ومطجن،وزرباج، ومنقورية، وصحناة، وطرِّيخ مقلو بالبيض، وسنبوسج معمول بصدور الدجاج والدرّاج[148].

ومن ألوان الشواء البطوط الكسكرية، والجداء الصَّرصرية[149]، والدجاج الهندي المسمَّن، والحملان التركية، وجوذابة خشخشانية، وأرز بلبن ترك فيه الزعفران ورُصِّع بالحمص، وذُرّ عليه سكر مدقوق[150].

ومن أنواع الطبيخ الأخرى التي تقدم على المائدة، الابراهيمية، والاسفيذباج، والحبشية[151]، والديكبركية، والمشمشية، والمضيرة، والسماقية، والحماضية، والعنبرية، والطباهجية[152].

ثم يقدم من الحلوى الخبيص المطيب بماء الورد، والمزمَّل المتخذ من رقيق السميد وقد أذيب فيه السكر وذُرَّ عليه سكر منخول، واللوزينج المطيب بالمسك وماء الورد، والفالوذج المعمول في التنور، والعصيدة المنصورية المشهورة ببغداد، وقطائف مقلوة مغرقة بالجلاب مصفوفة في جامات البلور[153].

وكانت هذه الأطعمة والحلوى تقدم بالغضار الصيني الملون، وبجامات البلور المحلاّة بالذهب والفضة، وبالغضار الذهبي الذي ابتكرته دور الخزف في بغداد وسامراء، ليقوم مقام الصحون الذهبية.

ويتبع ذلك تقديم أنواع الفاكهة المشهورة بجودتها كالعنب الرازقي، والتين الوزيري، والتفاح المسكي المضلع، والداماني كأنه حمرة المرجان، والسفرجل، والكمثرى الشامي،

---

(١٤٨) المطجن، والزرباج، والمنقورية أنواع من الطبيخ باللحم. انظر: الكاتب البغدادي، الطبيخ، ص ٥٦، ١٣ و٢٠ على التوالي. والصحناة هو السمك الصغير المملوح. انظر مادة «صحن»، في: المنجد في اللغة والأعلام، ط ٢٨ (بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦)، ص ٤١٧. والطرّيخ هو نوع من السمك يجلب من بحيرة وان، ومن طرق تحضيره أن يلقى في الشيرج ويكسر عليه البيض. انظر: الكاتب البغدادي، المصدر نفسه، ص ٦٣ ـ ٦٤. والسنبوسج هو رقاق الخبز المحشو باللحم المدقوق بالساطور، أو بالسكر واللوز المدقوقين ناعماً. انظر: المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١٤٩) منسوبة إلى صَرْصَرْ، وهما قريتان من قرى بغداد على نهر عيسى إحداهما عليا والأخرى سفلى، وقد يسمى النهر صَرْصَرْ أيضاً. انظر: ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠١.

(١٥٠) جوذابة الخشخاش نوع من الحلوى تصنع بالسكر والعسل والزعفران، تجعل بين رقاقتين وتؤكل مع الدجاج. انظر: الكاتب البغدادي، المصدر نفسه، ص ٧١.

(١٥١) حول كيفية عمل الإبراهيمية، والإسفيذباج، والجبشية، انظر: المصدر نفسه، ص ١٠، ٣٢ و٢٠ على التوالي.

(١٥٢) حول كيفية عمل الديكبريكة، والمشمشية، والمضيرة، والسماقية، والحماضية، والعنبرية، والطباهجية، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٣، ٢١، ٢٣، ١٨، ١١، ٣٥ و١٥ على التوالي.

(١٥٣) حول كيفية عمل الخبيص، واللوزينج، والفالوذج، والعصيدة المنصورية ـ وهي عصيدة التمر ـ والقطائف، انظر: المصدر نفسه، ص ٥٣، ٧٦ و٧٦ أيضاً، ٧٤ و٨٠.

وأنواع التمور، ويعدد صاحب الكتاب قرابة ثلاثين نوعاً كالعبدسي، والبرين، والخاستوي، والسكري، والآزاذ، والطبرزد، والعمري، والصيحاني . . . الخ[١٥٤].

ثم يعدد أصنافاً من الورود التي تتزين بها المائدة كالنرجس، والسوسن، والنسرين، والخيري، والضيمران، والريحان، والنمام ، والبهار، والمنثور، والبنفسج، كل في موسمه[١٥٥].

وعندما يرفع الطعام يأتي فرّاش بيده خلال مطيبة، فيتناول الجماعة منه بلطف، يتبعه بمستحلب مطيّب، ثم يلقي على أيديهم بعد فركها بالمستحلب أشناناً أبيض فيه أرز مطحون، وقليل من الكندر، والسعد، والصندل، وذريرة المسك، والكافور، وجنبذ الورد، فيرغى كما يرغي الصابون. وبعد أن يغسل القوم أيديهم يناولهم منديلاً دبيقياً مخملاً عمل مصر، ألين من القز، وأنعم من الخز.

ثم يصف الأزدي مائدة الفقراء وما يوضع عليها من الأطعمة والفاكهة، وهي مائدة سواد الناس، فهي بلا خلّ ولا بقل، على سفرة عادية بساط الأرض أنظف منها، عليها قليل من البصل والثوم والباذنجان والسلجم والخيار والزعرور. والطبيخ هو البطون التي تُطعم عادة للسنانير والكلاب، أو من لحم البقر الغليظ الذي لا ينفسخ باليدين، فإذا أخذ أحد الجالسين قطعة منه ونهشها بأسنانه انتثر مرقها على وجهه ولحيته وثيابه. أما المرق فتغوص فيه يد الإنسان إلى مرفقه لكي يعثر على قطعة من اللحم. وتفوح من صحون الماش والعدس واللوبيا والكرنب والسلجم روائح كريهة. ويختم الطعام بالعنب الأسود، وحلاوة مدلوكة باليد. ثم يأتي بعد ذلك سوداي كهل بلحية شمطاء وحالة رثّة زرية، بيده قطع من الخطب يناولهم للتخلل، ثم يسوقهم إلى صحن الدار لغسل الأيدي على بالوعة تزكم الأنوف من روائح القاذورات المجموعة فيها. أما الأقداح فإنها كمساعط الحجامين في شكلها المستدير، والأواني تصلح للصفع. وسراجهم مظلم يوقد بالسمن المنتن الذي يصعد دخانه إلى الدماغ فيرهجه رهجاً[١٥٦].

ويمدح الأزدي طباخاً حبشياً معدّداً الصفات المطلوبة آنذاك في الطباخ الجيد، فيقول «كان أحذق من رُئي من أهل صناعته، أطهر من الماء في نظافته، أرهفهم سكيناً، وأعدلهم تقطيعاً، وأذكاهم ناراً، وأطيبهم أبزاراً، كأن الموائد التي يعبيها والثرائد التي يدنيها ويتنوق فيها، رياض مزخرفة وبرود مفوّفة. كان لا يجمع بين لونين، ولا يوالي بين طعمين، يخالف بين طعام الغداء والعشاء، ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء. يكتفي باللحظة ويفهم بالإشارة، ويسبق إلى الإزارة، كأنه مطلع على الضمير من الزائر والمزور. كان والله يطبخ ما يفيق شهوة النعسان والثكلان والمخمور والمغموم»[١٥٧].

---

(١٥٤) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٤٣ ـ ٤٤.
(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.
(١٥٦) المصدر نفسه، ص ٤٦.
(١٥٧) المصدر نفسه، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

ويصف الهلال الصابي مائدة الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات (٢٤١ - ٣١٢) وهو ممن عاش معظم حياته في خلال القرن الثالث، نرى من المناسب أن نذكرها توضيحاً لما يتعلق بالطعام والشراب والمآدب. قال: «ويقعدون من جانبيه وبين يديه - أي أنه يتصدّر المائدة - ويُقدَّم إلى كل واحد منهم طبقٌ فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء، ثم يجعل في الوسط طبقٌ كبير يشتمل على جميع الأصناف، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى. ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل. فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم، واستوفوا كفايتهم، شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم. واحضرت المائدة مغشاة بدبيقي فوق مكبّة خيازر ومن تحتها سفرة ادم فاضلة عليها، وحواليها مناديل الغَمر من الثياب المعصورة. فإذا رُفعت المكبّة والأغشية وأخذ القوم في الأكل، وأبو الحسن بن الفرات يحادثهم ويباسطهم ويؤنسهم. فلا يزال على ذلك، وألوان الطعام توضع وترفع أكثر من ساعتين. ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه، ويغسلون أيديهم والفراشون قيام يصبون الماء عليهم، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية، ورطليات ماء الورد، لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم»[158].

ويلاحظ أن العادة كانت آنذاك أن تقدم الفاكهة في بداية الطعام، في مآدب المترفين. ويصف أبو الفرج مائدة لأحد الشعراء، يمكن اعتبارها تمثل موائد أوساط الحال في المجتمع آنذاك. فقد قال مخارق المغني: «جاءني رسول أبي العتاهية يدعوني فجئته فادخلني بيتاً نظيفاً فيه فرش نظيف، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميد وخل وبقل وملح وجدي مشوي، فأكلنا منه، ثم دعا بسمك مشوي فأصبنا منه حتى اكتفينا، ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا. وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة، فقال: اختر ما يصلح لك منها، فاخترت وشربت، وصبُّ قدحاً ثم قال: غنِّ...»[159]. هذا مع العلم أن أبا العتاهية كان يحسب في البخلاء[160].

ويصف القاضي التنوخي مجلس شراب لأحد العمال، يقول «واحضرت مائدة فضة بزرافين - بحلقتين - تَسعُ عشرين نفساً، فجلسنا عليها، ونقل علينا من الطعام، ما لم أر مثله حسناً،في أوانٍ كلها صيني. قال: وتأملت، فإذا خلف كل واحد منا غلام صغير مليح قائم بشرابي ذهب وكوز بلور فيه ماء، فأكلنا، فلما تمّ أكلنا... جاءنا فراشون بعددنا بطساس وأباريق فضة، ومجامع فضة، فغلسنا أيدينا دفعة واحدة. ومضى أولئك الغلمان وجاء غيرهم بعددنا ومعهم المرايا المحلاّة الثقيلة، والمضارب البلور، والمداخن المحلاّة الحسنة، فتبخرنا دفعة واحدة. ثم استُدعينا، فأدخلنا إلى فازة ألطف من تلك، ديباج، وفيها سدة صندل محلاّة بفضة فيها دست ديباج وحصر طبرية، ونحو ثلاثين مطاولة - صحن مستطيل - مسبكة ذهب كلها، عليها تماثيل العنبر على هيأة الأترج والبطيخ والدستنبو - نوع من الأترج - وغير ذلك. قال: فدهشنا وتحيرنا، وإذا في أربع جوانب تلك المطاولات أربع أجاجين بيض كبار عظام، كل واحدة كالقَدَس الكبير[161]، والجميع مملوءة ماء ورد، وفيه أمر عظيم من تماثيل الكافور، وغلمان قيام بعددنا يروِّحون، وغلمان آخر بعددنا بأيديهم مناديل الشراب، وبين يدي كل واحد صينية ذهب، ومغسل، ومركن ذهب، وقدح بلور، وكوز بلور، والجميع فارغ... فأخرجت عدة أنبذة من العنب مما يُعمل في جبل عمان، واختار ابن مكتوم نبيذاً منها،

---

(١٥٨) الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٦١ - ٢٦٢.
(١٥٩) الأصبهاني، الأغاني، ج ٤، ص ١٠٧ - ١٠٨.
(١٦٠) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٦ - ١٧.
(١٦١) القَدَس هو السطل.

فملئت الظروف منه. وقام على رأس كل واحد منا غلام يسقيه ويتفقد ثقله، وينفرد بخدمته إلى أن شربنا أقداحاً. . .»[١٦٢].

ب ـ آداب الطعام

كان من آداب الطعام عندهم غسل اليدين قبل الطعام وبعده، والتسمية عند تناوله، والأكل باليد اليمنى، وأن يتناول الآكل ما بين يديه من الطعام، وأن لا يسرع باللقم ولا يعظّمها، وعدم الشبع والإكثار من الأكل. فقد روى عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الإكثار من الطعام بقوله: «لا تميتوا القلب بكثرة الطعام فإن القلب كالزرع إذا كثر عليه الماء مات»[١٦٣]. وقوله: «إياكم والبطنة فإنها مفسدة للبدن، مورثة للسقم، مكسلة عن العبادة»[١٦٤]. وقال الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه «البطنة تُذهب الفِطنة»[١٦٥].

ومن آداب الضيافة أن على المضيف أن يخدم ضيوفه ويُظهر لهم الغنى، وبسطة الوجه، فقد قيل: البشاشة في الوجه خير من القِرى. وقالوا: تمام الضيافة الطلاقة، وعليه أن لا يغضب على أحد بحضور ضيوفه، ولا ينغّص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس وجهه، ولا يظهر نكداً، ولا ينهى أحداً، بل يدخل السرور على قلوبهم ما أمكنه[١٦٦].

كما كان من عادتهم أن يقدموا جملة الألوان من الطعام دفعة واحدة، ليأكل كل شخص مما يشتهي[١٦٧]. إلاّ أننا لاحظنا أيضاً أن موائد المترفين يقدم عليها الطعام متتالياً.

ولعل من المناسب أن نختتم هذا الفصل بذكر جانب من سلوك الظرفاء من المترفين، في الطعام والشراب. فقد كان الظرفاء يتجافون عن الشَرَه والنهم، وإذا أكلوا صغّروا اللقم، وامتنعوا عن أكل العصبة والعضلة والكلوة والكرش والرئة والطحال، والثريد والقديد من الطعام. وكانوا لا يَتحسّسون المرق ولا يتبعجون مواضع الدسم، ولا يملأون أيديهم بالزُّهُم، ولا يكثرون من الملح والخل، ولا يمعنون في أكل البقل، ولا يمشمشون العظام الغلاظ وإنما مشاشهم ما لان وصغر منها، ولا يزهمون ما بين أيديهم من الرغفان، ولا يلطخون أصابعهم، ولا يملأون باللقم أفواههم، ولا يدسّمون شفاههم، ولا يعجلون في مضغهم، ولا يأكلون بجانب الشدقين. وكانوا يلتزمون الوقار فلا يكثرون من الكلام والضحك عند حضور الطعام، ولا يتخللون على المائدة قبل أن تفرغ، ولا يتحفزون لمجيئها قبل أن توضع. وإذا غسلوا أيديهم لا يقتصدون في إزالة الغمر. كما كانوا يتجنبون أكل البصل لرائحته،

---

(١٦٢) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٨، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٤.
(١٦٣) السيوطي، المستطرف من أخبار الجواري، ج ١، ص ١٧٩.
(١٦٤) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ٢ ج (القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٩٠٨)، ج ١، ص ٣٠١.
(١٦٥) السيوطي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٩.
(١٦٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٠.
(١٦٧) السيوطي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٤.

والـطرخون لشناعة لفـظه، والخيار لعلّة بـرده. ويتجللون عن مس الجزر والقثاء والهليون، ويتجنبون الزيتون لوجود النوى فيه، ويرغبـون عن كل مـا خالـطه النوى من فـاكهة الصيف والشتاء كالتمر والخوخ والإجاص، لأن ذلك عندهم من أكل العوام. ولا يأكلون سوى التين والرمان والبـطيخ واللوز والجوز. ولم يكونـوا يتناولـون من الشراب إلاّ أجوده مثـل المشمشي والزبيبي، والمُعسّل والمطبوخ والـطلاء والمعدَّل. ولا يقـربون مـا لاءمه الخَثَر، ولا ما خـالطه الكـدر، ولا يشربون الـدوشاب لأنـه من شرب العامـة والرعـاع والسوقـة. ولا يتنقّلون على شرابهم بالباقلاء والبلوط والبُسر والخرنوب الشامي وما أشبه ذلك من نقول العامة. وأكـثر ما يتنقلون به مملوح البندق، ومقشر اللوز، والسفرجل والتفاح(١٦٨).

ومما له عـلاقة بـالطعـام كذلـك استخدام السـواك لتنظيف الأسنـان. فقـد استعملوا للسواك الأراك، والسكر، وأصول السوس، وعود المحلب، وعود الأذفر، وكلها تمتـاز بطيب النكهة. وكانت أوقات السواك عندهم على الريق وعند النوم وبعد الطعام. ولا يجوز السواك في الخلاء والحمام وقـارعة الـطريق ومحفل النـاس. ولا يستاك شخص بحيث يـراه أحد، ولا يتكلم عنـدما يستـاك، لأن ذلك من فعـل العوام. وقـد اتخذوا للمسـاويك طسـوتاً لـطافـاً، وأباريق من الشبه الخفـاف، وكراسي الأبنوس المصـدَّفـة، والخيـزران المشبكـة، والأحقـاق المخروطة. كـما استعملوا السنونـات المعمولـة(١٦٩). ولم يكونـوا يستعملون رأس السواك مـدة طـويلة، وكانـوا يتخذون لهـا لفائف الخـز والقز ليصـونوهـا من الغبار وغـيره(١٧٠). وقد عـدد الجاحظ من قضبان المساويك أنواعاً، منها: البشام، والضرو، والعتم والإسحل(١٧١).

٣ ـ اللباس

نتج عن تعدُّد شعوب الدولة العربية واختلاف تقـاليدهـا في القرن الثـالث أن تعددت أزياؤهم في اللباس. فاختلفت باختلاف الأقوام واختلاف مهنهم وطبقاتهم الاجتـماعية. وقـد انتبـه الجاحظ إلى اختـلاف الأزياء وتبـاينهـا في أيـامـه، فقـال «ولكـل منهم زي، فللقضـاة زي، ولأصحاب القضاة زي، وللشرطـة زي، وللكتّاب زي، ولكتّـاب الجند زي»(١٧٢). وقـال «كما كـان لحرائر النساء زي، وللمماليك والاماء زي»(١٧٣). ويقسـم اللغويون الثياب أو الملابس إلى نوعين، هما النوع

---

(١٦٨) الوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(١٦٩) السُّنونات هي المساحيق التي تُجلى بها الأسنان.
(١٧٠) المصدر نفسه، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.
(١٧١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١١٤.
(١٧٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٤.
(١٧٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٦ ـ ٩٧.

المقطوع وهو ما يُفصَّل ويُخاط كالقميص، وغير المقطوع وهو ما لا يخاط وإنما يلتحف به كالرداء والمئزر[١٧٤].

كان الخلفاء يلبسون الدرّاعة والقباء من القماش المصمت أو الملحم أو الخز، بلون أسود، ويضعون على رؤوسهم عمامة رصافية سوداء[١٧٥]. وكان ذلك زيهم الرسمي لا يكاد يشاركهم فيه أحد إلاّ ما ندر. فقد أراد اسحاق الموصلي أن يأذن له المأمون في دخول المقصورة يوم الجمعة بدراعة سوداء وطيلسان أسود، فلم يرضَ الخليفة، واشترى منه هذه المسألة بمئة ألف درهم[١٧٦].

وكان الزي الخاص بالوزراء الدراعة السوداء والقباء والمنطقة والسيف[١٧٧]. ولما تولى محمد بن عبد الملك الزيات الوزارة اشترط ألاّ يلبس القباء وأن يكتفي بالدراعة ويتقلد عليها سيفاً بحمائل، فأجيب إلى ذلك[١٧٨]. أمّا زي الكتّاب فكان الأقبية السود والسيف، وكان بعضهم يضيق بحمل السيف لأنه لا يحتاجه، فقد قال ابراهيم بن العباس الكاتب الشاعر، وقد لبس سواده يوماً، يا غلام هات ذلك السيف الذي ما ضرّ الله به أحداً غيري[١٧٩]. وزي الفقهاء والعلماء المبطنة والطيلسان وعلى رؤوسهم الطويلة[١٨٠]. وكانت الدنّية خاصة بالقضاة منهم حتى قيل: مثل قاضٍ بلا دنّية[١٨١].

أما الشعراء فكانوا يلبسون الموشّى والمقطعات من ثياب الخز، والأردية السوداء وكل ثوب مُشَهّر[١٨٢]. على أن أبناء الطبقات الأخرى في المجتمع كانت أزياؤهم في اللباس تختلف باختلاف مهنهم وأحوالهم المالية. وان أكثر أنواع اللباس التي يتردد ذكرها في مصادرنا التراثية مما تلبسه الطبقات المذكورة هي الجبّة والقميص والسراويل والعمامة[١٨٣]. فكان البقال من الناس مثلاً يرتدي عمامة وسخة ورداء وجبة قصيرة وقميصاً وفي رجله جرموقان وهو بلا سراويل[١٨٤]. وان الفقراء من الناس كانوا يلبسون البتّ، وهو قماش خشن غليظ يُعمل من غزل البيت، كما كانوا يعملون من هذا الغزل القمصان والعمائم، وأنهم إذا تظرفوا لبسوا

---

(١٧٤) انظر مادة «ردي» في: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ١٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦)، ج ١٠، ص ١٥٥.

(١٧٥) الصابىء، رسوم دار الخلافة، ص ٨١ و٩٠.

(١٧٦) الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٩٠.

(١٧٧) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٨، ص ١٣.

(١٧٨) الأصبهاني، المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٥٢.

(١٧٩) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٥٤، والصابىء، رسوم دار الخلافة، ص ٩١.

(١٨٠) الصابىء، المصدر نفسه، ص ٩١، والتنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٢، ص ١٣٤ ـ ٢٣٠.

(١٨١) الشابشتي، الديارات، ص ١٨٨.

(١٨٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١١٥.

(١٨٣) التنوخي، الفرج بعد الشدة (طبعة الخانجي)، ج ٢، ص ٢١٤.

(١٨٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٤.

الكتفي، ولبس فتيانهم الأبراد والعمائم القطنية الكحلية اللون التي تعلق في أهدابها خيوط خضر وحمر[185]. ويلبس المعدمون والمكاري عمامة حمراء[186].

وقد اعتنى المترفون من الناس كالوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة والأغنياء بملابسهم، فيلبسون لكل مناسبة زيًّا. فكان لهم في مجالس المنادمة والشراب زي خاص، من الأثواب المصبّغة، والغلائل الرقيقة والموشّى[187]. فيلبس بعضهم قميصاً من الحرير ويتطيبون بالخلوق، وإذا زارهم ضيف وهم في مجلس الشراب ألبسوه قميص حرير وقدموا له الخلوق[188]. وكان بعضهم إذا خلا مع الجواري والقيان للهو والشراب لبس من ثياب الجواري المصبّغة[189]. وذلك إمعاناً في اللهو والعبث.

وهناك ثمة ظاهرة تلفت النظر، هي الإكثار من اقتناء الملابس. فقد كان الخلفاء وكبار رجال الدولة والأغنياء يكثرون من حيازة الملابس والعمائم[190]. وقد يلبس الواحد منهم عدة أقبية كل قباء منها بلون[191]. ويظهر أن ذلك كان للبذخ والمفاخرة. وكان ما يقتنون من مختلف صنوف الملابس يزيد كثيراً على أضعاف حاجتهم منها، فيجتمع عند أحدهم عشرات ومئات أو ألوف من القطعة الواحدة. فقد لبس الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله ثوباً فأعجبه، فسأل كاتبه الحسن بن مخلد، كم يوجد منه في الخزائن، فوجد من جنس ذلك الثوب ستة آلاف، فقال الموفق: «يا حسن نحن عراة، اكتب إلى البلاد في استعجال ثلاثين ألف ثوب من جنسه واحملها في أسرع مدة»[192]. ومع ما في هذا الخبر من المبالغة فهو ينبىء عن نزعة الإكثار من اقتناء الثياب. ولما صادر المتوكل على الله طبيبه بختيشوع بن جبرائيل أخذ منه مالاً كثيراً، ووجد له في كسوته أربعة آلاف سروال دبيقي في جميعها تكك إبريسم أرمنية[193]. وعندما صودر أبو الحسن محمد بن الفرات، بعد صرفه من الوزارة في سنة ٢٩٩ وجد له ألف ومئة طيلسان، وألف كساء، وألف ومئتا عمامة، وألف سروال، وألف منديل، وكانت ثيابه دبيقية كالهواء رقة، كل ثوب بسبعين ديناراً، وكل سروال بثلاثين ديناراً[194]. وعندما توفي المكتفي

---

(١٨٥) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(١٨٦) الشابشتي، الديارات، ص ١٩٩.

(١٨٧) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٣، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(١٨٨) أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، الوزراء والكتّاب، حقّقه مصطفى السقا، ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٨٩٩)، ص ٢١٣، والاصبهاني، الأغاني، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(١٨٩) التنوخي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٥.

(١٩٠) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١٨٧ و٢٢٩، والتنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٢، ص ١٦٧.

(١٩١) الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٣٠، والوشاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ١٢٣.

(١٩٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، ص ٢٢٨.

(١٩٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٦.

(١٩٤) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢٢٩.

بالله في سنة ٢٩٥ وجد في خزائنه من الكسوة والفرش ما قيمته عشرون ألف ألف دينار(١٩٥). وكان المعتصم بالله، والواثق بالله لا يلبسان القميص إلّا لبسة واحدة ما لم يكن معجباً نادراً(١٩٦).

وبلغت نفقات الكسوة للمتوكل على الله ثلاثمئة ألف دينار سنوياً(١٩٧). وفي عهد المعتضد بالله بلغت أرزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة، وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والخياطين والقصارين والأساكفة والرفائين والفرائين والمطرزين والنجادين... وغيرهم، ثلاثة آلاف دينار في الشهر(١٩٨).

ويروي القاضي التنوخي عن أحد الأغنياء أنه لما توفي خلّف ثياباً كثيرة من الدراريع الدبيقية والديباج، والقمص والجباب والطيالس والعمائم والسراويلات، فأخفت زوجته تلك الملابس سوى السراويلات، فقد غفلت عن إخفائها، فاشتكى ورثته مدّعين بكثرة ما خلّفه من الملابس وأن زوجته استولت عليها، واستدلّوا على ذلك بالعدد الكبير من السراويلات، فاحتجت الزوجة بأن زوجها كانت له هواية بجمع السراويلات ولهذا كثر عددها عنده، أما بقية الملابس فلا أرب له فيها، ولهذا لم يترك منها ما يدّعيه ورثته(١٩٩).

وكانت للملابس قيمة اجتماعية اضافة إلى قيمتها المادية، واعتبرت مما يستحسن اهداؤه، وتسمى الهدية من الملابس خلعة. وقد درج الخلفاء على اهداء الملابس إلى ندمائهم وحواشيهم والشعراء والمغنين. واعتبرت الدرّاعة من أنفس الهدايا، وكانوا يهدون الدبيقي منها(٢٠٠). وقد أهدت قبيحة إلى زوجها المتوكل على الله درّاعة حمراء ومطرف خزّ أحمر كأنه دبيقي من رقته(٢٠١). وكانت الدرّاعة تهدى مع ملابس أخرى. فقد كانت خلعة الخلفاء على ندمائهم تتألف من عمامة وشي مذهبة، وغلالة، ومبطنة، اضافة إلى درّاعة دبيقية(٢٠٢). وتتكون خلعهم على الآخرين من غلالة قصب وجبّة مع درّاعة. فلما أعذر المكتفي بالله ابنه أبا أحمد أرسلت الخلع إلى الناس من قصر الثريا، وهو دار الخلافة ببغداد، لواحد واحد من الحاضرين برقاع في جيوبها: لكل منهم غلالة قصب وجبة فوقها ودرّاعة فوق ذلك، على أقدارهم، منها المنسوج بالذهب بالوشي والديباج، إلى غير ذلك(٢٠٣).

---

(١٩٥) أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، لطائف المعارف، تحقيق ابراهيم الابياري وحسن كامل الصيرفي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، [د. ت.])، ص ١١٨.

(١٩٦) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ١٥٤.

(١٩٧) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢١٩.

(١٩٨) الصابىء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٢.

(١٩٩) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٢، ص ١٦٧.

(٢٠٠) الصابىء، رسوم دار الخلافة، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢٠١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٢٠، والطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٢٢٤، وفيه أن المطرف من خزّ أخضر.

(٢٠٢) الصابىء، المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٢٠٣) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١٢٣.

كما كانت الثياب من نفائس ما يهدى أيضاً، فعندما رجع المتوكل على الله من دمشق إلى سامراء سنة ٢٤٤ بعثت إليه زوجته قبيحة بهدايا، كان من جملتها تخت ثياب فيه ألف ثوب من أصناف الثياب، من كل صنف مئة ثوب(٢٠٤). وكانت هدايا عمرو بن الليث والي سجستان إلى الخليفة المعتضد بالله لا تخلو من الثياب، فقد بعث إليه في سنة ٢٨٢ من ثياب الديباج الرومي ألف ثوب(٢٠٥). وعندما قدّم المعتمد على الله المعتضد وجعل له ولاية العهد قبل ابنه المفوض، قدّم إليه المعتضد ثياباً بمئتي ألف درهم، وحمل إلى المفوض ابن عمه ثياباً بمئة ألف درهم، فطابت نفساهما(٢٠٦).

وكانت أصناف أخرى من الملابس تُهدى كذلك، فعندما اعتلّ المعتز في أيام أبيه أهداه طبيب البلاط بختيشوع بن جبرائيل جبة ثمنها ألف دينار وثوباً ثميناً ليشجعه على تناول الطعام(٢٠٧).

ومن مظاهر الزيادة في الإكرام أن تكون الملابس المهداة من ثياب الخليفة أو الشخص المهدي. فقد خلع المأمون على المغني اسحاق الموصلي خلعة من ثيابه الخاصة(٢٠٨). ولما مدح الشاعر أبو السمط مروان الأصغر المتوكل على الله وأبناءه ولاة العهود الثلاثة أمر له الخليفة بمئة ألف درهم وخمسين ثوباً من خاص ثيابه(٢٠٩). وعندما عفا القاضي أحمد بن أبي دؤاد عن الجاحظ خلع عليه خلعة من ثيابه وطويلة من قلانسه(٢١٠).

ولم يقتصر اهداء الثياب على الرجال حسب، بل كان للنساء نصيب منن ذلك. فقد خُلع في الاحتفال بزواج هارون الرشيد على كل واحدة من نساء بني هاشم ممن حضرن الاحتفال خلعة وشي مُثقل(٢١١).

وفي ما يلي وصف موجز لأنواع الملابس التي كانت شائعة سواء للرأس أو لتغطية الجسم بين مختلف الطبقات:

أ ـ لباس الرأس

لقد تعدد لباس الرأس باختلاف الطبقات، إلا أن الشائع منه كان:

ـ **العمامة**: وهي زي للرأس قديم عند العرب، وقد وصفها أبو الأسود الدؤلي فقال

---

(٢٠٤) المصدر نفسه، ص ٣١.
(٢٠٥) المصدر نفسه، ص ٤٣.
(٢٠٦) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، [د.ت.])، ج ٣، ص ٧٦.
(٢٠٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٦.
(٢٠٨) الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٤٨.
(٢٠٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٠٨.
(٢١٠) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٣٦١.
(٢١١) الشابشتي، الديارات، ص ١٥٧.

«جُنّة في الحرب ومَكَنة من الحر. . . وهي بعد عادة من عادات العرب»[212]. وتكاد العمامة تكون لباس الرأس الشائع في القرن الثالث، فقد لبسها الناس من مختلف الطبقات والأصناف، واختلفت أنواعها باختلاف لابسيها. فكان لكل طائفة عمامة «فللخلفاء عمّة، وللفقهاء عمّة، وللأعراب عمّة، وللروم والنصارى عمّة»[213].

وكانت العمامة في العادة بيضاء اللون معمولة من الشاش الموصلي، إلا أنها قد تعمل من أقمشة أخرى من ألوان مختلفة. وعمامة القضاة أضخم كثيراً من عمائم الآخرين. وقد اختص الشرفاء العلويون بالعمامة الخضراء. كما اختص الخلفاء بالرصافية، وهي عمامة سوداء يلبسونها عند توليهم الخلافة[214]. ويمكن اعتبار لباسها من مراسم البيعة، وتكاد تكون خاصة بهم. فقد دخل ابراهيم بن المهدي على قاضي القضاة ابن أبي دؤاد، وعليه مبطنة ملونة، وقد اعتم رصافية خزّ سوداء لها طرفان خلفها وأمامها، فقال له القاضي: لقد جئتني في لبسة وهيئة لا تصلح إلا لواحد من الخلق[215] ـ يعني الخليفة ـ. وتأفف المأمون وتشكّى لأن أخاه القاسم كان يتشبه به فيلبس الرصافية[216]. ومع هذا كان كبار بني العباس يلبسونها[217]. وتتخذ الرصافية من نسيج رقيق كالحرير والخز والقصب والوشي، وقد يجمّلها بعضهم بخيوط الذهب أو يموّهون زخارفها بماء الذهب[218].

ـ القلنسوة: أو القلنسية[219]، وهي الطاقية التي تكون تحت العمامة[220]، وقد تلبس وحدها غطاءً للرأس. وكان الخلفاء يتخذون العمائم عليها، فإن كانت قصيرة زادوا في طولها وحدّة رأسها حتى تكون فوق قلانس جميع الأمة، كما كان القضاة يتخذون القلانس العظام[221]. وقد يلبسها الخلفاء والأمراء وحدها مجرّدة في مجالسهم الخاصة[222]. ولبسها الناس عامة في الصيف وفي الشتاء[223].

---

(٢١٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٠٠.
(٢١٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٤.
(٢١٤) الصابىء، رسوم دار الخلافة، ص ٨١ و٩٠.
(٢١٥) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ٤٨.
(٢١٦) المصدر نفسه، ص ٤٩.
(٢١٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢١٣.
(٢١٨) صلاح حسين العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي (بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٠)، ص ١١٨ ـ ١١٩.
(٢١٩) الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ٤ ج (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٩)، ج ٣، ص ٥٩٩.
(٢٢٠) رينهارت بيتر آن دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ترجمة أكرم فاضل (بغداد: دار الحرية، ١٩٧١)، ص ٢٩٦.
(٢٢١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١١٧.
(٢٢٢) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٣، ص ٣٤٨، والشابشتي، الديارات، ص ٣٨.
(٢٢٣) الجاحظ، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٤.

وتعددت القلانس في أنواعها وألوانها والمواد المصنوعة منها باختلاف لابسيها، ومناسبة لبسها، كما اختلفت في طولها. فكانت تتخذ من الفراء أو من اللباد، أو من القماش السميك كالصوف والكتان[٢٢٤]. وكانت قلانس الخلفاء سوداء اللون[٢٢٥]. أما بقية الناس فقد اتخذوها بألوان شتّى. فقد أمر المتوكل على الله يوماً الخدم والحاشية أن يلبس كل منهم قباء جديداً وقلنسوة، على لون قباء الآخر وقلنسوته، ففعلوا[٢٢٦]. وكانت قلانس أهل المغرب مصبّغة[٢٢٧]. وصغّر المستعين بالله القلانس وقصّرها وكانت طوالاً كأقباع القضاة[٢٢٨].

وشاركت النساء الرجال في لبس القلانس، وكنّ في أغلب الأحيان يطوّقنها بعصابة تعقد من الخلف[٢٢٩]. وكن يتخذنها من الديباج ويزيّنّها بالذهب، كما كن يكتبن على بعضها أبياتاً من الشعر[٢٣٠]، زيادة في تزيينها وتجميلها.

ومن أنواع القلانس: الشاشية والطويلة والدَّنِّيَّة. أما الشاشية فهي نوع من القلانس منسوبة إلى بلد الشاش في ما وراء النهر، وهي شبيهة بالطربوش إلى حدٍّ ما[٢٣١]. وقد اتخذ العرب هذا اللباس في عهد المعتصم بالله الذي كان أول من لبس شاشية مربّعة، فلبسها الناس تشبهاً به، ونسبت إليه فقيل: «الشاشية المعتصمية»[٢٣٢]. وقد لبس الشاشية أبناء مختلف الطبقات، إلا أن الأمراء وكبار القوم لبسوها خالية من الأشرطة الملتفة حولها، أما النوع الآخر المحاط بالأشرطة فكان لباس الخدم والأتباع، وهي تتخذ من قماش سميك كالكتان[٢٣٣]. وكان بعض الناس يلف حولها قطعة قماش لتكون عمامة[٢٣٤]. وقد لبست المرأة الشاشية، إلا أن شاشية النساء كانت تُعمل من الأقمشة الوبرية كالمخمل[٢٣٥].

أما الطويلة فهي نوع طويل من القلانس، وقد لبسها الخلفاء والأمراء والقضاة[٢٣٦]. كما لبسها غيرهم من الوجهاء وأهل الأدب. ولما جلس المتوكل على الله للمبايعة ألبسه قاضي

---

(٢٢٤) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٤١ و١٤٨.
(٢٢٥) المصدر نفسه، ص ١٣٨.
(٢٢٦) الشابشتي، الديارات، ص ١٦٠، وابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١٢١.
(٢٢٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣٩.
(٢٢٨) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢)، ص ٣٣، والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٨٠.
(٢٢٩) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٧٣ - ١٧٤.
(٢٣٠) الوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ٢٢٢ - ٢٢٦.
(٢٣١) العبيدي، المصدر نفسه، ص ١٠٠ - ١٠٢.
(٢٣٢) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص ٤٢، والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٣١٩.
(٢٣٣) العبيدي، المصدر نفسه، ص ١٠٢ و١٠٤.
(٢٣٤) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
(٢٣٥) العبيدي، المصدر نفسه، ص ١٦٦.
(٢٣٦) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ٤٨.

القضاة الطويلة وعمّمه[237]. وكان الجاحظ يتخذ الطويلة لباساً لرأسه[238]. وتصنع الطويلة من اللباد[239].

وكانت الدنِيَّة قلنسوة القاضي، وهي بشكل الدّن، وتكون طويلة عادة ولها عذبات تتدلى على الصدر[240]. وقد شاع استعمالها في القرن الثالث واعتبرت من لباس القضاة المميز لهم، إلّا أنها استبدلت بعد ذلك بالعمائم السود المصقولة[241]. ويرجح أن الدنية كانت مثل القلانس تعمل من اللباد[242].

ـ التاج: عرف العرب التاج إلّا أنه لم يلبسه أحد من الخلفاء أو يتخذه زيًّا رسمياً. ولكنهم ألبسوه بعض الوزراء والقواد تكريماً لهم، أو حملوه مع الهدايا. فقد توَّج المعتصم بالله كبير قواده الأفشين وألبسه وشاحين بالجوهر[243]. وتوّج الواثق بالله القائد أشناس وألبسه وشاحين بالجوهر[244]. ولما استوزر المعتز بالله أحمد بن اسرائيل خلع عليه ووضع تاجاً على رأسه[245]. وخلع الخليفة المذكور على بغا الشرابي فألبسه التاج والوشاحين[246]. وبعث المعتضد بالله بخلع وبدنة وتاج وسيف إلى اسماعيل بن أحمد بن سامان[247]. كما أهدى إلى الأمير الطولوني أبي الجيش خمارويه هدية فيها أنواع من الجوهر، ووشاح وتاج[248].

والتاج طاقية عالية لها هيئة خاصة، وهو منسوج من الصوف المكفّت بالذهب، وتحفّ به صفوف من الأحجار الكريمة[249]. وقد استعملت المرأة التاج زينة لرأسها إلّا أنه كان من النوع الصغير المسمى «الأخروق» وهو يصنع من الذهب ويرصع بالأحجار الكريمة، ويُصاغ بأشكال متعددة منها التاج المجنّح، والتاج ذو الحنايا[250].

ـ الطيلسان والطرحة والقناع: ومن متممات لباس الرأس مما كان يتخذه الرجال والنساء: الطيلسان، والطرحة، والقناع. والطيلسان نوع بسيط من الخمار يطرح على الرأس فوق العمامة، أو يلقى فوق الملابس على الكتفين فقط. وكان يلبسه رجال الفقه والقضاء، كما

---

(٢٣٧) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٥٤.
(٢٣٨) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٣٦١.
(٢٣٩) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١١٢ ـ ١١٣.
(٢٤٠) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ١٥٢.
(٢٤١) الصابىء، رسوم دار الخلافة، ص ٩١.
(٢٤٢) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٩٦.
(٢٤٣) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٥٥.
(٢٤٤) المصدر نفسه، ج ٩.
(٢٤٥) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٤٩.
(٢٤٦) المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣٧٣.
(٢٤٧) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٨٤.
(٢٤٨) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٣٤.
(٢٤٩) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ٨٦.
(٢٥٠) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٦١ ـ ١٦٢.

لبسه الفقراء من الناس[٢٥١]. وهو يتخذ من الخز ونحوه، أو من نسيج الصوف الغليظ، أو من أديم النعجة أو الكبش ويسمى البتّ وتلبسه الطبقة الفقيرة[٢٥٢].

وقد اعتبر الطيلسان من الزيّ الرسمي للقضاة[٢٥٣]، بحيث سمي القضاة والفقهاء أصحاب الطيالس لاختصاصهم به، وكان يلبسه من أراد التشبه بهم[٢٥٤]. كما لبسه الأشراف والأدباء والكتّاب والولاة وطلبة العلم[٢٥٥]. وكان أهل الذمة يلبسونه كذلك، وكان المتوكل على الله قد ألزمهم لبس الطيالس العسلية[٢٥٦]. ويقول المقدسي عن أهل العراق «وكان من رسومهم التجمل والتطيلس..»[٢٥٧]. وكان أهل مرو إذا أرادوا أن يرفعوا فقيهاً أمروه بالتطيلس[٢٥٨].

وكان الطيلسان يصنع بألوان مختلفة، وقد برع العراقيون بصنع الطيالس السود[٢٥٩]. وفي أيام المعتضد بالله قدم عليه وفد من البصرة، فدخلوا عليه وعليهم الطيالسة الزرق[٢٦٠].

والطرحة من أغطية الرأس، وتصنع من الشاش الموصلي، وهي ثُلاث على العمامة أو تطرح على الكتفين فقط فتتدلى على الظهر، وهي بهذا شبيهة بالطيلسان، وكانت خاصة بالقضاة، بل هي شعار قاضي القضاة[٢٦١]. وقد لبسها الخلفاء أيضاً واتخذوها من اللون الأسود[٢٦٢]. ويرجح أن اللون الكحلي كان الغالب على طرحة القضاة[٢٦٣].

أما القناع أو المقنّعة، فهو نوع من القماش الخفيف يضعه الجنسان على الرأس. كما تستخدمه النساء خماراً للوجه عند الخروج من المنزل[٢٦٤]. أو تستخدمه المرأة غطاء تضعه على رأسها وتحيط به رقبتها[٢٦٥]. أما الرجال فكانوا يتخذونه للتنكر، وكان ذلك شائعاً في الأسلاف، فكان من عادة فرسان العرب في المواسم والجموع التقنع، إذ كانوا يكرهون أن

(٢٥١) دوزي، المصدر نفسه، ص ٢٢٩.
(٢٥٢) المصدر نفسه، ص ٥٢، وأبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٣٧.
(٢٥٣) الصابي، رسوم دار الخلافة، ص ٩١.
(٢٥٤) الشابشتي، الديارات، ص ٢٩٧.
(٢٥٥) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٧٠.
(٢٥٦) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٧١.
(٢٥٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٩.
(٢٥٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.
(٢٥٩) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٧٥.
(٢٦٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٣٨.
(٢٦١) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٢٦٢) المصدر نفسه، ص ٢١٤.
(٢٦٣) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٠٧.
(٢٦٤) دوزي، المصدر نفسه، ص ٣٠٣ و٣٠٥.
(٢٦٥) العبيدي، المصدر نفسه، ص ١٧٢.

يُعرفوا، كما أن القناع أهيبُ في الصدر، والمتقنع أروع من الحاسر، وكان أكثر رجالات بني هاشم يتقنّعون(٢٦٦).

ـ العصابة والبرقع والنقاب: من ألبسة الرأس التي اختصت بها المرأة، العصابة، والبرقع والنقاب. والعصابة أو العصبة هي شبه العمامة للمرأة، وهي طرحة من الحرير مربّعة الشكل سوداء اللون لها حاشية ملونة حمراء أو صفراء، تلفّ المرأة بها رأسها وتعقدها من الخلف، وقد تزركش بفصوص من أصناف الجوهر(٢٦٧). وكانت الجواري والقيان يزيِّنّ العصائب بكتابة الأشعار عليها(٢٦٨). وكانت النساء المترفات يزيِّنّ العصائب بالجواهر والأحجار الكريمة، ويقال إن عُلَيَّة بنت الرشيد هي التي ابتدعت ذلك لأن في جبينها فضل سعة فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر جبينها(٢٦٩).

والبرقع قطعة قماش تثقب في موضع العينين تبصر المرأة منهما، ويلحق بالبرقع خيطان تشدهما المرأة في قفا الرأس يسميان الشبامان(٢٧٠).

أما النقاب فهو نوع من البرقع صغير يوضع على الوجه دون المحجر، وهو إما أن يكون شفافاً أو مخرّماً، بحيث يبدو الوجه من خلاله، وتستعمل النساء النقاب عند حضور مجالس الوعظ، أو حفلات الأعراس(٢٧١).

ب ـ الملابس الأخرى

هناك أنواع من الملابس اشترك بلبسها الرجل والمرأة، وأنواع أخرى اختص بها الرجال دون النساء. ومن الملابس المشتركة التي شاع استعمالها في القرن الثالث الملابس الآتية:

ـ الثوب: يعني الثوب ملبوساً بصورة عامة، وله معنى خاص، وبهذا المعنى هو رداء واسع فضفاض وردناه بقدر طوله، وهو يصنع من مختلف الأقمشة المتخذة من القطن أو الكتان أو الحرير أو الصوف، ويكون بألوان متعددة، وقد تلبسه النساء عندما يخرجن من منازلهن(٢٧٢). ومن الثياب ما هو مصمت، أي لا يخالطه لون آخر، وقد يكون من الحرير الخالص، ومنها ما يُطرَّز فتسمى ثياب الوشي(٢٧٣). أو تكون من الملحم أي أن سدى قماشها من الحرير ولحمته غير ذلك. وكان المتوكل على الله فضّل الثياب المتخذة من الملحم على جميع

---

(٢٦٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٠ و١١٨ ـ ١١٩.
(٢٦٧) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ٢٤٧.
(٢٦٨) الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦.
(٢٦٩) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ١٦٢.
(٢٧٠) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٥٩.
(٢٧١) المصدر نفسه، ص ١٧٥.
(٢٧٢) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٢٧٣) الشابشتي، الديارات، ص ١٦١ و٢٦٨.

الأصناف الأخرى، فاتبعه الناس في ذلك وبالغوا في أثمانها واصطناع الجيِّد منها[٢٧٤]. وسمِّيت الثياب المتوكلية، وقد امتازت بحسنها من حيث الصنع وجودة الصبغ[٢٧٥]. وسبق للمعتصم بالله أن لبس الثياب الضيقة الأكمام، فضيق الناس أكمام ثيابهم، إلا أن المستعين بالله عاد فوسَّعها وجعلها ثلاثة أشبار أو نحوها[٢٧٦].

- القميص: هو ثوب يُلبس فوق السروال وله كُمَّان واسعان للغاية يهبطان إلى المعصم، ويتدلى القميص إلى منتصف الساقين. ويصنع قميص الرجال من القطن أو الكتان أو الحرير أو الشاش الموصلي، ويكون أبيض اللون، ويزركش المترفون حواشي قمصانهم ويطرزون فتحاتها. أما قمصان النساء فتكون من الحرير أو القطن الرفيع أو الشاش الموصلي[٢٧٧]. ويلبس القميص عادة تحت الرداء[٢٧٨]. وكانت الجواري يزيِّن أكمام قمصانهن وجيوبها بكتابة الشعر عليها[٢٧٩]. وقد لبس القميص مختلف الناس، فلبسه الخلفاء والوزراء والأمراء، كما لبسه الشعراء والظرفاء بألوان مختلفة، ولبسه كذلك عامة الناس أيضاً[٢٨٠].

- السروال: كان يرتديه الناس عموماً رجالاً ونساء، إلا أن سراويل النساء كانت تتخذ من الأقمشة الرقيقة وتزين ببعض التطريزات[٢٨١]. والسروال يستر أسفل الجسم وقد يكون واسعاً، كما يختلف في طوله، فلا يتعدى بعضه الركبتين، بينما يطول البعض الآخر حتى يصل القدمين، وكان الأغنياء يلبسون القمصان والأردية فوق السراويل[٢٨٢]. ويتخذ الرجال السروال من القماش القطني عادة، إلا أن بعضهم يتخذه من الحرير أو رقيق الأقمشة، وكان الأمراء والولاة يتخذون سراويلهم من الوشي[٢٨٣].

وقد اعتنوا بتِكَّة السروال وهي تعتبر جزءاً منه لأنه يربط بها. وكانت تكك الرجال الجيدة تنسج من الحرير وقد اشتهرت أرمينيا بصنعها.

ويعتبر السروال من ملابس الظريفات من النساء، ولا سيما الجواري والقيان والراقصات منهن[٢٨٤].

---

(٢٧٤) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص ٣٣.
(٢٧٥) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٨٦.
(٢٧٦) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٠، واليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٣٣.
(٢٧٧) دوزي، معجم مفصَّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٣٠٠.
(٢٧٨) الشابشتي، الديارات، ص ١٤٧.
(٢٧٩) الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ص ٢١٩ - ٢٢٠.
(٢٨٠) المصدر نفسه، والجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١١٦.
(٢٨١) دوزي، معجم مفصَّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ١٧٢.
(٢٨٢) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٩٧ - ١٩٨.
(٢٨٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣٤٢.
(٢٨٤) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٥٣.

ولاحظ المقدسي أن لباس القرويين في ايلياء ونابلس في بلاد الشام يتكون من الكساء وحده بلا سراويل(٢٨٥).

ـ الدُّرّاعة: أو المِدْرَعة، هي جبة مشقوقة المقدَّم ولا تكون إلّا من الصوف(٢٨٦). وتعتبر من لباس الخلفاء، كما سبق أن أشرنا. وقد كان على المعتصم بالله دُرّاعة من الصوف بيضاء لما خرج في سنة (٢٢٣) لغزو بلاد الروم(٢٨٧). كما كانت الزي الخاص بالوزراء، وهي مفتوحة من الأمام حتى أعلى القلب ومزرَّرة بأزرار وعرى(٢٨٨). ولبسها أيضاً الشعراء والكتّاب والظرفاء(٢٨٩).

وقد اتخذت دراعات الرجال من الخز والملحم أيضاً، وقد تتخذ من الديباج(٢٩٠) كذلك. إلا أن الفقراء كانوا يتخذونها من الشعر. وكانت بألوان مختلفة بيضاء وسوداء وحمراء وصفراء(٢٩١).

أما دُرّاعات النساء فكانت تعمل من الشعر، أو من الملحم، ويزيِّنها المتظرفات منهن بكتابة الشعر عليها بالإبريسم أو بالذهب، وقد يتخذنها من الشراب أو القصب الملون(٢٩٢).

ـ الرداء: هو نوع من الملاحف يلتحف به أو يُرتدى كلباس مفصل على الجسم، وقد شاع لبسه بين أفراد مختلف طبقات الناس، وهو يعمل من القماش الصوفي المخطط أو من الحرير، وتكون فتحته عند الصدر دائرة مطرزة بزخارف ونقوش، وكان الأطباء والعلماء يرتدون نوعاً من الأردية يغطي الجسم(٢٩٣)، وقد يكون الرداء ملوناً(٢٩٤). وكان من عادة أهل المغرب أن يجعلوا الرداء بطاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباءة(٢٩٥).

وكانت النساء المتظرفات وبخاصة الجواري والقيان يتخذن الأردية الرشيدية والشروب

---

(٢٨٥) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٣.

(٢٨٦) انظر مادة «درع» في: ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٨٢، والزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ج ٢، ص ١٥٩.

(٢٨٧) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٦٠.

(٢٨٨) دوزي، معجم مفصَّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ١٤٦.

(٢٨٩) الشابشتي، الديارات، ص ٤٤، والوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ١٠.

(٢٩٠) الشابشتي، المصدر نفسه، ص ٤٤؛ الوشّاء، المصدر نفسه، ص ١٠، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٧.

(٢٩١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٢٠؛ الشابشتي، المصدر نفسه، ص ٤٤، والتنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٣، ص ٣٦٠.

(٢٩٢) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ١٤٩، والوشّاء، المصدر نفسه، ص ١٦٣ و٢٢٠.

(٢٩٣) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢٩٤) الوشّاء، المصدر نفسه، ص ١٦١، والشابشتي، الديارات، ص ٥٧.

(٢٩٥) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣٥.

المزنَّرة والقصب الملون والحرير[٢٩٦]. وكن يزيِّنَّ أرديتهن بالكتابة عليها، ولا سيما على أكمامها[٢٩٧].

ـ الجُبَّة: هي رداء طويل مفتوح وردناه قصيرتان، وتعمل عادة من الصوف. ولبسها مختلف طبقات الناس لا سيما الأغنياء منهم. وكانت تختلف في مواصفاتها من حيث قماشها وألوانها وطولها، باختلاف لابسيها. فكانت جبة الأغنياء تتميز بعرضها وطول ذيلها وكمها واتخاذها من القماش الغالي الثمن، بينما تكون جبّة الآخرين، كالبقالين مثلاً، قصيرة[٢٩٨].

ولبست النساء المترفات الجبّة، وكن يتخذنها من المخمل ويطرزنها بالحرير الملون أو المذهب، وجبّة المرأة طويلة ضيقة[٢٩٩].

ومن الملاحظ أن كمَّ الجبة كان يقوم مقام الجيب الذي نعرفه اليوم، ويستخدم لحمل بعض الأشياء، كالكتب، والدنانير والدراهم، والمفاتيح، والشموع، والفواكه الجافة، والحلويات، وغيرها[٣٠٠]. كما كانت الجبة تستخدم أحياناً وسيلة للمضايقة والتعذيب، فبعض من يُصادر من الوزراء والكتاب يحبس ويقيد ويلبس جبّة صوف تُصبَّر في دسم الأكارع، لإجباره على الاعتراف بما لديه من الأموال[٣٠١].

ـ القَباء: ويسمى القفطان أيضاً ويعمل من الحرير[٣٠٢]. وقد لبسه الخلفاء والأمراء والوزراء والجند[٣٠٣]. وقد ارتدى الخلفاء الأقبية السود من الملحم أو الخز، إذ كان المعتضد بالله يلبس قباء أسود عندما يخرج للناس[٣٠٤]. وسبق أن ذكرنا أن ابن الزيات عندما استُوزر اعتذر عن لبس القباء. وكانت أقبية الوزراء والأمراء والقواد سودَ اللون أيضاً، ولم يكن يسمح لهم بالدخول إلى الدار العامة إلا بالسواد[٣٠٥].

---

(٢٩٦) الوشاء، المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٢٩٧) المصدر نفسه، ص ٢١٩ و٢٢١.

(٢٩٨) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٣، ص ١٦٤.

(٢٩٩) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ٩٤ و٩٩.

(٣٠٠) التنوخي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٤؛ ج ٣، ص ١٧٠، وج ٤، ص ٢٥٦؛ الشابشتي، الديارات، ج ١١، ص ١٥٨؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩)، ج ٥، ص ٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٧٣، وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض صنعة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥)، ص ٢٦.

(٣٠١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٢٩، والتنوخي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦.

(٣٠٢) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي ـ فرنسي، ص ٢٨٥.

(٣٠٣) الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص ٩٠ ـ ٩٢.

(٣٠٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٥٥.

(٣٠٥) الصابئ، المصدر نفسه، ص ٧٤.

ولبسَ القباء طوائف أخرى من طبقات المجتمع، كالعلماء، والخطباء، والمؤذنين، والسقاة في مجالس الخلفاء والوزراء(٣٠٦). وكان الخطباء في العراق يلبسون الأقبية والمناطق، ويلبس أهل ما وراء النهر الأقبية المفتوحة(٣٠٧).

وكان من الطبيعي أن تختلف الأقبية من حيث طولها وعرضها وطول أكمامها وسعة فتحة الرقبة فيها. فقد تكون فضفاضة أو ضيقة، كما تكون أكمامها ضيقة أو عريضة. كما اختلفت من حيث أقمشتها، فهي تتخذ عادة من الأقمشة الغالية الثمن كالخز والحرير والديباج(٣٠٨). وتتخذ كذلك من القطن، وقد يزيّن بعضها بتطريز بعض الزخارف عليه، كما تُزيّن أكمامها بأشرطة عريضة (٣٠٩). وكانت المتظرفات من النساء يكتبن الأشعار على أقبيتهن تزييناً لها وتظرفاً(٣١٠).

وإذا كان للقباء طاق واحد سمي القرطق(٣١١).

- الغِلالة: الغِلالة في الأصل من لباس المرأة وتكون مفرطة في الشفافية والخفة، ولونها أصفر(٣١٢). إلا أن الرجال لبسوها أيضاً، فقد لبسها الظرفاء منهم وغيرهم(٣١٣). على أن هناك أنواعاً منها اختصت بها النساء كالغلائل الدخانية(٣١٤). وكانت الغلائل جزءاً أساسياً من لباس القينات والجواري(٣١٥).

وتتخذ الغلائل لشدة رقتها من رفيع الأقمشة كالقصب مثلاً(٣١٦).

- العباءة: هي رداء يشبه الكيس مفتوح من الأمام، لا أكمام له وإنما توجد فتحتان في الزاويتين العلويتين لإمرار الذراعين منهما. ويلبس العباءة الرجال والنساء، إلا أن عباءة الرجل تكون من الصوف أو الوبر، وعباءة المرأة تتخذ من الحرير أو الخز(٣١٧).

- الإزار: هو قطعة من النسيج تلتف به النساء عندما يبرزن للناس، بحيث يخفي

---

(٣٠٦) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ١٢٩.
(٣٠٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٩ و٣٢٨ على التوالي.
(٣٠٨) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٥، ص ٣٨٤.
(٣٠٩) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٨٤.
(٣١٠) الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ص ٢٢٢.
(٣١١) الشابشتي، الديارات، ص ٧١.
(٣١٢) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٢٩٥.
(٣١٣) الشابشتي، المصدر نفسه، ص ٣١٥، والوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ص ١٦٠.
(٣١٤) الوشاء، المصدر نفسه، ص ١٦.
(٣١٥) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٥٣، والشابشتي، المصدر نفسه، ص ٢٥٥.
(٣١٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٤.
(٣١٧) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٢٣٨.

هذا الثوب الملابس الأخرى، وقد يتخذ من الحرير المزركش بالذهب[٣١٨]. وقد يسمى النقاب الذي تضعه المرأة على وجهها إزاراً أيضاً ويكون عادة من القصب الأبيض الرقيق[٣١٩].

والإزار أيضاً قطعة من القماش تستر به العورة، أو أن يكون أكبر حجماً فيلف على القسم الأسفل من الجسم، وهو يلبس عادة عند الدخول إلى الحمام[٣٢٠]. ويعتبر الدخول إلى الحمام بغير إزار تبذّلاً وعدم احتشام[٣٢١]. ويقول المقدسي إن أهل المغرب وأهل خوزستان يدخلون الحمامات بلا ميازر إلا القليل منهم[٣٢٢].

ويستعمل الظرفاء الإزار لفرشهم ولبسهم في أوقات لهوهم وقصفهم[٣٢٣]، أو أنهم يتخففون به في منازلهم ولا يظهرون به خارجها[٣٢٤].

وربما ائتزر الشخص بإزار وارتدى الآخر، فيكون بذلك لباساً كاملاً يستر أعلى الجسم وأسفله[٣٢٥]. إلا أن رسوم اقليم جزيرة العرب لُبس الإزار بلا قميص، إلا القليل، وهم يكتفون بإزار واحد يلتفون به[٣٢٦].

ـ **النطاق والوشاح**: كان النطاق والوشاح مما اشترك في لبسها الرجال والنساء، ولم تكن المرأة تلبس النطاق العريض لأنه خاص بالرجال، وكانت أنطقة النساء رفيعة[٣٢٧]. والظريفات منهن يزيّن أنطقتهن بكتابة الأشعار عليها[٣٢٨]. ويسمى نطاق المرأة زُنّاراً، والزنار في الأصل خاص بأهل الذمة وهو من أزيائهم.

أمّا الوشاح فهو جلد عريض يُزيَّن بالأحجار الكريمة تشده المرأة بين عاتقها وكشحها[٣٢٩]. وقد تشد بعض النساء وشاحين يتقاطعان عند الصدر[٣٣٠]. وقد استعمل الوشاح لتكريم رجال الدولة من الوزراء والقواد، وقد مرَّ بنا أن القواد الكبار كانوا يُوشّحون بوشاح أو وشاحين عندما يكرمهم الخلفاء، كما أن بعض الوزراء كانوا يوشّحون عند استيزارهم.

---

(٣١٨) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٣١٩) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٥٤.

(٣٢٠) دوزي، المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٣٢١) الشابشتي، الديارات، ص ١٨٩.

(٣٢٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣٩ و٤١٦.

(٣٢٣) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٨٥.

(٣٢٤) الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ص ١٦١.

(٣٢٥) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٥، ص ١٥٥.

(٣٢٦) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠٠.

(٣٢٧) الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ص ١٦٤.

(٣٢٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣٢٩) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ج ٤، ص ٥٥٤.

(٣٣٠) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٣٠٩.

ويطلق الوشاح أيضاً على الثوب أو قطعة القماش يدخلها المرء تحت إبطه ويلقى باقيها على منكبه[331].

ومن الألبسة التي اختص بها الرجال دون النساء:

- الفَرَجية: وهي ثوب فضفاض له كمّان واسعان طويلان يتجاوزان قليلاً أطراف الأصابع، وهما دون تفريج، ويلبس هذا الثوب طبقة العلماء[332]. وتعتبر الفَرجية نوعاً من الأقبية إلا أنها تختلف عنها بأن تكون فتحتها من الخلف[333].

- المُطْرَف: يرد ذكر المطرف في مناسبات قليلة باعتباره من ألبسة الخلفاء والأغنياء، وهو رداء من خزّ مربع له أعلام[334]. فقد أهدت قبيحة إلى زوجها المتوكل على الله مطرف خز أحمر كأنه دبيقي من رقته، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك. ويقول أبو الفرج إن إسحاق الموصلي كان يلبس مطرف خزّ أسود قيمته مئة ألف درهم[335]. وقد لبس المطرف الظرفاء من الرجال وكانوا يزيّنونه بكتابة الأشعار عليه[336].

- المُبَطَّنَة: هي ضرب من الأردية لها بطانة ثخينة، تلبس فوق الثياب[337]. وكانت المبطنة من جملة زي الوزراء، وقد لبسها الظرفاء أيضاً[338].

- البُرْنُس: هو معطف ضخم له قلنسوة، وقد يطلق الاسم على الطاقية أيضاً[339]. ويعرّفه صاحب القاموس بأنه قلنسوة طويلة، أو هو كل ثوب رأسه منه سواء أكان دُرّاعة أو جُبّة أو مِمْطراً[340]. والبرنس لباس خارجي يتألف من قطعة واحدة، يغطي الجسم والرأس معاً، والجزء الذي يغطي الجسم أقرب ما يكون إلى الدرّاعة، وهو يصنع عادة من اللباد[341]. ويلبس البربر البرانس السود[342].

وقد يستعمل البرنس زيًّا للتشهير بالخارجين على الدولة. فقد ذكر المسعودي أن

(٣٣١) انظر مادة «وشح»، في: المنجد في اللغة والأعلام، ص ٩٠١.

(٣٣٢) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٢٦٥.

(٣٣٣) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٧٩.

(٣٣٤) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ج ٣، ص ٦٢.

(٣٣٥) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٣٣٦) الوشاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ١٦١ و٢٢١.

(٣٣٧) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٩٠.

(٣٣٨) الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٣٥٢، والوشّاء، المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٣٣٩) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٦٦.

(٣٤٠) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ج ١، ص ٢٩١

(٣٤١) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٣٤٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣١.

المعتضد بالله أمر بهارون الشاري فأركب فيلاً وعليه درّاعة ديباج وعلى رأسه برنس طويل، وخلفه أخوه على جمل فالج وعليه درّاعة ديباج، وبرنس خزّ[٣٤٣].

- البُرْد: ويسمى البردة أيضاً، وهو قطعة طويلة من القماش الصوفي السميك أسمر اللون أو رماديّه، وقد يكون من القماش المخطط[٣٤٤]. وكان خلفاء الدولة العربية يتوارثون بردة النبي الكريم ﷺ، ويطرحونها على أكتافهم في المناسبات وبخاصة عند ظهورهم للناس في صلاة العيد[٣٤٥]. وتعتبر البردة من شارات الخلافة.

- المِمْطَر: هو ثوب صوفي يلبس للوقاية من المطر[٣٤٦]، وقد يتخذ من الخزّ أيضاً[٣٤٧].

أمّا ما اختُص به النساء من الملابس اضافة إلى ما سبق ذكره فكان منها:

- الجِلْباب: وهو ثوب واسع للمرأة تغطي به ثيابها من فوق كالملحفة[٣٤٨]. وتلتحف به النساء من الرأس إلى القدمين حين يردن الخروج من منازلهن[٣٤٩]. ويلبسنه كذلك إذا حضرن مجالس الوعظ أو مجالس القضاء[٣٥٠]. مما يدل على أنه لباس للحشمة.

- الصِّدار: قميص صغير يلي الجسد مباشرة تلبسه المرأة، وهو أيضاً ثوب رأسه كالمقنعة، وأسفله يُغشّي الصدر والمنكبين[٣٥١].

- الدرع: درع المرأة قميصها، وهو ثوب تجوب المرأة وسطه، وتجعل له يدين، وتخيط فرجيه، وهو أيضاً الثوب الصغير تلبسه الجارية الصغيرة في البيت[٣٥٢]. ويتخذ من قماش بسيط خال من الزخرفة، وقد يكون من القطن أو من الحرير[٣٥٣].

وهناك بعض الألبسة اختص بها الفقراء من الناس، منها:

- العَرْي: وهو قميص واسع، أو ثوب يتخذ من الكتان أو القطن، ويكون أزرق اللون، مفتوح العنق إلى الحزام، وله كمّان كبيران، ويلبس هذا الثوب فقراء الناس[٣٥٤].

---

(٣٤٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٥٥.
(٣٤٤) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٥٥ - ٥٦.
(٣٤٥) الصابيء، رسوم دار الخلافة، ص ٩٠.
(٣٤٦) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ج ٤، ص ٢٢٩.
(٣٤٧) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ٤، ص ٢٢٩.
(٣٤٨) الزاوي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥.
(٣٤٩) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ١٠٣.
(٣٥٠) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.
(٣٥١) انظر مادة «صدر» في: ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٤٤٣.
(٣٥٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٢.
(٣٥٣) العبيدي، المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٣٥٤) دوزي، معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي، ص ٢٤٥.

ـ المِسح : لباس يشبه الكيس يرتديه الرهبان والعبيد(٣٥٥). ويطلق المسح أيضاً على ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد(٣٥٦).

ـ الغُمِرّة : ثوب أسود يرتديه العبيد والإماء(٣٥٧).

ـ البَتّ : كساء مربع مهلهل من الوبر أو الصوف، وقد يتخذ من الخز، ويسمى الساج. وكان النوع الغليظ منه يلبسه الفقراء وهم يتخذونه من جلد النعجة(٣٥٨).

ثالثاً : الأعياد والاحتفالات والرياضة ووسائل اللهو

١ ـ الأعياد

إن عيد الفطر وعيد الأضحى أكبر الأعياد الدينية وأهمها عند المسلمين، لأنهما يرتبطان بركنين من أركان الدين الاسلامي الحنيف. فيرتبط الأول بفريضة الصيام في شهر رمضان، ويرتبط الثاني بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام. ويحتفل بها المسلمون قاطبة على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم وبلدانهم. وكانوا يحتفلون بهما في أمهات المدن وبخاصة في المدن التي يكون بها الشعور الاسلامي عميقاً كالديار المقدسة والثغور، بأبّهة وفخامة تظهر روعتها. فقد كان يضرب المثل بالعيدين في طرسوس، ويعتبر ذلك من عجائب الاسلام(٣٥٩). إذ يجتمع فيها الغزاة من كثير من أقاليم الدولة العربية، وتردها الصلات من أولئك الذين لا يقدرون على الجهاد بأنفسهم فيتبرعون بأموالهم للإنفاق على الجهاد والمجاهدين. وكان الغزاة والمجاهدون المجتمعون في طرسوس يحتفلون بالعيدين، كل جمع منهم على طريقة بلاده وتقاليدها، مما يجعل من احتفالاتهم شبه مهرجان أو مظاهرة دينية رائعة.

وكان الناس في مختلف أقطارهم يتهيأون للعيدين قبل حلولهما. وكانت الحلوى أحسن ما يصنع في طعام الأعياد، فكانت تصنع بأكبر مهارة بلغها فن الطبخ في ذلك العهد. وتصنع بهذه المناسبة أبراج من السكر توضع في وسط الموائد(٣٦٠).

كما كان الناس يحتفلون بمناسبات أخرى إلى جانب عيدي الفطر والأضحى. وسنستعرض في ما يأتي الأعياد والمناسبات التي اعتادوا الاحتفال بها.

---

(٣٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

(٣٥٦) انظر مادة «مشح،» في: المنجد في اللغة والأعلام، ص ٧٦٠.

(٣٥٧) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ص ٣٦٦.

(٣٥٨) انظر مادة «بَتّ،» في: ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٨.

(٣٥٩) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار اقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ٣١٨.

(٣٦٠) متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ج ٢، ص ٢٠١.

أ ـ رمضان وعيد الفطر

مما كان يحتفل به الخلفاء والناس على اختلاف طبقاتهم حلول شهر رمضان. فيوزع الخليفة في أول يوم منه الخلع على العلماء والفقهاء ورجال الدولة وقوادها وكبار كتّابها. وتنصب موائد الإفطار في دار الخلافة طيلة ليالي الشهر، للخاصة والعامة. ويفعل مثل ذلك الأغنياء وأصحاب المراتب، فيفطر على موائدهم أصدقاؤهم ومعارفهم والفقراء والأيتام. وتنار ليالي شهر رمضان بالمصابيح، كما تنوّر المساجد بالصلوات والتراويح. فإذا بقي من الشهر أربع ليال خرجت خلع الخليفة إلى رجال الدولة والعلماء والأشراف، والوجهاء من الناس، وغيرهم[٣٦١].

وتسمى ليلة السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر، وهو اتفاق العوام على ذلك، لأنها مجهولة. وقد قيل: اطلبوها ليلة السابع عشر وليلة التاسع عشر، فإن بينهما وقعة بدر ونزول الملائكة مسوّمين، وفتح مكة[٣٦٢].

وكان من عادة الناس أن يهنّىء بعضهم بعضاً بحلول شهر رمضان[٣٦٣]. ويتهيأون في أواخره لاستقبال عيد الفطر. فيباكرون إليه في أحسن زينة ولباس، ويخرجون في أول يوم منه للتفرج على الموكب، إذ يجلس الخليفة بعد رجوعه من الصلاة. فقد جرت العادة بأن يخرج الخليفة في صباح ذلك اليوم إلى المسجد الجامع للصلاة بالناس، وعندما يعود إلى الدار يأمر بمد السماط للناس، ويستعرض الموكب الذي يمر أمامه وفيه الأمراء والقواد ومختلف صنوف الجند بكامل أسلحتهم وزينتهم، تتقدمهم الأعلام، ويستمر الناس في احتفالهم بالعيد ثلاثة أيام[٣٦٤]. ويسمى أول يوم من شوال، وهو أول أيام عيد الفطر يوم الرحمة[٣٦٥]. وقد جرت العادة في هذا اليوم أن توزع الخيرات كالفطرة والكسوة والطعام.

ب ـ موسم الحج وعيد الأضحى

يعتبر موسم الحج أعظم مواسم السنة احتفالاً، إذ تتجمع فيه مواكب الحجاج من مختلف أقاليم الدولة العربية وأمهات مدنها في حاضرة الخلافة تتقدمها المحامل والأعلام وضاربو الطبول. فيخرج الناس على اختلاف طبقاتهم وتزدحم بهم الدروب والشوارع للتفرج على تلك المواكب والتمتع بمشاهدتها. إذ تختلف المواكب باختلاف بلدان أصحابها من حيث مظاهر الاحتفال بهذا الموسم. ولا يزال الناس على ذلك أياماً يقيمون فيها الولائم

---

(٣٦١) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٣٦٢) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق إدوارد سخاو (ليبزك: ادوارد سخاو، ١٩٢٣)، ص ٣٣٢.

(٣٦٣) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٦، ص ٢٥٢.

(٣٦٤) الكازروني، مقدمة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، ص ٢٦.

(٣٦٥) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٣٣٣.

للحجاج. ثم يقلّد الخليفة من يختاره لإمارة الحج ويخلع عليه، ويجهّزه بالدواب لركوبه مع حاشيته، فيخرج بالحجاج وهم في طاعته(٣٦٦).

ويقوم أمير الحج إضافة إلى واجباته نحو الحجاج من حيث تأمين راحتهم وسلامتهم وأمنهم، بإلقاء خطبة عيد الأضحى نيابة عن الخليفة في المسجد الحرام بمكة المكرمة، وتوزيع هدايا الخليفة، وتعليق القناديل التي يبعث بها الخليفة وهي تكون عادة من الذهب والفضة، فيعلقها خارج المسجد الحرام لمدة خمسة أيام ليراها الناس ويشاركوا بالاحتفال في تعليقها، ثم تنقل بعدها إلى داخل المسجد، كما يتولى نصب الأعلام الجدد التي حملها معه وعليها اسم الخليفة(٣٦٧). ومن الواضح أن تأدية مناسك الحج بشعائرها وتقاليدها تعتبر بحد ذاتها احتفالاً مهيباً.

وعندما ينتهي الحج وتعود مواكب الحجاج إلى حاضرة الخلافة يتجمع الناس ثانية ويخرجون لاستقبالهم بالدفوف والأعلام، وتهنئتهم بسلامة العودة وبما آتاهم الله من فضله. ويأمر الخليفة بتوزيع الخلع والهدايا وبخاصة على من عاد من الحج من رجال الدولة ووجهاء الناس(٣٦٨).

ويسمّى اليوم العاشر من ذي الحجة يوم الأضحى ويوم النحر، وهو آخر يوم من أيام الحج وأول يوم من أيام عيد الأضحى، ويسمى اليوم الحادي عشر منه يوم القرّ لأن الناس يستقرون بمنى، واليومان الثاني عشر والثالث عشر أيام التشريق لأن لحوم الأضاحي تُشرَّق فيها، ويقال أيضاً إنها سميت كذلك لأن الأضاحي لا تنحر حتى تشرق الشمس(٣٦٩).

وتذبح في عيد الأضحى أعداد كبيرة من الإبل والبقر والغنم(٣٧٠). وكان من الرسوم الجارية في دار الخلافة أن تفرَّق على القواد والفرسان والغلمان والخدم وغيرهم من أفراد حاشية الخليفة وموظفي الدولة أعداد كبيرة من البقر والغنم والإبل ليضحوا بها. وأن يأمر الخليفة بإطلاق من يرى القاضي اطلاق سراحهم من المحبوسين. كما يأمر بأن تذبح سبعون ناقة في أبواب دار الخلافة(٣٧١). وكذلك يفعل الأغنياء والمتمكّنون من الناس رغبة في الأجر والثواب، فيمتار الفقراء ويؤجر الأغنياء(٣٧٢). وذكر القاضي التنوخي طرفة عن كاتب أحد القواد، وكان جاهلاً، أنه كتب تذكرة بالأضاحي التي يُراد نحرها في دار صاحبه وقد قرب

---

(٣٦٦) الكازروني، المصدر نفسه، ص ٢٤.
(٣٦٧) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٧، ص ٥٣.
(٣٦٨) الكازروني، المصدر نفسه، ص ٢٥.
(٣٦٩) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٣٣٤.
(٣٧٠) الصابىء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٢٨٩.
(٣٧١) المصدر نفسه، وفيه أن النوق تذبح في المصلّى، وابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٦٨ - ٦٩.
(٣٧٢) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، ص ٧٦.

موعد حلول عيد الأضحى، كما يلي: القائد ثور، وامرأته بقرة، وابنه كبش، وبنته نعجة، والكاتب تيس[٣٧٣].

وجرت العادة أن يخطب الخليفة بالناس في صباح اليوم الأول من العيد، فيركب إلى الجامع وعليه السواد من القباء والعمامة بموكب يحيط به حرسه وحاشيته، فيصلي بالناس ثم يخطب خطبة خفيفة[٣٧٤]. ويعود بعدها إلى الدار ليستقبل المهنئين.

٢ ـ الاحتفالات

أ ـ رأس السنة الهجرية

اعتبر اليوم الأول من المحرم معظماً لأنه غرّة الحول ومفتتح السنة[٣٧٥]. ولم يصر رأس السنة الهجرية عيداً شعبياً بل اقتصر الاحتفال به على دار الخلافة، ولا يحيط به من فخامة الاحتفالات ما كان يحيط بالأعياد. إلا أن الناس اعتادوا أن يتهادوا فيه[٣٧٦]. على أن المقريزي يذكر أن الخلفاء الفاطميين في مصر كانت لهم عناية خاصة بليلة أول المحرم لأنها أولى ليالي السنة الجديدة، ومن رسومهم أن يعمل بمطبخ القصر طعام كثير من أنواع من الحلوى، ويُفرّق ذلك مع الخبز وجفان اللبن على أرباب الرتب وأصحاب الدواوين وأرباب السيوف والأقلام، ويعم ذلك سائر الناس أيضاً، ويركب الخليفة بزيه الرسمي ويُفرّق دنانير الصلة على رجاله وحاشيته[٣٧٧]. وأحسب أن الخلفاء الفاطميين انتهجوا ذلك اسوة بما كان يفعله الخلفاء العباسيون في بغداد وسامراء، لأنهم اعتادوا أن يقلدوهم وينافسوهم في كل فضيلة يعرفونها عنهم. ولهذا يرجح أن خلفاء بغداد وسامراء كانوا يقومون بذلك أيضاً بمناسبة حلول السنة الهجرية الجديدة.

ب ـ أول الربيع

وكانوا يحتفلون بحلول فصل الربيع فيخرجون إلى الغياض والبساتين مستصحبين الجواري والقيان، فيقضون نهارهم بأنس وطرب ومتعة. وقد اعتاد أهل بغداد أن يخرجوا في هذا الموسم إلى «المُحَوَّل» وهو متنزه قريب من المدينة «فيخترقون أشجاره، ويقطعون ثماره ونوّاره، ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان، وتصفق الغدران، وترقص الأغصان، وتميد الأفنان... وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة، كذلك أياماً لا يطعمون مناماً...»[٣٧٨].

---

(٣٧٣) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٧، ص ١٧٠.

(٣٧٤) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٧، ص ٦٧.

(٣٧٥) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٣٢٩.

(٣٧٦) متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٣٧٧) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار اقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ٤٩٠.

(٣٧٨) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، ص ٢٨.

ج ـ النوروز والمهرجان

استمرت أقوام الولايات الشرقية من سكان الدولة العربية في الاحتفال بعيدين من أكبر أعيادهم قبل أن يعتنقوا الدين الاسلامي، هما النوروز والمهرجان. ويقع النوروز في أول يوم من السنة الشمسية أي في (٢١) آذار/ مارس من السنة الرومية. ويقع المهرجان في منتصف السنة الشمسية. كما استمرت أغلب الطقوس التي تتخذ فيهما مما لا يتنافى مع الاسلام.

على أن مشاركة العرب بالاحتفالات بهذين اليومين اقتصرت على تبادل الهدايا والخروج إلى المتنزهات ترويحاً للنفس، والتفرج على ما يقوم به المحتفلون من مظاهر الأنس والفرح كالرقص والغناء. كما اعتاد الخلفاء أن يوزعوا هداياهم على حاشيتهم، ويتلقوا الهدايا من وزرائهم وقوادهم وأفراد عائلتهم[٣٧٩]. وكان المتوكل على الله أكثر خلفاء سامراء ميلاً إلى اللهو والتمتع بمباهج الورود والأزهار، والتفرج على أصحاب الملاهي، وهو ما جعله أكثر مشاركة في مثل هذه الاحتفالات. فكان يجلس للتفرج على أصحاب السماجة، أو للشرب واللهو وقبول الهدايا في أيام النوروز[٣٨٠].

ولكن رغم مشاركة العرب في بعض مظاهر هذين العيدين، فقد كانوا يعتبرونها من بقايا المجوسية. فقد أنشد الشاعر عليّ بن الجهم الخليفة المتوكل على الله في أحد أيام المهرجان قوله:

اغتنم جدّة الزمان الجديد ‌‌ ‌ واجعل المهرجان أيمن عيد

وكان الشاعر أبو السمط مروان الأصغر حاضراً، فقال: يا عليّ، اخبرني عن قولك: واجعل المهرجان أيمن عيد، وهل المهرجان عيد أم يوم لهو؟ إنما العيد ما تعبُد الله فيه الناس مثل الفطر والأضحى وأيام التشريق والجمعة، أما المهرجان والنيروز فإنما هما من أعياد المجوس ولا يجوز أن يقال لخليفة الله في عباده وخليفة رسول الله في أمته مثل هذا القول[٣٨١].

د ـ المشاركة باحتفالات النصارى في احتفالاتهم

إن التسامح الديني الذي تميز به الاسلام وانتهجته الدولة العربية مع أهل الذمة من رعاياها، أتاح لهم الاحتفال بأعيادهم الدينية وممارسة طقوسها. فقد استمر النصارى على عاداتهم بالاحتفال بأعيادهم الدينية كعيد رأس السنة، والأعياد الخاصة التي كانت كثيرة بسبب تعدد الطوائف النصرانية. وقد اعتاد طلّاب اللهو والقصف على مشاركة النصارى في احتفالاتهم بأعيادهم، وبخاصة ما يقع منها في موسم الربيع. فيخرجون إلى الأديرة القريبة،

---

(٣٧٩) الشابشتي، الديارات، ص ٥٧، والجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص ١٤٦.

(٣٨٠) الشابشتي، المصدر نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٠، والجاحظ، المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٣٨١) الأصبهاني، الأغاني، ج ٢٣، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

وينتشرون في متنزهاتها وفي الحقول والبساتين التي حولها، ويشاركون المحتفلين في شرابهم وصخبهم، طلباً للهو والمتعة.

وكانت الأديرة تحتفل عادة بالأعياد فتزين بأحسن زي، ويخرج رهبانها وقساوستها إلى المذبح وحولهم فتيانهم بأيديهم المجامر، وقد تقلّدوا الصلبان وتوشّحوا بالمناديل المنقوشة، ثم يعودون إلى قلاليهم بعد الاحتفال[٣٨٢]. وكان يتجمع حولهم النصارى رجالاً ونساءً محتفلين بالطقوس الدينية وهم يحملون تحف الرياحين والورود. فيخرج المسلمون لمشاركتهم في أفراحهم والتفرُّج على طقوسهم، والتمتع بجمال أزيائهم وبمفاتن الطبيعة.

هـ ـ الاحتفالات في المناسبات

لعل أفخم الاحتفالات التي شهدها هذا القرن بالنظر لما أنفق عليها من الأموال، ومشاركة الخلفاء ورجال الدولة فيها، حفلة زواج المأمون، وحفلة زواج الحسن بن الأفشين، وحفلة ختان المعتز بن المتوكل على الله، وحفلة ختان أولاد المكتفي بالله.

تزوج المأمون بخديجة بنت الحسن بن سهل في سنة ٢٠٩ باحتفال فخم وصفه المسعودي وصاحب الذخائر والتحف. فقد نثر في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثر مثلها من قبل. فقد نثرت على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه ممن حضر الاحتفال، بنادق من مسك فيها رقاع بأسماء ضياع، وأسماء جوار، وصفات دواب، وغير ذلك. فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها، فقرأ ما فيها، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر. وقد أنفق المأمون بهذا الاحتفال ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم، وأوقد في تلك الليلة شمعة عنبر وزنها أربعون مناً[٣٨٣]. وقد سمي هذا الاحتفال لسعة ما أنفق عليه، دعوة الاسلام[٣٨٤].

وأجريت حفلة زواج ابن الأفشين من أترجّة بنت القائد اشناس في قصر الخليفة المعتصم بالله وبرعايته، وذلك تكريماً منه لاثنين من كبار قواده، وقد حضرها عامة أهل سامراء، وكان المعتصم بالله يتفقد الحاضرين بنفسه، وأمر بأن يُطيّبوا بالغالية التي احضرت في اجانات من الفضة[٣٨٥].

أما حفلة ختان المعتز، فقد وصفها الشابشتي وصاحب الذخائر والتحف، وصفاً مسهباً يظهر روعتها وبذخها. وقد جرت الحفلة في قصر بركوارا الذي شيده المتوكل على الله في

---

(٣٨٢) الشابشتي، المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٣٨٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٣٠، وابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٩٨ ـ ١٠٠.

(٣٨٤) أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٦٥)، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣٨٥) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٠١.

منطقة القادسية جنوبي سامراء. وفي يوم الاحتفال فرش ديوان القصر الواسع ببساط إبريسم طوله مئة ذراع وعرضه خمسون ذراعاً، ونصب للخليفة سرير، ومُدَّ بين يديه أربعة آلاف مرفع ذهب مرصع بالجواهر. وتغدى المتوكل على الله والناس، وقد أجلس الأمراء والقواد وكبار رجال الدولة على مراتبهم، وجعل بين صوانيهم والسماط فرجة صُبَّت فيها أكوام الدنانير والدراهم، وأمر الحاضرون أن يأخذ كل منهم ثلاثة حفنات ما حملت يداه من ذلك المال. وتخلع على سائر من حضر ثلاث خلع لكل واحد. واعتق المتوكل على الله عن المعتز ألف عبد وأمر لكل واحد منهم بمئة درهم وثلاثة أثواب.

وكان في صحن الدار أمام الإيوان أربعمئة بُلْية مغنيات وراقصات، وبين أيديهن ألف طبق خيزران فيها أنواع الفواكه من الأترج والنارنج والتفاح الشامي والليموه، وخمسة آلاف باقة نرجس، وعشرة آلاف باقة بنفسج. وأمر المتوكل على الله الفتح بن خاقان أن ينثر عليهن وعلى خدم الدار والحاشية عشرين ألف ألف درهم.

وكانت قبيحة أم المعتز قد تقدمت بأن تضرب دراهم للمناسبة كتب عليها «بركة من الله لإعذار أبي عبد الله المعتز» فضرب لها ألف ألف درهم نثرت على المزيَّن ومن في حيِّزه من الغلمان والشاكرية وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان.

وأقام المتوكل على الله ببركوارا ثلاثة أيام. وتقدم بإحضار ابراهيم بن العباس وأمره أن يعمل له عملاً بما أنفق في هذا الاعذار ويعرضه عليه. ففعل ابراهيم ذلك فاشتملت النفقة على ستة وثمانين ألف ألف درهم.

وكان الناس يستكثرون ما أنفق في زواج المأمون، وسميت حفلته دعوة الاسلام، ثم أتى من دعوة المتوكل على الله هذا ما أنسى ذلك(٣٨٦). وقد ذكر الثعالبي جانباً من هذه الدعوة وقال إنها سميت دعوة الاسلام الثانية(٣٨٧).

ولما أعذر المكتفي بالله ابنه أحمد في سنة أربع وتسعين ومئتين كان وزيره العباس بن الحسن قد سأله أن يجعل جمع الناس وإطعامهم عنده، فأجابه إلى ذلك. فجلس العباس في داره على دجلة، وأمر بإحضار الورد، فأحضر منه ما لم ير الناس مثله مجتمعاً قط، فقد مُدَّ بين صحني الدار بطول تسعين ذراعاً وعرض عشرة أذرع وبارتفاع يقرب من الذراع. وجمع القواد والغلمان مع الجلساء والمغنين. وجعلت الخلع تجيء الناس من الثريا ـ دار الخلافة ـ يُنفذها المكتفي بالله لواحد واحد من الحاضرين، برقاع في جيوبها: لكل انسان غلالة قصب وجبة ودرّاعة. ولم يبق أحد في المجلس إلا ناوله العباس من يده تحية من الورد(٣٨٨).

---

(٣٨٦) انظر الوصف الكامل في: الشابشتي، الديارات، ص ١٥٠ ـ ١٥٥، وابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ١١٣ ـ ١١٨.

(٣٨٧) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣٨٨) ابن الزبير، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

٣ ـ الرياضة ووسائل اللهو

أ ـ الرياضة

يمكن القول إن أبرز أنواع الرياضة التي كان الناس يمارسونها آنذاك هي: الفروسية وسباق الخيل، والصيد بنوعيه البري والنهري، والسباحة، والمصارعة، وتربية الحمام والطيور بأنواعها. وفي ما يلي لمحة موجزة عنها:

(١) الفروسية وكرة الصوجان

من أنواع الفروسية التي كان الخلفاء وكبار رجال الدولة من الوزراء والقواد يمارسونها لعبة الكرة على ظهور الخيل، وتسمى الصوجان، وكان لها لباس خاص بها(٣٨٩). وكانوا يلعبونها في ساحات خاصة في قصورهم. وقد اصطدم الوزير عبيد الله بن يحيى في أثناء لعبة كرة الصوجان وسقط عن فرسه ومات إثر ذلك. والصوجان رياضة حسنة تامة وصفها الحكماء لرياضة جسد الفارس والخيل أيضاً، وهي تفيد جميع أعضاء البدن. وكانوا يعتبرون لعبها بالغدوات من أحسن أنواع الرياضة وأنفعها. فإن من أنواع الرياضة ما يختص بالرِّجل كالمشي والركض، ومنها ما يختص بالكفوف والسواعد مثل الشُبّاك وتناول الطابة. أما الصوجان فإنها تعم البدن جميعه، فهو يتحرك بها حركات مختلفة، فالبصر يتبعها، والرأس يلتفت إليها، والخيل ترتاض وتلين رؤوسها للمجوال والكر والفر، وفيها تحريك القوة الغضبية لما فيها من طلب المغالبة(٣٩٠).

وللعبة الصوجان قواعد خلاصتها بأن تضرب الكرة قُدُماً ضرب خِلسة، وأن يكون الضرب متشازراً مترفقاً مترسلاً، وأن يُتوخى لضرب الكرة تحت مخرم الدابة ومن قِبَل لِبْنها في رفق، ولا تجوز الاستعانة في ضربها بسوط، وعلى اللاعب أن يتلافى التأثير في الأرض أو كسر الصوجان جهلاً باستعماله، أو عقر الدابة، كما عليه أن يحترس من إيذاء من جرى معه في ميدانه، وأن يحسن كفّ الدابة في شدّة جريه، وأن يتوقّى من الصرعة والصدمة، وأن يجانب الغضب والسبّ، وأن يتحفظ من إلقاء الكرة على بيت(٣٩١).

وهناك أمور يجدر باللاعب الانتباه إليها، أهمها الاحتراز من السقوط والقنطرة والعثار والمصادمة، وأن يتوقف عن اللعب عند ابتداء العَرَق أو الشعور بالتعب والإرهاق، ويستحسن الدخول إلى الحمّام إن أمكن لإزالة ما خرج من العرق بتلك الرياضة(٣٩٢).

وكان الخليفة المعتصم بالله يلعب بكرة الصوجان ويقسم أصحابه إلى فرق للعبها(٣٩٣).

---

(٣٨٩) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٢١.

(٣٩٠) العباسي، آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١٢٩.

(٣٩١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، ٤ ج (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، ١٩٦٣)، ج ١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣٩٢) العباسي، المصدر نفسه، ص ١٢٨ ـ ١٣٠.

(٣٩٣) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٤٧ ـ ٤٨.

كما كان المنتصر بن المتوكل على الله من هواتها، وقد جاء عن مرضه الذي مات به، انه انصرف من الميدان حيث كان يلعب بالصولجان وهو عرق، فدخل الحمّام ثم تعرض للهواء، فركبته حمى هائلة[394].

ومما يتصل بالفروسية سباق الخيل. وكان أكثر الخلفاء في هذا القرن يحضرون ساحة السباق للتفرج على الخيول وهي تسابق بعضها[395]. ومن دلائل اهتمامهم بالفروسية وسباق الخيل أن خصصت في سامراء عند تأسيسها ساحة مسورة مستطيلة الشكل طولها ٥٣٠ متراً وعرضها ٦٥ متراً، إلى جانب قصر الخليفة. كما نظمت لسباق الخيل حلبة كانت تمتد خلف الدار إلى مسافة خمسة كيلومترات ونصف وتكوّن منحنياً مسدوداً منغلقاً يبلغ طوله أحد عشر كيلومتراً ونصف الكيلومتر. وقد أقيمت في منتصف القسم الخلفي من سور ساحة الصولجان بناية تطل على هذه الساحة وعلى حلبة السباق، وقد أعدت للخليفة وحاشيته ليتفرجوا منها على السباقات التي تجري على الساحتين[396].

(٢) الصيد

ومما له علاقة بالخيل والفروسية من وسائل اللهو والرياضة في الوقت نفسه، الصيد والقنص. والصيد رياضة تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج، وهي تمرين على الركض والكرّة والعطف، وتعويد على الفروسية، وتمرين على الرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس، واختبار للخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض[397]. وكان المعتصم بالله ألهج خلفاء سامراء بهذه الرياضة. فقد بنى في أرض دجيل حائطاً طوله عدة فراسخ، وكان هو وحاشيته يحدون الصيد ليدخلوه وراء ذلك الحائط فيصير بينه وبين دجلة فلا يكون له مجال للهرب، فإذا انحصر في ذلك الموضع، دخل المعتصم بالله وحاشيته وتأنقوا في صيد بعض الحيوانات، وأطلقوا الباقي. وكان من جملة ما يصيدونه حينذاك حمار الوحش، وقد وسم الخليفة بعضها وأطلقها لأنه بلغه أنها تعمر طويلاً[398].

وكان الواثق بالله يخرج ليتصيد بالقاطول من الأوز والدراج وطير الماء وغير ذلك[399]. كما كان المعتز بالله يمارس هواية الخروج للصيد أيضاً. ويذكر الشابشتي خبراً طريفاً عن خروج المعتز بالله مع صديقه ونديمه يونس بن بغا للصيد، ومرورهما بأحد الأديرة وإضافتهما به[400].

---

(٣٩٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٣٣.

(٣٩٥) الأصبهاني، الأغاني، ج ٦، ص ٣١١.

(٣٩٦) أحمد سريكة، ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٩)، ص ٥٩.

(٣٩٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، ص ٤٩.

(٣٩٨) المصدر نفسه، ص ٤٧ - ٤٨.

(٣٩٩) الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٩٤، وج ٧، ص ١٥٨.

(٤٠٠) الشابشتي، الديارات، ص ١٦٤.

وقد اعتنى الناس بتربية الفهود والكلاب الجيدة الصالحة للصيد. وكانت حلية الجيد من الفهود أن يكون صغير السن، متسع الصدر، صغير الرأس، طويل العنق، واسع العينين مع استدارتهما، كما يستحسن فيه دقة الخصر، ولطف الكف، وبعد ما بين أذنيه. أما الكلب السلوقي فيجب أن يكون صغير الرأس، قصير العنق، عظيم المقلتين، ناتىء الجبهة عريضها، غليظ المشفر، قصير اليدين، طويل الرجلين، عريض الظهر، دقيق الخصر، في ظهره طول وفي ركبتيه انحناء، والأنثى منه كلما لطفت كانت أجود، والذكر كلما كبر كان أبهى(٤٠١).

كما عنوا بتربية الجوارح من الطيور، وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر. وأجود أنواع الباز الأشهب منه، وقد سمي ملك الجوارح، وإذا كان لونه مدبجاً بالحمرة دلّ على فراسته، ويستحسن أن يكون ضخم المنسر، واسع العينين، رحب دائرة الأذنين، واسع الشدقين، غليظ العنق، تام الأجنحة. ويمتاز الشاهين الجيد بخفة الطيران والتحليق البعيد، والشجاعة، وحرصه الشديد على الطريدة فلا تفوته. أما الصقر الجيد فيجب أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، تام المنسر، طويل العنق، رحب الصدر، عظيم الوسط، قصير الساقين، طويل الجناحين. وكان العقاب يستخدم لصيد الغزلان والثعالب، وأجود أنواعه الجبلي(٤٠٢).

وبلغت نفقات أصحاب الصيد وهم الذين يعنون بطيور الصيد وبالفهود والكلاب، وثمن طعام الجوارح وعلاجها، وأرزاق الأعوان والحمّالين وغيرهم ممن يستخدمهم قصر الخلافة في أيام المعتضد بالله ٢٥٠٠ دينار في الشهر. وكان مجموع ما ينفق على ذلك في أيام المتوكل على الله خمسمئة ألف درهم في السنة(٤٠٣).

وكان هناك من يمارس هواية الرمي بالبندق لصيد صغار الطيور. وهم يستخدمون القوس لرمي البندق، ويسمى قوس جلاهق(٤٠٤). ويقول الجاحظ وكل قوس بندق فإنما جيء بها من يَرْوَض، ومُدح بَريها وصنعها عصفور القواس(٤٠٥).

وقد وضعت في القرن الثالث كتب في تربية الجوارح، منها: كتاب الجوارح واللعب بها، للقائد العربي أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وكتاب الجوارح، لمحمد بن عبد الله البازيار، وكتاب الصيد والجارح، المنسوب إلى الفتح بن خاقان(٤٠٦).

---

(٤٠١) العباسي، آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٤٠٢) حول الجوارح ومميزاتها، انظر: المصدر نفسه، ص ١٣٧ ـ ١٤١.

(٤٠٣) الصابىء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، ص ٣٤، وابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢٢٠ على التوالي.

(٤٠٤) الأصبهاني، الأغاني، ج ٢٣، ص ٢٠١، والوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، ص ٢٤٨. والجلاهق هو البندق الذي يرمى به.

(٤٠٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٩٣.

(٤٠٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٥٢ و١٧٦.

وكان صيد السمك هواية أخرى مارسها كثير من الناس بما فيهم الخلفاء. وكان الواثق بالله أحد هؤلاء الهواة، فكان يخرج إلى دجلة ومعه قصبة فيها شص يلقيه في النهر، وقد يقضي عامة نهاره في ذلك. وذكر ابن أبي أصيبعة خبراً للواثق بالله مع طبيبه الخاص يوحنا بن ماسويه، وكان خرج معه في أحد أيام خروجه لصيد السمك، يدل على شدة تولعه بهذه الهواية[٤٠٧].

(٣) السباحة والمصارعة

ومارس بعض الناس من أنواع الرياضة الأخرى السباحة. وكانوا يمارسونها على نطاق واسع حسبما يظهر من تعدد أنواعها. فقد كان هناك أكثر من عشرة أنواع، منها: الغمر، والاستلقاء، والطاووس، والعقربي، والموزون، والكامل، والمقيّد[٤٠٨].

كما كانت رياضة المصارعة وحمل الأثقال شائعة أيضاً. ذكر أبو المحاسن عن الأمير جيش بن خمارويه أنه انصرف إلى اللهو مع رجلين من عامة العيّارين الذين يحملون الحجارة الثقال، والعمد الحديد، ويعانون الصراع[٤٠٩].

(٤) تربية الطيور والحيوانات

من وسائل اللهو الأخرى هواية تربية الحمام بأنواعه[٤١٠]. وقد كان في دار الطبيب بختيشوع بن جبرائيل أكثر من مئتي طير من الطيطويات والحصانيات والبيضانيات، وما يجري مجراها، ولها مسقاة ماء كبيرة[٤١١]. وقد أظهرت التنقيبات التي أجريت في أطلال سامراء أنه كان في كثير من مساكنها محلّات مخصصة لتربية الحمام، يقع بعضها في إحدى زوايا الدار، وبعضها الآخر تحت الدرج. وخصصت في بعض الدور غرف لتربيتها، وقد بنيت على جدرانها أكتان على نظام بديع[٤١٢].

وكان لبعض الخلفاء هواية بتربية الحيوانات الأهلية والوحشية. فقد بنى المعتصم بالله ما يشبه حديقة الحيوان سمي «الحَيْر» ووضع فيه الوحش من الظباء والأيائل والأرانب والنعام وحمير الوحش وغيرها[٤١٣]. وهناك من الأخبار ما يشير إلى أنه كان يمضي بعض ساعات لهوه في الحير، يتفرج على الحيوانات ويحارش بينها. وروى محمد بن عبد الملك الزيات، وزير

---

(٤٠٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٩.

(٤٠٨) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ١٠٧.

(٤٠٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٨٨.

(٤١٠) العراق، مديرية الآثار القديمة العامة، حفريات سامراء، ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (بغداد: مطبعة الحكومة، [د. ت.])، ج ١، ص ٣١.

(٤١١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠٩.

(٤١٢) العراق، مديرية الآثار القديمة العامة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١.

(٤١٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٦٣.

المعتصم بالله أن المعتصم أبرز للأسد جاموستين فغلبتاه، ثم أبرز له جاموسة ومعها ولدها فغلبته وحمت ولدها منه وحصّنته. ثم أبرز له جاموساً وحده فواثبه ثم أدبر عنه[414].

وقد وسّع المتوكل على الله هذا الحَيْر، وأنشأ فيه حديقة حيوان واسعة، حشد فيها صنوف الطير والحيوانات الأهلية والوحشية، وضع بعضها في أقفاص كبيرة واسعة، وأطلق بعضها ليعيش حراً على طبيعته، وكان يتردّد عليها للتفرج على ما فيها من طير وحيوان[415]. وقد وصف الشاعر البحتري هذه الحديقة وحيواناتها التي قدّر عددها بألفين، ومنها قوله[416]:

ملك كملك سليمان الذي خضعت	له البرية: قاصيها ودانيها
وطاعةُ الوحش إذ جاءتك من خَرق	الحوى، وآدمانة كحل مآقيها
كالكاعب السرْود يخفى في ترائبها	ردع العبير ويبدو في تراقيها
ألفان وافت، على قدر، مسارعة	إلى قبول الذي حاولته فيها
إن سرت سارت وإن وقّفتها وقفت	صوراً إليك بالحاظ تواليها
يسرعْن منك إلى وجه يَسرّيسن له	جلالة، بكثر التسبيح رائيها

ولما تولى المهتدي بالله الخلافة ذبح الكباش والديوك التي كان يُناطح بها، ويهارش بينها، بين يدي الخلفاء، وقتل السباع المحبوسة[417].

(٥) الشطرنج والنرد

وكان من جملة وسائل اللهو عند بعض الناس لعب الشطرنج والنرد. ويقال إن الشطرنج وضعه أحد الفلاسفة لملك أراد أن يرى الحرب وتدبيرها وهو في خفض ودَعَة، فلما وضعه له أعجب به وتعجب منه[418]. ولعب الشطرنج يتطلّب مهارة ذهنية، وليس لإجادة اللعب فيه نهاية. إذ لا تكاد تتفق فيه لعبتان متجانستان. وقيل عن هذه اللعبة إنها تعلم فن الحرب، وتشحذ اللب، وتدرب الإنسان على التفكير، وتعلمه شدة البصيرة[419].

أما النرد فقد وضع على أساس البخت والرزق، أي أن اللعب به يخضع للتقدير لا للتدبير[420]. وقد شبّه الحكماء رقعته بالأرض الممهدة لساكنها، وشبّهوا منازل الرقعة، وهي أربعة وعشرون، بساعات الليل والنهار، وبيادقها، وهي ثلاثون، بعدد أيام الشهر،

---

(٤١٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ٧ ج (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨ - ١٩٤٥)، ج ٧، ص ١٣١.

(٤١٥) سويكة، ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٤١٦) أبو عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري، ديوان البحتري (بيروت: [د.ن.، د.ت.])، ج ١، ص ٤٥ - ٤٦.

(٤١٧) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٩٠.

(٤١٨) العباسي، آثار الأول في ترتيب الدول، ص ١٣٠.

(٤١٩) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ٢، ص ٢٧١.

(٤٢٠) العباسي، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وأنها أقيمت على أربع مراتب، وهي الفصول الأربعة، وشبّهوا اللاعب في اتباعه لما يخرج بفعل العباد في اتباع القضاء[٤٢١].

وقال بعض المتكلمين: الشطرنج معتزلي والنرد مُجبر، وذلك أن اللاعب بالشطرنج موكول إلى اختياره مع إيثاره، واللاعب بالنرد مُجبر على ما يخرج به الفصّان[٤٢٢]. على أن لاعب النرد وإن لم يكن مختاراً ولا خارجاً عن حكم الفصّين وقضائهما، محتاج إلى أن يكون صحيح النقل وسابقه، صحيح الحساب، حسن الترتيب[٤٢٣].

ويظهر أن الفقهاء لم يتحرجوا من لعب الشطرنج أو النرد. فقد سئل ابن سيرين عن اللعب بالشطرنج، فقال: لا بأس به هو رفق. وسئل سعيد بن المسيِّب عن اللعب بالنرد، فقال: إذا لم يكن قماراً فلا بأس[٤٢٤]. وسئل أبو العباس شُريح القاضي عن اللعب بالشطرنج فقال: إذا سلمت أيديهما من الطغيان ولسانها من العدوان وصلواتهما من النسيان، فهو مباح بين الإخوان غير محرَّم على الخلان[٤٢٥]. وكان بعض الفقهاء يلعبون بالنرد[٤٢٦]. على أن أهل المدينة كانوا إذا خطب إليهم من يلعب بالشطرنج لم يزوّجوه، زاعمين انه إحدى الضرّتين[٤٢٧]. وهم يعنون بذلك لهو اللاعب وانغماسه فيه مما يصرفه عن الاهتمام بأهله وبيته.

وقد لعب هاتين اللعبتين، الشطرنج والنرد، بعض الخلفاء. فكان الواثق بالله يلاعب الشاعر الحسين بن الضحاك بالنرد[٤٢٨]. وكان المعتز بالله يلعب بالشطرنج لما أتي برأس المستعين بالله، فقال: ضعوه هناك، ولما فرغ من لعبه دعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه[٤٢٩] - كما كان المعتضد بالله يلعب بالنرد مع نديمه عبد الله بن أحمد بن حمدون[٤٣٠].

كما لعب بهما الوزراء والأمراء وغيرهم. فقد كان الفضل بن الربيع يلعب النرد مع المغني الشهير اسحاق الموصلي[٤٣١]. وكانت المغنيتان زُبَق وشارية تلعبان بالنرد بين يدي ابراهيم بن المهدي، وهو متكىء على مخدّة يتفرج عليهما[٤٣٢]. وكان ابراهيم بن المهدي نفسه

---

(٤٢١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ١، ص ٣٤٦.
(٤٢٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٧.
(٤٢٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٣٢٧.
(٤٢٤) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.
(٤٢٥) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج ١، ص ٣٤٥.
(٤٢٦) ابن قتيبة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.
(٤٢٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٦.
(٤٢٨) الأصبهاني، الأغاني، ج ٧، ص ٢٠١.
(٤٢٩) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٣٦٤.
(٤٣٠) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، ج ١، ص ٢٦٦.
(٤٣١) الأصبهاني، الأغاني، ج ٥، ص ٣٤٦.
(٤٣٢) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ١١.

يلعب بالشطرنج أحياناً[٤٣٣]. وتعتبر عَريب المغنية الشاعرة التي عاصرت خلفاء سامراء من أمهر لاعبي الشطرنج والنرد، حتى قيل ما رُئي ألعب بالشطرنج والنرد منها[٤٣٤].

وكان من المعتاد أن يُلعب بهاتين اللعبتين برهان من الطعام يؤكل بعد اللعب، أو بشيء معيّن يدفعه المغلوب. قال أبو العيناء: دخلت على عبيد الله بن عبد الله، وكان يوماً صائفاً، وقوم بين يديه يلعبون بالشطرنج، فقال لي: يا أبا عبد الله إنا نلعب في ندب (أي رهان) إلى أن يدرك طعامنا، ففي أي الحزبين تحب أن تكون؟ قلت: في حزب الأمير أيده الله فإنه أعلى وأبهى، فغُلبنا[٤٣٥]. وكان ابراهيم بن المدبر الكاتب يلاعب ابن حمدون نديم المتوكل على الله بالنرد، وكان إذا غلب شيئاً دفعه إلى إحدى الجواري المغنيات[٤٣٦].

وكان الشطرنج والنرد يُلعب بهما في الولائم قبل حلول موعد الطعام كوسيلة للهو وقضاء الوقت، كما كانا يلعب بهما بعد الانتهاء من الطعام إذا استمر الضيوف في المسامرة[٤٣٧].

وذكر ابن النديم عدداً من الشطرنجيين المشهورين، مثل العدلي الذي وضع كتاباً في الشطرنج، والرازي الذي كان يلعب مع العدلي بين يدي المتوكل على الله، وقد صنّف هو الآخر كتاباً في الشطرنج، وأبي بكر محمد بن يحيى الذي صنّف أيضاً كتاباً في الشطرنج[٤٣٨]. كما أن الجاحظ صنّف كتاباً في النرد والشطرنج[٤٣٩].

---

(٤٣٣) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٠٨.

(٤٣٤) المصدر نفسه، ج ٢١، ص ٥٤.

(٤٣٥) الشابشتي، الديارات، ص ٨٧.

(٤٣٦) المصدر نفسه، ص ١١.

(٤٣٧) أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، ص ٩٣.

(٤٣٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٤٣٩) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٧٨.

الفصل الثالث

الاحوال الاقتصادية والمالية

أولاً: الزراعة

١ ـ الاهتمام بالزراعة

أولت الدولة العربية بعد انتقال عاصمتها إلى بغداد، شؤون الزراعة اهتماماً كبيراً. وكان من الطبيعي أن يتميَّز هذا الاهتمام لأن الخراج المستوفى عن الأراضي الزراعية يؤلف القسم الأكبر من ايرادات بيت المال. فقد اهتم الخلفاء في بغداد وسامراء، بحفر الأنهر وشق الترع وإقامة السدود والقناطر في الأراضي التي تسقى سيْحاً لتأمين المياه الضرورية للمزارع من جهة، ولحمايتها من أخطار الفيضان من جهة أخرى. كما كانت الدولة تشرف على توزيع المياه، وتنفق على إنشاء القنوات والسدود وصيانتها وتستخدم لذلك عدداً كبيراً من المهندسين[١]. وكانت القناطر تُبنى عادة بالآجرّ والنّورة والجص[٢]. أما في السواد فكانت تتخذ من القصب والتراب[٣]، وكانت تقام في وجوه المياه الجارية لحماية الأراضي من طغيان المياه عند فيضانها.

وكان من أوائل المشاريع الإروائية التي أُقيمت في عهد العباسيين في العراق تلك التي أقامها الخليفة أبو جعفر المنصور عند تأسيسه مدينة بغداد. فقد حفر قناة تأخذ الماء من نهر كرخايا الآخذ من الفرات، فتدخل المدينة وتنفذ في أكثر شوارعها وأرباضها، وقد هندست

(١) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨)، ص ٥١.

(٢) أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، تجارب الأمم، نسخه وصحّحه هـ.ف. امدروز (مصر: مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٩١٤)، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

بحيث لا ينقطع ماؤها صيفاً ولا شتاء، وجرّ قناة أخرى من دجلة على هذا الشمال وسمّاها دجيل، كما جرّ لأهل الكرخ وما اتصل به نهراً يقال له نهر الدجاج، وقد سمي بهذا الاسم لأن باعة الدجاج كانوا يقفون عنده، ونهراً آخر إلى جانب نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ مياهه من الفرات، سمي نهر طابق، فتدفقت المياه، وغرس الناس النخل الذي حمل من البصرة، وأنواع الأشجار، فأثمرت الثمر العجيب، فكثرت البساتين والجنان في أرباض بغداد من كل ناحية لتوفر المياه(٤). وصار ما بين بغداد والكوفة سواداً تشتبك فيه الأنهار التي تنحدر من الفرات(٥).

وعندما بنى المعتصم بالله مدينة سامراء اهتم بالزراعة وشؤون الري. وكان بطبعه يحب عمارة الأرض وكان يقول إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب ويتسع المعاش. وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك الزيات «إذا وجدت موضعاً متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه»(٦).

ولما كانت أراضي الجانب الشرقي من سامراء مرتفعة عن مستوى نهر دجلة مما يتعذر منه إنشاء المزارع والبساتين لصعوبة رفع المياه لريّها، بعكس الجانب الغربي حيث الأرض منخفضة بالنسبة إلى مستوى النهر، فقد أمر بإحياء نهر الإسحاقي، وهو نهر قديم مندرس يأخذ ماءه من دجلة جنوبي مدينة تكريت، ويجري بموازاة دجلة من الغرب، ثم يعود فينتهي إليها جنوبي سامراء، بعد أن يروي بجداوله المتعددة الجانب المذكور من المدينة. وقد قسم النهر فرعين رئيسيين شمالي معسكر الجيش المسمى الاصطبلات، فيروي الفرع الشرقي منه المعسكر ثم ينتهي في مجرى نهر الدجيل. أما الشطر الغربي فيروي الأراضي التي بين دجلة والفرات ثم ينتهي بين الكثبان الرملية. وكان الغرض الأساسي من إنشاء الإسحاقي توفير المياه للمعسكر، إلا أنه صار محور العمران في الجانب الغربي من سامراء، إذ انتقل إلى هذا الجانب كثير من الناس وحفروا الجداول العديدة منه، وأنشأوا المزارع والبساتين، وقام عليه عديد من القرى. وكان المعتصم بالله قد أقدم من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال، أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع، كزراعة النخل والغروس ومعرفة هندسة الماء ووزنه واستنباطه، والعلم بمواضعه من الأرض(٧)، للإفادة منهم في تنظيم شؤون الري واستنباط المياه، وتوزيعها.

وعندما علم المعتصم بالله أن نهراً في بلاد الشاش كان قد اندثر في صدر الاسلام أنفق

---

(٤) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٥) أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الكرخي الإصطخري، الأقاليم (نشره موللر سنة ١٨٣٩)، ص ٤٨.

(٦) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ٤٧.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٦٤.

ألفي درهم لكريه وإحيائه[٨]. وكانت مدينة الرملة تعتمد في مياهها على آبار نظمت منها قنوات، ينفق عليها الخلفاء من باب البر والإحسان، فأمر المعتصم بالله بأن تكون النفقة عليها من بيت المال، فصارت نفقتها جارية يقوم بها العمال سنوياً[٩].

ولم تقتصر عناية الدولة على توفير المياه وتوزيعها وصيانة الترع والجداول، بل شملت تخفيف العبء عن المزارعين. فخفضت الضرائب الزراعية، بل إنها ألغت الضرائب النقدية على بعض المحاصيل فأخذ منها عيناً وذلك بنسبة معينة من الغلة، أي أنها اتبعت طريقة مقاسمة الحاصل، وما لم يزرع من الأرض فلا خراج عليه. وقد بدأ بهذه السياسة أبو جعفر المنصور، ثم استقرت في عهد ابنه المهدي الذي عمّمها على جميع المزروعات والمغروسات وجعل الضريبة الزراعية تجبى دائماً بالنسبة إلى المحصول[١٠]. وقد اختلفت نسبة المقاسمة باختلاف ري الأرض، فما يسقى سيحاً منها يكون خراجها نصف الغلّة، وما يسقى بالدّوالي ثلث الغلة، وما يسقى بالدواليب ربعها[١١]. كما أعيد النظر في النسبة المذكورة وخفضت في أيام المأمون الذي أمر بمقاسمة أهل السواد على الخُمسين وكانوا يقاسمون على النصف[١٢]. وكانت بعض الأراضي عشرية الخراج[١٣].

وكانت الدولة تسعى لتوسيع رقعة الأرض الزراعية، فكانت تُقطع بعض رجالها ممن يقومون بخدمات مهمة قطائع من الأرض يعمرونها بالزراعة مكافأة لهم، وعليهم أن يؤدوا بعض الضرائب ويقوموا بتصليح القنوات والسدود التي تقع في أراضيهم.

ومن مظاهر اهتمام الخلفاء بأمور الزراعة والعاملين فيها أن المتوكل على الله بينا كان يطوف في متصيد له رأى زرعاً لم يدرك بعد ولم يُستحصد، فقال: استأذنني عبيد الله بن يحيى في فتح الخراج، وأرى الزرع أخضر فمن أين يعطي الناس الخراج، فقيل له إن هذا قد أضرّ بالناس فهم يقترضون ويتسلفون، وينجلون عن أراضيهم، وكثرت شكاياتهم فقال: هذا شيء أحدث في أيامي أم لم يزل كذلك؟ فقيل له بل هو جارٍ. ويعود سبب ذلك إلى أن موسم الجباية كان يبدأ بحلول النيروز من السنة الفارسية، ونظراً لمنع العرب كبس السنين باعتباره من النسيء الذي نهى الاسلام عنه، فقد صار النيروز يتقدم سنة بعد أخرى. فأمر

(٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨)، ج ٩، ص ١٢١.

(٩) أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٥)، ص ١٠٢.

(١٠) محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية: الدولة العباسية، ط ٣، ٣ ج (القاهرة: مطبعة مصطفى محمد، [د.ت.])، ج ٣، ص ١٠٠.

(١١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٢)، ج ٢، ص ٨٢.

(١٢) العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، ٤ ج (النجف: مطبعة النعمان، ١٩٧٢)، ج ٣، ص٢٥٩، ومحمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (مصر: مطبعة الموسوعات، ١٨٩٩)، ص ١٩٨.

(١٣) الإصطخري، الأقاليم، ص ٤٥.

المتوكل على الله ابراهيم بن العباس الصولي، وكان على ديوان الخراج، أن يجعل للجباية موعداً غير متغير وينشيء كتاباً إلى بلدان المملكة في تأخير موسم الجباية، وقد عزم الخليفة على تأخيره إلى اليوم السابع عشر من حزيران من السنة الشمسية، الا أنه قتل فلم يتم تدبيره.

ولما تولى المعتضد بالله الخلافة أخذ بما حاوله جده، فأمر بترك افتتاح الخراج في النيروز الفارسي وأخره إلى الحادي عشر من حزيران / يونيو من السنة الشمسية، فخرج أمره في المحرم من سنة ٢٨٠هـ بإنشاء الكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار بأن يجعل افتتاح الخراج في التاريخ المذكور[١٤]. وكان إصلاح التقويم هذا اقتصر على العراق والأقاليم الشرقية، أما مصر فقد بقيت جباتها على الحساب القبطي، كما استمرت بلاد الشام على الحساب الرومي.

٢ ـ الحاصلات الزراعية

كانت الدولة العربية قد بلغت أقصى اتساعها في القرن الثالث، ولذا اختلفت حاصلاتها الزراعية بين مختلف أقاليمها بحسب الموقع الجغرافي للاقليم ونوع تربته وتوفر المياه فيه. وكانت أهم الحاصلات الزراعية الحبوب بأنواعها كالحنطة والشعير والذرة والرز، ثم التمور، والكروم، والزيتون، والقطن، والكتان، وقصب السكر، والنيل، والزعفران، ومختلف أنواع الفواكه. وكانت الحنطة والشعير يزرعان في معظم الأقاليم حيثما تتوفر المياه. وفي الأماكن قليلة المياه يزرعان اعتماداً على المطر. وقد امتاز العراق بخصب تربته ووفرة مياهه، فكانت الحنطة والشعير أهم حاصلاته الزراعية وهما يزرعان في معظم انحائه. واشتهرت أواسط البلاد والجزيرة، وبخاصة منطقة الموصل، بزراعتها[١٥]. ويقول المقدسي إن الجزيرة والموصل كانت منها أكثر ميرة العراق[١٦]. وكانت في الموصل مطاحن تعرف بالعُروب يقلّ نظيرها، قائمة في وسط ماء شديد الجريان وسط دجلة، وهي تتخذ من الخشب والحديد، وفي كل عربة منها أربعة أحجار، ويطحن كل حجرين في اليوم والليلة خمسين وقراً من الحبوب[١٧]. واشتهرت واسط بزراعة الشعير[١٨]. وتعتمد الزراعة في العراق على مياه

---

(١٤) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، ص٣٩؛ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادوارد سخاو (ليبزك: ادوارد سخاو، ١٩٢٣)، ص ٣١ ـ ٣٢، وأبو العباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمهما، ٢ ج (مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤)، ج ١، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

(١٥) أبو القاسم محمد بن علي الموصلي بن حوقل، صورة الأرض (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤)، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(١٦) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ١٣٦.

(١٧) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ١٩٨.

(١٨) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٢٩٤.

الرافدين، وأكثر الأراضي حولها تُسقى سيحاً. أما الأماكن المرتفعة من ضفافها فكانت تُسقى بواسطة الآلات الرافعة، وهي متعددة، منها الدولاب والدالية والزرنوق والناعورة[١٩]. أما المناطق الشمالية كسفوح الجبال والجزيرة فكانت تعتمد في ريّها على الأمطار.

كما كان هذان المحصولان الرئيسيان يزرعان في عُمان[٢٠]، ويزرعان في مصر، وقد اشتهرت الفيوم وطحا بالقمح الموصوف بالجودة[٢١]. وفي مدينة يشمور بصعيد مصر كان يزرع نوع من القمح يعرف باليوسفي المجزّع[٢٢]، ولاعتدال مناخ اليمن فقد كانت الحنطة والشعير والأرز تدرك أكثر من مرة في السنة[٢٣].

واشتهرت خوزستان من الأقاليم الشرقية بزراعة هذه المحاصيل[٢٤]. كما اشتهرت من مناطق المغرب طبرقة وبونة ووهران بزراعتها[٢٥].

أما الذرة فقد اقتصرت زراعتها على المناطق الجافة، مثل جنوبي جزيرة العرب كزبيد في اليمن، وفي بلاد النوبة، وأطراف الأهوار في جنوبي العراق وأواسطه، وفي كرمان من الأقاليم الشرقية[٢٦]. وفي سجلماسة بالمغرب حيث تزرع هي والدخن على الأمطار وكذلك في زويلة[٢٧]. وفي مدينة طحا بمصر، وهي مشهورة بكيزانها الكبيرة التي يسميها المصريون البواقيل[٢٨].

وكان الرز يزرع في المناطق غزيرة المياه كالعراق، إذ كان يزرع في الأماكن المنخفضة وأطراف الأهوار قرب الكوفة، وفي منطقة البطيحة وواسط[٢٩]. كما كان يزرع في مصر، إذ كانت تجود زراعته في الفيوم والواحات الخارجة[٣٠]. وكان يزرع كذلك في أريحا وبيسان في فلسطين[٣١]. ويزرع في إقليم خوزستان، وأهلها يطحنونه ويخبزونه باعتباره غذاءهم

---

(١٩) أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، مفاتيح العلوم (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٩٢٣)، ص ٤٦.

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٠.

(٢١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

(٢٣) أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٧ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١)، ص ١٠٩.

(٢٤) الإصطخري، الأقاليم، ص ٥٢ - ٥٣.

(٢٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٦ - ٧٧ و٧٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٨٥ و٤٧٠.

(٢٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٥٣.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٣١.

(٢٩) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٥٧.

(٣٠) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٣٣٢، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٠٨.

(٣١) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٨٠.

الرئيس[٣٢]. وفي بلاد ما وراء النهر كان يزرع في الشاش وبلخ[٣٣]. ويزرع كذلك في طبرستان[٣٤].

أما التمور، فإن العراق كان ولا يزال يعتبر البلد الأول في انتاجها. فكانت بساتين النخيل تغطي مساحات شاسعة من أراضيه، إذ تجود زراعته من البصرة جنوباً حيث تكثر أشجاره فيها حتى شمالي بغداد عند خط يمتد بين القادسية على دجلة وهيت على الفرات[٣٥]. وكان نخيل البصرة متصلاً من عبداسي إلى عبادان على امتداد خمسين فرسخاً لا يكاد يرى الإنسان فيه مكاناً إلّا نهراً أو نخيلاً[٣٦]. وكان نهر الأُبلّة، وهو بين البصرة والأبلّة وطوله أربعة فراسخ، تقوم على ضفتيه البساتين المتصلة كأنها بستان واحد[٣٧]. ومما ساعد على تكاثف بساتين النخيل في البصرة سهولة ريّها، فإن المد والجزر، كما يقول المقدسي، نعمة على أهل البصرة يزوّدهم بالماء في كل يوم وليلة مرتين، ويدخل الأنهار ويسقي البساتين، ويحمل السفن إلى القرى، فإذا جَزَر أفاد أيضاً في عمل الأرحية لأنها على أفواه الأنهار، فإذا خرج الماء أدارها[٣٨]. وكانت تمور العراق وهي أجود الأنواع تحمل إلى أقطار عديدة. والنخل في العراق كثير الأجناس وخاصة في البصرة. وقد ذُكر أنهم أحصوا أصناف النخيل في أيام المعتصم بالله فإذا بها ثلاثمئة وستون ضرباً[٣٩]. وقد سمّى المقدسي من أجناس تمور البصرة على أيامه تسعة وأربعين جنساً[٤٠].

كما كانت أشجار النخيل تكثر بمصر في الواحات الخارجة[٤١]. وكانت أكثر أموال أهل يثرب النخيل ومنها معاشهم وأقواتهم[٤٢]. وكذلك كانت بساتين النخيل كثيرة متكاثفة في عُمان وفي الأحساء وفي تيماء[٤٣]. وكان النخل يزرع أيضاً في أنحاء متفرقة من افريقيا والمغرب. فكانت بالقرب من برقة مدينتان يقال لاحداهما جالُو، وللأخرى وَدّان، يكثر النخل والتمر القَسْب الذي لا شيء أجود منه، وفي وَدّان خاصة أجناس مختلفة من التمور[٤٤]. كما اشتهرت مدينة فاس ومدينة زويلة بكثرة نخيلهما[٤٥].

---

(٣٢) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٣.
(٣٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٤، والإصطخري، الأقاليم، ص ٨٩ و٩٢.
(٣٥) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٨٣.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٥، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢١٢.
(٣٧) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٤٦.
(٣٨) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٣٩) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٣.
(٤٠) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٣٠ ـ ١٣١.
(٤١) المصدر نفسه، ص ٢٠٦، واليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٢.
(٤٢) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٤٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٩٣ و٢٥٢.
(٤٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٣٤٥.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٥، والمقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

وفي الأقاليم الشرقية كانت أشجار النخيل كثيرة في خوزستان، وكرمان، وسجستان. ويقول المقدسي إنه ليس أحلى من تمر كرمان وهو لا يمكن أن يؤكل نيئاً لشدة حلاوته وإنما يصلح للعصائد، ويعدّد ستة من أجناس التمور فيها منسوبة إلى مصادرها الأصلية كالمديني والمعقلي والصيحان وآزاد الكوفة(٤٦).

ولما كان الزيتون من نباتات البحر المتوسط فقد كثرت زراعته في بلاد الشام وشمالي افريقيا، إذ انتشرت أشجاره في دمشق وفلسطين حيث كانت مدن نابلس وطبريا وعكا كثيرة الزيتون ومنها يُصدَّر زيته(٤٧). وكذلك كان يزرع في مدينة الرَّقَّة ويستخدم زيته في صناعة الصابون فيها، وينقل منها إلى عدة بلدان(٤٨). كما كانت تكثر زراعته في منطقة قسطيلية على مقربة من مدينة القيروان(٤٩)، وفي تمودة قرب باجة، وفي مكنة وقبيشة، وفي مدينة بنونش التي كان فيها ثلاثمئة وستون معصرة للزيت(٥٠)، وفي قابس وسفاقس(٥١). وكان زيت الزيتون يصدَّر من بلاد المغرب إلى بلدان عديدة(٥٢). كما كان الزيتون يزرع في بعض الأقاليم الشرقية التي يلائمه جوّها كخوزستان، وجرجان بإقليم الديلم(٥٣).

وكان قصب السكر تكثر زراعته في المناطق الملائمة له من حيث المناخ ووفرة المياه. فكان يزرع في العراق بكثرة وبخاصة في البطيحة وحوالي البصرة وفي سنجار(٥٤). ويزرع كذلك في صور من بلاد الشام، وفي اليمن، وفي مصر(٥٥)، وفي خوزستان التي يقول المقدسي إن كل سكر ينقل إلى العراق وغيره من البلدان يُحمل من هذا الإقليم(٥٦)، وفي اقليمي كرمان وطبرستان وفي مدينة بلخ(٥٧)، وفي المنصورة بإقليم السند حيث كان يصنع منه القند الكثير(٥٨).

أما القطن فكانت زراعته تجود في سواد العراق، وأرض الجزيرة وبخاصة في رأس العين وفي حرّان. وكانت عرابان مركزاً لتجميع قطن الجزيرة ومنها ينقل إلى الموصل

---

(٤٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٢، ٤٠٧، ٣٢٤ و٤٧٠، والإصطخري، الأقاليم، ص ٧٣.
(٤٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٦٢، ١٧٤ و١٨٠.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٤١ و١٤٥.
(٤٩) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٥٠.
(٥٠) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٢٧.
(٥١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٢ ـ ٧٣.
(٥٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤١ و١٤٥.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ٣٥٤، ٣٥٧ و٤٠٧.
(٥٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٥٩.
(٥٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٨٠، وابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١١١.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٤٠٨ و٤١٦.
(٥٧) الإصطخري، الأقاليم، ص ٧٤ و٩٢.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٧٦، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٧٧.

وغيرها[٥٩]، كما كان يـزرع في حلب، وفي فلسطين لا سيما في بيت المقدس[٦٠]. أمـا في شمال افريقيا فكان يزرع في تونس ويحمل منها إلى القيروان[٦١]. وفي اليمن كان قطن صعدة وصنعاء يضرب به المثل لصفرة في لونه[٦٢]. كما كان يزرع في أكثر الأقاليم الشرقية وبخاصـة كرمـان، وطبرستان، حيث كان يحمل منها إلى بلدان أخرى[٦٣].

واشتهـرت مصر وبلاد المغـرب بزراعـة الكتّان، فكـان يزرع في بـوصير بمصر، وفيهـا تصنع منه الأنسجة الرفيعة، وفي وادي شلف قرب تاهرت[٦٤].

وكان النيل الذي يستخرج منه الصبغ الأزرق للملابس، يزرع في زبيد باليمن وكـان لا نظير له كانه لازورد، وفي أريحا وبيسان بفلسطين[٦٥]. كما كـان يزرع بكـابل، ويعتـبر نيلها أجود الأنواع «ويباع بها من النيل في كل حول مما يحمل بقصبتها دون الباقي منه بأيدي التجار على مـا يذكـر تجارهم بألفي ألف دينار وزائد»[٦٦].

واشتهرت مدينة أُرْبُس بالمغرب بالقرب من باجة بزراعة الزعفران، وكانت فيها مزارع واسعة له، كما كان يزرع بافريقيا[٦٧]. ويزرع كذلـك في سومـان قرب الصغـانيان في مـا وراء النهر، وفي مدينة باب الأبواب بأرمينيا[٦٨]. ويزرع في اصفهان، وكان ينبت فيها أجود أنـواعه رائحة وصبغاً بحيث يفضل على ما في سائر المواضع منه[٦٩]. ويزرع كذلـك في همدان بـإقليم الجبال.

ومما يشبه الزعفران في لونه واستخدامه في الصبـغ العُصْفُر، وكـان يزرع في المغـرب في وادي شلف قرب تاهرت[٧٠]، وكان يزرع في اليمن نبات يشبه العصفر يسمى الوَرْس[٧١].

وقد انتشرت أشجار الفاكهة في مختلف الأقاليم، ورغم تعدد أنواعها في معـظم الأنحاء فـإن بعض الأقطار أو المدن اشتهرت بنـوع معين منهـا. وكانت الكـروم أكـثر مـا يـزرع من

---

(٥٩) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٤١.
(٦٠) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٠.
(٦١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٥.
(٦٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
(٦٣) المصدر نفسـه، ص ٣٢٣، والإصطخري، الأقاليم، ص ٧٤.
(٦٤) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٦٩، واليعقوبي، البلدان، ص ٣٥٨.
(٦٥) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٧٨ و٩٨.
(٦٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٧٥.
(٦٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٢٧ و٢٣٩.
(٦٨) الإصطخري، الأقاليم، ص ٨٠ و١١٥.
(٦٩) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١٥٧.
(٧٠) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٥٨، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٥.
(٧١) الإصطخري، الأقاليم، ص ١٣.

الفواكه[٧٢]. ويظهر أن مناخ اليمن كان ملائماً جداً لزراعتها، وكان العنب فيها يدرك مرتين في السنة، وفيها قريب من سبعين نوعاً منه، وفي صنعاء نوع حبّته كبيرة الحجم يسمى المختّم[٧٣]. وكذلك تعددت أنواعه في العراق، فقد اشتهر منها الملاحي ببغداد، والسرناوي والخمري بقطربل، والصقلبي والأحمر بسامراء والرزّاوي بالكوفة، والحلاوى والجرشي بالبصرة[٧٤]. واشتهر نوع في الشام يسمى عيون البقر[٧٥]. كما كانت زراعة الكروم تجود بفلسطين عند البحر الميت، وفي منبج قرب حلب، وفي نصيبين بإقليم الجزيرة[٧٦]. وقد أسهب ابن الفقيه في تعداد أصناف الكروم وخصائصها ومنافعها في معالجة بعض الأمراض، وهو يعتبر العنب سيد الثمار[٧٧].

وكان شمالي اقليم الجزيرة، لا سيما سنجار ونصيبين والرحبة، غنياً بأشجار اللوز والجوز والشاه بلّوط والتين، والرمان الذي كان يجفف حبه ويحمل إلى مدن أخرى[٧٨]. وفي القرن الثالث نقل الاترنج والنارنج إلى العراق من الهند فجادت زراعتها فيه، وقد قدّما في المآدب التي أقيمت في احتفالات ختان المعتز بالله[٧٩]. ويظهر مما ذكره القاضي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ أن الليمون كان على أيامه يزرع في بعض بساتين البصرة، إلا أنه قليل جداً[٨٠]. وكان الموفق بن المتوكل على الله إذا جلس للشراب يقدم إلى جلسائه النارنج[٨١]. ويقول المقريزي نقلاً عن المسعودي إن النارنج والأترج حملا من أرض الهند بعد الثلاثمئة وزرعا بعُمان، ثم نقلا إلى العراق والشام حتى كثر في دور الناس بطَرَسوس وانطاكية وغيرهما من الثغور الشامية، وفي سواحل الشام وفلسطين ومصر[٨٢]. إلا أن تقديمهما في حفلات ختان المعتز، واعتياد الموفق على تقديم النارنج لندمائه في أواسط القرن الثالث قد يكون دليلاً على

(٧٢) آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٧٣) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١٠٩ و١١١.

(٧٤) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ١٢٥.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٧٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٦، ١٦٩ و١٩٤.

(٧٧) الهمذاني، المصدر نفسه، ص ١٢٣ ـ ١٢٦.

(٧٨) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ١٩٩، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٤٥.

(٧٩) أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢ (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٦)، ص ١٥٢.

(٨٠) المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٥٥)، ج ٤، ص ١٥٨.

(٨١) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٢٧٦.

(٨٢) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ٢٨.

أنهما كانا يزرعان في العراق قبل التاريخ المذكور، إلا إذا كان ما قدم في ختان المعتز ومجالس الموفق مجلوباً من خارج العراق.

لقد اشتهرت بلاد اليمن بفواكهها المختلفة كالتفاح والمشمش والاجاص والخوخ والكمثرى، اضافة إلى العنب، كما كانت تزرع فيها أشجار اللوز والجوز والفستق، وأشجار الرمان والموز والسفرجل، وكذلك زرع فيها الأترج فجاد نوعه وكان كبير الحجم حلو الطعم(٨٣).

واشتهرت من مدن الجزيرة العربية الطائف بكثرة الفواكه كالرمان والعنب والزبيب، وكانت الجُرَيب بلد الموز، وصحار قصبة عُمان سميت بلد الفواكه والخيرات(٨٤).

كما اشتهرت بلاد الشام بكثرة فواكهها وتعدد أجناسها ولا سيما الكروم والتفاح الذي كان يجود نوعه في الشام وفي بيت المقدس، وكان يسمى الشامي، وكذلك كان يكثر فيها التين واللوز والجوز والشاه بلّوط(٨٥).

واشتهرت الأقاليم الشرقية بفواكهها المتعددة، فقد اشتهرت مدينة اصطخر بتفاحها، وجادت زراعة الأترج والنارنج بخوزستان وكرمان وطبرستان(٨٦). وكان البطيخ في مدينة مرو يقدّد ويحمل إلى سائر البلدان، وكان يحمل في أوانه إلى الخلفاء ببغداد وسامراء، لشدة حلاوته ولذة طعمه وطيب نكهته، وذلك في قدور نحاس(٨٧).

أما في اقليم السند فقد اشتهرت المنصورية بالليمون الحامض وهو بحجم التفاح حامض المذاق جداً، ويقول المقدسي إن الليمونة منه تشبه ثمرة المشمش وهي حامضة جداً، وإن بها نوعاً آخر من الليمون شبيه بالخوخ يسمونه الأنبج وهو لذيذ الطعم(٨٨). كما كان يكثر الموز واللوز والجوز في مدينة وَيْهِيد(٨٩).

وقد أشرنا إلى كثرة النخيل في مصر، إلا أنها كان فيها إلى جانب ذلك أنواع أخرى من الفاكهة، منها الجمّيز وهو أصغر من التين، والموز وهو على مقدار الخيار، عليه قشر رقيق وله حلاوة وعفوصة، والترمس وهو على قدر الظفر يؤكل يابساً مُحلًّى أو مملحاً(٩٠). وكان يجود فيها

---

(٨٣) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١١١.

(٨٤) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٧٩، ٨٦ و٩٢، والإصطخري، الأقاليم، ص ١٤.

(٨٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤٥ و١٨٠.

(٨٦) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٥٤، ٦٦، ٧٤ و٩٢.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١١٨؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٦٥، والهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٨٨) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٧٦، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٤٨٢.

(٨٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٨٠.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

الأترج كبير الحجم، واشتهر فيها نوع من البطيخ يسمى العبدلي، وصنف من الليمون يقال لـه التفاحي يؤكـل بغير سكـر لقلة حموضتـه، ولذة طعمـه، وأنواع عـديـدة من التفـاح منهـا القاسمي والمسكي، ونوع من الخوخ يسمى الزُّهري[٩١].

ومن بلدان ما وراء النهر اشتهرت بخارى بفواكهها التي كانت أصح وألذ طعماً من بقية فواكه ما وراء النهر[٩٢]. وجادت زراعة الأترج في مدينة بلخ، وكذلك بقية الفـواكه كـالكروم والرمان والتين واللوز والجوز[٩٣]. واشتهرت بعض قرى فرغانة بوفرة أشجار الجوز فيها، حتى ربما وجدت ألف جوزة بدرهم واحد[٩٤].

٣ ـ تربية الحيوانات

تعتبر تربية الحيوانـات الداجنـة من متممات الحيـاة الزراعيـة، فحيث توسعت الـزراعة نشطت معها تربية الدواجن والأنعام وحيوانات الحمل والركوب. وكانت تربية الدجاج شائعة في جميع الأقاليم. وقيـل إن البط كانت تـرعى بمصر كما يـرعى الغنم[٩٥]. وقد اختصت مصر بتفريخ الدجاج صناعياً، فكان فيها معامل كالتنانير يوضع فيها البيض بـترتيب خاص ويـوقد عليـه بما يحـاكي الحرارة الـطبيعية في حضـانة الـدجاجـة لبيضها، وتخـرج من تلك المعـامـل الفـراريج وهي معـظم دجاج مصر، ولا يتم مثـل هذا بغـير اقليم مصر[٩٦]. واشتهرت مصر بالحمير المَرِّيسية[٩٧]، والبغال المصرية والخيل العِتاق والإبـل والبقر[٩٨]. ولهم وراء أسـوان حمير صغار الحجم في مقدار الكبـاش الكبار، ملمعـة الجلود، إذا خرجت من مـواطنها مـاتت[٩٩]. واشتهر صعيد مصر بكثرة المواشي من الضأن وغيره لكثرة نتاجها. ويقول المقـريزي إن كثيـراً من الأغنام تلد أكثر من مرة في السنة وقد تلد في البطن الواحد ثلاثة أرؤس[١٠٠].

---

(٩١) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٩٢) الإصطخري، الأقاليم، ص ١١٨.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ١١٠، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٢٤.

(٩٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٩٥) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٦٠.

(٩٦) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ٢٦.

(٩٧) يسمى أعلى الصعيد إلى بـلاد النوبـة مَرِّيس. انظر: الهمذاني، المصدر نفسه، ص ٧٤. ويقـول اليعقوبي إن مدينة اسنا يقال لأهلها مريس ومنها الحمير المريسية. انظر: اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.

(٩٨) الهمذاني، المصدر نفسـه، ص ٦٩ و٢٥٢، والمقـدسي، أحسن التقـاسيم في معـرفـة الأقـاليم، ص ٢٠٣.

(٩٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٢.

(١٠٠) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بـذكر الخـطط والآثار يختص ذلـك بأخبـار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ١٩٠.

وكان اقليم الجزيرة غنياً بمراعيه وكثرة أغنامه، وبخاصة منطقة الموصل(١٠١). كما كانت تربية الأغنام في تونس وفي ما وراء النهر واسعة(١٠٢). كما كان اقليم الرحاب أوسع أقاليم الدولة العربية بتربية الأغنام، وثمن الخروف فيه درهمان(١٠٣). واشتهرت أرمينيا من هذا الإقليم وبخاصة برذعة بتربية البغال والجياد، وكانت تحمل منها البغال الفُرة إلى العراق والشام وخراسان(١٠٤). كما اشتهرت المغرب بالبغال البربرية، وكانت برقة وسُرت واطرابلس وبونة ووهران تعنى بتربية الماشية، وتحمل الجلود من برقة إلى مصر لدباغتها، ويحمل الصوف من سُرت واطرابلس وبونة إلى مختلف بلدان المشرق؛ كما اشتهرت بونة بتربية البقر(١٠٥).

ومن مدن الأقاليم الشرقية اشتهرت خوارزم بأغنامها وأبقارها(١٠٦).

وكانت الخيول تُربى ويُعتنى بها في أكثر أقاليم الدولة. وتعتبر نجد موطن الخيول العربية العتاق الكريمة الأصل. أما الخيول الجياد فكانت تجلب من اقليم الجزيرة(١٠٧). واشتهرت جزيرة العرب بالنجائب وهي الجمال ذات السنام الواحد، وللجمل تأثير بالغ في حياة البدو الصحراوية. كما اشتهرت اليمن بالنجائب المهرية(١٠٨)، وحضرموت بنجب من الإبل تفضل غيرها في المسير وحسن الرياضة(١٠٩).

كما اشتهرت بلخ وسمرقند في ما وراء النهر بالنوق البخاتي، وهي الجمال ذات السنامين، وهي مقدمة على سائر الجمال(١١٠). وكان في السند نوع من الجمال أعظم من البخت يسمى الفالج لا يستعمله ولا يملكه سوى الملك، وهو يتخذ لنتاج البخاتي البلخية والنوق السمرقندية(١١١). وكانت الابل تُربى كذلك في اقليمي الديلم وكرمان(١١٢).

وكان الجاموس قد جلب إلى العراق أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد بعث به والي السند محمد بن القاسم. وجاءت تربيته في منطقة البطائح، واستفيد منه في مكافحة السباع في تلك المناطق. ولما اشتكى أهل انطاكية من وجود مسبعة بقرب مدينتهم، أمر

---

(١٠١) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٧٥، ٣٨٥ و٣٩٤.

(١٠٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٧٣.

(١٠٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التبصر بالتجارة، عني بنشره والتعليق عليه حسن حسني عبد الوهاب، ط ٢ (مصر: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٥)، ص ٣٢.

(١٠٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧٧.

(١٠٦) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٢٥ و٣٥٥.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(١٠٨) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢.

(١٠٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٤٤.

(١١٠) الإصطخري، الأقاليم، ص ١١٠.

(١١١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٨٢، وابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(١١٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٥٦ و٤٥٩.

الخليفة الوليد بن عبد الملك بتوجيه أعداد كبيرة من الجاموس من العراق إلى تلك المنطقة[113].

ثانياً: الصناعة

مقدمة

استلزمت المرحلة الحضارية التي وصلت إليها الدولة العربية في خلال القرن الثالث تعدّد الحاجيات وأنواع الأمتعة من ملابس وأثاث وغيرهما مما يحتاجه الناس في حياتهم على اختلاف طبقاتهم. وكان للرخاء الذي حلّ بالبلاد منذ عهد هارون الرشيد تأثير بالغ في تنويع تلك الحاجيات واستجادتها والتأنق في صناعتها. إذ على مقدار عمران البلد، كما يقول ابن خلدون، تكون جودة البضائع، وكلما ازداد العمران تعددت أنواع البضائع التي يتطلبها الناس، وتزايدت صنائع أخرى مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله[114].

وكان من عوامل تشجيع الصناعة حينذاك أن الخلفاء ورجال الدولة والأغنياء من الناس أخذوا يتهافتون على اقتناء الألبسة ولا يبالون كم يكون ثمنها. وربما لبس الواحد منهم تسعة أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة بالبذخ[115]. فشجع ذلك الصناع على اتقان ما يصنعون من البضائع، فازدهرت الصنائع في معظم مدن الدولة العربية. وقد اختص بعضها بنوع معين من البضائع بحيث تحمل منتوجاتها منه إلى بلدان أخرى. ومثلما استقطبت مدينة السلام عند تأسيسها في منتصف القرن الثاني حُذّاق أهل الصناعات وانتقلوا إليها من كل بلد، وأتوها من كل أفق في ما ذكره اليعقوبي[116]، فإن المعتصم بالله عند تأسيسه سامراء وانتقال عاصمة الخلافة إليها، استقدم إليها من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من المهن. فحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها، ومن البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر، ومن الكوفة من يعمل الخزف والأدهان، ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة، وجعل سوقاً لأهل المهن[117].

---

(113) أبو العباس أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، راجعه وعلّق عليه رضوان محمد رضوان (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، [د. ت.])، ص 172.

(114) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، 7 ج (مصر: المطبعة الخيرية، 1904)، ص 219.

(115) أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، الأغاني (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، [د. ت.])، ج 5، ص 33، وأبو الطيب محمد احمد الوشّاء، الموشّى أو الظرف والظرفاء، حقّقه كمال مصطفى، ط 2 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1953)، ص 123.

(116) اليعقوبي، البلدان، ص 251.

(117) المصدر نفسه، ص 264.

وقد تكتل أرباب كل صناعة ليكونوا صنفاً خاصاً، ويظهر أنه كان هناك تنظيم متدرج عند أرباب الحرف المختلفة. فهناك الصناع والأساتذة، كما كان لكل حرفة رئيس من بين أصحابها[118]. إن هذه الأصناف المهنية التي نسميها اليوم النقابات كانت الأساس الذي تقوم عليه الصنائع آنذاك، إذ كان لكل صناعة تقاليدها ونظمها. فلا يسمح لأي شخص أن يعمل في إحدى الصناعات ما لم يكن قد تدرب واكتسب مهارة فيها. وكان أرباب كل صناعة يحرصون على حفظ صناعتهم وأسرارها، ولا يقبلون إليها سوى من يثقون به ممن يتقدم للعمل معهم. وكانوا يلقنونهم أسرار تلك الصناعة منذ صغرهم. وعلى الصبيان أن يتمرنوا مدة غير قصيرة تحت إشراف مَنْ هم أقدم منهم حتى يحذقوا الصنعة قبل أن يُعترف بهم صناعاً ماهرين[119].

ومع حرص شيوخ الصنائع ورؤسائها على تحسين مصنوعاتهم ورفع مستوى نوعيتها، فقد كان لمؤسسة الحسبة دور مهم في الحفاظ على متانة تلك المصنوعات وجودتها سواء في المواد الخام التي تصنع منها أو في طريقة صنعها، وذلك بفضل الرقابة التي كان يتولاها المحتسب في المدينة. وقد تضمنت كتب الحسبة شروط كل صناعة ومهنة، وواجبات القائمين بها والتزامهم بجودة الصناعة وإتقانها. وسنذكر بعض ما يقوم به المحتسب في رقابته على بعض المصنوعات على سبيل المثال.

كانت واجبات المحتسب تجاه الحاكة، أي النساجين، أن يأخذهم بجودة العمل والالتزام بالطول والعرض المقدرين للثوب الذي ينسجونه. وأن يعتنوا بصفاقة النسيج وتنقيته من القشرة السوداء، ويمنعهم من نثر الدقيق والجبسين عليها عند نسجها ليستروا وحاشتها فتبدو كأنها صفيقة. وإن أخذ أحدهم غزلاً فليأخذه بوزن، فإذا نسجه ثوباً غسله ثم دفعه إلى صاحبه بالوزن[120]. وفي ما يتعلق بباعة القطن ونَدّافيه، فعلى المحتسب أن يلاحظ عدم خلطهم جديد القطن بقديمه، ولا أحمره بأبيضه. وينبغي عليهم أن يندفوا القطن مكرراً حتى تطير القشرة والحب المكسور لأنه إذا بقي فيه ذلك ظهر في وزنه، وإذا ما استخدم في لحاف أو جبّة أو قباء قرضه الفأر. أما الكتانيون والحريريون فعليهم أن يلاحظوا عدم خلط الكتان الجيد برديئه ولا الكتان النابلسي بالمصري، وأن لا يصبغوا الحرير القز قبل تبييضه لئلا يتغير بعد ذلك، وقد يفعلونه حتى يزيد لهم. وأن لا يثقلوا الحرير بالنشا ولا بالسمن والزيت[121]. ومن الصباغين من يصبغ الحرير وغيره من الغزل والثياب بالحناء عوضاً عن الفُوّة، فيخرج الصبغ حسناً مشرقاً، فإذا أصابته الشمس تغيّر لونه وزال إشراقه. ومنهم من يُدكّن الثياب

---

(١١٨) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٨١.

(١١٩) محمد عبد العزيز مرزوق، العراق مهد الفن الاسلامي (بغداد: وزارة الاعلام، ١٩٧١)، ص ٥٧ـ ٥٩.

(١٢٠) عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحرير السيد الباز العريني؛ إشراف محمد مصطفى زيادة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦)، ص ٦٥.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٦٩ ـ ٧١.

بالعفص والزاج إذا أراد صبغها كحلياً ثم يدليها في الخابية فتخرج صافية اللون شديدة السواد، فإذا مضت عليها مدة قصيرة تغير لونها ونقص صبغها. وهذا كله غش وتدليس، على المحتسب أن يمنعهم من فعله[١٢٢].

أما ما يلاحظه على الأساكفة فيجب أن لا يكثروا حشو الخرق البالية في ما بين الجزء العلوي من الحذاء وبطانته، ولا بين النعل والجلد الذي يُشدُّ إليه، ولا يستخدموا نعلاً أحرقته الدباغة، أو ما زال غير مدبوغ بصورة جيدة. وعليهم أن يحكموا إبرام الخيط ولا يطوّلونه أكثر من ذراع لأنه إذا طال أكثر من ذلك انسحج وانتقض إبرامه[١٢٣].

وبالنسبة إلى الصاغة والنحاسين والحدادين فإن أهم واجبات المحتسب في مراقبتهم أن يلاحظ عدم غشّ المعادن التي يستعملونها في صناعاتهم وأن لا يستخدموا مهاراتهم في الجلاء والصياغة وخلط المعادن لغشّ بضاعتهم، وأن لا يستعملوا ما هو قديم من المعادن ويعيدوا صنعه. ومراقبة هذه الأصناف تحتاج إلى مهارة ودقة ومعرفة يجب أن يمتاز بها المحتسب لكي لا يدلّسوا عليه[١٢٤].

١ ـ أهم الصناعات

سنستعرض في ما يأتي أهم الصناعات التي كانت منتوجاتها تنقل من البلد الذي تصنع فيه إلى بلدان أخرى، ونذكر أهم مراكز تلك الصناعات:

أ ـ صناعة النسيج (الأكسية والثياب)

وجد العرب في البلاد التي حرروها من نير الفرس والروم ثمة مصانع للنسيج تنتج أقمشة بأصناف عديدة ممتازة، فلم يقتصروا على تشجيعها بل صاروا ينشئون مصانع أخرى جديدة، وحصلوا على مركز القيادة في هذه الصناعة، وسيطروا تماماً على تجارة الحرير خاصة. ولعل أسماء أقمشة ومنسوجات عديدة ظل بعضها حياً في مجال الاستعمال حتى اليوم، تعيّن لنا الأماكن التي ترد منها، فالقماش المعروف باسم فوستيان (Fostian) مصدره مدينة الفسطاط بمصر، والدمقس (Damask) جاء اسمه من دمشق، والموسلين (Muslin) هو ما كان يستورد من الموصل من النسيج القطني الرفيع[١٢٥].

ولما كان اللباس أهم الحاجات الأساسية للإنسان بعد الطعام، كانت صناعة الملابس والتفنن بها من أوسع الصناعات. وكادت صناعة نسيج الأكسية والثياب تكون عامة في جميع

---

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٢.
(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٧٣.
(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٧٧ ـ ٧٩.
(١٢٥) توماس أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٢٠٠.

أقاليم الدولة العربية. فما من مدينة من أمهات المدن إلا واشتهرت بنوع من النسيج، بل إن بعض المدن الصغيرة والقرى اشتهرت بذلك أيضاً. فقد كانت تعمل ببغداد ألوان ثياب القزّ لا سيما العباداني والساماني الرفيع، والمنسوجات الحريرية كالأزر والعمائم والمناديل، والثياب القطنية البيض[126]. وكان السقلاطون، وهو نسيج حريري سميك وردي اللون، يصنع بالدرجة الأولى ببغداد[127]. وكان مضرب الأمثال بجودته[128]. وكانت ترسم عليه صور الأشجار والحيوانات والطيور[129]. ويُشبّه صاحب المنتظم جلد الحمار المخطط بالثوب العتابي[130]، وقد اشتهرت بغداد بصنعه، وكان يصنع في حي العتابية بها، وهو نسيج حريري خاص، قُلّد في اسبانيا وعرف فيها باسم الأتابي، وعرفته فرنسا وايطاليا باسم تابيس (Tabis)، واشتهر باسمه التجاري هذا في بلدان أوروبا[131]. كما اشتهرت بغداد بنسج نوع من الثياب عرفت بالمتوكلية، وهي نوع من الثياب المليحة كانت في نهاية الحسن والصبغ وجودة الصنعة، وكان الخليفة المتوكل على الله قد فضّلها على سائر الثياب فنسبت إليه، واقتدى الناس به وبالغوا في ثمنها[132]. وكانت تنسج في الحظيرة، وهي من قرى بغداد، الثياب الكرباس الصفيق، ومنها يحمله التجار إلى البلاد الأخرى[133].

واشتهرت البصرة بصنع الخز والبز[134]. ولجودة ما يصنع بالبصرة من المنسوجات قال الجاحظ: «الصناعة بالبصرة»[135]، إذ كانت تصنع بالأبلّة ثياب الكتّان الرفيعة[136]، والعمائم الجيدة التي كانت مضرب الأمثال[137].

وامتازت الموصل بصنع نسيج قطني يسمى الشاش وكان له شهرة واسعة وقد انتشر في البلدان الغربية باسم الموسلين كما أشرنا آنفاً.

---

(١٢٦) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٨.

(١٢٧) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٩٠.

(١٢٨) أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، [د. ت.])، ج ١، ص ٣٦٩.

(١٢٩) أبو الحسن أحمد بن الزبير، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، التراث العربي؛ ١ (الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٥٩)، ص ٦٤.

(١٣٠) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ - ١٩٣٩)، ج ١٠، ص ٢٤٤.

(١٣١) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٢٠١.

(١٣٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٨٦.

(١٣٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥)، ج ٢، ص ٢٧٤.

(١٣٤) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٨.

(١٣٥) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ١، ص ٣٧٠.

(١٣٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(١٣٧) النويري، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١٩.

وتميَّزت الكوفة بصناعة الوشي الذي كان مضرب الأمثال حيث يقول الجاحظ: «وخير الوشي في الثوب الكوفي»[138]، وكذلك يصنع الخز وبخاصة العمائم[139].

وكان للنعمانية شهرة في نسيج الأكسية والثياب الصوفية العسلية الحسنة الصنع[140]. كما كانت الحيرة تنسج الأقمشة القطنية والصوفية، وكان للثياب الحيرية شهرة خاصة[141].

وفي اقليم الجزيرة اشتهرت مدينة آمِد بصنع ثياب الصوف والكتان الرومية الطراز[142]، والطيالسة الصوفية، والثياب الموشّاة، والمناديل، وشراشف الفرش، والكلل[143].

وكانت تصنع في اليمن أنواع البرود والأردية والثياب الموشاة، وقد تبلغ قيمة البرد الواحد عندهم خمسمئة دينار[144].

أما في اقليم الرحاب فقد اشتهرت مدينة برذعة بأرمينية بانتاج الابريسم لكثرة ما يُربى فيها من دود القز، وصناعة الثياب الفاخرة منه[145]. أما مدينة دبيل، قصبة أرمينيا، فكانت تصنع فيها الثياب المرعزية، وكانوا يصبغون المرعزي بالقرمز. وأصله من دودة تنسج على نفسها كدودة القز[146]. وكانت تصنع في مدينة ميافارقين الثياب والمناديل والتكك الأرمينية الرفيعة المشهورة التي يبلغ ثمن الواحدة منها من دينار إلى عشرة دنانير، ولا نظير لها في سائر البلدان[147].

وانتشرت صناعة النسيج في عدد غير قليل من مدن مصر حيث يزرع الكتان بكثرة. فكانت الثياب الصفاق الملونة تصنع في مدينة دمياط[148]، كما كان يصنع فيها القصب من كل نوع، ويبلغ ثمن الثوب الأبيض فيها وليس فيه ذهب ثلاثمئة دينار، ويعمل فيها الفرش

---

(١٣٨) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢، والجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ١٩.

(١٣٩) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٨.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(١٤١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٩٢.

(١٤٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(١٤٣) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٣٠.

(١٤٤) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، المسالك والممالك، تحقيق ميخائيل دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٨)، ص ٧١، وابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١١٢.

(١٤٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٩٠، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٨٠.

(١٤٦) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٩٤؛ المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٨١، والهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٩٧. وفيها أن القرمز دودة حمراء تظهر أيام الربيع فتلتقط ثم تطبخ ويصبغ بها.

(١٤٧) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

(١٤٨) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٨، وابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٢٠٤.

القلمون من كل لون، المعلَّم والمطرز، ومناشف الأبدان والأرجل[149]. واشتهرت دبيق من قرى دمياط بصنع الثياب المثقلة، والعمائم الشرب الملونة، والدبيقي المذهب[150]. كما كانت الثياب القصب الجيدة تصنع في الفيوم[151]. واشتهرت مدينة القيس بنسيج الثياب القيسية المصنوعة من الصوف، وعمل الأكسية الصوفية الجيدة[152]. وكانت تنيس من أهم المدن المصرية في صناعة النسيج وقد اشتهرت بأنوالها الخمسة الآلاف، وكان أهلها مياسير أثرياء وأكثرهم حاكة، وبها تحاك الثياب الشرب من الكتان التي لا يصنع مثلها في الدنيا بحيث إن زنة كل درهم منها بدرهم فضة، وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سدى ولحمة غير أوقيتين وينسج باقي الثوب بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمته ألف دينار[153]. كما كانت تصنع فيها الثياب الصفاق والثياب الرقيقة من الدبيقي والقصب والبرود والمخمل والموشي، وأنواع ثياب الكتان والصوف، والفرش أبو قلمون[154]. واشتهرت كذلك بالحلل المنسوبة إليها والتي لا يوجد ما يدانيهما في حسن الصنعة ودقتها وقيمتها التي قد تبلغ مئتي دينار للحلة الواحدة إذا كان فيها ذهب، وقد تبلغ قيمة ما لا ذهب فيها مئة دينار، وجميع ما يعمل فيها من الكتان، وربما بلغ مثقال غزل من غزولها عدة دنانير. وكان يحمل إلى العراق من هذه الحلل والثياب سنويا ما قيمته من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار[155]. وكانت مدينة تونة وهي إلى جانب تنّيس تصنع الأكسية الكتانية الفاخرة الخاصة بالكعبة المشرفة[156]، وهي الأكسية التي حرص الخلفاء على عملها بدور الطراز وإرسالها سنوياً إلى مكة.

وكانت تصنع في مصر القراطيس التي لا يشاركها فيها أحد، وهي بُرد مصرية كانوا يحملون فيها الثياب والآنية، وقد اشتهرت بصنعها مدينة وسيمة على ساحل البحر، وبورة من أعمال دمياط[157].

---

(١٤٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٣.

(١٥٠) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ٢٢٦، وذكرها باسم دَبيق.

(١٥١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٠٤.

(١٥٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣١.

(١٥٣) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ١، ص ١٦٣ و١٧٧، وموريس سفن ديماند، الفنون الاسلامية، تصدير أحمد فكري؛ ترجمة أحمد محمد عيسى، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٤)، ص ٢٥٠.

(١٥٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٣٧ - ٢٣٨؛ الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١.

(١٥٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٤٣، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٧.

(١٥٦) ديماند، الفنون الاسلامية، ص ٢٥٠.

(١٥٧) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٨، وزيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ١، ص ١٢٥.

وفي اقليم الشام كانت أقمشة الديباج والبزّ تحمل من دمشق وطبريا، وتصنع الثياب القطنية في حلب، والقوط في أكثر مدن فلسطين، والثياب المنيّرة في القدس، والميازر في الرملة[١٥٨].

وقد اشتهرت اصفهان في اقليم الجبال بصناعة الثياب من القطن والابريسم كالوشي والعتابي والسقلاطون والملاحم والحلل[١٥٩]. واشتهرت الري بصنع البرود الحريرية، والأكسية والطيالسة القطنية، والثياب المنيّرة[١٦٠]. وانفردت قزوين بصنع الجوارب[١٦١].

واشتهر اقليم طبرستان بمنسوجات الابريسم كالثياب والمآزر والمناديل، وصنع الأكسية، والمطارف، والمدارع الصوفية الثمينة، ومناديل القطن[١٦٢]. ويقول ابن حوقل ان ليس في بلد آخر أكسية تبلغ قيمة اكسيتهم ومطارفهم لا سيما إذا كانت منسوجة بالذهب[١٦٣]. وقد امتاز الحاكة في مدينة آمل قصبة الإقليم بالمهارة[١٦٤]. وكان الابريسم يُحمل من طبرستان إلى كثير من البلدان وليس هناك ما يضاهيه[١٦٥].

وكانت في تُسْتَر في خوزستان صناعة واسعة لنسيج الابريسم والديباج والأُزر الكبار، وكانت تعمل فيها كسوة الكعبة المشرفة، كما كان فيها دار للطراز لخلفاء سامراء[١٦٦]. كما كانت مدينة بُم بإقليم كرمان تشتهر بصناعة الثياب القطنية الرفيعة التي كانت تُحمل إلى أباعد الديار، وقد تبلغ قيمة الثوب منها ثلاثين ديناراً، وتباع في خراسان والعراق ومصر، ومن طريف ما يعمل فيها الطيالسة المقورة والمناديل وعمائم مشهورة يرغب فيها أهل العراق[١٦٧].

وكانت أغلب مدن ما وراء النهر مشهورة بصناعة النسيج، فكانت تُحمل من بخارى ثياب القطن وتعرف بالثياب البخارية، إلى العراق وسائر البلدان، وهي كرابيس ثقال الأوزان غليظة السلك مبرمة الغزل. وتنسج في كابل الثياب القطنية الحسنة التي تعمل منها السبنيات الفاخرة والشرابيات المثمنة، وتخرج إلى خراسان والسند والصين. واشتهرت سمرقند بصنع الثياب السمرقندية، وفرغانة بالثياب البيض، والشاش بصنع الأزر، وهراة بنسيج الخز والديباج[١٦٨].

---

(١٥٨) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٨١.
(١٥٩) الإصطخري، الأقاليم، ص ٨٥، والهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٤.
(١٦٠) الهمذاني، المصدر نفسه، ص ٢٥٤، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٢٢.
(١٦١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٩٦.
(١٦٢) الإصطخري، الأقاليم، ص ٩٢.
(١٦٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٢٣.
(١٦٤) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٥٩.
(١٦٥) الإصطخري، الأقاليم، ص ٩٢، وابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٣٢٣.
(١٦٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٢ و٤١٦، والإصطخري، المصدر نفسه، ص ٥٤.
(١٦٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٧٠، وابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٧١.
(١٦٨) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ و٤٠٤، والمقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

واشتهرت برقة بصنع الثياب والأكسية الصوفية. وكان أكثر أهل مدينة سوسة حاكة ينسجون الثياب السوسية الرقيقة وثمن الشوب منها في بلدها عشرة دنانير، ويغزل بها غزل تباع زنة المثقال منه بمثقالين من الذهب(١٦٩).

ومما له علاقة وثيقة بصناعة النسيج المصانع المسماة بدور الطراز، ويعتبر الطراز من مظاهر أبهة الملك والسلطان، وهو من شارات الخلافة. وذلك بأن ترسم أسماء الخلفاء، أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير والديباج، فتخطّ في نسيج الثوب لحماً وأسدية بخيوط الذهب، أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب. فتصير الثياب الخاصة بهم معلمة بذلك الطراز قصداً للتنويه بلابسها. وقد درج الخلفاء على كتابة أسمائهم مع عبارات تجري مجرى الفأل. وكانت الدور المعدة لنسج هذه الأثواب تسمى دور الطراز، ويسمى القائم على العمل فيها صاحب الطراز، وهو ينظر في أمور الصباغ والآلة، والحاكة فيها وإجراء أرزاقهم، وتسهيل آلاتهم والإشراف على أعمالهم. وكان الخلفاء يقلدون أمر هذه الدور لخواصّهم وثقات مواليهم. وقد تعددت دور الطراز وانتشرت في أرجاء مختلفة لا سيما في المدن التي تميّز حاكتها بالمهارة. وكان لبعض الأمراء في الأقاليم والولايات دور طراز خاصة بهم. كما أن هذه الدور لم تقتصر على نسيج الثياب فحسب، بل أخذت تنتج البسط والفرش والأعلام والبنود إلى جانب ذلك(١٧٠).

ب ـ الصناعات المعدنية واستخراج المعادن

قام كثير من الصناعات المعدنية في بعض مدن الدولة العربية وأقاليمها، وكانت مصنوعاتها تُحمل إلى أقاليم أخرى. فقد عرفت اليمن منذ عهد قديم بصناعة السيوف المشهورة باليمانية(١٧١). كما كانت بعض مدن ما وراء النهر كخوارزم وفرغانة وسمرقند واسبيجاب تصنع السيوف والدروع(١٧٢). واشتهر اقليم خراسان كذلك بصناعة السيوف وتطبيعها، وعمل الجواشن والدروع(١٧٣).

وأهم الصناعات المعدنية التي كانت في إقليم الجزيرة قامت في الموصل وحرّان ونصيبين. إذ كانت تصنع في الموصل مختلف المصنوعات الحديدية كالسلاسل والسكاكين والأسطال والنشاب، وتصنع في نصيبين الموازين والدوايات (المحابر) والكوانين (المواقد والمدافىء)، واشتهرت حرّان بصنع الموازين، وكانت بصحة موازينها ودقتها مضرب الأمثال،

(١٦٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٥، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨٣.

(١٧٠) حول دور الطراز، انظر: ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٤٥، والدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٩٥.

(١٧١) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢.

(١٧٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٢٥.

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٨، والهمذاني، المصدر نفسه، ص ٣٥٤.

كذلك اشتهرت بصنع الآلات الهندسية مثل الإسطرلاب وغيره من الآلات الدقيقة الأخرى[١٧٤].

وفي صناعة الصُّفر والأدوات النحاسية، فقد اشتهرت الموصل بصناعة أواني الطعام النحاسية[١٧٥]، ودمشق بصناعة الصفريات وبفن تكفيت المعادن بالذهب والفضة وهي صنعة تعرف بالصناعة الدمشقية[١٧٦].

وكانت القماقم النحاسية تصنع في مدينة قاشان في اقليم الجبال[١٧٧]. كما اشتهر اقليم سجستان بصنع المشارب السّجزية نسبة إلى الاقليم، وأدوات الصفر والشبه الأخرى[١٧٨]. وكانت تصنع في سمرقند القدور العظيمة الحجم من النحاس والقماقم الجيدة[١٧٩].

واختصت مدينة القدس بصنع القناديل[١٨٠]. واشتهرت كل من مدينة خوارزم واصفهان ونيسابور بصنع الأقفال[١٨١].

ومن الصناعات المعدنية المهمة العمل في استخراج المعادن التي انتشرت مناجمها في عدد من الأقاليم. فقد كانت في ما وراء النهر عدة مناجم لا سيما في جبال فرغانة التي استخرجوا منها الذهب والفضة والزيبق والزاج والحديد والصفر والفيروز والنشادر والفحم الحجري[١٨٢]. ووجد الذهب في مواضع على شواطىء نهر وخاب وهو أحد فروع نهر جيحون، بقطع صغار مثل رؤوس الإبر[١٨٣]. كما استخرجوا الذهب من وادي خَشَنك بسمرقند[١٨٤]. واستخرجوا من جبال الباميان عند مدينة بلخ النحاس والرصاص والزيبق[١٨٥]. وكانوا يجمعون الذهب من مياه السيول الجارية في منطقة خُتَّل شمالي طخارستان[١٨٦]. واستخرجوا بمدينة بَذْخشان بالمنطقة نفسها الياقوت والبلور واللازورد وحجر البازهر، وحجر الفتيلة وهو يشبه البردي لا تحرقه النار، يوضع في الدهن فيتقد كما تتقد الفتيلة ولا ينقص، ويُطرح في النار المتأججة فلا

---

(١٧٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤٥ و١٤١، ومتز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ج ٢، ص ٣١٠.

(١٧٥) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ١٨١ - ١٨٢.

(١٧٦) المصدر نفسه، ص ١٨٠ - ١٨١، والمقدسي، المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(١٧٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(١٧٨) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٤.

(١٧٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٥.

(١٨٠) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(١٨١) المصدر نفسه، ص ٣٢٥ و٣٩٦، والهمذاني، المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(١٨٢) الإصطخري، الأقاليم، ص ١١٨ - ١١٩؛ المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٦، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٤٠٢.

(١٨٣) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ٩٣.

(١٨٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٩٢.

(١٨٥) المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(١٨٦) الإصطخري، الأقاليم، ص ١١٥.

يحترق، وكذلك استخرجوا حجراً يجعل في البيت المظلم فيضيء[187]. وكان بأسبرة جبل حجارته سود تحترق كما يحترق الفحم، كانوا يستخرجونها وتباع كل ثلاثة أوقار منه بدرهم، فإذا ما احترق واشتد رماده استعملوه لتبييض الثياب[188].

واستخرجوا الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر والتوتيا من مناجم مدينة دمنداان باقليم كرمان، وخاصة من جبال القفص[189].

وكانت توجد في اقليم الرحاب بعض المناجم يستخرج منها الذهب والفضة والحديد والنحاس والزاج والزيبق[190].

وكانوا يستخرجون الزبرجد من صعيد مصر من قرية منقطعة عن العمارة[191]. واستخرجوا الشبّ من بعض جبال مصر وكان يعتبر من عجائبها[192].

وكان في بلاد المغرب عدد من المناجم، وقد استخرجوا الذهب والفضة من سجلماسة، والزيبق من مدينة جيّان[193]. وكان على مقربة من القيروان مدينة يقال لها مجانة وفي جبالها معادن الفضة والحديد والكحل والرصاص، ويقال إن أهل هذه المدينة من سنجار من ديار ربيعة[194]. واستخرجوا الشبّ من مدينة سرت وكانت كمياته غزيرة، وقد عرف باسمها، وكان يُصدَّر منه كثير[195].

وقد استخرجوا الذهب من المنطقة الممتدة من ينبع والمروَة على ساحل بحر القلزم، ومن سبأ بمدينة اليمن[196]. كما كانوا يجمعون التبر من بلاد البُجَة لاستخلاص الذهب، ومن وادي العلاقي بعد اسوان وما حواليها، وكان التجار وغيرهم ممن يعمل على استخراجه يستخدمون العبيد السود في الحفر، فيخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر[197].

وفي بلاد الشام استخرجوا الحديد من جبال بيروت، والمغرة من حلب، والكبريت من الأغوار[198].

---

(187) المصدر نفسه، ص ١١٠، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٠٣.
(188) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ١٢٠، وابن حوقل، صورة الأرض.
(189) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٧٠، والهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٠٦.
(190) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٨٢ و٨٨، والهمذاني، المصدر نفسه، ص ٢٩٧.
(191) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٢٧.
(192) الهمذاني، المصدر نفسه، ص ٧٦.
(193) المصدر نفسه، ص ٨٧، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣١.
(194) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٤٩.
(195) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧١.
(196) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠١، وابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١١٣.
(197) الإصطخري، الأقاليم، ص ١٥، ١٨ و٢٩، واليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.
(198) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٨٤.

كما استخرجوا الشبّ في بلاد اليمن وقالوا عنه إنه ماء يتقطر من جبل شاهق فإذا صار في قعره تجمّد وصار مادة الشب[199]. واشتهرت اليمن بالعقيق الجيد، ومن أراد الحصول عليه اشترى قطعة أرض بموضع في صنعاء، ثم حفر، فربما خرج له شيء منه شبه صخرة أو أقل، وأجود أنواعه ما استخرج من مُقْرى وجبل يقال له قساس، وكان يحمل بعضه إلى البصرة، وأغلاه ثمناً البقراني. أما المعرق من الجزع فكانوا يتخذون منه الأواني لكبر حجمه[200].

أما النفط فكانوا يستخرجونه من مدينة باكه أو باكوه على شاطىء بحر الخزر[201]، ومن خوزستان، وكان فيها جبل تتقد فيه النار أبداً لا تنطفىء، ويرى الاصطخري أن سبب ذلك وجود نفط أو زفت، وقعت فيه النار فظل متقداً[202].

وعندما يمر نهر الفرات بقرب مدينة بالس يشق جبل بارما الممتد وسط الجزيرة وفيه عيون للنفط والقار[203]. كما استخرجوا القار من الموصل[204].

ج ـ صناعة السجّاد والبسط والستائر

إن صناعة السجاد صناعة عربية قديمة، وقد ازدهرت في العراق مع ازدهار الحضارة، وبلغت درجة ممتازة من الرقي. فقد اشتهرت مدينة واسط بالصوف الجيد وبصناعة السجاد، وكانت تصنع الستور التي كانت مضرب الأمثال[205]. وكان الصوف يُحمل منها إلى أرمينيا فيغزل وتنسج منه البسط الأرمنية المشهورة[206]. وكانت تصنع بمدينة ميسان البسط الفاخرة المنسوبة إليها، والستور الحريرية، وأنواع الفرش والأنماط والوسائد[207]. وكانت الطنافس الجيدة تصنع في مدينة الحيرة قديماً، ولذا فإن الطنافس التي كانت تصنع في النعمانية تسمى الطنافس الحيرية، وكانت ترسم عليها زخارف ورسوم الحيوانات كالفيلة والسباع والخيل والجمال والطيور[208]. واشتهرت الموصل بصنع الستور الجيدة والمسوح، وتحمل منها إلى بلدان أخرى[209].

---

(١٩٩) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٤٧.

(٢٠٠) المصدر نفسه، ص ٣٦، والمقدسي، المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٢٠١) الإصطخري، الأقاليم، ص ٨٢.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٤، والمقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٢.

(٢٠٣) الإصطخري، المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٢٠٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٢٠٥) المصدر نفسه، ص ١٢٩، والدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٩٤.

(٢٠٦) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٢.

(٢٠٧) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٣٢.

(٢٠٨) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١٨٦، ومتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٢٠٩) الجاحظ، المصدر نفسه، ص ٣٣.

وفي مصر اشتهرت مدينة الفيوم بعمل الستور الثمينة والبسط الطوال، والخيام والفساطيط العظام من الصوف والكتان، وتصبغ بألوان ثابتة بتصاوير وزخارف متنوعة، وقد يبلغ طول الستارة الواحدة ثلاثين ذراعاً فأكثر، وقيمة الزوج منها حوالي ثلاثمئة دينار[210].

وكان اقليم الرحاب مشهوراً بصناعة الفرش والبسط الرقاع، والبراذع، واللبود، من الصوف[211]. والمقاعد المعروفة بالأرمنية، والأنخاخ وهي البسط الطوال، ما يقل نظيره ولا يوجد بجودته[212]. وذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٢٩٩هـ أن يوسف بن أبي الساج والي أرمينيا وأذربيجان بعث بهدايا إلى الخليفة المقتدر بالله، فيها فرش أرمني لم يُر مثله، فيه بساط طوله سبعون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً، عمل في عشر سنين، لا تُقدَّر قيمته[213].

واشتهرت بعض مدن الأقاليم الشرقية بصناعة البسط والسجاد والستائر والفرش الرفيعة، مثل فسا وشيراز اللتين اشتهرتا بعمل البسط والستور المنسوبة إليهما[214].

د ـ صناعة الفخار والخزف والزجاج

كانت صناعة الفخار والخزف والزجاج أهم صناعة تتطلب مهارة فنية وخبرة طويلة، وقد اشتهرت بها بعض المدن في هذا القرن. وتدل الحفريات التي أجريت في بعض المدن العراقية القديمة على أن صناعة الفخار والخزف قديمة جداً في العراق، وأنها بلغت درجة عالية من الكمال، لذا لا غرابة إن انتعشت هذه الصناعة بعد انتقال مركز الدولة العربية إلى العراق وتأسيس مدينتي بغداد وسامراء. فقد انتقل إلى بغداد حذّاق أهل الصناعات وقد أتوها من كل بلد، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، كما ذكر أن المعتصم بالله جلب إلى سامراء من يعمل الخزف والزجاج من البصرة والكوفة.

لقد اشتهرت بغداد بصناعة الخزف ذي الألوان الجميلة الزاهية والغضار المذهب، وهو نوع ممتاز من الخزف سنأتي على وصفه، والزجاج المحكم كالأقداح والكاسات والطاسات والغضائر[215]. وكانت الكوفة متفوقة في هذه الصناعة أيضاً، وبالقرب منها مدينة الحيرة التي كانت تصنع فيها الجرار والأواني الزاهية الألوان[216].

ويظهر أن سامراء بعد تأسيسها أصبحت من المراكز المهمة لهذه الصناعة، فقد عثر في أثناء الحفريات التي أجريت فيها (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) على أنواع متعددة من الأواني والقطع

---

(٢١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٤٩.
(٢١١) الجاحظ، المصدر نفسه، ص ٣٤.
(٢١٢) ابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٩٦.
(٢١٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ١١٠.
(٢١٤) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٤٣٣، وابن حوقل، المصدر نفسه، ص ٢٦١.
(٢١٥) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢.
(٢١٦) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٩٨.

الفخارية وعلى خزفيات متنوعة في أشكالها وألوانها ووجوه استعمالها، وكانت بعض القطع من الخزف البرّاق، وهي كسرات من صحون واللون الغالب فيهما الارجواني والقهوائي[٢١٧]. ويعتبر البريق المعدني الذي يكسب المينا أو المادة الزجاجية لمعاناً خزفياً ذا تأثير بديع، من ابتكار الخزّاف العراقي[٢١٨]. كما عثر بسامراء علي مجموعة عظيمة الأهمية من بقايا قطع الزجاج البلوري تزيّنها زخارف محفورة حفراً غائراً، ويمكن اعتبار هذه المخلفات من انتاج العراق، ويحتمل أن تكون من انتاج بغداد لما ذاع عنها من شهرة في صناعة الزجاج ذي الزخارف المقطوعة[٢١٩].

ولوحظ في شرقي سور القادسية، وهي إحدى قرى سامراء خرائب تكثر فيها كسر الزجاج، وكتل الزجاج المنصهر، والرماد، مما يدل على وجود معامل كانت في هذا الموضع لصناعة الزجاج، ويؤيد هذا قول ياقوت الحموي عن القادسية بأنها قرية كبيرة يعمل فيها الزجاج[٢٢٠].

وكانت كراهة استعمال الأواني والأدوات المصنوعة من الذهب والفضة عاملاً مهماً في ابتكار الخزف الذهبي اللماع الذي عرف بالغضار. وهناك شبه تأييد بين العلماء الآثاريين أن هذا الغضار ابتكار عراقي ظهر في سامراء يوم كانت عاصمة الدولة العربية[٢٢١]. وصنعت من الغضار الذهبي تربيعات مزينة بزخارف نباتية وهندسية استخدمت في تزيين جدران القصور ومحاريب المساجد. وقد نقل قسم من هذه التربيعات إلى القيروان وحلي بها محراب مسجدها عندما أعيد ترميمه في عهد الأمير الأغلبي أبو ابراهيم أحمد[٢٢٢].

كما كانت صناعة الزجاج قائمة في عدد من المدن التي حررها العرب من الروم، فلما ورثها العرب حسّنوها فصار زجاجهم أقوى من الزجاج الروماني[٢٢٣]. وقد اشتهرت من هذه المدن دمشق بصناعة الخزف والزجاج بحيث اعتبرت موطن الزجاج الجيد ذائع الصيت[٢٢٤]. ويظهر أن لتوفر المواد الخام الجيدة أثراً في ذلك. وقد تقدمت هذه الصناعة في العهد العربي بما أدخل عليها من تحسينات ولا سيما في ناحية الزخرفة، فأصبحت القوارير والكؤوس والصراحيات وغير ذلك من الآنية تنقش برسوم الأشخاص، أو بالزخارف الهندسية، بالمينا

---

(٢١٧) العراق، مديرية الآثار القديمة العامة، حفريات سامراء، ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (بغداد: مطبعة الحكومة، [د.ت.])، ص ١٠.

(٢١٨) أرنست كويل، الفن الاسلامي، ترجمة احمد موسى (بيروت: دار صادر، ١٩٦٦)، ص ٤١.

(٢١٩) ديماند، الفنون الإسلامية، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٢٢٠) المصدر نفسه، ص ١٧٥، وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٩٣.

(٢٢١) مرزوق، العراق مهد الفن الاسلامي، ص ٧٠.

(٢٢٢) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٢٢٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ٩٩.

(٢٢٤) جوزيف هِل، الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي؛ مراجعة حسين مؤنس، الألف كتاب؛ ٨٨ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٩)، ص ٩٢.

الملونة، وقد تُحلّى بالذهب أحياناً. ويظهر أنّ الفن العراقي قد أثر على صناعة الخزف في دمشق حيث ظهرت بعض النماذج محلاة برسوم وزخارف منقولة عن الخزف العراقي(٢٢٥).

كما اشتهرت مدينة القدس بصنع المرايا الجيدة(٢٢٦). واشتهرت صور بصنع الزجاج والخرز(٢٢٧).

وبلغت صناعة الزجاج في مصر درجة كبيرة من الاتقان في عهد إمارة بني طولون، وكانت مراكز هذه الصناعة الفسطاط والفيوم والاسكندرية(٢٢٨).

هـ ـ صناعة الجلود

اختصت بغداد بصنع نوعين من الجلود هما الدارش واللكاء(٢٢٩). واشتهرت مدينة زبيد باليمن بدباغة الجلود وصناعتها، وكانت اليمن تصدر الأدم، وهي الجلود المدبوغة وعليها صوفها أو شعرها أو وبرها، إلى عدد من البلدان(٢٣٠).

وكانت تصنع في مصر الجلود الجيدة الثخينة الصبورة على الماء(٢٣١). وكان التجار يحملون من المغرب جلود الفراء كالسّمور وغيره(٢٣٢).

واشتهرت من مدن ما وراء النهر مدينتا الجرجانية وبخارى بدباغة الجلود، وبخاصة جلود الضأن، وكذلك مدينة الجوزجان التي كانت تحمل منها الجلود المدبوغة إلى أقطار أخرى، واشتهرت خوارزم بصناعة القلانس وجلود الفرو كجلود السمور والمسك والسنجاب والفَنَك والأرانب والثعالب، كما كانت تصنع في مدينة الشاش السروج الجيدة بعد أن تجلب الجلود من تركستان وتدبغ فيها(٢٣٣). وكذلك اشتهر اقليما الجبال والديلم بصنع الفرو من جلد السمور والفَنَك والوشق والسنجاب والثعالب(٢٣٤).

و ـ صناعة الصابون والعطور

كان الصابون يصنع في كثير من المدن، إلا أن النوع الجيد المشهور الذي يُحمل إلى البلدان الأخرى اختصت بصناعته بعض المدن. فقد اشتهرت الرِّقَّة بإقليم الجزيرة بصنع

---

(٢٢٥) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٢٢٦) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٠.
(٢٢٧) المصدر نفسه، ص ١٨٠.
(٢٢٨) ديماند، الفنون الاسلامية، ص ٢٣٤.
(٢٢٩) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢٣٠) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٩٨، وابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١١٢.
(٢٣١) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٢، والمقدسي، المصدر نفسه.
(٢٣٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٥٣.
(٢٣٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥، ٣٧٠ و٣٧٥.
(٢٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٦، واليعقوبي، البلدان، ص ٢٨٧.

الصابون الجيد المنسوب إليها، واشتهرت مدن فلسطين بصناعة الأنواع الجيدة من الصابون، ومن مدن ما وراء النهر اشتهرت كل من مدينة بلخ ومدينة ترمذ في صناعة الصابون، وكذلك اشتهرت بصناعته مدينة أرّجان وكان يحمل منها إلى بلدان متعددة[٢٣٥].

وكان أفضل نوع من ماء البنفسج يعمل في البصرة، كما كان يعمل الدهن الخيري ودهن البنفسج في الكوفة، وهو في غاية الجودة ويفضل على جميع الدهون المماثلة[٢٣٦]. واشتهرت دمشق كذلك بصنع دهن البنفسج الجيد[٢٣٧]. واختصت بخارى بصنع الدهن الخاص بالرأس[٢٣٨].

واشتهرت مصر بصنع دهن الزنبق، وكانت مدينة الفرما أشهر المدن باستخراجه، ودهن البلسان الذي يتخذ من نبات البلسان، وقد سماه الإصطخري وابن حوقل نبات البلسم[٢٣٩]، ويقول الجاحظ إنه مفقود في كل الأرض ما خلا مصر[٢٤٠].

ز ـ صناعات أخرى

من المنتوجات التي كانت تصنع في بعض البلدان وتحمل إلى بلدان أخرى، السمن وزيت الطعام، والكاغد، والحصر والحبال. وقد اشتهر اقليم الجزيرة، ومدينة بلخ في ما وراء النهر بتصدير السمن[٢٤١]، وذلك لتوفر المراعي فيها وعنايتها بتربية الماشية. وكانت كل من الموصل وبخارى تصدّر الشحوم[٢٤٢]. واستخرجت مصر زيت الفجل واشتهرت بذلك مدينة الفرما[٢٤٣]. وكان هذا الزيت يستعمل للمصابيح. أما زيت السمسم فكانت مدينة تكريت تعتبر معدن السمسم[٢٤٤]، وبالنظر لوفرة انتاجه فيها فلا شك في أنها كانت تُعنى باستخراج زيته وتصديره. ومن أهم البلدان الأخرى التي اشتهرت بزراعته مصر، وسنجار، وبلخ، ووادي شلف قرب مدينة تاهرت بالمغرب[٢٤٥]. كما اشتهرت بعض مدن خراسان

---

(٢٣٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤٥، ١٨٠، ٣٢٤ و٤٤٢.

(٢٣٦) المصدر نفسه، ص ١٢٨، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٦١.

(٢٣٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٨١.

(٢٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

(٢٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤؛ الإصطخري، الأقاليم، ص ٢٩، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٠.

(٢٤٠) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٣٢.

(٢٤١) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٤٥ و٣٢٤.

(٢٤٢) المصدر نفسه.

(٢٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(٢٤٤) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٢٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٤؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣٥٨، وابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٢٩ و١٩٩.

بزراعته واستخراج زيته[٢٤٦]. وقد سبقت الإشارة إلى أهم مناطق زراعة الزيتون واستخراج زيته في موضوع الحاصلات الزراعية.

أما صناعة الكاغد فقد كان الصينيون قد عرفوه منذ مطلع القرن الثاني الميلادي، وتطورت صناعته على أيديهم، وصارت الصين المصدر الوحيد لورق الكتابة، وظلت كذلك مدة طويلة. وقد مرّت ستة قرون قبل أن تنتقل هذه الصناعة غرباً نحو سواحل البحر المتوسط. فقد هاجمت في العام ٧٥١ للميلاد حملة صينية مدينة سمرقند التي كان قد افتتحها العرب، فدُحرت الحملة ووقع بعض أفرادها أسرى بيد العرب. وكان بعض هؤلاء الأسرى ماهرين بصناعة الورق، فأخذوا يصنعونه في سمرقند. وكان الكتان والقنب المادة الأولية لصناعته. ومما ساعد على تصنيعه فيها توفر الكتان والقنب وغزارة مياهها الصالحة لصناعته[٢٤٧].

ولما انتشر استعمال الورق في أرجاء الدولة العربية بسبب الازدهار الحضاري والتقدم العلمي، واستعماله في العدد العظيم من المخطوطات العربية، فقد انتقلت صناعته في خلال القرن الثامن للميلاد إلى بغداد[٢٤٨]. وقد ظهر أول مصنع للورق فيها العام ٧٩٤ للميلاد، وأخذ يستخدم في دواوين الدولة[٢٤٩]، وكان ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد. ثم ما لبثت صناعته أن انتقلت إلى دمشق، ثم إلى مصر. ولم تصل صناعته إلى أوروبا إلا في القرن الثاني عشر للميلاد، عن طريق الأندلس.

وقد طور العرب صناعة الورق عندما استعملوا الخرق والألياف النباتية، بعد أن كان يصنع من الكتان والقنب. وأنتجوا أنواعاً جديدة منه، مثل ورق الحرير، والورق الأبيض والملون[٢٥٠].

وظلّ الورق من الصناعات الرئيسة في سمرقند، وكان ما يصنع فيها لا نظير له بالجودة والكثرة[٢٥١]. كما أنه أخذ يصنع في دمشق وطبريا من بلاد الشام[٢٥٢].

ومن الصناعات الأخرى الواسعة الانتشار صناعة الحُصُر والحبال. وقد اشتهرت بعض المدن بإتقان صنعها، مثل عبادان آخر حدود العراق مع خوزستان، إذ كان أكثر أهلها صُنّاع حُصُر، وهم يعملونها من الحَلْفاء[٢٥٣]. وكانت الحصر والحبال تعمل في مصر كذلك وبخاصة

---

(٢٤٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

(٢٤٧) *Encyclopaedia Britannica*, vol. 17, p. 280.

(٢٤٨) المصدر نفسه، ج ١٧، ص ٢٨٠.

(٢٤٩) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٤٦٢، وهِلْ، الحضارة العربية، ص ٩٣.

(٢٥٠) هِلْ، المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٢٥١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٢٦.

(٢٥٢) المصدر نفسه، ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٢٥٣) المصدر نفسه، ص ١١٨.

في مدينة الفَرَما، وهم يعملونها من اللّيف بغاية الجودة[٢٥٤]. وفي مصر حشيشة يقال لها الدقس كان يتخذ منها حبال للسفن تسمى القِرقِس[٢٥٥]. وكانت الحبال الجيدة تصنع أيضاً في مدينة القدس[٢٥٦]. كما كانت الحصر والحبال تصنع من الليف في سجستان[٢٥٧].

ثالثاً: التجارة

مقدمة

كان للعرب قبل الاسلام علاقات تجارية مع البلدان المجاورة وبخاصة مع بلاد الشام، وكان زعماء قريش من كبار التجار. وقد اهتم العرب بعد الاسلام بهذا المرفق الاقتصادي ولا سيما بعد اتصالهم بالأمم الأخرى، وتقدمهم في ميدان الحضارة. فكثر عدد التجار الرحالين منهم، حتى صارت التجارة من المظاهر المهمة في حياة الدولة العربية ومن أسس حياتها الاقتصادية. وصارت سفن العرب تجوب الأنهار والبحار، وقوافلهم تخترق المهاد والسهوب، تنقل مختلف البضائع في ذهابها وإيابها. وصارت بغداد والبصرة والقلزم والفَرَما وعُمان وعدن وطرابلس وانطاكية أهم مراكز التجارة العربية وموانيها في هذا القرن. وقد شجع الخلفاء التجارة واهتموا بحماية سبلها. وكان التجار يستفيدون من التسهيلات المهيأة في طرق الحج ومنازله، كتوفر المياه والسكن. وكانت الدولة تهتم كثيراً بحماية الطرق التجارية وتأمين سلامة القوافل التي تسلكها، فقد طاردت قبائل الزطّ في عهد المعتصم بالله لأنهم كانوا يقطعون طرق القوافل التجارية والسفن التي تمر بمنطقة البطائح.

إن ربط نهر دجلة بنهر الفرات بعديد من الأنهر والقنوات، كالصراة ونهر عيسى من جهة، وموقع مدينة بغداد من جهة أخرى، ساعدا هذه المدينة على أن تكون مركزاً تجارياً عظيماً بين الشرق والغرب، وبين أقاليم الدولة العربية نفسها وولاياتها. إذ إن اتصالها بالفرات جعلها ترتبط بآسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر، وكانت بضائع اقليم الرحاب وبقية أنحاء آسيا الصغرى، وحاصلات اقليم الجزيرة تنحدر إليها في دجلة من الموصل. وكانت السفن العظام القادمة من الرَّقَّة حاملة الدقيق والبضائع المختلفة من مصر وبلاد الشام تصير إلى بغداد عند فرضة قامت عليها الأسواق وحوانيت التجار[٢٥٨]. وكان الناس يذهبون ويجيئون في السفن ولهم جلبة وضوضاء[٢٥٩]، مما يدل على نشاط الحركة التجارية. وقد ساعد

---

(٢٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.
(٢٥٥) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٦٦.
(٢٥٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٨٠.
(٢٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.
(٢٥٨) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٥٠.
(٢٥٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٢٤.

نهر دجلة كذلك على ارتباط بغداد بالبحر العربي فالهند والصين. كما كانت تصلها القوافل البرية من أواسط آسيا عبر الأقاليم الشرقية.

وكانت البصرة الميناء الرئيس على الخليج، وقد هيأ لها موقعها الممتاز أن تصبح باب العراق الجنوبي. فهي محطة للتجارة القادمة من الشرق، والقوافل الآتية من الغرب عبر الصحراء. وقد امتاز التجار البصريون بروح المغامرة وعلو همتهم في السفر والارتحال في سبيل الربح. فحيثما بحثت في أصقاع الدنيا وجدت تاجراً بصرياً، وقد قيل: أبعد الناس نجعة في الكسب بصريّ، ومن دخل فرغانة القصوى، والسوس الأقصى، فلا بد أن يرى بصرياً[٢٦٠]. وكان سوق المِرْبَد مركزاً لتجارة البصرة مع البادية، وغدا في هذا القرن مركزاً مهماً للنشاط التجاري إلى جانب أهميته الأدبية، وصار له من الأهمية بحيث سمي عين البصرة[٢٦١]. كما كانت الأبلّة مرفأً للبصرة ومركزاً لتجارتها البحرية، وكان فيها عدد كبير من الأسواق والخانات التجارية[٢٦٢].

١ ـ اتساع نطاق التجارة العربية

لقد استطاع التجار العرب المسلمون أن يخرجوا التجار اليهود المعروفين بالراذانية من البحار، وكانوا قد احتكروا التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة. فحلّ العرب محلّهم عندما وسّعوا تجارتهم نحو بلاد الروس وحوض بحر البلطيق وكوّنوا مع تجارها علاقات تجارية مباشرة. بحيث أخذ بعض هؤلاء التجار يصلون إلى بغداد وهم يحملون بضاعتهم من جلود الثعالب، والخز، والسيوف. وصارت بلاد الروس منذ ذلك العهد حتى الحروب الصليبية، هي الطريق التجاري الوحيد بين شمالي أوروبا والشرق[٢٦٣]. وقد أوضح كل من ابن خرداذبه وابن الفقيه معالم الطريق التي كان يسلكها هؤلاء التجار في مجيئهم إلى بغداد وإيابهم منها[٢٦٤]. ولعل خير دليل على قيام تلك العلاقات العثور على كميات من النقود العربية التي يعود أكثرها إلى القرن الثالث، في حوض بحر البلطيق، كما وجدت مجموعات أخرى من النقود الفضية في منطقة البحيرات الروسية الكبرى في روسيا الوسطى وفي حوض الڤولغا[٢٦٥].

كانت السفن التجارية العربية تمخر في بحر الروم من سواحله الشرقية والجنوبية حتى سواحله الشمالية وأقصى الغرب. وكانت انطاكية، وهي ثغر عربي اهتم المعتصم بالله

---

(٢٦٠) الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ١٩١.

(٢٦١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ١٣٠.

(٢٦٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١١٧.

(٢٦٣) متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ج ٢، ص ٣١٤.

(٢٦٤) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٥٤ ـ ١٥٥، والهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢٦٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري.

بتحصينه، مركزاً تجارياً هاماً تنطلق منه السفن المحملة ببضائع الشرق وتعود إليه موقرة ببضائع الغرب. ومثل ذلك صارت طرابلس أهم الموانى التجارية في بلاد الشام. وقد تعجب اليعقوبي من سعتها عندما زارها، فقال «ميناء عجيب يحتمل ألف مركب»[٢٦٦]. كما كانت هذه السفن تنقل البضائع إلى بلدان الشرق الأقصى كالهند وبورما والملايو والصين عبر الخليج العربي والمحيط الهندي. وكانت موانى الخليج العربي مثل: سيراف، وعُمان، وعدن، التي سماها المقدسي «دهليز الصين وفرضة اليمن ومعدن التجارات»[٢٦٧]، مراسي لهذه السفن، والسفن القادمة من الشرق محملة ببضائع الهند والصين. وصارت كل من عمان وعدن مركزاً لتجمع البضائع الواردة إلى أقطار الدولة العربية، والصادرة منها. فكانت تصل إليها آلات الصيادلة، والعطور، والمسك، والزعفران، والساج، والعاج، والديباج، والأبنوس، والنارجيل، والسكر، والصبر، والحديد، والرصاص، والياقوت، والجزع، واللؤلؤ، والخيزران، والصندل، والبلور، والفلفل[٢٦٨].

لقد وصل التجار العرب إلى الصين، وقد استقر بعضهم في مدينة خانفو، جنوبي مدينة شنغهاي ـ وتسمى اليوم كانتون ـ وكوّنوا هناك جالية كبيرة عملت على نشر الدين الاسلامي في تلك الأصقاع. وصارت تلك المدينة مركزاً للمتاجرة مع الصين. ومن هناك أخذ التجار والملاحون العرب يمعنون في التوغل شمالاً، ومن المحتمل أنهم وصلوا إلى كوريا وجزر اليابان. وقد استمر هذا النجاح التجاري في الصين حتى أواخر القرن الثالث عندما وقعت اضطرابات سياسية فيها أدت إلى خراب مدينة خانفو[٢٦٩].

كما أن استيلاء العرب على إقليم السند قد وسّع مجال عمل العرب التجاري في الهند، ونشرهم الدين الاسلامي في تلك الأرجاء. وكانت سفنهم نشطة دائمة الإبحار إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وسواحل الهند. وكانت في الهند جالية اسلامية غنية تقطن مدينة صيبور، المجاورة لمدينة بومبي، وكانت مدينة دَيْبُل الواقعة في اقليم السند من جملة التخوم العربية، هي الأخرى مركزاً تجارياً مهماً لتلك النواحي[٢٧٠].

وكانت السفن والقوافل العربية تحمل إلى البلدان الأخرى حاصلات أقطار الدولة العربية وبضائعها الصناعية، كالحنطة والشعير والأرز والسكر والزجاج والأقمشة الحريرية والصوفية والكتانية، والزيوت والعطور والزعفران وشراب العنب[٢٧١]، والمرايا والجواهر والخرز وسنانير صيد الحوت[٢٧٢].

---

(٢٦٦) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧.
(٢٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٨٥.
(٢٦٨) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(٢٦٩) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ١٤٨.
(٢٧٠) المصدر نفسه، ص ١٤٩.
(٢٧١) مولاوي سيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١)، ص ٣٦٦.
(٢٧٢) هِلْ، الحضارة العربية، ص ٩١.

ويظهر مما ذكره ابن خرداذبه وابن الفقيه أن البضائع التي كانت تجلب من الهند هي التوابل والأحجار الكريمة والنارجيل والتوتياء والخيزران والساج والصندل والكافور والعود الهندي والثياب القطنية المخملية والطاووس والفيل. أما البضائع التي كانت تجلب من الصين فهي الحرير الصيني والدارصيني والمسك والعود والسروج والسمور والغضار، والسيوف[٢٧٣].

هذا فضلاً عن نشاط التجارة الداخلية التي اتسعت حركتها بين أقاليم الدولة العربية نفسها، لتبادل منتوجاتها وبضائعها بما تحتاجه من بضائع ومنتوجات بلدان أخرى. وكانت مكة المكرمة تصبح في موسم الحج من المراكز التجارية النشيطة. إذ يلتقي فيها التجار المسلمون القادمون من مختلف الأقطار والأمصار، وتُعرض فيها مختلف البضائع والمنتوجات المستوردة من البلدان المختلفة، ويقبل الحجاج على شرائها لحملها معهم عند عودتهم للتبرُّك بها، أو لغرض التجارة.

وكان هذا النشاط التجاري الواسع عاملاً في انتعاش مهنة الصيرفة التي ساعدت التجار كثيراً، فلم يعودوا يحملون معهم المبالغ الكبيرة من النقود، بل يستعيضون عن ذلك بسفاتج يحملونها إلى البلدان التي يقصدونها بأسماء الصرافين فيها، وهي خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص[٢٧٤].

وعندما شيّد المعتصم بالله مدينة سامراء اختط بها سوقاً خاصة بالتجار، وجُعلت منفردة فيها على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد، وكان من الشوارع الرئيسة بها شارع الخليج على دجلة، وفيه الفرض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد، ومن البصرة والأبلّة والأحواز وما اتصل بذلك، ومن الموصل وديار ربيعة وما اتصل بها. وكان قرب سامراء من الموصل وديار الجزيرة سبباً في رخص أسعار الميرة فيها[٢٧٥]. وفي عهد الواثق بالله ألغيت العشور على السفن[٢٧٦]، وذلك تشجيعاً للتجارة الخارجية مع الهند والصين.

ويظهر أن التجار كانوا يجنون من تجاراتهم أرباحاً طائلة بحيث إنهم كونوا الطبقة الغنية في المجتمع. وكان الكبار منهم يتعاملون بأمتعة الترف كالجواهر والرياش الثمينة وغالي الثياب. وقد أصبح بعضهم على درجة كبيرة من الثراء، فقد بلغت ثروة تاجر بصري عشرين ألف ألف دينار[٢٧٧]. وتوفي تاجر ببغداد وخلّف لابنه خمسمئة ألف دينار[٢٧٨]. وبلغت قيمة ما

---

(٢٧٣) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٦٠ - ٦٢، والهمذاني، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥١.
(٢٧٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص ١٧٣ - ١٧٤.
(٢٧٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٦٣ - ٢٦٥.
(٢٧٦) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٥٠.
(٢٧٧) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٥، ص ٤٢.
(٢٧٨) المحسن بن علي التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ، تحقيق عبود الشالجي، ٨ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧١)، ج ١، ص ١٨٤.

في دكان أحد التجار أكثر من مئتي ألف درهم، وخسر في حريق حلَّ به ما يزيد على أربعمئة ألف درهم[٢٧٩]. ووقع حريق بعسكر مكرم فاحترق لتاجر فيها من العبيد السود سوى البيض اثني عشر ألف نسمة، واحترق له من الأمتعة والبضائع والعطور ما لا يُحدّ، إلا الكافور فقد احترق له أربعمئة بركة، والبركة خمسون وقراً[٢٨٠]. وكان لتاجر ثمانون ألف دينار دفنها في بئر[٢٨١].

وكان الخلفاء والوزراء عند حاجتهم إلى المال، وبخاصة في أثناء الحروب، يستدينون من كبار التجار بشهادة القضاة والشهود العدول. كما فعل الخليفة المعتمد على الله عندما احتاج إلى المال للإنفاق على الجيوش الموجهة إلى حرب الزنج[٢٨٢].

٢ ـ طرق التجارة الداخلية

لقد اهتمت كتب البلدانيين بهذه الطرق وأشارت إلى المهم منها وما يتفرع عنها من طرق فرعية. ويعتبر ما كتبه ابن خرداذبه في كتاب المسالك والممالك، أدق وأوضح مما كتبه غيره، لأنه كان قد تولى البريد مدة، الأمر الذي أكسبه معرفة بالطرق. وهو يذكر أسماء جميع السكك والمدن التي تمر بها والمسافات بين سكة وأخرى، ومدينة وأخرى. ولذلك سوف نعتمد عليه في بحثنا هذا، إلا ما نشير إلى مصدره.

ويمكن تقسيم هذه الطرق بحسب اتجاهاتها إلى ما يلي:

أ ـ طريق المشرق

ونعني به الطريق الذي يربط حاضرة الخلافة بمدن الولايات الشرقية وما وراء النهر حتى تخوم الصين. وهو يمتد من بغداد حتى نيسابور حاضرة خراسان، ويمرّ بأمهات المدن. إذ بعد أن يبلغ حلوان يقطع اقليم الجبال ماراً بقرميسين ثم ألدكسان فهمذان، ومنها يتجه فرع من الطريق إلى اليمين ليصل إلى نهاوند وأصبهان، ويتجه فرع آخر نحو اليسار إلى قومس، ثم يدخل بعدها اقليم خراسان، ويستمر بعدها إلى سرخس ومرو، وعند مرو يتفرع طريق إلى آمل ثم بخارى فسمرقند فالشاش ثم إلى فرغانة. ويذكر المقدسي ان بمدينة سمرقند باباً يسمى «باب الصين»[٢٨٣] مما يدل على أن هناك طريقاً بينها وبين تخوم الصين.

ب ـ طريق بغداد ـ البصرة

يمر هذا الطريق بالمدائن فدير العاقول ثم جرجرايا، ثم جُبّل، ثم فم الصلْح،

---

(٢٧٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٤.
(٢٨٠) الإصطخري، الأقاليم، ص ٦٦.
(٢٨١) التنوخي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٠١.
(٢٨٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٥ ـ ٢٧.
(٢٨٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٧٨.

فواسط. ويمر بالبطائح حتى يصل معقل فالبصرة. ويسير طريق من البصرة إلى الأحواز ومنها إلى شيراز. ثم يتجه نحو الشمال إلى أصبهان ثم الري. ويتجه طريق نحو الجنوب إلى سيراف وهي أكبر الموانىء حينذاك على الساحل الشرقي للخليج العربي. وهناك طريق يمتد بين البصرة وعمان ماراً بعبادان والعقير وقطر.

ج ـ طريق الفرات

يربط هذا الطريق حاضرة الخلافة بمدن الولايات الغربية وهي بلاد الشام ومصر وافريقيا. وهو يمر بالأنبار ثم هيت وآلوسة حتى يصل إلى قرقيسيا ثم الرَّقّة. ويتفرع من الرقة طريقان يذهب أحدهما إلى دمشق ماراً بحلب وقِنَسرين ثم حماة وحمص وبعلبك فدمشق. ويربط الآخر بين الرَّقة والثغور الجزرية ماراً بسميساط وحصن منصور، ثم زِبَطرة ومَلَطية والحدث حتى يصل إلى مرعَش.

وثمّة طريق يربط بين حلب والثغور الشامية، يبدأ من حلب إلى قنسرين، ومنها إلى المصّيصة وعين زَرْبة والهارونية، ثم إلى أُذَنة ومنها إلى طَرَسوس ثم البدندون فلؤلؤة.

وهناك طريق بين دمشق وبيت المقدس يمر بطبريا وهي مدينة الأردن، ومنها إلى الرملة مدينة فلسطين، ثم إلى بيت المقدس. ويخرج طريق آخر من الرملة إلى الفسطاط بمصر ويمر بغَزَّة ورفح والعريش، ومنها إلى الفَرَما وبلبيس فالفسطاط. ويمتد طريق من الفسطاط إلى القيروان ماراً بالاسكندرية ومنها إلى برقة واجدابية ثم إلى سرْت، ومنها إلى اطرابلس ثم إلى قابس فالقيروان.

د ـ طريق بغداد ـ الموصل

وهو طريق الشمال. ويبدأ من بغداد ماراً بالقادسية فسامراء ثم تكريت فالسن الواقعة عند مصب الزاب الصغير بدجلة. ومنها إلى الحديثة الواقعة على مصب الزاب الكبير في دجلة، ثم إلى بني طحيان ومنها إلى الموصل.

ويمتد طريق من الموصل نحو الشمال إلى آمد ماراً ببلد ثم نصيبين ومنها إلى آمد، ويتفرع من آمد طريقان يذهب أحدهما إلى ميّافارقين وأرزن والآخر إلى سميساط.

وهناك طريق آخر يبدأ من الموصل ويتجه غرباً إلى قرقيسيا على الفرات ماراً ببلد وتلّعفر ثم سنجار فقرقيسيا.

هـ ـ طرق الحج

ويمكن اعتبار طرق الحج من الطرق التجارية الموسمية لما يرافق موسم الحج من نشاط تجاري ذكرناه آنفاً. ويظهر من كتب البلدانيين أنه كان في خلال القرنين الثالث والرابع طريقان للحج من العراق، أحدهما عن طريق الكوفة والآخر عن طريق البصرة. وكلا

الطريقين يخترقان صحاري الجزيرة العربية ووديانها ويمران بالواحات والأماكن التي تتوفر فيها المياه[٢٨٤].

ويبلغ طول الطريق من بغداد إلى مكة عن طريق الكوفة ٢٧٥ فرسخاً وتساوي ٨٢٧ ميلاً[٢٨٥]. أما طول الطريق من البصرة إلى مكة فيقرب من ٧٠٠ ميل[٢٨٦]. والطريقان مقسمان إلى منازل تتوفر فيها المياه سواء من البرك المتجمعة من الأمطار والسيول، أو من الآبار والعيون عذبة الماء. ومجموع منازل طريق الكوفة ثلاثون منزلاً، ومنازل طريق البصرة خمسة وعشرون منزلاً.

وهناك إلى جانب هذين الطريقين طرق أخرى يسلكها الحجاج إلى الديار المقدسة، وهي تبدأ من بعض المدن مثل دمشق واليمامة وصنعاء وعُمان ومصر. وكان التجار يستخدمون هذه الطرق في رحلاتهم، كما أشرنا آنفاً.

و ـ طرق التجارة الخارجية

وصف ابن خرداذبه الطرق التي اعتاد التجار سلوكها في رحلاتهم التجارية آنذاك، فيقول إنهم كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب وبالعكس براً وبحراً. ويتبين مما ذكره أنه كانت هناك أربعة طرق رئيسة هي[٢٨٧]:

(١) الطريق الذي يبدأ من فرنجة في البحر الغربي، فينزل التجار بالفَرَما بمصر ويحملون تجاراتهم على ظهور الحيوانات إلى ميناء القلزم، ثم يركبون البحر الشرقي فيمضون إلى السند والهند والصين. ثم يرجعون إلى القلزم فالفَرَما ثم يركبون البحر الغربي. وربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم، أو صاروا بها إلى فرنجة لبيعها هناك.

(٢) الطريق الذي يبدأ من فرنجة، فينزل التجار بأنطاكية ويسيرون براً إلى الجابية ثم يركبون نهر الفرات إلى بغداد، ثم يركبون من دجلة إلى الأبلَّة ومنها إلى عُمان، والسند والهند والصين.

(٣) طريق بحر قزوين، وكان يسلكه عادة التجار الروس فيمرون بالبحر الرومي وبحر جرجان (طبرستان) فيخرجون في أحد موانيه، ومنها إلى مدينة جرجان، ثم يحملون تجاراتهم على الإبل إلى بغداد.

---

(٢٨٤) انظر: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٢٥ ـ ١٢٨، ١٣١ ـ ١٣٢ و١٤٦ ـ ١٤٧؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٣١١ ـ ٣١٢؛ المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٠٦ ـ ١٠٩؛ ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١٧٢ ـ ١٨٣، وأبو الفرج قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، حقّقه محمد حسين الزبيدي (بغداد: دار الحرية، ١٩٨١)، ص ٧٨ ـ ٨٦.

(٢٨٥) ابن خرداذبه، المصدر نفسه، ص ١٣٢. والميل يساوي أربعة آلاف ذراع. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٦.

(٢٨٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٢٨٧) ابن خرداذبه، المصدر نفسه، ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٤) الطريق البري، ويبدأ من فرنجة فيعبر إلى طنجة ثم إلى افريقيا ـ تونس ـ ثم إلى مصر، ومنها إلى دمشق ثم إلى بغداد فالبصرة فالأحواز، ومنها إلى كرمان وإلى السند والهند والصين. وربما أخذ بعض التجار بعد رومية في بلاد الصقالبة إلى خليج الخزر ثم في بحر جرجان ومنها إلى بلخ وما وراء النهر، ثم إلى تغزغز فالصين. إلا أن وعورة الطريق البري الموصل إلى السند وصعوبة اختراق مسالكه ومفاوزه في جبال افغانستان، وضرورة اختراق المناطق التي تسكنها قبائل التتر للوصول إلى الصين، جعلت رحلات التجار إلى هذين البلدين تتم عن طريق البحر، مما أكسب الملاحين العرب خبرة واسعة عن البحار التي يسلكونها للوصول إليهما. وكان نشاط العرب التجاري في الخليج العربي والبحر العربي والمحيط الهندي قد مهّد الطريق للمستكشفين الأوروبيين الذين جاءوا في ما بعد[٢٨٨].

ويظهر من فحوى ما يذكره ابن خرداذبه أن هذه الطرق كان يسلكها أول الأمر التجار الغربيون الذين يأتون إلى الشرق ببضائع بلادهم ويعودون ببضائع الشرق ومصنوعاته. كما يجدر ملاحظة أن هذه الطرق سلكها العرب أيضاً أيام ازدهار تجارتهم، اضافة إلى الطرق العديدة التي سبقت الاشارة إليها.

رابعاً: الحالة المالية

١ ـ مصادر الجباية «الإيرادات»

كانت مصادر ايرادات بيت المال تتكون من الخراج وتوابعه، وأموال الجزية والزكاة، وايرادات متفرقة أخرى. وسنحاول في ما يأتي أن نلمّ بطبيعة كل من هذه المصادر وأحكامها واهميتها في تمويل بيت المال.

أ ـ الخراج

هو ضريبة الأرض الزراعية. ويعرِّفه أبو الحسن الماوردي: هو ما يوضع على رقاب الأرض من حقوق تُؤدَّى عنها[٢٨٩]. وهو يؤخذ عن الأرض التي فتحها العرب أو استحوذوا عليها صلحاً ثم تركوها بيد أهلها لقاء خراج معين يؤدونه سنوياً إلى بيت المال. وهناك أراض زراعية لا يُفرض عليها الخراج وإنما يدفع أصحابها عُشر غلّتها، وتسمى الأراضي العشرية. فكل أرض أسلم أهلها عليها فهي لهم وهي أرض عشرية، وكل أرض استولى عليها الإمام وتركت في أيدي أهلها فهي أرض خراج، إلا إذا قسمها بين الذين غنموها فهي أرض عشرية[٢٩٠]. كما أن هناك صنفاً آخر من الأراضي تدفع عنها ضرائب خاصة، وهي أراضي

(٢٨٨) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ١٥٠.

(٢٨٩) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٩)، ص ١٣١.

(٢٩٠) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري، الخراج، ط ٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٣٣)، ص ٦٩.

بعض كبار المزارعين الذين عقدوا مع العرب عند الفتح عقوداً خاصة يدفعون بموجبها مقداراً معيناً من الضريبة لا يتغير[291]. كما اعتاد الخلفاء أن يُقطعوا بعض القواد أو كبار رجال الدولة أو غيرهم قطائع من الأراضي الزراعية، وإن الشخص الذي يحوز هذه الإقطاعات كان يؤدي عنها الخراج[292]. وكانت هناك (الضياع السلطانية) وهي أراضي الأمويين التي صادرها العباسيون ثم توسعت بطرق مختلفة، وكانت واسعة ومتفرقة في أنحاء مختلفة كالعراق والشام ومصر وطبرستان وخراسان واليمامة. وكانت هذه الضياع تُعطى بالمزارعة بموجب اتفاق خاص بين المزارع وديوان الضياع[293].

وكان الأساس الذي تقوم عليه ضريبة الأرض الزراعية، أن الأرض ملك الدولة، وأن الناس يستغلّونها وللدولة حق في غلتها[294]. وكان الخراج يؤخذ إما مقداراً معيناً من المال أو من الحاصلات. على أن أسس الخراج لم تكن قد استقرت إذ كانت تتغير تبعاً للظروف[295]. ولا ريب في أن جباية الخراج كانت تقل أو تزيد حسب الاهتمام بتعمير الأرض وتحسين وسائل ريّها. وقد حاول الخليفة هارون الرشيد أن يضع قواعد ثابتة لجبايتها، فسأل قاضي قضاته أبا يوسف أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقة والجزية[296]. فوضع أبو يوسف كتاب الخراج معتمداً على الناحيتين الفقهية والتاريخية لتلك الضرائب مع الأخذ بنظر الاعتبار واقعها حينذاك. وقد انطوى الكتاب على مقترحات مهمة وملاحظات جديرة بالاهتمام. فقد ثبت أبو يوسف نسبة تلك الضرائب وشروط تحققها وكيفية استيفائها. أما عن نسبة ما يستوفى فقد اقترح ما يلي[297]:

(١) أن يقاسم على الحنطة والشعير من أهل السواد جميعاً على خُمسين للسَّيْح منه، وخمس ونصف على الدوالي، أي السقي بالواسطة.

(٢) ويقاسم على النخل والكرم والرطاب والبساتين على الثلث، أمّا غلال الصيف فيُقاسم على الربع.

(٣) أما القطائع فما كان منها سيحاً فعلى العشر، وما سقي بالدلو والقِرَب فعلى نصف العشر، مراعياً في ذلك مؤونة السقي.

---

(٢٩١) عبد العزيز الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة (بغداد: مطبعة نجيب، ١٩٥٠)، ص ١٧٢.
(٢٩٢) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.
(٢٩٣) المصدر نفسه، ص ١٧٣.
(٢٩٤) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ٢١٣.
(٢٩٥) الدوري، المصدر نفسه، ص ١٦٢.
(٢٩٦) الأنصاري، الخراج، ص ٣.
(٢٩٧) المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ٥١.

(١) جباية الخراج

كان الخلفاء يُعيّنون ولاة على الخراج مرتبطين بهم مباشرة، يتولون جبايته. وبعد أن ينفقوا منه على أرزاق الجند ورواتب الموالي والدواوين التي في الولاية وما تقتضيه المصالح العامة من النفقات، وما جرت العادة بإنفاقه من بيت المال، يرسلون بالباقي إلى بيت المال في حاضرة الخلافة. ويُعين أبو يوسف الصفات والشروط التي يجب توفرها فيمن يعين لولاية الخراج. وذلك بأن يكون فقيهاً عالماً، مشاوراً لأهل الرأي، عفيفاً، لا يطّلع الناس منه على عورة، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُخاف منه جور في الحكم، ويجب أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله محتقراً لهم، أو مستخفاً بهم[٢٩٨]. أما الماوردي فيرى أن عامل الخراج يُعتبر في صحة ولايته: الحرية والأمانة والكفاية، وإذا ما ولي وضع الخراج اعتبر فيه أن يكون فقيهاً من أهل الاجتهاد، أما إذا ولي جبايته فقط فإن ولايته تصح وإن لم يكن فقيهاً[٢٩٩]. ويرى صاحب آثار الأول في ترتيب الدول أن على عامل الخراج أن يتعهد الرعية بالتقوية والإعانة والمساعدة في عمارة الأرض، والرفق في الاستيفاء، والصبر إلى حين الميسرة[٣٠٠].

وفي ما يتعلق بطرق الجباية فقد نبّه أبو يوسف إلى مساوىء بعضها، كطريقة حزر ما في البيادر بأن تقدر بأكثر من محتوياتها الحقيقية، ثم يؤخذ صاحب الخراج بنقائص الحزر، وفي هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد. ونبّه على مضار إعطاء الخراج بالالتزام ونهى عنه، لأن الملتزم، وهو يستهدف الربح، يلجأ إلى القسوة والتعسف في تحصيل الضريبة، ويقول: وليس يمكنه ذلك إلّا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد، وإقامة لهم في الشمس، وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج، مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه. كما أشار إلى عدد من مظاهر التعسف التي كان الجباة يمارسونها في عملهم تتسم بالقسوة والظلم. وطلب إلى الخليفة أن يأمر بمنعها، كتحميل المكلفين رسوماً إضافية على الخراج المتحقّق، ومطالبتهم بفروق الدراهم التي يدفعونها، اضافة إلى ضربهم وإيقافهم في الشمس، وتعليق الجرار عليهم، وتقييدهم بما يمنعهم من الصلاة[٣٠١].

وميّز أبو يوسف بين مشاريع الري التي تتحمل الدولة نفقاتها وبين المشاريع التي يتحملها المزارعون. فيقول: إذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام التي تأخذ مياهها من دجلة والفرات كُريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج، ولا يجوز أن يحمل ذلك على أهل الخراج وحدهم. أما الأنهار التي يجرونها إلى أراضيهم ومزارعهم وبساتينهم فكَرْيُها عليهم. إلا أن البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون على دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار العظام فإن جميع النفقة على هذه من بيت المال، لأن منفعتها عامة[٣٠٢].

---

(٢٩٨) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٢٩٩) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٣٦.

(٣٠٠) الحسن بن عبد الله العباسي، آثار الأول في ترتيب الدول (مصر: مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ)، ص ٧١.

(٣٠١) الأنصاري، الخراج، ص ١٠٥ و١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣٠٢) المصدر نفسه، ص ١١٠.

وعلى الرغم من تحمّس الخليفة هارون الرشيد للموضوع إلا أنه ليس هناك ما يدل على أنه أخذ بنصائح أبي يوسف وتوصياته خارج السواد، وذلك لصعوبة مراقبة العمال[٣٠٣].

كما اهتم الخلفاء العباسيون وبخاصة خلفاء العصر الأول، بمواعيد جباية الخراج. وقد أشرنا إلى ذلك في الباب الخاص بالزراعة.

(٢) توابع الخراج

إن توابع الخراج هي: المكوس، وأخماس المعادن، والمستغلات، وإيرادات متفرقة أخرى. وضريبة المكوس هي ما نسميه اليوم بالرسوم الجمركية، وكانت تؤخذ على البضائع التجارية التي يحملها التجار من الهند والصين بحراً إلى الموانىء العربية. وتسمى هذه الرسوم البحرية (أعشار السفن) وكانت نسبتها عشر قيمة ما يحمله التجار من أموال وبضائع، وتستوفى نقداً أو عيناً. ويُعتقد أن إيراداتها كانت كبيرة بالنظر إلى اتساع التجارة حينذاك بين بلدان الدولة العربية وأقطار العالم الأخرى، فكانت السفن كثيرة وأحمالها ثمينة. وكان الخليفة الواثق بالله أمر بترك جباية أعشار السفن، تشجيعاً لحركة التجارة[٣٠٤].

كما كانت ضريبة المكوس تؤخذ على البضائع التجارية التي ينقلها التجار بين بلد وآخر. فكان يؤخذ من التجار المسلمين ربع العشر، وأهل الذمة نصف العشر، ومن أهل دار الحرب العُشر، وذلك عن كل بضاعة بلغت قيمتها مئتي درهم فصاعداً[٣٠٥]. وقد أنشئت محلات خاصة تدعى (المراصد) لجباية هذه الضريبة[٣٠٦]. ونظراً لأهمية ضريبة المكوس فقد طلب أبو يوسف إلى الخليفة هارون الرشيد أن يوليها قوماً من أهل الصلاح والدين، ويأمرهم بعدم التعدي على الناس أو ظلمهم، وأن لا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم[٣٠٧].

أما أخماس المعادن فهي ضريبة تفرض على ما يستخرج من باطن الأرض من المعادن. والمعادن على رأي الفقهاء نوعان: معادن ظاهرة كالملح والقار والكحل والنفط وهي مباحة في الشرع الاسلامي كالماء الجاري من العيون، لا يجوز احتكارها، والناس فيها سواء. ومعادن باطنة وهي ما كان جوهرها مستكناً في الأرض لا يوصل إليها إلا بالعمل كالذهب والفضة والنحاس والحديد[٣٠٨].

وبالنظر إلى سعة الدولة العربية وتباين طبيعة أراضيها، فقد انتشرت المناجم لاستخراج

---

(٣٠٣) الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة، ص ١٦٤.

(٣٠٤) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٥٠، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ٢، ص ٤٨٣.

(٣٠٥) الأنصاري، الخراج، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٣٠٦) الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة، ص ١٨٠.

(٣٠٧) الأنصاري، المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٣٠٨) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٧٤.

أنواع المعادن في أقاليمها المختلفة. وقد ذكرنا في الفصل الخاص بالصناعة بعض المعادن التي كانت تستخرج وأماكن وجودها. وكانت أخماس المعادن المستخرجة تحقق لبيت المال ايراداً لا بأس به. ويتضح ذلك مما ذكره المقدسي من أن مقاطعة معادن نيسابور من الفيروزج وغيره كانت أخماسها ٧٥٨٧٢٠ درهماً على عهده(٣٠٩).

وأما المستغلات فيُراد بها ما يُجبى لبيت المال من ضريبة على الأسواق والمنازل والخانات والطواحين، مما ابتناه الناس على أراضٍ تعود للدولة، إذ يؤدّون عليها أجرة لبيت المال(٣١٠). وكانت مبالغ ايرادات المستغلات كبيرة نسبياً. فقد ذكر ابن خرداذبه أن غلّات الأسواق والأرجاء ودور الضرب بلغت في مدينة السلام ألف ألف وخمسمئة ألف درهم في السنة(٣١١). ويقول اليعقوبي إن اجرة الأسواق ببغداد في الجانبين جميعاً من رحى ابن البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثنا عشر ألف ألف درهم، كما يقول إن غلّات مستغلات سُرَّ من رأى وأسواقها بلغت عشرة آلاف ألف درهم في السنة(٣١٢).

وتشمل الإيرادات المتفرقة خمس سيب البحر(٣١٣)، وذلك مما يقذف به أو يستخرج منه، مثل العنبر واللؤلؤ والمرجان. وأثمان الأباق من العبيد، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة مما لم يطالب به أحد. وما يؤخذ من ميراث من يموت وليس له وارث، وكان لا يؤخذ لبيت المال إلا من ميراث المسلمين(٣١٤). وبقيت هذه الضريبة حتى سنة ٢٨٣ حينما أمر الخليفة المعتضد بالله بالكتابة إلى جميع البلدان بردّ الفاضل من سهام المواريث إلى ذوي الأرحام، وإبطال ديوان المواريث(٣١٥).

ب ـ الجزية

هي مبلغ من المال يُفرض على رؤوس أهل الذمة ويسقط بالإسلام، حتى وإن أسلم الذمّي في آخر السنة فلا شيء عليه، وكذلك إذا مات ولم يكن قد دفع الجزية فإنها تسقط عن ورثته(٣١٦). واسم الجزية مشتق من الجزاء، أي أنها تؤخذ منهم جزاء كفرهم صغاراً لهم، كما ورد بنص القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾(٣١٧).

---

(٣٠٩) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٣٤١.
(٣١٠) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ٨٩.
(٣١١) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٢٥.
(٣١٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٢٥٤ و٢٦٣.
(٣١٣) الأنصاري، الخراج، ص ٧٠.
(٣١٤) متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ج ١، ص ١٨٩.
(٣١٥) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، ص ٤٤، وأبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٣ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧)، ج ٧، ص ٤٨٢.
(٣١٦) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢٢٦.
(٣١٧) القرآن الكريم، «سورة التوبة»، الآية ٢٩.

وعند فرضها على أهل الذمة يستوجب لهم حقّان، أحدهما الكف عنهم والثاني حمايتهم، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين[٣١٨]. وذلك لأن دماءهم قد أحرزت بأداء الجزية[٣١٩].

وهناك من يعتبر فرض الجزية على أهل الذمة يقابل فرض الزكاة على المسلمين، حتى يتكافأ الفريقان لأنهما رعية لدولة واحدة وينتفعون بمرافقها سواسية[٣٢٠]. وشبّهها بعض الباحثين بضريبة الدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح[٣٢١].

والجزية واجبة على جميع أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة، ما عدا نصارى تغلب ونجران. فقد عاهد رسول الله ﷺ أهل نجران على أن يعاملهم معاملة المسلمين، وصالح عمر بن الخطاب نصارى تغلب على أن يسقط الجزية عن رؤوسهم[٣٢٢]، إلا أنه ضاعف الصدقة عليهم بسبب نصرتهم للعرب الفاتحين. وهي تفرض على الرجال دون النساء والصبيان. ولا تؤخذ من المسكين الذي يُتصدّق عليه، ولا من الشيخ الكبير المعدم، ولا من المغلوب في عقله، ولا من الأعمى الذي لا حرفة له، ولا من مُقعد. على أن الأعمى والمقعد إذا كان لهما مال أخذت الجزية منهما. وكذلك المترهبون في الديارات وأهل الصوامع لا تؤخذ منهم إلا إذا كان لهم مال. ويرى الماوردي أن الامرأة والصبي والعبد والمجنون اعفوا من الجزية لأنهم أتباع[٣٢٣]. وأن الجزية تقبل من غير المسلمين أيّاً كانوا، إلا إذا كانوا عرباً عبدة الأوثان أو من المرتدّين، فهؤلاء لا يقبل منهم إلاّ الإسلام أو السيف، والقصد من ذلك توحيد أمة العرب.

وسارت الجزية في السواد في عهد العباسيين على سنّة عمر بن الخطاب[٣٢٤]. وهي أن يدفع الموسر ثمانية وأربعين درهماً، والمتوسط أربعة وعشرين درهماً، والفقير اثني عشر درهماً[٣٢٥]. ويرى الماوردي أن هذا التحديد مما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة، وأن الإمام الشافعي قد ذهب إلى أن الجزية يجب ألا تقل عن دينار، أما غيرهما من أئمة الفقهاء فقد ذهبوا إلى أن تقدير الجزية إنما يكون باجتهاد الولاة[٣٢٦].

وقد اعتبر قاضي القضاة أبو يوسف الجزية بمنزلة الخراج وأوصى بأن يُصيّر أمرها إلى

---

(٣١٨) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٣١٩) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ١٢٣.

(٣٢٠) الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٣٢١) متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ج ١، ص ٧٤ - ٧٥.

(٣٢٢) الأنصاري، الخراج، ص ٧٢ و١٢٠.

(٣٢٣) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٢٨.

(٣٢٤) الدوري، النظم الاسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة، ص ١٧٥.

(٣٢٥) الأنصاري، الخراج، ص ١٢٥.

(٣٢٦) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٢٨.

رجل من أهل الصلاح، وأن يكون ممن يوثق بدينه وأمانته، وأن يُصيِّر معه أعوان يجمعون أهل الذمة ويأخذون الجزية منهم على طبقاتهم بالمبالغ المعيّنة لكل طبقة، وأوصى بالرفق في استيفائها، فلا يُضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يُرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم، وذلك عملاً بالسنّة النبوية التي توصي بأهل الذمة خيراً، إذ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»، كما روي عن عمر بن الخطاب أنه قال عند وفاته: «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفون فوق طاقتهم»[٣٢٧].

ج - الزكاة

أو الصدقة، ضريبة مفروضة على الأغنياء من المسلمين. ومعنى الزكاة الطهارة، وكأن الخارج من المال يطهّره من تبعة الحقّ الذي جعل الله فيه للمساكين. فقد قال سبحانه وتعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾[٣٢٨]. وهي شرعاً تمليك جزء من المال عيَّنه الشارع لمستحقيه بشروط معيّنة، ولا يجب على المسلم في ماله سواها، وهي واجبة في الأموال المرصدة للنماء إما بنفسها أو بالعمل[٣٢٩]. وهي تؤخذ من أموال أغنياء المسلمين وتقسم في فقرائهم. وقد روى عن الرسول ﷺ، قوله «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها على فقرائكم» والأموال التي تؤخذ عنها الصدقة هي المواشي من الإبل والبقر والغنم، وثمار النخل والشجر والزروع والفضة والذهب، وقد بيّن الفقهاء الأحكام الخاصة بتحقق الزكاة على هذه الأموال[٣٣٠].

ومن شروط الزكاة أنه لا يجوز أن تنقل زكاة بلد إلى غيره إلا عند عدم توفّر مستحقيها ممن نصّت الشريعة عليهم، على أنه لا مانع من أن تُعطى في صنف واحد من المستحقين[٣٣١].

وقد أورد الفقهاء الأحكام الخاصة بتعيين الأشخاص الذين خصّتهم الآية الكريمة بالصدقة. ومستحقوها هم مَنْ ذكر الله تعالى بقوله ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾[٣٣٢]. والفقراء هم الذين لديهم شيء قليل جداً لا يقوم بأودهم، والمساكين هم الذين ليس لديهم أي شيء، أي المعدمون، ويشمل لفظ المساكين فقراء أهل الذمة، أما الفقراء فيطلق على المسلمين منهم فقط[٣٣٣]. وكان الخليفة عمر بن الخطاب رأى شيخاً ضريراً من اليهود يسأل،

---

(٣٢٧) الأنصاري، المصدر نفسه، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(٣٢٨) القرآن الكريم، «سورة التوبة،» الآية ١٠٣.

(٣٢٩) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٩٩.

(٣٣٠) المصدر نفسه، ص ١٠٠ - ١٠٩.

(٣٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٧، والأنصاري، الخراج، ص ٨١.

(٣٣٢) القرآن الكريم، «سورة التوبة،» الآية ٦٠.

(٣٣٣) زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ١، ص ٢٠٤.

فعلم منه أنه مُعدَم فأعفاه من الجزية واعتبره من المساكين وأمر خازن بيت المال أن يعطيه من أموال الصدقة[٣٣٤]. أما العاملون عليها فهم القائمون بشؤون الصدقات من كتّاب وجُباة. والمؤلفة قلوبهم هم الذين كان النبي ﷺ يتألّفهم لكفّ الأذى عن المسلمين أو لترغيبهم وقومهم في الإسلام، وقد انقطع هذا الصنف بعد أن انتصر الاسلام وقوي شأنه، وفي فكّ رقاب العبيد أو الأسرى بعتقهم، أو المكاتبين، وهم العبيد الذين يكاتبون مواليهم بثمنهم فإذا أدوه فهم أحرار، وقد جوّزت عليهم الصدقة ليُعانوا على تحرير أنفسهم. والغارمون عليها هم الذين استدانوا في غير سفه ولا معصية وعجزوا عن سداد ديونهم. وفي سبيل الله، يراد بهم الغزاة المجاهدون يعطون ما ينفقون في غزوهم، أو إنفاقها في كل طريق يؤدي إلى مرضاة الله تعالى، وابن السبيل هو المسافر البعيد عن وطنه وانقطعت به الأسباب فلا يجد نفقة سفره وعودته[٣٣٥].

وقد اشترط القاضي أبو يوسف في والي الصدقات أن يكون ثقة أميناً، عفيفاً، ناصحاً، مأموناً على بيت المال وعلى الرعية، وأن يوجه أقواماً يرتضيهم ويتحرّى عن سلوكهم وأمانتهم ليجمعوا إليه الزكاة من البلدان[٣٣٦]. أما الماوردي فيرى أن الشروط المعتبرة في والي الصدقات أن يكون مسلماً حرًّا عادلاً عالماً بأحكامها، وأنه قد يُقلد على أخذها وقسمتها، أو أن يقلّد على أخذها فقط[٣٣٧].

وكثيراً ما كان جباة الزكاة يظلمون ويتعسّفون، بحيث إن أبا يوسف نبّه الخليفة هارون الرشيد إلى ذلك، وطلب إليه أن يتخذ للصدقة أهل العفاف والصلاح. كما نصحه أن لا يولّيها عمال الخراج، لأن مال الصدقة ينبغي أن لا يُدخل في مال الخراج، لأن الخراج فيء للمسلمين عامة، والصدقة لمن سمّى الله عز وجل في كتابه الكريم[٣٣٨].

٢ ـ مبالغ الجباية

لم تلتفت مصادرنا الأولية إلى ذكر ايرادات الدولة أو نفقاتها في خلال القرن الثالث بشكل واضح وافٍ، وإنما تناول بعضها ـ عَرَضاً ـ ذكر قسم من الايرادات أو النفقات في عهد بعض الخلفاء. ومما وصلنا من نصوص عن الايرادات ما ذكره ابن خلدون في مقدمته عما كان يحمل إلى بيت المال ببغداد في أيام المأمون، ولا يعيّن السنة التي تعود إليها هذه الأموال، إلا أنها تعود إلى ما بعد قدوم المأمون إلى بغداد في سنة ٢٠٤، وما جاء في كتاب

(٣٣٤) الأنصاري، الخراج، ص ١٢٦.

(٣٣٥) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٠٧ ـ ١١٠؛ محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى، الأحكام السلطانية، صحّحه وعلّق عليه محمد حامد الفقي (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨)، ص ١١٦ ـ ١١٩، والأنصاري، المصدر نفسه، ص ١٨١.

(٣٣٦) الأنصاري، المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣٣٧) الماوردي، المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٣٣٨) الأنصاري، المصدر نفسه، ص ٨٠.

الخراج وصناعة الكتابة لقدامة بن جعفر الكاتب البغدادي عن الإيرادات في عهد المعتصم بالله. ثم ما ذكره ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك من جباية الأقاليم في أواسط هذا القرن. ونعرض في ما يأتي مفردات الايرادات ومجموعها في كل بلد من المصادر الثلاثة المذكورة.

أ ـ الايرادات في أيام الخليفة المأمون

ذكر ابن خلدون في مقدمته عند كلامه عن «ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها»، ما يحمل من الأموال إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي[٣٣٩]. وقد رتّب صاحب كتاب تاريخ التمدن الاسلامي هذه الايرادات في جدول يتضمن الأقاليم والولايات وما يجبى منها من الأموال النقدية والبضائع والأمتعة والمحصولات. وكان مجموع جباية الدولة بموجب هذا الجدول ثلاثمئة وتسعين ألف ألف وثمانمئة وخمسين ألف درهم، أي ما يقرب من أربعمئة ألف ألف درهم[٣٤٠]، يضاف إلى ذلك قيمة المواد العينية التي ذُكرت دون بيان قيمتها. ويمكن ترتيبها كالآتي:

(١) إيرادات السواد ومجموعها ٦٠٢٠٠٠٠٠ درهم.

(٢) إيرادات بقية ولايات العراق، وقد بلغ مجموعها ٦٤٧٠٠٠٠٠ درهم.

(٣) إيرادات أقاليم المشرق ومجموعها ١٦٢٧٠٠٠٠٠ درهم.

(٤) إيرادات مصر وولايات الشام والجزيرة العربية ومجموعها ٤٨١٧٠٠٠ دينار وتعادل ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم، باعتبار أن الدينار آنذاك يعادل ١٥ درهماً.

(٥) إيرادات أرمينيا وأذربيجان ومجموعها ١٧٠٠٠٠٠٠ درهم.

(٦) إيرادات افريقيا وقدرها ١٤٠٠٠٠٠٠ درهم.

وبذلك يكون مجموع هذه الايرادات ٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم.

ب ـ الايرادات في أيام الخليفة المعتصم بالله

خصص قدامة بن جعفر في كتابه الخراج وصناعة الكتابة قسماً من الباب السادس لإيرادات الدولة العربية[٣٤١]، فذكر ايرادات السواد بقسميه الغربي والشرقي، مفصلاً ذلك بحسب الطساسيج والكُوَر، مبيناً مقادير جباية الغلال من الحنطة والشعير مع ما يجبى نقداً. وأتبع ذلك ذكر جباية الأقاليم الشرقية للدولة، وذكر مثل ذلك عن الولايات الغربية، ثم

---

(٣٣٩) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٩٨ ـ ٩٩.
(٣٤٠) زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٢، ص ٥١ ـ ٥٣.
(٣٤١) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ١٦٢ ـ ١٨٤.

الحق ذلك بجدول موحد يتضمن أسماء الولايات والبلدان مع المبالغ المجباة منها. وكان ما ذكره من أرقام بعبرة سنة ٢٠٤هـ، وقد تكون للربع الأول من القرن الثالث الهجري.

ويلاحظ أن هناك اختلافاً بين الأرقام التي يوردها في الحالة الأولى عن الأرقام التي يذكرها في الجداول، وقد يكون ذلك نتيجة أخطاء في الحساب أو اضطراب في النسخ. ومع هذا الاختلاف سنعتبر الأرقام التي جاءت في الجداول هي التي تمثل الأموال المجباة لبيت المال. ويظهر أن قدامة حصل على هذه الأرقام مما وصلت يده إليه من الوثائق الرسمية عن ايرادات السنة ٢٢٥ أي في عهد الخليفة المعتصم بالله[٣٤٢]. وفي ما يأتي خلاصة بهذه الجداول وفق الترتيب الذي وضعه قدامة في كتابه.

(١) إيرادات السواد في الجانب الشرقي ٣٢٤٠٠ كرّ من الحنطة، و٣٨٩٢١ كرًّا من الشعير، و٣١٦٣٠٠٠ درهم.

(٢) إيرادات السواد في الجانب الغربي ٨٣٢٠٠ كرّ من الحنطة، و٨٥٠٠٠ كرّ من الشعير، و٥٦٥٨٨٠٠ درهم.

أي ما مجموعه ١١٥٦٠٠ كر من الحنطة، و١٢٣٩٢١ كرًّا من الشعير، و٨٨٢١٨٠٠ درهم. ثم احتسب أثمان كميات الحنطة والشعير بأوسط الأسعار السائدة حينذاك، وذلك باحتساب الكُرَّين المقرونين من الحنطة والشعير بستين ديناراً. ثم حوّل الدنانير إلى دراهم بمعدل ١٥ درهماً لكل دينار، فبلغ ذلك ١٠٠٣٦١٨٥٠ درهماً. وبإضافة المبالغ المجباة نقداً، و٦٠٠٠٠٠٠ درهم ايرادات صدقات البصرة، يصبح مجموع ايراد السواد بقسميه بموجب احتسابه ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهماً.

(٣) ايرادات بقية ولاية العراق، ويبلغ مجموعها ٣٧٩٨٥٠٠٠ درهم.

(٤) ايرادات ولايات المشرق ومجموعها ١٥٤٦٣٨٠٠٠ درهم.

(٥) ايرادات ولايات الشام ومجموعها ١٠٩٢٠٠٠ دينار، وتعادل ١٦٣٨٠٠٠٠ درهم.

(٦) إيرادات ولايات الجزيرة العربية وقدرها ١٥١٠١٠٠ دينار، وتعادل ٢٢٦٥٠٠٠٠ درهم.

(٧) إيرادات مصر وقدرها ٢٥٠٠٠٠٠ دينار، وتعادل ٣٧٥٠٠٠٠٠ درهم.

(٨) ايرادات اذربيجان وقدرها ٤٥٠٠٠٠٠ درهم.

وبعد اضافة ٢٠٠٠٠٠٠ درهم وهي جزية مدينة السلام، يبلغ المجموع الكلي للإيرادات ٣٨٨٣١١٣٥٠ درهماً.

---

(٣٤٢) فارس الخوري، موجز في علم المالية (دمشق: مطبعة الحكومة، ١٩٢٤)، ص ٣٣، وزيدان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠.

ج ـ الايرادات في أواسط القرن الثالث

درج ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك على أن يذكر جباية كل اقليم بعد أن يذكر ما يتعلق بالطرق والمسالك المؤدية إلى أهم مدنه. أما ما يختص بالسواد فقد ذكر جبايته بقسميه الغربي والشرقي بالدراهم وبالحاصلات[٣٤٣].

وعندما تكلم على أقاليم المشرق ذكر جباية كل منها[٣٤٤]. وكذلك يفعل عند كلامه على أقاليم المغرب[٣٤٥]. وقد احتسب صاحب تاريخ التمدن الاسلامي أثمان تلك الكميات من الحاصلات بحسب السعر السائد آنذاك، وأضافها إلى الجباية النقدية، ونظم بها جدولاً تضمن الايرادات موزعة على الأقاليم. وقد بلغت جملتها ٢٩٩٢٦٥٣٤٠ درهماً[٣٤٦]. وهي تعود إلى ما قبل سنة ٢٣٢هـ في عهد المعتصم بالله أو الواثق بالله، ويمكن عرضه مختصراً كالآتي:

(١) ايرادات السواد: ٧٨٣١٩٣٤٠ درهماً.

(٢) ايرادات بقية ولايات العراق: ١٧٣٠٠٠٠٠ درهم.

(٣) ايرادات ولايات المشرق: ١٣٢٠٩٦٠٠٠ درهم.

(٤) ايرادات ولايات الشام: ١٩٩٠٠٠٠ دينار، وتعادل ٢٩٨٥٠٠٠٠ درهم.

(٥) ايرادات مصر: ٢١٨٠٠٠٠ دينار، وتعادل ٣٢٧٠٠٠٠٠ درهم.

(٦) ايرادات اليمن: ٦٠٠٠٠٠ دينار، وتعادل ٩٠٠٠٠٠٠ درهم.

وبمقارنة مجموع الإيرادات في الجداول المذكورة يظهر أن الجباية كانت تميل إلى الانخفاض، بحيث بلغ الفرق بين الجباية على عهد المأمون، وما صارت إليه في أواسط القرن الثالث، قريباً من المئة ألف ألف درهم. ويعود الانخفاض في الايرادات إلى عوامل عديدة، منها ما هو معروف موثّق، ومنها ما يمكن استنتاجه من سير الأحداث التاريخية. فمن العوامل الموثقة أن الخليفة المأمون خفض نسبة الخراج إلى خُمسي الغلّة بدلاً من نصفها[٣٤٧]. وكان الخليفة الواثق بالله أمر بإلغاء أعشار السفن التجارية تشجيعاً للتجارة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في باب التجارة. كما أن الخليفة المهتدي بالله أمر في سنة ٢٥٢ بإسقاط ما تبقّى على أصحاب الأراضي من الديون التي كانوا يؤدونها مقسّطة، وكانت مبالغها للسنة

---

(٣٤٣) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٨ ـ ١٥.
(٣٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٠، ٥٧ و١٢٠.
(٣٤٥) المصدر نفسه، ص ٧٥ و٨٣.
(٣٤٦) زيدان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٠ ـ ٦١.
(٣٤٧) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، ص ١٩٨.

المذكورة نحو اثني عشر ألف ألف درهم[348]. أما العوامل الأخرى فمنها أن قيام بعض الإمارات شبه المستقلة أدّى إلى انخفاض المبالغ المتبقية من الضرائب بعد إخراج النفقات المحلية، فقلّت المبالغ التي تحوّل إلى بيت المال. ومنها انخفاض مبالغ الجزية لدخول أعداد كبيرة من أهل ما وراء النهر وأقاليم أخرى في الإسلام. يضاف إلى ذلك سوء استعمال المكلفين بجباية الضرائب من خراج وغيره.

وإن الطريقة التي اتبعت في تنظيم الايرادات بحسب الولايات والأقاليم تفيدنا في معرفة التنظيم الاداري للدولة العربية في القرن الثالث. وإن تفصيل جباية السواد بقسميه الشرقي والغربي تظهر أن معظم الجباية من الحاصلات الزراعية كانت من الحنطة والشعير، تعطي صورة جلية عن ازدهار الزراعة آنذاك.

وسبق أن أشرنا إلى أن الايرادات التي يصار بها إلى بيت المال هي صوافي ما يُجبى من الخراج والمكوس والجزية والمستغلات وغيرها. أي أن الأرقام التي ذكرت في الجداول المعروضة آنفاً تمثّل ما بقي من الايرادات بعد أن صرفت منها النفقات المحلية، إذ كانت دواوين الخراج في الولايات تقوم مقام بيت المال، وكل ولاية تستوفي النفقات اللازمة لها كرواتب الوالي والقاضي، وموظفي الدواوين، والجند، ونفقات الجيش الأخرى، وما ينفق على مرافق وشؤون مما يتحمله بيت المال، ثم يحمل الباقي إلى بيت المال في حاضرة الخلافة. أي أن ميزانية الدولة العربية كانت تنظم على قاعدة التخصيص، وهي إحدى القواعد الحديثة المتبعة في تنظيم إيرادات بعض الدول في ميزانياتها.

٣ ـ النفقات

لا تتوفر في مصادرنا الأولية نصوص بمبالغ النفقات السنوية للدولة وأوجه إنفاقها. على أن هناك جدولين يمكن اعتبارهما يمثلان نفقات دار الخلافة، الأول خاص بنفقات المتوكل على الله السنوية وقد ذكره صاحب كتاب الذخائر والتحف[349]. ويمثل الثاني النفقات في عهد المعتضد بالله الذي تولى الخلافة في منتصف سنة ٢٧٩هـ وقد ذكره الهلال الصابي في كتابه الوزراء[350].

ويلاحظ أن غالب النفقات في أيام المتوكل على الله مخصصة لأثمان المواد والخدمات إلى جانب الرواتب، بينما القسم الغالب في النفقات في عهد المعتضد بالله مخصص للرواتب ولا يحتوي من نفقات المواد والخدمات إلا اليسير جداً. وكما يظهر من مجموع كل من الجدولين أن

(٣٤٨) زيدان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٨، نقلاً عن: الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ٧٧.

(٣٤٩) ابن الزبير، الذخائر والتحف، ص ٢١٨ ـ ٢٢٠.

(٣٥٠) أبو الحسين هلال بن المحسن الصابيء، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، [د.ت.])، ص ١٥ ـ ٢٧.

لا بد أن تكون هناك نفقات أخرى في أيام المعتضد بالله مخصصة لأثمان المواد والخدمات لم يرد ذكرها، أي أن هذا الجدول لا يمثّل جميع نفقات دار الخلافة كما يمثلها الجدول الأول.

وفي ما يلي نعرض محتويات جدول نفقات المتوكل على الله البالغة ألفي ألف دينار وثلاثمئة ألف دينار، وستة وعشرين ألف ألف درهم وسبعمئة ألف درهم:

	دينار	درهم
نفقات المطابخ	٢٠٠٠٠٠	
البناء والمرمّة	٣٠٠٠٠٠	
أرزاق الحشم		١٠٠٠٠٠٠٠
نفقات ذوات الخاصة		٥٠٠٠٠٠٠
الكسوة	٣٠٠٠٠٠	
الطيب	١٠٠٠٠٠	
تجديد آلات الخزائن وصياغة الذهب والفضة	١٠٠٠٠٠	
الخيش والشمع		١٢٠٠٠٠٠
الثلج		٢٠٠٠٠٠٠
الفرش	١٠٠٠٠٠	
خزائن الشراب		٢٠٠٠٠٠٠
أرزاق الندماء		٥٠٠٠٠٠
أرزاق الكلّابين والبازياريين والفهادين		٥٠٠٠٠٠
ما يبتاع من الرقيق	١٠٠٠٠٠	
ما يبتاع من الجوهر	٣٠٠٠٠٠	
أرزاق الفراشين	٨٠٠٠٠٠	
نفقات الحراقات وما أشبهها		٥٠٠٠٠٠٠
أرزاق الصفاعنة والمضحكين والكبّاشين والدياكين وأصحاب كلاب الهراش		٥٠٠٠٠٠
المجموع ويضاف إلى ذلك ٦٠٠٠٠٠ دينار للسيدة شجاع أم المتوكل على الله	٢٣٠٠٠٠٠	٢٦٧٠٠٠٠٠

وكان المعتضد بالله عندما تولى الخلافة أظهر اهتماماً ملحوظاً بالتعرف على ايرادات الدولة ونفقاتها، إذ قال لوزيره عبيد الله بن سليمان: «قد دفعت إليّ ملكاً مختلاً، ودنيا خراباً، واريد ان اعرف ارتفاع النواحي لأجري النفقات والرواتب على موجب ذلك، فاعمل به عملاً مشروحاً واتني به وعجّله». غير أن مصادرنا الأولية لم تحفظ لنا شيئاً عن ايرادات الدولة ونفقاتها في أيامه سوى ما جاء في كتاب الوزراء للصابي عن نفقات دار الخلافة فقط، وليس نفقات الدولة جميعاً. ويمكن ترتيب ما ذكره الصابي بجدول بحسب المفردات ومبالغها، مما تعهد به المدعو أحمد بن محمد الطائي، أن يقدمه يومياً، لقاء ضمانه أعمال سقي الفرات ودجلة وخراسان وجوخى وكلواذي ونهر بين والراذانين وطريق خراسان. وكان قد اشترط على نفسه أن يؤدي إلى بيت

المال يومياً من العين سبعة آلاف دينار، أي ما يساوي مئتين وعشرة آلاف دينار شهرياً ومجموعه سنوياً ألفا ألف وخمسمئة وعشرون ألف دينار.

إن هذه المبالغ التي تعهد الضامن بدفعها تمثّل ما كان ينفق على دار الخلافة كرواتب للموظفين وأثمان ما تحتاجه من مواد وخدمات. وفي ما يلي مفردات هذه النفقات مرتبة بحسب الجهات التي تنفق عليها.

دينار يومياً	
١٠٠٠	أرزاق أصحاب النوبة من الرجّالة، ومن يرسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجنابيين والبصريين، وأصحاب المصاف بباب العامة والسودان وأكثر مماليك الموفق (أبي المعتضد بالله).
١٠٠٠	أرزاق الغلمان الخاصة، وهم الذين أعتقهم الموفق، وفيهم حاجب الخليفة، وخلفاء الحجاب الملازمين والمناوبين.
١٥٠٠	أرزاق الفرسان من الأحرار والمميزين.
٦٠٠	أرزاق المختارين، وهم الجند المنتخبون لمواكبة الخليفة وملازمة داره.
٥٠٠	أرزاق الفرسان المثبتين.
١١٠	أرزاق الأصناف المرسومين بخدمة الدار، كأصحاب الأخبار، والمؤذنين والمنجمين والفرانقيين (أي السعاة) والمضحكين والبوقيين والطبالين.
٣٠٠	أثمان إنزال الغلمان والمماليك - أي نفقات ضيافتهم.
١٠٠	ثمن الشراب للخاصة والعامة وآلاته، ونفقات خزائن الكسوة والخلع، والطيب، وحوائج الوضوء، وخزائن السلاح، والفرش.
٣٣٣ ١/٣	نفقات المطابخ الخاصة والعامة، والمخابز، وإنزال الخدم والحشم ومخابز السودان.
٤	أرزاق السقائين بالقِرَب في القصر والخزائن والمطابخ والمخابز والدور... الخ.
١٦٧	أرزاق الخاصة من الغلمان والمماليك دون الأكابر الأحرار.
١٠٠	أرزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع على اختلاف مهنهم.
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع في الإصطبلات الخمسة من الخيل والبغال والحمير.
٦٦ ٢/٣	ما يُصرف في ثمن الكراع والإبل، وما يبتاع من الخيل الموصوفة في أحياء العرب - أي العتاق الأصيلة.
٣٠	أرزاق المطبخيين.
٣٠	أرزاق الفرّاشين، والمجلسيين، وخُزّان الفرش، والشمع وأجور الحمالين.
٦ ٢/٣	ثمن الشمع والزيت.
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد.
٤٤ ١/٣	أرزاق الجلساء وأكابر المُلهين ومن يجري مجراهم.
٢٣ ١/٣	جماعة رؤساء المتطببين وتلاميذهم الملازمين وثمن الأدوية.
٧٠	أصحاب الطيور من البازياريين والفهّادين والكلّابين والصقارين والصيادين، وثمن طعام الجوارح وعلاجها، والأعوان والحمّالين وغيرهم.
١٦ ٢/٣	أرزاق الملاحين في الطيارات والشذوات والسميريات والحراقات والآلات وزوارق المعابر.

٤	ثمن النفط والمشاقة للسرج والمشاعل وأجرة الرجال في خدمتها.
١٥	الصدقة التي تدفع في كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء.
١٠٠	أرزاق الحرم.
٣٣ $\frac{١}{٣}$	جاري أولاد المتوكل على الله وأولادهم رجالاً ونساء.
١٦ $\frac{٢}{٣}$	جاري ولد الواثق والمهتدي والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.
١٦ $\frac{٢}{٣}$	جاري ولد الموفق وأخواته.
٣٣ $\frac{١}{٣}$	جاري جمهور بني هاشم من العباسيين والطالبيين.
٣٣ $\frac{١}{٣}$	أرزاق الوزير وابنه.
١٥٦ $\frac{٢}{٣}$	أكابر الكتّاب وأصحاب الدواوين والخزّان والبوابين والمديرين والأعوان وسائر مَن في الديوان، وثمن الصحف والقراطيس والكاغد، سوى كتّاب دواوين الإعطا وخزّان بيت المال (فإنهم يأخذون أرزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين وغرم المخلين بدوابهم).
١٦ $\frac{٢}{٣}$	جاري القاضي وخليفته.
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين وأصحاب المراتب والخطباء في المساجد الجامعة بمدينة السلام.
٣ $\frac{١}{٣}$	أرزاق المؤذنين في المسجدين الجامعين، والمكبّرين والقوّام والأئمة والبوابين، وثمن الزيت والمصابيح، والحصر والبواري.
٥٠	نفقات السجون وثمن أقوات المسجونين.
١٠	نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما والقلوس، وأرزاق الجسّارين.
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق المتطببين والكحالين، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم، والبوابين والخبازين وغيرهم، وأثمان الطعام والأشربة والأدوية.
٥٠	أرزاق المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف والماصرين (الذين يتولون فض المشاجرات)
٦٩٨١	المجموع، قل ٧٠٠٠ دينار يومياً.

الفصل الرابع

العلوم الدينية

أولاً: العلوم القرآنية

١ ـ علم التفسير

هناك فرق بين التفسير والتأويل، فالتفسير أهم وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، بينما يستعمل التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية، بينما يستعمل التفسير فيها وفي غيرها. وقد أورد السيوطي آراء بعض علماء القرآن والتفسير في الفرق بينهما. فقال بعضهم إن التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معانٍ مختلفة، إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة. وقال آخرون إن التفسير كشف معاني القرآن وبيان المراد، وهو أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره، والتأويل أكثر في الجمل. والتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ، أو في وجيز تبيين الشروح، أو في كلام متضمن لقصة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها. وقال غيرهم إن التفسير هو القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فهو صحيح، وإلا فتفسير بالرأي. والتأويل ترجيح أحد المحتملات من دون القطع والشهادة على الله[١].

والتفسير اصطلاحاً، هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيها ومدنيّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامّها، ومطلقها ومقيّدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها[٢].

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٢ (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥١)، ج ٢، ص ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٤.

وجاء في كشف الظنون أن التفسير هو علم يُبحث فيه عن مراد الله تعالى من قرآنه المجيد بتفهم ألفاظه من حيث دلالتها على مراده تعالى على ما يُعلم أو يُظن بقدر الطاقة الانسانية[٣]. وهو أعم من التأويل وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، بينما التأويل أكثر استعماله في المعاني والجمل، وذلك بصرف الجملة إلى ما تحتمله من المعاني وترجيح أحد تلك الاحتمالات. ويمكن القول إن التفسير ينصبّ على اللفظ، والتأويل على المعنى[٤].

ولما كان القرآن الكريم أصل التشريع الاسلامي، فإن علم التفسير يعتبر أول العلوم الدينية. لقد نزل القرآن الكريم بأفصح لغات العرب وأكثرها تداولاً ومألوفاً، ولذا فإن معاني مفرداته، وتراكيبه، لم تكن تخفى على العرب في عهد نزوله إلا نادراً. فكان بعض الصحابة يستفسرون عن بعض أمور دينهم ودنياهم، وكان الرسول ﷺ يشرح لهم الآيات الخاصة بما يسألونه عنه، مفسّراً وموضحاً ما يستعصي على أفهامهم من بعض الكلمات والآيات، ويبيّن لهم الناسخ من المنسوخ وأسباب نزول الآيات. وكان الصحابة المقربون منه يحفظون أقواله فأخذوا بعد وفاته يروون ذلك ويشرحونه للسائلين والمستفسرين.

وعندما توسعت الدولة العربية وانتشر العرب في مختلف أرجائها، واعتنقت أقوام أخرى الدين الاسلامي، كان يصعب على أبناء هذه الأقوام فهم معنى كثير من الآيات القرآنية ومغزاها دون شرحها وتوضيحها. كما كان من نتائج اختلاط العرب بتلك الأقوام ان عرض لكثير من الألفاظ والكلمات التي كانت معروفة أيام نزول القرآن الكريم، وصارت غريبة على كثير من العرب أنفسهم، بعيدة عن أفهامهم، مما استلزم تفسيرها وتوضيح معانيها. ومن الطبيعي أن لا يتيسر هذا لمن يريد أن يتصدى لذلك ما لم يكن ملماً إلماماً كافياً بكلام العرب، متمكناً من اللغة العربية وأساليبها، لا سيما أن القرآن الكريم جاء على أعلى درجات البلاغة اللغوية وتفننها بمحاسن المجاز والكناية والاستعارة وغيرها من الأساليب البلاغية، غير أن علماء الفقه ورجال اللغة وبخاصة أهل المنقول منهم، تحرجوا أول الأمر من تفسير كلمات القرآن الكريم وآياته ورعاً وتقوى. فقد سأل رجل سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: «لان يسقط شِقّي احب إليّ من ذلك»[٥]. وكان الأصمعي عبد الملك بن قريب إمام اللغة والنحو «شديد الاحتراز في تفسير القرآن والسنة، فإذا سئل عن شيء منها يقول: العرب تقول معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو؟»[٦]. وقد سأله سائل عن معنى قول الرسول ﷺ جاءكم أهل اليمن وهم أبخع أنفساً، ما معنى أبخع؟ قال: يعني

---

(٣) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه محمد شريف يالتقايا ورفعت الكليسي، ٢ ج (استانبول: مطبعة الحكومة، ١٩٤١ - ١٩٤٣)، ج ١، ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٤.

(٥) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ٢، ص ١١٣.

(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٥.

أقتل، ثم اقبل متندماً على نفسه كاللائم لها»[7].

ولكن بعد ظهور الحاجة إلى تفسير كثير من الكلمات والآيات التي أخذ فهمها يستعصي على المسلمين من العرب والأعاجم، كما أشرنا آنفاً، شعر المتحرجون أن لا ضير من تفسير معاني كلمات القرآن الكريم، وتوضيح مغزى آياته. إلا أنهم رأوا عدم السماح بالقيام بذلك إلا لذوي العلم من الفقهاء واللغويين. وكان المقصود بالعلم هنا هو ما تتصل روايته بسند صحيح إلى الرسول ﷺ أو صحابته المقربين ممن كانوا يعنون بشؤون العقيدة. وبهذا اقتصرت طليعة المفسرين على التفسير اللغوي المحض، أو ما يستند إلى حديث أو عمل وارد عن الرسول ﷺ أو صحابته، وليس إلى التأويل والاجتهاد. وقد استطاع الشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١٠ أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث تدور حول تفاسير الرسول ﷺ في كتاب سمّاه الدر المنثور في التفسير المأثور.

وبمرور الزمن وازدياد الحاجة إلى التبسيط والتوضيح، وللتقدم الحضاري الذي صار العرب إليه، لم يعد هؤلاء المفسرون يقتصرون على ذلك، بل أخذوا يستعينون بالشعر لما قبل الاسلام وبعده، وبالأمثال العربية وببعض ما ورد في الكتب المقدسة الأخرى. بل إن بعض العلماء المفسرين تجاوزوا هذا الحرج باجتهادات مقبولة تعتمد على الرأي أكثر من اعتمادها على الرواية، كما فعل المفسرون من فقهاء المعتزلة. ويبرر الطبري جواز تفسير القرآن بأن من المحال أن يُطلب ممن لا يفهم ما يُقال له أو يقرأه ولا يعرف تأويله، أن يعتبر بما لا يفهمه، إلا على معنى الأمر بأن يتفهمه ويفقهه، ومن ثم يتدبره ويعتبر به، ومن المحال أن يقال ذلك لبعض الأقوام الذين لا يعرفون كلام العرب ولا يفهمونه إلا بعد العلم بمنطقه ومعانيه[8].

ويعزو ابن خلدون ظهور علم التفسير وتطوره إلى التقدم الحضاري الذي صار العرب إليه بحيث احتاجوا إليه، وبخاصة عندما صارت علوم اللسان صناعة. وهو يصنف التفسير إلى صنفين: أحدهما تفسير نقلي يعتمد على الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ومقاصد الآي. وكل ذلك لا يُعرف إلا بالنقل عن الصحابة والتابعين. وقد عُني المتقدمون بجمع ذلك المأثور، إلا أن منقولاتهم اشتملت على الغث والسمين والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب كانوا أول أمرهم تغلب عليهم البداوة والأمية، فإذا تشوقوا إلى معرفة شيء عن بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وأسباب المكوّنات وغيرها، سألوا عنها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ممن اعتنق الاسلام. فامتلأت التفاسير الأولى من منقولات هؤلاء في أمثال الأغراض المذكورة. والصنف الآخر من التفسير ظهر بعد ارتفاع مستوى العرب العلمي وركونهم إلى التحقيق والتمحيص، والرجوع فيه إلى اللسان

---

(٧) أبو البركات عبد الرحمن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، تحقيق عطية عامر (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٣)، ص ١٢٢.

(٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقّقه وعلّق حواشيه محمود محمد شاكر، راجعه وخرّج أحاديثه أحمد محمد شاكر، ط ٢، ٢ ج (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٣٥.

من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب. وهذا الصنف من التفسير قلّ أن ينفرد عن الصنف الأول الذي هو المقصود بالذات[9].

وكان علم التفسير كغيره من العلوم الأخرى قد نشط رجاله في هذا القرن فصنفوا فيه. فوضع عدد من مشاهير الفقهاء وعلماء اللغة تفاسير عديدة، أغلبها من الصنف الذي يلتزم بالموروث الذي رسخت أسسه وآدابه في هذا القرن. ومن أشهر هذه التفاسير: تفسير ابن دُكين أبي نُعيم الفضل بن دكين، المتوفى سنة ٢١٩ وهو محدث من شيوخ البخاري ومسلم، وكان اماميا وإليه تنسب الطائفة الدكينية، دعي إلى القول بخلق القرآن في أيام المأمون فلم يستجب[10]. وتفسير ابن أبي شيبة أبي بكر عبد الله، المتوفى سنة ٢٣٥ وقد لخصنا ترجمته في الفصل الخاص بالحديث[11]. وتفسير أبي يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي النخعي، وقد أوردنا خلاصة سيرته في موضوع الحديث[12]. وتفسير الأشج أبي سعيد عبد الله بن سعيد الكندي، المتوفى سنة ٢٥٧ وكان محدث الكوفة في أيامه[13]. وتفسير ابن ماجة أبي عبد الله محمد بن يزيد أحد أئمة علم الحديث، وقد ترجمنا له في الفصل الخاص بالحديث[14]. وتفسير الثقفي أبي اسحاق ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الكوفي الامامي، المتوفى سنة ٢٧٣[15]. وتفسير الدينوري أبي حنيفة أحمد بن داود، المتوفى سنة ٢٩٠ من أعلام القرن الثالث الموسوعيين[16]. وتفسير النسفي أبي اسحاق ابراهيم بن معقل بن محمد بن الحجاج قاضي نَسَف، وقد أشرنا إليه في موضوع الحديث[17]. وتفسير ابن سَلَمة المفضل بن سَلَمة بن عاصم، المتوفى سنة ٢٩٠ وهو عالم لغوي له عدد من الكتب في علم اللغة[18]. وتفسير الجبائي محمد بن عبد الوهاب، أحد رؤساء المعتزلة، وقد ذكرنا ترجمته في

---

(٩) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، ٧ ج (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(١٠) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (طهران: مكتبة الأسدي، ١٩٧١)، ص ٣٧، وخير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٢، ١٠ ج في ٥ (القاهرة: مطبعة كوستاتوماس، ١٩٥٤ - ١٩٥٥)، ج ٥، ص ٣٥٣.

(١١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٢) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٤٤٢.

(١٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٢، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٤) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٩.

(١٥) اسماعيل بن محمد أمين البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ ج (استانبول: وكالة المعارف العامة، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٣.

(١٦) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٧.

(١٧) البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤.

(١٨) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ١١٥.

الفصل الخاص بعلم الكلام[19]. وتفسير الانماطي ابراهيم بن اسحاق، المتوفى سنة ٣٠٣ وهو من كبار رجال الحديث[20]. وتفسير الزجّاج أبي اسحاق ابراهيم بن السري، المتوفى سنة ٣١١ من رجال اللغة والنحو[21]. وتفسير الكعبي أبي القاسم عبد الله بن أحمد الحنفي المعتزلي، المتوفى سنة ٣١٩ وقد أوردنا ترجمته في فصل علم الكلام[22]. وتفسير الأشعري علي بن اسماعيل إمام الأشعرية وقد ترجمنا له في فصل علم الكلام أيضاً[23].

أ ـ الطبري وتفسيره

وكان أبرز من صنَّف في علم التفسير دون منازع، في هذا القرن، هو الإمام الفقيه المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب ـ وقيل يزيد بن كثير بن غالب ـ ولد بآمل قاعدة طبرستان فنسب إليها. وكان أبوه من ذوي اليسار، وقد ورث الطبري عنه ضيعة واسعة في طبرستان اعتمد في معيشته عليها[24]. كان مولده في سنة أربع أو خمس وعشرين ومئتين، فسئل الطبري كيف وقع الشك في ذلك فقال: لأن أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين فأرخ مولدي بحدث كان في البلد، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون لي فقال بعضهم كان ذلك في آخر سنة أربع وقال آخرون بل كان أول سنة خمس[25].

ويظهر أن الطبري حفظ القرآن الكريم وسعى إلى طلب العلم بسن مبكرة، قال عن نفسه: حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين[26]. ولذا حرص أبوه على تشجيعه على طلب العلم والاستزادة من المعارف. ولما ضاقت به آمل رحل إلى مدينة الري فدرس الفقه العراقي على علمائها، وكتب عنهم شيئاً من الحديث. ثم رحل إلى العراق قاصداً الإمام أحمد بن حنبل، إلا أنه لما وصلها كان الامام أحمد قد انتقل إلى جوار ربه. وهذا يعني أن الطبري كان آنذاك في حدود السابعة

---

(١٩) المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٢٠) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٤٤٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ٢٥.

(٢١) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤١.

(٢٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٠.

(٢٤) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ٢، ص ١١٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٣٢، وشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦)، ج ٢، ص ٤٢٣.

(٢٥) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٢٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

عشرة من عمره، فلم تطل إقامته ببغداد، فأخذ سبيله إلى البصرة وسمع من شيوخها، ثم إلى الكوفة وأخذ من علمائها، ثم عاد إلى بغداد، ومنها غادر إلى مصر ماراً ببلاد الشام فوصل الفسطاط في سنة ٢٥٣، فاتصل بكبار علمائها وأخذ عنهم فقه الامام الشافعي. ويقول الطبري: «لما دخلت مصر لم يبق احد من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به، فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيء من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: عليَّ قول الا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غدٍ فَصِرْ إليَّ. وطلبت من صديق لي العروض للخليل بن أحمد فجاء به، فنظرت فيه ليلتي فامسيت غير عروضي وأصبحت عروضياً»[٢٧]. وبعد أن تردّد مرة بين بغداد والفسطاط والشام وطبرستان وراء رجال اللغة والنحو وشيوخ الفقه والمحدثين والقراء، عاد الطبري إلى مدينة السلام وقد نال قسطاً كبيراً من المعرفة والعلم بالقرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر. ولما عاد إلى مدينة السلام لآخر مرة واستقر بها نزل في قنطرة البردان، واشتهر اسمه بالعلم وشاع خبره بالفهم والتقدم[٢٨].

أجمعت المصادر التراثية على علو كعب الطبري في علوم زمانه وبخاصة علوم القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو. قال عنه ابن النديم: «علاّمة وقته وامام عصره وفقيه زمانه... كان متفنناً في جميع العلوم: علوم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه، كثير الحفظ»[٢٩]. وقال الخطيب البغدادي: «كان أحد أئمة العلماء، يُحكى بقوله ويُرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره. وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين»[٣٠]. وقال ياقوت الحموي: «كان أبو جعفر من الفضل والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه، لجمعه من علوم الاسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة، ولا ظهر في كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له. وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءات، وعلم التاريخ من الرسل والخلفاء والملوك، واختلاف الفقهاء... وكان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقائق الأفعال ما دلّ عليه كتابه في آداب النفوس»[٣١]. وقال ابن خلكان: «كان اماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك. وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة معرفته وغزارة فضله»[٣٢].

وكان أبو جعفر إلى جانب ما ذكر، قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة، وفي الطب. «وكان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب. وكان عاملاً للعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً على غيرها»[٣٣].

---

(٢٧) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٢٨) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٣٥.

(٢٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٣٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٢، ص ١٦٣.

(٣١) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٤٣٧.

(٣٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٣٢.

(٣٣) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

كان الطبري يذهب إلى ما عليه الجماعة من السلف ماضياً في منهاجهم متمسكاً بالسنن شديداً على مخالفيها، وهو يذهب إلى مخالفة أهل الاعتزال فيما خالفوا فيه الجماعة من مقولاتهم[٣٤]. وقد انعكست عقيدته هذه على كتابه في التفسير المسمى: **جامع البيان عن تأويل القرآن** الذي بناه على أساس المأثور مما يثبت عن صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم من الروايات الموثقة المطردة التسلسل في الرواية. وقد وضعه في ٣٠ جزءاً، جعل الجزء الأول منها مقدمة مسهبة تكلم فيها على الإعجاز في القرآن، وطرق القراءات، وتفسير أسماء السور، وناسخ الآيات ومنسوخها، وأحكام القرآن. وأوضح فيها الأساس الذي بنى عليه تفسيره، والطريقة التي انتهجها فيه. وذكر أسباب التحرج من تفسير القرآن الكريم، وبين المقصود مما ورد من النهي عن تأويله، ومما ورد في جواز تفسيره، وعدد أوجه هذا الجواز والأسباب المبررة لذلك[٣٥].

وقد تميَّز الطبري في تحريه الدقة في نقل الروايات المختلفة وانتقاد ما يراه من ضعف في الرواية أو نقص في التفسير. ولم يكن يركن إلا إلى ما يرتضيه العقل والمنطق وما يجمع عليه الرواة. وقد اعتبر آيات القرآن الكريم من حيث تفسيرها ثلاثة أصناف في ضوء ما روي عن عبد الله بن عباس أن تفسير القرآن على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، ووجه من التفسير لا يعوز أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعرفه إلا الله. فجعل الطبري الصنف الأول هي الآيات التي لا سبيل للوصول إلى تفسيرها، وهي التي استأثر الله جلَّ شأنه بعلمها، وحجب ذلك عن جميع عباده، كالروح والنفخ في الصور وموعد الساعة وما أشبه ذلك. ويتناول الصنف الثاني ما خصّ الله تعالى النبي ﷺ بعلم تفسيرها وتأويلها دون سائر أمته، ولا سبيل إلى العلم بها إلا ببيان الرسول ﷺ وتأويله لها. أما الصنف الثالث فقد شمل ما كان عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن الكريم، وهو تأويل عربيته معنى وإعراباً، وذلك يتم من قبل أهل اللغة. ولذا فإن أحقّ المفسرين في تأويل آي القرآن الكريم وأوضحهم حجّة فيما تأول وفسَّر من كان تأويله إلى رسول الله ﷺ من أخباره الثابتة عنه بالطرق المقبولة، أو ما كان مدركاً علمه من جهة اللسان مدللاً بالشواهد من الاشعار والأقوال. على أن لا يكون تأويله وتفسيره خارجاً عما تأوّله السلف وفسروه[٣٦].

ومما ساعد الطبري على النهوض بهذا العمل الكبير معرفته بعلوم اللغة العربية وأساليبها على اختلاف مدارسها، واطلاعه الواسع على الشعر العربي القديم، وتخصصه بعلوم الفقه والحديث، وإحاطته التامة بالقراءات. وسبق أن أشرنا إلى أهمية العلم واللغة في التفسير، وقد اجتمعا في الطبري، مما جعل تفسيره جماع التفسير المأثور.

ويقال إنه قدَّر لتفسير القرآن الكريم ثلاثين ألف ورقة إلا أنه اختصره في نحو ثلاثة

---

(٣٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٥٣.
(٣٥) الطبري، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١، ص ٣٥ - ٣٦.
(٣٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١.

آلاف ورقة، لأن ذلك العدد الكبير من الأوراق مما تقصر عنه الأعمار[٣٧]. وقد نال تفسير الطبري شهرة واسعة، وامتدحه العلماء والفقهاء على مر العصور وأجمعوا على أنه أجل التفاسير وأعظمها، لم يُصنّف مثله، بحيث لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل عليه لم يكن ذلك كثيراً[٣٨]. وقد طبع لأول مرة كاملاً بثلاثين جزءاً بالمطبعة الأميرية ببولاق بمصر في سنة ١٣٢٢[٣٩].

٢ ـ علم القراءات

هو علم يُبحث فيه عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وهو مرتبط بعلوم اللغة العربية. والغرض منه ضبط هذه الاختلافات صوناً لكلامه تعالى من أن يتطرق إليه التحريف والتغيير، وقد يُبحث فيه أيضاً نظم الكلام من حيث الاختلافات غير المتواترة الواصلة حد الشهرة المروية عن الآحاد الموثوق بهم[٤٠]. ويقول ابن خلدون عن نشوء علم قراءة القرآن: «القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الأمة . . . رووه عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها. وتنوقل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة . . وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراء، لا تقوى قوتها في النقل. وهذه القراءات السبع معروفة في كتبها . . . ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى أن كتبت العلوم ودونت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة مخصوصة وعلماً منفرداً وتناقله الناس»[٤١].

ومن الواضح أن غاية علم القراءات التوصل إلى قراءة القرآن الكريم بالنص الذي أوحي به إلى الرسول ﷺ وعدم السماح بتغيير قراءته بشكل قد تسمح به اللهجات العربية المعروفة عند نزوله، أي عدم إقرار ما لم تثبت قراءته على عهد الرسول ﷺ. لأن معاني الكلمات قد تتغير بتغير قراءتها بسبب خاصية الحرف العربي. فالكلمة الواحدة قد تقرأ بأكثر من شكل واحد تبعاً لوضع التنقيط والشكل. وذلك بسبب سعة اللغة العربية في وضع الكلمة وهيئتها مما يؤدي إلى اختلاف في قراءتها ومن ثم اختلاف في معانيها. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك واعتبر رسم الحروف، أي أوضاع حروف القرآن ورسومها الخطية، من أسباب اختلاف القراءات. لأن هناك حروفاً رسمت على غير المعروف كزيادة الألف أو الواو إلى بعض الكلمات، أو حذفها منها[٤٢].

---

(٣٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٢٥.

(٣٨) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٤٣٧.

(٣٩) يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ص ١٢٣١.

(٤٠) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣١٧.

(٤١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٨.

(٤٢) المصدر نفسه.

وهنالك عامل آخر أثّر في اختلاف القراءات، وهو «أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف ـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً عن الصحابة بشرط موافقة الخط»[43]، مما أدى إلى بعض الاختلافات في قراءة قراء الأمصار. وكان ذلك من أهم العوامل التي استدعت إعجام المصحف وشكله، للمحافظة على أداء قراءته على الوجه الذي نزل به دونما تغيير.

يقول السيوطي إن كيفيات القراءة ثلاث: الأولى (التحقيق) وهو إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد وتحقيق الهمزة، وإتمام الحركات واعتماد الإظهار والتشديدات، وبيان الحروف، وتفكيكها، وإخراج بعضها من بعض بالسكوت والترتيل والتؤدة، وملاحظة الجائز من الوقوف بلا قصر ولا اختلاس ولا اسكان محرَّك ولا إدغامه. والثانية (الحَدْر) وهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر والتسكين والاختلاس والبدل والإدغام الكبير وتخفيف الهمزة ونحو ذلك مما صحّت به الرواية مع مراعاة إقامة الإعراب وتقويم اللفظ. والثالثة (التدوير) وهو التوسط بين التحقيق والحدر وهو الذي ورد عن أكثر أئمة القراءة ممن مد المنفصل ولم يبلغ فيه الإشباع، وهو مذهب سائر القراء والمختار عند أكثر أهل الأداء. وواضح أن الفرق بين التحقيق والترتيل أن التحقيق يكون للتمرين والتعليم، والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط، وعلى هذا فكل تحقيق ترتيل، وليس كل ترتيل تحقيقاً[44].

وقد استقر منذ مطلع القرن الثاني سبع قراءات، تختلف عن بعضها في قراءة بعض الأحرف، وقد نسب كل منها إلى من اشتهر بروايتها من كبار القراء، وهم[45]: عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي أبو عمران، المتوفى سنة ١١٨. وعبد الله بن كثير (أبو سعيد) المكي المتوفى سنة ١٢٠، وعاصم بن أبي النجود بهدلة، أبو بكر الأسدي الكوفي، المتوفى سنة ١٢٧، وأبو عمرو بن العلاء واسمه زبّان بن العلاء بن عمار البصري التميمي المتوفى سنة ١٥٤، وحمزة بن حبيب بن عمارة التيمي الكوفي الملقب بالزيات، المتوفى سنة ١٥٦، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي المدني، المتوفى سنة ١٥٦، وعلي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي الملقب بالكسائي، المتوفى سنة ١٨٩.

يتضح مما تقدم أن القراءات المذكورة إنما هي اختلاف في صورة بعض الكلمات، وليس بزيادة كلمة أو حذفها. هذا مع العلم أن تلك القراءات جاءت بروايات ضيِّقة السند يرويها واحد عن آخر، أي أنها بخبر واحد. وهي تقوم على مخالفة الرسم المتداول للقرآن الكريم، مما لا يوجب الالتزام بها لأنها «اجتهادات من القراء أنفسهم وليست متواترة عن النبي ﷺ فلو

---

(٤٣) أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن (النجف: المطبعة العلمية، ١٩٥٧)، ص ١١٦.

(٤٤) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٠٠.

(٤٥) اعتمدنا في تثبيت أسمائهم وتواريخ وفياتهم على: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم؛ أبومحمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، حقّقه وقدّم له ثروت عكاشة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٠)، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان.

ورد اعتراض على إحدى القراءات كان ذلك دليلاً على بطلان تلك القراءة نفسها، دون أن يمس بعظمة القرآن وكرامته»[٤٦].

ومما يجب ملاحظته أن هذه القراءات السبع لا تمثل الأحرف السبعة التي وردت فيما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: انزل القرآن على سبعة أحرف. وإنما هي، كما قلنا، اجتهادات القراء الذين نسبت إليهم. وذلك أن كلاً منهم اختار أن يقرأ القرآن بطريقة اعتبرها أحسن من غيرها، فعرفت باسمه. ويظهر أن هذه القراءات كانت أكثر قبولاً من غيرها لدى الفقهاء وعلماء القرآن، لصوابها وصحتها، بحيث أبيح القراءة بها في الصلاة.

أ ـ أشهر القراء

لقد كان من مظاهر النهضة العلمية العربية في القرن الثالث الاهتمام بقراءات القرآن الكريم، فبرز عدد من القراء اشتهروا بجودة قراءتهم والتزامهم بالقراءات الموروثة. غير أن بعضهم اجتهدوا في قراءتهم رغبةً في التجديد، بحيث صار لبعضهم قراءة خاصة بهم، مما زاد في عدد القراءات. ولهذا انبرى عدد من العلماء لتصنيف الكتب بتلك القراءات وضبطها، بحيث تم في أوائل القرن التالي حصر القراءات المسموح بها بالقراءات السبع فقط. فلا يسمح لأحد من القراء بأي تغيير في أصولها وقواعدها، وإذا ما قرأ أحد بما يخالف تلك القواعد استتيب، فإن تاب وتعهد بعدم الخروج على تلك القراءات المألوفة عفي عنه، وإلا عوقب بصرامة.

وفيما يلي خلاصة بسيرة المشهورين من قراء القرن الثالث وطريقتهم التي اتخذوها في القراءة، ثم نذكر أهم من صنّف في علم القراءات:

(١) قالون

أبو موسى عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى، من أهل المدينة، رومي الأصل من موالي الأنصار[٤٧]. قرأ على نافع أحد القراء السبعة، ومهر في قراءته، وصار إماماً فيها فبعد صيته وقصده طلاب الإقراء من بلدان مختلفة[٤٨]. ورغم أنه أصم الأذنين فقد كان يستمع إلى طلابه ويميز الخطأ واللحن من حركات شفاههم أو بأن يقرأ القارىء منهم في اذنه مباشرة[٤٩]. وروي عنه أنه قال عن سبب تسميته بقالون، إنه كان إذا قرأ على أستاذه نافع قال له: قالون

---

(٤٦) الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٦٠.

(٤٧) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤٨) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٤٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٠٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٥، ص ٢٩٧.

قالون، أي جيد بلغة الروم، لجودة قراءته واتقان أدائه. وإنما كان نافع يكلمه بذلك تلطيفاً له باعتبار أصله من الروم[50].

وعُمِّر قالون طويلاً واختلف في سنة وفاته. يقول ياقوت الحموي إنه توفي سنة ٢٠٥ في أيام المأمون، بينما يعتبره أبو المحاسن من وفيات سنة ٢٢٠، ويقول السيوطي إنه توفي في أيام المعتصم بالله. وقد ثبَّت قاموس الاعلام وفاته في سنة ٢٢٠[51].

(٢) خلف البزار

أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب الأسدي البغدادي. ويقال هشام بن طالب. أصله من فم الصِلح، صار إلى مدينة السلام فنشأ بها. سمع الحديث على محدثي زمانه منهم القاضي شرِيك بن عبد الله النخعي الفقيه المحدث، وحماد بن زيد البصري، وأخذ القراءة عن سليم بن عيسى الكوفي أخص أصحاب حمزة وأضبطهم[52].

كان خلف البزار ثقة في رواية الحديث، روى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو زرعة المحدث الدمشقي، إلا أن بعض أحاديثه تعرضت للطعن، فقال بعض منتقديه: خلف البزار لم يكن يدري إيش الحديث، إنما هو يبيع البزر[53]. وقد اجتهد خلف في قراءة القرآن الكريم وخالف حمزة ببعض الحروف، وصارت له قراءة خاصة به نسبت إليه، وقد وضع كتاباً في القراءات. وكان خلف، إضافة إلى علمه، سمح الأخلاق نبيلاً مع طلابه الذين كانوا يدرسون القراءة عليه.

وكاد خلف البزّار أن يعتبر في عداد الفقهاء لولا اعتياده شرب النبيذ، وقد تركه بعد أربعين عاماً عندما لامه ابن أخته الذي كان يقرأ عليه، وألزم نفسه بالعبادة وإعادة صلاة المدة الطويلة التي كان مدمناً فيها على الشرب[54].

توفي خلف ببغداد في جمادى الآخرة سنة ٢٢٩، ويقال إنه مات مختفياً خوفاً من أن يمتحن بالقول بخلق القرآن[55].

---

(٥٠) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، والزركلي، المصدر نفسه.

(٥١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٠٣؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٥؛ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩)، ص ٣٤٠؛ والزركلي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٩٧.

(٥٢) ابن النديم، الفهرست في اخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٥٣؛ والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٣٢٥.

(٥٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٢٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٢٦.

(٥٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٢٧؛ ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٣) ابن سعدان

أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير النحوي المقرىء، بغدادي المولد كوفي النشأة، كان معلماً لصبيان العامة، وقد أخذ بقراءة حمزة عن سليم بن عيسى وصار ثقة بها. ثم اختار لنفسه قراءة ففسد عليه الأصل والفرع[٥٦]. وقد طوّف في البلدان طلباً للقراءة، فأخذ عن قرّاء مكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة، وكان ذا علم بالنحو واللغة، فألمّ بمختلف القراءات وتعرف على أوجه الخلاف بينها[٥٧]. ولعل هذا مما ساعده على أن يحاول الانفراد بقراءة خاصة به.

صنف ابن سعدان كتباً في النحو وفي القراءات، ومن كتبه، كتاب القراءات ويضيف أبو البركات الأنباري كتاب في معرفة القرآن[٥٨].

توفي ابن سعدان في يوم عرفة من سنة ٢٣١[٥٩].

(٤) يوسف بن عمرو

أبو يعقوب الأزرق صاحب ورش، كان مقرىء ديار مصر في زمانه، واسمه يوسف بن عمرو بن يسار المدني المصري، لزم ورشاً، وهو عثمان بن سعيد بن عدي من كبار قراء مصر، أخذ القراءة عن نافع[٦٠]. فاتقن يوسف عنه الأداء وخلفه في الاقراء بالديار المصرية. ثم انفرد عنه بتغليظ الراءات وترقيق اللامات، وسادت قراءته أهل مصر والمغرب، وقد توفي سنة ٢٤٠[٦١].

(٥) حفص الدوري

حفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهيب، أبو عمر الأزدي الدوري نسبة إلى الدور وهي محلة بالجانب الشرقي ببغداد، نزل سامراء وسكنها، وكان عالماً محدثاً سمع الحديث

---

(٥٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٠، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ١٢.

(٥٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢.

(٥٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٠؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه احمد زكي (مصر: المطبعة الجمالية، ١٩١١)، ص ٢٥٢، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ١٠٤.

(٥٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٠؛ الصفدي، المصدر نفسه، ص ٢٥٢، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٢ وفيه: مات يوم عيد الأضحى.

(٦٠) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٣.

(٦١) أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢ ج (بيروت: المكتبة التجارية للطباعة والنشر، [د.ت.])، ج ٢، ص ٩٥.

ورواه، وكتب عنه الإمام أحمد بن حنبل[٦٢]. وحدَّث عنه ابن ماجة وأبو زرعة[٦٣].

ويعتبر حفص الدوري إمام القراء في زمانه، رحل في طلب الحديث والقراءة فدرس على اسماعيل بن جعفر المدني، المتوفى سنة ١٨٠، قارىء أهل المدينة، وعلى سليم بن عيسى الكوفي، والكسائي، إلا أنه مال إلى قراءة الكسائي فصار ثقة فيها ضابطاً لها، فاشتهر بها وأخذ يدرِّسها[٦٤]. ويقال إنه أول من جمع القراءات وألفها. فقصده الطلاب من الآفاق وازدحم عليه الحذاق لعلو سنده وسعة علمه. وقد صنف كتاباً في القراءات، وذهب بصره في أواخر عمره[٦٥].

ويظهر مما ذكره الخطيب أن أبا عمر الدوري تعرض للمحنة فلم يجب، إذ يقول: وسئل عما يقوله في القرآن، فقال: كلام الله غير مخلوق[٦٦]. وذكر له ياقوت الحموي من مصنفاته في علوم القرآن: كتاب ما اتفقت ألفاظه ومعانيه من القرآن، وكتاب أجزاء القرآن[٦٧].

توفي حفص في شوال سنة ٢٤٦[٦٨].

(٦) محمد بن يزيد

أبو هشام محمد بن يزيد بن محمد بن كثير الرفاعي، الفقيه المحدِّث، ولي القضاء ببغداد في سنة ٢٤٢ وكان عالماً بالأحكام، ومحدثاً صدوقاً روى عنه البخاري عدداً من الأحاديث، كما كان أحد أعلام القراء في زمانه، حافظاً للقراءات، وقد توفي ببغداد في سنة ٢٤٨ ويقال سنة ٢٤٩ وكان لا يزال على قضائها[٦٩]. ومن مصنفاته كتاب في القراءات[٧٠].

(٧) محمد بن حماد

أبو بكر محمد بن حماد بن بكر المقرىء صاحب خلف بن هشام، وقد قرأ عليه القرآن

---

(٦٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٢٠٣، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٨.

(٦٣) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ١٤٦.

(٦٤) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٣، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٨.

(٦٥) الصفدي، المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(٦٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٣.

(٦٧) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٤، ص ١١٨.

(٦٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠٤؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٨؛ الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ١٤٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٦٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٧٠) المصدر نفسه، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٥.

وسمع منه الحديث، فكان أحد القراء المجيدين، صالحاً تقياً، بحيث كان الإمام أحمد بن حنبل يجلّه ويكرمه ويصلي خلفه في شهر رمضان وغيره[٧١]. وقد لزم الاستقامة على الخبر وضبط الحروف ـ فكان محافظاً لا يغير ما تعلمه من طريقة القراءة[٧٢].

توفي ابن حمّاد بمدينة السلام يوم الجمعة لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٦٧. ودفن بمقابر التبانين[٧٣].

(٨) قُنْبُل

اسمه محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن خالد المخزومي المكي، أبو عمر، وقُنْبل لقب غلب عليه، أخذ القراءة عن عبد الله بن كثير المكي وكان من جلة أصحابه وراويته الذي نشر قراءته[٧٤]. وإليه انتهت رياسة الاقراء بالحجاز في أيامه، وكان متقناً ذاع صيته، فرحل إليه طلاب القراءة من أقطار مختلفة. وممن قرأ عليه ابن مجاهد أبو بكر احمد بن موسى. وقد قطع قنبل الإقراء قبل موته بعدة سنين لأنه اضطرب وخلط في القراءة.

وكانت وفاته في سنة ٢٩١ عن ست وتسعين سنة[٧٥].

(٩) ابن مجاهد

أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المقرىء، كان شيخ القراء في وقته والمقدم منهم على عصره. سمع الحديث، وكان محدثاً ثقة مأموناً، وقيل عنه: ما بقي في عصرنا هذا أحد أعلم بكتاب الله من أبي بكر بن مجاهد[٧٦]. وصنف في القراءات عدداً من الكتب هي: كتاب القراءات الكبير، وكتاب القراءات الصغير، وصنّف ثمانية كتب أخرى أولها خاص بقراءة النبي ﷺ والسبعة الباقية يختص كل واحد منها بأحد القراء السبعة[٧٧].

ويظهر مما رواه ابن الخطيب أن أبا بكر كان يحسن الغناء أيضاً. فقد حضر مع بعض

---

(٧١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٧٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧١، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩)، ج ٥، ص ٦١ ـ ٦٢.

(٧٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٢؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦١، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٤٣.

(٧٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٢٠٧. إلا أن ابن كثير قد توفي سنة ١٢٠، وأن قنبلاً ولد في سنة ١٩٥، وقد يقصد انه أخذ بطريقته وقرأ على قراءته.

(٧٥) المصدر نفسه، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ٦٢.

(٧٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٧٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٥٣.

أصحابه دعوة، فأخذ قضيباً وقَّع به واندفع يغني، فغنى نيفاً وأربعين صوتاً في غاية الحسن والطيبة والإطراب، فأشجى الحاضرين وحيرهم[78].

توفي ابن مجاهد يوم الأربعاء وقت العصر ودفن يوم الخميس لعشر بقين من شعبان سنة ٣٢٤[79].

(١٠) ابن شَنَبُوذ

محمد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ بن الصلت أبو الحسين البغدادي. قرأ على محمد بن أحمد العنبري، والزبير بن محمد بن عبد الله العمري المدني صاحب قالون، وغيرهما، وقرأ القرآن ببغداد سنين وقرأ عليه كثيرون[80]. وقد اشتهر رغم أنه كان كثير اللحن قليل العلم، ومع هذا أباح لنفسه أن يتفرد بقراءات من الشواذ[81]. ويظهر أنه اتخذ ذلك وسيلة للشهرة. إلا أن القراء أنكروا عليه قراءاته، فبلغ أمره الوزير ابن مقلة محمد بن علي في عهد الخليفة الراضي، فأمر بإحضاره ومناظرته، فناظره جماعة من القراء على رأسهم ابن مجاهد كبير العلماء بالقراءات في زمانه، بحضور الوزير والقاضي أبي الحسن عمر بن محمد، فأغلظ في الخطاب واتهم مناظريه بقلة العلم والجهل بالقراءات وأصولها وأنهم لم يسافروا مثله في طلب العلم، فأمر الوزير بضربه، ثم استتابه، فتاب. فكتب عليه محضراً ذكر نصه ابن النديم وابن خلكان، ويتضمن الآيات القرآنية التي سئل عن قراءتها فاعترف بها. ثم أخذ منه التعهد التالي نصه: «يقول محمد بن احمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ: ما في هذه الرقعة صحيح وهو قولي واعتقادي، واشهد الله تعالى وسائر من حضر على نفسي بذلك، وكتب بخطه، متى خالفت ذلك أو بان مني غيره فأمير المؤمنين في حلٍّ من دمي وسَعَة، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وثلاثمئة، في مجلس الوزير أبي علي محمد بن علي بن مقلة أدام الله توفيقه»[82]. ويقول ابن النديم «وأخذ خطه بالتوبة فكتب: يقول محمد بن أحمد بن ايوب قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه والذي اتفق أصحاب رسول الله ﷺ على قراءته ثم بان لي أن ذلك خطأ وأنا منه تائب وعنه مقلع وإلى الله جل اسمه منه بريء إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه ولا يقرأ غيره»[83].

مات ابن شنبوذ ببغداد في يوم الاثنين لثلاث خلون من صفر سنة ٣٢٨، وهناك قول

---

(٧٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٧.

(٧٩) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٥٨.

(٨٠) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٧، وفي: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٢٦، يكنيه: أبو الحسن.

(٨١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٥٣ - ٥٤، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٢٦.

(٨٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٢٧.

(٨٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥٤.

إنه مات في الحبس[٨٤]. وله كتاب ما خالف فيه ابن كثير أبا عمرو في القراءات[٨٥].

ب ـ كتب في القراءات

صنفت في خلال هذا القرن كثير من الكتب التي تبحث في طرق القراءات وأصحابها، ومن أهم من صنّف فيها من مشاهير علماء هذا القرن:

أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي البغدادي، كان له ما ينيف على عشرين مصنفاً في مختلف المواضيع، منها كتاب القراءات وجاء في كشف الظنون أنه أول ما صُنّف من الكتب المعتبرة في القراءات. وكان جعل القراء فيه خمسة وعشرين قارئاً مع السبعة المشهورين[٨٦].

وأبو محمد خلف البزّار، وقد سبق أن ذكرنا شيئاً عن سيرته. ويظهر مما ذكره ابن النديم أن البزّار صنّف كتابين في القراءات: كتاب القراءات، وكتاب الوقف والابتداء[٨٧].

ومحمد بن يزيد بن محمد بن كثير، أبو هشام الرفاعي الكوفي. كان حافظاً للقراءات وله من التصانيف كتاب في القراءات[٨٨].

وأبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان الجشمي البصري، العالم الثقة في علوم القرآن واللغة والشعر، وهو أستاذ المبرّد، كان كثير التصانيف منها: كتاب في القراءات، وهنالك خلاف في سنة وفاته بين سنة ٢٤٨ وسنة ٢٥٠ و٢٥٥، وقد اعتبره قاموس الأعلام من وفيات سنة ٢٤٨[٨٩].

وابن قتيبة عبد الله بن مسلم، ذكر له ابن النديم كتاباً في القراءات[٩٠]. وقد ذكره ابن قتيبة نفسه في كتابه المطبوع مشكل القرآن[٩١].

---

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٥٣؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٢٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٦٧.

(٨٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥٤، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٣٥.

(٨٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١١٢، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٤٤٩.

(٨٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٨٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٧٥ و٣٧٧، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٨، ص ١٥٨.

(٨٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ٩٣؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٤، ص ٢٥٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ١٥١ ـ ١٥٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٣٢، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢١٠.

(٩٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٩١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق السيد احمد صقر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤)، ص ٤٥.

واسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حمّاد الأزدي، وكان علماً في فقه الإمام مالك بن أنس، وقد تولى قضاء بغداد بجانبيها، ومن مصنفاته: كتاب في القراءات، وجاء في كشف الظنون أنه جمع فيه عشرين إماماً منهم السبعة[92].

والمبرِّد محمد بن يزيد إمام البصريين في النحو، صنَّف كتاباً بعنوان احتجاج القراءة كما ذكره ابن النديم، أو احتجاج القراء وإعراب القرآن كما ذكره ياقوت الحموي[93].

وثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه، من مصنفاته كتاب القراءات[94].

والطبري محمد بن جرير الفقيه المؤرخ، كان بين مصنفاته كتاب في القراءات سمّاه الجامع قال عنه ياقوت الحموي: «وله كتاب في القراءات جليل كبير، رأيته في ثماني عشرة مجلدة، إلا أنه كان بخطوط كبار. ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ، وعلل ذلك وشرحه. واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور، ولم يكن منتصباً للإقراء، ولا قرأ عليه أحد إلّا آحاد من الناس»[95].

ونفطويه ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي الواسطي، من كبار علماء النحو واللغة وآدابها، من مصنفاته كتاب الاستثناء والشروط في القراءات[96].

٣ ـ علم التجويد

ومما له علاقة بقراءة القرآن الكريم، علم التجويد، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها برد الحرف إلى مخرجه وأصله، وتلطيف النطق به على كمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف[97]. وترتيل النظم المبين بإعطاء حقه من الوصل والوقف والمد والقصر والإدغام والإظهار والإمالة والتفخيم والترقيق وغيرها. والتجويد كالموسيقى لا يكفي العلم فيه بل هو ملكة خاصة تمكن صاحبها من الأداء[98].

وأول من صنَّف في موضوع التجويد المقرىء أبو مزاحم موسى بن عبيد الله بن

---

(٩٢) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٧، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٤٤٩.

(٩٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٤، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٣.

(٩٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٧؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٢، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ١٤٣.

(٩٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٤١، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٢٧ و٤٤١.

(٩٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢٧، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣١١ وفيه الاستثناءات والشرط.

(٩٧) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٠٠.

(٩٨) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٣٥٣.

خاقان، المتوفى سنة ٣٢٥ وكان عالماً باللغة وأديباً شاعراً، وله قصيدة في التجويد[٩٩]. وذكر له صاحب هدية العارفين: القصيدة الخاقانية في التجويد[١٠٠]. وقد تكون هي القصيدة المذكورة.

٤ ـ دراسات قرآنية أخرى

شهد القرن الثالث اهتماماً كبيراً بدراسة القرآن الكريم، فقامت إلى جانب علم التفسير وعلم القراءات وعلم التجويد، دراسات أخرى تتعلق بأحكامه، وفضائله، وإعجازه، ونظمه. كما تناولت دراسته لغوياً من حيث معانيه، وغريبه، ومتشابهه، ولغاته، وإعرابه، ونقطه وشكله. وقد صنف كبار العلماء والأدباء والفقهاء ورجال اللغة في هذه الموضوعات. فقد صُنّف في معاني القرآن الكريم عدة كتب منها كتاب معاني القرآن للعالم اللغوي سعيد بن مسعدة المجاشعي البصري المعروف بالأخفش الأوسط[١٠١]. وصنف في الموضوع نفسه كل من الفقيه العالم أبي عبيد القاسم بن سلّام[١٠٢]، والمفضّل بن سلمة العالم اللغوي، وله أيضاً كتاب ضياء القلوب في معاني القرآن وغريبه ومشكله[١٠٣]، ومحمد بن يزيد المبرِّد إمام اللغة والنحو في البصرة، ويعرف كتابه باسم الكتاب التام، وله كتاب آخر بعنوان كتاب الحروف في معاني القرآن[١٠٤]، وأحمد بن يحيى المعروف بثعلب إمام أهل الكوفة في اللغة والنحو[١٠٥]، وأبو اسحاق ابراهيم بن محمد الزجّاج من كبار أهل اللغة[١٠٦]، وابن قتيبة عبد الله بن مسلم الفقيه الأديب، وله كتاب آخر بعنوان كتاب تأويل مشكل القرآن[١٠٧]، والقاضي اسماعيل بن اسحاق الأزدي المالكي[١٠٨].

وصنّف في موضوع غريب القرآن كل من: ابن قتيبة عبد الله بن مسلم[١٠٩]، وهو متمم لكتابه تأويل مشكل القرآن، ومحمد بن سلّام الجمحي الأديب الراوية[١١٠]، وأبو عبيد

---

(٩٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٦١، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٨، ص ٢٧٥.

(١٠٠) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٤٧٨.

(١٠١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥٧.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٥٨ و٩٧.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١٢٢.

(١٠٨) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، حقّقه محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢ ج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، ج ١، ص ٤٤٣.

(١٠٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥٨.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ٥٨.

القاسم بن سلام(١١١)، ومحمد بن عزيز السجستاني الأديب المفسر(١١٢)، ويقال إنه صنفه في خمس عشرة سنة(١١٣)، ونفطويه ابراهيم بن محمد بن عرفة(١١٤).

وفي موضوع الناسخ والمنسوخ من الآيات القرآنية؛ صنَّف أبو عبيد القاسم بن سلام(١١٥)، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني(١١٦)، وجعفر بن مبشر بن أحمد الثقفي من علماء الكلام المعتزلة(١١٧)، وابن فضال محمد بن علي الكوفي من علماء الشيعة الإمامية(١١٨)، والإمام أحمد بن حنبل(١١٩)، والفقيه المحدث ابراهيم الحربي(١٢٠)، وأبو ثور ابراهيم بن خالد الكلبي صاحب الإمام الشافعي(١٢١).

وصنَّف في أحكام القرآن: الفقيه المالكي القاضي اسماعيل بن اسحاق الأزدي، وقد وضعه على مذهب الإمام مالك(١٢٢)، وأبو سليمان داود بن خلف الظاهري أحد الأئمة المجتهدين(١٢٣)، والقاضي يحيى بن أكثم التميمي وعنوان كتابه ايجاب التمسك بأحكام القرآن(١٢٤)، والفقيه الحنفي أحمد بن محمد الطحاوي(١٢٥)، ومحمد بن عبد الله بن الحكم المالكي المصري(١٢٦).

وصنف في موضوع فضائل القرآن؛ أبو عبيد القاسم بن سلام(١٢٧)، والفقيه المحدِّث محمد بن عثمان بن أبي شيبة(١٢٨)، والمقرىء حفص بن عمر الدوري(١٢٩)، والمقرىء خلف بن

---

(١١١) المصدر نفسه، ص ٥٨.
(١١٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.
(١١٣) ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٣١٤.
(١١٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢٧.
(١١٥) المصدر نفسه، ص ٦٢ و١١٣.
(١١٦) المصدر نفسه، ص ٦٢.
(١١٧) المصدر نفسه، ص ٦٢.
(١١٨) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٦٧.
(١١٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٢٠) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٢١) البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢.
(١٢٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٢٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج١، ص ٥٤.
(١٢٦) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ١٩٥.
(١٢٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٦١.
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٢٩) المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٣٩.

هشـام البـزّار[١٣٠]، وأبـو داود سليمان بن الأشعث[١٣١]، والـزرّاد الحسن بن محبـوب الكـوفي الإمامي[١٣٢].

وممن صنفوا في موضوع نظم القرآن: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[١٣٣]، وأبـو داود سليمان بن الأشعث[١٣٤]، ومحمد بن زيد بن علي الواسطي المتكلم المعتزلي ويسمى كتابه كتاب **اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه**[١٣٥].

وفي موضوع متشابه القرآن، أي الآيات المشتبهات ويقصد بها الخبر المروي في عدة صور، بأن يأتي في موضع مقدماً، وفي موضع آخر مؤخراً، أو في موضـع بزيـادة وفي موضع آخر من دونها، أو يأتي منفرداً أحياناً أو جمعاً أحياناً أخرى، إلى غير ذلك[١٣٦].

وقد اختلف الفقهاء في تعيين المحكم والمتشابه من الآيات على أقوال، منهـا أن المحكم من الآيات ما عُرف المراد منه بالظاهر أو بالتأويل. والمتشابه منها مـا استأثـر الله تعالى بعلمـه كقيام الساعـة والحروف المقطعة في أوائل بعض السور، وقيـل: المحكم مـا وضـح معنـاه والمتشابه نقيضه، وقيل: المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابـه بخلافـه، وقيل: المحكم هـو الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابـه هو القصص والأمثـال، وروي عن عبد الله بن عبـاس قوله: المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدود فرائضه وما يؤمن به ويعمل به، والمتشـابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به[١٣٧].

وصنف في هذا الموضـوع كل من أبي الهـذيل العـلاّف شيخ معـتزلة البصرة ومن كبـار علمائهم[١٣٨]، والمقـرىء خلف بن هشـام البـزار[١٣٩]، وجعفـر بن حـرب الهمـذاني من أئمـة المعتزلة[١٤٠]، وأبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبّـائي شيخ الـطائفة الجبـائية من المعـتزلة[١٤١]، وأبـو سهل بشر بن المعتمـر البغدادي من كبـار متكلمي المعـتزلـة وفقهـائهم[١٤٢]، والحسن بن موسى النوبختي من معتزلي الشيعة الإمامية ومن كبار علماء الكلام[١٤٣].

---

(١٣٠) المصدر نفسه.
(١٣١) المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ص ٣٣٨.
(١٣٢) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٦٦.
(١٣٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٨.
(١٣٥) المصدر نفسه، ص ٦٣ و٢٥٩.
(١٣٦) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٢٠٣.
(١٣٧) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢.
(١٣٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٦١.
(١٣٩) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٤٠) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٤١) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٤٣) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٦٨.

وفي موضوع اختلاف المصاحف، صنّف المقرىء خلف بن هشام البزار[144]، وأبو داود سليمان بن الأشعث[145]، وأبو حاتم سهيل بن محمد السجستاني[146].

أما فيما يتعلق بـ الجانب اللغوي من القرآن الكريم فقد صنّف في موضوع لغات القرآن ابن دريد محمد بن الحسن الأزدي من كبار علماء العربية[147]، والمؤرخ الهيثم بن عدي[148]. وفي إعراب القرآن صنّف كل من المبرِّد محمد بن يزيد[149]، وابن قتيبة عبد الله بن مسلم[150]، وأبو حاتم سهيل بن محمد السجستاني[151]، وثعلب أحمد بن يحيى[152]. وصنف في موضوع ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن المبرِّد محمد بن يزيد[153]. وصنّف الفقيه المالكي المحدث يعقوب بن شيبة بن الصلت كتاباً في هجاء المصحف[154]. وفي موضوع نقط القرآن وشكله صنف كل من: أبو حاتم السجستاني[155]، وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري[156]، وابراهيم بن سفيان الزيادي الأديب الراوية[157].

وصنّفت إلى جانب الكتب الخاصة بعلم القراءات، كتب أخرى ذات صلة بقراءة القرآن الكريم، منها في موضوع الوقف والابتداء في القرآن وقد صنّف فيه المقرىء النحوي ابن سعدان محمد الضرير[158]. ومنها كتاب وقف التمام صنفه الأخفش محمد سعيد بن مسعدة[159].

كما صنفت كتب عديدة أخرى في مواضيع شتى تتعلق بجوانب معينة من القرآن الكريم، منها كتاب المسائل في القرآن لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[160]، وكتاب

---

(١٤٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٦٠.
(١٤٥) المصدر نفسه، ص ٦٠.
(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(١٤٧) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٩٤.
(١٥٠) المصدر نفسه، ص ١٢٢.
(١٥١) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٣٣.
(١٥٢) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥٤.
(١٥٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٦١ و٩٤.
(١٥٤) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(١٥٦) المصدر نفسه، ص ٥٩.
(١٥٧) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٤٦٧.
(١٥٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٦٠.
(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٦٠.
(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٦٣.

المخلوق لعبد الوهاب بن محمد الجبائي[161]، وكتاب في أجزاء القرآن لحفص بن عمر الدوري[162]، وكتاب عدد آي القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام[163]، وكتاب الشواهد من القرآن لابن فضال أبو محمد حسن بن علي الكوفي[164]. وصنف المحدث ابن المديني علي بن عبد الله كتاباً في أسباب النزول، وجاء في كشف الظنون أنه أول من صنف في هذا الموضوع[165]. وصنف القاضي المالكي اسماعيل بن اسحاق كتاب حجاج القرآن[166].

ثانياً: الحديث النبوي

١ ـ علم الحديث

يتناول علم الحديث دراسة ما روي عن الرسول ﷺ من أقواله وأفعاله، وما أقرّ عليه قومه من أفعال لم ينكرها عليهم، وينقسم إلى قسمين، **الأول**: علم دراسة الحديث، ويشتمل على دراسة متن الحديث، بالبحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث المروي والغاية منه، بالاستناد إلى قواعد اللغة العربية وأسس الشريعة الاسلامية، ومطابقته أحوال الرسول ﷺ واتفاقه مع زمان ومكان قوله وفعله. **والثاني**: علم رواية الحديث، ويتناول دراسة سند الحديث المروي للتأكد من حقيقة روايته وصدقها، وكيفية اتصاله بالرسول ﷺ، والتعرُّف على رواته من حيث ضبطهم وعدالتهم، والتأكد من اتصال سنده وعدم انقطاعه. ويسمى **أصول الحديث**.

ظهر علم الحديث عندما ظهرت الحاجة إلى تدوين الأحاديث النبوية. فقد كان الاعتماد في روايته أول الأمر على ما كان يحفظه الصحابة وما أخذه عنهم تابعوهم والذين بعدهم، كما كان الأمر في حفظ القرآن الكريم. إلا أنه عندما انتشر العرب في الأمصار وتفرّق حفاظ الحديث وطوى الموت أغلبهم، شعر رجال الدين بالحاجة إلى تدوين الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ. وتفرغ قسم منهم للعمل في جمع الحديث من حفاظه والسعي وراءهم أينما كانوا، وتدوين ما يتأكدون من صحته. وقد تواضع أئمة الحديث على ضوابط ومقاييس لتحقيق ما تتناوله دراسة علم الحديث بقسميه الرئيسيين. فنشأ عن ذلك ما عرف بـ **علم أسماء رجال الحديث**، أي رواته، ومعرفة الثقات منهم والضعفاء في روايتهم، وصنفت فيه كتب عديدة، منها ما عني بالأسماء والكنى والألقاب، ومنها ما اهتم بالمؤتلف

---

(١٦١) المصدر نفسه، ص ٦٣.
(١٦٢) المصدر نفسه، ص ٦١.
(١٦٣) المصدر نفسه، ص ١١٢.
(١٦٤) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٦٧.
(١٦٥) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٧٦.
(١٦٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٩٦.

والمختلف، ومنها ما عني بالمتشابه، ومنها ما عني بالثقات والضعفاء من الرواة، ومنها ما جمع التراجم مطلقاً[١٦٧].

كما نشأ عن ذلك علم آخر هو علم الجرح والتعديل، أي جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ خاصة، وذلك حفاظاً على صحة الحديث لا طعناً في أشخاص الرواة. فقد جاء في مقدمة كتاب الجرح والتعديل، لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم المتوفى سنة ٣٢٧: انه لما لم يجد سبيلاً إلى معرفة شيء من معاني كتاب الله تعالى ولا من سنن رسول الله ﷺ إلا من جهة النقل والرواية وجب أن يُميّز بين العدول الناقلة وثقاتهم، وأهل الحفظ والثبت والاتقان منهم، وبين أهل الغفلة والوهم وسوء الحفظ والكذب واختراع الحديث الكاذب[١٦٨].

وقد صار لعلم الحديث أصول وأحكام وقواعد واصطلاحات ذكرها العلماء وشرحها رجال الحديث والفقهاء، ومن الضروري أن يلمّ بها طالب الحديث، منها: العلم بالرجال بالتعرف على أسمائهم وأعمارهم ووقت وفاتهم، وصفاتهم التي يجوز معها قبول روايتهم. والعلم بمستند الرواة وكيفية أخذهم الحديث وطرقه، ومعرفة حفظهم وايرادهم ما سمعوه، واتصاله إلى من أخذ عنه. والعلم بجواز نقل الحديث بالمعنى أو رواية بعضه والإضافة إليه. والعلم بالمسند من الحديث وشرائطه، والمرسل وأقسامه: المنقطع والموقوف والمعضل وغيرها. والعلم بأقسام الصحيح من الحديث والكذب منه، وانقسام الخبر إليهما وإلى الغريب والحسن وغيرهما. والعلم بأخبار التواتر والآحاد والناسخ والمنسوخ. وغير ذلك مما اتفق عليه أئمة الحديث.

وكانت أهم الصفات التي اشترط توفرها في الرواة هي: البلوغ، والعقل، والعدالة في الدين، والأمانة من السهو والزلل، وأن يكون الراوي صدوقاً موثوقاً به، كما اشترط في الرواية التأكد من السند بأن يكون متصلاً بالرسول ﷺ غير مرسل أو منقطع، والتأكد من صحة نص الحديث المروي، وأن يتفق مع زمان قوله ومكانه[١٦٩].

لقد حلّ القرن الثالث ورجال الحديث منهمكون في جمع ما صحّ عندهم منه في ضوء المقاييس والضوابط التي قررت في الأمور آنفة الذكر. وارتحل كثير منهم من بلد إلى آخر في طلب الأحاديث وسماعها من رواتها بحيث صار الارتحال من سماتهم. وقد تمثل الاهتمام بجمع الحديث وتدوينه في خلال هذا القرن بما قام به كبار المحدثين، وهم البخاري ومسلم وابن حنبل والترمذي وابن ماجة والنسائي وغيرهم. وقد تم على يد الإمامين البخاري ومسلم تدوين جميع الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ مما قطعا بصحته وتأكدا من سلامة روايته، ومتانة سنده. وتبعهما آخرون من أئمة هذا القرن، بحيث كان العمل فيه خلاصة ما تم في

---

(١٦٧) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(١٦٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

(١٦٩) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب القاضي، تحقيق محيي هلال السرحان (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١)، ج ١، ص ٣٩٨ و٤٠٣.

القرن الماضي، من تحصيل الحديث وضبطه وتدوينه. وقد سبق أن ألفت مجاميع ومسانيد قبل ذلك، أهمها موطأ الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ ومسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وغيرهما ممن سيأتي ذكره.

كما تعددت أوجه دراسة الحديث والتصنيف فيه في هذا القرن. فمنهم من صنف الأحاديث بحسب مواضيعها، منها ما له علاقة بالصلاة، ومنها ما يتصل بالزكاة، وغير ذلك. ومنهم من أثبت الأحاديث بحسب أسانيد روايتها فيذكر مسند أبي بكر الصديق ويثبت فيه كل ما روي عنه، ثم يذكر بعده الصحابة واحداً بعد واحد، كما فعل أبو اسحاق ابراهيم الحربي(١٧٠). ومنهم من استخرج أحاديث تتضمن ألفاظاً لغوية ومعاني مشكلة وقصر كتابه على ذكر متن الحديث وشرح غريبه وإعرابه ومعناه، كما فعل أبو عبيد القاسم بن سلّام وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة(١٧١). ومنهم من قصد ذكر الغريب دون متن الحديث فاستخرج الكلمات الغريبة ودوّنها مرتبة وشرحها، كما فعل أحمد بن محمد بن هارون الخلّال، المتوفى سنة ٣١١ في كتابه تفسير غريب الحديث(١٧٢). ومنهم من اكتفى بتدوين الحديث مطلقاً ليحفظ لفظه ويستنبط منه الحكم، كما فعل أبو داود الطيالسي همام بن عبد الملك، المتوفى سنة ٢٢٧(١٧٣).

وكان علم غريب الحديث قد صنفت فيه كثير من الكتب وضعها علماء فقهاء أو من رجال اللغة. والغريب من الكلام هو الغامض المبهم البعيد عن الفهم، والذي يتطلب الشرح والإيضاح. وقد جاء في الأحاديث النبوية كثير من الكلمات الغريبة، كأن يكون بعضها من لغة قبيلة معينة لا تفهمها القبائل الأخرى. وكان الرسول ﷺ يوضح لأصحابه ما يبهم عليهم من تلك الكلمات. ويعتبر القاسم بن سلام أول من صنف من الفقهاء في هذا الموضوع، فوضع كتابه الغريب المصنف الذي صار قدوة في هذا الشأن. وكان يقول: إني جمعت كتابي هذا في أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من الأفواه فأضعها في موضعها(١٧٤). وأبرز من صنف بعده في هذا الموضوع ابن قتيبة عبد الله بن مسلم فوضع كتابه غريب الحديث وحذا فيه حذو أبي عبيد القاسم بن سلام، وقال في مقدمته، أرجو أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال(١٧٥). ويعتبر

---

(١٧٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٧.

(١٧١) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٦٣٨.

(١٧٢) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ١٩٦.

(١٧٣) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٣٨.

(١٧٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٢، ص ٤٠٧، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٢٢٥.

(١٧٥) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٠٤.

كتابه هذا ذيلاً لكتاب ابن سلام أو متمماً له. وصنف ابراهيم بن اسحاق الحربي كتاباً كبيراً في خمسة أجزاء بسط فيه القول واستقصى الأحاديث بطرق أسانيدها وأطال بذكر بنودها[١٧٦]. وصنف في هذا الموضوع عدد آخر من رجال اللغة والفقه، منهم: أبو مروان عبد الملك بن حبيب المالكي القرطبي، المتوفى سنة ٢٣٨، ومحمد بن حبيب النحوي البغدادي، المتوفى سنة ٢٤٥، والمبرد أبو العباس محمد بن يزيد، وأحمد بن يحيى ثعلب، وقاسم بن محمد الأنباري المتوفى سنة ٣٠٤[١٧٧].

٢ ـ كتب الصحاح الستة

اتجه أهل الحديث في القرن الثالث إلى التمسك بالنصوص وحرصوا على البحث عنها وجمعها في مختلف أمصار الدولة العربية وأقاليمها. وشهد هذا القرن حركة واسعة نشطة في تدوين الحديث، كانت من أهم مميزاته. وصار فيه للمحدثين أثر بارز في الفقه الاسلامي بحيث غدا الإمام أحمد بن حنبل، وهو زعيم أهل الحديث، رئيس مذهب فقهي هو المذهب الحنبلي، من دون أن يكون عالماً في شؤون الدين الأخرى فقيهاً فيها. بل لقد أنكر عليه بعض العلماء أن يحسب من الفقهاء. فإن الطبري لما صنف كتابه اختلاف الفقهاء، لم يذكر ابن حنبل فيه، ولما سئل عن ذلك قال: إنما هو رجل حديث لا فقه، مما أغضب اتباع ابن حنبل عليه[١٧٨]. كما أن المقدسي شمس الدين محمد بن أحمد، المتوفى سنة ٣٨٠ اعتبره من أصحاب الحديث، ولم يعتبره من الفقهاء[١٧٩]. وبازدياد أهمية الحديث باعتباره مصدر أمور الفقه والعبادات إلى جانب القرآن الكريم، ازدادت العناية بجمعه وتصنيفه، فوضعت كتب المسانيد الصحاح والكتب التي عرفت بـ السنن.

وقد نظم الحديث أول الأمر بشكل بسيط يقتصر على ما يرتبط بصحته بحيث يتصل اسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير ارسال إلى الصحابي، وتُرتب الأحاديث التي يرجع اسنادها إلى صحابي معين بجانب بعضها، وهي طريقة لا تقوم على مادة الأحاديث أو محتوياتها، بل إن الأمر الفاصل فيها هو الصحابي الذي أسندت إليه، وسميت هذه المجموعات بالمسانيد ومفردها المسند، باعتبار أن ما تضمنته من أحاديث متصلة بالصحابي مسندة إلى الرسول ﷺ[١٨٠].

---

(١٧٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٠٥.

(١٧٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١١٧ و١٣٥، وحاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٠٥.

(١٧٨) أبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٣ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧)، ج ٨، ص ١٣٤.

(١٧٩) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ٣٧.

(١٨٠) علي حسن عبد القادر، نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي، ط ٢ (القاهرة: مطبعة القاهرة الحديثة، ١٩٥٦)، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

ثم تطورت طريقة تنظيم الحديث من مسانـد بحسب الرجـال إلى مصنفات بحسب الأبواب. والمسند عبارة عن تنظيم الأحاديث بحسب موضـوعاتهـا من فقه وعبـادات وتاريخ وأخلاق وغير ذلك، ويوضع الحديث المسند بطرق مختلفة حسب الأبواب المشار إليها. وهكذا تم في خـلال النهضة العلميـة العربيـة تصنيف أمهات كتب الحـديث التي عرفت بـالصحـاح والمسانيد والسنن. ويطلق على كتاب صحيح البخاري، وكتاب صحيح مسلم، وكتاب جامع الـترمذي، وكتب السنن لكـل من ابن مـاجـة والنسـائي وأبي داود، كتب الصحـاح الستـة، باعتبارها المعوّل عليها في علم الحديث. وسنستعرض فيما يأتي كتب الصحاح المذكورة وسيرة مصنفيهـا. ثم نستعرض أهم مـا صنف إلى جانبهـا من كتب المسانـد والسنن في خلال هـذا القرن، وطليعة المصنفين في هذا الباب.

ومما هو جـدير بـالذكر أن نشير إلى أن كتب المسـانـد أقـرب ما تكـون إلى صحيحـي البخـاري ومسـلم من حيث مضامينهـا واهتمامهـا بالحـديث، بينما تعنى كتب السنن بـالأحكام والأمور الفقهية والأحاديث المتعلقة بها. وهي أكثر تسامحاً في شروط إسنـاد الأحاديث وعـدالة رواتها، لأنه بغير هذا التسامح لم يكن ممكناً أن يؤتى لكل مسألة فقهية بحديث يناسبها، ولـذا كان هناك بعض الأحكام مما يستند إلى أحاديث حسنة وليس إلى أحاديث صحيحة[١٨١].

أ ـ البخاري وكتابه الجامع الصحيح

الإمام الحافظ كبير المحدثين في عصره أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم، ولد يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوّال سنة ١٩٤ في مدينة بخارى[١٨٢]، فنسب إليهـا. وكانت بخارى آنذاك أعظم مدن ما وراء النهر، حسنة العمران، كثيرة السكان، ومن المراكز العلمية المهمة. فنشأ أبو عبد الله محباً للعلم، راغباً في الدروس، وكـان حاد الـذهن سريع الحفظ. فأخذ في حفظ الحديث وهو لم يتعد العاشرة من عمره[١٨٣]. وخرج في أول شبابه مع أمه وأخيه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، فتخلّف عنها وبقي فيها طلباً للحديث. ولـما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان قـد ألمّ بقضايـا الصحابـة والتابعـين وأقوالهم، فصنّف كتـاب التاريخ[١٨٤]. ورحل إلى سائر محدثي الأمصـار وسمع أغلبهم، في خـراسان والجبـال والعراق والشام ومصر والحجاز. وتردد كثيراً على بغداد مركز النهضة العلمية، وفي إحدى قدماته إليها امتحنه بعض أصحاب الحديث فوجهوا إليه من يسأل عن أحاديث قلبـوا متونها وأسـانيدهـا،

(١٨١) المصدر نفسه، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(١٨٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٢، ص ٦؛ ابن خلكان، وفيات الأعيـان وأنبـاء أبناء الـزمـان، ج ٣، ص ٣٣٠، وابن العماد الحنبلي، شـذرات الـذهب في أخبـار من ذهب، ج ٢، ص ١٣٥.

(١٨٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦.

(١٨٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧.

فأنكرها جميعاً، ثم أصلح ما سئل عنه من الأحاديث فردَّ كل متن إلى إسناده، وكل اسناد إلى متنه، فأقر له الحاضرون بالحفظ وسعة الاطلاع[185].

ومن مظاهر سرعة حفظ البخاري أنه تردد إلى أحد مشايخ الحديث في البصرة دون أن يكتب شيئاً، حتى أتى على ذلك أيام، فسأله زملاؤه: إنك تختلف دون أن تكتب شيئاً فما معنى ما تصنع؟ قال: فاعرضوا علي ما كتبتم. فأخرجوا ما كان عندهم، فقرأه كله عن ظهر قلب، حتى انهم أخذوا يصححون بعض ما كانوا كتبوه، على حفظه[186]. ولكثرة ما كان يحفظ من الأحاديث بأسانيدها لقبه بعض طلاب الحديث بالكبش النطّاح[187]. ويظهر أنه كان يسهر الكثير من ليله في تدوين ما يحفظه من أحاديث في نهاره، قال محمد بن أبي حاتم الوراق: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيت واحد، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري ناراً ويسرج، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها. ويذكر مثل هذا محمد بن يوسف الفِرَبْري أقرب تلاميذ البخاري إليه[188].

لقد بلغ البخاري من علمه بالحديث وعلله وتاريخ رجاله درجة تثير الاعجاب. قال أبو عيسى الترمذي: لم أر أحداً بالعراق ولا بخراسان بمعنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد اعلم من محمد بن اسماعيل[189]. وقال عنه أبو حاتم الرازي، وهو أحد حفاظ الحديث، توفي سنة ٢٧٧: محمد بن اسماعيل أعلم من دخل العراق[190]. وقال أبو بكر محمد بن اسحاق السلمي المحدث المجتهد المتوفى سنة ٣١١: ما رأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث من محمد بن اسماعيل[191].

وكانت حصيلة رحلات البخاري التي استغرقت أكثر سني حياته، أن جمع ستمئة ألف حديث اختار منها ما وثق برواته، وأخرج كتابه المشهور **صحيح البخاري**، أو **الجامع الصحيح** وقد سمّاه **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ** الذي اعتبر أول الكتب الستة في الحديث، وقد اتفق علماء الحديث على أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم[192]. وكان البخاري نفسه يقول: «صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة أخرجته من ستمئة ألف حديث،

---

(١٨٥) الخبر مفصّل في: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٠ - ٢١؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٩ - ٣٣٠، وتاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٦ ج (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٦)، ج ٢، ص ٦.

(١٨٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥، والسبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥.

(١٨٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٠.

(١٨٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣ - ١٤، والسبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧.

(١٨٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧.

(١٩٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣.

(١٩١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧.

(١٩٢) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٤١.

وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى»[193]. وقد التزم في تصنيفه بدقة التحري والتحقق في كل حديث أخذ به، بحيث لم يأت بحديث من الصحابة والتابعين إلا بعد أن تعرف على مولدهم ووفاتهم ومسكنهم، ولم يرو عن أحدهم إلا وله في ذلك أصل[194]. كما أنه التزم بالشروط التي أوجب علماء الحديث توفرها في الرواة. ويبدو أنه كان مستقلاً بآرائه في المسائل المختلف عليها بين تلك المذاهب[195].

وكان البخاري إلى جانب التزامه بصحة الأحاديث وسلامة أسانيدها قد استنبط منها الفوائد الفقهية، واستخرج من متونها معاني كثيرة فرقهما في أبواب الكتاب بحسب أبواب الفقه. وقلّما أورد حديثاً في موضوعين بإسناد واحد أو لفظ واحد، وإنما يورده عن طريق آخر[196]. وعدد أحاديثه نقلاً عن ابن الصلاح عثمان بن عبد الرحمن من كبار محدثي القرن السابع، سبعة آلاف ومئتان وسبعون حديثاً، بالأحاديث المكررة. أما الحافظ ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي من فقهاء القرن التاسع، فقد قال إن أحاديثه بالمكرر سوى المعلقات والمتابعات سبعة آلاف وثلاثمئة وسبعة وتسعون حديثاً، والخالص من ذلك بلا تكرار ألفا حديث وستمئة وحديثان، وإذا ضمت إليه المتون المعلقة وهي مئة وتسعة وخمسون حديثاً صار مجموع الخالص ألفي حديث وسبعمئة وواحداً وستين حديثاً، وجملة ما فيه بالمكرر تسعة آلاف واثنان وثمانون حديثاً[197].

يقول ابن خلدون مشيداً بجهود البخاري: «وجاء محمد بن اسماعيل البخاري إمام المحدثين في عصره فخرّج أحاديث السنّة على أبوابها في مسنده الصحيح بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين، واعتمد منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه. وكرر الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث، فكررت لذلك أحاديثه، حتى يقال إنه اشتمل على تسعة آلاف حديث ومئتين، منها ثلاثة آلاف متكررة»[198].

ويقول الأستاذ أحمد أمين إن عدد أحاديثه إذا ما حذفت الأحاديث المتكررة واقتصر على الأحاديث الموصولة السند كانت ألفين وسبعمئة واثنين وستين حديثاً[199]. وهو بهذا يتفق مع ما جاء في كشف الظنون.

ومع ضخامة العمل الذي أنجزه البخاري وما استنفده منه من جهود وما لقيه من ترحاب وتقدير من رجال الحديث، فقد وجهت إليه بعض الانتقادات حول ترتيب أبواب

---

(193) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٧.

(194) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤، والسبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨.

(195) عبد القادر، نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي، ص ٣٠٦.

(196) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٤٢ - ٥٤٣.

(197) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٤٤.

(198) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤١.

(199) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ط ٧ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤)، ج ٢، ص ١١٣.

الكتاب وعدم التزامه بها، وطريقة الاستشهاد بالأحاديث، إذ إنه يكتفي أحياناً بذكر قسم من الحديث في باب ويذكر القسم الثاني في باب آخر. كما طُعن في صحة بعض الأحاديث وفي عدالة عدد من الرواة، لعلل مختلفة. ويرى ابن خلدون أن الناس استصعبوا شرحه واستغلقوا منحاه من أجل ما يُحتاج إليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة أحوالهم واختلاف الناس فيهم. ولذلك يحتاج إلى امعان النظر في التفقه في تراجمه، لأنه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند أو طريق، ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمنه من المعنى الذي ترجم به الباب. بحيث يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها[٢٠٠].

ويظهر أن الترتيب الذي ابتكره البخاري في صحيحه كان جديداً على الناس لم يألفوه من قبل في كتاب آخر، وهو أول كتاب يوضع في الحديث على هذا النحو، مما جعلهم يجدون بعض العنت في فهمه.

لقد صنّف البخاري إلى جانب صحيحه هذا وكتاب التاريخ الخاص برجال الحديث، كتباً أخرى ذكرها ابن النديم، منها: كتاب الأسماء والكنى، وكتاب الضعفاء، وكتاب السنن في الفقه، وكتاب الأدب المفرد، وكتاب خلق أفعال العباد[٢٠١]. ومما يضيفه صاحب هدية العارفين: تفسير القرآن، وكتاب أسماء الصحابة، وكتاب العوالي في الحديث، وكتاب المبسوط في الحديث[٢٠٢]. ويلاحظ أن أكثر مصنفاته في موضوع علم الحديث ورجاله.

عاد البخاري في أواخر أيامه إلى بلده بخاري ليستقر بها. وتتفق الروايات على أن وحشة قامت بينه وبين واليها الأمير خالد بن أحمد الذُّهلي، فنفاه إلى قرية خَرْتَنْك إحدى قرى سمرقند على بعد فرسخين منها. ويقول الخطيب البغدادي عن سبب تلك الوحشة إن الوالي طلب إلى البخاري أن يحمل إليه كتابيه الصحيح والتاريخ ليقرأهما عليه، فلم يستجب البخاري وقال لرسول الوالي: أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت للأمير حاجة منه فليحضرني في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبه هذا فهو سلطان يستطيع منعي من الجلوس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة لأني لا أكتم العلم. فامتعض الوالي واستعان على البخاري ببعض أهل العلم ببخارى حتى تكلموا في مذهبه، فنفاه من البلد[٢٠٣].

ولم يلبث البخاري أن مات بعد مدة قصيرة في القرية المذكورة، وكانت وفاته في ليلة الفطر من سنة ست وخمسين ومئتين[٢٠٤].

---

(٢٠٠) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٢٠١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٠ - ٣٣٦.

(٢٠٢) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٦.

(٢٠٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٢، ص ٣٣.

(٢٠٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٣٠، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٢، ص ١٣٥.

ب ـ مسلم وكتابه الجامع الصحيح

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن الحسين القشيري، نسبة إلى قشير بن كعب[٢٠٥]، وهي قبيلة كبيرة من القبائل العربية التي قدم بعض أبنائها إلى خراسان أيام الفتح العربي واستوطنوا فيها. وهو من كبار أعلام المحدثين الفقهاء، وقد اشتهر بكتابه الجامع الصحيح في الحديث. ولد بنيسابور قاعدة اقليم خراسان في سنة ٢٠٤ ويقال سنة ٢٠٦[٢٠٦]. وبها نشأ واشتهر إماماً من أئمة الحديث مصنفاً فيه.

ارتحل مسلم في طلب الحديث من رواته في بغداد والبصرة والكوفة والحجاز والشام ومصر. فاستمع إلى الإمام أحمد بن حنبل، والقعنبي عبد الله بن مسلمة، والبخاري وغيرهم من كبار رجال الحديث، كما روى عنه عدد كبير من المحدثين[٢٠٧]. وكان ثقة في حفظه وروايته ومعرفته بالحديث. فكان المحدثان الكبيران في أيامه، أبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم، وأبو حاتم محمد بن ادريس الحنظلي، يقدمانه في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما[٢٠٨].

وعندما ورد البخاري إلى نيسابور لازمه مسلم ولم يكد يفارقه، إعجاباً بشخصيته، وسعة علمه، ومعرفته بالحديث ورواته. وبلغ من تقديره وحبه للبخاري أن جاءه مرة فقبّل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله[٢٠٩]. وقد هجر مسلم مجلس أستاذه محمد بن يحيى بن عبد الله الهذلي الذي دعا إلى مقاطعة البخاري لقوله إن اللفظ بالقرآن مخلوق. ويظهر أن مسلماً كان يؤيد البخاري في رأيه، إذ يقول ابن خلكان «انهي إلى محمد بن يحيى أن مسلم بن الحجاج على مذهبه قديماً وحديثاً، وانه عوتب في ذلك بالحجاز والعراق، ولم يرجع عنه. فلما كان يوم مجلس محمد بن يحيى، قال في آخر مجلسه: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا. فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته وقام على رؤوس الناس وخرج من مجلسه، وجمع ما كتب عنه وبعث به على ظهر حمّال إلى باب محمد بن يحيى. فاستحكمت بذلك الوحشة بينهما، وتخلف عنه وعن زيارته»[٢١٠].

لقد التزم مسلم بمنهج البخاري في تصنيفه وفي دقته وتحريه صحة الحديث وسلامة رواته. ولما صنف كتابه الجامع الصحيح حذا حذو البخاري، وقفا أثره، في نقل المجمع على

---

(٢٠٥) قشير بن كعب. . . بن عامر بن صعصعة من هوازن من العدنانية. انظر: عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط ٢، ٣ ج (بنغازي: دار مكتبة الأندلس، ١٩٦٨)، ج ٣، ص ٩٥٤.

(٢٠٦) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨١، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٣٣.

(٢٠٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٣، ص ١٠٠ ـ ١٠١؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٣٢، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨٠.

(٢٠٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٠١.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٠٢.

(٢١٠) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٠٣، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٨١.

صحته من الأحاديث وحذف المتكرر منها، ووحد الطرق والأسانيد، وبوّبه على أبواب الفقه[211]. وجاء في كشف الظنون أن كتاب الجامع هذا من الكتب الستة وأحد الصحيحين اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله العزيز، وقد انفرد بميزة جعلته سهل التناول، إذ إنه جعل لكل حديث موضعاً واحداً يليق به، وجمع فيه طرقه التي ارتضاها، وأورد فيه أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة، والتزم بأن يكون الحديث متصل الإسناد برواته الثقة عن الثقة من أوله إلى منتهاه، سالماً من الشذوذ والعلل، مما جعل بعض علماء الحديث وطلابه يفضلونه على صحيح البخاري، حتى قال أحد كبار الفقهاء المحدثين: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم في علم الحديث[212]. ويقول ابن خلدون إن علماء المغرب أكبوا على صحيح مسلم، وكثرت عنايتهم به، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري[213].

ويروى عن مسلم أنه قال: صنفت هذا المسند من ثلاثمئة ألف حديث مسموعة[214]. كما نسب إليه أنه قال إن كتابه أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات، وبالمكررات سبعة آلاف ومئتان وخمسون حديثاً[215]. وذكر مسلم في مقدمة كتابه المذكور أنه قسم الأحاديث إلى ثلاثة أقسام: الأول ما رواه الحفاظ المتقنون، والثاني ما رواه المستورون المتوسطون في الحفظ والاتقان، والثالث ما رواه الضعفاء المتروكون. وقد اختلف علماء الحديث في مراده بهذا التقسيم. فقال ابن عساكر علي بن الحسن، إنه رتب كتابه على قسمين. وقصد أن يذكر في الأول أحاديث أهل الثقة والاتقان، وفي الثاني أحاديث أهل الستر والصدق الذين لم يبلغوا درجة المثبتين، فحالت المنية بينه وبين هذه الأمنية، فمات قبل إتمام كتابه واستيعاب تراجمه وأبوابه، غير أن كتابه مع إعوازه اشتهر وطار صيته في الآفاق[216].

وصنّف مسلم إلى جانب كتابه الكبير هذا، كتباً أخرى ذكر ابن النديم منها: كتاب الأسماء والكنى، وكتاب الأوحاد، وكتاب الطبقات، وكتاب المفرد، وكتاب التاريخ[217]. ويضيف صاحب المنتظم عدة كتب أخرى في الحديث منها: كتاب العلل، وكتاب القرائن، وكتاب المسند الكبير على الرجال، ويقول: ما نظن أنه سمعه منه أحد[218].

---

(٢١١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤١.

(٢١٢) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٥٥.

(٢١٣) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٢١٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٣، ص ١٠١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، ص ٢٨٠، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٣٣.

(٢١٥) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٥٦، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣ وفيه أنه اثني عشر ألف حديث بالمكرر.

(٢١٦) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٦.

(٢١٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٦.

(٢١٨) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٣٢.

توفي مسلم عشية يوم الأحد ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب من سنة ٢٦١ بظاهر مدينة نيسابور[٢١٩].

ج ـ أحمد بن حنبل وكتابه المسند

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ولد كما قال هو عن نفسه في سنة ١٦٤[٢٢٠]. وكانت ولادته ببغداد في شهر ربيع الأول وقيل إنه ولد بمرو وحمل إلى بغداد رضيعاً[٢٢١]. نشأ ببغداد، فدرس الفقه والحديث على كبار فقهائها ومحدثيها، ورحل إلى الكوفة والبصرة، وكانتا من المراكز العلمية المهمة، كما سافر إلى مكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، طلباً للحديث، فاتصل بمحدثيها وكتب عن ثقات حفاظها، كاسماعيل بن ابراهيم المعروف بابن عُليَّة، وأبي داود الطيالسي، وسفيان بن عيينة، وأبي مسهر الدمشقي. وعندما كان الإمام الشافعي ببغداد درس ابن حنبل عليه الفقه والحديث وكان من المقربين إليه[٢٢٢]. ومع أنه درس على الامام الشافعي وكان من خواص أصحابه فقد اختلف عنه فاعتبر الحديث أفضل من الرأي، آخذاً برأي الامام مالك بن أنس بالاعتماد على الحديث دون الرأي في المسائل الفقهية.

كان الإمام أحمد من احفظ الناس للحديث وأعلمهم بفقهه ومعانيه، وقد غدا من أئمة عصره فيه. كما اشتهر بالزهد والورع والنزاهة وسمو الخلق. مما أكسبه احترام رجال عصره من أهل العلم والفقه والحديث فكانوا يعظمونه ويجلّونه، ويقصدونه بالسلام عليه، حتى ان الامام الشافعي كان يأتيه إلى منزله تقديراً له[٢٢٣]. وامتدحه كثير منهم، قال أحدهم: كان أحمد بن حنبل أفضل أهل زمانه، وقال آخر: أحمد بن حنبل حجة بين الله وبين عبيده في أرضه[٢٢٤]. وقال ابراهيم الحربي: أدركت ثلاثة لن يُرى مثلهم أبداً ويعجز النساء أن يلدن مثلهم، رأيت أبا عبيد القاسم بن سلاّم . . . ورأيت أحمد بن حنبل كأن الله عز وجل جمع له علم الأولين من كل صنف يقول ما شاء ويمسك ما شاء[٢٢٥]. وقال عنه الإمام الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أتقى ولا أورع ولا أفقه من أحمد بن حنبل[٢٢٦].

---

(٢١٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٣، ص ١٠٣ ـ ١٠٤؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٣، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، ص ٢٨١.

(٢٢٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

(٢٢١) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧.

(٢٢٢) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٢.

(٢٢٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٦، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٢، ص ٩٥.

(٢٢٤) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٨.

(٢٢٥) ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٨.

(٢٢٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٩، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٤٨.

أخذ الحديث عن الامام أحمد كثيرون من كبار المحدثين وأئمتهم، منهم البخاري، ومسلم، وسليمان بن الأشعث، وابراهيم الحربي[227]. واشتهر الامام أحمد بصلابة الرأي والثبات على العقيدة. فقد عاصر حركة القول بخلق القرآن، وكان الخليفة المأمون قد ناصر المعتزلة وأيد مقولتهم بأن القرآن مخلوق، وهو عكس ما يعتقده أهل السنة الذين يرون أن القرآن كلام الله تعالى وأنه من صفاته الأزلية. وعندما خرج المأمون إلى غزو بلاد الروم في سنة ٢١٥هـ أمر خليفته ببغداد اسحاق بن ابراهيم أن يمتحن علماء بغداد وفقهاءها بالقول بخلق القرآن، فإن أقروا بذلك فهم من المهتدين، وإلاّ يبقي من لم يقر بخلق القرآن، لا يبقيه في منصبه. وبناء على إصرار الخليفة وتهديد نائبه، أجاب أكثر الفقهاء والعلماء عدا الإمام أحمد بن حنبل والفقيه الزاهد محمد بن نوح، فقيّدا وأرسلا إلى الخليفة الذي كان آنذاك في طرسوس، ليرى فيهما رأيه. ولما وصلا مدينة الرقة جاءت الأنباء بوفاة المأمون فأعيدا إلى بغداد، فتوفي ابن نوح في الطريق.

وكان المأمون قد عهد بالخلافة إلى أخيه المعتصم بالله، وأوصاه بأن يأخذ بسيرته في حمل الناس على القول بخلق القرآن. فأبقى المعتصم بالله الإمام أحمد مقيداً في سجنه. ويقال إنه وضع في حبس ضيق بقي فيه ما يقرب من ثلاثين شهراً. وكان يُستدعى بين حين وآخر للمناظرة فلم تلن قناته. وقد حاول الخليفة المعتصم بالله أن يستميله فأحضره لمناظرته أمامه قبل أن ينتقل إلى عاصمته سامراء، وقد جمع له كبار المعتزلة وعلى رأسهم قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد وكان من رؤوس المعتزلة، وقد حاول الخليفة اقناع الإمام أحمد أن يقول بخلق القرآن فأصرَّ على رفض ذلك، والثبات على القول بأن القرآن كلام الله. فأمر الخليفة بضربه، فجلد حتى تقطع جلده وفقد وعيه فأعيد إلى محبسه. وبعد أن لبث مدة أمر الخليفة بإخلاء سبيله وقد ذكرت المصادر حبس ابن حنبل ومناظرته وجلده، كما وصفها هو بنفسه[228]. وكان ذلك مما زاد في علو مركزه بين أتباعه وإجلالهم له. قال الفقيه المحدث علي المديني: أعزَّ الله هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث، أبو بكر الصديق يوم الردَّة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة[229]. وقال فقيه آخر: لولا أحمد بن حنبل لأحدثوا في الدين نفسه[230].

جمع الإمام أحمد كثيراً من الأحاديث مما لم يتفق لغيره، فصنَّف كتاب المسند الذي يحتوي على نيف وأربعين ألف حديث[231]. ويقول ابن خلدون إنه تضمن خمسين ألف

---

(٢٢٧) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٣.

(٢٢٨) حول تفصيلات موضوع المحنة، انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨)، ج ٨، ص ٦٣١ - ٦٤٩، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٤٤٥.

(٢٢٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٨.

(٢٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١٧.

(٢٣١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٤، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٤٧.

حديث[٢٣٢]. وقد دوّن فيه ما سمعه من ثقات المحدثين، وبخاصة ما جاء في موطأ الإمام مالك من أحاديث الرسول ﷺ وفتاوى الصحابة، وما يتصل بذلك من أمور فقهية. ويقول صاحب كشف الظنون إنه يشتمل على ثلاثين ألف حديث، وهو كتاب جليل من جملة أصول الإسلام، وفيه نيف وثلاثمئة حديث ثلاثية الإسناد، وأن أحمد بن حنبل شرط فيه أن لا يخرج إلا حديثاً صحيحاً عنده، وإن فيه أحاديث موضوعة، وأن ولده عبد الله زاد فيه[٢٣٣].

لقد كان مسند الإمام أحمد أقل تأثيراً في أوساط المحدثين من صحيح البخاري وصحيح مسلم، لأن فيه كثيراً من الأحاديث الضعيفة، وذلك بسبب نظرته إلى الحديث، فهو يرجحه على الرأي والقياس وإن كان مرسلاً أو مقطوعاً، وتفضيله المنقول على المعقول بحيث كان يمتنع عن الفتوى إذا لم يجد ما يدعمها من حديث أو أثر من فتاوى الصحابة[٢٣٤].

وقد اختلف فيما إذا كان الإمام أحمد فقيهاً، فقد ذكرنا أن الطبري عندما صنّف كتابه في اختلاف الفقهاء، أهمل ذكر ابن حنبل، ولما سئل عن ذلك، قال: إنما هو رجل حديث لا رجل فقه، مما أغضب أتباع أحمد عليه. والواقع أن الإمام أحمد لم يصنف في أبواب الفقه، وإنما كانت له آراء فقهية أفتى بها في أوقات مختلفة، فجمعها أصحابه. ولذا كان أثره في الحديث أكبر منه في الفقه[٢٣٥].

وللإمام أحمد إلى جانب مسنده مصنفات أخرى أغلبها في الحديث، منها: كتاب التفسير، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب الزهد، وكتاب العلل، وكتاب المسائل، وكتاب الايمان، وكتاب الفضائل، وكتاب الفرائض، وكتاب المناسك، وكتاب طاعة الرسول، وكتاب الرد على الجهمية[٢٣٦].

توفي الإمام أحمد ضحوة نهار الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ويقال ربيع الآخر، من سنة ٢٤١ في بغداد، ودفن بمقبرة باب حرب في الجانب الغربي من بغداد، ومشى في جنازته خلق عظيم من الرجال والنساء، ويصف المسعودي والخطيب البغدادي حمل نعشه والصلاة عليه ودفنه وبعض ما قيل فيه[٢٣٧].

---

(٢٣٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٢.

(٢٣٣) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٨٠.

(٢٣٤) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٢١٥.

(٢٣٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٢٣٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٤، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٤٨.

(٢٣٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١، ص ٤٢٢؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د. م.: د. ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ١٠٢، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٤٨.

د ـ ابن ماجة وكتابه السنن

أبو عبد الله الحافظ محمد بن يزيد بن ماجة الرَّبْعي نسبة إلى ربيعة، ولد في قزوين في سنة ٢٠٩[٢٣٨]، وهي مدينة مشهورة على حدود الديلم بينها وبين السري سبعة وعشرون فرسخاً، فنسب إليها[٢٣٩]. وهو من أعيان رجال الحديث، رحل في طلبه وجمعه إلى العراق فزار بغداد والبصرة والكوفة، وسافر إلى مكة والشام ومصر، واستمع إلى كبار المحدثين، فصار من أئمة الحديث عارفاً بعلومه وجميع ما يتعلق به[٢٤٠]. صنّف كتابه المشهور باسمه سنن ابن ماجة في الحديث، وهو أحد كتب الصحاح الستة المعتمدة[٢٤١]. ولما صنفه عرض النسخة على المحدث الكبير أبي زرعة، فنظر فيها وقال: أظن هذه إن وقعت في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع كلها، أو قال أكثرها، ثم قال: لعله لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً مما في أسناده ضعف، أو قال عشرين أو نحو هذا[٢٤٢]. وقال عنه ابن كثير المؤرخ الحافظ: «السنن لابن ماجة دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه للسنة في الأصول والفروع، وهو يشتمل على اثنين وثلاثين كتاباً وألف وخمسمئة باب، وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسير»[٢٤٣].

توفي ابن ماجة في يوم الاثنين ودفن في يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان من سنة ٢٧٣[٢٤٤]. وله من المصنفات إضافة إلى كتاب السنن، تفسير القرآن الكريم، وتاريخ قزوين[٢٤٥].

هـ ـ الترمذي وكتابه الجامع والعلل

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، الضرير الحافظ، ولد بمدينة ترمذ في سنة بضع ومئتين[٢٤٦]. وترمذ من أمهات مدن ما وراء النهر، تقع على الجانب الشرقي من نهر جيحون، وهي مدينة قديمة، وتلفظ بكسر التاء والميم[٢٤٧]، وقد نشأ

(٢٣٨) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٩٠، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٢٣٩) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥)، ج ٤، ص ٣٤٢.

(٢٤٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٠، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٢٤١) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٨، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٠٠٤.

(٢٤٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٤٤.

(٢٤٣) أنور الرفاعي، تاريخ العلوم في الاسلام (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص ٦٧.

(٢٤٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٠٨؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٩٠، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٢.

(٢٤٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٠؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٧، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤٢.

(٢٤٦) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ٢٦٤.

(٢٤٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦.

وأقام بها فنسب إليها. وتطلع منذ نشأته إلى دراسة علم الحديث، فرحل إلى كثير من الأمصار واتصل بمحدثي عصره وأخذ عنهم، وتتلمذ على إمام المحدثين أبي عبد الله البخاري وشاركه في بعض شيوخه، واعتبر خليفته في علم الحديث وعلله ورجاله، وكان مضرب المثل بسرعة حفظه واتقانه ما يحفظ، واعتبر من ثقات المحدثين ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر[٢٤٨]. يقول عنه ياقوت الحموي: هو أحد الأئمة الذين يُقتدى بهم في علم الحديث[٢٤٩].

صنَّف الترمذي كتابه المشهور الجامع والعلل تصنيف رجل متقن وبه كان يضرب المثل[٢٥٠]. ويعتبر ثالث كتب السنة في الحديث، ونقل عنه أنه قال: صنفتُ هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به، وقد اشتهر بـ جامع الترمذي، ويقال له السنن أيضاً، وله شروح ومختصرات عديدة[٢٥١]. كما صنف كتباً أخرى في رجال الحديث ومراتبهم ودرجة الثقة بهم، وهي: كتاب التاريخ، وكتاب العلل، وكتاب الرباعيات[٢٥٢].

وقد أقبل رجال الحديث على جامع الترمذي وكانوا يوازون بينه وبين صحيح البخاري، قال أحد العلماء: كتاب الترمذي عندي أنور من كتاب البخاري، لأنه لا يصل إلى الفائدة من البخاري إلا من هو من أهل المعرفة التامة بهذا الفن، وكتاب الترمذي قد شرح أحاديثه وبيّنها ليصل إليها الناس من الفقهاء والمحدثين وغيرهم[٢٥٣].

عمي الترمذي في أواخر عمره، ومات ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٢٧٩ بمدينة ترمذ، وقيل إنه مات في سنة ٢٧٥ بقرية بوغ وهي من قرى ترمذ على ستة فراسخ منها. وقد ينسب إليها الترمذي أحياناً[٢٥٤].

و ـ النَّسائي وكتابه السنن الكبير

أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر. هكذا جاء اسمه ونسبه في وفيات الأعيان وفي النجوم الزاهرة، إلا أنه جاء في المنتظم وفي كتاب الولاة والقضاة وفي كشف الظنون: أحمد بن شعيب بن علي.. وأخذ قاموس الأعلام بالرواية

---

(٢٤٨) الصفدي، المصدر نفسه، ص ٢٦٥، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٢٤٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧.

(٢٥٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٢٥١) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٥٩.

(٢٥٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٩، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٩.

(٢٥٣) الرفاعي، تاريخ العلوم في الاسلام، ص ٦٧.

(٢٥٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٠٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧؛ الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ٢٦٤، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ١١.

الأولى(٢٥٥). ولد في نسأ وهي من مدن خراسان، بينها وبين مرو خمسة أيام(٢٥٦)، فنسب إليها. إلا أنه سكن مصر وبها اشتهر وانتشرت كتبه، ويقال إن مولده كان في سنة ٢١٤ أو ٢١٥(٢٥٧).

سافر النسائي في طلب الحديث والاستماع إلى رجاله، فزار نيسابور ومرو، ورحل إلى بغداد والشام ومصر التي استقر فيها، وأخذ الحديث عن كبار محدثي المدن المذكورة، وروى عنهم. وكان فقيهاً حافظاً للحديث، وراوية ثقة، وقد صنف كتاب السنن الكبير، وهو من الكتب الستة، وكتاب المجتبى في مختصر السنن الكبير. وله كذلك كتاب مناسك الحج، ومسند مالك في الحديث، وكتاب خصائص الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكتاب الجمعة(٢٥٨).

ويقال إنه عندما صنف كتاب السنن الكبير سأله أحد الأمراء: أكله صحيح؟ فقال: لا، فقال: فاكتب لنا الصحيح. فلخص النسائي السنن الصغيرة منه، وترك كل حديث أورده في الكبير مما تكلم في إسناده بالتعليل، وسماه المجتبى فحسل محله، وإذا ما أطلق أهل الحديث على أن النسائي روى حديثاً فإنما يريدون المجتبى(٢٥٩).

وسئل النسائي عن اللحن هل يوجد في الحديث، فقال: «إن كل شيء تقوله العرب وإن كان لغة غير قريش: لا يغيّر، لأن النبي ﷺ كان يكلم الناس بكلامهم وإن كان مما لا يوجد في لغة العرب، فرسول الله ﷺ لا يلحن»(٢٦٠).

خرج النسائي في أواخر حياته إلى دمشق فامتحن بها فأجاب بما أغضب سائليه، فضربوه. فطلب أن يحمل إلى مكة، فحمل إليها وهو عليل، فتوفي فيها ودفن بين الصفا والمروة، وكانت وفاته في شعبان سنة ٣٠٣، ويقال إنه مات بالرملة في فلسطين في صفر من السنة المذكورة(٢٦١).

---

(٢٥٥) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٨؛ أبو عمر محمد بن يوسف المصري الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح رفن كست (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨)، ص ٥٦٥؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ١٣١؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٠٠٦، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ١٦٤.

(٢٥٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٢.

(٢٥٧) المصدر نفسه؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٠، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٨.

(٢٥٨) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥٦.

(٢٥٩) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٠٠٦.

(٢٦٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٨٢.

(٢٦١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٦٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ١٨٨، وابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ١٣١ - ١٣٢.

٣ ـ محدثون اشتهروا بمسانيدهم وسننهم

اشتهر في هذا القرن أيضاً رهط من المحدثين بمصنفاتهم من المسانيد والسنن، ومن هؤلاء:

أ ـ الحِمّاني

أبو زكريا يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمن الحِمّاني الكوفي أحد حُفّاظ الحديث والرحالين في طلبه، وكان جده عبد الرحمن محدثاً عُرف بالصدق والثقة في روايته، فنشأ يحيى معنياً بعلم الحديث، وقد عرف بسرعة الحفظ وقوة الذاكرة حتى قال عنه المحدث الكبير يحيى بن معين: ما كان بالكوفة من يحفظ معه[٢٦٢]. أخذ عن جده، وسافر إلى بغداد ليستمع إلى كبار محدثيها، وأخذ عنهم كثيراً. وقيل عنه إنه حفظ عشرة آلاف حديث يسردها سرداً[٢٦٣]. ولا يخلو الخبر من المبالغة، لأن الخطيب البغدادي رغم اعترافه بقدرة الحماني الفائقة على الحفظ، يقول إنه كان يسرد مسنده وفيه أربعة آلاف حديث سرداً[٢٦٤].

على أن بعض رجال الحديث وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل كانوا يطعنون بروايته، ويسقطون كثيراً من أحاديثه، وأنكر الإمام أحمد حديثاً كان الحماني رواه عنه، مستشهداً بذلك على عدم صدقه، وقال عنه: إنه يسرق الأحاديث أو يلتقطها أو يتلقفها، وأنه قد طلب وسمع ولو اقتصر على ذلك لكان فيه كفاية[٢٦٥]. إلا أن الحماني ردّ على الطاعنين بصحة روايته واتهم علماء الكوفة بأنهم يقولون ذلك حسداً له لأنه أول من جمع المسند، وقد تقدمهم في ذلك[٢٦٦]. ويؤيد الخطيب البغدادي موقف الحماني، إذ يقول: ما كان بالكوفة مثل ابن الحماني، وما يقال فيه إلا من حسد[٢٦٧]. وجاء في قاموس الأعلام أن يحيى الحماني أول من صنف المسند بالكوفة[٢٦٨].

توفي الحماني بسر من رأى في شهر رمضان سنة ٢٢٨. ويقول الخطيب البغدادي إنه أول من مات بسر من رأى من المحدثين الذين قدموا إليها[٢٦٩].

---

(٢٦٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ٤٠٤.
(٢٦٣) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٤.
(٢٦٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٤، ص ١٦٨.
(٢٦٥) المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٧١ ـ ١٧٢.
(٢٦٦) المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٧٠.
(٢٦٧) المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٦٩.
(٢٦٨) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٩، ص ١٨٨.
(٢٦٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٧٧؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ٤٠٤، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٥٤.

ب ـ نُعيم بن حمّاد

نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام، أبو عبد الله الخزاعي الفارضي، كان من الرحالة في طلب الحديث، نشأ في مرو من أسرة عربية ورحل إلى العراق والحجاز ثم سكن مصر، ولم يزل مقيماً فيها إلى أن شخص إلى سامراء في أيام الخليفة المعتصم بالله. سمع الحديث على بعض محدثي عصره واختص بالمحدث عبد الله بن المبارك، وسمي الفارضي لأنه كان من أعلم الناس بالفرائض[٢٧٠]. ويقال إنه أول من جمع المسند في الحديث وصنفه[٢٧١].

وقد اختلف في نعيم رجال الحديث، فمنهم من وثق بروايته واعتبره ثقة صدوقاً فروى عنه، ومنهم من اتهمه بوضع الحديث والحكايات المزورة ووصفه بالوهم فيما يرويه[٢٧٢]. وقال بعضهم إنه ليس من الحديث في شيء[٢٧٣].

وحمل نُعَيم بن حماد وآخرون ممن لم يستجيبوا إلى القول بخلق القرآن إلى دار الخلافة في سنة ٢٢٤، وهناك قيد وسجن. وظل محبوساً حتى مات في جمادى الأولى سنة ٢٢٨ ويقال سنة ٢٢٩، وكان أوصى أن يدفن في قيوده، وقال: إني مخاصم، فجُرَّ في قيوده وأُلقي في حفرة دون أن يكفن أو أن يصلي عليه أحد[٢٧٤] لأن دعوة المعتزلة كانت في عنفوان قوتها.

ولنُعيم كتب عدّة في الرد على الجهمية، وهو الخبير بآرائهم وأقوالهم، وقد قال: أنا كنت جهمياً فلذلك عرفت كلامهم، فلما طلبت الحديث عرفت أنهم يدعون إلى التعطيل[٢٧٥]. ومن هنا انبرى للرد عليهم. وجاء في هدية العارفين أن له ثلاثة عشر كتاباً في الرد عليهم، وكتباً في الرد على أبي حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني، ومن تصانيفه أيضاً كتاب الملاحم والفتن، ومسند في الحديث[٢٧٦].

ج ـ ابن المديني

أبو جعفر علي بن عبد الله بن جعفر بن يحيى بن بكر بن سعدي البصري المعروف بابن المديني، وقيل جعفر بن نجيح بن بكر، الحافظ الناقد العالم باختلاف الحديث، ولد سنة ١٦١ وكان أبوه محدثاً مشهوراً فسمع منه، ومن سفيان بن عيينة، وابن عُليّة اسماعيل بن

---

(٢٧٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٠٧، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٢٧١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣٠٦.

(٢٧٢) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٢، ص ٦٧.

(٢٧٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٢.

(٢٧٤) المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٣ ـ ٣١٤، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٢٥٤ و٢٥٧.

(٢٧٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٣، ص ٣١٢.

(٢٧٦) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٤٩٧.

ابراهيم الكوفي، وغيرهم من رجال الحديث، وروى عنه أعلام الحديث في أيامه، البخاري، وأحمد بن حنبل، وابن ماجة، والنسائي(٢٧٧).

اشتهر ابن المديني بمعرفته الواسعة بعلوم الحديث وبخاصة ما يتعلق بالعلل وتجريح الرواة وتعديلهم، بحيث صار إماماً فيه. وقد أعجب به البخاري وتمنى أن يقدم العراق وعليّ حي فيجالسه، كما أشاد النسائي بسعة علمه فقال: كأن الله خلق علي بن المديني لهذا الشأن، ومع أن ابن عيينة من أساتذته فقد قال عنه: والله إني لأتعلم من علي أكثر مما يتعلم مني(٢٧٨). واعتبره القاسم بن سلام أحد أربعة انتهى إليهم علم الحديث، وإن علياً كان أعلمهم به(٢٧٩).

وكان ابن المديني ممن ابتلي بالمحنة بالقول بخلق القرآن، فاستجاب بعد أن سجن في بيت مظلم ثمانية أشهر وفي رجليه قيود بثمانية أمنان، إلا أنه سمع منه قبل وفاته بشهرين يقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال إنه مخلوق فقد كفر. وصنف ابن المديني عدداً كبيراً من الكتب في الحديث ورجاله، ويقال إن له في الحديث نحو مئتي مصنف(٢٨٠)، وأهمها: كتاب المسند بعلله، وكتاب المدلسين، وكتاب الضعفاء، وكتاب العلل، وكتاب الأسماء والكنى، وكتاب التنزيل(٢٨١).

توفي ابن المديني ليومين بقيا من ذي القعدة سنة ٢٣٤، وهذا ما اتفقت عليه عدة مصادر وأخذ به صاحب قاموس الأعلام، إلا أن ابن النديم يقول إن ابن المديني توفي بسر من رأى يوم الاثنين لثلاث بقين من ذي القعدة من سنة ٢٥٨(٢٨٢).

د ـ ابن أبي شيبة

أبو بكر عبد الله بن محمد بن ابراهيم العبسي الكوفي، المعروف بابن ابي شيبة، أحد كبار حفاظ الحديث ورواته. أخذ الحديث عن سفيان بن عيينة، وشريك بن عبد الله، وعبد الله بن المبارك، واعتماداً على رواية ما يحفظه روى عنه الإمام أحمد بن حنبل وابراهيم الحربي وغيرهما من كبار رجال الحديث(٢٨٣).

---

(٢٧٧) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١١، ص ٤٥٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٧٦.

(٢٧٨) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٢٧٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢.

(٢٨٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٢٨١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٦.

(٢٨٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١١، ص ٤٧٢؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ٤١٨؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧؛ الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٥، ص ١١٨، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٣٦.

(٢٨٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٦، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢.

وكان أبو بكر وأخوه عثمان ممن استدعاهم المتوكل على الله من الكوفة عندما أبطل المحنة، ليجلسا للناس في سامراء وبغداد ويحدثاهم بأحاديث تردُّ على آراء المعتزلة وتنقض عقائدهم. فجلس عثمان في مدينة أبي جعفر المنصور ونصب له منبر، وجلس أبو بكر في مسجد الرصافة، فكان أكثر تقدماً من أخيه، يجتمع إليه لسماعه عدد كبير من الناس يقدرهم الخطيب البغدادي بنحو من ثلاثين ألفاً[٢٨٤].

اشتهر أبو بكر بقوة حافظته، وبكثرة ما يحفظ من الأحاديث، وبحسن روايته. وقد اعتبره أبو عبيد القاسم بن سلام أحد العلماء الأربعة الذين انتهى إليهم علم الحديث وقال عنه إنه أسردهم وأحفظهم للحديث[٢٨٥]. وقال ابن النديم عن أبي بكر بن أبي شيبة إنه من المحدثين المصنفين، وعدد له من الكتب: كتاب السنن في الفقه، وكتاب التفسير، وكتاب التاريخ، وكتاب المسند في الحديث، وكتباً تاريخية أخرى[٢٨٦]. ويعتبر كتاب المسند أهم كتبه في الحديث، إذ جمع فيه ما حفظه ورواه مما صح لديه من الأحاديث[٢٨٧].

توفي أبو بكر في سنة ٢٣٥[٢٨٨].

أما أخوه عثمان بن محمد بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٧ فقد كان من المحدثين المصنفين أيضاً، وله كتاب المسند في الحديث، وكتاب السنن في الفقه، وكتاب التفسير[٢٨٩].

هـ - ابن البهلول

أبو يعقوب اسحاق بن البهلول بن حسان التنوخي الانباري، الفقيه المحدث، رحل في طلب العلم إلى أمهات الأمصار وسمع كثيراً من المحدثين وروى عنهم، وكان ثقة صدوقاً، درس الفقه على الحسن بن زياد اللؤلؤي من أشهر اتباع أبي حنيفة، وعلى الهيثم بن موسى صاحب القاضي أبي يوسف، وكانت له مذاهب وآراء في الفقه تفرّد بها[٢٩٠].

كان المتوكل على الله استدعى ابن البهلول إلى سامراء فحدثه وسمع منه، وأمر فنصب له منبر في المسجد الجامع بسر من رأى، وفي رحبة زيرك بالقرب من باب الفراغنة، وأكرمه، فأقام في سامراء إلى أن هرب المستعين بالله إلى بغداد فانحدر ابن البهلول إليها أيضاً، ولم

---

(٢٨٤) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٧.

(٢٨٥) المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٩، وابن خلدون، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٢.

(٢٨٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٤.

(٢٨٧) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٧٨.

(٢٨٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٣٤، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٠، ص ٧١.

(٢٨٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٣٤، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٦٥١.

(٢٩٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٦٧.

يحمل من كتبه شيئاً، فطلب إليه أمير بغداد محمد بن عبد الله أن يحدث الناس فحدّث من حفظه بخمسين ألف حديث لم يخطىء في شيء منها[291].

ولد ابن البهلول بالأنبار في سنة ١٦٤، ومات بها سنة ٢٥٢[292]. وله من المصنفات كتاب في الفقه سماه المتضاد، وكتاب القراءات، وكتاب المسند في الحديث[293].

و ـ الدارمي

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، من دارم بن مالك بن تميم، الحافظ المحدث، ولد بسمرقند وإليها نسب وبها اشتهر وكان يضرب به المثل في الحلم والرزانة. وقد رحل في طلب الحديث والاستماع إلى رجاله حتى صار من أئمته بحيث لم يكن في عهده أحد أعلم منه بحديث رسول الله ﷺ، وقد سمي إمام أهل زمانه. قدم بغداد وحدَّث بها واتصل بالإمام أحمد بن حنبل الذي كان يحترمه كثيراً ويسميه السيد، وقال: عُرض عليّ الكفر فلم أقبل، وعُرضت عليه الدنيا فلم يقبل. لأنه سبق أن عرض والي سمرقند على الدارمي أن يتولى قضاءها فأبى، ولما ألحَّ عليه وافق وقضى في قضية واحدة ثم استعفى.

صنَّف الدارمي عدداً من الكتب منها: كتاب المسند في الحديث، وكتاب التفسير، وكتاب الجامع، وكتاب الثلاثيات في الحديث، وكتاب السنّة.

كان مولد الدارمي، كما قال عن نفسه، في سنة ١٨١، وقد توفي يوم التروية سنة ٢٥٥ ودفن يوم عرفة[294].

ز ـ أبو داود

سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدي، من فقهاء أتباع الامام أحمد بن حنبل، نشأ بالبصرة، وقد عُرف بالنسك والورع والصلاح، وانصرف منذ نشأته إلى دراسة الحديث والتفقه فيه حتى غدا من أعلامه، وقد رحل إلى كثير من البلدان مطوفاً في طلبه وجمعه، فذهب إلى خراسان والشام ومصر والجزيرة، وسمع المحدثين وكتب عنهم، وروى كثيرون عنه، وبلغ من حفظه الحديث وروايته وعلمه بعلله وسنده أن صار إمام أهل الحديث

---

(٢٩١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٦٨.

(٢٩٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٦٩، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٣٦.

(٢٩٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٦٧، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ١٤٨.

(٢٩٤) حول الدارمي، انظر: الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٢٩ ـ ٣٠؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج ٢، ص ٤٩ ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٣، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤١.

في عصره. وأهم مصنفاته فيه: كتاب السنن، وقد جمع فيه المهم من السنن والأحاديث الفقهية، وقدم بغداد مراراً وروى فيها كتابه المذكور ونقله أهل الحديث عنه، ويقال إنه عرضه على الإمام أحمد بن حنبل فاستحسنه واستجاده(٢٩٥).

ولما أنجز أبو داود كتاب السنن قال: «كتبت من أحاديث الرسول ﷺ خمسمئة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب، جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمئة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها «إنما الأعمال بالنيات» والثاني «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» والثالث «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه» والرابع «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبين ذلك أمور مشتبهات»(٢٩٦).

ولد أبو داود في سنة ٢٠٢ حسب قوله، أما وفاته فكانت في البصرة في يوم الجمعة منتصف شوال سنة ٢٥٧، ويقول ابن خلكان ان ابا داود لقب بالسجستاني نسبة إلى سجستان أو سجستانة قرية من قرى البصرة(٢٩٧).

* * *

وصنّف في خلال هذا القرن عدد آخر من كبار رجال الفقه وحفّاظ الحديث «مسانيد»، إلا أنها لم تكن في تأثيرها وانتشارها بدرجة ما أسلفنا بيانه من كتب المسانيد والسنن. ونذكر فيما يأتي بعضهم ممن ذكرهم ابن النديم وصاحب كشف الظنون، وصاحب هدية العارفين، وابن خلكان، وقاموس الأعلام، وغيرها من المصادر:

مُسَدَّد بن مُسَرْهَد بن مُسَرْبَل الأسدي البصري، من المحدثين الثقات وأول من صنف المسند في البصرة، وقد توفي سنة ٢٨٢(٢٩٨).

وأبو جعفر عبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي البخاري المتوفى سنة ٢٢٩ وكان حافظاً للحديث وراوية له، ثقة في حفظه وروايته، وقد لقب بالمستندي لأنه أول من جمع مسند الصحابة، بما وراء النهر وكان إمام أهل الحديث هناك(٢٩٩).

---

(٢٩٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥٦؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٩٧، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٣٨.

(٢٩٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥٧؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٧؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٩؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٠٠٤ وفيه أنه ضمّنه أربعة آلاف حديث وثمانية أحاديث.

(٢٩٧) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٥٧ و٥٩؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٨؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٩ - ١٤٠؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٨ وفيه أنه توفي سنة ٣١٦ وهو واهم في ذلك.

(٢٩٨) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٨٤؛ البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٤٢٨؛ والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٨، ص ١٠٨.

(٢٩٩) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٦٠.

وأبو خيثمة زهير بن حرب بن شداد المتوفى سنة ٢٣٤ محدث بغداد في عصره، وقد أكثر مسلم في الرواية عنه، وله كتاب المسند في الحديث[٣٠٠].

ومحمد بن يحيى بن أبي عمر، أبو عبد الله العَدَني، ويقال له ابن أبي عمر، وهو أحد كبار علماء الحديث، تولى القضاء في عدن، وسمع عنه مسلم بن الحجاج والترمذي، وله كتاب المسند في الحديث، وقد توفي سنة ٢٤٣[٣٠١].

والحافظ أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن كثير العبدي البكري البغدادي المعروف بالدورقي، نسبة إلى عمل أو لبس القلانس الطويلة الخاصة بأهل النسك وتسمى الدورقية، وهو محدث العراق في زمنه، كان حافظاً متقناً، صنف المسند في الحديث، وتوفي سنة ٢٥٢[٣٠٢].

وأبو اسحاق ابراهيم بن سعيد الجوهري البغدادي من أعلام رجال الحديث، سمع سفيان بن عيينة وغيره من المحدثين، وروى عنه كثيرون منهم أصحاب الصحاح عدا البخاري، ويعتبره الإمام أحمد من الثقات، وله المسند في الحديث، انتقل عن بغداد ورابط في عين زربي إلى أن مات بها سنة ٢٥٣ على ما ذكره الخطيب البغدادي، إلا أن صاحب كشف الظنون، وصاحب النجوم الزاهرة يقولان إنه توفي سنة ٢٤٧ ولكن قاموس الأعلام اعتبره من وفيات سنة ٢٤٨[٣٠٣].

ومحمد بن عبد الله بن سنجر الجرجاني أبو عبد الله المتوفى سنة ٢٥٨ وهو من رجال الحديث، ولد بجرجان فنسب إليها، إلا أنه كان قد استوطن مصر، وبها توفي، وله مسند في الحديث في عشرين جزءاً[٣٠٤].

ويعقوب بن شيبة بن الصلت أبو يوسف السدوسي البصري المتوفى سنة ٢٦٢ من كبار علماء الحديث، وكان يتفقه على مذهب الإمام مالك، وله كتاب المسند الكبير معللاً، وهو في مئات الأجزاء إلا أنه لم يتمه، ويقول صاحب هدية العارفين إنه يقع في خمسة مجلدات[٣٠٥].

---

(٣٠٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٥، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٨٧.

(٣٠١) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٧٨، ويكتبه: ابن أبي عمرو.

(٣٠٢) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢٥٣، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٥٣٧.

(٣٠٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٩٥؛ حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٢٦، والزركلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣.

(٣٠٤) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩٤، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦.

(٣٠٥) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٧٨؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٧، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣٧.

ومحمد بن ابراهيم بن مسلم البغدادي، أبو أمية، كان من حفّاظ الحديث ورواته، وله مسند في الحديث، توفي بطرسوس سنة ٢٧٣[٣٠٦].

وأبو سعيد الدارمي عثمان بن سعيد بن خالد المتوفى سنة ٢٨٠ محدث مدينة هرات في زمانه، له مسند في الحديث كبير[٣٠٧].

وأحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ويلقب بابن النبيل، كان عالماً بالحديث، وهو من أهل البصرة وقد ولي قضاء أصبهان أكثر من عشر سنين وله ثلاثمئة مصنف منها المسند الكبير في الحديث، ويضم نحو خمسين ألف حديث، وقد ذهبت كتبه في فتنة الزنج، وكانت وفاته في سنة ٢٨٧[٣٠٨].

وأبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، حافظ من علماء الحديث، من أهل البصرة، حدّث ببغداد والشام، وتوفي بالرملة في سنة ٢٩٢ وله مسندان أحدهما كبير سماه البحر الزاخر والآخر صغير[٣٠٩].

وأبو عبد الله محمد بن نصر المتوفى سنة ٢٩٤، ولد ببغداد واستوطن سمرقند وبها اشتهر، كان امام الفقه والحديث ومن أعلم الناس باختلاف الصحابة والتابعين بالأحكام، له المسند في الحديث[٣١٠].

وأبو اسحاق محمد بن ابراهيم بن معقل بن محمد الحنفي الحافظ النَّسَفي المتوفى سنة ٢٩٤ من رواة الجامع الصغير والصحيح بإجازة من الإمام البخاري، وله كتاب المسند في الحديث[٣١١].

وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي المتوفى سنة ٢٩٨ من المحدثين الثقات، له كتاب المسند، وكتاب تفسير المسند[٣١٢].

والحسن بن سفيان بن عامر الشيباني أبو العباس، كان محدث خراسان في زمنه، عالماً

---

(٣٠٦) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٨٣.

(٣٠٧) البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥١، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٦٦.

(٣٠٨) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٧٨؛ البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣، والزركلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٣٠٩) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٨٢؛ الزركلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٢، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٤.

(٣١٠) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٣ - ٦٤.

(٣١١) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٦٨٥، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤.

(٣١٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٢٨.

بالفقه والأدب، له المسند في الحديث، توفي سنة ٣٠٣ في بالـوز إحدى قـرى نسأ عـلى ثلاثـة فراسخ منها[٣١٣].

وأبو القاسم البغوي عبد الله بن محمـد بن عبد العـزيز ويعـرف بابن بنت منيـع، ولد ببغداد وبها توفي سنة ٣١٧، وكان محدّث العراق في أيامـه، حافـظاً للحديث ثقـة في روايته، وله من الكتب في الحديث: كتـاب المسند، وكتـاب معجم الصحابـة، كبير وصغير، وكتاب الجعديات[٣١٤].

وعدّد صاحب كشف الظنون عدداً آخر من المسـانـد في الحـديث، نذكـر منها مـا يعود لمحدّثي هذا القرن[٣١٥]:

مسند الحميدي للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير المكي المتوفى سنـة ٢١٩ وهو بـأحد عشر جـزءاً. ومسـند أبي عـلي محمد بن أسلم المتوفى سنة ٢٤٢. ومسنـد أبي حفص أحمد بن منيع الأصم المتوفى سنة ٢٤٤. ومسنـد الكشي أبي محمد عبد الله بن حميد المتوفى سنـة ٢٤٩. ومسند أبي جعفر محمد بن مهدي المديني المتوفى سنـة ٢٧٢. ومسند أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد القـرطبي الحافظ المتـوفى سنة ٢٧٦ قـال عنه ابن حـزم إنه روى فيـه عن ألف وثلاثمئـة صحابي ونيف، ورتب حديث كل صحابي على أبواب الفقه، فهو مسنـد ومصنف ليس لأحد مثله. ومسند العنبري للحافظ أبي اسحاق ابراهيم بن اسماعيـل المتوفى سنـة ٢٨٠ في أكثر من مئتي جزء. ومسند أبي أسامة الحـارث بن محمد التميمي المتـوفى سنة ٢٨٢. والمسنـد المنتخب لعلي بن عبد العزيز البغوي المتوفى سنة ٢٨٧. ومسند الأزرقي أبي الـوليد محمـد بن عبد الله المتوفى سنة ٢٩٧. ومسند أبي اسحاق ابراهيم بن يوسف الهسّنجاني المتوفى سنة ٣٠١.

٤ ـ محدّثون آخرون

وهناك عدد كبير من العلماء والفقهاء ممن عنوا بدراسـة الحديث وجمعـه وحفظه وروايته دون أن يصنفوا فيه مسنداً. وسنعدد فيما يأتي بعض من اشتهر منهم في خلال القرن الثالث:

عفّان بن مسلم بن عبد الله أبـو عثمان الصفّـار، من حفّاظ الحـديث الثقات من أهـل البصرة، وسكن بغـداد. امتنع عن الاجـابة في المحنـة فقطع رزقـه الشهري وقـدره خمسمئـة درهم، وهو أول من أصابته المحنة، مات ببغداد في سنة ٢٢٠[٣١٦].

(٣١٣) البغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٩؛ الزركلي، الأعلام: قاموس تـراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقـين، ج ٢، ص ٢٠٦، وياقـوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٣١٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٣٩، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٤.

(٣١٥) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٧٨ ـ ١٦٨٥.

(٣١٦) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٥، ص ٣٤.

وهشام بن عبد الملك الطيالسي الباهلي المتوفى سنة ٢٢٧ كان من كبار حفاظ الحديث، روى عنه البخاري نيفاً ومئة حديث[٣١٧].

ويحيى بن معين بن عون بن زياد البغدادي أبو زكريا الحافظ، كان من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله، سماه الذهبي «سيد الحفّاظ» وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: إنه أعلمنا جميعاً، وقال عنه أيضاً: كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث. ولد بإحدى قرى الأنبار يقال لها (نقياي)، وعاش ببغداد، وتوفي بمكة المكرمة حاجاً في سنة ٢٣٣. وقد روى عنه كثيرون منهم البخاري ومسلم وأبو داود، وله من المصنفات: كتاب التاريخ والعلل، وكتاب معرفة الرجال، ويعتبره عبد القاهر البغدادي معوَّل أهل الحديث في الجرح والتعديل[٣١٨].

وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني الخارفي نسبة إلى خارف بن عبد الله أحد بطون همدان. روى عنه البخاري حوالى عشرين حديثاً، وروى مسلم عنه عدداً كبيراً من الأحاديث. وقد توفي سنة ٢٣٤[٣١٩].

وأبو يحيى الباهلي عبد الأعلى بن حماد النرسي، ونرس لقب جده لقبته به الأنباط وكان اسمه نصراً فقالوا نرساً. سكن عبد الأعلى بغداد وحدَّث بها عن الإمام مالك بن أنس، وروى عنه البخاري ومسلم أحاديث عديدة في صحيحيهما، ومات سنة ٢٣٧ بالبصرة، وله في علم الحديث مصنفات ذكر منها صاحب هدية العارفين: كتاب الحديث، وكتاب الغريب، وكتاب ما جاء من الحديث المأثور عن النبي ﷺ[٣٢٠].

وأحمد بن صالح أبو جعفر المصري، أحد حفّاظ الأثر. كان عالماً بعلل الحديث بصيراً باختلافه. ورد بغداد وجالس بها الحفاظ وكان الإمام أحمد بن حنبل يثني عليه، وقد كتب كل واحد منهما عن صاحبه. روى عنه البخاري وأبو داود، وقال عنه البخاري: أحمد بن صالح ثقة صدوق ما رأيت أحداً يتكلم فيه بحجة. عاد إلى مصر فأقام بها وانتشر علمه عند أهلها، وكانت وفاته بها لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٢٤٨[٣٢١].

وأبو المثنى محمد بن المثنى بن عبيد بن قيس، أبو موسى العنزي، عالم بالحديث ومن

---

(٣١٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٣، وسمّاه: همام بن عبد الملك. انظر أيضاً: الزركلي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٨٥.

(٣١٨) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥، ص ١٩٠ - ١٩١؛ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أصول الدين (استانبول: دار الفنون، ١٩٢٨)، ص ٣١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٧٢، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٢١٨.

(٣١٩) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩٢.

(٣٢٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١١، ص ٧٥ و٧٧، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٤٩٣.

(٣٢١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٥ - ٢٠٢، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

حفّاظه، من أهل البصرة، وكان ثقة في روايته، زار بغداد وحدّث بها، وروى عنه البخاري ومسلم أحاديث عديدة، توفي بالبصرة في سنة ٢٥٢(٣٢٢).

والذُّهْلي محمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٥٨ الذي انتهى إليه علم الحديث في نيسابور، روى عنه البخاري عدداً من الأحاديث رغم ما كان بينهما من خلاف أشرنا إليه في سيرة البخاري. وللذهلي كتاب ضمّنه أحاديث الزهري سمّاه الزُّهريات(٣٢٣).

وأبو بكر محمد بن يوسف بن عيسى الطباع، سمع الحديث ورواه، وكان ثقة صدوقاً، وهو من أهل سامراء، زار بغداد وحدّث بها. توفي سنة ٢٧٥ وقيل سنة ٢٧٦(٣٢٤).

وأبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق بن أبي العنبس الزهري الكوفي. كان عالماً فقيهاً محدثاً، سمع الحديث على رجال زمانه ورواه، وكان طلاب الحديث يكتبون عنه وهو على قضاء مدينة المنصور، وكان صدوقاً ثقة حمل الناس عنه حديثاً كثيراً، توفي سنة ٢٧٧(٣٢٥).

وأبو حاتم محمد بن ادريس بن المنذر بن داود الحنظلي، أحد كبار حفاظ الحديث ويعتبر من أقران البخاري ومسلم، وله من المصنفات في الحديث: كتاب طبقات التابعين، توفي ببغداد في سنة ٢٧٧(٣٢٦).

وأبو زرعة الدمشقي عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري من أهل دمشق، المتوفى سنة ٢٨٠، كان من أئمة زمانه في الحديث ورجاله، وله كتاب التاريخ وعلل الرجال، وكتاب مسائل في الحديث والفقه(٣٢٧).

ومحمد بن بشّار بن عثمان بن داود العبدي أبو بكر البصري ويعرف بِبُندار، كان من المحدثين الثقات، روى عنه ابراهيم الحربي وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو داود سليمان بن الأشعث، وكان قدم بغداد وحدّث بها، ويروى عن أبي داود أنه قال: كتبت عن بُندار نحو خمسين ألف حديث. ويقول صاحب الأعلام ان البخاري ومسلم كتبا عنه الحديث أيضاً. وقد توفي في رجب سنة ٢٥٢.

---

(٣٢٢) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٨٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ٢٤٠.

(٣٢٣) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٦. وسمي الكتاب: علل حديث الزهري.

(٣٢٤) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٣٢٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥ ـ ٢٦؛ أبو بكر محمد بن خلف وكيع، أخبار القضاة، صحّحه وعلّق عليه عبد العزيز مصطفى المراغي، ٣ ج (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٧)، ج ٣، ص ١٩٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٧٦.

(٣٢٦) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٦، ص ٢٥٠، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٩.

(٣٢٧) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٤.

ثالثاً: الفقه وأشهر الفقهاء

١ ـ علم الفقه وأصوله

القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي للتشريع في الاسلام، إذ تضمنت آياته قواعد العلاقات الأساسية في المجتمع كالزواج والميراث والحرب والمعاملات وغيرها، إلى جانب الفروض الدينية وما تتضمنه من أوامر ونواهٍ. وتليه السنّة النبوية وهي ما روي عن الرسول ﷺ من أقوال وأفعال بسند موثوق متصل. والفقه على رأي ابن خلدون هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة، وهي مستمدة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لذلك فقه. ولا يخفى أن الأدلة من النصوص القرآنية والسنّة قد يقع فيها الخلاف، لأن النصوص بلغة العرب وفي اقتضاءات ألفاظها لكثير من معانيها وخصوصاً الأحكام الشرعية اختلاف بينهم معروف. وكذلك السنّة مختلفة الطرق في ثبوتها وتعارض بعض أحكامها مما يحتاج إلى الترجيح. كما أن بعض الوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص، وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على نص آخر لمشابهة بينهما، بأن تقاس القضايا بما يشابهها. وكان الذي يتولى البت فيما يختلف عليه في صدر الإسلام حاملو القرآن العارفون بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وسائر دلالاته، وكان يسمون القراء. إلا أنه بعد أن انتشر العرب وتقدموا في ميدان الحضارة أصبح الفقه صناعة وعلماً وأطلق على أصحابه اسم الفقهاء والعلماء بدلاً من القراء[٣٢٨].

ولا يخفى أن توسع شؤون الحياة بمختلف نواحيها، وتنوع العلاقات الاجتماعية وازديادها، نتجت عنه مشاكل جديدة لا توفي بها نصوص القرآن والحديث والأحكام المستنبطة منهما، فكان لا مناص من اللجوء إلى الاجتهاد إلى جانب القياس لإيجاد الحلول المناسبة لها. يقول الشهرستاني عن الحاجة إلى الاجتهاد واللجوء إلى القياس «وبالجملة نعلم قطعاً ويقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد. ونعلم قطعاً أيضاً أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك أيضاً. والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، عُلم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد. ثم لا يجوز أن يكون الاجتهاد مرسلاً خارجاً عن ضبط الشرع»[٣٢٩].

وهكذا أخذ الفقه منذ القرن الثاني طريقتين: الأولى طريقة أصحاب الرأي، وهم أهل العراق: «وإنما سموا أصحاب الرأي والقياس لأن أكثر عنايتهم بتحصيل وجه القياس والمعنى المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها. وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار. وقد قال أبو حنيفة ـ رأس أهل الرأي ـ: علمنا هذا رأي وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن قدر على غير ذلك فله ما رأى، ولنا رأينا»[٣٣٠].

---

(٣٢٨) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٣.

(٣٢٩) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ٢ ج في ١ (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦٧)، ج ١، ص ١٩٩.

(٣٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٧.

والثانية طريقة أصحاب الحديث وهم أهل الحجاز أصحاب الإمام مالك بن أنس «وإنما سموا أصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار، وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً»[331].

والاجتهاد هو تحكيم الرأي للوصول إلى المقصود، ولذلك يسمى بالرأي أيضاً. أما القياس فهو مشابهة القضايا المستجدة التي لا حلّ لها بأمثالها وأشباهها من القضايا السابقة. والقياس نوعان: قياس علة وقياس شبه، وقياس العلّة أن تجمع المقيس والمقيس به علة، أما قياس الشبه فلا تجمع بينهما علّة وإنما يقاس به عن طريق التشبيه، إلا أن كثيراً من الفقهاء لا يفرقون بينهما[332]. على أن الرأي والقياس خضعا لما عُرِف بإجماع الأمة، ويقصد به ما اتفق عليه الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكذلك ما اتفق عليه العلماء في كل زمن دون غيرهم من العامة[333].

لقد ساعد الاجتهاد والقياس والاجماع على توسيع أسس التشريع وأصوله في الدولة العربية، وساعد على مرونته ومسايرته تطور المجتمع العربي الاسلامي بعد اتصال العرب بالأمم الأخرى، مما جعله قادراً على مواجهة المشاكل والقضايا التي تعترض الناس في حياتهم اليومية، دينية كانت أو دنيوية. وبذلك أصبح واجب الفقهاء أن يستخلصوا الحلول لما ينشأ من تصرفات الأشخاص من مشاكل وقضايا ضمن حدود الشريعة، ليضعوا كلاً منها في مكانها المناسب ويبينوا ما يترتب عليها من ثواب أو عقاب. وتسهيلاً لذلك حدد الفقهاء الأعمال بخمسة أنواع هي: أعمال يجب أداؤها، فيثاب فاعلها ويعاقب تاركها، وهي الفروض والواجبات. وأعمال نهى عنها الشرع يعاقب فاعلها، وهي المحرمات. وأعمال حض الشرع على فعلها فيثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها. وأعمال أحلّها الشرع، فلا يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها، وهي المباحات من الأعمال. وأعمال لا يقرها الشرع، ولا يعاقب فاعلها، وهي المكروهات من الأعمال.

٢ ـ المذاهب الفقهية

قامت بين أصحاب الرأي وأهل الحديث خلافات كثيرة، ولهم فيهما مصنفات ومناظرات، إلا أنها لم تخرج عن حدود الشريعة، وليس يلزم من ذلك تكفير ولا تضليل، بل كل مجتهد مصيب[334]. وكان لكل من اتباع الفريقين حججه وأسانيده. كما كثر الخلاف بين الفقهاء في الأحكام التي يستنبطونها من الأدلة الشرعية باختلاف مداركهم ووجهات نظرهم،

---

(٣٣١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٦.

(٣٣٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، **مفاتيح العلوم** (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٩٢٣)، ص ٧.

(٣٣٣) المصدر نفسه، ص ٧.

(٣٣٤) الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٧.

وهو خلاف لا بد من وقوعه لكثرة المسائل والشواهد والفروع. وكان للمقلدين من الناس أن يقلدوا من شاءوا من أولئك الفقهاء. وقد بدا لبعض من الوقت أن أصحاب الحديث قد تغلبوا على أهل الرأي والقياس عندما نادى الفقيه داود بن علي بن خلف الظاهري بالاعتماد في الأحكام الشرعية على المنقول، والتمسك بظواهر النصوص والاكتفاء بها. أي الاكتفاء بالكتاب والسنة وطرح ما سواهما من رأي وقياس. وقد تبعه خلق من الناس. إلا أنه لما أدلى برأيه في القرآن بقوله: إن الذي في اللوح المحفوظ غير مخلوق، وأما الذي هو بين الناس فمخلوق، أغضب جماعات كثيرة وبخاصة الحنابلة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل الذي رفض أن يقابله[٣٣٥]. وانتقده ابن الجوزي على تمسكه باللفظ ووصمه بالجمود والغفلة، فقال إن: «مذهبه طريق يدعي الجمود على النقل ويخالف كثيراً من الأحاديث ويلتفت على مفهوم الحديث إلى صورة لفظ وفي هذا تغفيل»[٣٣٦]. ولهذا ما لبث أن ضعف شأن مذهب داود وأصحابه ولم يستطع الاستمرار فاندثر واندرس بمرور الزمن.

ولما انتهى القرن الثالث كان التقليد قد انتهى إلى عدد من أئمة الفقه فاقتصر الناس على تقليدهم، وتوقف الاجتهاد لصعوبته وتشعب مواده، وخشية اسناده إلى غير أهله. وكان الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ إمام أهل العراق، وكان للرأي والقياس المكان الأول في فقهه، إذ «كان لفقهاء الحنفية اليد الطولى من الغوص على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكنهم»[٣٣٧].

أما مالك بن أنس الملقب بإمام دار الهجرة، المتوفى سنة ١٧٩ فقد كان إمام أهل الحجاز، وهم أصحاب طريقة الحديث في الفقه باعتماد السنّة النبوية، وكان يكره الأخذ بالرأي، إلا أنه أضاف إلى الحديث مبدأ الإجماع، ويقصد به أعمال أهل المدينة باعتبارهم قد اتبعوا نهج التابعين والصحابة قبلهم.

ثم كان بعده الإمام محمد بن ادريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وقد نهج أول أمره نهج الإمام مالك باتباع طريقة الحديث. إلا أنه عندما رحل إلى العراق واتصل بأصحاب أبي حنيفة وأخذ عنهم، مزج بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق، واختص بمذهب وسط بينهما، خالف فيه الإمام مالكاً في كثير من المسائل.

وجاء بعد الشافعي الإمام أحمد بن حنبل الذي كان أبرز محدثي عصره، فابتعد عن طريقة أهل الرأي والقياس والتزم بـ القرآن والحديث. ويعتبر مقلدوه أكثر الفئات الاسلامية حفظاً للسنة ورواية للحديث.

---

(٣٣٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٣٧٣، وابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٧٦.

(٣٣٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٥.

(٣٣٧) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٨.

وكان الشيعة قد انفردوا بنهج فقهي خاص يقر الاجتهاد وعصمة الائمة من آل بيت الرسول ﷺ، والأخذ بالأحاديث المروية بطريق الأئمة.

يتضح مما سبق ذكره عن علم الفقه وأصوله أنه علم عربي اسلامي نشأ وتطور بحسب مقتضيات الزمن، وأنه لم يتأثر بأية آراء أو أفكار خارجية مما نقل وترجم من الكتب اليونانية وغيرها. وسبب ذلك واضح، هو أن قواعد هذا العلم وأصوله هي القرآن الكريم والسنة النبوية.

٣ ـ أشهر الفقهاء ومصنفاتهم

برز في خلال القرن الثالث عدد كبير من الفقهاء الأعلام من أتباع المذاهب الفقهية التي ذكرناها آنفاً، وكان لهم أثر مهم في تطوير تلك المذاهب ونشرها. وسنورد فيما يلي موجزاً بسيرة المشهورين منهم على اختلاف انتماءاتهم الفقهية، ونذكر مصنفاتهم الفقهية. ولا يغرب عن البال أن أسس هذه المذاهب قد ثبتت منذ النصف الثاني من القرن الثاني عدا المذهب الحنبلي الذي ثبتت أصوله في منتصف القرن الثالث. ولهذا فإن أغلب مصنفات الفقهاء في هذا القرن إنما هي شروح وتوضيحات أو اختصاصات وتلخيصات للأسس الفقهية المثبتة. وكلها تستهدف التبسيط والتوضيح. وسنعرض سير هؤلاء الفقهاء بحسب تسلسلهم الزمني:

أ ـ عبد الله القَعْنَبي

أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي، ونسبته إلى جده وهو من أهل المدينة، أخذ العلم والحديث والفقه عن الامام مالك بن أنس وهو من جلّة أصحابه وفضلائهم وثقاتهم. وقد روى عنه أصول فقهه وكتابه الموطأ. وسمي «الراهب» لزهده ونسكه وعبادته. سكن البصرة وبها توفي سنة ٢٢١، وهناك قول إن وفاته كانت بطريق مكة.

لم يذكر ابن النديم شيئاً عن مصنفاته[٣٣٨].

ب ـ الحسن السرَّاد

أبو علي الحسن بن محبوب السرَّاد أو الزراد الكوفي، فقيه من علماء الشيعة الإمامية، من أصحاب الإمام علي الرضا وابنه الإمام محمد التقي المعروف بالجواد. نشأ السرَّاد بالكوفة وعاش بها. وكان كثير التصانيف له ما يربو على خمسين كتاباً أغلبها في الفقه وعلوم القرآن، منها: كتاب الفرائض والحدود والديات، وكتاب النكاح، وكتاب الاحتجاج، وكتاب فضائل الأعمال، وكتاب فضائل القرآن، وكتاب التفسير، وكتاب طبقات الرجال، وكتاب

---

(٣٣٨) حول القَعْنَبي، انظر: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٩٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٤٤، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٤، ص ٢٨٠.

النوادر[٣٣٩]. ويظهر أن له كتاباً في الأصول والفقه رواه عن الأئمة[٣٤٠]. توفي الحسن السرّاد في سنة ٢٢٤[٣٤١].

ج ـ يوسف البويطي

أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، الفقيه الشافعي المصري، من قرية بويط ـ وهنالك قريتان بهذا الاسم إحداهما بصعيد مصر والأخرى بقرب أسيوط، وهو منسوب إلى إحداهما[٣٤٢]. درس الفقه والحديث على الإمام الشافعي، وصار أقرب طلابه إليه، بما كان يتمتع به من صفات النباهة وقوة الحافظة والمواظبة على الدرس، فكان لا يفارق مجلسه، وقام مقامه في الدرس بعد وفاته. وقد اعتمده الشافعي في الفتاوى «وكان الرجل ربما يسأله عن المسألة فيقول له: سل أبا يعقوب، فإذا أجابه أخبره، فيقول: هو كما قال»[٣٤٣] وذلك دليل على عمق معرفته بفقه الشافعي وسعة اطلاعه عليه. وشهد له الشافعي ببراعته في الاحتجاج بالآيات القرآنية الكريمة، فقال: ما رأيت أحداً أبرع بحجة من كتاب الله مثل البويطي[٣٤٤] وقال عنه: «ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف، وليس أحد من أصحابي أعلم منه»[٣٤٥].

كان البويطي، إلى براعته في الفقه، محدثاً ثقة أخذ الحديث، كما قلنا، عن الإمام الشافعي وعن محدثين آخرين، وروى عنه عديد من المحدثين والفقهاء منهم الربيع بن سليمان المرادي زميله في الدراسة على الشافعي، وإبراهيم الحربي[٣٤٦].

وتعرّض البويطي للمحنة وأريد على القول بخلق القرآن فلم يجب، فحمل من مصر إلى دار الخلافة مقيداً مغلولاً، فحبس بقيوده وأغلاله، وظل محبوساً إلى أن مات في شهر رجب سنة ٢٣١[٣٤٧]. وللبويطي عدد من المصنفات في الفقه، ذكر ابن النديم منها كتاب المختصر الكبير، وكتاب المختصر الصغير، وكتاب الفرائض[٣٤٨]. ويضيف صاحب هدية

---

(٣٣٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٢٣؛ البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٦٦، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣٤٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

(٣٤١) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٩، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٦.

(٣٤٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٣٤٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٦، ص ٦١، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٣٤٤) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٣٤٥) السبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٣٤٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٥، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٦، ص ٦٠.

(٣٤٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٤، ص ٣٠٣؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٢، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٣٤٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١٢.

العارفين كتاب مختصر الفروع، وكتاب النزهة الزهية[349]. وجاء في قاموس الأعلام أن كتاب المختصر في الفقه اقتبسه البويطي من كلام الإمام الشافعي[350].

د ـ محمد بن سماعة

القاضي أبو عبد الله محمد بن سماعة بن عبيد الله بن هلال التميمي، من كبار الفقهاء وثقات المحدثين حتى قيل «لو كان أصحاب الحديث يصدقون في الحديث كما يصدق محمد بن سماعة في الرأي لكانوا فيه على نهاية»[351]. كان أحد أصحاب الرأي على مذهب أبي حنيفة، صاحب أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني، وهما قطبا مذهب أبي حنيفة بعد وفاته، وأخذ عنهما أصول الفقه الحنفي، وروى عن ابن الحسن كتبه[352]. يقول عنه أبو المحاسن: «كان إماماً عالماً صالحاً بارعاً صاحب اختيارات وأقوال في المذهب، وله المصنفات الحسان وهو من الحفاظ الثقات»[353].

ولاّه المأمون قضاء مدينة المنصور بعد وفاة القاضي يوسف بن أبي يوسف[354]، واستمر في عمله على القضاء، رغم أنه لم يستجب للقول بخلق القرآن. ويظهر أن ورعه وسيرته الحسنة وعلمه الجم وعدله في أحكامه كانت أسباب استمراره[355]. إلا أنه لما تقدمت به السن وضعف بصره صرف عن عمله.

ولد ابن سماعة في سنة ١٣٠ وبعد أن عُمِّر طويلاً مات ببغداد في سنة ٢٣٣ وهو معافى الجسم صحيح العقل[356]. وله عدد من المصنفات في الفقه وأصوله، ذكر ابن النديم منها كتاب أدب القاضي، وكتاب المحاضر والسجلات، ويقول المسعودي: ولابن سماعة تصنيفات حسان في الفقه منها: كتاب نوادر المسائل، وقد وضعه عن أستاذه محمد بن الحسن، وهو في ألوف الأوراق. ويضيف صاحب هدية العارفين: كتاب مختصر الاكتساب في الرزق المستطاب[357].

---

(٣٤٩) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٥٤٩.

(٣٥٠) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٩، ص ٣٣٨.

(٣٥١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ٣٤٢.

(٣٥٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٠٣؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٤٢، وابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ٤١٤.

(٣٥٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٧١.

(٣٥٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٣، والخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٤١.

(٣٥٥) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧١.

(٣٥٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٣؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤٣؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٩٤، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧١.

(٣٥٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٣؛ المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩٥، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٢.

هـ ـ اسحاق بن ابراهيم الحنظلي

الفقيه المحدث أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن مخلد بن ابراهيم الحنظلي التميمي ـ نسبة إلى حنظلة بن مالك وينسب إليه بطن من تميم ـ وقد اشتهر بابن راهويه. وقد لقب أبو اسحاق براهويه لأنه ولد في الطريق إلى مكة، وروي عن اسحاق أن أباه كان يكره هذا اللقب، وكذلك كان الإمام أحمد بن حنبل يكره أن يقال ابن راهويه، ويقول: هو اسحاق بن ابراهيم الحنظلي، ولم يعبر الجسر إلى خراسان مثله، واعتبره عَلَماً من أعلام الدين[358]. وقد اجتمع لاسحاق الحديث والفقه والورع والزهد والحفظ والصدق، وصار عالم خراسان في عهده، وعاش أكثر أيامه في مرو، ولهذا يقال له المروزي أحياناً. وهو من جلة أصحاب أحمد بن حنبل[359].

رحل اسحاق بن ابراهيم في طلب العلم والحديث والفقه إلى العراق والحجاز واليمن وبلاد الشام، وسمع من ثقات المحدثين مثل اسماعيل بن عُلية، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وروى عنه كبار المحدثين كأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم، والترمذي[360]. واشتهر اسحاق بقوة حفظه، قال عنه أبو زرعة الفقيه المحدث ما رؤي احفظ من اسحاق، وانه كان يحفظ المتون بأسانيدها[361]. وقيل له يوماً إنك تحفظ مئة ألف حديث؟ قال: مئة ألف حديث! ما أدري ما هو، ولكني ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته[362].

كانت ولادة اسحاق في سنة ١٦١ وقيل ١٦٣ وقيل ١٦٦، وقد سكن آخر عمره في نيسابور، وبها توفي ليلة الخميس النصف من شعبان سنة ٢٣٧ وقيل ٢٣٨[363]. وذكر له ابن النديم من مصنفاته الفقهية: كتاب السنن في الفقه، وكتاب التفسير[364].

---

(٣٥٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٤٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ١٧٩.

(٣٥٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٣٥.

(٣٦٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٩.

(٣٦١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٣.

(٣٦٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٥، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٩.

(٣٦٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٥؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٩ ـ ١٨٠؛ محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى، طبقات الحنابلة، وقف على طبعه محمد حامد الفقي، ٢ ج في ١ (القاهرة: مطبعة السنّة المحمدية، ١٩٥٢)، ج ١، ص ١٠٩ وفيه أنه توفي سنة ٢٤٣، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٣٦٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٥.

و ـ بشر بن الوليد

أبو الوليد بشر بن الوليد بن خالد الكندي الحنفي، من أصحاب القاضي أبي يوسف وعنه أخذ أصول الفقه الحنفي، وسمع الحديث على ابن عيينة، وكان ابن عيينة يتوسم فيه نجابة وخيراً، قال بشر «كنا نكون عند ابن عيينة فإذا وردت عليه مشكلة، يقول: هل من أحد من أصحاب أبي حنيفة؟ فيقال له: بشر، فيقول لي: أجب فيها، فأجيب، فيقول: التسليم للفقهاء سلامة في الدين»[٣٦٥]. يقول عنه ابن النديم إنه من كبار أصحاب الرأي صليب النسب، عفيف، ولي القضاء للمأمون[٣٦٦].

تولى بشر القضاء بعسكر المهدي من جانب بغداد الشرقي، ثم نقل إلى قضاء مدينة المنصور، وما لبث أن صرف عنه، ولما عزل المأمون اسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، أعاد بشر بن الوليد على قضاء مدينة المنصور[٣٦٧]. وقد اتصف بشر بالجرأة والصراحة وصلابة الرأي، وابتلي بالمحنة فلم يستجب، فأعفاه المعتصم بالله من القضاء، وأمر أن يحبس في منزله، ووكل ببابه الشرط، ونهاه عن أن يفتي أحداً بشيء. إلا أنه لما تولى المتوكل على الله الخلافة وألغى المحنة أمر بإطلاق بشر بن الوليد وأن يفتي بالناس ويحدثهم[٣٦٨].

توفي بشر بن الوليد ببغداد في شهر ذي القعدة من سنة ٢٣٨ وكان قد أصيب بالفالج، ودفن في مقابر باب الشام[٣٦٩]. أما مصنفاته فلم يذكر ابن النديم عنها شيئاً، إلاّ أن صاحب هدية العارفين يقول إنه صنف جوامع أبي يوسف في الفروع وهو كتاب في الفقه[٣٧٠].

ز ـ عبد السلام سحنون

أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون ـ وسحنون اسم طائر بالمغرب حاد الذهن ـ وأصله من حمص، ولد بالقيروان وبها نشأ ودرس على فقهائها وعلمائها، ثم رحل إلى مصر لتلقي العلم على أشهر تلاميذ الإمام مالك: عبد الرحمن بن القاسم العتقي، وعبد الله بن وهب بن مسلم الفهري، وأشهب بن عبد العزيز القيسي، ثم عاد إلى القيروان، وقد صنّف كتاب المدونة في فقه الإمام مالك، وكان قد أخذها عن ابن القاسم ورتبها واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايته من موطأ ابن وهب وغيره، وعليها يعتمد أهل القيروان[٣٧١].

---

(٣٦٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٢.

(٣٦٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(٣٦٧) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨١.

(٣٦٨) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨٣.

(٣٦٩) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٤، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٣٧٠) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٣٢.

(٣٧١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٣٥٢، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٤، ص ١٢٩.

لقد اشتهر الفقيه سحنون وحصل له من الأصحاب والتلاميذ ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك، وعنه انتشر المذهب المالكي في ديار المغرب، وإليه انتهت رياسته هناك[٣٧٢].

وكان سحنون زاهداً جريئاً لا يهاب أحداً في حق يقوله، وقد أعجب به الأمير ابن الأغلب محمد الأول (٢٢٦ - ٢٤٢) وولاه القضاء بعد أن أبي وامتنع مدة مخافة أن يتدخل أحد في عمله، فتعهد له الأمير بأن يطلق يده في أحكامه وتنفيذها، ولم يزل على القضاء حتى وفاته[٣٧٣].

وكانت العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه تدرس في حلقات التعليم بجامع القيروان، وكان أصحاب الآراء والمذاهب المختلفة يتناظرون في مذاهبهم. ولما تولى سحنون القضاء منع التدريس لمن لم يكن على مذاهب السنة، ففرق حلقات أهل البدع والأهواء من المسجد الجامع وأمرهم ألا يجتمعوا فيه[٣٧٤].

كانت ولادة سحنون بالقيروان في أول ليلة من رمضان سنة ١٦٠، وبها توفي لتسع خلون من رجب سنة ٢٤٠[٣٧٥].

ح - يحيى بن أكثم

أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي، من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب قبل الاسلام وأحد المعمرين المشهورين. وكان يحيى فقيهاً من أصحاب الشافعي، مجتهداً، بصيراً بالأحكام، عالماً بالقرآن والحديث واللغة، يوصف بسعة العلم واتقان الفقه، سمع الحديث على عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة الهلالي الكوفي، وغيرهما، وروى عنه عدد من كبار أهل الحديث منهم أبو عيسى الترمذي[٣٧٦]. وقد عارض المعتزلة في قولهم بخلق القرآن، فكان يقول: القرآن كلام الله فمن قال إنه مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه[٣٧٧].

تولى يحيى بن أكثم قضاء البصرة وهو في حوالى العشرين من عمره، فاستصغره شيوخها فسألوه عن سنه إحراجاً له، فأجاب بأنه أكبر من عتاب بن أسيد حين ولاه

---

(٣٧٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٣٧٣) أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ٤ ج (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، ج ١، ص ١٢٩.

(٣٧٤) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية (تونس: مطبعة المنار، ١٩٦٤)، ص ١٠٧.

(٣٧٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٣٥٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٠٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٤، ص ١٢٩.

(٣٧٦) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٧.

(٣٧٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٨.

الرسول ﷺ القضاء على مكة، فكان جوابه احتجاجاً أقنعهم بلباقته[٣٧٨]. وقد اتصل يحيى بالخليفة المأمون لما كان بمرو، ويقال إنه استدعاه للقضاء فنظر إليه، وكان يحيى دميم الخَلْق، فعلم أن الخليفة استحقره، فقال: يا أمير المؤمنين، سلني إن كان القصد علمي لا خلقي[٣٧٩]. وتميَّز يحيى بسعة العلم وحدة الذهن وحضور البديهة مع دهاء وقدرة عظيمة على الجدل، بحيث أخذ بمجامع قلب المأمون فلم يتقدم عليه أحد من الناس عنده، فقلده منصب قاضي القضاة وأوكل إليه تدبير أهل مملكته، فكان الوزراء لا يعملون في شيء إلا بعد مطالعته[٣٨٠]. وكان الخليفة يستصحبه معه في بعض رحلاته وغزواته، فيركب يحيى معه بمنطقة وقباء وسيف بمعاليق، وفي الشتاء يركب في أقبية الخز، وقلانس السمّور، والسروج المكشوفة[٣٨١].

إلا أن المأمون لما خرج إلى مصر في سنة ٢١٦ سخط على يحيى بن أكثم وأمر بنفيه من عسكره، ونزع السواد عنه، وأخرجه إلى بغداد، وأمره ألا يغادر منزله[٣٨٢]. ويظهر مما جاء في وصية المأمون إلى أخيه أبي اسحاق أنه كان يتهم يحيى بالخيانة وخبث السيرة، إذ جاء فيها «ولا تتخذن بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً، فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه في صحة مني، فصرت إلى مفارقته، قالياً غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الاسلام خيراً»[٣٨٣]. وظل مبعداً عن القضاء طيلة أيام المعتصم بالله وابنه الواثق بالله.

ويعزو اليعقوبي غضب المأمون على يحيى بن أكثم إلى الوشاية، إذ سبق ليحيى أن وشى بالمعتصم إلى المأمون وقال له: إنه بلغني أنه يحاول الخلع. وكان المأمون قد بعث أخاه أبا إسحاق إلى مصر في سنة ٢١٤ عندما استفحلت الأمور فيها، فوجه إليه يأمره بالقدوم. ولما خرج المأمون بنفسه إلى مصر في سنة ٢١٦ ومعه يحيى بن أكثم، وشى محمد بن أبي العباس وأحمد بن أبي دؤاد بيحيى إلى المأمون تقرباً إلى أبي اسحاق، فسخط عليه المأمون[٣٨٤].

ولما عزل المتوكل على الله قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد في سنة ٢٣٧ أعاد يحيى بن أكثم إلى منصب قاضي القضاة وأضاف إليه النظر في المظالم وخلع عليه خمس خلع[٣٨٥]. إلا

---

(٣٧٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٤، ص ١٩٨؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٥، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٢، ص ١٠١.

(٣٧٩) ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٢.

(٣٨٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٩٧؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩٨، وابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠١.

(٣٨١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٢٢.

(٣٨٢) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ٢، ص ٤٦٦، والمسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣.

(٣٨٣) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٦٤٩.

(٣٨٤) اليعقوبي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٣٨٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٤، ص ٢٠١، والطبري، المصدر نفسه، ج ٩، ص ١٨٨.

أنه ما لبث أن غضب عليه فعزله في سنة ٢٤٠ وأمر بمصادرته والزمه بيته. وخرج يحيى إلى الحج في موسم سنة ٢٤٢ ويقال إن المتوكل على الله نفاه إلى مكة[٣٨٦]. وعند عودته توفي بقرية الرَّبذة في يوم الجمعة منتصف ذي الحجة من السنة المذكورة، ويقال في مطلع السنة التالية، فدفن هناك[٣٨٧].

أما مصنفات يحيى بن أكثم فيقول عنها ابن خلكان «وكانت كتب يحيى في الفقه أجل كتب إلا ان الناس تركوها لطولها، وله كتب في الأصول، وكتاب أورده على العراقيين سماه كتاب التنبيه»[٣٨٨]. ويذكر له صاحب هدية العارفين كتاب ايجاب التمسك بأحكام القرآن[٣٨٩].

ط ـ الفضل بن شاذان

أبو محمد الفضل بن شاذان بن الخليل الأزدي، من كبار فقهاء الشيعة الإمامية وأحد علماء الكلام البارزين، وقد سبق أن ذكرنا في موضوع علم الكلام أن ابن النديم اعتبره أحد الأئمة في علوم القرآن والروايات، وذكر مصنفاته في علوم القرآن. وكان ابن شاذان من الفقهاء المصنفين، يقول صاحب هدية العارفين ان له ١٨٠ مصنفاً، ذكر له منها ما يتعلق بعلم الفقه: كتاب الايمان، وكتاب السنن، وكتاب الفرائض الكبير، وكتاب الفرائض الأوسط، وكتاب الفرائض الصغير، وكتاب المسائل الأربع في الإمامة، وكتاب الطلاق[٣٩٠]. كما ذكر له ابن النديم كتاباً فقهياً هو كتاب السنن[٣٩١]. توفي ابن شاذان في سنة ٢٦٠[٣٩٢].

ي ـ عمر الخصَّاف

أبو بكر احمد بن عمر بن مُهير الشيباني البغدادي المعروف بالخصاف الحنفي، من اعلام أصحاب أبي حنيفة، أخذ الفقه عن أبيه عن الحسن بن زياد اللؤلؤي عن أبي حنيفة[٣٩٣]. كان ورعاً زاهداً يأكل من كسب يده[٣٩٤]، وفقيهاً فرضياً حاسباً، عالماً بمذهب أبي

---

(٣٨٦) وكيع، أخبار القضاة، ج ٣، ص ٣٠٣.

(٣٨٧) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٠٣، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥، ص ٢١٢.

(٣٨٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣٨٩) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٥١٥.

(٣٩٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨١٧.

(٣٩١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٧.

(٣٩٢) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٥، ص ٣٥٥، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨١٧.

(٣٩٣) عبد القادر، نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي، ص ٢٥٠.

(٣٩٤) الزركلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٨.

حنيفة، متقدماً عند الخليفة المهتدي بالله وقد وضع له كتاب الخراج، فلما قتل الخليفة نهب بيت أبي بكر فذهب بعض كتبه[٣٩٥].

صنف الخصّاف عدداً من الكتب في مواضيع فقهية، ذكر ابن النديم منها: كتاب الحيل، وكتاب الوصايا، وكتاب الشروط الكبير، وكتاب الشروط الصغير، وكتاب الرضاع، وكتاب المحاضر والسجلات، وكتاب أدب القاضي، وكتاب أحكام الوقوف، وكتاب إقرار الورثة بعضهم لبعض[٣٩٦].

توفي الخصاف ببغداد في سنة ٢٦١[٣٩٧].

ك ـ الأثرم

أبو بكر أحمد بن محمد بن هانيء الطائي، ويقال له الكلبي الأثرم، صاحب الإمام أحمد بن جنبل، سمع الحديث عن الإمام أحمد وعفان بن مسلم وأبي الوليد الطيالسي والقعنبي وغيرهم من رجال الحديث، وروى عنه عدد من كبار المحدثين منهم يحيى بن محمد بن صاعد وعمر بن محمد الجوهري، وكان فقيهاً محدثاً يُعدُّ في الحفاظ الأذكياء، يقظاً شديد الملاحظة، حتى قال عنه يحيى بن معين: أحد أبوي الأثرم جني[٣٩٨].

نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة صنّفها ورتبها أبواباً، وكان يحفظ الحديث عارفاً به وبأبوابه ومسانده، فلما صحب أحمد بن حنبل ترك ذلك وأقبل على مذهب أبي عبد الله، ويروى عنه قوله: كنت أحفظ الفقه والاختلاف فلما صحبت أحمد بن حنبل تركت ذلك كله[٣٩٩].

ومن مصنفاته الفقهية التي ذكرها ابن النديم: كتاب السنن في الفقه على مذهب أحمد وشواهده من الحديث، وذكر مصنفاته في الحديث[٤٠٠]. ويقول الخطيب البغدادي إن كتابه في علل الحديث ومسائل أحمد تدل على علمه ومعرفته[٤٠١].

---

(٣٩٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٠٤.

(٣٩٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٣٩٧) الزركلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٨، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٤٩.

(٣٩٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ١١٠، وأبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٦٦ و٧٣.

(٣٩٩) أبو يعلى، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٦ و٧٢.

(٤٠٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٥.

(٤٠١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ١١٠.

كانت وفاته في اسكاف بني الجنيد وهو من أهلها، وذلك في سنة ٢٦١ ويقال في سنة ٢٧٠[٤٠٢].

ل ـ اسماعيل المُزَني

أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى بن عمرو بن اسحاق المُزَني، نسبة إلى مُزَينة وهي قبيلة مضرية كبيرة، ولد بمصر سنة ١٧٥ وبها نشأ وعاش، درس الحديث على الإمام الشافعي ونعيم بن حماد، وروى عنه أبو بكر بن خزيمة والطحاوي أحمد بن محمد بن سلاّمة وغيرهما من علماء الشافعية، وكان من الأئمة المشهورين وقد تفقه به جماعة[٤٠٣].

صحب المزني الإمام الشافعي ولازمه ودرس عليه فقهه، وكان مجتهداً قوي الحجة، بارعاً في معرفة طرق إمامه وفتاويه وما ينقله عنه. قال عنه ابن النديم إنه كان ورعاً فقيهاً على مذهب الشافعي، ولم يكن في أصحاب الشافعي أفقه منه[٤٠٤]. وكان الإمام الشافعي يرعاه لما يراه فيه من حماسة لمذهبه، وإعجاباً ببراعته وقوة حجته وبيانه، فقال عنه: «كان جبل علم مناظراً محجاجاً لو ناظر الشيطان لغلبه»، وكثيراً ما كان يقول: المزني ناصر مذهبي[٤٠٥]. وقال الربيع بن سليمان، وهو من تلاميذ الشافعي وأصحابه المقربين إليه: «كنا جلوساً بين يدي الشافعي رضي الله عنه أنا والبويطي والمزني... ثم نظر إلى المزني فقال: ترون هذا؟ إنه سيأتي زمان لا يفسر شيئاً فيخطئه...» وقال الربيع أيضاً «دخلت على الإمام الشافعي عند وفاته، وعنده البويطي والمزني وابن عبد الحكم، فنظر إلينا ثم قال: وأما أنت يا أبا يعقوب... وأما أنت يا مزني فستكون لك في مصر هنات وهنات، ولتدركن زماناً تكون فيه أقيس أهل زمانك...»[٤٠٦].

كان المزني قد صنف كتباً كثيرة أغلبها في الفقه الشافعي، ذكر ابن النديم منها: **كتاب المختصر الصغير**، وكتاب **المختصر الكبير**، وكتاب **الوثائق**، وذكر ابن خلكان اضافة إليها: كتاب **الجامع الكبير**، وكتاب **الجامع الصغير**، وكتاب **مختصر المختصر**، وكتاب **المنثور**، وكتاب **المسائل المعتبرة**، وكتاب **الترغيب في العلم**، وكتاب **الوثائق**. ويضيف صاحب هدية العارفين: كتاب **المبسوط في الفروع**، وكتاب **المختصر في الفروع**. وقد اعتبر كتابه **المختصر** أصل الكتب المصنفة في المذهب الشافعي وعليه يعوّل أصحابه وله يقرأون، وقد تناوله من

---

(٤٠٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١١٢؛ الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج ١، ص ١٩٤، والبغدادي، **هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، ج ١، ص ٥٠.

(٤٠٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج ١، ص ١٩٦؛ السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج ١، ص ٢٣٨؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج ٣، ص ٣٩، وابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٣١٢. وجاء اسمه فيه: أبو ابراهيم اسماعيل بن ابراهيم المزني.

(٤٠٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣١٢ ـ ٣١٣.

(٤٠٥) السبكي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٨، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦.

(٤٠٦) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

جاء بعد المزني من فقهاء الشافعية بالشرح والاختصار، والتصنيف على منواله[٤٠٧].

توفي المزني بمصر سنة ٢٦٤ إلا أنه اختلف في يوم وفاته، يقول ابن النديم إنه توفي بمصر يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس سلخ شهر ربيع الأول، ويقول ابن خلكان إنه توفي لست بقين من شهر رمضان ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي بسفح المقطم. ويقول مثله صاحب الطبقات الكبرى[٤٠٨].

م ـ محمد بن الثلجي

أبو عبد الله محمد بن شجاع ويعرف بابن الثلجي البغدادي، فقيه أهل العراق في أيامه، من أصحاب أبي حنيفة، قرأ الفقه على الحسن بن زياد اللؤلؤي تلميذ أبي حنيفة، وأخذ الحديث عن اسماعيل بن عُليَّة ووكيع وطبقتهما، وصار إماماً وعليه تخرج غالب علماء عصره[٤٠٩]. ولد، كما قال عن نفسه في اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٠١ وتوفي فجاة وهو يؤدي صلاة العصر، لأربع أو لعشر خلون من ذي الحجة سنة ٢٦٦ [٤١٠]. إلا أن ابن النديم يقول إنه توفي سنة سبع وقيل ست وخمسين ومئتين، يوم الثلاثاء لعشر خلون من ذي الحجة[٤١١].

كان ابن الثلجي أبرز فقهاء الحنفية في أيامه وله جهود كبيرة في نشر مذهب أبي حنيفة وتثبيته، ويقول عنه ابن النديم إنه كان «مبرزاً على نظرائه من أهل زمانه، فقيهاً ورعاً وثْباتاً على رأيه، وهو الذي فتق فقه أبي حنيفة واحتج له وأظهر علله، وقوّاه بالحديث، وحلاّه بالصدور، وكان من الواقفة على القراءة، إلا أنه يرى رأي أهل العدل والتوحيد»[٤١٢]. ويفهم من هذا أن ابن الثلجي كان يميل إلى مذهب المعتزلة. وكان الإمام أحمد بن حنبل يطعن في روايته الحديث ويتهمه بالكذب، وأنه مبتدع كذاب لا تجوز الرواية عنه، ويقال إن المتوكل على الله سأل الإمام أحمد عن ابن

---

(٤٠٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١٣؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٣٥، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٠٧.

(٤٠٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣١٣؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٦، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٤٠٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ٣٥٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٥٧، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٤٢.

(٤١٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٥٢؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٨، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٢.

(٤١١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٠٥.

(٤١٢) المصدر نفسه.

الثلجي لولاية القضاء فطعن في أمانته(٤١٣). ويظهر أن ميول ابن الثلجي الاعتزالية هي التي جعلت الإمام أحمد بن حنبل يقف منه موقفه المذكور.

أما عن مصنفات ابن الثلجي فقد ذكر ابن النديم من مصنفاته الفقهية، كتاب تصحيح الآثار الكبير، وكتاب النوادر، وكتاب المضاربة، ويضيف صاحب هدية العارفين: كتاب التجريد في الفقه، وكتاب الكفارات، وكتاب المناسك(٤١٤).

ن ـ ابن عبدون

محمد بن عبدون بن أبي ثور الرُّعيني، أبو العباس، من كبار فقهاء الحنفية في القيروان، كان بارعاً في الأمور الشرعية، وقد ولي القضاء في افريقيا في أيام الأمير ابراهيم الثاني (٢٦١ ـ ٢٨٩) الذي كان معجباً به لعلمه وفطنته. بحيث لما خرج إلى صقلية غازياً وخلفه ابنه عبد الله في الإمارة أوصاه بابن عبدون، وقال له: احفظه لي.

توفي ابن عبدون بالقيروان سنة ٢٠٧ بعد استيلاء الفاطميين على افريقيا(٤١٥).

س ـ ابن عبد الحكم

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الفقيه المصري من أصحاب الإمام مالك. وكان أبوه عبد الله بن عبد الحكم المتوفى بمصر سنة ٢١٤ عالماً فقيهاً من جلّة أصحاب مالك وأعلمهم، وروى عن الإمام مالك الموطأ سماعاً(٤١٦).

لما قدم الإمام الشافعي إلى مصر صحبه محمد بن عبد الحكم وأخذ عنه، ويبدو أنه رغم روايته عنه وملازمته له حتى عرف بصاحب الشافعي، ظل على انتمائه إلى فقه الإمام مالك، وقد انتهت إليه رياسته في مصر(٤١٧).

يقول ابن النديم عن ابن الحكم إنه أخذ عن الشافعي وروى عنه وتميّز عن أخويه المالكيين، وله من الكتب كتاب السنن على مذهب الشافعي(٤١٨). ويقول أبو المحاسن: أبو عبد الله فقيه أهل مصر ومحدثهم، وكان يعرف بصاحب الشافعي لأنه أسند عنه، وكان

---

(٤١٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٥١، وابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٧.

(٤١٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٥، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٧.

(٤١٥) عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٤١٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٤١٧) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٣، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٤٤.

(٤١٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١٢.

مالكي المذهب، وامتحن بعد أن حمل إلى بغداد فثبت على السنة(٤١٩). ويقول ابن خلكان إنه حمل في المحنة إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد فلم يجب إلى ما طلب منه، فرُدَّ إلى مصر، ويقول إن النسائي روى عنه عدداً من الأحاديث في سننه(٤٢٠).

كان مولد أبي عبد الله محمد بن الحكم بمصر في سنة ١٨٢ وبها كانت وفاته في يوم الأربعاء لليلة خلت من ذي القعدة، وقيل منتصفه، من سنة ٢٦٨(٤٢١).

ومن مصنفاته الأخرى في الفقه: كتاب الرد على الشافعي فيما خالف فيه الكتاب والسنة، وكتاب الرد على فقهاء العراق، وكتاب مصابيح الظُّلَم(٤٢٢).

ع - بكّار بن قتيبة

القاضي أبو بكرة بن قتيبة بن أبي بردعة بن عبيد الله بن بشر، من أحفاد الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب وأحد الحكماء المشهورين. ولد بالبصرة في سنة ١٨٢ وبها نشأ محدثاً فقيهاً، من أصحاب أبي حنيفة(٤٢٣). أخذ الفقه عن هلال بن يحيى المتوفى سنة ٢٤٥ الملقب بالرأي لسعة علمه وأخذه بالقياس، وعيسى بن أبان قاضي البصرة ومن كبار فقهاء الحنفية، وأخذ الحديث عن عدد من مشهوري المحدثين آنذاك(٤٢٤).

كان بكّار واسع العلم عارفاً بأصول الفقه، وقد ولاه المتوكل على الله قضاء مصر في سنة ٢٤٦ وأجرى عليه راتباً شهرياً قدره ١٦٨ ديناراً، فكان يتحرّى العدل في أحكامه، ويكثر النصح والوعظ للخصوم، ويحاسب أمناءه، ويسأل عن الشهود، وإذا ما خلا بنفسه استعرض من تقدم إليه وما حكم به(٤٢٥).

ولما جاء الأمير أحمد بن طولون والياً على مصر في سنة ٢٥٤ أعجب بالقاضي بكّار لعدالته ونزاهته وسعة علمه ومعرفته بالحديث، فكان يعظمه ويرفع من قدره، ويمنحه في كل سنة ألف دينار خارجاً عن الراتب المقرر له(٤٢٦). إلا أنه لما اختلف ابن طولون مع الأمير الموفق وخلعه من ولاية العهد لمخالفته أخيه الخليفة المعتمد على الله، وأعلن ذلك في مجلسه وأشهد عليه الحاضرين، شهد أغلبهم وأيدوا ابن طولون. أما بكّار فقد امتنع عن الشهادة

---

(٤١٩) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤.
(٤٢٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٣٣.
(٤٢١) المصدر نفسه، وابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤.
(٤٢٢) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٨، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ٩٤ - ٩٥.
(٤٢٣) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٢ - ٢٥٣، والكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٥٠٥، وفيه: بكار بن قتيبة بن عبيد الله بن أبي بُرذعة.
(٤٢٤) الكندي، المصدر نفسه، ص ٥٠٥.
(٤٢٥) المصدر نفسه، ص ٥٠٧.
(٤٢٦) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٢، والكندي، المصدر نفسه، ص ٥١٢.

والخلع وقال: لم يصح عندي ما فعله أبو أحمد الموفق، ولم أعلمه. فغضب ابن طولون عليه وطالبه برد الجوائز التي كان أجازه بها، فأحضرت وكانت على حالها بأختامها، وأمر بسجنه وسجن كاتبه وأصحابه وأمرهم برفع حساب ما جرى على أيديهم[427]. ولبث بكّار في السجن قرابة السنتين، فشكا طلاب الحديث إلى ابن طولون انقطاع سماعهم من بكار وسألوه أن يأذن له بالحديث ففعل، فكان بكار يحدثهم من طاق في السجن[428].

توفي بكار بن قتيبة في سجنه بمصر يوم الخميس لخمس خلون من ذي الحجة سنة ٢٧٠. وله من الكتب الفقهية **كتاب الرد على الشافعي، وكتاب الشروط، وكتاب المحاضر والسجلات، وكتاب الوثائق والعهود**[429].

ف ـ الربيع بن سليمان

أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المصري المرادي، من قبيلة مراد، كان مؤذناً بالمسجد الجامع بفسطاط مصر، صاحب الإمام الشافعي وراويته، وكان ثقة ثبتاً فيما يرويه عنه، حتى قال الشافعي: الربيع راويتي[430]. وأول ما روى عنه **كتاب الأصول**، ويسمى ما رواه المبسوط، وقد رواه عنه الزعفراني أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح المتوفى سنة ٢٦٠ مع بعض الاختلاف، ولذا لم يرغب الناس فيه، ويعتمد الفقهاء على ما رواه الربيع[431].

ويعتبر الربيع المرادي آخر من روى عن الشافعي، ويحكى عنه أنه قال: «دخلت على الإمام الشافعي عند وفاته وعنده البويطي والمزني وابن الحكم، فنظر إلينا ثم قال: وأما أنت يا مزني... وأما أنت يا ربيع فأنت أنفعهم لي في نشر الكتب»[432]. وعندما بنى ابن طولون جامعه بمصر أجلس الربيع بن سليمان فيه ليحدث الناس ويملي عليهم[433].

توفي الربيع يوم الاثنين لعشر بقين من شوال سنة ٢٧٠ بمصر، وبها كانت ولادته في سنة ١٧٤[434].

---

(٤٢٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٢، والكندي، المصدر نفسه، ص ٢٢٦، و٤٧٧ ـ ٤٧٨.

(٤٢٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٢، والكندي، المصدر نفسه، ص ٤٧٨.

(٤٢٩) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٣٣.

(٤٣٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١١، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

(٤٣١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٩ و٣١١، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

(٤٣٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١، ص ٢٣٨.

(٤٣٣) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٣، ص ٣٩.

(٤٣٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١١؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣، والسبكي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٠.

ص - ابن الحجاج

أبو بكر احمد بن محمد بن الحجاج من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل الذي كان يقدمه على جميع أصحابه ويأنس به ويأتمنه ويطمئن إليه، وإذا ما بعثه في حاجة قال له: قل فما قلت فهو على لساني وأنا قلته[٤٣٥]. كان فقيهاً محدثاً لزم الإمام أحمد ونقل عنه مسائل فقهية كثيرة، وكان الناس يحترمونه لغزارة علمه. ويقال إنه لما خرج إلى احدى الغزوات شيعه الناس إلى سامراء فجعل يردهم فلا يرجعون، فحُزروا فإذا هم بسامراء، سوى من رجع، نحو خمسين الف انسان، فقيل له: يا أبا بكر احمد الله فهذا علم قد نشر لك، فبكى وقال: ليس هذا علم لي إنما هذا علم أحمد بن حنبل[٤٣٦]. وهو يدل بهذا على احترامه وتقديره لاستاذه ابن حنبل ووفائه له.

قال ابن النديم عن ابن الحجاج: فقيه على مذهب أحمد، وله كتاب السنن بشواهد الحديث[٤٣٧]. وقد توفي ابن الحجاج لست خلون من جمادى الأولى من سنة ٢٧٥ ودفن إلى جانب الإمام أحمد بن حنبل[٤٣٨].

ق - ابن طالب

عبد الله بن أحمد بن طالب بن سفيان التميمي، أبو العباس، من بني عم الأغالبة ومن كبار تلاميذ سحنون عالم افريقيا. رحل إلى مصر وأخذ عن محمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى. وكان محدثاً ثقة سمع منه الكثيرون من محدثي المغرب، وفطناً جيد النظر، مشغوفاً بالمناظرة يجمع في مجلسه بين المتخالفين ويغري بينهم في المناظرة. وكان إذا تكلم أبان وأجاد فيستحلي السامع لفظه ويستحسن كلامه. تولى قضاء افريقيا فكان عدلاً في قضائه ورعاً في أحكامه. من مصنفاته كتاب الرد على من خالف الإمام مالك بن انس. غضب عليه الأمير ابراهيم الثاني فعزله من القضاء وسجنه في رقّادة، فلم يلبث أن مات في محبسه في سنة ٢٧٥[٤٣٩].

ر - اسماعيل بن اسحاق الجهضمي

أبو اسحاق القاضي اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدي البصري، الفقيه المحدث، درس الحديث على عبد الله بن مسلمة القعنبي وأبي الوليد الطيالسي وعلي بن

---

(٤٣٥) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٩٤، وأبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٥٦.

(٤٣٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٤ - ٩٥.

(٤٣٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٥.

(٤٣٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٩٥، وأبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٦١.

(٤٣٩) عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية، ص ٢٦٤ - ٢٦٥، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٤، ص ١٨٩.

المديني، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل، وأبو القاسم البغوي، وابراهيم بن محمد بن عرفة وغيرهم[٤٤٠]. وكان عالماً فقيهاً محدثاً، من أتباع الإمام مالك بن أنس، أخذ الفقه المالكي عن أحمد بن المعذّل، وصار علماً فيه نشره وشرحه وصنّف الكتب فيه والاحتجاج له، مما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه. وكان من أشهر من دعا إلى مذهب الإمام مالك ورغّب الناس فيه[٤٤١].

استوطن اسماعيل بن اسحاق بغداد وتولى القضاء بها ولم يزل يتقلده حتى وفاته، وقد جمع له القضاء على جانبي المدينة، وكان مقدماً على سائر القضاة[٤٤٢]. وكان مولده في سنة ٢٠٠ بالبصرة، ووفاته ببغداد وهو على قضائها لسبع أو ثمان بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٢، وقت صلاة العشاء، وكان موته فجأة[٤٤٣]. وله من المصنفات في الفقه وأبوابه: كتاب المبسوط، وكتاب حجاج القرآن، وكتاب شواهد الموطأ، وكتاب الرد على محمد بن الحسن، وكتاب الأصول، وكتاب الفقه وما روي فيه من الآثار وكتاب الفرائض[٤٤٤].

ش ـ أبو اسحاق الثقفي

ابراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال، من ولد سعد بن مسعود الثقفي. وسعد هذا هو أخو عبيد بن مسعود الثقفي صاحب معركة الجسر مع الفرس في أيام عمر بن الخطاب، وعم المختار بن أبي عبيد الثقفي[٤٤٥]. ويعتبر أبو اسحاق الثقفي من أبرز فقهاء الشيعة الإمامية في القرن الثالث، وأصله من الكوفة، انتقل إلى أصفهان وأقام بها حتى وفاته، وكان أول أمره زيدياً ثم انتقل إلى القول بالإمامية[٤٤٦]. يقول عنه ابن النديم إنه من الثقات، العلماء المصنفين، ولكن لم يذكر من كتبه سوى كتاب واحد هو كتاب أخبار الحسن بن علي، ويرجح أن ذلك مما سقط أو ضاع من أصل الكتاب[٤٤٧]. وذكره محمد بن الحسين الطوسي في مصنفي الإمامية، وقال إنه مات في سنة ٢٨٣[٤٤٨].

---

(٤٤٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٢٨٤؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٣، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٤٤٣.

(٤٤١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٥، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٩٦.

(٤٤٢) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٢، والسيوطي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٣.

(٤٤٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٩٦، والخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٩٠، وابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٣.

(٤٤٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٩٦، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٠٧.

(٤٤٥) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٢٩٤.

(٤٤٦) المصدر نفسه.

(٤٤٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٢٧.

(٤٤٨) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٥.

وذكر له ياقوت الحموي وصاحب هدية العارفين ما يزيد على خمسين كتاباً في الفقه والتاريخ والمغازي والسير، يتضح منها أنه كان عالماً فقيهاً واسع الاطلاع وبخاصة في الفقه الشيعي وفي التاريخ. ومن مصنفاته الفقهية: كتاب الجامع الكبير، وكتاب الجامع الصغير، وكتاب الإمامة الكبير، وكتاب الإمامة الصغير، وكتاب الوصية، وكتاب الحجة، وكتاب الدلائل، وكتاب المعرفة، وكتاب المبتدأ(٤٤٩).

ت - ابراهيم الحربي

أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق بن ابراهيم بن بشير بن عبد الله الحربي، من أهل بغداد ونسبته إلى محلة فيها، قال عن نفسه: صحبت قوماً من أهل الحربية بالكرخ لسماع الحديث فسموني بالحربي(٤٥٠). وهو من كبار حفاظ الحديث وأعلامهم، سمع أبا نعيم الفضل بن دكين وعفان بن مسلم والإمام أحمد بن حنبل، وقد تأثر كثيراً بابن حنبل ونقل عنه مسائل فقهية كثيرة. كما روى الحديث فأخذ عنه عدد من كبار المحدثين منهم ابن صاعد يحيى بن محمد، وسليمان بن الأشعث، ووُصف ابراهيم الحربي بأنه كان إماماً بالحديث مميزاً لعلله، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالأحكام، قيماً بالأدب واللغة(٤٥١). وقال عنه الدارقطني علي بن عمر: أبو اسحاق الحربي إمام مصنف عالم بكل شيء، بارع في كل علم، يقاس بأحمد بن حنبل في علمه وزهده وورعه(٤٥٢). وقال عنه الخطيب البغدادي: لا يُعرف أن بغداد أخرجت مثل ابراهيم بن اسحاق الحربي في الأدب والفقه والحديث والزهد(٤٥٣).

قال ابراهيم الحربي: ما أخذت على علم قط أجراً إلا مرة واحدة، فإني وقفت على بقال فوزنت له قيراطاً إلا فلساً، فسألني عن مسألة فأجبته، فقال للغلام اعطه بقيراط ولا تنقصه شيئاً، فزادني فلساً(٤٥٤). وكنا أشرنا في البحث الخاص بخزائن الكتب إلى حرص ابراهيم على خزانة كتبه وأن أكثرها كان بخطه، وأنه يعتبرها ثروة يخلفها لولده.

كان ابراهيم الحربي معجباً بالإمام أحمد بن حنبل ومتأثراً به وبأسلوبه في الحياة، مقتدياً به، قال لأصحابه: كل شيء أقول لكم هذا قول أصحاب الحديث، فهو قول أحمد بن

---

(٤٤٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٥، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٣.

(٤٥٠) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ١٤ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧ - ٣٨، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٢١٣.

(٤٥١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٢٨ ؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٤ ؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧، وأبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٩٦.

(٤٥٢) أبو يعلى، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩١.

(٤٥٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥.

(٤٥٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٤٠.

حنبل، هو ألقى في قلوبنا مذ كنا غلماناً اتّباع حديث النبي ﷺ وأقاويل الصحابة والاقتداء بالتابعين. وقال عنه: انا ذاك علمني وعنه أخذت، وصحبته وأنا غلام، وكل شيء يلقيه إلينا أخذته عنه، وتمسك به قلبي فأنا عليه(٤٥٥).

ولد ابراهيم الحربي ببغداد في سنة ١٩٨، وبها توفي يوم الاثنين لتسع بقين من ذي الحجة سنة ٢٨٥ ودفن في اليوم الثاني في بيته بشارع باب الأنبار(٤٥٦). وصنّف ابراهيم في كثير من العلوم وبخاصة في الحديث والفقه، يقول عنه ابن النديم إنه من جلّة المحدثين العارفين بالحديث وكان من الحفاظ، وله من الكتب: كتاب غريب الحديث، وأخرج من تفسيره نيفاً وعشرين مسنداً لكبار الصحابة وغيرهم(٤٥٧). وله كتب فقهية أخرى منها: كتاب سجود القرآن، وكتاب مناسك الحج، وكتاب القضاة والشهود(٤٥٨).

ث ـ الأنماطي

أبو القاسم عثمان بن سعيد بن بشّار الأنماطي، ونسبته إلى الأنماط وبيعها، وهي البسط وغيرها من آلات الفرش، وهو من كبار فقهاء الشافعية. درس الفقه على اسماعيل بن يحيى المزني، والربيع بن سليمان المرادي(٤٥٩)، وهما أبرز طلاب الإمام الشافعي. وكان الأنماطي يقول: النص آكد من الاجتهاد، وعليه تفقه شيخ المذهب الشافعي أبو العباس بن سريج(٤٦٠).

ويعتبر الأنماطي من أئمة المذهب الشافعي، وقد سعى في نشره، وكان سبب نشاط الناس ببغداد لكتب الإمام محمد بن ادريس(٤٦١).

توفي الأنماطي ببغداد في شوال سنة ٢٨٨(٤٦٢).

---

(٤٥٥) ابو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٩٢.

(٤٥٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٤٠؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٤ و١٧؛ السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٤٠٨، وأبو يعلى، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٨.

(٤٥٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٣٧.

(٤٥٨) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٤٥ ـ ٤٦، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٤.

(٤٥٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٤٦٠) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٥٢.

(٤٦١) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٤٦٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ١٢٥.

خ - ابن القيَّار

أبو العباس أحمد بن القيار من أشهر علماء القيروان وفقهائها على مذهب الإمام أبي حنيفة. برع في علم الكلام والجدل، وكان مقرباً من الأمير عبد الله بن ابراهيم الثاني، لأنه هو الذي درّسه الفقه ولقنه طرق المناظرة، ولازمه طيلة حياته في صقلية وفي رقادة. وقد توفي في سنة ٢٩٠(٤٦٣).

ذ - ابن سُرَيج

القاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن سُريج البغدادي، الفقيه الشافعي، تفقه على أبي القاسم الأنماطي، وعنه أخذ كثير من الفقهاء، فانتشر مذهب الشافعي في أكثر الأمصار، وقام ابن سريج بنصرة المذهب ونشره والرد على مخالفيه من أهل الرأي وأصحاب الظاهر، حتى قيل إن الله تعالى مَنَّ به على رأس الثلاثمئة، فنُصرت السنن وخذلت البدع، فكان محترماً من العلماء والفقهاء والقضاة(٤٦٤). وقد لقب بالباز الأشهب لسعة علمه وعلو منزلته(٤٦٥).

كان ابن سُريج حاضر البديهة سريع الجواب ومناظراً لا يجارى، وإليه انتهت رياسة أصحاب الشافعي في وقته فسمي بشيخ المذهب، وقيل عنه: كان أبرع أصحاب الشافعي في علم الكلام كما هو أبرعهم في الفقه، وسماه بعضهم الشافعي الصغير(٤٦٦).

كانت تصانيفه عديدة ويقال إنها بلغت ٤٠٠ مصنف، منها: كتاب الرد على محمد بن الحسن، وكتاب الرد على عيسى بن أبان، وكتاب التقريب بين المزني والشافعي، وكتاب مختصر في الفقه، وكتاب الخصال في الفروع، وكتاب الغنية في الفروع، وكتاب العين والدين، وكتاب الودائع لمنصوص الشرائع في أحكام مجردة عن الأدلة(٤٦٧).

توفي ابن سريج لخمس بقين من جمادى الأولى، وقيل في الخامس والعشرين من ربيع الأول، من سنة ٣٠٦ ودفن في حجرة بسويقة غالب بالجانب الغربي من بغداد(٤٦٨).

---

(٤٦٣) عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤٦٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٤، ص ٢٨٧ - ٢٨٩؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩ - ٥٠، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٨٧.

(٤٦٥) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٩، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٤٦٦) السبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٧.

(٤٦٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٨؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١٣ - ٣١٤، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥٧.

(٤٦٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٤، ص ٢٩٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ١٥؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ١٥٠، وأبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٨٩.

ض ـ الخلّال

أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلّال. من كبار فقهاء الحنابلة في بغداد، مفسر عالم بالحديث واللغة، وكانت حلقته بجامع المهدي، بالجانب الشرقي من مدينة السلام[٤٦٩]. صرف عنايته إلى جمع علوم الإمام أحمد بن حنبل فسافر لأجلها إلى بلدان عديدة وجمع منها ما لم يجمعه أحد، وصنفها ورتبها، وكل من تبع مذهب الإمام ابن حنبل يأخذ من كتب الخلال[٤٧٠]. ويقول ابن أبي يعلى في طبقاته: له التفاسير الدائرة والكتب السائرة[٤٧١]. وهو دليل على انتشار مصنفاته.

للخلّال عدد من التصانيف منها: تفسير الغريب، وطبقات أصحاب ابن حنبل، وكتاب الجامع لعلوم أحمد بن حنبل، وكتاب السنن، وكتاب العلل[٤٧٢].

توفي الخلّال يوم الجمعة ليومين خلوا من ربيع الأول سنة ٣١١[٤٧٣].

ظ ـ ابن البهلول

القاضي أبو جعفر أحمد بن اسحاق بن البهلول التنوخي من أهل الأنبار ولد فيها في المحرم سنة ٢٣١ وبها نشأ ودرس، فسمع الحديث على أبيه اسحاق بن البهلول الذي كان من كبار المحدثين، وعلى ابراهيم بن سعيد الجوهري، وغيرهما، وروى عنه محدثون آخرون منهم الدارقطني. وكان ابن البهلول ضابطاً للحديث ثقة فيه، ومتفنناً في علوم الفقه على مذهب أبي حنيفة، وتام المعرفة باللغة والنحو على مذهب الكوفيين وله كتاب صنفه فيه، كما كان واسع الحفظ للشعر القديم والأخبار والسير، حسن الخطابة لسناً، مترسلاً في الكتابة، بليغاً في المخاطبة. وقد عُدّ من أبرز فقهاء أبي حنيفة في أيامه[٤٧٤].

تولى أحمد بن البهلول القضاء بالأنبار وما حواليها في سنة ٢٧٦ في أيام المعتمد على الله، ثم تولى القضاء بمدينة المنصور في أيام المقتدر بالله. واستمر في عمله حتى صرف عنه في

---

(٤٦٩) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ١٩٦.

(٤٧٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧٢.

(٤٧١) أبو يعلى، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ١٢.

(٤٧٢) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥٧، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ١٣٦.

(٤٧٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ١٧٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٠٩، والزركلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٩٦.

(٤٧٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٤، ص ٣١؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٣١، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٢٥٣.

سنة ٣١٧[٤٧٥]. وكان متخشناً في الحكم عادلاً. ولم يلبث بعد تخليه عن القضاء غير قليل حتى وافته المنية في ربيع الآخر من سنة ٣١٨[٤٧٦].

وقد صنف أحمد بن البهلول عدداً من الكتب، ذكر صاحب هدية العارفين عدداً منها وهي: كتاب ناسخ الحديث ومنسوخه، وكتاب أدب النديم، وكتاب الدعاء، وليس بينها شيء من كتب الفقه، ويضيف صاحب الأعلام كتاب أدب القاضي ويقول إنه لم يتمه[٤٧٧].

غ ـ الطحاوي

أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي نسبة إلى قرية طحًا (بفتح الطاء) بصعيد مصر، وإلى الأزد القبيلة اليمنية المشهورة[٤٧٨]. يقول عنه ابن النديم إنه كان يتفقه على مذهب أهل العراق وكان أوحد زمانه علماً وزهداً[٤٧٩]. ويقول ابن خلكان: انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر، وكان أول دراسته يقرأ الفقه الشافعي على خاله المزني، إلا أنه اختلف معه، فانتقل إلى حلقة أبي جعفر بن أبي عمران الحنفي فدرس عليه، ويقال إنه سئل لماذا ترك خاله واختار مذهب أبي حنيفة، قال لأني كنت أرى خالي يديم النظر في كتب أبي حنيفة فلذلك انتقلت إليه[٤٨٠]. ومهما كان سبب دراسته فقه أبي حنيفة فقد بذل فيه جهوده فصار من أئمته المشهورين.

كان الطحاوي إمام عصره في الفقه والحديث واختلاف العلماء والأحكام واللغة والنحو، وانتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. وكان قد ارتحل إلى عديد من البلدان واستمع إلى عدد من المحدثين ودرس الفقه على كبار الفقهاء، فكان فقيهاً ومحدثاً ثبتاً[٤٨١].

ولد الطحاوي في سنة ٢٣٩، وتوفي بمصر في سنة ٣٢١ ليلة الخميس مستهل ذي

---

(٤٧٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٢؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٣٢، وابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٤٧٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٤؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٣٤، وابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ٢٥٥، ويقول إنه توفي سنة ٣١٧.

(٤٧٧) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥٨، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ٩١.

(٤٧٨) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٥٣ و٥٥؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٣٩، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٠٦، واسمه فيه: أحمد بن محمد بن سلمة بن سلامة.

(٤٧٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٤٨٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣.

(٤٨١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٣٩، وابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٢٥٠.

القعدة[٤٨٢]. أما مصنفاته الفقهية فقد ذكر ابن النديم منها كتاب الشروط الكبير، وكتاب الشروط الصغير، وكتاب المختصر الصغير، وكتاب المختصر الكبير، وكتاب شرح الجامع الكبير لمحمد، وكتاب شرح الجامع الصغير، وكتاب المحاضر والسجلات، وكتاب الوصايا، وكتاب الفرائض، وكتاب العقيدة[٤٨٣]. ويقول صاحب كشف الظنون عن كتابه (مختصر الطحاوي) في فروع الحنفية، ألفه كبيراً وصغيراً، ورتّبه كترتيب مختصر المزني الشافعي، وقال في مقدمته إنه جمع في كتابه هذا أصناف الفقه التي لا يسع الإنسان جهلها، وثبّت الجوابات عنها من أقوال أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن[٤٨٤]. ويقول عن كتابه عقائد الطحاوي إنه سماه: بيان السنّة والجماعة[٤٨٥].

أ ـ الكُلَيني

أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكُلَيني، من مواليد كُلَيْن بالري، وقد نشأ وعاش ببغداد، وهو من كبار محدثي فقهاء الشيعة الإمامية، وأعلاهم منزلة، وكان شيخ الشيعة الإمامية ببغداد في زمانه[٤٨٦].

ولُقِّب الكليني بثقة الإسلام لأنه كان أثبت الناس في الحديث[٤٨٧]. وله عدد كبير من المصنفات الفقهية، وفي علم الكلام، منها: الكافي في علم الدين، ويعتبر أشهر مصنفاته وأهمها، وهو في جزءين يعرف الأول بـ أصول الكافي، والثاني بـ فروع الكافي، ويقال إنه صنفه في عشرين سنة، وهو كتاب كبير يحتوي على ستة عشر ألف حديث، صنفها إلى صحيحة، وحسنة، وموثقة، وقوية، وضعيفة[٤٨٨]. وكتاب رسائل الأئمة، وكتاب الرد على القرامطة، وكتاب الصلاة والصيام، وكتاب التوحيد، وكتاب العلم، وكتاب العقل، وكتاب الأطعمة والأشربة[٤٨٩].

توفي الكليني ببغداد سنة ٣٢٩[٤٩٠].

---

(٤٨٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٥٠؛ ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤٠، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٠٦، وفيه توفي سنة ٣٢٢.

(٤٨٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٤٨٤) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٢٧.

(٤٨٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٤٣.

(٤٨٦) دوايت م. دونالدسون، عقيدة الشيعة: وهو كتاب عن تاريخ الاسلام في ايران والعراق (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٤٦)، ص ٢٨٣؛ الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٨، ص ١٧، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٣٥.

(٤٨٧) دونالدسون، المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٤٨٨) المصدر نفسه، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٤٨٩) البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٧.

(٤٩٠) دونالدسون، المصدر نفسه، ص ٢٨٤، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ١٧.

٤ ـ فقهاء مجتهدون

قام إلى جانب العدد الذي ذكرناه من الفقهاء على اختلاف انتماءاتهم الفقهية، عدد آخر من الفقهاء المجتهدين الذين لم يرتضوا لأنفسهم أن يقلدوا أحد أئمة الفقه ممن أشرنا إليهم، وإنما انتهج كل منهم لنفسه فقهاً خاصاً به يقوم على الكتاب والسنة وعلى اجتهاده الشخصي. وقد اتصف كل منهم بسعة العلم وشدة الورع والتمسك بأحكام الشريعة. ولهذا نجد بعضهم قد قلّده آخرون من فقهاء وغيرهم وانتموا إلى مذهبه الفقهي. على أن هذه المذاهب الأحادية الضيقة لم تلبث أن اندثرت بمرور الزمن.

ومن أشهر هؤلاء الفقهاء المجتهدين في عصر النهضة العلمية العربية؛ أبو ثور ابراهيم بن خالد الكلبي، وأبو عبد الله البخاري، وداود الظاهري، وابن قتيبة، والطبري. وفيما يلي موجز بسيرة كل منهم واجتهاده الفقهي:

أ ـ أبو ثور

ابراهيم بن خالد بن أبي اليمان، أبو ثور الكلبي، الفقيه المحدث. سمع الحديث على كبار محدثي أيامه مثل سفيان بن عيينة، واسماعيل بن عُليّة، ووكيع القاضي، والإمام الشافعي، وروى عنه كثيرون منهم المحدثان مسلم بن الحجاج، وسليمان بن الأشعث[٤٩١]. كان أحد الثقات المأمونين، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: اعرفه بالسنّة منذ خمسين سنة، هو عندي في مسلاخ سفيان الثوري، وكان يعتبره من خيرة الفقهاء، وإذا ما سئل عن مسألة في الحلال والحرام أحال السائل على الفقيه أبي ثور[٤٩٢].

كان أبو ثور يتفقه أول أمره بالرأي ويذهب إلى قول أهل العراق، ولما قدم الإمام الشافعي بغداد اختلف إليه أبو ثور ولزمه وأخذ عنه، ورجع عن الرأي إلى الحديث وصار من أعلام المذهب الشافعي[٤٩٣]. ويقول ابن النديم عنه إنه أخذ عن الشافعي وروى عنه، إلا أنه انحرف عن مذهبه وخالفه في أشياء، وأحدث لنفسه مذهباً خاصاً اشتقه من مذهب الشافعي، وان أكثر أهل اذربيجان وأرمينيا يتفقهون على مذهبه[٤٩٤].

---

(٤٩١) الخطيب البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٦، ص ٦٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٧، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١١، وجاء اسمه فيه: ابراهيم بن خالد بن اليمان.

(٤٩٢) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٦، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧.

(٤٩٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٧، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧.

(٤٩٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣١١.

ولأبي ثور عدد من الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الفقه والحديث، ذكر ابن النديم منها: كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب الصيام، وكتاب المناسك، ويضيف صاحب هدية العارفين: كتاب أحكام القرآن، كما ذكر له قاموس الأعلام: كتاب اختلاف مالك والشافعي، ويقول إنه ذكر فيه مذهبه، وهو أكثر ميلاً إلى الشافعي(٤٩٥).

توفي أبو ثور ببغداد في شهر صفر من سنة ٢٤٠(٤٩٦).

ب ـ البخاري

أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، وقد سبق أن أشرنا في البحث الذي وضعناه عنه وعن كتابه الجامع الصحيح في الحديث، إلى اطلاعه الواسع في علم الحديث بمختلف فروعه، وإلى أنه كان مستقلاً بآرائه الفقهية فلم يتحيّز لأحد المذاهب منها. فقد كان حراً موضوعياً في استنتاجاته وبيان آرائه الشخصية في المسائل المختلف عليها بين تلك المذاهب. مما يجعلنا نستنتج أن البخاري لم يكن يتفقه على أحد من أئمة المذاهب الفقهية المعروفة وإنما اجتهد لنفسه فقهاً خاصاً به. ويمكن القول بأن ما اتهم به في عقيدته كان بسبب استقلاله الفقهي هذا. فقد كان يقول إن أفعال العباد مخلوقة لأن النبي ﷺ قال: إن الله يصنع كل صانع وصنعته. وعلى هذا فإن حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة. أما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور في الكتب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بمخلوق، قال الله تعالى ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم...﴾(٤٩٧). فقال محمد بن يحيى الذهلي إمام خراسان ومحدثها آنذاك: «من زعم ان القرآن مخلوق فقد كفر وخرج عن الايمان... ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يُجالس، ولا يُكلَّم، ومن ذهب بعد مجلسنا هذا إلى محمد بن اسماعيل البخاري فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه»(٤٩٨).

فردَّ البخاري على ذلك بقوله: من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله، إلا أني قلت إن أفعال العباد مخلوقة(٤٩٩). ويقول السبكي: «لا يرتاب المنصف في أن محمد بن يحيى الذهلي لحقته آفة الحسد التي لم يسلم منها إلاّ أهل العصمة»(٥٠٠). أي أنه يَعزي موقف الذهلي من البخاري، كان بدافع حسده على ما وصل إليه البخاري من علم وشهرة.

---

(٤٩٥) المصدر نفسه، ص ٣١١؛ البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢ ـ ٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ٣٠.

(٤٩٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٦٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٠١، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٧١، وفيه أن وفاته كانت سنة ٢٤٦.

(٤٩٧) القرآن الكريم، «سورة العنكبوت،» الآية ٤٩.

(٤٩٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣١ ـ ٣٢، والسبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ١٢.

(٤٩٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣، والسبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢.

(٥٠٠) السبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣.

ج ـ داود الظاهري

داود بن علي بن خلف، أبو سليمان البغدادي إمام أهل الظاهر، ولد بالكوفة في مطلع القرن الثالث، ونشأ ببغداد واشتهر بها، وقد درس الفقه على اسحاق بن ابراهيم الحنظلي وأبي ثور الكلبي، واختص بالإمام الشافعي وكان أكثر اصحابه تعصباً له وتأييداً لفقهه، حتى إنه صنف كتابين في فضائله والثناء عليه(٥٠١).

كان داود أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام و «هو اول من استعمل قول الظاهر، واخذ بالكتاب والسنة وألغى ما سوى ذلك من الرأي والقياس»(٥٠٢). وله رسالة ردَّ بها على اسماعيل المزني، ينكر فيها القياس ويقول: الحكم بالقياس لا يجب، والقول بالاستحسان لا يجوز(٥٠٣). وقد استقل عن الإمام الشافعي وأحدث مذهباً فقهياً خاصاً عُرف بالمذهب الظاهري، وتبعه جمع كثير عرفوا بالظاهرية(٥٠٤). وهو يدعو إلى التمسك بظواهر النصوص من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية، والاعتماد عليها وحدها، ونفى القياس في الأحكام الشرعية، ولو أنه كان يضطر إليه أحياناً، ويسميه الدليل(٥٠٥).

وقد وصف ابن الجوزي داود الظاهري بالجمود والغفلة، فقال: مذهبه طريق يدعي الجمود على النقل ويخالف كثيراً من الأحاديث ويلتفت على مفهوم الحديث إلى صورة لفظ وفي هذا تغفيل(٥٠٦). وقال عنه أبو العباس ثعلب: «كان عقل داود أكثر من علمه»(٥٠٧). وغضب عليه الإمام أحمد بن حنبل، لقوله في القرآن إنه محدث، فإن «الذي في اللوح غير مخلوق والذي بين الناس مخلوق»(٥٠٨).

ومع هذا كان داود بن علي من أبرز الفقهاء وأشهرهم في زمانه، فكان يحضر مجلسه كل يوم عدد كبير من طلاب الفقه، وقيل إنه كان يحضر مجلسه أربعمئة صاحب طيلسان أخضر(٥٠٩) ـ وهو شعار الفقهاء ـ كما عرف بورعه وزهده عن الدنيا، وروى ابن خلكان ما يؤكد زهده ونسكه وقناعته(٥١٠).

---

(٥٠١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢ ـ ٤٣، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٥٠٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١٧.

(٥٠٣) السبكي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦.

(٥٠٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٦.

(٥٠٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٣٧٤.

(٥٠٦) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٧٥.

(٥٠٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٧.

(٥٠٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٣٧٤، وابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٧٦.

(٥٠٩) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ٤٣، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧.

(٥١٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦ ـ ٢٧.

توفي داود ببغداد في شهر رمضان وقيل في شهر ذي القعدة، من سنة ٢٧٠ ودفن في مقبرة الشونيزية، وقيل بل دفن في منزله[٥١١].

وصنّف داود الظاهري عدداً كبيراً من الكتب أغلبها في الفقه وبعضها في شؤون القضاء، وذكر له ابن النديم ما ينيف على الخمسين كتاباً، نقلها عنه صاحب هدية العارفين، منها: كتاب الايضاح، وكتاب الدعوة والبينات، وكتاب الأصول، وكتاب المناسك، وكتاب المأذون له في التجارة، وكتاب الرهن، وكتاب المزارعة، وكتاب الايمان، وكتاب الكفارة، وكتاب الجهاد، وكتاب الخراج، وكتاب الجزية، وكتاب القضاء، وكتاب أدب القاضي، وكتاب الذب عن السنن والأحكام والأخبار، وكتاب الزكاة، وكتاب صيام التطوع، وكتاب صيام الفرض، وكتاب النكاح، وكتاب الطلاق، وكتاب الفرائض، وكتاب الوصايا، وكتاب علم الفقه[٥١٢].

د ـ ابن قتيبة

أبو محمد عبد الله بن مسلم، وقد ذكرنا خلاصة سيرته في فصل آخر، وان الذي يعنينا هنا نهجه في التفكير والتصنيف في اختصاصاته المختلفة وآراؤه في ذلك. فقد عرف عنه أنه درس الحديث ورواه، وكان عالماً أديباً مؤرخاً، جمع بين الأخبار واللغة وآدابها وعلوم القرآن والفقه والحديث، وانه كان ذا رأي خاص في أكثر ما عالجه من المواضيع وبخاصة الفقهية منها والأدبية. يقول محقق كتاب المعارف في مقدمته إن ابن قتيبة شارك في محنة القول بخلق القرآن وكان له رأي فيها، وشارك في الخلاف بين المشبّهة والمجسّمة وكان له فيه رأي، وشارك في الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكان له رأي في ذلك أيضاً. أما عن عقيدته فقد وثّقه فيها قوم واتهمه فيها آخرون[٥١٣].

والواقع أن من أرّخوا لابن قتيبة من المؤرخين والفقهاء اختلفوا فيما يتعلق بعقيدته، يقول الخطيب البغدادي «وكان ثقة ديناً فاضلاً وهو صاحب التصانيف المشهورة والكتب المعروفة...»[٥١٤]. ويقول ابن الجوزي مثل ذلك وأحسبه أخذه عن الخطيب[٥١٥]. ويقول ابن خلكان «كان فاضلاً ثقة... وتصانيفه كلها مفيدة»[٥١٦]. بينما يقول عنه الدارقطني علي بن عمر «كان

---

(٥١١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣١٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٣٧٥؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ٧٧، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨.

(٥١٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣١٧ ـ ٣١٩، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٣٥٩.

(٥١٣) انظر مقدمة المحقّق ثروت عكاشة، في: ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٧.

(٥١٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٠، ص ١٧٠.

(٥١٥) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥، ص ١٠٢.

(٥١٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٤٦.

ابن قتيبة يميل إلى التشبيه منحرفاً عن العقيدة وكلامه يـدل عليه»[٥١٧]. ويقـول البيهقي أبو بكـر أحمد بن الحسين «كان ابن قتيبـة يرى رأي الكـرَّامية وليس بـين الكرامية والمشبهة كبير فـرق»[٥١٨]. ويقـول أبـو المحاسن «وكان ابن قتيبة خبيث اللسان يقع في حق كبار العلماء»[٥١٩].

ومما تقدم ذكـره نستطيع القول إن ابن قتيبـة، الذي لـه رأيه الخـاص في كـل أمـر أو موضوع يعالجه، لا بد وأنه لم يكن يقلد أحد أصحاب المذاهب الفقهية، وانه كان له مذهبه الفقهي الخاص به، والذي توصل إليه بعلمه واجتهاده.

هـ ـ الطبري

كان أبو جعفـر محمد بن جـرير الـطبري العالم الفقيـه المؤرخ إمامـاً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريـخ، مجتهداً في الأحكـام لا يقلد أحداً بـل قلّده بعض الفقهاء وعملوا بأقواله وآرائه الفقهية فنسبوا إليه[٥٢٠]. ويظهـر أنه كـان أول أمره عـلى مذهـب الإمـام الشافعي قبل أن يستقل باجتهاد فقهي خاص به، فقد قال: أظهرت فقه الشافعي وأفتيت به ببغداد عشر سنين[٥٢١]. وصفه ابن النديم بأنه علّامة وقته وإمام عصره وفقيه زمانه، وكان لـه مذهب في الفقه اختاره لنفسه، وله في ذلك كتب عـدة[٥٢٢]. وقال عنـه ابن سُرَيج: «محمد بن جرير الطبري فقيه العالم»[٥٢٣] وقال عنه ياقوت الحموي «كان أبو جعفر يذهب في جل مذاهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف وطريق أهل العلم المتمسكين بالسنن»[٥٢٤].

ويعتبر كتاب الطبري المسمى اللطيف في أحكام شرائع الإسلام خير ما يعبِّر عن مذهبه الفقهي وعليـه يعوِّل جميـع أصحابـه، وهو من أنفس كتبـه وكتب الفقهاء، وأفضـل أمهـات المذاهب وأسدّها تصنيفاً. وقيـل فيه: مـا عمل كتـاب في مذهـب أجـود من كتاب أبي جعفـر اللطيف لمذهبه[٥٢٥]. وقد سمّاه اللطيف لا لصغره وخفة حمله، وإنما أراد بذلـك لطيف القـول ودقة المعاني وكثرة ما فيه من النظر والتعليلات، وهو في نحو ألفين وخمسمئة ورقة[٥٢٦].

وللطبري عـدد من الكتب الفقهية، منها: كتاب الشروط الكبير، وكتاب الـوصايـا،

---

(٥١٧) انظر مقدمة المحقّق ثروت عكاشة، في: ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٨.

(٥١٨) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٥١٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٧٥.

(٥٢٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٣٢.

(٥٢١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٢، ص ١٣٧.

(٥٢٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٤٠.

(٥٢٣) السبكي، المصدر نفسه.

(٥٢٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٤٥٣.

(٥٢٥) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٤٧.

(٥٢٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٤٨.

وكتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وكتاب تهذيب الآثار، وكتاب اختلاف الفقهاء، وكتاب المسترشد[٥٢٧].

وذكر ابن النديم عدداً من الفقهاء الذين تفقهوا على مذهب الطبري، منهم القاضي المعافى النهرواني أبو الفرج بن زكريا من أهل النهروان. وكان واحد عصره في مذهب أبي جعفر وحافظ كتبه، ولقب بالجريري نسبة إلى ابن جرير الطبري، كما ذكر له عدداً من تصانيفه الفقهية. ومنهم أبو الحسن أحمد بن يحيى وهو حفيد علي بن يحيى المنجم نديم المتوكل على الله، وذكر ابن النديم بعض مصنفاته[٥٢٨].

و ـ سعيد بن الحداد

أبو عثمان سعيد بن محمد بن صبيح المعروف بابن الحداد الغسّاني، وقد ذكرناه في مشاهير المتكلمين، كان عابداً ورعاً، درس العلوم الدينية على سحنون وغيره، وتتلمذ عليه جماعة كبيرة من معاصريه واقتدوا به في أسلوبه وآرائه.

لم يقلد ابن الحداد مذهباً فقهياً معيناً، بل اتخذ من النظر والقياس والاجتهاد مذهباً خاصاً به، وكان يقول: إنما أدخل كثير من الناس إلى التقليد نقص العقول وقلة الفهم. ويقول: كيف يسع مثلي ممن آتاه الله فهماً أن يقلد أحداً من العلماء بلا حجة ظاهرة؟

توفي ابن الحداد سنة ٣٠٢ وله عدد من الكتب في الرد على أهل البدع والزندقة ذكرناها عند الكلام عنه في موضوع علم الكلام[٥٢٩].

ز ـ القاسم بن سلام

ويمكن اعتبار الفقيه المجتهد القاسم بن سلام ممن لم يتبعوا مذهباً فقهياً معيناً بالنظر لسعة علمه في الفقه والحديث واللغة. قال عنه ابن النديم «وكان ذا فضل ودين وستر ومذهب حسن»[٥٣٠]. وقال عنه ابن خلكان «كان أبو عبيد فاضلاً في دينه وعلمه، ربانياً، متفنناً في أصناف علوم الاسلام من القراءات والفقه والعربية والأخبار»[٥٣١].

والقاسم بن سلّام بغدادي، كان أبوه رومياً مملوكاً لرجل من هرات، ونشأ القاسم بها فنسب إليها، ثم انتقل إلى بغداد ودرس بها على كبار المحدثين واللغويين، فكان متميزاً،

---

(٥٢٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٥٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٥٢٩) انظر حوله: عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٣، ص ١٥٤.

(٥٣٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٥٣١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٢٢٥.

واسع المعرفة، حتى وصف بأنه جبل نفخ فيه روح فهو يحسن كل شيء(٥٣٢). وقد وضع عديداً من الكتب في علوم القرآن والفقه والحديث واللغة، وروى الناس عنه كثيراً منها. قال الجاحظ عن مصنفاته إنه لم يُكتب للناس أصح من كتبه ولا أكثر فائدة(٥٣٣). وقد ذكر له ابن النديم أسماء عشرين كتاباً، سبعة منها في علوم القرآن، وثلاثة في اللغة وآدابها، وكتابين في الحديث، ومثلهما في التاريخ وستة في الفقه. وأشهر مصنفاته كتاب الأموال، ويعتبر من أحسن ما صنف في الفقه، وهو أوسع كتاب في موضوعه وقد جمع كل ما يتعلق بأحكام الأموال في الشريعة الاسلامية. وكتاب غريب المصنَّف الذي قال عنه ابن سلام نفسه إنه أحب إليه من عشرة آلاف دينار، ورُوي عنه انه قال عملت كتاب غريب المصنف في ثلاثين سنة(٥٣٤). ويقال إنه أول من صنف في غريب الحديث(٥٣٥).

خرج ابن سلام إلى مكة حاجاً، ثم أقام هناك مجاوراً إلى أن توفي سنة ٢٢٤(٥٣٦).

رابعاً: علم الكلام

١ ـ نشوء علم الكلام وموضوعه

إن العقائد الايمانية في الاسلام معلّلة بأدلّه كثيرة من الكتاب والسنة، إلا أن بعض الآي المتشابهة، والاختلاف في رواية كثير من الأحاديث، سبّبا خلافاً في تفاصيل هذه العقائد. فقد وردت آيات في وصف الخالق عز وجل بالتنزيه المطلق من غير تأويل، وهي صريحة توجب الايمان بها. كما وردت آيات أخرى قليلة توهم التشبيه في ذاته تعالى وصفاته. فغلّب المسلمون الأوائل أدلة التنزيه لكثرتها ووضوحها، ونفوا التشبيه ولم يتعرضوا لتأويل آياته وتفسيرها. إلا أن بعض المبتدعة شذوا عن ذلك وأخذوا بظواهر ما تشابه من الآيات. فقالوا بالتشبيه في الصفات كإثبات الاستواء والنزول، والصوت وأمثال ذلك، بما يخالف آيات التنزيه. فانبرى القائلون بالتنزيه إلى حجاجهم دفاعاً عن العقيدة، وإعادتهم إلى الصواب. وتطرّف المعتزلة في آي التنزيه، ونفي الصفات، والقول بخلق القرآن مما كان سبباً لانتهاض أهل السنة لحجاجهم والرد على مقولاتهم.

وكانت هناك عوامل أخرى استدعت ذلك الحجاج، منها تصرفات الانسان وأعماله،

---

(٥٣٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٥.

(٥٣٣) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٦، ص ١٠.

(٥٣٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ١٦٣ و١٦٦، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٥.

(٥٣٥) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٥.

(٥٣٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٢، ص ٤١٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص ٥٠٩، وابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ٣٩٠.

وهل هو مخيَّر مختار لها بمحض ارادته ورغبته، أم هو مسيَّر مجبور عليها. ومنها ما كان يثيره بعض أهل الذمة من التساؤلات حول النبوة والوحي وغيرهما من المواضيع الدينية رغبة في إحراج المسلمين. وقد أدى هذا الحجاج الذي قام بين مختلف الأطراف، ومحاولة كل طرف أن يقنع الطرف الآخر بصحة رأيه، إلى نشوء ما عرف بعلم الكلام. ويقول ابن خلدون إنه سمي بعلم الكلام «لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام صرف وليست براجعة إلى عمل، وإما لأن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في اثبات الكلام النفسي... وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية، فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد»[٥٣٧].

ويتضح من هذا أن علم الكلام هو البرهنة على صحة أسس العقيدة وأصولها، واستنهاض الحجج بمختلف أنواعها لإثبات ذلك، لرد المبتدعة من المتشككين بها أو القائلين بخلافها. وبالنظر لتوسع الاتجاهات الفقهية ونشوء الاختلافات بينها حول عدد من الأسس والأصول، فقد استخدم علم الكلام في المناقشات بين الفرق الفقهية الاسلامية. وقد أطلق اسم «المتكلمون» على الفقهاء الذين يتخذون من المسائل الدينية المثارة موضوع جدل ومناظرة للبرهنة عليها، فيناقشونها بأسلوب يؤدي إلى الاقتناع بصحتها. ولاختصاص علم الكلام بالحجاج عن أسس الدين فقد يسمى أحياناً بـ علم أصول الدين. يقول الخوارزمي إن أصول الدين التي يتكلم فيها المتكلمون عديدة متفرعة، منها القول في حدوث الأجسام، وهم يردون بذلك على الدهرية القائلين بقدم الدهر، والدلالة على أن للعالم محدثاً هو الله جلّ جلاله فيردون بذلك على المعطلة، وأن الخالق عز وجل قديم قادر حي، وهو واحد، ويردون بذلك على الثنوية من المجوس والزنادقة وعلى المثلثة من النصارى وغيرهم ممن قالوا بتعدد الآلهة. والخلاف حول صفات الخالق عز وجل وإرادته وكلامه، وهل هي قديمة أزلية أم محدثة. وأفعال الانسان وهل هي من عمله أم أنها مخلوقة يحدثها الباريء سبحانه وتعالى، وهل الاستطاعة على فعل ما كائنة قبل الفعل أو أنها تكون معه. والكلام للدلالة على نبوة محمد ﷺ، والقول في الإمامة وشروطها وظروفها ومن يصلح لها[٥٣٨].

ولخص عبد القاهر البغدادي مواضيع علم الكلام الأساسية التي هي أصول الدين بأنها هي: حدوث العالم وأعراضه، ومعرفة الخالق عز وجل ونعوته في ذاته وأسمائه وعدله وحكمه، ومعرفة الرسل والأنبياء ومعجزاتهم، وأركان الشريعة الاسلامية وأصول الايمان، وأحكام الإمامة وشروطها، وأحكام العلماء، وأحكام أهل الأهواء والبدع[٥٣٩].

ويمكن اعتبار علم الكلام فلسفة دينية، إذ كان المتكلمون يتخذون من المسائل المختلف عليها مواضيع يناقشونها بأسلوب جدلي يؤدي إلى البرهنة على صحتها والاقتناع بها.

---

(٥٣٧) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.
(٥٣٨) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٥٣٩) البغدادي، أصول الدين، ص ١ ـ ٢.

وقد اتخذ هذا العلم وسيلة لإسناد المذاهب الفقهية، فكان أهم العوامل لاستخدام العقل في الأمور الدينية. وكان المعتزلة من علماء الكلام الرواد في ذلك، إذ رفعوا من شأن العقل ومرتبته في أمور العقيدة والايمان.

وكان علم الكلام في أول أمره يقتصر على احتجاجات ضيقة النطاق يحتج بها الفقهاء ضد أهل البدع ومن اتهموا بالزندقة لرد دعاواهم وإبطالها، وتكاد حججهم تقتصر على ما يناسب الموضوع من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فكان بهذا الاعتبار جانباً من علم الفقه. إلا أنه بعد ذيوع الفلسفة اليونانية صار من الضروري لمن يريد أن يتصدى لهذا العلم أن يدرس المنطق، ويتعرف على آراء الفلاسفة. وقد مرّ في موضوع حركة الترجمة أن كتب ارسطوطاليس في المنطق قد نقلت إلى اللغة العربية، فتولاها فيلسوف العرب الكندي وغيره من العلماء الفلاسفة بالشرح والتفسير مما كان له أثر مهم في تطور علم الكلام، بحيث تسنى لهذا العلم في القرن التالي - الرابع - أن يستقل عن علم الفقه، وتثبت أسسه وأركانه القائمة على المناظرة والمنطق والمعرفة الواسعة، والبراهين العقلية والنقلية. فوجد فيه الفقهاء وبخاصة المعتزلة منهم مادة غزيرة تساعدهم في محاججة الزنادقة وأهل الذمة، ومناظرة أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى.

٢ - أشهر المتكلمين

اشتهر من رجال علم الكلام، في القرن الثالث، إلى جانب المتكلمين من المعتزلة ممن سنتكلم عليهم فيما بعد، عدد من الفقهاء والأدباء، منهم: الفضل بن شاذان، والناشيء الكبير، وابراهيم القويري، ومحمد الواسطي، والحسين بن كرنيب والحسن بن موسى النوبختي، وسعيد بن الحداد الغسّاني.

أ - الفضل بن شاذان بن الخليل، أبو محمد الأزدي، المتوفى سنة ٢٦٠ من فقهاء الإمامية ومن مشاهير علماء الكلام في زمنه. ولد في نيسابور فكان ينسب إليها أحياناً. وقد اعتبره ابن النديم أحد الأئمة في علوم القرآن والروايات، واعتمد عليه فيما ذكره عن ترتيب القرآن الكريم في مصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبيّ بن كعب[٥٤٠]. وعدَّد من مصنفاته كتاب التفسير، وكتاب القراءات، وكتاب السنن في الفقه[٥٤١]. ويقال إن للفضل بن شاذان مئة وثمانين مصنفاً، ذكر صاحب هدية العارفين نيفاً وخمسين منها، وأغلبها في علم الكلام، منها: كتاب الرد على الباطنية، وكتاب الرد على الثنوية، وكتاب الرد على المرجئة، وكتاب الرد على الفلاسفة، وكتاب الايمان، وكتاب التوحيد[٥٤٢].

---

(٥٤٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٥ - ٤٦.

(٥٤١) المصدر نفسه، ص ٣٣٧.

(٥٤٢) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٨١٧، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ص ٣٥٥.

ب ـ الناشيء الكبير هو أبو العباس عبد الله بن محمد الأنباري، من كبار شعراء القرن الثالث، ومن رجال النحو والعروض، وأحد المتكلمين المشهورين. يقول عنه ابن النديم: «كان متكلماً، شاعراً، مترسلاً، حسن الأدب، وله قصيدة أربعة آلاف بيت على روي واحد وقافية واحدة في الكلام، سلك فيها طريق الفلسفة، فسقط عند أهل طبقته من المتكلمين»[٥٤٣]. ويقول ابن خلكان إنه «كان من الشعراء المجيدين، نحوياً، عروضياً، متكلماً، وكان متبحراً في عدة علوم من جملتها علم المنطق وكان بقوة علم الكلام. وقد نقض على النحاة، وادخل على قواعد العروض شبهاً ومثّلها بغير أمثلة الخليل، وذلك بحذقه وقوة فطنته»[٥٤٤].

ويظهر أن الناشيء لقي معارضة من المتكلمين والشعراء والنحاة وقد جفوه، مما اضطره إلى هجر بغداد والانتقال إلى مصر، وقد قيل عنه إنه «أخذ نفسه بالخلاف على أهل المنطق والشعر والعروضيين وغيرهم، ورام أن يحدث لنفسه أقوالاً ينقض بها ما هم عليه، فسقط ببغداد فلجأ إلى مصر»[٥٤٥]. أما مصنفاته فلم يذكر له ابن النديم شيئاً، ويقول ابن خلكان إن له عدة تصانيف دون أن يذكر شيئاً منها. إلا أن صاحب هدية العارفين يذكر له: طرديات على أسلوب أبي نواس، وقصيدة في الفنون في أربعة آلاف بيت، والمقاطيع[٥٤٦].

ج ـ كان أبو اسحاق ابراهيم القويري، المتوفى سنة ٢٩٥ بارعاً في العلوم الحكمية ومن أساتذة علم المنطق والكلام، وقد درس عليه كثير من الطلاب علم المنطق، منهم أبو بشر متى بن يونس الذي غدا كبير المنطقيين في زمانه. وكان القويري من جملة النَّقَلَة إلى اللغة العربية، وصنف عدداً من الكتب، منها، تفسير قاطيغورياس (المقولات) وتفسير أنالوطيقا الأول والثاني (تحليل القياس والبرهان) وباريمينياس (العبارة) وسوفسطيقا (المغالطة). ويقول ابن النديم وابن أبي أصيبعة عن مصنفاته إنه كان مفسّراً وكتبه مطرَّحة مجفوَّة لأن عبارته كانت عفطية غَلِقة[٥٤٧].

د ـ أما أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي بن الحسين الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ أو ٣٠٧ فهو من واسط، وسكن بغداد وبها اشتهر باعتباره من كبار علمائها في الكلام. وكان قد درس علم الكلام على محمد بن عبد الوهاب الجبائي رئيس معتزلة البصرة في زمانه، وانتمى

---

(٥٤٣) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢١٧.

(٥٤٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٥٤٥) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٤، ص ٢٦١.

(٥٤٦) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٤٤٢.

(٥٤٧) حول القويري، انظر: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٥٥ و٣٨١؛ أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٣١٧، وأبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٣٦ ـ ٣٧ و٣٢٣.

إلى فرقته في الاعتزال وأخذ بأقواله. ودرس على الواسطي كثير من الطلاب علم الكلام. وله كثير من الكتب منها: كتاب الإمامة وقد جوَّد فيه، وكتاب إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه، والزمام في علم القرآن، وكتاب الرد على قسطا بن لوقا.

وكان الواسطي ينظم الشعر، وله مداعبات مع نفطويه العالم النحوي الشهير، وهو القائل فيه:

أحرقه الله بنصف اسمه وصيَّر الباقي صراخاً عليه

ومن طريف قوله في نفطويه: من أراد أن يتناهى في الجهل فليتعرف الكلام على مذهب الناشيء، والفقه على مذهب داود بن علي، والنحو على مذهب نفطويه، لأن نفطويه كان يتعاطى الكلام على مذهب الناشيء، ويتفقه بمذهب داود، وهو نفسه نفطويه، فهو إذاً في نهاية الجهل(٥٤٨).

هـ - وأما أبو أحمد الحسين بن اسحاق بن ابراهيم الكاتب المعروف بابن كرنيب، فكان من أبرز المتكلمين وفي نهاية المعرفة بالعلوم الطبيعية القديمة، يذهب فيها مذاهب الفلاسفة الطبيعيين. وله من التصانيف: كتاب الرد على ثابت بن قرَّة في نفيه وجود سكونين بين كل حركتين متضادتين(٥٤٩). وكتاب مقالة في الأجناس والأنواع في الأمور العامية(٥٥٠).

يقول القفطي إن ابن كرنيب صنَّف كتاب الرد على ثابت بن قرة بعد وفاة ثابت بما لا فائدة منه ولا طائل(٥٥١). ونستفيد من هذا أن ابن كرنيب كان لا يزال حياً بعد سنة ٢٨٨، وهي السنة التي توفي بها ابن قرَّة. كما يقول إنه فسر المقالة الأولى وبعض المقالة الرابعة من كتاب السماع الطبيعي لأرسطوطاليس، وأن أبا بشر متّى بن يونس قد درس عليه(٥٥٢).

و - كان أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي المتوفى سنة ٣١٠ فيلسوفاً ومتكلماً ومعتزلياً من الشيعة الإمامية، عارفاً بالفلسفة والفلك مجيداً فيهما، وهو من أهل بغداد بها نشأ ودرس واشتهر. وكان يجتمع إليه جماعة من نَقَلة الكتب الفلسفية مثل أبي عثمان الدمشقي واسحاق بن حنين وثابت بن قرَّة وغيرهم. كما كان جمّاعة للكتب، وقد نسخ بخطه شيئاً كثيراً منها. وله مصنفات عديدة، منها: كتاب الآراء والديانات، وكتاب الرد على أصحاب

---

(٥٤٨) حول الواسطي، انظر: ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٥٨ - ٢٥٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٣٠ - ٣١؛ البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٦، ص ٣٦٧.

(٥٤٩) هكذا جاء عنوانه في: ابن النديم، المصدر نفسه؛ وجاء في ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، والقفطي، المصدر نفسه: بين كل حركتين متساويتين.

(٥٥٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨١؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ١٦٩؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣١٧، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣٢.

(٥٥١) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٥٥٢) المصدر نفسه، ص ٣٩ و٣٢٣.

التناسخ، وكتاب التوحيد وحدث العلل، وكتاب الإمامة، واختصار كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس، وكتاب الجزء الذي لا يتجزأ[٥٥٣]. وذكر له محقق كتاب فرق الشيعة أربعة وأربعين كتاباً، منها: كتاب الرد على أصحاب المنزلة بين المنزلتين في الوعيد، وكتاب الرد على أبي الهذيل العلاّف في أن نعيم أهل الجنة منقطع، وكتاب في الرد على أبي علي الجُبّائي في ردّه على المنجمين، وكتاب فرق الشيعة[٥٥٤]. كما ذكر صاحب هدية العارفين كتباً أخرى منها: كتاب الاستطاعة، وكتاب ذكر متشابه القرآن[٥٥٥].

ز ـ وقد اشتهر من المتكلمين في افريقيا (تونس) سعيد بن محمد بن صبيح المعروف بابن الحداد الغسّاني، أبو عثمان، من كبار المتكلمين الافريقيين في عصره إن لم يكن أشهرهم وأعلمهم. درس العلوم الدينية على سحنون وغيره، ثم مال إلى الفلسفة وعلم الكلام واتقن أصول المناظرة والجدل، حتى لم يعد ينازعه فيها منازع. وعظمت شهرته، وعلت منزلته بعدما ناظر الدعاة الفاطميين في رقادة عقب استيلائهم على افريقيا مما دلل على جرأته وسعة علمه وقوة حجاجه، حتى مثّله أهل السنة في القيروان بأحمد بن حنبل في أيام المحنة بسامراء.

ولأبي عثمان مصنفات في علم الكلام في الرد على المخالفين من أهل المخارق والزنادقة، منها: كتاب المقالات، وكتاب توضيح المشكل في القرآن، وكتاب الأمالي، وكتاب الاستيعاب، وكتاب الاستواء.

وكان مولد أبي عثمان الغساني في سنة ٢١٩ ووفاته بالقيروان في سنة ٣٠٢[٥٥٦].

٣ ـ المعتزلة وعلم الكلام

المعتزلة طائفة من المفكرين المسلمين ظهرت في البصرة في أوائل القرن الثاني. وسبب ظهورها معروف متفق عليه، هو اختلافهم مع أصحاب المذاهب الأخرى بشأن مرتكبي الكبائر من المسلمين. وقد لخص الشهرستاني ذلك بقوله: «دخل واحد على الحسن البصري وقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان... فكيف تحكم في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل واصل عنا، فسمي هو وأصحابه معتزلة»[٥٥٧].

(٥٥٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٥٥٤) فرق الشيعة، ص ١٢١ ـ ١٢٥.

(٥٥٥) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٥٥٦) حول الغساني، انظر: عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٣، ص ١٥٤.

(٥٥٧) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٨.

يقـول المؤرخ المسعـودي، وهـو أقـدم من كتب عن ظهـور الاعـتزال وأصـولـه، عن تسميتهم بالمعتزلة أو أهل الاعتزال إن «واصل بن عطاء شيخ المعتزلة وأول من اظهر القول بـالمنزلـة بين المنزلتين وهو أن الفاسق من أهل الملة ليس بمؤمن ولا كافر، وبه سميت المعتزلة وهو الاعتزال»[٥٥٨] أي بعزلهم الفاسق عن منزلتي المؤمن والكافر.

ويقول ابن النديم «سميت المعتزلة بهذا الاسم لأن الاختلاف وقع في أسماء مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة، فقال الخوارج: هم كفار مشركون وهم مع ذلك فسّاق. وقالت المرجئة: هم مؤمنون مسلمـون ولكنهم فسّاق. وقالت الزيدية والإباضية: هم كفار نعمـة وليس بمشركين ولا مؤمنين ولكنهم فسّاق. وقـال أصحاب الحسن: هم منافقون وهم فسّاق. فاعتزلت المعتزلة جميع ما اختلف عليه هؤلاء، وقالوا: نأخذ بما اجتمعوا عليه من تسميتهم بالفسق وندع ما اختلفوا فيه من تسميتهم بالكفر والايمان والنفاق والشرك»[٥٥٩].

ويقول عبد القاهر البغدادي في ذلك «اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمة الاسلام بـالمنزلـة بين المنزلتين... ولأجل هذا سماهم المسلمون ـ معتزلة ـ لاعتزالهم قول الأمة»[٥٦٠].

ويقول ابن خلكان: «فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبـائر، وقـالت الجماعـة إنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر، فخرج واصل بن عطاء على الفريقين وقال: إن الفـاسق من هذه الأمـة لا مؤمن ولا كافر بل منزلة بين منزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه، فاعتزل عنه وجلس إليه عمرو بن عبيد، فقيـل لهما ولاتباعهما «معتزلون»»[٥٦١]. ويقول في مكان آخر من كتـابه إن قتـادة بن دعامـة العالم المحـدث البصير «دخل مسجد البصرة فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معه قـد اعتزلـوا من حلقة الحسن البصري، وحلقـوا وارتفعت أصواتهم، فأمّهم وهو يظن أنها حلقة الحسن، فلما صار معهم عرف أنها ليست هي، فقال: إنما هؤلاء معتزلة، ثم قام عنهم. فمنذ يومئذ سموا المعتزلة»[٥٦٢].

وهناك قول شبيه بهذا، هو أن عمرو بن عبيد كان يقول بالقـدر ويدعـو إليه، واعـتزل الحسن وأصحابه فسموا معتزلة[٥٦٣].

وقـد انفرد ابن النـديم برواية عن أبي بكر بن الإخشيـد، ان الاعتزال لم ينشأ في أيام الحسن البصري وإنما حدث بعـده، يقول: «والسبب فيـه أن عمرو بن عبيـد لما مـات الحسن وجلس قتادة مجلسه، فاعتزله عمرو ونفرٌ معه فسماهم قتادة معتزلة، واتصل ذلك بعمرو فأظهر تقبله والرضـاء به»[٥٦٤].

---

(٥٥٨) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٨١.

(٥٥٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القـدماء والمحـدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠١.

(٥٦٠) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة النـاجية منهم، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري؛ نشره عزت عطار الحسني ([د.م.: د.ن.]، ١٩٤٠)، ص ٦٨.

(٥٦١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥، ص ٦١.

(٥٦٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٤٨.

(٥٦٣) أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٧ (ليـدن: مطبعـة بريـل، ١٨٩١)، ص ٢٢٠.

(٥٦٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القـدماء والمحـدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠١.

ويظهر أن ما قيل عن عمرو بن عبيد في هذه الرواية، إنما وضع للتغطية على ما تم من خلاف بين واصل بن عطاء وشيخه الحسن البصري، ومن ثم التغطية على ما قام من خلاف بين الفرق المذكورة حول موضوع الفاسق من الملّة أو مرتكب الكبيرة. إلا أنه حتى إذا ما كانت هذه الرواية صحيحة فإن اعتزال عمرو مجلس قتادة أو الحسن لا ينفي ما قام به واصل بن عطاء في مجلس الحسن البصري. وبالنظر لتواتر الرواية عن اعتزال واصل عن حلقة الحسن البصري، وتعدد مصادرها، فإن رواية ابن الاخشيد هذه لا تكفي لنفي ظهور الاعتزال في أيام الحسن، لا سيما وأن هذه الرواية قد أوردها ابن خلكان بشكل آخر ذكرناه آنفاً، يظهر منه أن الحسن كان لا يزال حياً وأن قتادة أطلق على عمرو بن عبيد وجماعته اسم المعتزلة لاعتقاده أنهم اعتزلوا حلقة الحسن البصري.

ما لبث المعتزلة أن غدوا أكثر الفرق الاسلامية نشاطاً وبخاصة في خلال النصف الأول من القرن الثالث، حتى صار الاعتزال المذهب الرسمي للدولة العربية منذ عهد المأمون حتى أيام المتوكل على الله الذي ألغى المحنة ومنع القول بخلق القرآن وناصر أهل السنة. ومما ساعد المعتزلة على ذلك أنهم كان فيهم رجال مفكرون بارعون في الجدل والمناقشة، اتصلوا بالخلفاء منذ أيام أبي جعفر المنصور الذي كان يحترم عمرو بن عبيد لعلمه وورعه وزهده، وهو ممن شايع واصل بن عطاء ونحا نحوه. وكان ثمامة بن أشرس، وهو أحد أئمة الاعتزال، من المقربين من هارون الرشيد والمأمون بعده. كما كان أبو الهذيل العلاّف، وهو أشهر رؤسائهم، مقرباً من المأمون لا يغيب عن مجالسه. ومثله قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد الذي حمل المعتصم بالله وابنه الواثق بالله في سامراء على اتخاذ الاعتزال مذهباً للدولة، والتشدد في المحنة وإكراه القضاة والفقهاء على القول بخلق القرآن.

ويلاحظ أن حركة الاعتزال بدأت فقهية وما لبثت أن تحولت إلى حركة فكرية عقلية تدعو إلى حرية الفكر والرأي في مسائل العقيدة، وتقلل من شأن الاعتماد على المنقولات. وأخذ شيوخها بمبادىء الفلسفة الطبيعية، وجاءوا بمقولات لا يتفق بعضها وأصول الدين الاسلامي. وقد حافظ معتنقو الاعتزال على انتماءاتهم الفقهية فكان فيهم من أهل السنة على اختلاف مذاهبهم ومن الشيعة، مما يؤكد أنها لم تعد حركة فقهية فحسب.

ويمكن اعتبار المعتزلة الفئة المتطرفة من المسلمين في معارضتهم الزندقة والثنوية ورد دعاواهم وإبطالها. وقد رأوا أن استخدام الجدل العقلي أشد فعالية وأكثر اقناعاً، ووجدوا فيما ترجم من كتب المنطق اليونانية ما يساعدهم على دحض هذه الدعوات الوثنية. يقول المستشرق هاملتون جب «ومن الصعب أن نتصور أن المأمون أسس بيت الحكمة بدافع من رغبته الشخصية في الفلسفة اليونانية وأقرب إلى المنطق أن نقول إنه اقتنع بأن الترجمة ستمده بوسائل جد ملائمة تعينه على أن يطهّر الاسلام من بقايا زندقة الوثنية»(٥٦٥).

---

(٥٦٥) هاملتون الكسندر روسكن غب، دراسات في حضارة الاسلام، تحرير ستانفورد شو ووليم بولك؛ ترجمة إحسان عباس، محمد يوسف نجم ومحمود زايد (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤)، ص ٩٣.

لقد تميَّز المعتزلة عن غيرهم باعتماد أصول الجدل والمناظرة في مناقشاتهم ومساجلاتهم الدينية والفكرية. والجدل كما يعرِّفه ابن خلدون «هو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم... ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»[٥٦٦]. والجدل، بالأصل، من بحوث المنطق إلا أنه خُصَّ بالعلوم الدينية، وهو كالمناظرة في ايراد الكلام بين المتناظرين واتخاذهم الأدلة لإثبات ما يدَّعون به حتى يتضح الصواب. ولما كان أهم سلاح للمجادل اضافة إلى علمه وسعة معارفه، طريقته في النقاش، فقد تفوق متكلمو المعتزلة على غيرهم من متكلمي المذاهب الأخرى، لما كانوا يتصفون به من سعة العلم، والاعتماد على العقل، واتقان أصول الجدل والمناظرة، مما أتاح لهم الخوض في بحث كثير من المسائل الخلافية والتصدي للرد على ما كان يثيره أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى من المسائل ومجادلتهم وقطعهم. فكانوا كما نوهنا، أكثر الفرق الاسلامية اعتماداً على علم الكلام، فكان سلاحهم الذي تفوقوا به على خصومهم، واستطاعوا بأساليبهم وحججهم واستخدامهم العقل إلى جانب القياس والدليل في مواضيع العقيدة الدينية، أن يوسعوا معين العلم والمعرفة الدينية.

٤ ـ أصول المعتزلة

إن ما كان يتميز به المعتزلة من حرية في التفكير والقول وترجيح العقل على النقل، أدى إلى تعدد فرقهم باختلاف شيوخهم حول بعض المسائل المنبثقة عن أصولهم، أو بما كانوا ينفردون به من مقولات. على أنهم رغم هذا التعدد يتفقون على القول بمبادىء يمكن اعتبارها أصول مذهب الاعتزال. ومن أقدم من ثبَّت هذه الأصول مما وصلنا من المصادر التراثية هو المسعودي المؤرخ، وهي على رأيه خمسة أصول اجتمع عليها معتزلة البصرة وبغداد بمختلف فروعهم، وهي[٥٦٧]:

أ ـ التوحيد: وهو أن الله تعالى لا كالأشياء، وأنه ليس بجسم ولا عَرَض ولا عنصر ولا جوهر ولا جزء، بل هو الخالق للجسم والعَرَض والجوهر والجزء. وان الحواس لا تدركه في الدنيا ولا في الآخرة، وانه لا يحصره مكان ولا تحتويه الأفكار. بل هو الذي لم يزل ولا زمان ولا مكان ولا نهاية ولا حد، وانه خالق الأشياء، المبدع لها من لا شيء، وانه القديم وسواه محدث.

ب ـ العدل: إن الله تعالى لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، بل انهم يفعلون ما أمرهم به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركَّبها فيهم. وانه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها بريء من كل سيئة نهى عنها. لم يكلفهم ما لا يطيقونه ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه. وأن أحداً لا يقدر على قبض ولا بسط إلّا بقدرة الله تعالى التي أعطاهم إياها، وهو المالك لها دونهم ويفنيها إذا شاء ويبقيها إذا شاء. ولو شاء

---

(٥٦٦) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٩.

(٥٦٧) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطرارياً عن معصيته، ولكان على ذلك قادراً غير أنه لم يفعل إذ كان في ذلك رفع للمحنة وإزالة للبلوى.

ج ـ **القول بالوعيد**: إن الله تعالى لا يغفر لمرتكب الكبائر إلا بالتوبة وانه لصادق في وعده ووعيده ولا مبدل لكلماته.

د ـ **القول بالمنزلة بين المنزلتين**: وهو أن الفاسق المرتكب للكبائر ليس بمؤمن ولا كافر، بل يسمى فاسقاً على حسب ما ورد التوقيف بتسميته وأجمع أهل الصلاة على فسوقه.

هـ ـ **القول بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: إن ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك، بالسيف فما دونه وإن كان كالجهاد، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق.

ويقول المسعودي: «هذا ما اجتمعت عليه المعتزلة، ومن اعتقد بما ذكرنا من هذه الأصول الخمسة كان معتزلياً، فإن اعتقد الأكثر أو الأقل لم يستحق اسم الاعتزال، فلا يستحقه إلا باعتقاده بهذه الأصول الخمسة، وقد تُنوزع فيما عدا ذلك من فروعهم»(٥٦٨).

ومن الذين كتبوا عن المعتزلة بعد المسعودي أبو منصور عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ وأبو محمد علي بن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ وأبو العباس تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥. هذا إلى جانب ما سبق أن كتبه عنهم الأشعري علي بن اسماعيل المتوفى سنة ٣٢٤، سواء فيما أجمعوا عليه أو اختلفوا فيه من مقولات، وفيما اتفقوا فيه مع أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى. فقد عقد في كتابه مقالات الاسلاميين واختلاف المسلمين باباً خاصاً بالمعتزلة ذكر فيه مقولاتهم وما اختلفوا فيه، ونسب كل قول أو خلاف إلى صاحبه من رؤساء الاعتزال(٥٦٩).

وقد عدَّد البغدادي اثنتين وعشرين فرقة للمعتزلة وقال إنها مع اختلافها على بعض المسائل، فإنها تجمعها أمور، وهي لا تختلف في فحواها عن الأصول التي ذكرها المسعودي، سوى اغفاله ما يتعلق بالوعد والوعيد. وما ذكره ابن حزم يقرب من أقوال المسعودي أيضاً. فهو يقول «وأما المعتزلة فعمدتهم التي يتمسكون بها الكلام في التوحيد وما يوصف به الله تعالى، ثم يزيد بعضهم الكلام في القدر والتسمية بالفسق والايمان والوعيد... ومن خالف المعتزلة في خلق القرآن والرؤية والتشبيه والقدر وان صاحب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل فاسق، فليس منهم. ومن وافقهم فيما ذكرنا فهو منهم وإن خالفهم فيما سوى ما ذكرنا مما اختلف فيه المسلمون»(٥٧٠). وتكلم الشهرستاني بشيء من التفصيل عن خمس عشرة طائفة من المعتزلة، ولخص الأصول التي يقول بها جميع الطوائف. وهي

---

(٥٦٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩١.

(٥٦٩) أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢ ج (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠)، ج ١، ص ٢١٦ ـ ٣١١.

(٥٧٠) أبو محمد علي بن أحمد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (بيروت: مكتبة خياط، [د. ت.])، ج ٢، ص ١١٢ ـ ١١٣.

كذلك لا تتعدى ما ذكره المسعودي[571]. أما المقريزي ـ وهو متأخر نسبياً ـ فقد سمى عشرين فرقة منهم وعدد القواعد التي تقوم عليها كل فرقة منها. وهو يسميهم «الغُلاة في نفي الصفات الالهية، القائلون بالعدل والتوحيد، وان المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوباً قبل الشرع وبعده»[572].

٥ ـ فرق المعتزلة في القرن الثالث

أشرنا إلى تعدد فرق المعتزلة وان كل فرقة تنتسب إلى أحد أئمة الاعتزال وتختلف عن الفرق الأخرى ببعض المسائل والمقولات. فقد كان رؤساؤهم رغم اتفاقهم على الأصول الأساسية لعقيدتهم، يختلفون مع بعضهم حول مسائل معينة باختلاف اجتهاداتهم. وكان الخلاف بينهم يشتد أحياناً حتى يصل إلى تكفير بعضهم البعض. فقد ردَّ أبو الهذيل على النظّام بكتابه الردّ على النظّام، وصنف جعفر بن حرب كتاباً في تكفير النظّام ومحمد بن عبد الله الاسكافي كتاباً في الرد على النظام أيضاً. ووضع المردار كتاباً في فضائح أبي الهذيل ولجعفر بن حرب كذلك كتاب أسماه توبيخ أبي الهذيل[573].

وكانت أول فرق المعتزلة «الواصلية» وهم الذين تابعوا واصل بن عطاء في أقواله، وكانوا طليعة المعتزلة. وخلاصة ما قال به واصل أنه نفى صفات الباري عز وجل وقال إن من أثبت معنى صفة له فقد ثبت إلّهين. وقال بالقدر، أي ان الانسان هو القادر على أعماله، لأن الباري تعالى حكيم عادل لا يجوز أن يضاف إليه شر ولا ظلم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمرهم به ثم يجازيهم عليه. فالعبد هو الفاعل للخير والشر فيجازى على أفعاله. وقال بالمنزلة بين المنزلتين وإن صاحب الكبيرة ليس مؤمناً مطلقاً ولا كافراً مطلقاً، وذلك أن الايمان خصال خير إذا اجتمعت في انسان سمي مؤمناً، والفاسق هو من لم يستجمع خصال الخير، فلا يسمى مؤمناً ولا هو بكافر أيضاً. لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ولا وجه لإنكارها. ومن خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فمصيره النار خالداً فيها، ولكنه يخفف عنه العذاب[574]. وكانت مقولته هذه سبب اعتزاله عن حلقة شيخه الحسن البصري، ومن ثم كانت بداية المعتزلة.

وواصل بن عطاء من أهل المدينة المنورة، ولد في سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٣١ وكان فصيحاً لسناً من أئمة علماء الكلام. ولأنه ألثغ في حرف الراء فقد كان يتجنبها في كلامه. ولقب بالغزّال لملازمته سوق الغزّالين ليتعرف على النساء العفيفات ليجعل صدقته لهن.

---

(٥٧١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٣ ـ ٤٦.

(٥٧٢) أبو العباس احمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ٢ ج (مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤)، ج ٢، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٨.

(٥٧٣) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٧٣.

(٥٧٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٦ ـ ٤٨، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٥.

ولواصل من المصنفات: كتاب أصناف المرجئة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب معاني القرآن، وكتاب الخطب في التوحيد والعدل، وكتاب السبيل إلى معرفة الحق، وكتاب في الدعوة، وكتاب في التوبة، وكتاب طبقات أهل العلم والجهل(٥٧٥).

ويمكن القول إن أبرز فرق المعتزلة في القرن الثالث كانت: البشرية، والهذيلية، والنظّامية، والجاحظية، والجبائية. وسنعرض فيما يأتي موجزاً بسيرة رؤساء هذه الفرق، وسنرى من خلالها أوجه الخلاف بينهم رغم اتفاقهم في الأصول.

أ ـ بشر بن المعتمر

أبو سهل بشر بن المعتمر البغدادي، من كبار متكلمي المعتزلة وفقهائهم، أصله من الكوفة إلا أنه قضى حياته ببغداد وبها مات في سنة ٢١٠(٥٧٦). أخذ أصول الاعتزال عن عمرو بن عبيد، وجاء ببعض المقولات مخالفاً فيها شيوخ الاعتزال الآخرين، وتبعه فريق من المعتزلة كوّنوا طائفة منهم عرفت بالبشرية. ويروى عن الشريف المرتضى علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٣٦ أنه قال: «يقال إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستجيبيه»(٥٧٧). وكان حسبما يقول الشهرستاني من أفضل علماء المعتزلة، وهو الذي أحدث القول بالتولد وأفرط فيه(٥٧٨). ويقول ابن حزم ان أبا سهل بشر بن المعتمر كان نخاساً يتاجر بالرقيق(٥٧٩).

إن أهم المسائل التي انفرد بها بشر عن غيره من شيوخ الاعتزال هي: قوله إن اللون والطعم والرائحة والسمع والرؤية وسائر الإدراكات كلها متولدة عن فعل الإنسان إذا كانت أسبابها من فعله. ونظرية التولد هذه قال بها عدد من رؤساء المعتزلة، وخلاصتها أن الانسان قد يفعل في نفسه فعلاً يتولد من فعل في غيره ويكون هو الفاعل لما تولد، كما أنه الفاعل لسببه. ويقول الأشعري إن المعتزلة اختلفت في المتولد ما هو؟ فقال بعضهم هو الذي يكون بسبب مني ويحل في غيري، وقال بعضهم هو الفعل الذي أوجبتُ سببه فخرج من أن يمكنني تركه وقد افعله في نفسي وأفعله في غيري، وقال بعضهم هو الفعل الثالث الذي يلي مرادي مثل الألم الذي يلي الضرب، ومثل الذهاب الذي يلي الدفع. وقال الاسكافي: كل فعل يتهيأ وقوعه على الخطأ دون القصد إليه والإرادة له فهو متولد. ويقول الشهرستاني إن بشراً أخذ هذا القول من أقوال الفلاسفة الطبيعيين. وكفّر عبد القاهر البغدادي بشراً لزعمه أن الانسان يخلق الألوان والطعوم والروائح والسمع والبصر وسائر الادراكات على سبيل التولد.

---

(٥٧٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٥١، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥، ص ٦١ - ٦٣.

(٥٧٦) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢٠٥.

(٥٧٧) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٢، ص ٢٨.

(٥٧٨) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٦٤.

(٥٧٩) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٩٢.

ثم قوله إن إرادة الله تعالى من جملة أفعاله، وهي على وجهين: صفة ذات، أي أن الله تعالى لم يزل مريداً لجميع افعاله ولجميع الطاعات من عباده، فهو حكيم ولا يجوز أن يعلم الحكيم صلاحاً ولا يريده، وصفة فعل، فإن أراد بها فعل نفسه في حالة إحداثه فهي خلقه له، وإن أراد بها فعل عباده فهي أمره به.

وقوله إن عند الله تعالى لطفاً لو أتى به لأمن جميع من في الأرض ايماناً يستحقون عنه الثواب. وليس يجب على الله أن يفعل ذلك بعباده، وليس عليه رعاية الأصلح لهم، لأنه لا غاية لما يقدر عليه سبحانه وتعالى من الصلاح، وإنما عليه أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة، ويُزيح العلة بالدعوة والرسالة، ويسمي المقريزي هذه المقولة «اللطف المخزون». والاستطاعة على رأي بشر هي سلامة النية والجوارح وتخليتها من الآفات[٥٨٠].

وكان بشر إلى جانب تميّزه في المناظرة وعلم الكلام شاعراً أديباً بيِّن اللسان، بليغ القلم، يتخيّر ألفاظه وينوّع معانيه. وذكر له الجاحظ في كتابه البيان والتبيين شيئاً من كتاباته، كما ذكر له في كتابه الحيوان بعضاً من شعره. ومما ذكره له قصيدتين جمع فيهما بشر كثيراً من الغرائب والفرائد، ونبّه على وجوه كثيرة من الحكمة والموعظة. تقع القصيدة الأولى في ستين بيتاً وتقع الثانية في سبعين بيتاً. وفسر الجاحظ أغلب أبيات القصيدة الأولى، وبعض أبيات القصيدة الثانية بإسهاب واستطراد مما يتفق ومنهجه في كتابه. وجاء في القصيدة الثانية عدد من الأبيات يمجد بشر بها العقل ويمتدحه، وهي[٥٨١]:

لو فكّر العاقلُ في نفسِه ... مُدّةَ هذا الخلقِ في العُمْرِ
لم يرَ إلاّ عَجَباً شاملاً ... أو حجّة تُنقش في الصَّخْرِ
فكم ترى في الخلقِ من آيةٍ ... خفيّةِ الجُسمانِ في قَفْرِ
أبرزَها الفكرُ على فكرةٍ ... يحارُ فيها وَضَحُ الفَجْرِ
لله درُّ العقلِ مِنْ رائدٍ ... وصاحبٍ في العُسرِ واليُسرِ
وحاكمٍ يَقضي على غائبٍ ... قضيةَ الشاهدِ للأمْرِ
وإنّ شيئاً بعضُ أفعالهِ ... أن يفصلَ الخيرَ مِن الشَّرِّ
بذي قوىً قد خصَّه ربُّهُ ... بخالصِ التقديسِ والطُّهْرِ
بل أنتَ كالعينِ وإنسانِها ... ومخرجَ الخيشومِ والنَّحْرِ

---

(٥٨٠) حول مقولات بشر بن المعتمر، انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٩٥ ـ ٩٦؛ الأشعري، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، ج ١، ص ٢٧٤ و٢٨٧، وج ٢، ص ١٧٤؛ الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٤؛ المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٤٦، والبغدادي، أصول الدين، ص ١٣٧.

(٥٨١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ٧ ج (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥)، ج ٦، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

ب ـ أبو الهذيل العلاّف

محمد بن الهذيل بن عبد بن مكحول العبدي الملقب بالعلاّف[٥٨٢]. ولد بالبصرة وقد تردد ابن خلكان في تثبيت سنة مولده بين سنتي ١٣١ و١٣٥، إلا أن أبا الهذيل نفسه قال عن سنة مولده: اخبرني أبواي أن ابراهيم بن عبد الله بن الحسن قتل ولي عشر سنين[٥٨٣]. وقد نشأ أبو الهذيل في البصرة ودرس على علمائها الفقه واللغة، ومال إلى دراسة علم الكلام فنبغ فيه في سن مبكرة. ويمكن اعتباره أول المتكلمين الذين استخدموا الفلسفة في علم الكلام. يقول الشهرستاني إن أبا الهذيل اقتبس أقواله في ذات الله تعالى وصفاته الأزلية من الفلاسفة[٥٨٤].

كان أبو الهذيل العلاّف مناظراً قوي الحجة، سريع الخاطر، مقنعاً ببراعته الكلامية فيما يجادل عنه، فكان بحق صاحب مجلس ومناظرة كما يصفه ابن النديم وابن خلكان[٥٨٥]. ولم يكن يتردد في استعمال الكلمات القاسية والتهجم على مناظريه. يقول عنه أبو المحاسن إنه «قدم بغداد وناظر العلماء وأبادهم، وكان خبيث اللسان»[٥٨٦]. وروى أبو الهذيل نفسه إنه ناظر لأول مرة وعمره خمس عشرة سنة يهودياً جاء إلى البصرة فناظر علماءها وقطعهم، فناظره هو فأفحمه وأظهر بطلان أقواله بحيث اخذت أيدي الحاضرين اليهودي بالنعال، فخرج هارباً من البصرة[٥٨٧].

اختلف القدامى في أبي الهذيل، فقال ابن النديم إنه كان شيخ البصريين في الاعتزال ومن أكبر علمائهم وهو صاحب مقالات في مذهبهم[٥٨٨]، وقال الشهرستاني إنه شيخ المعتزلة ومقدمهم ومقرر الطريقة والمناظر عليها[٥٨٩]، وقال الخطيب البغدادي إنه كان خبيث القول

---

(٥٨٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٥١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٩٦؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٩، وجاء اسمه فيه حمدان بن الهذيل، والصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ٢٧٧، وفيه قيل اسمه أحمد.

(٥٨٣) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢٠٤، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٥٨٤) الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠ و٥٠.

(٥٨٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٥١، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٩٦.

(٥٨٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٥٨٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٤٨، والصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ٢٧٨.

(٥٨٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٥١.

(٥٨٩) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٩.

فارق إجماع المسلمين، وردَّ عليه بعض أقواله[٥٩٠]، ومع أن ابن الأثير اعتبره كبير المعتزلة في زمانه إلا أنه قال إن له مسائل في الأصول قبيحة تفرد بها[٥٩١].

انفرد أبو الهذيل ببعض المقولات وتابعه عليها بعض أهل الاعتزال وأخذوا بأقواله، عرفوا بالهذيلية، ويمكن تلخيص أهم أقواله بما يأتي: أن الباريء عز وجل عالم وقادر وحي، وان علمه وقدرته وحياته هي ذاته، وإنه تعالى لم يزل سميعاً بصيراً غفوراً... الخ من صفاته، بمعنى أن ذلك سيكون منه. وإن بعض إرادات الباري عز وجل وكلامه لا في محل ولكنه مريد بها، فإن إرادته تعالى لتكوين الشيء وقوله: كن، إنما هو خلق لذلك الشيء، وان بعض كلامه سبحانه وتعالى في محل كالأمر والنهي والخبر. وان حركات أهل الخُلْدَيْن - الجنة والنار - تنقطع ويصيرون إلى سكون دائم تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة والآلام لأهل النار. وإن الإدراك والعلم يبدعهما الخالق تعالى، وانهما ليسا من أفعال العباد، وأن المكلف يعرف بفطرته وقبل ورود السمع عليه، ما عليه من التكاليف، ولذا وجب عليه أن يعرف ربه بالدليل، وان قصَّر في المعرفة استوجب العقوبة الأبدية. وعليه كذلك أن يميز بين الحسن والقبيح فيقدم على الحسن ويعرض عن القبيح. وقد ميز أبو الهذيل بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح وقال لا يصح وجود أفعال القلوب مع عدم القدرة، فالاستطاعة معها في حالة الفعل، وجوَّز ذلك في أفعال الجوارح[٥٩٢].

ولأبي الهذيل نحو من خمسين مصنفاً أغلبها في علم الكلام للرد على أصحاب الأديان الأخرى، وأصحاب المذاهب الاسلامية، وعلى النظّام، وفي الاعتزال، منها: كتاب طاعة لا يراد الله بها، والرد على السوفسطائية، والرد على المجوس، والرد على اليهود، وكتاب الوعد والوعيد، وكتاب صنعة الله بالعدل ونفي القبيح، وكتاب الحجة على الملحدين، والرد على النصارى، وكتاب مسائل في الحركات وغيرها، وكتاب الرد على القدرية والجبريّة، وكتاب في خلق الشيء عن الشيء، وكتاب التفهم، والرد على أصحاب الحديث في التشبيه، وكتاب الجواهر والأعراض، وكتاب ميلاس - وهو رجل مجوسي أسلم، وكان سبب اسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل وجماعة من الثنوية في مناظرة، فقطعهم أبو الهذيل، فأسلم ميلاس عند ذلك[٥٩٣].

لقد بلغ أبو الهذيل من الكبر عتياً، وكُفَّ بصره ولحقه خرف في آخر عمره، وضعف

---

(٥٩٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٦٦.

(٥٩١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٥٢١.

(٥٩٢) حول مقولات أبي الهذيل، انظر: البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٧٣ - ٧٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٩ - ٥٣؛ المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٤٦، والصفدي، نكت المميان في نكت العميان، ص ٢٧٧.

(٥٩٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠٤.

عن مناهضة المناظرين ومحاججة المخالفين له، إلا أنه كان لا يذهب عليه شيء من أصول المذهب[594]. وقد اختلف في سنة وفاته، فاعتبره المسعودي من وفيات سنة ٢٢٧ وتابعه على ذلك أبو المحاسن[595]. وقال ابن الأثير إنه توفي سنة ٢٢٦ وان عمره زاد على مئة سنة[596]. وجاء في نكت الهميان أنه توفي سنة ٢٢٧ غير أنه يعود ويقول إنه توفي سنة ٢٣٩[597]. أما ابن خلكان فيقول إنه توفي سنة ٢٣٥ بسر من رأى، وهو يتفق بهذا مع ابن النديم[598]. ويظهر أن هذا أقرب إلى الصواب إذا ما صحت رواية ابن الأثير عن عمره، ورواية ابن النديم والخطيب عن سنة ميلاده، وهو ما ثبته صاحب قاموس الأعلام[599].

ج - النظّام

ابراهيم بن سيار بن هانىء البصري، أبو اسحاق الملقب بالنظّام، من أهم شيوخ الاعتزال في هذا القرن وأبرزهم. نشأ بالبصرة ودرس على علمائها الفقه واللغة وآدابها، ودرس علم الكلام وأصول الاعتزال على خاله أبي الهذيل العلّاف، فنشأ أديباً شاعراً وفقيهاً متكلماً، ولما انتقل إلى بغداد كان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب الاعتزال، وكان قوي الحجة في الجدل بحيث يضرب به المثل[600] كما كان واسع الاطلاع على أكثر ما كتبه الفلاسفة العرب، وما نقل من فلسفة أرسطوطاليس وأفلاطون. ويظهر تأثير ذلك في آرائه ومقولاته، وأنه كان أكثر ميلاً إلى الأخذ بمذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين[601]. ويقول أبو المحاسن في حوادث سنة ٢٢٠ «وفيها ظهر ابراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم في القدر فتبعه خلق»[602].

أما سبب تلقيبه بالنظّام فيقول عبد القاهر البغدادي «والمعتزلة يوهمون على الأغمار بدينه ويوهمون أنه كان نظّاماً للكلام المنثور والشعر الموزون، وإنما كان ينظم الخرز في سوق البصرة ولأجل ذلك قيل له النظام»[603]. وكان الجاحظ قد درس أصول الاعتزال على النظام، وكان شديد الاعجاب

---

(٥٩٤) المصدر نفسه، ص ٢٠٤، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٦٧.

(٥٩٥) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٨١، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٤٨.

(٥٩٦) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٥٢١.

(٥٩٧) الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص ٢٧٩.

(٥٩٨) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٩٣، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠٤.

(٥٩٩) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ٣٥٥.

(٦٠٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٩٨؛ ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢٠٦، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٧٠.

(٦٠١) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٥٣ - ٥٤.

(٦٠٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٦٠٣) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٧٩.

به، عظيم التقدير له، بحيث اعتبره أحد أولئك الذين يقول عنهم الأول إن في كل ألف سنة يقوم رجل لا نظير له[٦٠٤]. ونقل كثيراً من أقواله وردوده في كتابيه البيان والتبيين، والحيوان.

خالف النظّام أصحابه المعتزلة ببعض مقولات انفرد بها، وأهمها: قوله إن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي. ففاعل العدل لا يوصف بالقدرة على الظلم، وانه تعالى لا يقدر أن يفعل بعباده إلا ما كان فيه صلاحهم في أمور الدنيا، أما في أمور الآخرة فإن الباريء عز وجل لا يوصف بالقدرة على أن يزيد في عذاب أهل النار أو ينتقص منه شيئاً، وكذلك لا يقدر أن ينقص نعيم أهل الجنة أو أن يخرج أحداً منها[٦٠٥]. وقوله إن أفعال العباد كلها حركات فحسب، والكون حركة اعتماد، والعلوم والإرادة حركات النفس. ومع أنه اتفق مع ما يقوله أهل الاعتزال في أن الإنسان هو النفس والروح وأن البدن آلتها وقالبها، إلا أنه أضاف إلى ذلك أن الروح جسم لطيف مشابه للبدن مداخل للقلب بأجزائه، كالدهن في السمسم والسمنة في اللبن، وأن لها قوة وحياة ومشيئة، وهي مستطيعة بنفسها وأن الاستطاعة قبل الفعل[٦٠٦].

ووافق النظام الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ، وقال: لا جزء إلا وله جزء، وان الجزء جائز التجزئة أبداً[٦٠٧]. وأحدث القول بالطفرة، فزعم أنه يجوز أن يكون الجسم الواحد في مكان ثم يصير إلى المكان الثالث دون أن يمر بالمكان الثاني[٦٠٨]. وقال بنظرية الكمون، وخلاصتها أن الله سبحانه وتعالى خلق العالم والموجودات كافة دفعة واحدة منذ الأزل على ما هي عليه الآن، معادن ونباتاً وحيواناً وانساناً، ولكنه أبقاها في حالة سكون، ويخرجها إلى الوجود الفعلي في أوقات متلاحقة. فإن خلق آدم لم يتقدم على خلق أولاده، غير أنه تعالى أكمن الموجودات بعضها في بعض، وأن التقدم والتأخر إنما يقع في ظهورها من مكامنها دون إحداثها وإيجادها[٦٠٩]. ويقول الشهرستاني ان النظّام أخذ هذه المقالة من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة[٦١٠]. وقد لقيت مقولة النظام هذه معارضة شديدة

---

(٦٠٤) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ٣٦.

(٦٠٥) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٨٠؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٥٤، والمقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٤٦.

(٦٠٦) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٨٢ - ٨٣؛ الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٦.

(٦٠٧) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٨٤ - ٨٥، والشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥.

(٦٠٨) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٨٥؛ الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥ - ٥٦، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٦.

(٦٠٩) البغدادي، المصدر نفسه، ص ٨٦؛ الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥ - ٥٦، والمقريزي، المصدر نفسه.

(٦١٠) الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٦.

من رؤساء المعتزلة وغيرهم، فردَّ عليهم النظام معللاً أقواله بالأمثلة ومفصلاً إياها بالشروح. وقد ذكر الجاحظ بعض ردود النظام على من أنكر قوله في الكمون[611].

وقال النظام عن إعجاز القرآن هو ما فيه من الاخبار عن الغيوب ماضيها ومستقبلها، أما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله تعالى منعهم بعجز أحدثه فيهم[612].

وزعم أن الباريء عز وجل غير موصوف بالإرادة على الحقيقة وان ورد الشرع بذلك، وان المراد بكونه مريداً لأفعاله أنه خالقها ومنشئها. وإذا ما وصف بكونه مريداً لأفعال العباد، فالمراد بذلك أنه أمر بها. وإذا وصف بكونه مريداً في الأزل، فالمراد بذلك أنه عالم بها فقط[613].

وقد أنكر بعض رؤساء الاعتزال وغيرهم بعض مقولات النظام، وبخاصة قوله في الطفرة والتولد. فقد وضع أبو الهذيل عدداً من الكتب في الرد على بعض مقولاته منها: كتاب الرد على النظّام، وكتاب التوليد على النظّام، وكتاب على النظّام في تجويز القدرة على الظلم، وكتاب على النظّام في خلق الشيء وجوابه عنه، وكتاب على النظّام في الإنسان[614]. وكفّره الجبائي على مقولته في قدرة الله تعالى وقوله في الطبائع وله في ذلك كتاب، وللاسكافي كتاب على النظام كفّره فيه في أكثر أقواله، ولجعفر بن حرب كتاب في تكفير النظام بإبطاله الجزء الذي لا يتجزأ[615]. كما أن عبد القاهر البغدادي كفّره في أغلب مقولاته وبخاصة قوله في الجزء الذي لا يتجزأ، وزعمه أن الإنسان هو الروح، وقوله بالطفرة[616].

توفي النظّام في سنة ٢٣١[617]. وله عدد كبير من المصنفات ذكر ابن النديم أربعين كتاباً منها أغلبها في علم الكلام وأصول الاعتزال، منها: كتاب إثبات الرسل، وكتاب التوحيد، وكتاب الرد على الدهرية، وكتاب الرد على أصناف الملحدين، وكتاب التعديل والتجويز، وكتاب القدر، وكتاب الوعيد، وكتاب المعرفة، وكتاب التوليد، وكتاب الطفرة، وكتاب

---

(٦١١) الجاحظ، الحيوان، ج ٥، ص ١٠ - ٢٣، ٥٢ - ٥٣ و٨١ - ٨٦.

(٦١٢) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٨٧، والشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٦ - ٥٧.

(٦١٣) الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، نهاية الاقدام في علم الكلام، صحّحه وحرّره ألفرد جيوم (بغداد: مكتبة المثنى، [د. ت.])، ص ٢٣٨.

(٦١٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠٤.

(٦١٥) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ٨٠.

(٦١٦) البغدادي، أصول الدين، ص ٣٣٥.

(٦١٧) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ١، ص ٣٦.

المكامنة، وكتاب المنطق، وكتاب خلق الشيء، وكتاب الجواهر والأعراض، وكتاب حركات أهل الجنة، وكتاب الصفات، وكتاب القرآن ما هو، وكتاب الرد على المرجئة[٦١٨].

د ـ الجاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الأديب البليغ، والعالم الموسوعي، صاحب المصنفات العديدة، كانت ولادته بالبصرة، وقد روى عن نفسه أنه ولد في أول سنة ١٥٠[٦١٩]. وكانت البصرة آنذاك من مراكز الفقه والأدب واللغة وعلم الكلام. فدرس على علمائها ما تيسر له من علوم اللغة وفنون الأدب وأخبار العرب، كما درس علم الكلام على رئيس معتزلة أيامه والمتكلم المشهور ابراهيم النظّام، وعنه أخذ أصول الاعتزال[٦٢٠]. وكان الجاحظ شديد الإعجاب به وبأصحابه المتكلمين، وقال عنهم «وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة، ونعوذ بالله من الهذر والتكلف، وانتحال ما لا أقوم به، أقول إنه لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل فإن لم أقل ولولا أصحاب ابراهيم وابراهيم هلكت العوام من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لهم سبلاً، وفتق لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بالنعمة»[٦٢١]. ودرس الجاحظ الكثير من كتب الفلاسفة وروّج كثيراً من مقالاتهم.

تميّز الجاحظ بأسلوبه السهل وعبارته البليغة، وبراعته في العرض. فغطت مهارته في الأدب واللغة على سائر معارفه، وطبقت شهرته آفاق الدولة العربية، وسنقصر بحثنا هذا على الجانب الكلامي من معارف الجاحظ باعتباره أحد رؤساء الاعتزال. يقول عنه ياقوت الحموي «كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظّام، وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا»[٦٢٢]. وقد اجتهد الجاحظ في مقولات رؤساء الاعتزال، وجاء بمقولات جعلته رئيساً لطائفة من المعتزلة أخذت بأقواله وسميت بالجاحظية. وكانت بعض مقولاته في الاعتزال صدى لآراء استاذه النظّام وآراء أبي الهذيل. فهو يؤكد ما سبق أن قال أبو الهذيل بأن الإنسان مكلف بالفطرة بأن يعرف الله، وأن يميز بين الحسن والقبيح من الأفعال. إلا أنه يعرض ذلك بشكل آخر فيقول: إن المعارف كلها ضرورية طباعاً وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعبد فيها كسب سوى الارادة، وان أفعاله تحصل منه طباعاً. والإرادة على رأيه ليست جنساً من الأعراض، وإذا ما

---

(٦١٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠٦.

(٦١٩) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٥٦.

(٦٢٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٩٦، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ١٤٠.

(٦٢١) الجاحظ، الحيوان، ج ٤، ص ٢٠٦.

(٦٢٢) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٥٧.

انتفى السهو عن الفاعل وكان عالماً بما يفعله فهو مريد له. وعلى هذا فإن الخلق كلهم عالمون بأن الله تعالى خالقهم، وعارفون بأنهم محتاجون إلى النبي، وهم صنفان: عالم بالتوحيد وجاهل به، فالجاهل معذور والعالم محجوج. ومن انتحل دين الاسلام عليه أن يعتقد ويقر بأن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا يرى بالأبصار، وأنه عدل لا يجور ولا يريد المعاصي، وعكس هذا من عرفه ذلك ثم جحده وأنكره وقال بالتشبيه والجبر، فهو مشرك كافر حقاً[٦٢٣].

ومن الطبيعي أن يقول الجاحظ، وهو أحد رؤساء الاعتزال، بأن القرآن مخلوق، إلا أنه يضيف أن القرآن مثل الأجساد[٦٢٤]، وهو يدافع عن هذه المقولة بأسلوب المتبسط الساخر، فيقول «زعم أكثرهم أن كلام الله حسن... وان الإنجيل غير القرآن، والبقرة غير آل عمران، وان الله تولى توليفه وجعله برهانه على صدق رسوله... ولو شاء الزيادة فيه زاد، ولو شاء ان ينقص عنه نقص... ولو شاء أن ينسخه كله بغيره نسخه، وأنه أنزله تنزيلاً، وان فصله تفصيلاً، وانه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلا هو. غير أن الله مع ذلك لم يخلقه. فأعطوا جميع صفات الخلق ومنعوا اسم الخلق... والعجب ان الذي منعه أن يزعم انه مخلوق انه لم يسمع ذلك من سلفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضاً من سلفه انه ليس بمخلوق»[٦٢٥].

ومن مقولات الجاحظ الأخرى قوله بقدم المادة وباستحالة عدم الجوهر، وان الاعراض مخلوقة وهي عرضة للتغيير، والجواهر لا يجوز أن تفنى، وان الله تعالى يقدر على خلق الشيء، ومتى ما خلقه فإن لا يقدر على إفنائه. وأن الله تعالى لا يدخل النار أحداً من العباد وإنما النار هي تجذب أهلها إلى نفسها بطبيعتها، وانهم إذا ما دخلوها لا يخلدون فيها عذاباً، بل يصيرون إلى طبيعتها بتطهيرها إياهم[٦٢٦].

يقول الشهرستاني إن مذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفة، وهو أكثر ميلاً إلى الطبيعيين منهم[٦٢٧]. ويعتبر عبد القاهر البغدادي ان الجاحظ قد كفر بزعمه بأن لا فعل للإنسان إلا الارادة، وان المعارف ضرورية ومن لم يضطر إلى معرفة الله لم يكن مكلفاً ولا مستحقاً العقاب، وان الله تعالى لا يدخل أحداً النار وإنما هي تجذب أهلها إلى نفسها وتمسكهم فيها بطبيعتها[٦٢٨].

---

(٦٢٣) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ١٠٥ - ١٠٦؛ المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٤٨؛ الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ٧٥، ونهاية الاقدام في علم الكلام، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٦٢٤) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٧٦، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٦٢٥) أحمد أمين، ظهر الاسلام، ط ٣، ٤ ج (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢)، ج ٣، ص ١٤٠.

(٦٢٦) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ١٠٦؛ الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٥، والمقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٦٢٧) الشهرستاني، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٦.

(٦٢٨) البغدادي، أصول الدين، ص ٣٣٦.

توفي الجاحظ في المحرم سنة ٢٥٥ بالبصرة في خلافة المعتز بالله، وقد أناف على التسعين من عمره[٦٢٩]. ويروى أن المعتز بالله لما ورد الخبر بموت الجاحظ، قال لأحد ندمائه هو أحمد بن يزيد المهلبي: لقد كنت أحب أن أشخصه إليّ وأن يقيم عندي[٦٣٠].

يقول المسعودي عن مصنفات الجاحظ «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه... وكتب الجاحظ، مع انحرافه المشهور، تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ... وله كتب حسان»[٦٣١]. ويقول ياقوت الحموي «وله كتب مشهورة جليلة في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين... وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها. والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء»[٦٣٢]. وذكر له ما ينيف على مئة وعشرين كتاباً، وهي تقارب ما ذكره ابن النديم، منها الكتب التالية في الاعتزال وعلم الكلام، وقد أورد صاحب هدية العارفين أغلبها[٦٣٣]: كتاب الرد على أصحاب الأفهام ـ وفي الفهرست: أصحاب الإلهام ـ وكتاب فضيلة المعتزلة، وكتاب الرد على المشبهة، وكتاب الرد على النصارى، وكتاب الرد على اليهود، وكتاب المخاطبات في التوحيد ـ وفي هدية العارفين: كتاب الخطاب في التوحيد ـ وكتاب الوعيد، وكتاب الاستطاعة وخلق الأفعال، وكتاب الرد على من ألحد في كتاب الله عز وجل، وكتاب احالة القدرة على الظلم، وكتاب الاعتزال وفضله على الفضيلة، وكتاب الرد على من زعم أن الانسان جزء لا يتجزأ، وكتاب صياغة الكلام ـ في هدية العارفين: كتاب صناعة الكلام ـ وكتاب مقالة في أصول الدين.

هـ ـ الجُبَّائي وابنه هاشم

أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلّام بن حمران، من معتزلة البصرة بها ولد في سنة ٢٣٥ وبها نشأ وعاش أكثر أيام حياته. ونسبته إلى جُبَّى وهي كورة في طرف من البصرة[٦٣٤]. درس على أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري تلميذ أبي الهذيل العلاف. كان

---

(٦٢٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٠٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ١٤٤؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٥٦، والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٩٥، وجاء فيه: وقيل سنة ٢٥٦.

(٦٣٠) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢٠٨.

(٦٣١) المسعودي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٦٣٢) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٥٧.

(٦٣٣) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢١٠ ـ ٢١٢؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٦ ـ ٧٧، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٨٠٢ ـ ٨٠٣.

(٦٣٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٧.

الجبائي إماماً في الاعتزال وإليه انتهت رئاسة معتزلة البصرة في أيامه[٦٣٥]. وله مسائل انفرد بها وتابعه عليها أكثر المعتزلة فيها فكوّنوا الطائفة التي نسبت إليه.

قال الجبائي إن حقيقة الطاعة موافقة الإرادة، وكل من فعل مراد غيره أطاعه، وسمّي الله عز وجل مطيعاً لعبده إذا فعل مراد العبد، وان أسماء الله جارية على القياس، وجوّز اشتقاق اسم له من كل فعل فعله، فهو محبل النساء يخلق الولد فيهن. وقال بوجود عَرَض واحد في أمكنة عديدة كوجود كلام واحد في محلات عديدة، وان الكلام المكتوب في محل إذا كتب في غيره كان موجوداً في المحلين من غير انتقال منه عن المكان الأول إلى الثاني ومن غير حدوث في الثاني، وان كلامه تعالى عَرَض وقد يوجد في أمكنة كثيرة، وفي مكان بعد آخر في وقت واحد، أي أنه عندما ينتقل إلى مكان آخر لا يعدم وجوده في المكان الأول. وقال بإثبات الفعل الواحد للعبد خلقاً وابداعاً، واضافة الخير والشر والطاعة والمعصية إليه استقلالاً واستبداداً. وزعم أن الله تعالى إذا أراد أن يفني العالم خلق عرَضاً لا في محل وأفنى به جميع الأجسام والجواهر، ولا يصح في قدرته أن يفني بعض الجواهر مع بقاء بعضها.

ويرى الشهرستاني أن بعض مقولات الجبائي قريبة من مذهب الفلاسفة[٦٣٦]. وقال عبد القاهر البغدادي إن الجبائي قد كفر بقوله إن الله تعالى يطيع عباده إذا فعل مرادهم[٦٣٧].

وصار محمد الجبائي في أواخر حياته إلى بغداد، وكان يتردد بينها وبين سامراء حاضرة الخلافة آنذاك. وقد توفي بها في شعبان سنة ٣٠٣ وكان أوصى أن يدفن هناك إلا أن ابنه هاشم حمل جثمانه إلى جُبّى فدفنه هناك في مقبرة بها والدة أبي علي وزوجته[٦٣٨].

وللجُبّائي تفسير حافل مطول، ردَّ عليه الأشعري[٦٣٩].

أما ابنه أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي فقد ولد بالبصرة في سنة ٢٤٧[٦٤٠]، ونشأ بها في رعاية أبيه العلمية الفقهية، فدرس عليه علم الكلام وأصول الاعتزال، وقال بمقولات أبيه. كما درس الأدب والنحو على علماء البصرة فبلغ أعلى مراتب النحو[٦٤١].

---

(٦٣٥) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢١٧ ـ ٢١٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٩٣.

(٦٣٦) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٨٠.

(٦٣٧) البغدادي، أصول الدين، ص ٣٣٧.

(٦٣٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢١٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٣٩٤.

(٦٣٩) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ١٣٦.

(٦٤٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٥.

(٦٤١) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٥، ص ٢٧٦.

نشأ أبو هاشم متمرساً في علم الكلام وأصول الاعتزال ومقولات مختلف فرقهم، وكان وافق أباه في مقولاته، ثم انفرد عنه ببعض الأقوال أيده بعض أتباع أبيه وسموا البهشمية نسبة إلى كنيته. وقد توسعت هذه الطائفة حتى صار أكثر معتزلة أهل البصرة على مذهبه، وكانوا يسمون (الذَّمِّية) لقولهم باستحقاق الذم لا على فعل[٦٤٢].

وأهم الأقوال التي أضافها أبو هاشم إلى مقولات أبيه، قوله باستحقاق العبد الذم والعقاب من غير ذنب، أي لا على فعل ارتكبه ولكن من أجل أنه لم يفعل ما أمر به مع قدرته عليه وتوفر الآلة له، وارتفاع الموانع، وسمي من لم يفعل ما أمر به عاصياً وإن لم يفعل معصية. وقوله باستحقاق الإنسان الذم والشكر على فعل الغير، أي أنه يستحق الشكر أو الذم على أمر يأمر به غيره لا على الفعل المأمور به الذي فعله غيره. وقوله في التوبة انها لا تصح عن ذنب مع الإصرار على فعل قبيح آخر يعلمه أو يعتقده قبيحاً وإن كان حسناً. كما أنها لا تصح عن الذنب بعد العجز عن القيام بمثله. وخالف أبو هاشم أباه في صفات الباري عز وجلّ. فبينما كان أبوه يقول إن صفات الله هي لذاته مما لا يستلزم كونه متصفاً بها، فإذا قلنا إنه عالم فهو عالم لذاته ولا يقتضي كونه عالماً صفة هي العلم أو أية حالة توجب كونه عالماً، قال أبو هاشم إن الله تعالى عالم لذاته بمعنى أنه ذو حالة هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإنما تُعلم الصفة على الذات لا بانفرادها. وأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة، أي أنها لا تعرف إلا مع الذات، فزعم أن الباري عز وجل سميع بصير، إنما هي حالة صفة معلومة وراء كونه ذاتاً، أي أنها صفات لا توجد إلا مع الذات[٦٤٣].

قدم أبو هاشم مدينة السلام في سنة ٣١٤ واشتهر بها متكلماً صانعاً للكلام مقتدراً عليه، وبها توفي يوم الأربعاء لثنتي عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٣٢١. وفي هذا اليوم مات أيضاً محمد بن الحسن العالم اللغوي المعروف بابن دريد فقيل: مات علم اللغة وعلم الكلام[٦٤٤]، وذلك اشارة إلى ما وصل إليه كل منهما من منزلة عالية في موضوعه. ولأبي هاشم عدد من المصنفات أغلبها في علم الكلام ومذهب الاعتزال، منها: كتاب الجامع الكبير، وكتاب الجامع الصغير، وكتاب الأبواب الكبير، وكتاب الأبواب الصغير، وكتاب الانسان، وكتاب الاجتهاد، وكتاب الطبائع والنقض على القائلين بها، وكتاب العوض[٦٤٥].

---

(٦٤٢) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، ص ١١١.

(٦٤٣) حول مقولاته، انظر: المصدر نفسه، ص ١١١ ـ ١١٥؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٨٢ ـ ٨٣، والمقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٤٨.

(٦٤٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة طهران، ص ٢٢٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٣٥٥، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٤٨٣.

(٦٤٥) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٢٢٢، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥٦٩.

٦ ـ المعتزلة وأهل السنة

حقق المعتزلة نجاحاً كبيراً عندما اخذ ثلاثة من الخلفاء على التوالي هم المأمون والمعتصم بالله والواثق بالله، بأصول مذهبهم واعتبروه المذهب الرسمي للدولة العربية. إلا أنهم رغم ذلك لم يستطيعوا الثبات في ميدان المذاهب الفقهية. وكان لتطرفهم واستعمالهم العنف في إكراه الفقهاء والقضاة على القول بخلق القرآن رد فعل شديد لدى أكثرية المسلمين على مختلف انتماءاتهم الفقهية. وقد ظهر ذلك واضحاً عندما ناصر المتوكل على الله أهل السنة، فأخذ هؤلاء وأصحاب الانتماءات الفقهية الأخرى يتنقمون من المعتزلة ويجرحونهم في عقيدتهم ويرمونهم بالمروق والخروج عن الدين القويم. وقد نصبت المنابر لرجال الحديث في سامراء وبغداد وغيرهما من الأمصار، ليحدثوا الناس بأحاديث الصفات والرؤية وأمثال ذلك من المواضيع التي أنكر المعتزلة القول بها. وكان فقهاء الحنابلة ثم الأشعرية أبرز أهل السنة ممن قاوموا المعتزلة، مما أضعف شأنهم وأدى إلى انحسارهم عن الميدان الديني تدريجياً.

وكان أئمة الاسلام منذ القرن الثاني قد اتهموا المعتزلة في عقيدتهم. فقد صنف الامام جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ كتاباً في الرد عليهم، وقال عنهم: أرادت المعتزلة أن توحد ربها فالحدت[٦٤٦]. وصنف الإمام أبو حنيفة كتاباً في الرد عليهم سماه الفقه الأكبر، وقال صاحبه أبو يوسف فيهم إنهم زنادقة. وللإمام الشافعي كتاب في الرد على أهل الأهواء، وذكر في كتابه القياس أنه رجع عن قبول شهادة المعتزلة وأهل الأهواء[٦٤٧]. وقال محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩: من صلى خلف القدري القائل بخلق القرآن يعيد صلاته[٦٤٨].

لقد كانت بعض أصول المعتزلة ومقولات رؤسائهم تخالف آراء أهل السنة وعقيدتهم في عديد من المسائل. وذكر الشهرستاني أوجه هذا الخلاف بين الفئتين كما يلي[٦٤٩]: قال أما التوحيد فقد قال أهل السنة وجميع الصفاتية إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له. وقال أهل العدل ـ المعتزلة ـ إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسمة له ولا صفة، وواحد في أفعاله لا شريك له، فلا قديم غير ذاته، ولا قسيم له في أفعاله، ومحال وجود قديمين ومقدور بين قادرين.

أما العدل فعلى مذهب أهل السنة أن الله تعالى عدل في أفعاله بمعنى أنه متصرف في مُلكه وملكه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. فالعدل وضع الشيء موضعه، وهو التصرف في الملك على مقتضى المشيئة والعلم، والظلم بضده فلا يتصور منه جور في الحكم وظلم في التصرف. وعلى مذهب أهل الاعتزال فإن العدل هو ما يقتضيه العقل من الحكمة، وهو اصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة.

---

(٦٤٦) البغدادي، أصول الدين، ص ٣٠٨.
(٦٤٧) المصدر نفسه.
(٦٤٨) المصدر نفسه، ص ٣١٢.
(٦٤٩) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٤٢.

وأما الوعد والوعيد، فقد قال أهل السنة: الوعد والوعيد كلامه الأزلي، وَعَدَ على ما أمر وأَوْعَدَ على ما نهى، فكل من نجا واستوجب الثواب فبوعده، وكل من هلك واستوجب العقاب فبوعيده. فلا يجب عليه شيء من قضية العقل. وقال أهل العدل: لا كلام في الأزل وإنما أمَرَ ونهى ووَعَدَ وأَوْعَدَ بكلام محدث فمن نجا فبفعله استحق الثواب، ومن خسر فبفعله استوجب العقاب، والعقل من حيث الحكمة يقتضي ذلك.

وأما السمع والعقل فقد قال فيهما أهل السنة: الواجبات كلها بالسمع، والمعارف كلها بالعقل، والعقل لا يحسن ولا يقبح ولا يقتضي ولا يوجب، والسمع لا يعرف، أي لا يوجد المعرفة بل يوجبها. وقال أهل العدل: المعارف كلها معقولة بالعقل، واجبة بنظر العقل، وشكر النعم واجب قبل ورود السمع، والحسن والقبيح صفتان ذاتيان للحسن والقبيح من الأفعال.

وكان علم الكلام الذي تسلح به المعتزلة وتفوقوا على غيرهم باستخدامه، هو السلاح الذي حوربوا به. فقد خرج الفقيه المتكلم أبو الحسن الأشعري على أستاذه محمد بن عبد الوهاب الجبّائي رئيس معتزلة البصرة في أيامه، وكان قد درس عليه علم الكلام، وأخذ منه أصل الاعتزال. فناصر أهل السنّة بنقضه أصول المعتزلة والرد عليهم وبخاصة ما يتعلق بالاختيار المطلق ونفي الرؤية والصفات والقول بخَلق القرآن، مستفيداً من دراسته العميقة لتلك الأصول، ومعرفته بنقاط الضعف فيها والمآخذ عليها. وفيما يأتي موجز بسيرته وآرائه لنتبينّ مدى تأثيره في دحر الاعتزال وانتصار أهل السنة.

٧ ـ أبو الحسن الأشعري وأصول الأشعرية

هو علي بن اسماعيل بن أبي بشر اسحاق بن سالم، ويرتقي نسبة إلى الصحابي أبي موسى الأشعري وتكاد أغلب المصادر الأولية تجمع على أنه ولد بالبصرة سنة ٢٦٠[٦٥٠]. وبها نشأ وأقام أكثر أيام حياته. درس اللغة والفقه والحديث على علماء البصرة وشيوخها، وأخذ علم الكلام وأصول الاعتزال عن زوج أمه رئيس المعتزلة محمد بن عبد الوهاب الجُبّائي، وظل أربعين سنة ملازماً له مقتدياً برأيه في الاعتزال، حتى صار من أئمته[٦٥١].

وكان من الطبيعي أن ينشأ من الاختلافات الحادة التي قامت بين المعتزلة العقليين، وأهل السنة الملتزمين بالنصوص، رأي آخر يتوسط بينهما ويحاول التوفيق بين ما تنص عليه المنقولات وما يقوله أهل الرأي حول المسائل التي قام الخلاف والجدل حولها بينهما. وكان أبو

---

(٦٥٠) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١١، ص ٣٤٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٣٣٣، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٤٤٦.

(٦٥١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٣٣، والمقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٥٩.

الحسن الأشعري الذي غدا من كبار المعتزلة المتمرسين في أصولها، قد خرج عليهم لما لمس من تطرفهم في آرائهم وتعصبهم لها وإكراههم الآخرين عليها، فخرج في يوم جمعة إلى المسجد الجامع بالبصرة، وَرقيَ كرسياً وأعلن على رؤوس الأشهاد أنه كان معتزلياً يقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وقد تاب الآن وأقلع عن القول بذلك، وأنه سيرد على المعتزلة أقوالهم ويفضح معايبهم. ويقول ابن الجوزي إنه كان معه شريط فشده على وسطه ثم قطعه وأعلن توبته عن القول بالاعتزال[٦٥٢].

إلا أن الأشعري لم يستطع التخلي عن جميع ما كان قد رسب في ذهنه من الآراء والمفاهيم التي يقول بها المعتزلة وقد كان عليها طيلة أربعين عاماً. فحاول أن يأخذ موقفاً وسطاً بين افراط المعتزلة ومغالاتهم في نزعتهم العقلية وحريتهم الفكرية من جهة، وجمود أهل النص وركونهم إلى ظاهر معانيه من جهة أخرى. منطلقاً من أن المذاهب الفقهية جميعها مصيبة في اجتهاداتها، وان الخلافات فيما بينها انما تقتصر على الفروع دون الأصول. ولما حاول أن يوفق بين ما يقوله المعتزلة وقول أهل السنة في مسألة خلق القرآن مثلاً، قال: إن كلام الله عز وجل ليس مجرد أصوات وكلمات بل إنه حديث نفسي وهو أزلي مثل الصفات الذاتية الأخرى، غير مخلوق، ولكنه غير مستقل عن الحديث اللفظي الذي هو فعل زمني مخلوق، «إذ إن الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم ازلي»[٦٥٣]. وكأنه بهذا جعل للباري عز وجل نوعين من الكلام أحدهما أزلي غير مخلوق، وهو قول يرضي به أهل السنة، والآخر مخلوق بزمن قاله ليرضي به المعتزلة. وكذا فعل في قوله عن صفات الله تعالى التي جرده عنها المعتزلة واعتبروها معاني استخدمت مجازاً واستعارة للتمثيل والتوضيح، لأنه ليس كمثله شيء، واعتبرها أهل السنة صفات اضافية على ذاته عز وجل وأخذوا بمعانيها الظاهرة وفسروها تفسيراً حرفياً، قال الأشعري إن الباريء عز وجل يتصف حقيقة بالأوصاف التي وردت في القرآن الكريم، وهي صفات أزلية قائمة بذاته، إلا أنها مغايرة لذاته ولا وجود لها خارج ذاته[٦٥٤]. فاعترف بوجودها، كما يقول أهل السنة، وبعدم وجودها، على رأي أهل الاعتزال. وكذلك مزج بين آراء الجانبين وأقوالهم في وجوب معرفة الله بالسمع والعقل إرضاءً لكليهما، فقال «إن الواجبات كلها سمعية والعقل لا يوجب شيئاً... ومعرفة الله بالعقل تحصل وبالسمع تجب»[٦٥٥].

أما أصول الأشعرية وهي جملة عقيدة الأشعري وآرائه الفقهية فقد أوضحها كل من الشهرستاني والمقريزي، كالآتي: إن الباري عز وجل قادر بقدرة، حيٌّ بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع يسمع، بصير يبصر، وهذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى. وان الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء عليهم السلام، دلالات على الكلام الأزلي،

---

(٦٥٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٧١؛ ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٣٣، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٤٧.

(٦٥٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٩٦.

(٦٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٥.

(٦٥٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠١.

والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي. أما أفعال العباد فجميعها مخلوقة مبدعة من الله تعالى، مكتسبة للعبد، والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد. وقال كل موجود يصح أن يُرى والباري عز وجل موجود فيصح أن يُرى، وقد ورد السمع بأن المؤمنين يرونه في الآخرة ولكنه لا يجوز أن يُرى في مكان ولا صورة ولا مقابلة ولا اتصال شعاع، فإن ذلك كله محال. وعن الإيمان قال الأشعري، إنه التصديق بالجنان، أما القول باللسان والعمل بالأركان فإنها فروع الايمان، فمن صدق بالقلب، أي أقرّ بوحدانية الله واعترف بالرسل تصديقاً لهم فيما جاءوا به من عند الله فهو مؤمن. وصاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة، فإن الأشعري يرى أن حكمه إلى الله تعالى، إما أن يغفر له برحمته، أو يشفع له رسول الله ﷺ وإما أن يعذبه بمقدار جرمه ثم يُدخله الجنة، ولا يجوز أن يخلد في النار مع الكفار، وليس من الواجب على الله أن يقبل توبته بحكم العقل، لأنه هو الموجب ولا يوجب عليه شيء أصلاً، بل لقد ورد السمع بقبول توبة التائبين، وأن الواجبات كلها سمعية، فلا يوجب العقل شيئاً البتة.

وقال إن بعث الرسل جائز لا واجب ولا مستحيل. فإذا بعث الله الرسول وأيده بالمعجزة الخارقة للعادة، وتحدى الناس ودعاهم، وجب الإصغاء إليه والاستماع منه والامتثال لأوامره ونواهيه. وان ما ورد به السمع من الأخبار عن الأمور الغائبة عنا كاللوح والقلم والعرش والكرسي والجنة والنار، وما ورد به من الأخبار التي ستقع في الآخرة مثل سؤال القبر والثواب والعقاب فيه، والحشر والمعاد والميزان والحساب والصراط، كل ذلك حق وصدق يجب الايمان به واجراؤه على ظاهره. وإن الامامة تثبت بالاتفاق والاختيار دون النص والتعيين على واحد معين[٦٥٦].

يُلاحظ أن محاولة الأشعري التوفيق بين مقولات المعتزلة وما يقول به أهل السنة قادته إلى أقوال تبريرية تستهدف إرضاء الجانبين. إلا أنها في الوقع أغضبت عليه المعتزلة، كما أغضبت المتطرفين من أهل السنة وبخاصة أتباع الإمام أحمد فاتهموه بأنه أربك العقيدة. وقد اختلفت أقوال الفقهاء والمؤرخين بشأن الأصول التي وضعها أبو الحسن الأشعري. يقول عبد القاهر البغدادي عنه «شيخ النظر وإمام الآفاق في الجدل والتحقيق أبو الحسن الأشعري الذي صار شجى في حلوق القدرية وقد ملأ الدنيا بكتبه، وما رزق أحد من المتكلمين ومن التبع ما قد رزق، لان جميع أهل الحديث وكل من لم يتمعزل من أهل الراي على مذهبه»[٦٥٧]. ويقول الخطيب البغدادي «قال أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى اظهر الله الاشعري فجحرهم في اقماع السمسم»[٦٥٨]. ويقول

---

(٦٥٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٥ ـ ١٠٣، والمقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٦٥٧) البغدادي، أصول الدين، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٦٥٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١١، ص ٣٤٧. والصيرفي أبو بكر محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٣٣٠، أحد كبار المتكلمين الفقهاء من الشافعية، وله كتب في أصول الدين. انظر: الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ٩٦.

عنه ابن الجوزي «كان على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً ثم عنّ له مخالفتهم وأظهر مقالة خبطت عقائد الناس وأوجبت الفتن المتصلة، وكان الناس لا يختلفون في أن هذا المسموع كلام الله وانه نزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، فالأئمة المعتمد عليهم قالوا إنه قديم، والمعتزلة قالوا إنه مخلوق، فوافق الأشعري المعتزلة في أن هذا مخلوق، وقال ليس هذا كلام الله، إنما كلام الله صفة قائمة بذاته ما نزل ولا هو مما يُسمع. وما زال «الأشعري» منذ أظهر هذا خائفاً على نفسه لخلافه أهل السنة حتى انه استجار بدار أبي الحسن التميمي حذراً من القتل»[659]. ويقول عنه ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ «هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية، وشهرته تغني عن الاطالة في تعريفه»[660]. ويقول أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ «اشتغل بعلم الكلام على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً، ثم خالف المعتزلة والمشبهة فكانت مقالته أمراً متوسطاً. . . وصارت مقالته أشهر المقالات حتى طبق الأرض ذكرها»[661].

لقد استطاع أبو الحسن الأشعري أن ينحو منحى جديداً في التفكير الذي يقوم على نصرة أهل السنة. ومع أن تبريراته في التوفيق بين الرأي والنقل لا تجديد فيهما، فقد لقيت كتبه رواجاً، وآراؤه تأييداً، مما أتاح لأقواله الانتشار بحيث غدا مذهبه في القرن التالي - الرابع - أوسع المذاهب انتشاراً. ويمكن القول إنه أول من استخدم العقل لنصرة مذهب أهل السنة في مناظرة المعتزلة، مما جعله كبير متكلمي أهل السنة.

وقد صنَّف الأشعري عدداً كبيراً من الكتب ذكر ابن النديم منها كتاب اللمع، وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل، وكتاب الموجز، وكتاب ايضاح البرهان، وكتاب التبيين عن أصول الدين[662]. وذكر المقريزي أن الأشعري صنف خمسة وخمسين كتاباً وعدد منها سبعة هي التي ذكرها ابن النديم، وأضاف كتاب الإبانة، وكتاب تفسير القرآن، ويقال إنه في سبعين مجلداً[663]. وذكر له صاحب هدية العارفين نحواً من ثمانين كتاباً بضمنها الكتب التي ذكرها ابن النديم والمقريزي، وأغلبها في الجدل والرد على بعض مقولات المعتزلة، وعلى من يسميهم أهل الزيغ وأهل التناسخ، وقليل منها في الفقه والتفسير[664].

اختلفت المصادر الأولية في سنة وفاة الأشعري، فبعضها يقول إنه توفي سنة ٣٢٠، وبعضها يقول في سنة ٣٢٤، واعتبره بعضها من وفيات سنة ٣٣١، وقد ثبته صاحب قاموس

---

(٦٥٩) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٣٣٢.

(٦٦٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٤٤٦.

(٦٦١) عماد الدين اسماعيل بن علي أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٤ ج في ٢ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٨٦٩)، ج ٢، ص ٩٠.

(٦٦٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٧١.

(٦٦٣) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٦٦٤) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٦٧٦ - ٦٧٧.

الأعلام من وفيات سنة ٣٢٤. وقد دفن في الجانب الغربي من مدينة السلام في مقبرة مشرعة الروايا[٦٦٥].

---

(٦٦٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١١، ص ٤٣٧؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٣٣٠؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٤٤٦؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٨٩؛ المقريزي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٩، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٢٥٩.

الفصل الخامس

حركة الترجمة وخزائن الكتب

أولاً: حركة الترجمة

١ ـ بداية حركة الترجمة

يمكن تقسيم حركة الترجمة تاريخياً إلى عهدين: يبدأ العهد الأول منذ أيام الخليفة أبي جعفر المنصور حتى وفاة هارون الرشيد. ويمتد العهد الثاني منذ تولي المأمون الخلافة حتى منتصف القرن الرابع. ولا يخفى أن هذا التقسيم شكلي تنظيمي، إذ إن حركة الترجمة التي بدأت في أيام المنصور سارت قُدُماً، وإن قسماً من المترجمين الذين برزوا في العهد الأول كانوا من المبرزين في العهد الثاني أيضاً. والذي يعنينا في هذا البحث أن نتابع هذه الحركة في عهدها الثاني طيلة القرن الثالث، ونتعرف على أشهر النَقَلة في خلاله. على أننا نرى من الضروري أن نلقي قبل ذلك نظرة خاطفة على سير الحركة في عهدها الأول.

ويمكن القول إن حركة الترجمة بدأت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور عندما قدم عليه الحكيم الهندي (مانكا) وهو عالم بالرياضيات وعلم النجوم، وقد جاء معه بكتاب السِدْ هانْت وهو في علم الفلك عند الهنود. وكان المنصور شديد الاهتمام بأحكام النجوم كلفاً بها بحيث انه لما بنى مدينة بغداد وضع أساسها في وقت اختاره المنجمون[1]. فكلّف الخليفة الحكيم الهندي بإملاء مختصر الكتاب المذكور، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية، وان يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب[2]. فتولى ذلك ابراهيم بن حبيب الفزاري الذي

---

(١) احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، ص ٢٣٨.

(٢) أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٢٧٠.

كان من جملة منجمي المنصور الذين اختاروا وقت وضع أسس مدينة بغداد[3]. وفي هذا الوقت نفسه بدأت الترجمة من اللغة اليونانية كذلك على أيدي عدد من المترجمين. ويروى أن الخليفة المنصور طلب إلى الامبراطور الروماني أن يرسل إليه مخطوطات يونانية في العلوم الرياضية[4].

وكان الخليفة هارون الرشيد قد أولى حركة الترجمة أهمية خاصة، فقد جلب في عودته من إحدى حملاته على بلاد الروم عدداً من كتب الحكمة اليونانية ووضعها في خزانة خاصة، وولّى أبا سهل الفضل بن نوبخت القيام بأمر هذه الخزانة[5]. وجعل الطبيب يوحنا بن ماسويه أميناً على الترجمة ورتّب له كتاباً حذّاقاً يكتبون بين يديه[6]. فأسس الرشيد بذلك ما عرف ببيت الحكمة. ومن أبرز مترجمي هذا العهد ممن أشارت إليهم مصادرنا التراثية:

الحجّاج بن يوسف بن مطر، وهو من أهل الكوفة عاش ببغداد وكان يعمل في بيت الحكمة، وقد توفي سنة ٢٢٠[7]. ذكره ابن النديم في قائمة النَّقَلة إلى اللسان العربي[8]. ومن أهم أعماله في الترجمة أنه نقل كتاب اقليدس في أصول الهندسة إلى اللغة العربية، وقد نقله مرتين: النقل الأول في أيام هارون الرشيد وسمّي الهاروني، والنقل الثاني في عهد المأمون فسمّي المأموني، وهو أجود وعليه يُعوَّل[9].

وعمر بن الفرُّخان أبو حفص، أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم[10]. وكان من حذّاق التراجمة الأربعة في الاسلام[11]. وقد اتصل بالمأمون وترجم له بعض الكتب، وألّف له كتباً في النجوم وفي الفلسفة، منها: كتاب تفسير الأربع مقالات

---

(٣) اليعقوبي، المصدر نفسه، ص ٢٤١، وجاء اسمه فيه ابراهيم بن محمد الفزاري، وذكره القفطي باسم محمد بن ابراهيم الفزاري، والأصح مما ذكرناه استناداً إلى تحقيق: كارلو ألفونسو نالينو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (روما: مطبعة روما، ١٩١١)، ص ١٦٢.

(٤) فاسيلي فلاديميرويج بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمه عن الروسية حمزة طاهر، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢)، ص ٢١.

(٥) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٥٥.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(٧) توماس أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٥٦٩.

(٨) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ٣٥٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٨٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٦٤، وأبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٩٦.

(١٠) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(١١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

لبطلميوس، وكان قد نقلها إلى العربية أبو يحيى البطريق[12]. وفسّر عمر كلاً من كتاب بطلميوس إلى تلميذه سوري، وكان ابراهيم بن الصلت نقله إلى العربية وأصلحه حنين بن اسحاق، والكتب الخمسة في علم الفلك والأحكام النجومية لدورثيوس[13].

ويحيى بن البطريق، وكان أميناً على الترجمة حسن التأدية للمعاني[14] ذكره ابن النديم في جملة المترجمين[15]. وهو من مترجمي بيت الحكمة وقد نقل عدداً من الكتب إلى اللغة العربية، وتوفي في سنة ٢٠٠[16]. ومن أبرز أعماله في الترجمة نقله إلى العربية بعض كتب أرسطوطاليس، منها: كتاب أرسطو إلى الاسكندر ويعرف بـ سر الأسرار، وهو كتاب السياسة في تدبير الحروب. ويبدو أنه بحث عن الكتاب فعثر عليه وترجمه بطلب من الخليفة[17]. وكتاب السماء والعالم[18]، وكتاب النفس وكتاب الحيوان[19].

ومما يجدر ذكره أن البطريق أبا يحيى كان من المترجمين الأوائل أيضاً. فقد طلب إليه المنصور نقل بعض الكتب القديمة، وهو جيد النقل، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه وجد بنقله كتباً في الطب من كتب أبقراط وجالينوس[20].

٢ ـ الترجمة في القرن الثالث

عندما تولى المأمون الخلافة في سنة ١٩٨ بدأ عهد جديد لحركة الترجمة هو العهد الثاني الذي امتد حتى منتصف القرن الرابع. وفيه تمت ترجمة أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطو وبطلميوس وأفلاطون. وصنفت كثير من الشروح والتفسيرات لتلك الكتب. وتميّز هذا العهد بدقة الترجمة، إذ بعد أن كان المترجمون الأول يتقيدون بالألفاظ فينقلون كل كلمة إلى ما يقابلها باللغة العربية أو السريانية، أخذ مترجمو هذا العهد يستوعبون معنى العبارات والجمل اليونانية ثم يعبرون عنها بما يؤدي المعنى نفسه بالعربية أو بالسريانية. ولذا أعيدت ترجمة عدد من الكتب المهمة، رغبة في الحصول على أصح النقل لها.

---

(١٢) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٤٢.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٩٨ و١٨٤.

(١٤) أبو داود سليمان بن حسّان بن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، نصوص وترجمات؛ ١٠ (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥)، ص ٦٧، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٧٩.

(١٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٥٥.

(١٦) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٣٢.

(١٧) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٧.

(١٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٦٥،

(١٩) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٤١.

(٢٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٢.

كان الخليفة المأمون واسع الثقافة، بارعاً في الفقه، كلفاً بالفلسفة وعلم النجوم، يأنس بمجالسة العلماء والمتكلمين، فيعقد المجالس للمناظرة والمحادثة. مما شجّع على نشر الروح العلمية التي تمثّلت بترجمة الكتب وتصنيفها. ومما يذكر عن سبب اهتمام المأمون بنقل كتب الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية «ان المأمون رأى في منامه كان رجلاً أبيض اللون... جالس على سريره، قال المأمون: فسررت به وقلت: أيها الحكيم، اسألك؟ قال: سل، قلت: ما الحسن؟ قال: ما حسن في العقل، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن في الشرع، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما حسن عند الجمهور، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم... فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب. فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون فكتب يسأله الإذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم. فأجاب ملك الروم إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة، وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل»[٢١].

وسواء أكان ما جاء عن رؤيا المأمون حقيقياً أو موضوعاً، فإنه كان من محبي العلوم ونشرها، فشجع على اقتناء الكتب القديمة ونقلها إلى اللغة العربية ليعم الانتفاع بها.

على أن حركة نقل الكتب إلى اللغة العربية التي نشطت وازدهرت في أيام المأمون قد أصابها الفتور في عهد الخليفة المعتصم بالله الذي تولى الخلافة بعد أخيه المأمون وبعهد منه، وكان حريصاً على أن يقتدي بأخيه في جميع أعماله. ولكن اهتمامه بتأسيس مدينة سامراء لتكون معسكراً كبيراً لجنده الأتراك وعاصمة جديدة للدولة العربية، وانشغاله بالحروب الداخلية والخارجية، شغله عن متابعة الحركة الثقافية، هذا مع ضآلة ثقافته وانصرافه عن العلم. إلا أنه عندما تولى ابنه الواثق بالله عرش الخلافة ـ وقد عرف عنه عنايته بأمور العلم والأدب، وأنه كان يعقد المجالس العلمية والأدبية ليستمع إلى مناقشات العلماء والأدباء في مواضيع مختلفة ـ أخذت حركة الترجمة تنشط مجدداً. وقد بلغت أوج نشاطها في أيام المتوكل على الله الذي خلف أخاه الواثق بالله. وكان من أهم أسباب هذا النشاط ما ساد عهد المتوكل على الله من الاستقرار السياسي إذ لم يكن هناك من الحروب الخارجية والاضطرابات الداخلية المهمة ما يستدعي انصراف جهوده إليها والانفاق عليها. والواقع أن أيام المتوكل على الله كانت «في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها، وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها، أيام سراء لا ضراء»[٢٢]. ولا ينكر أن في عهود الاستقرار السياسي من حياة الأمم تنشط الحياة الاقتصادية والحركة العمرانية، وتزدهر العلوم والآداب، وتتسع الثقافة. ويظهر أن المتوكل على الله قد أخذ بمنهج عمه المأمون في رعاية العلم والعلماء، ولا سيما جانب الترجمة من ذلك. فقد عقد إلى طبيبه البارع والمترجم القدير حنين بن اسحاق العبادي ادارة بيت الحكمة ورياسة الترجمة فيه وجعل له كتّاباً نحارير عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموه»[٢٣]. فجدّد هذه الحركة الثقافية المهمة ومهّد سبيل البحث العلمي وشجّع الباحثين

---

(٢١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٥٣.

(٢٢) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ١٢٢.

(٢٣) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧١.

والعلماء على البحث عن المخطوطات اليونانية وحملها إلى بغداد لترجمتها. فاستأنفت حركة الترجمة نشاطها، وظلت ترجمة التراث اليوناني ودراسته متواصلة بأشد ما يمكن من العزيمة والنشاط.

٣ ـ توسع حركة الترجمة

إن الاهتمام بإخراج الكتب من بلاد الروم لم يقتصر على الخلفاء وحدهم، فقد عُني بذلك آخرون من رجال الدولة وأعيانها وعلمائها؛ فقد كان بعضهم من محبي اقتناء الكتب وبخاصة تلك التي تنقل من اليونانية وهي تحمل اسم أبقراط وجالينوس وسقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وغيرهم من حكماء اليونان. بل إن كتباً معينة ترجمت بناء على طلب بعضهم. فإن حنين بن اسحاق نقل كتاب **الصوت** لجالينوس إلى اللغة العربية للوزير محمد بن عبد الملك الزيات[٢٤]، الذي كان ينفق على المترجمين والنسّاخين قرابة ألفي دينار في الشهر[٢٥].

كما أخذ محبو الكتب ينقبون في أسفارهم عن الكتب القديمة النادرة ويعهدون إلى المترجمين بترجمتها. وممن عني بذلك أبناء موسى بن شاكر أحد منجمي المأمون، وهم أحمد ومحمد والحسن، فقد «بذلوا الرغائب، وانفذوا حنين بن اسحاق وغيره إلى بلد الروم، فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقي والطب، وانهم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحاق، وحبيش، واسحاق بن حنين وثابت بن قرة، وغيرهم، في الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة»[٢٦]. وبذلوا جهوداً في ترجمة بعض الكتب النادرة. ومثال ذلك كتاب **المخروطات** لأبلونيوس، وكانت أجزاؤه الثمانية متفرقة بين الناس فسعوا إلى جمعها حتى عثروا على سبعة منها، توفر على ترجمتها هلال الحمصي وثابت بن قرة[٢٧]، وترجم عيسى بن يحيى بن ابراهيم كتاب **الأخلاط** لجالينوس لأحمد بن موسى[٢٨]. وترجم حنين بن اسحاق كتاب **الكسر** لأبقراط بتفسير جالينوس لمحمد بن موسى[٢٩].

وذكر ابن أبي اصيبعة عدداً ممّن شجعوا النقل من اللغة اليونانية، منهم: تادرس الأسقف وكان اسقفاً في الكرخ، حريصاً على طلب الكتب متقرباً إلى قلوب نقلتها، فحصّل منها شيئاً كثيراً، وصنّف له بعض الأطباء كتباً لها قدر وجعلوها باسمه[٣٠]. ومحمد بن

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(٢٥) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٢٨٤.

(٢٦) ابن النديم، **الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**، ص ٣٤٥، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢٧) القفطي، المصدر نفسه، ص ٦١ ـ ٦٢.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٥.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(٣٠) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ص ٢٨٣.

موسى بن عبد الملك، وهو من رجال الدولة وقد تولى رياسة عدد من الدواوين في أيام المتوكل على الله بسامراء، ونقلت له كتب طبية. وكان يلخص الكتب ويميز جيد الكلام من رديئه فيها[31]. وعيسى بن يونس الكاتب الحاسب، وهو من فضلاء الكتاب، كان كثير العناية بتحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية[32]. وأحمد بن محمد المعروف بابن المدبِّر وهو من رؤساء الدواوين، كان يصل إلى النقلة من أفضاله شيء كثير[33]. وابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب من رجال الدولة، كان حريصاً على نقل الكتب اليونانية إلى لغة العرب، ويرعى أهل العلم والنقلة[34].

وبالإضافة إلى ما حظيت به حركة الترجمة من تشجيع الخلفاء ورجال الدولة وأعيانها، كانت هناك عوامل أخرى تدفع إلى الاهتمام بترجمة الكتب اليونانية وغيرها إلى اللغة العربية. فإن مرحلة التطور الحضاري التي صار إليها العرب في القرن الثالث وازدياد ثروتهم العامة، جعلاهم يتطلعون إلى معرفة ما عند غيرهم من العلوم. والمعارف والعلوم ـ كما يقول ابن خلدون ـ «تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة»[35]. فكانت الترجمة إحدى وسائل تحقيق هذه الغاية. وكان الجدل الذي قام بين رجال المذاهب الاسلامية، كالجدل الطويل الذي نشب بين أهل السنة والمعتزلة، ثم الجدل مع أهل الذمة والزنادقة والملحدين، أحوج إلى الإلمام بقواعد الجدل وأصوله، فسعوا إلى ترجمة كتب المنطق من التراث اليوناني وما يتعلق منه بالكلام والجدل. كما أن الأقوام المختلفة التي انضوت تحت لواء الدولة العربية، وبخاصة أولئك الذين اعتنقوا الدين الاسلامي وأرادوا المساهمة في حركة الترجمة لإظهار معارفهم وتراثهم في شتى العلوم، ونقلها إلى اللغة العربية التي أصبحت اللغة الأساس في جميع أنحاء الدولة. ولا ننسى أهمية تقدم صناعة الورق آنذاك، وانتشار استعماله، فكان من أهم العوامل في اتساع حركة الترجمة والتأليف وازدهارهما.

٤ ـ الترجمة من اللغتين الفارسية والهندية

هناك ظاهرتان بارزتان في موضوع حركة الترجمة تستحقان الوقوف عندهما قليلاً لمعرفة أسبابهما. الأولى عدم الاهتمام بكتب تاريخ أمة اليونان وأدبها، والثانية عدم النقل من التراث الفارسي والهندي إلا ما ندر. إن سبب عدم نقل شيء يستحق الذكر من كتب تاريخ اليونان وأدبها واضح، وهو أن ما يحتويه هذان الموضوعان من الأساطير بعيد عن العقلية العربية، وما

---

(٣١) المصدر نفسه.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(٣٤) المصدر نفسه.

(٣٥) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ٢٣٦.

يشوبها من الوثنية وتعدد الآلهة يعتبر كفراً يخالف روح الاسلام. أما النقل من اللغة الفارسية فقد كان ضئيلاً جداً قليل الأثر. وسبب ذلك، كما نرى، أن الفرس لم يكن لهم تراث طبي يستحق النقل لغلبة الطب اليوناني عليه. وان تراثهم الأدبي والتاريخي محشو بالأغاليط والخرافات والمبالغة مما لا يستسيغه العقل. يقول المؤرخ اليعقوبي: «فارس تدّعي لملوكها أموراً كثيرة، مما لا يقبل مثلها، من الزيادة في الخلقة حتى يكون للواحد عدة أفواه وعيون، ويكون للآخر وجه من نحاس، ويكون على كتفي آخر حيّتان تطعمان أدمغة الرجال، وطول المدة في العمر، ودفع الموت عن الناس، وأشباه ذلك مما تدفعه العقول ويُجرى فيه مجرى اللعبات والهزل، ومما لا حقيقة له»[٣٦]. أما تراثهم الروحي فقد كان ثنوياً يقوم على الزعم بأن النور والظلمة أزليان، وذلك مما يعتبر شركاً في الإسلام. ولذلك اقتصر النقل من الفارسية على بعض الفرس المتعصبين ممن أرادوا التباهي بميراث أجدادهم، أمثال عبد الله بن المقفع الذي كان متضلعاً من اللغتين العربية والفارسية فنقل كتاب كليلة ودمنة، وهو كتاب هندي الأصل، تقوم حكاياته على ألسنة الحيوانات. ونقل كتاب خديننامه في السير، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان، وكتاب آيين نامه[٣٧].

وعُرف عدد ممن عملوا في حقل الترجمة من الفارسية إلى العربية، منهم: علي بن زياد التميمي ويكنى بأبي الحسن، نقل من الفارسية إلى العربية كتاب زيج الشهريار[٣٨]. وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، وقد ترجم عهد اردشير شعراً[٣٩]. واسحاق بن يزيد وقد نقل كتاب سيرة الفرس المعروف باختيارنامه[٤٠]. وأبو سهل الفضل بن نوبخت وكان على خزانة بيت الحكمة في أيام الرشيد، وقد نقل بعض الكتب من الفارسية إلى العربية، ومُعوّله في علمه على كتب الفرس كما يقول ابن النديم والقفطي، وقد ذكرا له بضعة كتب في التنجيم[٤١]، وليس من الواضح أنه صنفها أو نقلها من الفارسية.

وذكر ابن النديم عدداً آخر ممن سماهم نقلة من الفارسية إلى العربية، دون أن يذكر ما ترجموه من الكتب[٤٢]. مما يستنتج منه أنها ضئيلة قليلة الأهمية.

وكذلك كان النقل من اللغة الهندية قليلاً جداً. لأن النهج في الطب الهندي جيء به إلى مدرسة جنديسابور الطبية وأضيف إلى النهج اليوناني الذي كان واضح التغلب[٤٣]. وقد

---

(٣٦) احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ١، ص ١٨٥.

(٣٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٧٨.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٩٦، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٥٥.

(٤٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٥٥.

(٤٣) اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي (القاهرة: دار العصور، ١٩٢٨)، ص ١٢٤.

سبق أن أشرنا إلى أن حركة الترجمة كانت بدأت بنقل الكتاب الهندي السند هانت في علم الفلك عند الهنود. وكانت ترجمت بعض الكتب في الرياضيات وبخاصة في الحساب مما أشرنا إليه بشيء من التوضيح في الفصل الخاص بالرياضيات. ولم يذكر ابن النديم من النقلة من اللغة الهندية والنبطية إلى اللغة العربية سوى اثنين هما: ابن دهن الهندي، ويظهر أنه كان طبيباً، وابن وحشية وكان ينقل من النبطية إلى اللغة العربية[44].

٥ ـ أبرز المترجمين وما ترجموه من الكتب

لقد كانت حصيلة حركة الترجمة أن نُقل إلى اللغة العربية واللغة السريانية كثير من كتب اليونان وغيرهم في الطب والفلسفة والرياضيات. وهي العلوم التي نالت اهتمام العلماء العرب آنذاك «بحيث لم يعد باقياً الشيء الكثير من العلم المعروف في عالم ذلك الزمن ولم ينقل إلى العربية»[45]. وقد أحصى ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة جانباً مهماً من تلك الكتب مع مترجميها، مما تيسرت لهم معرفته. وفيما يأتي نذكر أبرز مترجمي القرن الثالث وأهم ما ترجموه من الكتب:

أ ـ حنين بن اسحاق

أبو زيد العبادي، كان ماهراً في الترجمة إلى جانب مهارته في الطب. وقد انصرف إلى ترجمة الكتب اليونانية وإخراجها باللغة العربية، أو السريانية، إذ كان فصيحاً في اللسان اليوناني واللسان العربي «دخل إلى بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة، وتوصل في تحصيلها غاية إمكانه، وأحكم اليونانية عند دخوله إلى تلك الجهات، وحصل نفائس هذا العلم»[46]. «وكان حنين أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية، وبالسريانية، وبالفارسية، والدراية فيها، مما لا يعرفه غيره من النقلة الذين كانوا في زمانه، مع ما دأب عليه أيضاً في اتقان اللغة العربية والاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين فيها»[47].

ولتعلم حنين اللغة اليونانية وتمهره فيها قصة يرويها القفطي وابن أبي أصيبعة، وخلاصتها: أن حنيناً تتلمذ على يوحنا بن ماسويه أحد كبار أطباء عصره، فكان يتردد على مجلسه ليدرس عليه كتاب هيراسيس لجالينوس، وهو مما يقرأه المبتدئون بصنعة الطب. ويبدو أن يوحنا ضاق بكثرة أسئلة حنين واستفساراته، فغضب عليه وطرده من مجلسه باعتباره لا يصلح لهذه الصنعة، وأن العمل في الصيرفة أجدر به باعتباره من أهل الحيرة التي اشتهر أبناؤها بالعمل بهذه المهنة[48]. ويرى القفطي ان ابن ماسويه لم يرق له أن يتعلم حنين صنعة الطب وهو عبادي بعيد عن أسرة الطب لأن «هؤلاء الجنديسابوريين كانوا يعتقدون انهم اهل هذا

---

(٤٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٤٥) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٣٦٥.

(٤٦) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧٣.

(٤٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٥٩.

(٤٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٧٤، وابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

العلم ولا يخرجونه عنهم وعن أولادهم وجنسهم»[49] ويؤيده في ذلك ابن أبي أصيبعة[50]. فتألم حنين من سوء معاملة ابن ماسويه، وآلى على نفسه ألا يتعلم الطب حتى يحكم اللسان اليوناني احكاماً لا يكون في دهره من يحكمه إحكامه[51]. فسافر إلى بلاد الشام ومصر. ويقول ابن النديم إنه دخل بلاد الروم[52]. ويرى المستشرق أوليري أنه ذهب إلى الاسكندرية ولم يكتسب مجرد التدريب الذي كان يعتبر حينذاك مدرسة الطب الأولى، بل اكتسب معرفة قوية باللغة الاغريقية التي نقل عنها في ترجماته إلى السريانية والعربية[53]. أما المستشرق بارتولد فيقول: «وقد أقام نحو سنتين في بوزنطة وتعلم اللغة اليونانية وأدبها، ثم رجع منها بمخطوطات»[54]. على أن حنين بن اسحاق نفسه قال: إنه سافر إلى بلاد كثيرة ووصل إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التي قصد نقلها[55]. وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه السفرات كانت لجمع الكتب اليونانية بعد أن كلّف حنين برياسة الترجمة في بيت الحكمة. وسواء كان حنين قد تعلّم اليونانية في الاسكندرية التي كانت من مراكز الثقافة اليونانية ردحاً طويلاً من الزمن، أم في بلاد الروم، فإنه أتقن أصول تلك اللغة وقواعدها وآدابها.

كان حنين عند عودته من سفرته العلمية إلى بغداد يلازم أبناء موسى بن شاكر الذين رغّبوه في النقل من اليونانية إلى العربية، وأنفقوا على ذلك مبالغ جمة، كما أشرنا آنفاً. وقد بلغ حنين من دقة الترجمة واتقانها أن تنبأ له جبرائيل بن بختيشوع طبيب الخليفة بمستقبل عظيم. ذكر يوسف الطبيب أحد أصحاب حنين قال: «دخلت على جبرائيل بن بختيشوع فوجدت عنده حنيناً، وقد ترجم له أقساماً من كتب التشريح لجالينوس، وجبرائيل يخاطبه بالتبجيل ويقول له: يا ربن حنين، ومعنى ربن معلم، فأعظمت ما رأيت. فتبين ذلك جبرائيل مني. فقال لي: لا تستكثر هذا مني في أمر هذا الفتى، فوالله لئن مُدّ له في العمر ليفضحن سرجيس. وسرجيس هذا الذي ذكره بختيشوع هو الراس عيني وهو أول من نقل من علوم اليونان إلى السريانية»[56]. وكان حنين بعث مع يوسف المذكور إلى يوحنا بن ماسويه ترجمة للفصول المسماة الجوامع. فلما ذهب بها إليه قرأها يوحنا فكثر تعجبه بها وقال: أترى أوحى الله في دهرنا إلى أحد؟ قال: كيف؟ قال يوحنا: هذا ليس إلا اخراج مؤيد بروح القدس. فقال: هذا اخراج حنين بن اسحاق الذي طردته من مجلسك. وحدّثه بما سمعه من جبرائيل عن حنين، فسأله يوحنا أن يتلطف في إصلاح ما بينهما، ففعل. فأفضل يوحنا على حنين وأحسن إليه، فاستأنف حنين دراسة الطب عليه، ولازمه ونقل له كتباً كثيرة من كتب جالينوس[57].

---

(٤٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٧٤.
(٥٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٥٨.
(٥٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٣.
(٥٣) مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٢٧.
(٥٤) بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص ٢١.
(٥٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٦٠.
(٥٦) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٥٧) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٧٥، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

لقد سبقت الاشارة إلى اهتمام المأمون بنقل كتب الحكمة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وقلنا إن ذلك كان بداية لعهد الترجمة الثاني الذي ازدهر في القرن الثالث. وكان المأمون قد أحضر حنين بن اسحاق أحد مترجمي بيت الحكمة، وكان فتيّ السن، وقد اشتهر بمعرفته الجيدة باللغة اليونانية وبمهارته في الترجمة إلى العربية إلى حدّ يثير الإعجاب، فأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين، واصلاح ما ينقله غيره(٥٨). ويستدل من هذا أنه كان في بيت الحكمة قسم خاص بالترجمة، فأناط المأمون رياسته بحنين ليتولى شؤون الترجمة والإشراف عليها. ويبلغ من حرص حنين واهتمامه بما أوكل إليه أن تولى بنفسه ترجمة عدد كبير من الكتب إلى العربية أو السريانية، كما كان يعيد النظر فيما يترجمه غيره من النقلة ويصلحه(٥٩)، بحيث يمكن القول إن جميع ما ترجم في بيت الحكمة في عهد حنين قد عرض عليه وراجعه وأجرى فيه ما رآه ضرورياً من التصحيحات قبل صدوره.

وقد أولى المأمون حركة الترجمة عناية فائقة، فكان يتابع أعمال حنين ومن معه. ويقول ابن أبي أصيبعة إنه رأى عدداً من كتب جالينوس وغيره بخط الأزرق كاتب حنين وعلى بعضها هوامش بخط حنين باليوناني، وعلى تلك الكتب علامة المأمون(٦٠).

كان حنين طبيباً ماهراً في صنعته، فلا غرابة في أن يهتم بنقل الكتب الطبية وبخاصة كتب أبقراط وجالينوس، بحيث لا يوجد منها كتاب إلا وهو بنقل حنين أو بتصحيحه. وإذا ما وجد كتاب قد تفرد بنقله غيره من النقلة، فإنه لا يرغب فيه. وذلك لفصاحة حنين وبلاغته ومعرفته بآراء جالينوس لتمهره فيها(٦١). ويقول ابن أبي أصيبعة إنه وجد في أيامه كثيراً من هذه الكتب وقد اقتنى بعضاً منها، وهي بخط الأزرق كاتب حنين، بحروف كبار وبخط غليظ في أسطر متفرقة، وكل ورقة من ورقها بسمك ثلاث أو أربع ورقات اعتيادية. ولذلك لم يستغرب ابن أبي أصيبعة بقاء الكتب المذكورة هذه السنين الطوال(٦٢) - وقد توفي ابن أبي أصيبعة سنة ٦٦٨ - أي بعد مضي أكثر من أربعة قرون على كتابتها، وهي قيد التداول والاستعمال. ويقول: وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه لأجل ما يقابل ذلك بزنته من الدراهم(٦٣). وقد جاء في رسالة حنين بن اسحاق التي ألفها فيما أصابه من المحن والشدائد، قوله: «وصرت أنقل لهم الكتب على الرسم بغير عوض ولا جزاء، وأسارع إلى جميع محابهم بعد أن كنت إذا نقلت لأحدهم كتاباً أخذت منه وزنه دراهم»(٦٤). وهو يؤيد ما قاله ابن أبي أصيبعة.

---

(٥٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٥٣، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٥٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤١٧.

(٦٠) ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

لقد اعتبر حنين بن اسحاق الشخصية الرئيسة في حركة الترجمة لما كان يتمتع بـه من اطلاع واسع في الطب والفلسفة وإلمام تام بالعربية والسريانية واليونانية. اضافة إلى مقدرته العجيبة في النقل من لغة إلى أخرى بأسلوبه السهل الخالي من التعقيد، ودقته في التعبير، ومحافظته على المعنى المقصود في الأصل المترجم. وقد بلغ من الدقة في الترجمة أنه «كان يقول بأنه يود على الدوام لو يشتغل على ثلاث نسخ يونانية على الأقل من الكتاب المقدم ليتسنى له المقابلة بينها واستخراج الأصل الصحيح منها»[٦٥]. وهي نزعة علمية قويمة تميَّز بها حنين، وقد ظهرت آثارها على ما ترجمه من الكتب. يقول ابن جلجل عنه: «وهو الذي أوضح معاني كتب أبقراط وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها وأوضح شكلها. وله تواليف نافعة متقنة بارعة. وعمد إلى كتب جالينوس فاحتذى فيها حذو الاسكندريين، فصنعها على سبيل المسألة والجواب، فأحسن في ذلك»[٦٦].

أما انجازات حنين في الترجمة فقد عمل على ترجمة ما عثر عليه من كتب جالينوس الأصيلة، أو ما شرحه من كتب أبقراط. وقد استرعى نظر ابن النديم كثرة ما ينسب إلى حنين من تراجم كتب جالينوس، فقال: «من سعادات حنين ان ما نقله حبيش بن الأعسم، وعيسى بن يحيى وغيرهما إلى العربي يُنحل إلى حنين، وإذا رجعنا إلى فهرست كتب جالينوس الذي عمله حنين إلى علي بن يحيى، علمنا أن الذي نقل حنين أكثره إلى السرياني، وربما أصلح العربي من نقل غيره أو صححه»[٦٧]. ويرى القفطي أن سبب ذلك هو التقارب في كتابة الاسمين: حنين، وحبيش، «وكثيراً ما يرى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش، فيظن الغر منهم أن الناسخ اخطأ في الاسم، ويغلب على ظنه أنه حنين وقد صُحِّف فيكشطه ويجعله حنين»[٦٨]. إلا أننا سبق أن ذكرنا أن ابن أبي أصيبعة قال إن حنيناً اهتم بنقل كتب جالينوس بحيث لا يوجد منها إلا وهي بنقله أو بإصلاحه ما نقله غيره.

ويستدل من رسالة حنين ان ما ترجمه من كتب جالينوس إلى السريانية جاوز المئة كتاب، وما نقل منها إلى العربية تسعة وثلاثون كتاباً، وهي في الطب والفلسفة[٦٩]. ويتضح من قائمة ابن النديم بما ترجم من كتب جالينوس وشروحه على بعض كتب أبقراط، أن حنيناً ترجم أغلب الكتب الستة عشر التي يقرأها طلاب الطب على التوالي من كتب جالينوس. فقد ترجم منها الكتب الآتية[٧٠]: **كتاب الفرق، كتاب الصناعة، كتاب في النبض، كتاب في التأتي لشفاء الأمراض، كتاب المقالات الخمس في التشريح، كتاب الاسطقسات، كتاب المزاج، كتاب القوى الطبيعية، كتاب العلل والأعراض، كتاب الحمايات[٧١]، كتاب**

---

(٦٥) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٥٧.

(٦٦) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٩.

(٦٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤١٧.

(٦٨) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧٧.

(٦٩) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٥٤.

(٧٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤١٧؛ والقفطي، المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٧١) ورد في: القفطي، المصدر نفسه، الحميات.

البحران، كتاب أيام البحران، ويضيف القفطي كتاب تعرُّف علل الأعضاء الباطنة الذي اعتبره ابن النديم من ترجمة حبيش.

وترجم حنين مما فسّره جالينوس من كتب أبقراط الكتب التالية[٧٢]: كتاب عهد أبقراط نقله إلى السريانية وأضاف إليه، كتاب الفصول عن طريق المسألة والجواب سبع مقالات إلى السريانية، ونقل منه إلى العربية المقالات الأربع الأول لمحمد بن موسى، كتاب تقدمة المعرفة نقل النص إلى العربية عن طريق المسألة والجواب، كتاب الكسر ترجمه إلى العربية لمحمد بن موسى[٧٣]، كتاب قاطيطريون ترجمه إلى العربية لمحمد بن موسى، كتاب الماء والهواء ترجم النص إلى العربية عن طريق المسألة والجواب، كتاب طبيعة الانسان ترجمه إلى العربية.

ويضيف ابن أبي أصيبعة كتاب ثمار تفسير جالينوس لكتاب ابقراط في تدبير الأمراض الحادة عن طريق المسألة والجواب[٧٤]. فيما جاء في الفهرست أن الذي ترجمه هو عيسى بن يحيى.

أما كتب جالينوس الأخرى التي نقلها حنين إلى السريانية والعربية فهي[٧٥]: كتاب الصوت نقله إلى العربية للوزير محمد بن عبد الملك الزيات، كتاب أفضل الهيئات نقله إلى العربية والسريانية، كتاب سوء المزاج، كتاب الأدوية المفردة، كتاب المولود لسبعة أشهر، كتاب رداءة التنفس نقله لولده، كتاب الدبول على طريق المسألة والجواب، كتاب تدبير الملطف، كتاب قوى الأغذية، كتاب تدبير أبقراط للأمراض الحادة، كتاب في أن الطبيب الفاضل فيلسوف، كتاب في كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة، كتاب محنة الطبيب، كتاب في أن المحرك الأول لا يتحرك، مقالة في أصناف الغلط الخارج عن الطبيعة عن طريق المسألة والجواب، كتاب في الحث على تعلّم الطب على طريق المسألة والجواب، كتاب السبع عشرة مقالة الموجودة من كتاب جالينوس أبيذيميا لأبقراط عن طريق المسألة والجواب، كتاب حل بعض شكوك جاسيوس الاسكندراني على كتاب الأعضاء الآلمة.

وترجم حنين بن اسحاق من كتب أرسطو ما يلي[٧٦]: كتاب قاطيغورياس (المقولات) إلى اللغة العربية، وكتاب باريارمانياس أو باريرميناس (العبارة) إلى اللغة السريانية، وقسماً من كتاب انولوطيقا الأول (التحليل) إلى اللغة السريانية، وبعض أقسام من كتاب انولوطيقا

---

(٧٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٧٣) ورد في: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٧٢، كتاب في جراحات الرأس عن طريق المساءلة والجواب.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.

(٧٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤١٨ ـ ٤١٩؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٣٠ ـ ١٣١، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤.

(٧٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٥ ـ ٣٦.

الثاني (البرهان) إلى اللغة السريانية، وكتاب الكون والفساد، وكتاب النفس إلى اللغة السريانية، وكتاب الأخلاق إلى اللغة المذكورة[77].

ومما ترجمه حنين من كتب أخرى، كتاب المترادفات لأوريباسيوس المسمى السبعين مقالة، والكتب السبعة لبولص الأجنيطي، وكتاب مادة الطب لديوسقريدس[78].

ب ـ ثابت بن قُرَّة

كان ثابت بن قرة الحرَّاني الرياضي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٨٨ ممن برعوا في الترجمة وبرزوا فيها. ويظهر من عدد الكتب واختلاف مواضيعها مما نقله إلى اللغة العربية من اللغتين اليونانية والسريانية، أنه كان يجيد هاتين اللغتين إلى جانب اللغة العربية. يقول القفطي عنه: «وأما نقله من لغة إلى لغة فكثير»[79]. ويقول ابن أبي أصيبعة: «كان جيد النقل إلى العربية، حسن العبارة، قوي المعرفة باللغة السريانية وغيرها»[80]. ويقول عنه المستشرق أوليري: «وهو عالم يعرف اللغة الاغريقية والسريانية والعربية»[81]. وجاء في تراث الاسلام عنه «كان ثابت يعرف اللغتين السريانية واليونانية اضافة إلى العربية فترجم الكثير عن هاتين اللغتين إلى العربية»[82]. وجاء في تراث العرب العلمي «كان ثابت يحسن إلى جانب اللغة العربية اللغات السريانية واليونانية والعبرية، ولما عمل في نقل بعض الكتب من اليونانية أبدى كفاية عالية بحيث عُدَّ من كبار المترجمين»[83].

ومما ترجمه ثابت إلى اللغة العربية: المقالات السبع من كتاب المخروطات لأبلونيوس[84]. ويقال إن الكتاب ثماني مقالات فقدت منه مقالة عندما أخرجت الكتب من بلاد الروم إلى المأمون[85]. وترجم كتاب الأرثماطيقي لنيقوماخس[86]، وكتاب أصول الهندسة لمنالاوس[87]، وكتاب بطلميوس في جغرافية المعمور[88]، ونقل المجسطي لبطلميوس نقلاً

---

(٧٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٩ ـ ٤٢.

(٧٨) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٥٥.

(٧٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٨٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٥.

(٨١) مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٣٣.

(٨٢) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٧٨.

(٨٣) قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٤١)، ص ١٠٣.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ١٠٦، وأرنولد [وآخرون]، المصدر نفسه، ص ٥٧٧. وقد ورد في: القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٦١ ـ ٦٢، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٨٧، أن ثابت بن قرّة قد ترجم المقالات الثلاث الأواخر منه.

(٨٥) القفطي، المصدر نفسه، ص ٦١، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠٠.

(٨٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٨٧) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٦٤، وطوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٠٦.

(٨٨) طوقان، المصدر نفسه، ص ١٠٣.

جيداً وأصلحه ووضحه[٨٩]، وكتاب اقليدس (الأسطروشيا) في أصول الهندسة وأصلحه ووضحه[٩٠]. ونقل تفسير كلام أرسطو في مقالة قوس قزح[٩١]. وترجم جوامع كتاب انولوطيقا الأول[٩٢]. وترجم كتاب تفسير بنس لكتاب تسطيح الكرة لبطلميوس[٩٣].

وترجم ثابت بن قرة من كتب جالينوس[٩٤]: كتاب الأدوية المفردة، وكتاب المرة السوداء، وكتاب سوء المزاج المختلف، وكتاب الأمراض الحادة، وكتاب تشريح الرحم، وكتاب في المولودين لسبعة أشهر، وكتاب الفصد، وجوامع ما قاله جالينوس في تشريف صناعة الطب، وكتاب في قوى الأغذية، وجوامع تفسير جالينوس لكتاب أبقراط في الأهوية والمياه والبلدان، وكتاب في الذبول والأدوية المنقية، وكتاب الأعضاء الآلمة.

ونقل كتاب الكيموس بالاشتراك مع حبيش الأعسم[٩٥]. وأصلح كتاب المجسطي الذي سبق أن نقله أبو حسان وسلم وفسره أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزي[٩٦]. ويعتقد الأستاذ نللينو أن ترجمة أبي حسان وسلم كانت من ترجمة بالسريانية وليس من الأصل اليوناني[٩٧]. وقام ثابت بإصلاح كتاب الأصول لاقليدس الذي ترجمه حنين بن اسحاق إلى العربية، فنقحه وأوضح منه ما كان مستعجماً[٩٨]. وكان قد أصلح أيضاً ترجمة حنين لـ كتاب المجسطي اصلاحاً جيداً[٩٩].

ج ـ اسحاق بن حنين

تعلم اسحاق صنعة الطب ومارسها بمهارة، فكان واحد عصره فيها. وكان يجاري أباه حنيناً في سعة معرفته باللغة العربية واللغتين اليونانية والسريانية، بل كان يزيد عليه فصاحة، وقد عمل معه في الترجمة فتميَّز بصحة النقل وجودته. إلا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً بالنسبة إلى ما نقله من كتب الحكمة. لحقه الفالج آخر عمره وبه مات في ربيع الآخر سنة ٢٩٨[١٠٠].

---

(٨٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١١٩، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٩.

(٩١) القفطي، المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٩٢) المصدر نفسه، ص ١١٨، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٨.

(٩٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١١٦ ـ ١١٩، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٩٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤١٨.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٣٨٨.

(٩٧) علم الفلك عند العرب، ص ٢٢٥.

(٩٨) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ١، ص ٢٧٨.

(٩٩) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٩.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٨٠؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين

ولاسحاق مصنفات في الطب، أما الكتب التي ترجمها إلى اللغة العربية فعديدة منها: أنولوطيقا الأول (التحليل) بالاشتراك مع أبيه[101]. وكتاب أبوطيقا (الشعر)، وريطوريقا (الخطابة)، وسوفسطيقا (المغالطة)[102]، وطوبيقا (الجدل)[103]، وباريمينياس (العبارة)[104]، وكتاب النفس تفسير ثامسطيوس[105]. وكتاب ايساغوجي (المدخل إلى صناعة المنطق)[106]، وكتاب الكون والفساد عن ترجمة أبيه حنين إلى السريانية[107]، وعدة مقالات من كتاب الإلهيات ـ الحروف[108]. وهذه الكتب كلها لأرسطوطاليس.

وترجم من كتب جالينوس: كتاب المقولات، وشرح جالينوس لـ كتاب الفصول لأبقراط[109]. وكتاب ان المحرك الأول لا يتحرك[110]، واشترك مع اصطفن بن بسيل في نقل كتاب عدد المقاييس بناء على طلب علي بن يحيى[111].

كما ترجم تعليقات فرفوريوس والاسكندر الافروديسي وامونيوس[112]. ونقل كتاب اقليدس في أصول الهندسة، ووضع مختصراً له[113]. وكتاب المجسطي لبطلميوس[114]، وقسماً من طيماؤس لأفلاطون[115]. وترجم كتاب انولوطيقا الثاني (البرهان) وطوبيقا (الجدل) إلى اللغة السريانية[116].

د ـ حبيش بن الأعسم

هو ابن أخت حنين بن اسحاق وقد درس عليه صنعة الطب، واتقن اللغتين السريانية واليونانية إلى جانب اللغة العربية، وحذا حذو خاله في الترجمة من حيث الدقة

= وأسماء كتبهم، ص ٤٢٩؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٥ ـ ١٨٦؛ وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٩.

(١٠١) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٦.
(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.
(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٤١.
(١٠٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٥.
(١٠٧) القفطي، المصدر نفسه، ص ٤٠.
(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(١٠٩) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٥.
(١١٠) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٣١.
(١١١) المصدر نفسه، ص ١٣٠.
(١١٢) مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٢٨.
(١١٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٦٤.
(١١٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(١١٥) المصدر نفسه، ص ١٣١.
(١١٦) المصدر نفسه، ص ٣٦.

والأسلوب، فكان من البارزين فيها. وأكثر نقله من اللغة السريانية، وكان حنين يقدمه ويثني على نقله[117]. وكان ممن ينقلون الكتب إلى اللغة العربية لأبناء موسى بن شاكر[118]. يقول عنه ابن أبي أصيبعة «هو ناقل مجود يلحق بحنين واسحاق»[119].

نقل حبيش عدداً كبيراً من كتب جالينوس، منها[120]: قسم من كتاب النبض الكبير، وقسم من كتاب تدبير الأصحاء، ونقل كتاب حيلة البرء، وكتاب التشريح الكبير، وكتاب اختلاف التشريح، وكتاب تشريح الحيوان الميت، وكتاب تشريح الحيوان الحي، وكتاب تشريح الرحم، وكتاب علم ابقراط بالتشريح، وكتاب علم ارسطوطاليس في التشريح، وكتاب الحاجة إلى النبض، وكتاب الحركة المجهولة، وكتاب منافع الأعضاء بتصحيح حنين، وكتاب تركيب الأدوية، وكتاب الحث على تعلم الطب، وكتاب الكيموس بالاشتراك مع ثابت بن قرة، وكتاب الرياضة بالكرة الصغيرة، وكتاب الأخلاق، وكتاب في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن.

كما ترجم كتاب تقدمة المعرفة المسمى افوريزما لأبقراط، وكتاب الحمية الفعّالة، وكتاب التشخيص[121]. وكتاب في قوى الأطعمة، وقد ترجمه اكيوريوس عن العربية إلى اللغة اللاتينية[122].

وفسّر حبيش كتاب الماء والهواء تفسير جالينوس الذي ترجمه حنين بن اسحاق إلى اللغة العربية[123].

هـ ـ اصطفن بن بسيل

من الكتّاب النحارير الحاذقين في الترجمة ممن عينهم المتوكل على الله ليعملوا بمعية حنين بن اسحاق عندما أناط به رياسة بيت الحكمة[124]. ويظهر أنه كان جيد النقل، يقارب في نقله حنين بن اسحاق ولو أنه كان دونه فصاحة[125]. وقد ترجم للخليفة المتوكل على الله كتاب مسائل الطب المعروف بـ كتاب الحشائش لديسقوريدس[126]، وصحّح الترجمة حنين بن

---

(١١٧) المصدر نفسه، ص ١٧٧؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٨، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٩.

(١١٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٠.

(١١٩) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٩.

(١٢٠) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٢٩ ـ ١٣٢.

(١٢١) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٤٩٥.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٠١.

(١٢٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٩٥.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ١٧١، وابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٩.

(١٢٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨١.

(١٢٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٢. وقد يسمى كتاب الحشائش والنباتات، أو هيولى علاج الطب، أو كتاب الأدوية المفردة. انظر: ابن جلجل، المصدر نفسه، هامش ص ٢٢.

اسحاق. ويقول عنه ابن جلجل: «ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام في الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل، وكان المترجم له اصطفن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، وتصفح ذلك حنين بن اسحاق المترجم فصحّح الترجمة وأجازها، فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسماً في اللسان العربي فسّره بالعربية، وما لم يعلم له في اللسان العربي اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي»(١٢٧). وديسقوريدس من أهل عين زربى التي أصبحت من الثغور العربية، شامي يوناني حشائشي. ومعنى اسمه في اليونانية «شجّار الله»، ويطلقون عليه «صاحب النفس الزكية، والنافع للناس، والسائح، عاش في الدور الأول والثاني من التاريخ المسيحي ولا يعرف وقته تماماً، وقد تكلم في العلاج الطبي والعقاقير المفردة(١٢٨).

ومن الكتب الأخرى التي ترجمها اصطفن، كتاب الأدوية المستعملة للطبيب اليوناني اوريباسيوس(١٢٩). كما انه نقل إلى العربية من كتب جالينوس: كتاب حركات الصدر والرئة، وكتاب الفصد بالاشتراك مع عيسى بن يحيى، وكتاب عدد المقاييس بالاشتراك مع اسحاق بن حنين، وكتاب علل النفس، وكتاب حركة العضل، وكتاب الحاجة إلى النفس، وكتاب الامتلاء، وكتاب المرّة السوداء(١٣٠).

و ـ قسطا بن لوقا البعلبكي

كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والموسيقى، فصيحاً باللغتين اليونانية والسريانية وباللغة العربية، جيد النقل، وقد نقل عدداً من الكتب وأصلح نقولات كثيرة(١٣١). دخل بلاد الروم وجمع عدداً من التصانيف القديمة وعاد إلى الشام. ويقول أوليري إنه تعلّم في بلاد الاغريق ولذا امتاز بالترجمة(١٣٢). وقد استدعي إلى العراق ليعمل في الترجمة(١٣٣). ويعتبر قسطا من فلاسفة المترجمين(١٣٤)، ومن مترجمي بيت الحكمة المشهورين وقد عمل بمعية حنين بن اسحاق(١٣٥). توفي قسطا في أرمينيا حوالى سنة ٣٠٠ وكان بطريقها أبو

---

(١٢٧) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٩٣.

(١٢٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٢١، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٨٣.

(١٢٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ٧٤.

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ١٣٠ ـ ١٣٢، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

(١٣١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٥٥ و٣٢٤، وابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٢٩.

(١٣٢) مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٢٨.

(١٣٣) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٢.

(١٣٤) ت. ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨)، ص ٣٩.

(١٣٥) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٥٣.

الغطريف يقدر فيه علمه وبراعته، فشمله برعايته، ولما مات أقام على قبره قبة إكراماً له وتقديراً[١٣٦].

ترجم قسطا بن لوقا عدداً من الكتب اليونانية إلى اللغة العربية منها[١٣٧]: كتاب شرح الاسكندر الأفروديسي، وكتاب شرح يحيى النحوي على كتاب السماع الطبيعي لأرسطو، وكتاب شرح الاسكندر على كتاب الكون والفساد لأرسطو أيضاً، وكتاب آراء الفلسفة المنسوب إلى فلوطرخس.

ويقول القفطي إنه ترجم قسماً من كتاب السماع الطبيعي، والمقالة الأولى من كتاب الكون والفساد، وانه نقل كتاب الرياضة لفلوطرخس[١٣٨]. وجاء في كشف الظنون أنه عرّب كتاب الفلاحة الرومية تأليف الحكيم قسطوس بن اسكور[١٣٩]. ونقل كتاب نوادر اليونانيين، وكتاب شرح مذاهب اليونانيين، وفسّر ثلاث مقالات ونصف مقالة من كتاب ديوفنطس في المسائل العددية[١٤٠].

ز ـ متى بن يونس

أبو بشر من أهل دير قُنّي، أحد الأديرة القريبة من بغداد، ودرس في مدرسة مار ماري التابعة لهذا الدير، عاش ببغداد ودرس كتب أرسطو في المنطق على ابراهيم القويري. وإليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره، وصنف عدداً من الكتب والتفاسير في المنطق، ودرس عليه هذا العلم عدد كبير من الطلاب، وكانت وفاته ببغداد سنة ٣٢٨[١٤١].

ترجم أبو بشر إلى اللغة العربية كتب أرسطو في المنطق والطبيعيات، منها[١٤٢]: كتاب انولوطيقا الثاني (البرهان) نقله من السريانية، وكتاب سوفسطيقا (المغالطة) نقله من

---

(١٣٦) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٣، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٣٠.

(١٣٧) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٣٧.

(١٣٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٨، ٤٠ و٢٥٧.

(١٣٩) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه محمد شريف بالتقايا ورفعت الكليسي، ٢ ج (استانبول: مطبعة الحكومة، ١٩٤١ ـ ١٩٤٣)، ج ٢، ص ١٤٤٧.

(١٤٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٥.

(١٤١) المصدر نفسه، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٢٣، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣١٧.

(١٤٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٠ و٤٢ على التوالي.

السريانية، وكتاب أبوطيقا (الشعر) نقله من السريانية كذلك، وكتاب الكون والفساد بتفسير الاسكندر الأفروديسي، وكتاب الآثار العلوية، ومقالة اللام من كتاب الآلهيات.

وفسَّر أبو بشر كتب المنطق الأربعة[143]: قاطيغورياس (المقولات) الذي نقله حنين بن اسحاق إلى العربية، وانولوطيقا الأول (التحليل) وكان ثياذورس نقله إلى العربية وأصلحه حنين، والمقالة الأولى من طوبيقا (الجدل)، وكتاب ايساغوجي لفرفوريوس وهو المدخل إلى المنطق، وعلى هذه التفسيرات يعوِّل الناس في القراءة.

ح - أبو عثمان الدمشقي

سعيد بن يعقوب من أهل دمشق سكن بغداد واشتهر بها طبيباً في أواخر القرن الثالث، وكان منقطعاً إلى أبي الحسن علي بن عيسى وزير المقتدر بالله، وقد أناط به رياسة البيمارستان الذي أسسه في سنة ٣٠٢ في محلة الحربية بالجانب الغربي من بغداد وأنفق عليه من ماله، ثم أضاف إلى أبي عثمان رياسة جميع البيمارستانات في بغداد ومكّة والمدينة. ولأبي عثمان الدمشقي عدد من التصانيف الطبية، وكان من النقلة المجيدين إلى اللغة العربية. وذكره ابن النديم في قائمة المترجمين[144]. وكان فصيحاً باللغتين اليونانية والعربية معتمد النقل[145].

نقل إلى العربية مقالات من أصول الهندسة لاقليدس[146]، وكتاب طوبيقا من ترجمة اسحاق بن حنين إلى السريانية[147]. كما نقل قسماً من السماع الطبيعي[148]، وكتاب الكون والفساد من الترجمة السريانية[149]، وكتاب المدخل إلى القياسات الحملية لفرفوريوس[150].

ط - عيسى بن يحيى بن ابراهيم

أحد تلاميذ حنين بن اسحاق، وقد درس عليه صنعة الطب، وعمل معه في الترجمة في بيت الحكمة، وكان من الناقلين المجودين من اليونانية إلى اللغة العربية، وقد أثنى حنين على نقله، وكان عيسى يقلده في الترجمة، وله مصنفات في الطب[151].

---

(١٤٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٤٠٩؛ ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٥٥ و٤٢٩، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٨٢ و٣١٦.

(١٤٥) شمس الدين محمد بن محمد الشهرزوري، نزهة الأرواح وروضة الأفراح رتب في تواريخ الحكماء المتقدمين والمتأخرين (حيدر آباد الدكن: [د.ن.]، ١٩٧٦)، ص ٦.

(١٤٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ٦٤.

(١٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(١٤٩) المصدر نفسه.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٥٧.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٢٤٧؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٨، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٩.

ساهم عيسى بن يحيى في حركة الترجمة مساهمة فعالة فنقل عدداً من الكتب من اليونانية أو مما ترجم منها إلى السريانية. ومما نقله إلى اللغة العربية: كتاب السبعين مقالة للطبيب اليوناني أوريباسيوس، من اللغة السريانية[١٥٢]. ونقل مما فسره جالينوس من كتب أبقراط[١٥٣]: كتاب عهد أبقراط وكان حنين نقله إلى السريانية وأضاف إليه، فترجمه عيسى بالاشتراك مع حبيش[١٥٤]، وكتاب الأمراض الحادة، وكتاب الفصول، وكتاب الأخلاط. وفسَّر القسم السادس من كتاب ابيذيميا، كما فسَّر كتاب طبيعة الانسان وكان حنين قد نقل نصه إلى العربية.

ونقل إلى العربية من كتب جالينوس[١٥٥]: كتاب تقدمة المعرفة، وكتاب الفصد، وكتاب الأدوية المقابلة للأدواء، وكتاب المحرك الأول لا يتحرك، بالاشتراك مع اسحاق بن حنين.

كما نقل أربع مقالات من كتاب البرهان[١٥٦].

وهناك عدد آخر من المترجمين ذكر ابن النديم وابن أبي أصيبعة أسماءهم ولم يذكرا ما نقلوه من الكتب إلّا نادراً، وإنما اكتفيا بالتعريف بهم[١٥٧].

٦ ـ أهمية حركة الترجمة

كان لحركة الترجمة ـ التي أولاها الخلفاء في بغداد وسامراء رعاية خاصة وشجعها رجال الدولة العربية وأعيانها، فنشطت وازدهرت في خلال القرن الثالث ـ أهمية خطيرة في مسيرة الحضارة العربية. فقد ساعدت العلماء والدارسين على أن يتعرفوا على ثقافات الأمم السابقة وعلومها، في حقول الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وأحكام النجوم وغيرها، وأن يلموا بها وينهلوا منها مما وسَّع آفاق تفكيرهم العلمي بما يناسب المستوى الحضاري الذي وصلوا إليه. فأفادوا منها كثيراً في مختلف العلوم وبخاصة في الطب والفلسفة وعلم الفلك. وقد استفاد الأطباء مما اطلعوا عليه من كتب التشريح العديدة مما ترجم لأبقراط وجالينوس وغيرهما، لأن الدين الاسلامي لا يبيح المثلة بالانسان حياً أو ميتاً. فكانت هذه المترجمات خير ما وضح لهم مبهمات هذا الموضوع. كما أخذت مصنَّفاتهم الطبية تعكس جوانب عديدة من الطب اليوناني. فإن ما صنفه يوحنا بن ماسويه، وحنين بن اسحاق، وأبو بكر الرازي، وغيرهم من علماء الأطباء، كان متأثراً بما جاء في كتب جالينوس إلى حد كبير.

---

(١٥٢) القفطي، المصدر نفسه، ص ٧٤.
(١٥٣) المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٥، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤١٥ ـ ٤١٦.
(١٥٤) يظهر مما جاء في: القفطي، المصدر نفسه، أن عيسى نقله وحده.
(١٥٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤١٨ ـ ٤١٩، والقفطي، المصدر نفسه، ص ١٣١.
(١٥٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٤٧.
(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٣، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

وكـذلك انتفـع رجال الـدين وبخـاصـة علماء الكـلام منهم، بكتب الفلسفـة والمنـطق والجدل. وقد ظهرت آثار ذلك على عدد غير قليل منهم. وكان علماء المعتزلة أكثر استفادة من غيرهـم فصاروا أقدر على الجدل والمناظرة. وغدا تـأثير الفلسفـة اليونـانية ومنهجهـا واضحاً في تفكير رجال مختلف المذاهب الاسلامية وأعمالهم. وكـان الكندي فيلسـوف العرب يحذو حذو أرسطو في منهجه الفلسفي وفي تصانيفه الفلسفية.

ومن النتـائج المهمـة الأخرى لحركة الترجمة ان ظهرت حركة تأليف في بعض فنـون المعـرفة. فقد بدأ المـترجمون يضعـون الرسـائل والكتب ليستعملهـا الـطلاب، وهي بشكـل ملخصات في شتى أنواع العلوم وبخاصة الطبية منها[١٥٨]. ثم ما لبثت هذه الحركة أن توسعت بين العلماء العرب الذين أخذوا يكتبون على أسس متينـة من المعرفـة. فقد ظهـرت في الطب والفقـه والتاريـخ واللغة مثـلاً، كتب كثيرة وبعضهـا بعدة أجـزاء بحيث كـان بعضهـا أشبـه بالموسوعات. كما كان المؤلف الواحد يصنف عشرات الكتب في مختلف المواضيع مـدلّلاً عـلى سعة معرفته وتفننه بمختلف العلوم. فقد صنف الكندي ما يزيد على ٢٥٠ كتاباً في الفلسفـة والجـدل والمنطق والـرياضيـات والفلك والطب والسيـاسة وغـيرها. وقـد دلّل في أكـثرها عـلى اطلاع واسع ومعرفة عميقة. وصنف محمد بن زكريا الرازي عميد الأطباء ما يزيد عـلى ٢٣٠ كتاباً في الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة والريـاضيات والفلك وأحكـام النجوم وغيرها. وهي أيضاً تدل على سعة علمه وعمق تفكيره. وصنف ثـابت بن قرة الـرياضي الفيلسـوف ما ينيف على السبعين كتاباً في فنون مختلفة.

ولم تقتصر حـركـة التـأليف ووفـرة مـا صنف من الكتب عـلى المـواضيـع التي عـالجهـا الفلاسفة والأطبـاء والريـاضيون فحسب، بـل تناولت العلوم القـرآنية من تفسـير وقراءات، وعلوم الحديث، وعلوم الفقه والكلام. اضافـة إلى ما صنف في التـاريخ والجغـرافية وأحـوال البلـدان. أما في ميدان اللغة والشعر والأدب عامة فقد نبغ شعراء مفكرون مجددون إلى جانب أسـاتـذة الأدب واللغـة المتقدمـين. فإن مـا صنفه الـطبري وابن قتيبة والجـاحظ وأبـو حنيفـة الدينوري، وغيرهم من علماء هذا القرن وأدبائه لجدير بالإعجـاب سواء من حيث كميتـه أو نوعيته. ولكن مما يؤسف له أن هذا العدد العظيم من الكتب المصنفة والمـترجمة لم يصلنا منه سوى النزر اليسير، إذ ضاع القسم الأعـظم بفعل عـوادي الزمن المختلفـة، ولم يبق من تلك الكتـب سوى عناوينها وأسماء مصنفيهـا بفضل محمـد بن اسحاق المعـروف بابن النـديم المتوفى سنة ٣٨٠ في كتابه القيم الفهرست.

إن مـا تضمنه الفهـرست وبعض الكتب الأخرى التي عنيت بـالمصنفات وأصحـابهـا، كـ تاريخ الحكماء، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء، من عناوين الكتب وكـثرة عدد المؤلفين والمترجمين دليل على ذلك النشاط العلمي الـواسع الـذي شهده القـرن الثالث ممـا يجعله بحق عصر النهضـة العلمية العـربية. إذ ثبتت في خـلاله أسس العلوم الـدينية واللغـوية والأدبيـة

---

(١٥٨) ارنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٥٨.

والفلسفية وعلوم الرياضة والطبيعة والتاريخ والجغرافيا، وتقدمت الدراسات فيها تقدماً كبيراً على أيدي رجال أفذاذ وعلماء موهوبين دفعوا بجهودهم ومبادراتهم وإبداعهم مسيرة الحضارة الانسانية قدماً إلى الأمام.

كما أن ما نقله العرب من كتب أرسطو وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم من حكماء اليونان حفظ تلك الكتب من الضياع بعد أن فقدت أصولها اليونانية[١٥٩]. فإن التراجم العربية التي يعود الفضل في نقلها إلى حنين بن اسحاق ومعاونيه، حفظت كثيراً من مؤلفات جالينوس التي ضاع أصلها اليوناني. إذ كان جيرار القرموني الايطالي المتوفى سنة ١١٨٧م أشهر مترجمي الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية. فقد نقل الترجمة العربية لـكتاب المجسطي لبطلميوس، ومترجمات كتب أبقراط وجالينوس، وآثار الكندي، وثابت بن قرة إلى اللغة اللاتينية. وترجم آخرون مثل مرقص اللاهوتي من طليطلة، وروفينو الايطالي، كثيراً من الكتب العربية الأصيلة والمترجمة عن اليونانية في موضوعي الطب والطبيعيات.

وكانت بعض الكتب الطبية والفلسفية المترجمة من العربية إلى اللاتينية، قد صارت المصدر الأساسي للتدريس في مدارس أوروبا ومعاهدها العلمية طيلة قرون عدة.

ثانياً: خزائن الكتب

مما له علاقة وثيقة بالنهضة العلمية العربية التي شهدها القرن الثالث ما يلاحظ من ازدياد الكتب كمية ونوعاً، واتساع خزانة بيت الحكمة لتستوعب المصنفات الجديدة الكثيرة العدد من الكتب المترجمة. ولم يقتصر فيض الكتب هذا على خزانة بيت الحكمة وحدها بل شمل المكتبات الخاصة الكثيرة التي تعود لبعض رجال الدولة وأعيانها وأهل العلم وطلابه ومكتبات الجوامع. وسنلقي فيما يلي نظرة عامة على بعض ما كان قائماً من هذه المكتبات ودورها في نشر العلم والثقافة في المجتمع العربي آنذاك.

١ ـ بيت الحكمة

إن الخزانة التي أنشئت ببغداد في عهد أبي جعفر المنصور، قد نمت وتطورت بصورة تدريجية حتى استوت على أيام هارون الرشيد على شكلها كبيت لخزن الكتب وترجمتها ونسخها وتجليدها. وقد أشرنا إلى حرص أبي جعفر المنصور على جمع الكتب، فقد نقل له طبيبه جورجيس بن جبرائيل عدداً من الكتب من اليونانية إلى اللغة العربية[١٦٠]. ولما قدم

---

(١٥٩) حول تأثير العرب في حفظ التراث اليوناني، انظر: المصدر نفسه، ص ٤٥٦، ٤٩٧ و٥٤٦، وغوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة محمد عادل زعيتر، ط ٢ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨)، ص ٦٧٨.

(١٦٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٣، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٥٨، وفيه جورجيس بن بختيشوع.

عليه أحد حكماء الهنود، ومعه كتاب السِّنْدهانت أمر بتلخيصه وترجمته(١٦١). ولما علم الخليفة أن لقدماء اليونانيين مخطوطات في العلوم الرياضية طلب إلى الامبراطور الروماني أن يبعث إليه بقسم منها(١٦٢). مما يجعلنا نستنتج أنه كانت للمنصور خزانة للكتب يودع فيها ما يتوفر لديه منها، وما يصنف أو يترجم له. ومن الطبيعي أن تكون هذه الكتب بأكثر من لغة واحدة، وأن أغلبها يتصل بكتب الرياضيات وأحكام النجوم.

وأصبحت خزانة المنصور في عهد حفيده هارون الرشيد حافلة بمختلف المصنفات، إذ لم يكن أقل من جده ولعاً بالكتب والعلوم. وقد اتسعت فعيّن لها خزنة ونساخين وعهد إلى الفضل بن نوبخت القيام عليها ورعاية شؤونها. ولما عاد من إحدى حملاته العسكرية على بلاد الروم جاء معه بمجموعة من الكتب اليونانية القديمة مما عثر عليه هناك ووضعها بتلك الخزانة، وطلب إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه أن يترجمها، وجعله أميناً على الترجمة ورتّب له كتّاباً حاذقين يكتبون بين يديه(١٦٣). فلم تعد الخزانة المذكورة تقتصر على حفظ الكتب فقط بل أصبحت داراً للترجمة والنسخ. ومن الطبيعي أن يلحق بذلك من العاملين فيما يتعلق بالتجليد والتنضيد والتنظيم. وقد ذكر ابن النديم ان ابن أبي الحريش كان يجلّد في خزانة الحكمة(١٦٤). وبهذا يكون الرشيد قد أرسى قواعد بيت الحكمة كخزانة للكتب، ودار للترجمة والنسخ والتجليد، كما أصبح مكتبة عامة يرتادها الباحثون. وقد تعددت أسماؤه، فيسمى خزانة الحكمة، أو دار الحكمة أيضاً. ويظهر أن التسمية الأولى كانت هي الغالبة عليه، وهي بيت الحكمة.

ورغم تعدد الاشارة إلى بيت الحكمة البغدادي في ثنايا المصادر التراثية، فإننا لم نعثر على ما يشير صراحة إلى مكانه أو محتوياته من القاعات والحجرات وغيرها من مرافق البناء التي تؤمن مهامه كدار علمية. ولكن يظهر أنه كان في جناح أحد قصور الخلافة أو في بناية ملحقة بها. وإنما استنتجنا ذلك لأن الخليفة المأمون لما طلب إلى الفراء، يحيى بن زياد، النحوي المتوفى سنة ٢٠٧ أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، أمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار وصيّر له الوراقين يكتبون له(١٦٥). وقد تكون هذه الدار هي بيت الحكمة نفسه. كما أن المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق لما أراد «بناء قصره في الشماسية ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد، فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبني فيه دوراً ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية...»(١٦٦).

---

(١٦١) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

(١٦٢) بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص ٢١.

(١٦٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(١٦٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٠.

(١٦٥) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ - ١٩٢٦)، ج ٧، ص ٢٧٧.

(١٦٦) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط =

لقد لعب بيت الحكمة دوراً مهماً في النهضة العلمية العربية مما أشرنا إليه في موضوع حركة الترجمة التي رعاها الخلفاء منذ أيام المنصور. ولأهمية بيت الحكمة ودوره الحضاري فقد كانت رياسة أقسامه، وبخاصة قسم الترجمة تعهد إلى كبار الأدباء والعلماء والأطباء كسهل بن هارون ومحمد بن موسى الخوارزمي اللذين توليا أمره في أيام المأمون. أما رياسة البيت فقد أنيطت بيوحنا بن ماسويه رئيس أطباء البلاط، وقد استمر عليها مدة نصف قرن، منذ عهد الرشيد حتى أيام المتوكل على الله الذي عين حنين بن اسحاق لادارة البيت ورياسة قسم الترجمة فيه. وكان يعمل معه في الترجمة من المترجمين القديرين أمثال ابن أخته حبيش، وابنه اسحاق بن حنين، وتلميذه ثابت بن قرة، وتلميذه الآخر قسطا بن لوقا، فضلاً عن عدد كبير ممن اضطلعوا بأعمال النسخ والتنظيم.

وقد ازدهر بيت الحكمة في عهد حنين، واتسعت حركة الترجمة، فتُرجم عدد كبير من الكتب اليونانية في الطب والفلسفة والرياضيات وغيرها إلى اللغة العربية، مما سبقت الإشارة إليه في موضوع حركة الترجمة. وقد ذكر ابن النديم وابن أبي أصيبعة أسماء كثير ممن عملوا في قسم الترجمة في بيت الحكمة(١٦٧). ويظهر أن الاهتمام ببيت الحكمة تضاءل بعد المتوكل على الله، ولا سيما في خلال النزاع الذي نشب بين سامراء وبغداد في أيام المستعين بالله، وما عقب ذلك من فتنة الزنج وانشغال الخلافة بها. مما صرف الخلفاء عن الاهتمام به، بحيث لا نكاد نجد له ذكراً بعد وفاة حنين بن اسحاق في سنة ٢٦٠.

٢ ـ خزائن الكتب الأخرى

كان إلى جانب مكتبة بيت الحكمة التي تنفق عليها الدولة، مكتبات أخرى ينفق عليها أصحابها من أموالهم، وكان بعضهم يفتح أبواب مكتبته للمطالعين والدارسين. فإن النهضة العلمية التي بدأت في مدينة السلام منذ منتصف القرن الثاني ازدهرت وتوسعت في خلال القرن الثالث، وأقبل بعض العلماء والأدباء ورجال الدولة على انشاء المكتبات وتزويدها بالكتب في مختلف العلوم. ومن هذه المكتبات أو الخزائن التي وصلتنا بعض أخبارها، المكتبات التالية:

أ ـ خزانة الواقدي

أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ من أهل المدينة المنورة انتقل إلى بغداد وعاش عمره بها. كان راوية اخبارياً عالماً بالمغازي والفتوح والسير، واختلاف الناس في

= والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ٢ ج (مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤)، ج ٢، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(١٦٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٥٥، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.

الحديث والفقه[١٦٨]. وهو «أحد أوعية العلم وله التصانيف الكثيرة»[١٦٩]. كان جمّاعاً للكتب فصارت عنده خزانة كبيرة تضم كثيراً من الكتب في مختلف التصانيف، ويرجّح أنها كانت تاريخية اخبارية وفقهية وفي السير، بالنظر إلى اختصاص الواقدي بذلك. وكان الرشيد ولاّه القضاء بشرقي بغداد، وولاّه المأمون القضاء على عسكر المهدي. «ولما تحوّل الواقدي من الجانب الغربي يقال إنه حمل كتبه على عشرين ومئة وقر، وقيل كان له ستمئة قمطر كتب»[١٧٠]. ويقول ابن النديم «خلّف الواقدي بعد وفاته ستمئة قمطر كتباً في كل قمطر منها حمل رجلين، وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار، وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار»[١٧١]. وللواقدي مصنفات عديدة ذكر بعضها ابن النديم وياقوت الحموي[١٧٢].

ب ـ خزانة علي بن يحيى المنجم

كان علي بن يحيى المتوفى سنة ٢٧٥ نديم الخليفة المتوكل على الله، مولعاً بالكتب، شديد الاهتمام بالأدب والأدباء. وكان المتوكل على الله قد اختص به لحسن مجالسته وسعة معارفه. واستمرت علاقته ببقية خلفاء سامراء، فكان نديمهم وجليسهم المقرّب إليهم. وكان له بالقُفْص، وهي من قرى بغداد[١٧٣]، قصر واسع اتخذ فيه خزانة كتب عظيمة سمّاها «خزانة الحكمة» يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم، وينسخون من كتبها. وكان علي بن يحيى يقوم بالنفقة على الغرباء منهم طيلة إقامتهم فيها[١٧٤]. وقد جمع فيها كتباً في مختلف العلوم والفنون. وكان بعضها قد نقل من لغات أخرى وبخاصة من اللغة اليونانية، أو صُنِّف لصاحب الخزانة. فقد نقل حنين بن اسحاق لعلي بن يحيى رسالة فيما أصابه من المحن والشدائد جواباً على كتابه فيما دعاه إليه من دين الاسلام[١٧٥]. كما عمل له فهرساً لكتب جالينوس التي نقلت إلى العربية أو السريانية[١٧٦]. ونقل له حنين أيضاً الجزء

---

(١٦٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(١٦٩) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ٥٥.

(١٧٠) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥٧ ـ ٥٨، وأبو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ٣، ص ٥.

(١٧١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٥٠.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ١٥٠، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥٨.

(١٧٣) بينها وبين عكبراء، وكانت من مواطن اللهو ومعاهد التنزه ومجالس الفرح، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. انظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥)، ج ٤، ص ٣٨٢.

(١٧٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٥، ص ٤٦٧.

(١٧٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٤.

(١٧٦) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

الأول من كتاب جالينوس في الأدوية المفردة[177]. وصنّف له ثابت بن قرة كتاباً فيها سأله عن أبواب علم الموسيقى[178]. ونقل له اصطفن بن بسيل واسحاق بن حنين كتاب عدد المقاييس لجالينوس[179].

وقد وُصفت هذه الخزانة لأبي مَعْشر جعفر بن عمر البلخي، وكان قدم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كثير شيء من النجوم، فمضى ورآها فهاله أمرها فأقام بها مدّة، تعلم فيها علم النجوم وأغرق فيه[180]. وهذا الخبر دليل على كثرة الكتب التي تبحث في هذا العلم في الخزانة. ولما توفي عمر بن شبّة الراوية الأخباري وآلت كتبه إلى ابنه أحمد ابتاعها منه علي بن يحيى وأضافها إلى خزانته[181].

ج ـ خزانة الفتح بن خاقان

كان الفتح بن خاقان القائد التركي مستشار المتوكل على الله وصاحبه الذي لا يفارقه، وقد اغتيل معه في القصر الجعفري سنة ٢٤٧، قد عُرف عنه حبه الشديد للمطالعة واقتناء الكتب، بحيث لا يفارقه الكتاب ولو كان في مجلس الخليفة[182]. ويقول ابن النديم: «وكان له خزانة جمعها له علي بن يحيى المنجم، لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسناً»[183]. ويقول: «وعمل له خزانة حكمة نقل إليها من كتبه وما استكتبه الفتح أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط»[184]. وكان يحضر دار الفتح فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين[185]، لحضور مجالسه الأدبية والاستفادة من خزانة كتبه.

د ـ خزانة محمد بن عبد الملك الزيّات

كان الوزير ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٥ إلى جانب براعته في الإدارة والسياسة، أديباً شاعراً، وقد وزر لثلاثة خلفاء على نسق واحد: المعتصم بالله، والواثق بالله، والمتوكل على الله الذي أمر بقتله. كانت له بسامراء مكتبة غنية بكتبها، وكان يزوّدها باستمرار بما يبتاعه أو ينسخ له، أو يسترجم من الكتب أو يُهدى إليه أو يصنّف باسمه. وقد كان ينفق على النّساخين

---

(١٧٧) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٢.

(١٧٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٧.

(١٧٩) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(١٨٠) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٥، ص ٤٦٧.

(١٨١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٦٩.

(١٨٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(١٨٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(١٨٤) المصدر نفسه، ص ٢١١.

(١٨٥) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

والمترجمين ما يقرب من ألفي دينار في الشهر[186]. ومن الأدباء المقرّبين إلى ابن الزيات الجاحظ عميد أدباء عصره، وقد أهدى إليه كتابه المشهور الحيوان فمنحه ابن الزيات خمسة آلاف دينار[187]. كما أهدى إليه أيضاً رسالة الحنين إلى الأوطان[188]. ويروي الجاحظ أنه قدَّم إلى ابن الزيات نسخة من كتاب سيبويه بخط الفرّاء ومقابلة الكسائي وتهذيب الجاحظ نفسه، اشتراها من ميراث الفراء، فقال له ابن الزيّات إن خزانتنا ليست خالية من هذا الكتاب، ولكن هذه أجلّ نسخة وأعزّها، وقد سُرّ بها[189].

إن انفاق هذا المبلغ الكبير من المال شهرياً على مكتبة محمد بن عبد الملك الزيّات يُستدل منها أنها كانت غنية بكتبها مفتوحة لمن يريد الانتفاع من كتبها من الدارسين وطلاب العلم.

هـ - خزانة بني موسى بن شاكر

اشتهر أبناء موسى بن شاكر بحب الكتب وجمعها. قال عنهم ابن النديم: «وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة»[190]. وأنهم كانوا ينفقون على المترجمين خمسمئة دينار في كل شهر[191]. فترجمت لهم كتب عديدة من اللغتين اليونانية والسريانية. وسبقت الإشارة في موضوع حركة الترجمة إلى بعض الكتب التي ترجمت لهم. ولذا فإن خزانة كتبهم كانت غنية بمحتوياتها من الكتب في مختلف صنوف العلوم. ولا بد أنهم كانوا يفتحون أبوابها للمطالعين والدارسين.

و - خزانة جعفر بن حمدان الموصلي

كان أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان المتوفى سنة ٣٢٣ من أبرز فقهاء مدينة الموصل وأدبائها في زمانه، متقدماً في الفقه والنحو، راوية للأخبار، عارفاً بالكلام والجدل،

---

(١٨٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٤.

(١٨٧) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٧٦.

(١٨٨) يوسف اليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ص ٦٦٧.

(١٨٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ١٣٣، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٨٥.

(١٩٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(١٩١) المصدر نفسه، ص ٣٥٤، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٠ - ٣١.

بصيراً بأحكام النجوم[١٩٢]. لـه مصنفات عدة في الفقه الشـافعي، وفي الأدب ونقد الشعـر، ذكر ابن النديم وياقوت الحموي بعضها[١٩٣]. وذكر ياقـوت أنه «كـانت له ببلده دار علم قـد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب لعلم لا يمنع أحد من دخولها، إذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان مُعسراً أعطاه وَرَقاً ووَرِقاً، تفتح في كل يوم»[١٩٤].

ز ـ خزانة اسحاق الموصلي

عُرف عن مغنّي الخلفاء إسحاق بن ابراهيم الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ ولعـه الشديـد بالكتب، وقد جمع لنفسه خزانة كتب كبيرة. يقول عنه ابن خلكان إنـه كان كثير الكتب، ونقل عن أبي العباس ثعلب النحـوي أنه قـال «رأيت لاسحاق الموصلي ألف جـزء من لغات العـرب وكلها بسماعه، وما رأيت اللغة في منزل احد قط أكثر منها في منزل اسحاق ثم منزل ابن الأعرابي»[١٩٥].

وقال الأصمعي: خرجت مع الرشيد إلى الرقّة فلقيت اسحاق الموصلي بهـا، فقلت له: هـل حملت شيئاً من كتبـك؟ فقال: حملت مـا خفّ. فقلت كم مقداره؟ فقـال: ثمانيـة عشر صنـدوقـاً. فعجبت وقلت: إذا كـان هـذا مـا خفّ فكم يكـون مـا ثقـل؟ فقـال: أضعـاف ذلك[١٩٦]. وكان أبو الحسن علي بن محمد المدائني الراوية المؤرخ مقيماً في بيت اسحاق مستفيداً من خزانة كتبه في الدرس والتأليف، وقد أدركته منيته وهو في بيت صديقه اسحاق[١٩٧].

وكان ممن يرتاد مجلس اسحاق ومكتبته من رجال اللغـة ابن الاعرابي، محمـد بن زياد، وقد أهدى اسحاق شيئاً من كتابه النوادر كتبه له بخطه، وقال عن داره: «هذه دار الـذي تأخـذ من ماله ومن أدبه»[١٩٨]. ويظهر أنه كان يستفيد ممـا في مكتبة اسحـاق من كتب اللغة والأدب ممـا لا تحتوي مكتبته. كما يظهر من ذلك أنها كانت مفتوحة الأبواب للآخرين من العلماء والأدبـاء والدارسين.

ح ـ خزانة الجاحظ

كان أبو عثمان الجاحظ، وهـو الأديب المبرز وصـاحب التصانيـف الكثيرة في كل علم وفن، وأكثر أدباء عصره اطلاعاً على أنواع المعـارف، من المولعـين بالمطالعة واقتنـاء الكتب. حتى قيل عنه: لم يُـرَ قط ولم يسمع من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فـإنه لم يقـع

---

(١٩٢) ابن النـديم، المصدر نفسه، ص ٢١٩، وياقـوت الحموي، إرشـاد الأريب إلى معـرفـة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٢، ص ٤١٩.

(١٩٣) ابن النديم، المصدر نفسه، وياقوت الحموي، المصدر نفسه.

(١٩٤) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢٠.

(١٩٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(١٩٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(١٩٧) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٠٩.

(١٩٨) أبـو الفرج عـلي بن الحسين الأصبهـاني، الأغاني (القـاهـرة: وزارة الثقـافـة والإرشـاد القـومي، [د.ت.])، ج ٥، ص ٢٧٤.

بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للمطالعة[199].

وروى أبو الفداء عن سبب موت الجاحظ أنه كان بوقوع مجلدات الكتب عليه، إذ اعتاد أن يصف كتبه قائمة محيطة به ويجلس إليها، وكان عليلاً فسقطت عليه فقتلته[200]. ومع أن هذا الخبر ينبغي أن يؤخذ بحذر، فإنه يمكن أن يستدل منه أن الجاحظ كانت له خزانة كتب خاصة به، تضم عدداً كبيراً من المجلدات في مختلف فروع المعرفة لا سيما الأدب وعلم الكلام، وبهما اشتهر الجاحظ، وأنها كانت من ينابيع علمه الغزير ومعرفته الواسعة التي تتمثل بما وصلنا من مصنفاته من الكتب والرسائل.

ط ـ خزانة الكندي

كان العالم الفيلسوف يعقوب بن اسحاق الكندي من مدمني الدرس والمطالعة وكانت له مكتبة خاصة فيها كتب في مختلف صنوف المعرفة من الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات والفلك وعلم النجوم، ناهيك عن مصنفاته التي زادت على ٢٧٠ كتاباً. وكان الكندي مقرّباً من خلفاء سامراء المعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله، مما كان يثير حسد الأخوين محمد وأحمد ابني موسى بن شاكر، فسعيا في الوشاية به لدى الخليفة المتوكل على الله المتقلّب المزاج. وأحسب أنهما اتهماه بالاعتزال فأوغرا صدر الخليفة عليه، فغضب عليه وأمر بضربه. فاغتنما الفرصة ووجها إلى داره من أخذ كتبه بأسرها، مما مكّنهما من الاستفادة مما فيها من الكتب الخاصة بالآلات المتحركة وهندسة حفر الأنهار. وكانا قد تعهدا للخليفة بحفر نهر الجعفري، إلا أنهما فشلا في اجراء الماء فيه. ولكي يأمنا غضب الخليفة استنجدا بالمهندس سند بن علي الذي كلفه المتوكل على الله بالكشف عن النهر وما إذا كان صالحاً. فكان من شروط سند بن علي لمساعدتهما أن يسعيا لدى الخليفة للعفو عن الكندي، وأن يردّا إليه مكتبته. فاستعاد الكندي المكتبة كاملة. ومما يدل على ضخامتها وكثرة كتبها أنها لما اصودرت أفردت لها خزانة خاصة سميت الكندية[201].

ي ـ خزانة الامام أحمد بن حنبل

كان للإمام احمد بن حنبل خزانة كتب خاصة به، حزرت يوم مات فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً. وروى ابنه صالح بن احمد أن الخليفة المتوكل على الله أمر ابن طاهر خليفته في

---

(١٩٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٥٦.

(٢٠٠) عماد الدين اسماعيل بن علي أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٤ ج في ٢ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٨٦٩)، ج ٢، ص ٤٧.

(٢٠١) الخبر مفصّل في: ابو جعفر احمد بن يوسف بن الداية، المكافأة، صحّحه وضبطه وشرحه احمد أمين وعلي الجارم (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤١)، ص ١٩٥ ـ ١٩٦، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

بغداد بتعزية ذوي الإمام لما توفي، ويأمره بحمل كتبه، إلا أنهم دافعوه فلم تخرج عن أيديهم[٢٠٢].

ك ـ خزانة ابن الأعرابي

وممن اشتهر بحب الكتب واقتنائها، اللغوي الراوية الشهير أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ . فقد بعث أحد أصدقائه غلامه إليه يسأله أن يجيء إليه، فعاد الغلام وقال: قد سألته المجيء فقال: عندي قوم من الأعراب فإذا انتهيت منهم أتيت. وقال الغلام: ولكنني لم أر أحداً عنده، إلا أني رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها، في هذا مرة وفي هذا مرة[٢٠٣]. وقد سبقت الاشارة إلى تعجب ثعلب النحوي من كثرة كتب اللغة في منزل اسحاق الموصلي وفي منزل ابن الاعرابي.

ولابن الاعرابي تصانيف عديدة في اللغة والأنساب والشعر، ذكر ابن النديم وياقوت الحموي وابن خلكان قسماً منها[٢٠٤].

ل ـ خزانة اسماعيل بن اسحاق

ومن الفقهاء الذين عرفوا بحب الكتب قراءة واقتناء قاضي بغداد بجانبيها اسماعيل بن اسحاق الأزدي المالكي المتوفى سنة ٢٨٢ . قال عنه أبو عفّان: «لم أر قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ. . . واسماعيل بن اسحاق القاضي، فإني ما دخلت عليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلّب كتباً أو ينفضها»[٢٠٥]. وكان قد جمع في داره خزانة كتب تطرق إليها غير واحد من المؤرخين[٢٠٦].

واسماعيل بن اسحاق من أصحاب مالك وهو الذي بسط الفقه المالكي ودعا الناس إليه ورغبهم فيه، وصنف فيه الكتب[٢٠٧].

م ـ خزانة ابراهيم الحربي

كان الفقيه المحدث ابراهيم بن اسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥ ممن عرف بحب الكتب وجمعها، وكان يضن بكتبه ويعتزّ بها. فقد عدم وعياله القوت يوماً ولم يسمح لنفسه

---

(٢٠٢) كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨)، ص ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢٠٣) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ٨.

(٢٠٤) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨ ـ ١٩ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٠٩، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٣٤.

(٢٠٥) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٥٦.

(٢٠٦) عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، ص ٢٠٧.

(٢٠٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٩٦.

ببيع شيء منها أو رهنه. وكان له بيت في دهليز داره فيه مكتبه، وفيه يجلس للنسخ والدرس[٢٠٨]. روى الخطيب البغدادي خبراً يؤكد حرص ابراهيم الحربي على كتبه وانه كان يعتبرها ثروة يتركها لأبنائه بعد موته أماناً لهم من الفقر، ولما شكت بنته الفقر، وهو على فراش الموت، قال لها من عنده هذه الكتب وكل جزء منها بدرهم، ومن كانت عنده اثنا عشر ألف درهم ليس بفقير[٢٠٩]. مما يدل على أنه كان فيها من كتب اللغة فقط مما خطه بيده اثنا عشر ألف جزء.

ن ـ خزانة ثعلب النحوي

كان لإمام النحويين الكوفيين أبي العباس أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٢٩١ مكتبة ثمينة، قال عنها السيوطي إنها تساوي مبلغاً كبيراً من المال[٢١٠]. وعندما حضرته الوفاة أوصى إلى علي بن محمد الكوفي وهو أحد تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن اسحاق القطربلي. فقال الزجاج للقاسم بن عبيد الله وكان جماعاً للكتب: هذه كتب جليلة فلا تفوتك، فاحضر خيران الورّاق فقوّم ما كان يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ٣٠٠ دينار، فأخذها القاسم[٢١١]. وأضافها إلى مكتبته الخاصة.

٣ ـ مكتبات خاصة أخرى لبعض الرجال والعلماء

هناك معلومات ونبذ متناثرة بين ثنايا الأخبار والروايات في المصادر التراثية عن بعض المكتبات الخاصة، نورد فيما يأتي ما تيسر لنا الاطلاع عليه، ومعرفة بعضها:

أ ـ يذكر ابن النديم في أخبار النحوي الزجّاج ابراهيم بن محمد خزانة كتب الخليفة المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩ وهو الخليفة الذي هجر سامراء وعاد إلى مدينة السلام في سنة ٢٧٩. وكان الزجاج قد فسّر جداول كتاب جامع النطق لمحمد بن يحيى بن أبي عباد الملقب بحبرة النديم، بناء على طلب الخليفة، وأمره بعمل البتاني، ففسّره كله، وكتبه بخط الترمذي الصغير أبي الحسن وجلّده، وحمله الوزير إلى المعتضد بالله فاستحسنه وأمر له بثلاثمئة دينار. ولم يخرج لما عمله الزجّاج نسخة إلى أحد إلاّ إلى خزانة المعتضد بالله[٢١٢].

---

(٢٠٨) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٣٩.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٣٣، وأبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩)، ج ٦، ص ٦.

(٢١٠) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، حققه محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢ ج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، ص ١٧٣.

(٢١١) أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على انباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ٤ ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٠ ـ ١٩٧٣)، ج ١، ص ١٤٥، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢١٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٦.

وقد عُرف عن المعتضد بالله حبّه للكتب، إذ كان يشجّع منادميه من الأدباء والعلماء والفلاسفة على أن يصنّفوا له كتباً في مواضيع معينة يسألهم عنها، فيودعها في خزانة كتبه. فقد صنّف له معلمه ونديمه الفيلسوف أبو العباس أحمد بن الطيب عدداً من الكتب منها[213]: كتاب اللهو والملاهي ونزهة المفكر الساهي في الغناء والمغنين والمجالسة وأنواع الأخبار والملح. وقال ابن الطيب إنه صنفه وقد مرّ له من العمر إحدى وستون سنة، وكتاب الطبيخ ألّفه على الشهور والأيام، وكتاب في أدب النفس. كما صنّف ثابت بن قرّة الفيلسوف الرياضي كتاباً في جزءين جواباً عن مسائل سأله عنها المعتضد بالله[214]. وصنف يحيى بن علي المنجم للمعتضد بالله رسالة في الموسيقى[215]. ويظهر أن يحيى كان قد استشار ثابت بن قرة في موضوع الرسالة، فأجابه بكتاب فيما سأله عن أبواب علم الموسيقى[216].

ب ـ يشير ابن خلكان إلى مكتبة خاصة بأحد وجهاء مدينة همذان. فقد قصد الشاعر أبو تمام الطائي عبد الله بن طاهر والي خراسان، وعند عودته وصل همذان، وكان الموسم شتاء والبرد بتلك النواحي شديد قارس، وقد قطعت الثلوج عليه طريق العودة، فنزل عند أحد وجهاء المدينة من العرب هو أبو الوفاء بن سلمة، فوجد في خزانة كتبه دواوين من الشعر الجاهلي والاسلامي، فعكف على دراستها وانتخب منها ما صنّف منه كتاب الحماسة[217].

ج ـ وكانت لحنين بن اسحاق الطبيب الحاذق والمترجم القدير خزانة كتب تضم الكتب التي تجشم الصعاب في رحلاته إلى بلدان مختلفة للحصول عليها. وهي من كتب الأقدمين في الطب والحكمة[218]. اضافة إلى مصنفاته العديدة، وما نقله إلى العربية والسريانية من اللغة اليونانية. وقد أشار بنفسه إلى مكتبته في مقالته في فهرست كتب جالينوس بقوله: «إن جميع ما كان يملكه من الكتب ذهب حتى لم يبق عنده منها ولا كتاب»[219]. كما ذكرها في رسالته التي ألفها فيما أصابه من المحن والشدائد من الذين ناصبوه العداء من أبناء صنعته في أيام المتوكل على الله، فغضب الخليفة عليه، فقال «ثم أمر ـ الخليفة ـ بإحضاري فأحضرت إليه... ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل وأثاث وكتب وما شاكل ذلك...»[220].

د ـ وكانت للعالم اللغوي ابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي المتوفى سنة ٣٢١

---

(٢١٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢١٤) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٨.

(٢١٥) عواد، خزائن الكتب القديمة في العراق، ص ١١٤.

(٢١٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٢١٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢١٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٣.

(٢١٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٦٢.

(٢٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

خزانة كتب ورد ذكرها في معجم الأدباء في سيرة علي بن أحمد الدريدي، وهو ورّاق ابن دريد، إذ يقول: «وإليه صارت كتب ابن دريد بعد موته»[٢٢١] وكان أحمد الدريدي أبو علي المذكور أحد تلاميذ ابن دريد وخصيصاً به[٢٢٢].

هـ ـ كما كان لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ مكتبة عامرة تشغل بيتاً كاملاً، أشار إليها ابن الجوزي وأبو البركات الأنباري، فقد ذكرا «أن أبا بكر الأنباري مرض فدخل عليه أصحابه يعودونه، فرأوا من انزعاج والده وقلقه عليه أمراً عظيماً، فطيبوا نفسه ورجوا عافية أبي بكر، فقال لهم: كيف لا أنزعج وأقلق لعلّة من يحفظ جميع ما ترون وأشار إلى حيري مملوء كتباً»[٢٢٣]. والحيري هو البيت المشيد على الطراز الحيري الذي كان قد أحدثه المتوكل على الله، نسبة إلى مدينة الحيرة، وبنى الناس جميعاً بسامراء هذا البناء[٢٢٤].

و ـ وممن كانت له خزانة كتب خاصة، القاسم بن عبيد الله بن سليمان وزير الخليفة المعتضد بالله وابنه المكتفي بالله. ويستنتج ذلك مما ورد في ترجمة ثعلب النحوي أحمد بن يحيى في معجم الأدباء من أن الوزير القاسم المذكور كان قد اشترى كتب ثعلب بعد وفاته بثمن بخس، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك عند الكلام على خزانة كتب ثعلب.

ز ـ وجاء في مخطوطة تاريخ أصبهان لأبي نعيم، إنه توفي في سنة ٢٧٢ أحد علماء اصبهان، وكانت له خزانة كتب، يقال إنه انفق في شراء كتبه ثلاثمئة ألف درهم[٢٢٥].

ح ـ ذكر ابن خلكان عن المحدث الكبير يحيى بن معين، المتوفى سنة ٢٣٣ انه قال: كتبت بيدي هذه ستمئة ألف حديث. وسواء كتبها بنفسه كلها أم عاونه طلابه وأصحابه في كتابتها، فهي مما يملأ عدة خزائن، ويقول عنه: وخلّف من الكتب مئة قمطر وأربع حباب شرابية مملوءة كتباً[٢٢٦]، مما نستطيع معه أن نقول إن له خزانة كتب خاصة من القماطر والحباب.

ط ـ ومّما له علاقة بحب الكتب واقتنائها ما ذكره أبو المحاسن عن أبي داود السجستاني سليمان بن الأشعث الأزدي، المتوفى سنة ٢٧٥ إمام أهل الحديث في زمانه، قال: «وكان له كم

---

(٢٢١) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٥، ص ٨١.

(٢٢٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٧.

(٢٢٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٦، ص ٣١٢، وأبو البركات عبد الرحمن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، تحقيق عطية عامر (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٣)، ص ٢٧١.

(٢٢٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٣٦٩، وأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢)، ص ٣٢.

(٢٢٥) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، ج ١، ص ٢٨٩.

(٢٢٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٥، ص ١٩٠.

واسع وكم ضيق، فقيل له في ذلك، فقال: الواسع للكتب والآخر لا احتاج إليه»[٢٢٧]. وهو يعطينا دلالة على حبه للكتب وأنه لا يكاد يفارقها، ويستنتج منه كذلك أنه كانت له خزانة عامرة بالكتب.

٤ ـ مكتبات الجوامع

لم يقتصر وجود خزائن الكتب على العلماء ورجال الدولة ممن يعنون بالعلوم والآداب أمثال من ذكرناهم فيما تقدم، بل إن أغلب الجوامع كانت لها مكتباتها الخاصة بها، يستفيد منها طلاب العلم والمعرفة. فقد كان من المألوف أن كل جامع كبير يكون من مكملاته خزانة كتب تحتوي على كتب مختلفة وبخاصة ما يتعلق بالعلوم الدينية كالتفسير والحديث والقراءات والفقه، والعلوم اللغوية. وهي تفتح للمطالعة والاستنساخ. كما كانت مكتبات الجوامع تتخذ مجتمعاً للعلماء وطلاب العلم يتدارسون فيه ويتداولون في المسائل العلمية[٢٢٨]. وكانت مكتبات الجوامع تتسع وتزداد كتبها بما يقفه عليها العلماء والأثرياء من كتبهم وأموالهم. وقد عدد الأستاذ ناجي معروف عدداً من العلماء والأعيان ممن أوقفوا خزانة كتبهم في خلال القرون التالية[٢٢٩]. ولا شك في أن هذا التبرع نشأ بنشوء المساجد والجوامع. ولذا فمن الطبيعي أن تكون مكتبات الجوامع عامرة بالكتب المختلفة في القرن الثالث.

وهنالك اشارة صريحة إلى وجود مكتبة في جامع القيروان. إذ كان يوجد في إحدى حجرات الجامع المذكور مكتبة أنشئت في عهد الأغالبة، وكانت حافلة بالمصنفات القيمة، دامت العناية بها إلى القرن الخامس، وقد أوقف عليها الأمراء والأعيان وسائر الناس كتباً جليلة عديدة ما بين مصاحف مزخرفة، وتصانيف من أمهات كتب الفقه والحديث واللغة والأدب[٢٣٠].

٥ ـ بيت الحكمة في رقّادة

ومما يجدر ذكره أن بعض أمراء بني الأغلب في افريقيا (تونس) كانوا يرعون العلماء ويهتمون بنشر العلم وتوسيع آفاقه. وقد تميّز الأمير ابراهيم الثاني الذي تولى الامارة سنة ٢٦١ بميله إلى العلوم الفلكية والحكمية، فوجه عناية خاصة لتشجيع الحركة العلمية في امارته، توّجها بتأسيس «بيت الحكمة» على غرار بيت الحكمة ببغداد. فقد بنى مدينة رقّادة واتخذها

(٢٢٧) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، [د.ت.])، ج ٣، ص ٧٣.

(٢٢٨) أحمد امين، ظهر الإسلام، ط ٣، ٤ ج (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢)، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢٢٩) ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ط ٢ (بغداد: مطبعة التضامن، ١٩٤٩)، ص ٤٠٧.

(٢٣٠) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية (تونس: مطبعة المنار، ١٩٦٤)، ص ١١٤.

عاصمة له في سنة ٢٦٤، وكان من أهم منشآته فيها انشاؤه بيت الحكمة، واتخذ له قيمين مرتبين للقيام بمختلف شؤونه، يدعى رئيسهم صاحب بيت الحكمة، وكان ممن تولى هذا المنصب أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني الأديب الرياضي البغدادي الأصل.

وكان في البيت المذكور مكتبة غنية بما تحتويه من الكتب في سائر العلوم والفنون، وقد جُلب أكثرها من المشرق وبخاصة من بغداد. وكانت تفتح للمطالعة والدرس، ويسمح بنسخ الكتب المتوفرة فيها، إذ رخص للنسّاخ أن يحلوا في أماكن معدة لهم، سواء كانوا ينسخون لأنفسهم أو لغيرهم بالأجرة.

كما كان في بيت الحكمة هذا قسم خاص بعلم الفلك وفيه الآلات الفلكية اللازمة لرصد الكواكب، وتحقيق الأوقات، وضبط الأطوال والعروض، كالاصطرلابات والمقنطرات وغيرها من العدد التي تستعمل في الفلك والتنجيم.

وهناك من يرجح أنه كان في بيت الحكمة برقّادة قسم خاص بالترجمة، نقلت فيه بعض الكتب من اللغة اللاتينية.

ولما كان من عادة أمراء بني الأغلب أن يبعثوا في كل عام إلى عاصمة الدولة العربية، عندما كانت في سامراء وبعد عودتها إلى بغداد، وفداً لتأكيد ولائهم للخليفة، فقد كان ابراهيم الثاني يكلّف هذه الوفود بجلب بعض العلماء البارزين في سائر العلوم وشراء نسخ من الكتب العلمية ولا سيما المؤلفات والمترجمات في الحكمة والرياضيات، وذلك لمكتبة بيت الحكمة، ولأقسام البيت الأخرى.

ولشغف ابراهيم الثاني بالمكتبة المشار إليها وحرصه على أن تكون فيها نفائس الكتب وأصحها، فقد كان يدعو إلى رقّادة بعض علماء القيروان وتونس من المبرزين في اللغة والنحو، ويبقيهم في ضيافته مدة لتصحيح مخطوطات المكتبة وضبط شكلها وتفسير مفرداتها.

وظل بيت الحكمة في رقادة قائماً حتى سقوط امارة بني الاغلب بيد الفاطميين في عام ٢٩٦ فتوقفت رسالته الثقافية. إلا أن آثاره في الحركة العلمية استمرت مدة طويلة بعد ذلك، لأن الكثير من علمائه والباحثين فيه تفرقوا في أنحاء المدن الافريقية حاملين معهم شعلة العلم والمعرفة[٢٣١].

(٢٣١) حول بيت الحكمة في رقادة، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ و٢٢٨ - ٢٢٩.

الفصل السادس

اللغة العربية وآدابها

أولاً: اللغة والنحو وأشهر رجالها

عندما حلّ القرن الثالث كان للنحو مدرستان: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، ولكل منها رأيها في النحو وطريقة تخريجه، ولكلّ رأي أتباعه وأشياعه. وكان النحو في المدرستين يقوم على دراسات واصطلاحات في التصريف والاشتقاق والإعراب، وما يتعلق بالبناء العام للكلمة، وعرض بعض المظاهر اللغوية التي تبنى على ما للأصوات من خصائص عند تأليفها مع بعضها البعض في ثنايا الكلمات، كالإدغام والإمالة والإبدال وغيرها. فكان لكل كلمة أو جملة على رأي أهل البصرة أسس عقلية او منطقية تقوم عليها من حيث صورها وموقعها في الكلام، وقواعد عامة تربط بين اللفظ والمعنى. وقد اعتبرت هذه الأسس والقواعد أصول اللغة التي يجب التقيد بها وعدم التساهل بالخروج عليها ولو كان بالقياس على غرارها، وأن كل ما يخرج عنها يعتبر شاذاً، وهو مذهب محافظ متشدد أقرب إلى الجمود.

وعلى النقيض من هذا، أخذت مدرسة الكوفة بقاعدة القياس واعتبار الشذوذ عن الأصل قاعدة جديدة قائمة بذاتها يُبنى عليها ويقاس على غرارها، فنشأت بذلك أحكام وقواعد خاصة وتعدُّد في الأوزان مما جعل مذهب الكوفيين حراً متطوراً. وأقدم كتاب في النحو البصري هو كتاب سيبويه، وهو مزيج من النحو بمعناه الخاص ومجموعة من الدراسات اللغوية. أما مصنفات الكوفيين فلم تكن نحوية خالصة بالمعنى الاصطلاحي، ففيها روايات في القراءات ومعاني القرآن، ونوادر أدبية، وألفاظ غريبة. ومن الواضح أن المدرستين لم تكونا نحويتين خالصتين بل تشوبهما دراسات لغوية عند البصريين، ومواضيع مختلفة عند الكوفيين[1].

(١) مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو (بغداد: دار المعرفة، ١٩٥٥)، ص ١٩٣ - ١٩٤.

ومع أن مدرسة البصرة أقدم عهداً ورسوخاً، فقد ظهرت عليها مدرسة الكوفة بسبب مناصرة خلفاء بغداد وسامراء وتفضيلهم مشايخ الكوفة على علماء البصرة، واتخاذ مؤدبي أولادهم منهم.

واعتبر متتبعو حركة اللغة والنحو في هذا القرن كلاً من صالح الجرمي وأبي عثمان المازني نهاية لطبقة من النحويين البصريين هي الطبقة الخامسة، واعتبروا محمد بن يزيد المبرِّد إمام الطبقة السادسة. كما اعتبروا ابن الأعرابي وابن السِكِّيت نهاية الطبقة الثالثة من النحويين الكوفيين، وأحمد بن يحيى المعروف بثعلب إمام الطبقة التالية منهم(٢). وكان ثعلب الذي آلت إليه زعامة النحويين الكوفيين كثير الحفظ واسع الرواية في اللغة والنحو والأدب والقراءات، يملي دروسه في مجالسه التي يعقدها لطلابه وأصحابه، ويجيب عن أسئلتهم معتمداً على رواية ما يحفظ عن الكسائي والفرّاء، ولم يكن يُعنى بالقياس أو باستخراج العلل. وإذا ما سئل عن مسألة نحوية أو لغوية راح يبحث الجواب عنها في ما حفظه عن شيوخه، وإذا ما طُلب إليه بيان حجته لم يأتِ بشيء(٣). فلم يكن مبتكراً مبدعاً، ومن ثم لم يكن له أثر في توسيع المذهب الكوفي في النحو أو تهذيب طريقته، وإنما كان له فضل استمرار الترويج له وحسب. أما المبرِّد فكان مع اعتماده على الرواية، يأخذ بأساليب الجدل النظري ويفلسف المسائل ويعلّلها حتى يستخرج الأوجه المطلوبة، فينتزع حكم المستمعين بصحة ما يقول، إعجاباً منهم بتصريفه الكلام(٤). وكان هذا من أهم أسباب المنافسة التي قامت بين ثعلب والمبرّد. ومع هذا الاختلاف بينهما فإنهما التزما منهجاً واحداً يقوم على المحافظة على التراث دون أي تغيير أو اضافة أو تجديد فأنهيا بالتزامهما هذا الاجتهاد الذي كان أبرز صفات شيوخ الطبقات المتقدمة في المدرستين.

لقد كان من نتائج هذا الجمود والمنافسة بين المدرستين أن ظهرت مدرسة جديدة في النحو تجمع بين مزاياهما، ولا تتعصب لإحداهما على الأخرى. وأخذ طلاب النحو من البصرة والكوفة يرحلون إلى بغداد لدراسة النحو فيها. ويعتبر ابن قتيبة، وأبو حنيفة الدينوري وأبو الهيذام العقيلي وابن كيسان محمد بن أحمد أبرز من يمثّل هذا الاتجاه، وقد خلطوا المذهبين النحويين ونجحوا في التوفيق بينهما(٥).

وقد اشتهر في هذا القرن عدد كبير من رجال اللغة والنحو من الكوفيين والبصريين

---

(٢) أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض صنعة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥)، ص ٧.

(٣) أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٠ ـ ١٩٧٣)، ص ١٤٤.

(٤) المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ص ١٨٣.

(٥) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ١٢١ ـ ١٢٢، ١٢٨ و١٢٦ على التوالي.

وممن خلطوا المذهبين، وستتعرف في ما يأتي إلى بعض البارزين منهم وعلى جهودهم ومصنفاتهم، لنتبين تأثيرهم في سير الحركة اللغوية والنحوية، في خلاله.

١ ـ صالح الجَرْمي

أبو عمر صالح بن اسحاق الجرمي النحوي، لقب بالجرمي لأنه كان مولى لجرم بن ربّان، وجرم قبيلة من قبائل اليمن، وقيل إنه مولى بجيلة لأنه يلقب بالبجلي أحياناً، وفي بجيلة جوم بن علقمة بن أنمار[٦]. ويقال إنه لقّب بالجرمي لأنه نزل في قبيلة جرم، وهذه النسبة إلى عدة قبائل كل واحدة منها يقال لها جرم، ولا يعرف إلى أيها ينسب أبو عمر المذكور[٧]. كان الجرمي عالماً بالنحو واللغة، نشأ في البصرة وقدم بغداد، وأخذ النحو عن أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط، وقرأ عليه كتاب سيبويه، كما أخذ اللغة عن الأصمعي وأبي عبيدة ولم يلقَ سيبويه[٨]. وكان رفيقاً لأبي عثمان المازني وأخذ عنه أيضاً، وإليه انتهى علم العربية في وقته[٩]. ويقول عنه ابن العماد إنه كان ورعاً، نبيلاً، ورأساً في اللغة، نال بالأسلوب دنيا عريضة[١٠].

وللجرمي عدد من الكتب في اللغة والنحو ذكر صاحب الفهرست ثمانية منها هي: كتاب القوافي، وكتاب التثنية والجمع، وكتاب الفرخ ـ أي فرخ كتاب سيبويه، وكتاب العروض، وكتاب مختصر نحو المتعلمين، وكتاب تفسير غريب كتاب سيبويه، وكتاب الأبنية والتصريف، ويضيف صاحب هدية العارفين: شرح كتاب العين، ومقدمة في النحو، والتنبيه في النحو، ويقول الخطيب البغدادي: وله كتب انفرد بها[١١].

---

(٦) المصدر نفسه، ص ١٩٠؛ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د. ت.])، ج ٩، ص ٣١٤، وشمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥١)، ج ٢، ص ١٧٩.

(٧) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٩، وجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، [د. ت.])، ج ٢، ص ٢٤٣.

(٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٩، ص ٣١٤، والسيرافي، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض صنعة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، ص ٥٦.

(٩) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦)، ج ٤، ص ٢٦٨.

(١٠) أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢ ج (القاهرة: المكتبة التجارية للطباعة والنشر، [د. ت.])، ج ٢، ص ٥٧.

(١١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٩٠ اسماعيل بن محمد أمين البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ ج (استانبول: وكالة =

ومن المتفق عليه أن الجرمي توفي سنة ٢٢٥[١٢].

٢ ـ ابن الأعرابي

أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي المعروف بابن الأعرابي، كان أبوه سندياً مولى للعباس بن محمد بن علي، وقد توفي أبوه وهو طفل صغير فنشأ في رعاية زوج أمه المفضل بن محمد الضبيّ صاحب المفضليات. فكان الضبي معلمه الأول، وعنه أخذ الأدب. كما أخذ عن الكسائي كتاب النوادر، ودرس على أبي معاوية الضرير والقاسم بن معن. فأصبح راوية لأشعار العرب، عالماً باللغة وأصولها ولا سيما الغريب منها، وبأنساب القبائل. وكان أحفظ الناس للغات القبائل وأيام العرب وأنسابهم، حتى قيل إن علم اللغة والحفظ انتهى إلى ابن الاعرابي، وقد خطّأ كثيراً من نقلة اللغة، وقال في كلمة رويت عن الأصمعي: سمعت من ابن الأعرابي خلاف ما قاله الأصمعي، وزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يعرفان من اللغة لا قليلاً ولا كثيراً[١٣].

ويعتبر ابراهيم الحربي وأبو العباس ثعلب وابن السكّيت من أبرز من درس على ابن الأعرابي وأخذ عنه، وقد لزمه ثعلب مدة طويلة وروى عنه كثيراً، وقال عنه: لقد أملى على الناس ما يُحمل على أجمال ولم يُر في الشعر أغزر منه. وقال عنه كذلك: كان يحضر مجلسه زهاء مئة انسان وكان يُسأل ويُقرأ عليه، فيجيب من غير كتاب. ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط[١٤]. وقال عنه محمد بن الفضل الشعراني: لم يبن رأس في فن من الفنون أكبر من ابن الأعرابي، فإنه رأس في كلام العرب[١٥].

وكان الخليفة الواثق بالله يستدعيه إلى مجلسه في سامراء ليستأنس بآرائه ويحتكم إليه في ما ينشب من خلاف في المسائل اللغوية والأدبية، ويصله ويكرمه، رغم أنه كان يناهض

= المعارف العامة، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٤٢٢، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٩، ص ٣١٤.

(١٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٧٨؛ أبو الحسن علي بن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٣ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧)، ج ٦، ص ٥١٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٤٣.

(١٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٢؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ٥، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٣٣.

(١٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٠٨ ـ ١٠٩، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٣٣.

(١٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٨٣، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٥ ـ ٦.

الدعوة إلى القول بخلق القرآن. ورُوي عنه أنه قال: ما رأيت قوماً أكذب على اللغة من قوم يزعمون أن القرآن مخلوق[16].

وكان ابن الأعرابي مع سعة علمه كثير الدرس والتتبع. فقد بعث إليه أحد أصحابه غلامه يسأله المجيء إليه، فعاد الغلام وقال: قد سألته المجيء فقال لي عندي قوم من الأعراب فإذا قضيت أربي معهم أتيت. قال الغلام: ولكنني لم أر عنده أحداً، إلا أني رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها. ثم ما لبث ابن الاعرابي أن أقبل، فسأله صاحبه عمن كان عنده من الأعراب، فأنشد:

لنا جُلساءُ ما نَملُّ حديثَهم ... ألبّاءُ مأمونون غيباً ومَشْهَدا
يُفيدوننا من عِلمِهم علمَ ما مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مُسَدَّدا
فلا فتنةٌ نخشى ولا سوءَ عِشرةٍ ... ولا نتَّقي منهم لِساناً ولا يَدا
فإنْ قلتَ أمواتٌ فما أنتَ كاذبٌ ... وإنْ قلتَ أحياءٌ فلستَ مُفنَّدا

وقد اشتغل ابن الأعرابي بالتعليم وكان إيراده كل شهر ألف درهم ينفقها على أهله وإخوانه. وله تصانيف عديدة ذكرها ياقوت الحموي، والكتب اللغوية منها: كتاب النوادر، وكتاب الأنواء، وكتاب صفة النخل، وكتاب الزرع، وكتاب النبت والبقل، وكتاب نسب الخيل، وكتاب تفسير الأمثال، وكتاب النبات، وكتاب معاني الشعر، وكتاب صفة الدِّرع، وكتاب الألفاظ. وعدَّد ابن خلكان له الكتب نفسها[17].

توفِّي ابن الأعرابي في شعبان سنة ٢٣١ بسرَّ من رأى، على عهد الواثق بالله، وقد جاوز الحادية والثمانين من عمره ببضعة أشهر، وصلّى عليه القاضي أحمد بن أبي دؤاد[18].

٣ ـ أحمد بن حاتم الباهلي

أبو نصر، ويكنى أحياناً بأبي محمد، ولد بالبصرة وبها نشأ. صاحب الأصمعي عبد الملك بن قُريب الباهلي ودرس عليه وروى عنه كتبه في اللغة والأدب، ويقال إنه ابن أخته[19]. وحكي عن الأصمعي أنه كان يقول: ليس يصدق عليَّ أحد إلا أبو نصر[20]. وكان

---

(١٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨.

(١٧) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٨ ـ ٩، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٣٤.

(١٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨)، ج ٩، ص ١٤٥؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٠٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ٢٨٥، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩، وجاء فيه: يقال أنه توفي سنة ٢٣٠ وقيل سنة ٢٣٢.

(١٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٦.

(٢٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٤.

أبو نصر سكن بغداد مدة ونسب إليها، ثم انتقل عنها إلى سرَّ من رأى.

يروي ياقوت الحموي ما يدل على سعة اطلاع أبي نصر على الشعر العربي وعمق معرفته به أن ثعلباً قال: دخلت على يعقوب بن السكّيت، فقال لي: يا أبا العباس سر معي إلى أبي نصر صاحب الأصمعي، لأني سألته عن بيت شعر فأجابني جواباً لم ارضه، فقلت له: لا تفعل، فإن عنده أجوبة عديدة وقد أجابك ببعضها. فلما دخلنا عليه وسأله عن البيت المذكور، أجابه بخشونة: عندي عشرون جواباً في هذا. فخجل ابن السّكيت وخرجنا، فقلت له: لا مقام لك ها هنا اخرج إلى سرَّ من رأى واكتب إلي بما تحتاج إليه لأسأله عنه وأعرِّفك إياه[21]. كما يروي خبراً آخر يدل على أن أبا نصر كان راوية الأصمعي المعتمد، لأنه قرأ عليه الشعر الجاهلي والاسلامي، وكانت له مصنفاته كلها[22].

ولأبي نصر عديد من التصانيف اللغوية ذكر ابن النديم منها: كتاب الشجر والنبات، وكتاب اللبأ واللبن، وكتاب الإبل، وكتاب أبيات المعاني، وكتاب اشتقاق الأسماء، وكتاب الزرع والنخل، وكتاب الطير، وكتاب الخيل، وكتاب ما يلحن فيه العامة، وكتاب الجراد[23].

توفي أبو نصر في سنة ٢٣١ وله نيف وسبعون سنة[24].

٤ ـ أبو عثمان المازني

هو بكر بن محمد بن عثمان بن حبيب المازني النحوي البصري[25]، من بني مازن بن شيبان. ولد بالبصرة وبها نشأ وعاش. ودرس على الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري، وتفوّق على أقرانه بحيث لم يكن بعد سيبويه أعلم منه بالنحو، واعتبر إمام عصره في النحو والأدب. وأشهر من أخذ عنه أبو العباس المبرِّد، وله عنه روايات كثيرة. وقد ورد أبو عثمان بغداد في أيام المعتصم بالله وروى عنه بعض علمائها[26]. وكان أبو عثمان إمامياً متكلّماً لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته في علم الكلام[27]. وقال عنه القاضي بكّار بن قتيبة: ما رأيت

---

(٢١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٦.

(٢٢) الخبر مفصّل في: المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٨٩.

(٢٤) المصدر نفسه؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٤، ص ١١٤، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٦.

(٢٥) جاء في: الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩٣، أن اسمه بكر بن محمد بن بقيّة، وقيل بكر بن محمد بن عدي:

(٢٦) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩٣.

(٢٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨١.

نحوياً قط يشبه الفقهاء إلا حيان بن هرمة، والمازني، ويعني أبا عثمان الذي كان في غاية الورع[28].

روى المبرّد أن رجلاً من أهل الذمة قصد أبا عثمان المازني ليقرأ عليه كتاب سيبويه وبذل له مئة دينار في تدريسه إياه، فامتنع عن ذلك، فقلت له: جُعلت فداك أتردّ هذه المنفعة مع فاقتك وشدة إضاقتك؟ فقال: إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمئة وكذا كذا آية من كتاب الله عزّ وجل، ولست أرى أن أمكّن منها ذمياً، غيرة على كتاب الله وحمية له[29]. وعندما استدعاه الخليفة الواثق بالله إلى سرّ من رأى ليسأله في قضية نحوية عاد منها وقد وصله بألف دينار، قال للمبرد: كيف رأيت يا أبا العباس، رددنا لله مئة دينار، فعوّضنا ألفاً[30]. وكان الواثق بالله قد أمر له بمئة دينار في كل شهر يجريها عليه والي البصرة إلى أن مات الخليفة فقُطعت عنه[31].

قال أبو عثمان المازني، سألني الواثق بالله كيف يُنسب رجل إلى سُرّ من رأى؟ فقلت: سُرّي، يا أمير المؤمنين، انسب إلى أول الحرفين، كما قالوا في النسبة إلى تأبط شراً، تأبطي[32].

وروي عنه انه قال: قرأ عليّ رجل كتاب سيبويه في مدة طويلة، فلما بلغ آخره قال لي: أما أنت فجزاك الله خيراً، وأما أنا فما فهمت منه حرفاً[33]. ولأبي عثمان رأي يفضّل فيه الفقه ورواية الأخبار على بقية العلوم، فهو يقول: «أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف، وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة، والشعراء فيهم هوج، وأصحاب النحو فيهم ثقل، وفي رواية الأخبار الظرف كله، والعلم هو الفقه»[34].

ولأبي عثمان المازني عدد من المصنفات في الأدب واللغة والشعر، ذكر ابن النديم منها: كتاب ما يلحن فيه العامة، وكتاب الألف واللام، وكتاب التصريف، وكتاب العروض،

---

(٢٨) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٨٤، والخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩٤، وفيه حبّان بن الهلال.

(٢٩) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٥، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٣٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٤، وأبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، الأغاني (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، [د.ت.])، ج ٩، ص ٢٣٦.

(٣٢) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ٥ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٧٥)، ج ٣، ص ٢١٥.

(٣٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٢، ص ٣٨٨، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، حقّقه محمد أبو الفضل ابراهيم، ٢ ج (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٤ - ١٩٦٥)، ج ١، ص ٤٦٥.

وكتاب القوافي، وكتاب الديباج على خلل من كتاب أبي عبيدة[٣٥]. ويضيف ياقوت الحموي، كتاب علل النحو، وكتاب تفاسير كتاب سيبويه، ويذكر كتاب الديباج كالآتي: الديباج في جوامع كتاب سيبويه[٣٦].

توفي المازني في البصرة في سنة ٢٤٧ على ما يذكر ابن الأثير وأبو المحاسن، أما ياقوت الحموي وابن خلكان والخطيب البغدادي فيرون أنه توفي سنة ٢٤٨ أو سنة ٢٤٩[٣٧].

٥ ـ ابن السِّكِّيت

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق السكّيت، ولقّب بالسكّيت لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت[٣٨]. وكان يعقوب يؤدب مع أبيه الصبيان في درب القنطرة بمدينة السلام، فتاق إلى العلم فدرس اللغة والنحو. وشجّعه أبوه على الدرس لأنه كان هو من تلاميذ الكسائي، حسن المعرفة بالعربية، وعندما حجّ سأل المولى تعالى أن يعلّم ابنه النحو[٣٩]. فدرس يعقوب على أبي عبيدة والفرّاء وابن الأعرابي ومن في طبقتهم من رجال اللغة والنحو، حتى غدا راوية ثقة، عالماً بالقرآن، ونحو الكوفيين، ومن أعلم الناس باللغة والشعر، بحيث لم يكن بعد ابن الأعرابي أحد مثله[٤٠]. قال عنه ثعلب إنه حسن المعرفة بالعربية، وقد أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكّيت[٤١].

بقي يعقوب يعلّم الفتيان من أهل القنطرة بأجر زهيد حتى اتّخذه محمد بن عبد الله والي بغداد مؤدّباً لولده وجعل له رزقاً قدره خمسمئة درهم في الشهر، ثم زاده إلى ألف درهم[٤٢]. ثم خرج يعقوب إلى سامراء، واتصل بعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله، فصيّره إلى الخليفة الذي أعجب بعلمه وأدبه فضمّ إليه ولده ليؤدبهم، وأسنى له

---

(٣٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩١.

(٣٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٨١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١١٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٣٢٦، إلا أنه يعود فيذكره في وفيات سنة ٢٤٨، ص ٣٢٩؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٧، ص ٢٤، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤٤.

(٣٩) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤١، والخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٧٣.

(٤٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٣٨؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ٣٠١، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٤١) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤١.

(٤٢) المصدر نفسه، وأبو البركات عبد الرحمن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، تحقيق عطية عامر (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٣)، ص ١١٠.

الرزق، ودعاه إلى منادمته[43]. إلا أن المتوكل على الله ما لبث أن غضب عليه فأمر بقتله. وقد اختُلف في سبب غضبه عليه، وهناك قولان في ذلك ذكرهما ابن الأنباري وابن خلكان[44].

كما اختُلف في سنة وفاته، وهي بين سنتي ٢٤٣ و٢٤٦[45]. ولابن السّكيت مصنفات عديدة، ذكر ابن النديم منها نيفاً وعشرين كتاباً، وكان أكثرها شهرة كتاب **إصلاح المنطق** الذي قال عنه المبرّد: ما رأيت للبغداديين كتاباً خيراً من كتاب يعقوب بن السكّيت في المنطق[46]. وأغلب الكتب التي ذكرها ابن النديم في اللغة والأدب، منها: كتاب **الألفاظ**، وكتاب **الأمثال**، وكتاب **القلب والإبدال**، وكتاب **المقصور والممدود**، وكتاب **المذكّر والمؤنث**، وكتاب **الأضداد**، وكتاب **النبات والشجر**، وكتاب **الإبل**، وكتاب **معاني الشعر**، وكتاب **سرقات الشعراء**[47].

٦ - ابن حبيب

أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو، ويقال إن حبيباً اسم أمه إذ لم يُعرف أبوه فنُسب إليها، وهو وأمه من موالي بني العباس، وكان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر، وكتبه صحيحة وروايته موثّقة، وقد أخذ عن ابن الأعرابي وقطرب وأبي عبيدة وغيرهم، وكان مؤدِّباً يعلِّم الصبيان في مكتب له[48]. وهناك من يقول بأن حبيباً اسم أبيه، وهو ولد مُلاعنة[49].

اشتهر ابن حبيب بكتابه **المُحبَّر** وهو من أمهات كتب اللغة والأخبار، وإليه ينسب مؤلفه أحياناً فيقال له المحبّري[50]. وقد ذكر له ابن النديم ما ينيف على ثلاثين كتاباً من تواليفه، ومن كتبه في اللغة والأدب: كتاب **الموشّى**، وكتاب **النبات**، وكتاب **الأنواء**، وكتاب **الخيل**، وكتاب **أخبار الشعراء وطبقاتهم**، وكتاب **المؤتلف والمختلف**، وكتاب **الشعراء**

---

(٤٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٤، ص ٢٧٠؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ٣٠١، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤٣.

(٤٤) ابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ١١١، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤٣.

(٤٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١١٤؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٧٤، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤٣.

(٤٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٧٤، وابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٤٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٦١؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٨، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

(٤٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٥٠) خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٢، ١٠ ج في ٥ (القاهرة: مطبعة كوستا توماس، ١٩٥٤ - ١٩٥٥)، ج ٦، ص ٣٠٧.

وأنسابهم[51]. ويضيف ياقوت الحموي عدداً آخر من الكتب صنّفها محمد بن حبيب وهي في أشعار العرب، منها: ديوان زفر بن الحارث، وكتاب شعر الأقيشر، وكتاب شعر لبيد العامري[52].

نُقل عن ثعلب قوله: «حضرت مجلس ابن حبيب فلم يُمل فقلت ويحك أمل ما لك! فلم يفعل حتى قمت، وكان والله حافظاً صدوقاً، وكان يعقوب أعلم منه، وكان هو أحفظ للأنساب والأخبار منه، وهو بغدادي»[53].

ولعل تسمية حبيب بأمه جعلته يهتم بأمثاله ممن نسب إلى أمه من الشعراء، فوضع بذلك كتاباً سمّاه كتاب من نُسب إلى أمه من الشعراء تضمن تسعة وثلاثين شاعراً وأكثرهم ممن لم يعرف اسم أبيه، وبعضهم نُسب إلى أمه رغم أن أباه معروف. ووضع كتاباً آخر بعنوان ألقاب الشعراء ومن يُعرف منهم بأمه. وقد حقق الكتابين الأستاذ عبد السلام هارون ونشر الأول ضمن المجموعة الأولى من كتاب نوادر المخطوطات ١ - ٤ الذي طبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م. ونشر الثاني ضمن المجموعة الخامسة من الكتاب المذكور وقد طبع في المطبعة نفسها، سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

مات محمد بن حبيب بسامراء في ذي الحجة سنة ٢٤٥ في أيام المتوكل على الله[54].

٧ - ابن قتيبة

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوَري، اختلفت المصادر في مسقط رأسه، وهو ولد بالكوفة أو ببغداد[55]. ومهما كان الأمر، فإنه نشأ ببغداد وبها سكن وعلى رجالها تلقّى علومه، فكان واسع المعرفة متعدد المواهب. وقد لقب بالدينوري لأنه ولي القضاء بمدينة الدينوَر بإقليم الجبَل فنسب إليها[56].

يعتبر ابن قتيبة من أئمة اللغة والأدب والأخبار. درس على شيوخ عصره في الحديث واللغة والأدب أمثال العالم اللغوي الراوية ابراهيم بن سفيان الزيادي، وأبي حاتم السجستاني

(٥١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٦١.

(٥٢) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٤٧٦.

(٥٣) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٧٥.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٧٣، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٥٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٢١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٤٦، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ١٢٨.

(٥٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢١؛ ابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ١٢٨، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٦.

الإمام في علوم القرآن واللغة والشعر[٥٧]. وقد عرف ابن قتيبة بصدق روايته وسعة معرفته بالفقه وغريب القرآن ومعانيه، وباللغة والنحو والأدب، وبكثرة التصانيف فيها[٥٨]. وقد شارك في أول أمره في الخلاف النحوي بين مدرستي الكوفة والبصرة، ويقول ابن النديم عنه إنه كان يغلو في مذهب البصريين، إلا أنه خلط المذهبين وحكى في كتبه عن الكوفيين[٥٩]. والواقع أنه استطاع أن يؤسس مدرسة ثالثة في النحو تزعّمها في بغداد وأخذت تستقطب دارسي النحو من أهل البصرة والكوفة.

اتصل ابن قتيبة بالوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان فولّاه القضاء في الدينور، وقيل إنه صنّف له أدب الكاتب[٦٠]. وقد نالت مصنفات ابن قتيبة شهرة لوضوحها وتنظيمها، وقد اتفق كثير من العلماء على فائدتها وعظيم قدرها، وعدَّ ابن خلدون كتاب أدب الكاتب من دواوين الأدب الأربعة[٦١]. كما كان ابن قتيبة أوفر حظاً من بين المصنّفين القدامى، إذ طبع أغلب ما وصل إلينا من مصنفاته مثل كتاب المعارف، وأدب الكاتب، والشعر والشعراء، وعيون الأخبار، ومشكل القرآن، وغريب القرآن. وقد عدَّد له ابن النديم قرابة خمسين كتاباً في التاريخ واللغة والأدب وعلوم القرآن. ومن كتبه في اللغة والأدب: كتاب عيون الشعر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب جامع النحو، وكتاب إعراب القرآن، وكتاب السِّباع والوحوش، وكتاب عيون الأخبار، وكتاب الخيل[٦٢].

توفي ابن قتيبة فجأة، وقد اختلف في سنة وفاته بين ذي القعدة سنة ٢٧٠ ورجب سنة ٢٧٦[٦٣].

٨ ـ الزيادي

أبو اسحاق ابراهيم بن سفيان بن سليمان، من أحفاد زياد بن أبيه وإليه نسبته، كان

---

(٥٧) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، ٤ ج (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣)، ج ١، ص ١٦.

(٥٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢١؛ ابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ١٢٨، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ٢، ص ٦٣.

(٥٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢١؛ ابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ١٢٨، والسيوطي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣.

(٦٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٤٧.

(٦١) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، ٧ ج (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ٣١٧.

(٦٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ١٢١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٢٤٦، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٧٥.

عالماً بارعاً بالنحو وقد درس كتاب سيبويه على مؤلفه نفسه، وأخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة وروى عنهما[64]. وقد وضع كتاباً في شرح نكت كتاب سيبويه وخالفه فيه في بعض المواضيع، وله كتب أخرى في اللغة والأدب، منها: كتاب الأمثال، وكتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار، وكتاب النقط والشكل[65]. ومن أبرز تلاميذه ابن قتيبة عبد الله بن مسلم.

توفي الزيادي في سنة ٢٤٩[66].

٩ ـ المبرِّد

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي المعروف بالمبرِّد. وقد لقب بهذا اللقب، كما روي عنه، أن صاحب الشرطة طلبه للمنادمة فكره الذهاب إليه. ودخل إلى أبي حاتم السجستاني، فجاء رسول صاحب الشرطة بطلبه، فأخفاه أبو حاتم في غلاف مزمّلة فارغة وغطى رأسه، وخرج إلى الرسول وقال: ليس هو عندي، فقال: أخبرت أنه دخل إليك، فقال: ادخل الدار وفتشها. فدخل فطاف كل موضع فيها ولم يفطن لغلاف المزملة، فخرج. فجعل أبو حاتم ينادي عليه: المبرِّد، المبرِّد، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به[67]. وقيل إن الذي لقّبه بهذا اللقب شيخه أبو عثمان المازني، لأنه لما صنف كتابه الألف واللام سأل أبا العباس عن دقيقه وعويصه فأجاب بأحسن جواب، فقال له: قم فأنت المبرِّد «بكسر الراء المشددة» أي المثبت للحق، فحرَّفه الكوفيون وفتحوا الراء[68].

ولد المبرد بالبصرة وبها نشأ ودرس النحو على أبي عمر الجرمي وأبي عثمان المازني وقد قرأ عليهما كتاب سيبويه[69]. وأخذ الأدب والشعر عن الرياشي أبي الفضل عباس بن الفرج وأبي حاتم السجستاني[70]. وكان المبرد فصيحاً بليغاً حسن المحاضرة اخبارياً، ثقة في ما

---

(٦٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٢، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٦٣.

(٦٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٢، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٤.

(٦٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٣، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٢٠٩.

(٦٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦؛ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر اباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩)، ج ٦، ص ٩، والقفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ٣، ص ٢٤٦.

(٦٨) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٣٧، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ص ٢٦٩.

(٦٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٤؛ السيرافي، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض صنعة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، ص ٧٦، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٣٧.

(٧٠) السيرافي، المصدر نفسه، ص ٧٧، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٤١.

يرويه، صاحب نوادر وظرافة ولباقة[71]. وقد وُهب حافظة قوية، قال عنه تلميذه نفطويه: ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد منه، وقيل عنه: ما رئي أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن في ما ليس فيه قول لمتقدم، حتى إنه كان يتهم بالوضع لكثرة حفظه اللغة وغريبها[72]. وكان علمه بنحو البصريين لا يجاريه أحد فيه، فصار إمام العربية بعد طبقة الجَرْمي والمازني، فقصده الدارسون من كل صوب، فدرس عليه من النحاة والأدباء أبو بكر الصولي وابراهيم بن عرفة الملقب بنفطويه وابراهيم بن السري الزجّاج[73]. وقد اعتبر ابن خلدون كتابه الكامل من دواوين الأدب[74].

وقد عاصره النحوي الكوفي أحمد بن يحيى ثعلب، وكانا متعارضين متنافسين. ويظهر أن المبرد كان يمتاز على ثعلب بفصاحة بيانه وقوة حجّته وأخذه بأساليب المتكلمين. فإذا اجتمعا في مجلس حُكم للمبرِّد، ولهذا كان ثعلب يتحاشى الاجتماع به في مجلس مناظرة. وكان أكثر أهل العلم يفضلون المبرِّد على ثعلب[75].

وللمبرِّد عدد كبير من المصنفات ذكر منها ابن النديم نيفاً وأربعين كتاباً في علوم القرآن واللغة والنحو والأدب، وقد سبق ذكر مصنفاته في علوم القرآن. ومن كتبه في اللغة والأدب: كتاب الكامل، وكتاب العروض، وكتاب قواعد الشعر، وكتاب شرح كلام العرب، وكتاب المذكر والمؤنث، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الاشتقاق، وكتاب البلاغة، وكتاب طبقات النحويين البصريين وأخبارهم، وكتاب المدخل في النحو، وكتاب شرح شواهد سيبويه، وكتاب المدخل إلى سيبويه[76]. ويضيف ياقوت الحموي كتباً أخرى في اللغة والأدب منها: كتاب المقتضب في النحو، وهو أكبر مصنفاته وأنفسها إلا أنه لم ينتفع به أحد، وكتاب الخط والهجاء، وكتاب الرد على سيبويه، وكتاب التصريف، وكتاب القوافي، وكتاب البلاغة، وكتاب الرسالة الكاملة[77]. وقد توفي المبرِّد في أواخر ذي القعدة، وقيل ذي الحجة

---

(71) القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ٣، ص ٤٤٢، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٨٠.

(72) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٨٠، والسيرافي، المصدر نفسه، ص ٧٧.

(73) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٨٠؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ١٣٧، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ١٣٢.

(74) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣١٧.

(75) السيرافي، أخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض صنعة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، ص ٧٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٤١ - ٤٤٢، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٣٠١.

(76) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٤.

(77) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٧، ص ١٤٣ - ١٤٤.

سنة ٢٨٥ ببغداد، ودفن في مقابر باب الكوفة بالجانب الغربي، في دار اشتريت له[٧٨].

١٠ ـ أبو محلِّم

محمد بن هشام بن عوف التميمي، أو محلِّم السعدي، ويقال إنه محمد بن سعد، وإنه كان يُعرف بمحمد وأحمد[٧٩]. كان إماماً في اللغة والشعر وأيام الناس وأخبارهم، رحل مراراً إلى مكة والكوفة والبصرة، وقصد البادية وأقام بها مدة طلباً للعربية، وروى عنه جماعة من كبار العلماء كالزبيريين بكار والمبرِّد وثعلب[٨٠]. وكان الخليفة الواثق بالله يستدعيه إلى سامراء ليسأله بعض القضايا اللغوية والنحوية، ويجيزه، كما كان يحضر مجلس المنتصر بالله[٨١].

تميَّز أبو محلِّم بقوة الحافظة، فقد كان لا يستعمل في روايته دفتراً أو كتاباً، وعندما كان يتلقى العلم على ابن عُيينة لم يكن يكتب عنه شيئاً، بل يحفظه مباشرة[٨٢].

توفي أبو محلِّم سنة ٢٤٥ وقيل سنة ٢٤٨[٨٣]. وله من الكتب: كتاب الأنواء، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الخيل[٨٤].

١١ ـ الرياشي

أبو الفضل العباس بن الفرج اللغوي النحوي البصري. ونسبته إلى رياش وهو رجل من جذام كان أبو العباس من مواليه. وأبو الفضل من كبار علماء اللغة والشعر، وكان من الأدب وعلم النحو بمحلّ عالٍ، يحفظ كتب الأصمعي ويروي عنه وعن أبي عبيدة معمر بن المثنى، وكان ثقة في روايته. قرأ على أبي عثمان المازني كتاب سيبويه، فكان المازني يقول: قرأ عليَّ الرياشي الكتاب وهو أعلم به مني، وأخذ عنه أبو العباس المبرد وإبراهيم الحربي.

---

(٧٨) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٤٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٢٤٢، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٣، ص ٣٨٧، وجاء فيه أنه توفي في شوّال.

(٧٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٧٥، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٢٥٧.

(٨٠) السيوطي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٧.

(٨١) المصدر نفسه، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩)، ص ٣٤٣.

(٨٢) السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٢٥٨.

(٨٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٨، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٧، ص ٣٠٦.

(٨٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٧٥.

توفي بالبصرة في شوّال سنة ٢٥٧ قتلاً على يد الزنج عندما دخلوا البصرة. وله من الكتب: كتاب الخيل، وكتاب الإبل، وكتاب ما اختلفت أسماؤه من كلام العرب[٨٥].

١٢ ـ السجستاني

أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي البصري، نشأ بالبصرة وسكنها فكان ينسب إليها أحياناً، وهو من كبار علمائها في اللغة والشعر. درس على أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة. وكان كثير الرواية عنهم، وقرأ كتاب سيبويه على الأخفش أبي الحسن بن سعيد بن مسعدة، حسن المعرفة بالعروض، حاذقاً في إخراج المعمّى من المعاني، ومن مشاهير من درس عليه المبرِّد وابن دريد[٨٦]. توفي السجستاني بالبصرة، وقد اختلف في سنة وفاته بين سنتي ٢٤٨ و٢٥٥. إلا أن ابن النديم وياقوت الحموي يقولان إنه توفي سنة ٢٥٥ على ما حققه ابن دريد[٨٧].

ولأبي حاتم عديد من المصنفات عدّد له ابن النديم ثلاثين كتاباً في اللغة والعلوم القرآنية. ومن كتبه اللغوية: كتاب ما يلحن به العامة، وكتاب المذكر والمؤنث، وكتاب الشجر والنبات، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الفصاحة، وكتاب الأضداد، وكتاب الوحوش، وكتاب الزرع، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الإبل[٨٨] وغيرها. وقد ذكر ابن خلكان الكتب نفسها تقريباً.

١٣ ـ المُفضَّل بن سَلَمة

أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم، عالم بالأدب واللغة والنحو كوفيّ المذهب، وكان أبوه سلمة من أصحاب الفرّاء يحيى بن زياد وراويته. وقد أخذ المفضل عن أبيه وعن ابن الأعرابي وأبي العباس ثعلب وابن السكيت[٨٩]. وله تصانيف عديدة مشهورة في فنون الأدب واللغة ومعاني القرآن. وقد استدرك على الخليل بن أحمد في كتاب العين وصنّف في

---

(٨٥) حول الرياشي، انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٢، ص ١٣٨ ـ ١٤٠؛ ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ٢، ص ٢٧.

(٨٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٢ ـ ٩٣؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٤، ص ٢٨٥، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٨٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٣؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٨، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٨٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٣، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٨٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٥؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٠، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

ذلك كتاباً هو كتاب الرد على الخليل وإصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال والتصحيف[٩٠] ومن كتبه الأخرى في اللغة والنحو: كتاب الاشتقاق، وكتاب البارع في اللغة لم يكمله، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب المدخل إلى علم النحو، وكتاب خلق الانسان، وكتاب الزرع والنبات والنخيل وأنواع الشجر[٩١].

ويظهر أنه كان مختصاً بوزير المعتضد بالله اسماعيل بن بلبل. وقد هجاه ابن الرومي ببضعة أبيات.

توفي المفضّل في سنة ٢٩٠[٩٢].

١٤ ـ ثعلب

أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني الملقّب بثعلب، إمام الكوفيين في اللغة والنحو في زمانه، وكان أهل الكوفة يفتخرون به ويعتبرونه ثالث ثلاثة آلت إليهم إمامة مدرسة الكوفة في النحو، وهم: الكسائي والفرّاء وثعلب[٩٣]. ولد ببغداد وبها كانت نشأته ودراسته. وقد عني أول أمره بدراسة النحو أكثر من العلوم الأخرى، فلما أتقنه أكبّ على الشعر والمعاني واللغة. وقد لازم أبا عبد الله بن الأعرابي، وسمع من محمد بن سلاّم الجمحي والزبير بن بكار ومن في طبقتهم[٩٤]. ويقول ثعلب «حذقت العربية وحفظت كتب الفرّاء كلها حتى لم يشذّ حرف منها عني، ولي خمس وعشرون سنة. وكنت أعنى بالنحو أكثر من عنايتي بغيره، فلما اتقنته أكببت على الشعر والمعاني والغريب. ولزمت أبا عبد الله بن الاعرابي بضع عشرة سنة»[٩٥]. ومن أشهر من درس عليه أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش، وأبو بكر الأنباري، وابراهيم الحربي[٩٦].

وعرف عن ثعلب صفاء الذهن وسرعة الحفظ، فقد حفظ ما تضيق به الصدور، فصار حجة في اللغة ورواية الشعر القديم، ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين متبحراً فيه. فإذا قعد للتدريس لا يمسّ كتاباً اتكالاً على حفظه. وكان شيخه ابن الاعرابي إذا شك في موضوع

---

(٩٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٩١) المصدر نفسه، ص ١١٥ ـ ١١٦؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٧٠، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٤٤.

(٩٢) ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٣٣٢، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٨، ص ٢٠٣.

(٩٣) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٢.

(٩٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ٢٠٤، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٣٩٦.

(٩٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٠٥؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١١٦، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٥.

(٩٦) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٠٤، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ١٠٤.

قال له: ما عندك يا أبا العباس في هذا؟ ثقة بغزارة حفظه[٩٧]. قال عنه معاصره ومنافسه المبرِّد: أعلم الكوفيين ثعلب، فذُكر الفرّاء، فقال لا يعشره[٩٨]، أي لا يعدّ واحداً من عشرة منه. وقد وُصف بأنه فاروق النحويين، أصدقهم لساناً وأصحّهم علماً وأتقنهم حفظاً[٩٩].

وكان ثعلب يؤدِّب ولد أمير بغداد محمد بن عبد الله، وقد خصص له جناحاً في بيته وأجرى عليه في كل شهر ألف درهم[١٠٠]. وذكره الوزير اسماعيل بن بلبل للأمير الموفق الذي أعجب بعلمه وصدارته في النحو فشمله برعايته وخصص له رزقاً سنياً، كان له وقع حسن في نفوس أهل العلم والأدب[١٠١].

ذكر ابن النديم من مصنفات ثعلب نيفاً وعشرين كتاباً، خمسة منها في علوم القرآن وقد سبقت الاشارة إليها في فصل سابق، والقسم الآخر بعضها في النحو منها: كتاب المصون في النحو، وكتاب اختلاف النحويين، وكتاب الموفقي في مختصر النحو، وقد سماه باسم الأمير الموفق، وكتاب حدّ النحو، وكتاب الفصيح الذي يعتبر أشهر مصنفاته. وبعضها في اللغة، ومنها: كتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب التصغير، وكتاب الشواذ، وكتاب الأمثال، وكتاب استخراج الألفاظ من الأخبار. وقال ابن النديم: ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه تحتوي على غرر من النحو واللغة والشعر والأخبار ومعاني القرآن، وقد رواها جماعة من أصحابه[١٠٢].

أصيب ثعلب بالصمم وقد زاد عليه قُبيل وفاته، حتى كان المخاطب له يكتب ما يريده في الرقاع، وقد توفي ببغداد في أواخر جمادى الأولى سنة ٢٩١ ودفن في مقبرة باب الشام، وكان سبب وفاته أن دابة لم يسمع صوت حوافرها صدمته في الطريق فسقط على رأسه، فحُمل إلى منزله فمات[١٠٣].

---

(٩٧) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٠٥، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٤ و١٤٠.

(٩٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١٠، والقفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ١، ص ١٤٢.

(٩٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١٩.

(١٠٠) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٣٤٢.

(١٠١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢١٠، والقفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ١، ص ١٤٢.

(١٠٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١١٧.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ١١٧؛ ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٢، ص ٤٩٦ و٤٩٨؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٨٦.

١٥ ـ الزجّاج

أبو اسحاق ابراهيم بن السري بن سهل النحوي، كان يخرط الزجاج فمال إلى دراسة النحو فلزم المبرِّد وكان يعلّم بالأجرة فاتفق معه على أن يعلمه فيعطيه أجراً على ذلك كل يوم درهماً أبداً، فتمكّن من علم النحو[١٠٤]. وصار من كبار العلماء بالعربية وبخاصة علمي النحو والعروض[١٠٥]. وعمل مؤدباً لأبناء بعض الوزراء والأعيان، وقد اختص بالوزير عبيد الله بن سليمان وأدّب ولده القاسم الذي أثابه كثيراً عندما استوزر بعد أبيه[١٠٦]. وقدّمه إلى الخليفة المعتضد بالله ففسر له كتاب جامع المنطق الذي عمله محمد بن يحيى بن أبي عباد الملقب بمحيرة وكان من ندماء الخليفة. فاستحسن الخليفة عمل الزجّاج فجعل له رزقاً في الندماء، ورزقاً في الفقهاء، ورزقاً في العلماء وأمر له بثلاثمئة دينار، وصارت له منزلة كبيرة لديه[١٠٧].

ويلغ من سعة علم الزجّاج في اللغة والنحو أنه ناقش النحوي الكبير أبا العباس ثعلباً في أخطاء وردت في كتابه الفصيح مستشهداً بأشعار العرب وأقوالهم، بحيث لم يقرأ على ثعلب كتابه المذكور بعد ذلك[١٠٨]. ومن آراء الزجّاج التي انفرد بها في الاشتقاق قوله «إن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف وإن نقص حروف إحداهما عن حروف الأخرى فإن احداهما مشتقة من الأخرى، فيقول الرّجُل مشتق من الرِجْل، والثور انما يسمى ثوراً لأنه يثير الأرض، والثوب إنما سمي ثوباً لأنه ثاب لباساً بعد ان كان غزلاً» وقد انتقد الزجاج على رأيه هذا[١٠٩].

وللزجّاج مصنفات كثيرة، ومن مصنفاته في اللغة والأدب: كتاب معاني القرآن ـ وقد استغرق تصنيفه ستة عشر عاماً ـ وكتاب الاشتقاق، وكتاب القوافي، وكتاب العروض، وكتاب خلق الانسان، وكتاب خلق الفَرَس، وكتاب مختصر النحو، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب شرح أبيات سيبويه[١١٠].

توفي الزجّاج ببغداد في سنة ٣١٠ لإحدى عشرة ليلة بقين من جمادى الآخرة، وقيل سنة ٣١٦، وقد أناف على ثمانين سنة[١١١].

---

(١٠٤) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٩٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٧، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧، وجاء اسمه فيه: ابراهيم بن محمد بن السريّ...

(١٠٥) ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٢٤٤.

(١٠٦) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٤٨ ـ ٥٠.

(١٠٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(١٠٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١ ـ ٥٤.

(١٠٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥ ـ ٥٧.

(١١٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٩ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٧، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٣٢.

(١١١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٦ ـ ٩٧ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٦، ص ٩٣، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٣.

١٦ ـ ابن السَّراج

أبو بكر محمد بن السري بن سهل البغدادي النحوي، أحدث أصحاب أبي العباس المبرِّد سناً مع ذكاء وفطنة، وقد قرأ عليه كتاب سيبويه، وأخذ عنه الأدب، وكان المبرِّد يميل إليه ويقرِّبه ويشرح له ويأنس به[١١٢]. وكان فيه ميل إلى الموسيقى والمنطق مما صرفه عن النحو حيناً، ثم استأنف دراسته والاهتمام به فبرع فيه، وصار أحد الأئمة المشهورين به، وإليه انتهت الرئاسة بعد موت الزجّاج[١١٣]. وقد درس عليه أبو القاسم الزجّاجي، وأبو سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرُّماني[١١٤].

ولابن السّراج مصنفات عديدة في اللغة والنحو منها: كتاب الأصول، وهو أحسن مؤلفاته وأكبرها وأشهرها وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه، جمع فيه أصول علم العربية، وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب، وكتاب جمل الأصول وهو الأصول الصغير، وكتاب الاشتقاق، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب شرح كتاب سيبويه، وكتاب الهجاء[١١٥].

توفي ابن السّراج لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٣١٦[١١٦].

١٧ ـ ابن دُريد

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري، إمام عصره في اللغة والأدب والشعر، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ وبها نشأ وتلقّى علومه وقد درس على أبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي والزيادي، وكان شاعراً مبدعاً واسع الحفظ بارعاً باللغة والأنساب وأشعار العرب، وإليه انتهت لغة البصريين، وقد وُصف بأنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء[١١٧]. وقد اشتهر بقصيدته المقصورة وقد أحاط بها بأكثر المقصور، ومطلعها:

يا ظبيةً أشبهَ شيءٍ بالمَها	ترعَى الخزامى بين أشجار النَّقا
إما ترَي رأسيَ حاكى لونُه	طُرَّةَ صبحٍ تحت أذيال الدُّجى

---

(١١٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٨؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٩، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٦٢.

(١١٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٨، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠.

(١١٤) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٠.

(١١٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٩؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٦٢.

(١١٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١١؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٦٣، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٢٥٠.

(١١٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٢، ص ١٩٥ ـ ١٩٦؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٤٨، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٨٥.

وهناك قول إن البيت الثاني هو المطلع الأصلي للقصيدة، ثم أضاف البيت الأول تتمة للمعنى.

كان ابن دريد في البصرة عندما هاجمها الزّنج، فانتقل إلى عُمان فسكنها مدة، ثم انتقل إلى بغداد وأقام بها حتى وفاته في أواخر شعبان سنة ٣٢١، وقد أصيب في أواخر عمره بالفالج، وهو المرض الذي مات به[١١٨]. وكان في بغداد موضع تقدير أهل العلم والأدب لسعة علمه في اللغة والأدب، وقد خصّص له الخليفة المقتدر بالله راتباً شهرياً قدره خمسون ديناراً لم تزل جارية عليه إلى حين وفاة ابن دريد[١١٩].

قال عنه المسعودي وقد عاصره بعض الوقت: «وكان ممن برع في زمننا هذا في الشعر، وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب في الشعر كل مذهب، فطوراً يجزل، وطوراً يرقّ، وشعره أكثر من أن نحصيه أو يأتي عليه كتابنا هذا، فمن جيد شعره قصيدته المقصورة... ويقال إنه أحاط فيها بأكثر المقصور»[١٢٠].

ورغم ما وصل إليه ابن دريد من صيت علمي وشهرة في الشعر، فإنه لم يخلُ من الانتقاد والطعن عليه. قال أبو منصور الأزهري في مقدمة كتاب التهذيب: «وممن ألّف في عصرنا الكتب فوُسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي) صاحب كتاب الجمهرة، وكتاب اشتقاق الأسماء، وكتاب الملاحن. وحضرته في داره ببغداد غير مرة، فرأيته يروي عن أبي حاتم، والرياشي، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، فسألت ابراهيم بن محمد بن عرفة الملقب بنفطويه عنه فاستخفّ به، ولم يوثّقه في روايته...»[١٢١].

ولابن دريد من التصانيف كتاب الجمهرة وهو من الكتب المعتبرة في اللغة، وقد بنى تأليفه على الحروف المعجمة فبدأ بالثنائي ثم الثلاثي فالرباعي وملحقه وكذا الخماسي والسداسي، وجمع النوادر في باب مفرد. وقد سمّاه الجمهرة لأنه اختار له الجمهور من كلام العرب[١٢٢]. وكان ابن دريد قد أملاه في فارس ثم بالبصرة وببغداد من لفظه، ولذلك اختلفت النسخ، وتعتبر النسخة البغدادية هي المعوّل عليها[١٢٣].

وله من الكتب الأخرى كتاب الأمالي، وكتاب المُجتنى، وكتاب المقصور والممدود،

---

(١١٨) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٧؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٢.

(١١٩) ابن خلكان، المصدر نفسه، ص ٤٥٠.

(١٢٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٣٢٠.

(١٢١) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، حقّقه وقدّم له عبد السلام محمد هارون؛ راجعه محمد علي النجار، ١٥ ج (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، [د.ت.])، ج ١، ص ٣١.

(١٢٢) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه محمد شريف يالتقايا ورفعت الكليسي، ٢ ج (استانبول: مطبعة الحكومة، ١٩٤١ - ١٩٤٣)، ج ١، ص ٦٠٥.

(١٢٣) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٨٦.

وكتاب أدب الكاتب ـ وقد وضعه على مثال كتاب ابن قتيبة، وكتاب الاشتقاق، وكتاب المقتبس، وكتاب الوشاح، وكتاب الخيل الكبير، وكتاب الخيل الصغير، وكتاب اللغات، وكتاب الأنواء، وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب تقويم اللسان(١٢٤).

ثانياً: الأدب

١ ـ النثر وأبرز الكتّاب

كان من نتائج الاستقرار السياسي الذي تمتعت به الدولة العربية منذ منتصف القرن الثاني، واتصال العرب بالأمم الأخرى واطلاعهم على ثقافاتها ومعالم حضاراتها، وترجمة كتب الأقدمين منها، أن ظهرت بوادر نهضة حضارية شملت مختلف نواحي الحياة فيها. وقد تمثلت معالم هذه النهضة بالنشاط العلمي الواسع في شتى نواحي المعرفة، وما صحب ذلك من اهتمام زائد بنقل تراث الأقدمين وإحياء التراث العربي، وبالازدهار الاقتصادي في الزراعة والصناعة والتجارة. وقد انعكست آثار هذه النهضة على الأدب العربي بشكل واضح، فأصابه تطور كبير ليساير الحياة الجديدة وأساليبها.

والأدب كما يعرِّفه ابن خلدون هو الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحي بلاغتهم، وهو يشتمل على الشعر والنثر ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة في أثناء ذلك. وأصول هذا الفن على رأيه «اربعة دواوين هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي»(١٢٥). والثلاثة الأولون من أعلام القرن الثالث. وسنحاول أن نتلمس هذا التأثير والتجدد في النثر أولاً، ثم ندرس تأثيره في الشعر.

لقد أخذت تظهر في النثر العربي تعابير وألفاظ علمية وآراء فلسفية واصطلاحات كلامية لم تكن مألوفة من قبل. وأصبح الكتّاب أكثر ميلاً إلى الإسهاب والاستطراد والترادف. كما أخذ السجع يسترد مكانته التي كان عليها قبل الإسلام. إذ أخذ الأدباء يُعنون به ولكن دون التزام، فقد استخدموه لتجميل بعض الجمل بتعابير موسيقية موزونة. ويظهر أن استخدامه في كتب الدواوين ورسائل الخلفاء كان أوضح وأوسع نطاقاً. هذا من ناحية المعنى واللفظ، أما من ناحية المواضيع التي عالجها الأدباء وكتبوا فيها فقد تعددت وكثرت. وكان من أبرزها الكتابة عن أخلاق الناس والعلاقات التي تربطهم بعضهم ببعض. كما أن روح الخفة والتهكم التي ظهرت في حياة المجتمع آنذاك من جهة، ونزعة الجد والصرامة التي

---

(١٢٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٩٧ - ٩٨؛ ابن الانباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ٣٥٧، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج ١، ص ٧٨.

(١٢٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣١٧.

كانت من سمات المجتمع أيضاً من جهة أخرى، قد أثّرت كلها في أسلوب الأدباء من الكتّاب.

وقد وصل إلينا من الكتب المصنّفة في صناعة الكتابة في القرن الثالث كتاب نقد النثر أو كتاب البيان وهو من تصنيف الكاتب البغدادي قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ كما أثبت ذلك الأستاذ عبد الحميد العبادي[١٢٦] ويتضمن أبواباً عدة عن الشعر وعن النثر. وباب المنثور وما جاء فيه أطول أبواب الكتاب، ولذلك غلب عليه اسم نقد النثر. وقد حدّد قدامة في كتابه هذا أنواع النثر وأحوال استخدام كل نوع منها، وقد أسهب في موضوعي الخطابة والترسّل وبيّن حالات كل منها ومواضع استعمالها. وأبرز ما أكّد عليه في موضوع الترسّل أن الكاتب أو المترسّل ينبغي أن يكون «عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له، فلا يستعمل الايجاز في موضع الإطالة فيقصّر عن بلوغ الإرادة، وألا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، وألّا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، وكلام الملوك مع السُّوقة، بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بميزانهم، فقد قيل «لكل مقام مقال»[١٢٧]. وهو يرى «ان الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره، وبجُمْله عن تفسيره، وفي المواعظ والسنن والوصايا التي يراد حفظها ونقلها. . . وفي الجوامع التي تُعرض على الرؤساء فيقفون على معانيها ولا يشغلون بالإكثار فيها. وأما الإطالة ففي مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الأفهام، ومن لا يكتفي من القول بيسيره، ولا ينفتق ذهنه إلا بتكريره وإيضاح تفسيره»[١٢٨].

وانتقد قدامة ما نعتت به البلاغة من الأوصاف، ورأى أنها تقصر عن الإحاطة بها. وحدُّها عنده «انها القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام وحسن النظام، وفصاحة اللسان»[١٢٩]. والبلاغة على هذا الأساس «هي ان يتساوى فيها اللفظ والمعنى، فلا يكون اللفظ اسبق إلى القلب من المعنى، ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ»[١٣٠]. «ومن أوصاف البلاغة أيضاً السجع في موضعه وعند سماحة القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه، فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر»[١٣١].

لقد حدد قدامة بما ذكرناه آنفاً مميزات الكتابة الجيدة، وهي عدم الإسهاب المملّ، والإيجاز غير المخلّ، وأن يكون الكلام مناسباً للمقام، وأن يتساوى اللفظ والمعنى، واستخدام السجع في موضعه. وأن مما يحسّن الكتابة حسن الخط لأنه يزيد في بهائها ويقرّبها من قلب القارىء. وكانت هذه الحدود هي أوضح ما يميز النثر في القرن الثالث.

وتعتبر مصنّفات أبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ خير ما يمثّل النثر في القرن المذكور.

---

(١٢٦) أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد النثر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، ط ٤ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، ص ٤٢ ـ ٤٦.
(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٦.
(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٩٧.
(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(١٣٠) المصدر نفسه، ص ١٠٥.
(١٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

لأن آراء الجاحظ ومعلوماته تمثل ثقافة القرن وأدبه، رغم أنه تفرّد بأسلوب خاص به سنوضحه عند الكلام عليه وعلى بعض مصنفاته. كما تعتبر رسائل رؤساء الدواوين من مشاهير الكتّاب وكتاباتهم نماذج أخرى لأسلوب النثر آنذاك. إذ اشتهر عدد من الكتّاب من رؤساء الدواوين بمقدرتهم اللغوية وبلاغة أسلوبهم، بحيث إن بعضهم وصل إلى منصب الوزارة. وسنعرض فيما يأتي صفحات من حياة الجاحظ وآثاره الأدبية ونماذج لأسلوبه، كما نعرض شيئاً من سير الكتّاب الذين اشتهروا آنذاك ونماذج لكتابة بعضهم.

أ ـ الجاحظ

يُعتبر الجاحظ كبير أدباء عصره بسبب ما تفرّد به من أسلوب خاص في كتابته، وبعمق ثقافته الواسعة، وعلاقاته الاجتماعية. وقد عاش بين منتصفي القرنين الثاني والثالث، وعُمِّر طويلاً، فكان تأثره بمحيطه وتأثيره في مسيرة الأدب عميقاً واسع المدى. ولد الجاحظ بالبصرة وبها نشأ وترعرع، وقال عن نفسه إنه ولد في سنة ١٥٠هـ[١٣٢]. وكانت البصرة آنذاك من أهم مراكز اللغة والنحو وعلم الكلام، لها الصدارة في هذه العلوم، فأفاد الجاحظ من علمائها. ثم انتقل إلى بغداد واتصل بشيوخ اللغة والنحو والفلسفة والتاريخ فيها، وتردد على سامراء، بحكم مركزها وعلاقته بعدد من رجال الدولة فيها. كما كان كثير التردد على مسقط رأسه البصرة.

شُغف الجاحظ منذ نشأته بالقراءة، وقد اعتبر أحد ثلاثة عُرفوا بملازمة الكتاب وطلب المعرفة. فلم يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته واستوعب ما فيه، حتى انه اعتاد أن يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها ليطالع الكتب[١٣٣]، الأمر الذي ساعده، بما وُهب من سرعة خاطر وقوة حافظة، على أن يلمّ بالثقافات المختلفة ويحصل على ذخيرة وفيرة من معارف عصره، وأخبار الأقدمين، في الأدب واللغة والتاريخ وعلم الكلام والإلهيات والطبيعيات.

عاصر الجاحظ عهد سطوة الأتراك على خلفاء سامراء، وأيام هيمنة أهل الاعتزال وأيام زوال سلطانهم، واختلط بمختلف طبقات المجتمع من رجال الدولة والعلماء والأدباء وعامة الناس. فألمّ بطبائعهم وسلوكهم وتعرّف إلى أساليب معيشتهم، واطّلع على عديد من الأوضاع الاجتماعية، فوعى كل ذلك وأحسن تسجيله ووصفه. وقد ساعده ما حفظه ووعاه من مطالعاته ومشاهداته على أن يكتب في مواضيع عديدة مختلفة، ومتباينة أحياناً، وأن يصنّف عدداً كبيراً من الكتب والرسائل.

وقد تميّز الجاحظ بأسلوب خاص انتهجه في الكتابة، اتسم بالإطناب والاستطراد والترادف، وكثرة الاستشهاد بما يلائم الموضوع من نثر وشعر ومن الأمثال، مما انجرّ معه إلى

---

(١٣٢) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٥٦.

(١٣٣) المصدر نفسه.

الاهتمام بالألفاظ أكثر مما يقصده من المعاني. وقد أشرنا بشيء من الإطناب إلى ذلك في موضوع الشعر. وكان الجاحظ بطبعه خفيف الروح فيه ميل إلى الهزل والفكاهة، وقد انعكس تأثير ذلك على أسلوبه في الكتابة، فلا تخلو كتاباته، مهما كانت مواضيعها، من الجد والهزل والسخرية والتهكم أحياناً. مما جعله منفرداً بهذا الأسلوب الذي عُرف به. وبهذا تسنّى للجاحظ أن يقيم أدباً عربياً اسلامياً، إذ خرج على أسلوب علماء اللغة الجاف والمواضيع التي يعالجونها لما رآه من بُعدها عن ميول المثقفين. وطرق من المواضيع ما هو أقرب إلى حياة الناس وأذواقهم، بأسلوب مبسّط ولغة سهلة سلسة. ونبّه الناس إلى وفرة الجوانب الإنسانية في التراث العربي وأهميته بما كان يعرضه منه وما يختاره من الشعر المناسب، فخلق بذلك مدرسة أدبية قوامها بساطة الأسلوب ورقّة الألفاظ ووضوح المعنى، مع شيء من الفكاهة والسخرية. وكان أسلوبه هذا مستحدثاً. ويمكن اعتبار الجاحظ مبتكراً لأسلوبه لأنه لم يجرِ فيه على مثالٍ سابق له. فقد كان يتعمّد البساطة في ألفاظه ليفهمه أكبر عدد ممكن من القراء. كما تعمّد الاستطراد، بل والثرثرة أحياناً، ليبعد السأمة والملل عن قارئه.

وكتب الجاحظ في مواضيع تبدو متنافرة ولكنها مستعذبة، فكتب عن أفاضل الناس وأسماهم منزلة في المجتمع، كما كتب عن الطبقات الدنيا، والأشقياء منهم. وأسلوبه في الحالتين سلس مستساغ وعذب لا يُملّ. لقد افتتح الجاحظ فناً جديداً في أسلوب الكتابة نال إعجاب الكثيرين من معاصريه ومن الذين جاءوا بعد عصره، فكان مدرسة في النثر جديدة، وكان جديراً بلقب «أبو النثر العربي» في عصره. قال عنه المؤرخ الكبير المسعودي «وكُتب الجاحظ ـ مع انحرافه المشهور ـ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوّف ملل القارىء وسآمة السامع، خرج من جدّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة، وله كتب حسان... وسائر كتبه في نهاية الكمال، مما لم يقصد منها إلى نصب ولا إلى دفع حق، ولا يُعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه»[134]. وقال ياقوت الحموي إن أبا حيان التوحيدي، وهو فيلسوف الأدباء وإمام البلغاء، كان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، وإنه ألّف كتاباً في تقريظ الجاحظ[135]. وقال القاضي ابن خلكان «ان كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً»[136].

اتصل الجاحظ برجال الدولة في سامراء فكسب صداقتهم ورعايتهم. فقد لازم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وهو أديب شاعر، والفتح بن خاقان الذي كان كمثل الجاحظ في حبّه الكتاب والمطالعة، وابراهيم بن العباس الكاتب الشاعر، ثم قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد كبير المتكلمين وزعيم الاعتزال، وأفاد من اهداء بعض مصنفاته إليهم. فقد سئل ما إذا كانت له ضيعة بالبصرة، فقال: أهديتُ كتاب الحيوان إلى محمد بن الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار،

---

(١٣٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(١٣٥) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(١٣٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ١٤٢.

وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد[١٣٧]. كما كان قد أهدى رسالته في مناقب الترك إلى الفتح بن خاقان.

وكان الجاحظ ممن ضربوا بسهم كبير في وفرة إنتاجه الفكري. فقد صنّف في شتى المواضيع عدداً كبيراً من الكتب ذكر ابن النديم تسعين كتاباً منها. وذكر له ياقوت قرابة مئة وخمسة وعشرين كتاباً نقل بعضها عن ابن النديم. ومن كتبه التي طبعت كتاب البيان والتبيين، وهو في أربعة أجزاء، وكتاب الحيوان، وهو في سبعة أجزاء، وكتاب البخلاء، كما طبع له عدد من الرسائل، وأوسع مجموعة منها أصدرها المحقق عبد السلام محمد هارون في جزءين. وطبعت له مجموعة أخرى تشتمل على ثلاث رسائل بتحقيق يوشع فنكل، ورسالة التبصر بالتجارة نشرها حسن حسني عبد الوهاب. ونُشر له كتابان آخران هما كتاب المحاسن والأضداد، وكتاب التاج، حقّق الأول فوزي عطوي، وحقّق الثاني أحمد زكي باشا، وهناك بعض الشك في صحة نسبة هذين الكتابين إلى الجاحظ. وذكر له صاحب معجم المطبوعات العربية كتباً ورسائل أخرى قد طبعت أيضاً، منها كتاب الحنين إلى الأوطان، ويقول إنه أهداه إلى الوزير ابن الزيّات، وكتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف[١٣٨].

أصيب الجاحظ في أواخر حياته بالفالج، وقال المبرد: دخلت على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل، فقلت له: كيف أنت؟ فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج ولو نشر بالمناشير ما حسَّ بها، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه، والآفة في جميع ذلك أني جاوزت التسعين[١٣٩]. وتكاد تجمع المصادر على أن الجاحظ توفي بالبصرة في المحرم سنة ٢٥٥ في عهد المعتز بالله، إلا أن المسعودي يقول: وقيل سنة ٢٥٦، وذكر وفاته في عهد المهتدي بالله[١٤٠].

وهذه نماذج من كتابات الجاحظ في مواضيع مختلفة:

قال من كتاب له إلى ابن الزيات: «لا والله، ما عالج الناس داء قطُّ أدوى من الغيظ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء، ولا أعلم باباً أجمع لخصال المكروه من الذل، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه، والمبتلى ما دام يجد من يرثي له، فهو على سبب دَرْكٍ وإن تطاولت به الأيام. فكم من كُربة فادحة،

---

(١٣٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٥ - ٧٦.

(١٣٨) يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ص ٦٦٦ - ٦٦٩.

(١٣٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٢، ص ٢١٩، وابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، ص ١٢٠.

(١٤٠) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٢٠؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٥٦؛ عماد الدين اسماعيل بن علي أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٤ ج في ٢ (القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٨٦٩)، ج ٢، ص ٤٧، والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٤٣٩.

وضيقة مُصْمَتَةٍ قد فتحت أقفالها وفككتَ أغلالها، ومهما قصَّرتُ فيه فلم أقصِّر في المعرفة بفضلك، وفي حسن النية بيني وبينك، لا مشتّت الهوى، ولا مقسم الأمل، على تقصير قد احتملته، وتفريط قد اغتفرته، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الاغفال. ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار وإن كنت كما تصف من التقصير وكما تعرف من التفريط فإني من شاكري أهل هذا الزمان وحسن الحال متوسط المذهب. وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنعمين فوق مرتبتي في الشاكرين. وقد كانت علي بك نعمة أذاقتني طعم العزّ وعودتني روح الكفاية. . .»(١٤١).

وقال في تعريف البيان: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع. ثم اعلم ـ حفظك الله ـ أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصَّلة محدودة. وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبَة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصِّها وعامها، وعن طبقاتها في السّار والضّار، وعما يكون منها لغواً بهرجاً، وساقطاً مطرَّحاً»(١٤٢).

وقال في خاتمة رسالته في ذم أخلاق الكتّاب: «قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصدنا، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا، وأعرضنا عن التأويلات فيما وصفنا، وقصدنا إلى المأثور فحكيناه، وإلى المذكور في الأزمنة فأجريناه، لئلا يجد الطاعن فيما وصفنا مقالاً، والمنكر لذم ما ذممنا مساغاً. وعلمنا أن من عاند مع ذلك فقد دفع عياناً، وأنكر كائناً مذكوراً، وفي ذلك دليل باهر على اضمحلاله وشاهد عدل لأضداده. ولو حكينا كل ما في هذا الجنس من الأقوال وما يدخله من المقايسات والأشكال، لطال الكتاب ولله الناظر المعجاب. فاكتفينا بالخبر من الكتاب، والبعض دون التمام. وعلمنا أن الناظر فيه إن كان فطناً أقنعه القليل نقضى به، وإن كان بليداً جهولاً لم يزده الإكثار إلا عيّاً، ومن العلم بما له قصدنا إلا بعداً. وبالله الكفاية والتوفيق»(١٤٣).

ووصف أسد بن جاني وهو أحد البخلاء الذين كتب عنهم: «فأما أسد بن جاني، فكان يجعل سريره في الشتاء من قصب مُقشَّر، لأن البراغيث تنزلق عن ليط القصب لفرط لينه وملاسته. وكان إذا دخل الصيف وحَرَّ عليه بيته، أثاره حتى يغرِّق المسحاة، ثم يصب عليه جراراً كثيرة من ماء البئر ويتوطؤه حتى يستوي، فلا يزال ذلك البيت بارداً ما دام ندياً. فإذا امتد به الندى ودام برده بدوامه، اكتفى بذلك التبريد صيفته، وإن جفَّ قبل انقضاء الصيف وعاد عليه الحر، عاد عليه بالإثارة والصب. وكان يقول: خيشي

---

(١٤١) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(١٤٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ٤ ج (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٨)، ج ١، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(١٤٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ثلاث رسائل، سعى في نشره يوشع فنكل، ط ٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٦٢)، ص ٥١.

ارض، وماء خيشتي من بثري، وبيتي أبرد، ومؤنتي أخف. وأنا أفضلهم بفضل الحكمة وجودة الآلة»[144].

ب ـ ابراهيم بن العباس الصولي

أبو اسحاق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين، كان جدّه محمد بن صول من رجال الدعوة العباسية وقد قتله عبد الله بن علي لما خرج مع آخرين على الدعوة. وادّعى بعض أبناء هذه العائلة انهم عرب وأن العباس بن الأحنف خالهم[145]. ولا يستبعد ذلك لأن كثيراً من أبناء القبائل العربية الذين شاركوا في الفتوحات في صدر الاسلام استقروا في المدن المفتوحة واستوطنوها، ولذلك فإن عدداً غير قليل من العلماء والأدباء والفقهاء والأطباء والفلاسفة ممن يحملون أسماء أو ألقاباً أعجمية أو ينتسبون إلى مدن أعجمية هم من أحفاد أولئك العرب.

نشأ ابراهيم ببغداد وتلقّى العلم على شيوخ عصره وتثقف ثقافة عربية اسلامية، ومال إلى اللغة والأدب فغدا كاتباً حاذقاً بحيث اعتبر من أفصح كتّاب عصره وأبلغهم. تميَّز أسلوبه بقلّة ألفاظه وموسيقيتها، وسعة معانيه. وقد تنقّل في عدد من أعمال الدواوين في سامراء. فكان يكتب في أول أمره لأحمد بن أبي خالد وزير المأمون، ثم كتب للمعتصم بالله ولابنه الواثق بالله الذي جعله على ولاية الأحواز. ثم ولي ديوان زمام النفقات في عهد المتوكل على الله[146].

لم يكن ابراهيم في كتابه مقلّداً، وهو يقول: «ما اتكلت في مكاتبتي قط إلاّ على ما يجلبه خاطري ويجيش به صدري»[147] ومن بديع نثره ما كتبه إلى الواثق بالله يعزّيه بأبيه ويهنئه بالخلافة بقوله «إن أحق الناس بالشكر من جاء به عن الله، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله، وأمير المؤمنين أعزّه الله، وآباؤه ـ نصرهم الله ـ أولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر، وعترة رسوله المخصوصون بالصبر. وفي كتاب الله أعظم الشفاء وفي رسوله أحسن العزاء. وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله، ومن مشيئة الله في ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله ما عفا على أوله وآخره وتلافت بدأته عاقبته، فحق الله في الأولى الصبر وفرضُهُ في الأخرى الشكر. فإن رأى أمير المؤمنين أن يستنجز ثواب الله بصبره، ويستدعي زيادته بشكره، فعل إن شاء الله تعالى وحده»[148].

وهو الذي تولى كتابة المنشور الخاص بمعاملة أهل الذمة الذي وجهه المتوكل على الله إلى مختلف ولايات الدولة العربية. وقد جاء في صدره ما يلي «أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزته

---

(١٤٤) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء، تحقيق وتعليق طه الحاجري (القاهرة: دار الكاتب المصري، ١٩٤٨)، ص ٩٠.

(١٤٥) الأصبهاني، الأغاني، ج ١٠، ص ٤٣، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٢٦١.

(١٤٦) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٦٢.

(١٤٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٦.

(١٤٨) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

التي لا تحاول وقدرته على ما يريد، اصطفى الإسلام فرضيه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيّد به أولياءه، وكنفه بالبر، وحاطه بالنصر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديان، مبرأً من الشبهات، معصوماً من الآفات، محبواً بمناقب الخير، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله وحرّم عليهم من حرامه، وبيّن لهم من شرائعه وأحكامه، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه، وفيما حض عليه فيه ووعظ: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾ . . .»[149].

وكتب عن الخليفة المتوكل على الله إلى أهل حمص عندما ثاروا في سنة ٢٤٠ كتاباً قال فيه: «أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه مما قوّم به من أود، وعدل به من زيغ، ولمّ به من منتشر، استعمال ثلاث يقدّم بعضهن أمام بعض، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتفريق، ثم التي لا يقع حسم الداء بغيرها:

أناةٌ فإنْ لم تُغْنِ عقّبَ بعدها ‏ ‏ وعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغْنَتْ عزائِمُهْ

فلما قرأه على الخليفة اعجب به وبحسن ديباجته ونظم ألفاظه، وأومأ إلى وزيره عبيد الله بن يحيى، أما تسمع؟ قال: يا أمير المؤمنين إن ابراهيم فضيلة خبأها الله لك، واحتبسها على أيامك»[150].

وله من الكتب كتاب رسائل كتّاب الدولة كبير.

ج ـ كتّاب آخرون

وقد برز آنذاك عدد من كبار الكتّاب الذين ترأسوا دواوين الدولة. ويلاحظ أن بعض الأسر انصرف أبناؤها إلى صناعة الكتابة فمهروا فيها، مثل آل وهب، وآل المدبّر، وآل ثوابة، وآل الجرّاح. وقد برز من هذه الأسر عدد من كبار الكتّاب، منهم:

الحسن بن وهب

أبو علي الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب العالم، تقلّد أعمالاً ديوانية مهمة وكان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات، وولي ديوان الرسائل. كان شاعراً وكاتباً مترسلاً بليغاً، وله كتاب ديوان رسائله. توفي في أواخر أيام المتوكل على الله وهو يتقلد بريد الشام. وذكر قدامة بعض المقاطع مما كتبه منها «فأسأل الله أن يبلغني أملي فيك، فإنها وعدة على قصرها طويلة»[151].

سليمان بن وهب

هو أخو الحسن بن وهب، يقال إنه كتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة، ثم كتب لبعض كبار القوّاد الأتراك مثل ايتاخ وأشناس. وقد تولّى الوزارة في عهد الخليفة المهتدي

---

(١٤٩) انظر المنشور كاملاً، في: الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ١٧٢ ـ ١٧٤، والقرآن الكريم، «سورة النحل،» الآية ٩٠.

(١٥٠) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(١٥١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢١؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٣٦، وقدامة بن جعفر، نقد النثر، ص ١٠١.

بالله، والمعتمد على الله من بعده. كان غزير العلم والأدب وله شعر مليح، بارعاً في صناعة الخطّ. توفي سنة ٢٧٢. ومن كتاباته قوله: «إن الدولة إذا أقبلت كَثُرت العِدَّة، وإن أقلّت العدد، وإذا أدبرت كثّرت العدد وأقلّت العدة»[١٥٢].

وله كتاب ديوان رسائله.

ابراهيم بن المدبّر

ابراهيم بن محمد بن عبيد الله بن المدبّر الكاتب المترسّل والشاعر الرقيق، كان أميراً جواداً تولى إمارة بعض الولايات ورئاسة بعض الدواوين. وعندما هاجم الزنج الأحواز في رمضان سنة ٢٥٦ كان ابراهيم أميرها على الخراج فأسروه ونهبوا ما كان له فيها من مال وأثاث ورقيق. وبقي في أسرهم ما يقرب من السنة حتى استطاع التخلص من أسرهم[١٥٣]. وكان المتوكل على الله معجباً بإبراهيم فولّاه ديوان الضياع. إلا أن الوزير عبيد الله بن يحيى كان منحرفاً عن ابراهيم شديد النفاسة عليه فأغرى الخليفة به. وكان أخو ابراهيم أحمد بن المدبّر قد ولي عملاً لعُبيد الله فلم يحمد أثره فيه، فعزم عبيد الله على أن ينكبه، وبلغ أحمد ذلك فهرب. فادعى عبيد الله أن لأحمد مالاً جليلاً عند أخيه ابراهيم فأوغر صدر الخليفة عليه حتى أذن له في حبسه[١٥٤].

ولإبراهيم بن المدبّر في حبسه أشعار حسان كتب بعضها إلى الخليفة، وبعضها إلى عدد من أصحابه يستنجد بهم لانقاذه. وما لبث الخليفة أن أمر بإطلاقه. وقد تولى بعد زوال نكبته الثغور الجزرية، وكان أكثر مقامه بمدينة منبج من أعمال حلب[١٥٥]. ويظهر أن ابراهيم كان مقرباً من الخليفة المعتمد على الله وكان يحضر مجالسه، ولما خرج الخليفة من سامراء في سنة ٢٦٩ يريد الالتجاء إلى ابن طولون في مصر، هرباً من أخيه الموفق، اتخذ ابراهيم بن المدبّر وزيراً[١٥٦].

توفي ابراهيم ببغداد في منتصف شوال سنة ٢٧٩ وهو يتقلد رئاسة ديوان الضياع للمعتضد بالله[١٥٧]. وله الرسالة العذراء في ثقافة الكاتب وصفاته وزيّه وأدوات الكتابة ومعرفته بها.

---

(١٥٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٣٦؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٢، وقدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص ١٠١.

(١٥٣) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩، ص ٤٧٣ و٤٧٧، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٢٣٧ و٢٤٢.

(١٥٤) الأصبهاني، الأغاني، ج ٢٢، ص ١٥٩.

(١٥٥) المصدر نفسه، ج ٢٥، ص ١٧٦.

(١٥٦) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ٢٩٢.

(١٥٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٢، والطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، ص ٣١.

آل ثوابة

واشتهر من آل ثوابة كاتبان هما أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثوابة، وكان كاتباً مترسلاً بليغاً، كتب للمعتضد بالله، وله كتاب رسائل(١٥٨). وأبو الحسن محمد بن جعفر بن ثوابة، وهو من بلغاء الكتاب ببغداد في عصره. وقد رأس ديوان الرسائل في أيام المقتدر بالله، وقد كتب قبله للمعتضد بالله. ومما يستحسن من رسائله جوابه خمارويه بن أحمد بن طولون عن المعتضد بالله عن الكتاب بإنفاذ ابنته، فقال في الفصل الذي احتاج إلى ذكرها:

«وأما الوديعة فهي بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك عناية بها وحياطة رأيك فيها»(١٥٩).

ومن إنشائه رسالة كتبها عن الخليفة المقتدر بالله إلى البلدان في وزارة ابن الفرات الثانية جاء فيها «ولما لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه ولا للملك بدأ منه، وكان كتّاب الدواوين على اختلاف اقتدارهم وتفاوت ما بين أخطارهم، مقرّين برياسته معترفين بكفايته متحاكمين إليه إذا اختلفوا، واقفين عند غايته إذا استبقوا مذعنين بأنه الحوّل القلّب، المحنّك المجرّب، العالم بدرّة المال كيف تحلب، ووجوهه كيف تطلب، انتضاه من غمده فعاود ما عرف من حدّه، فتفقّد الأعمال كأن لم يغب عنها، ودبّر الأمور كأن لم يخلُ منها. ورأى أمير المؤمنين ألا يدع شيئاً من أسباب التكرم كان قديماً جعله له إلا وفّاه إياه، ولا نوعاً من أنواع المثوبة والجزاء كان أخّره عنه إلا حباه به»(١٦٠).

توفي سنة ٣١٢ وهو على ديوان الرسائل للمقتدر بالله(١٦١)، له ديوان رسائل.

محمد بن داود بن الجرّاح

أبو عبد الله، كان كاتباً عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وقد حذا حذو أبيه داود بن الجرّاح الذي كتب للمستعين بالله. فأخذ عن العلماء والفصحاء والشعراء، وكتب بخط يده ما لا يحصى كثرة. وزر لعبد الله بن المعتز في يوم خلافته، وقتل معه ـ وله من الكتب: كتاب الورقة وهو في أخبار الشعراء، وسمّاه بذلك لأنه لا يزيد في خبر الشاعر الواحد على ورقة واحدة. وكتاب الشعر والشعراء. وكانت له مناظرات ومساجلات مع الفقيه الشّافعي المتكلم أحمد بن عمر بن سريج في مجلس عليّ بن عيسى بن الجرّاح وزير المقتدر بالله وأحد العلماء الكبار من أهل بغداد(١٦٢).

---

(١٥٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٩٤.

(١٥٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٦، ص ٤٦٤.

(١٦٠) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

(١٦١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٦٣، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٦، ص ٢٩٧.

(١٦٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٩١ ـ ١٩٢؛ صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٢٩٩هـ)، ج ٢، ص ٤٠٦، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٣٥٥.

أبو اليسر الشيباني

ابراهيم بن محمد الشيباني، ويعرف بالرياضي الكاتب. ولد ببغداد وبها نشأ ودرس على مشاهير علمائها وشيوخ أدبائها كالجاحظ والمبرِّد وثعلب وابن قتيبة وأخذ عنهم مصنفاتهم، ولقي كبار شعراء سامراء أبا تمام والبحتري وعلي بن الجهم، وروى عنهم أشعارهم. رحل إلى الأندلس ودخل قرطبة أيام أميرها محمد بن عبد الرحمن الأموي، ثم تركها إلى افريقيا، فأكرم الأمير ابراهيم الثاني الأغلبي وفادته وقلّده رئاسة ديوان الرسائل. وتولى في أيام زيادة الله الثالث رئاسة بيت الحكمة في رقّادة إلى جانب رئاسته ديوان الرسائل.

وكان أبو اليسر أديباً بارعاً وشاعراً مبدعاً وكاتباً مترسلاً. وله عدد من المصنفات في الفقه والعلوم القرآنية واللغة والأدب، ومن كتبه الأدبية: كتاب لقط المرجان، وكتاب قطب الأدب.

توفي أبو اليسر في جمادى الأولى سنة ٢٩٨ بمدينة القيروان[١٦٣].

٢ ـ الشعر

أ ـ تطور الشعر

كان عمود الشعر العربي قبل الاسلام وصدره يقوم على شرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، وإصابة الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ المعنى. وهي خصال يتوقف تقدم الشاعر وإحسانه على قدر التزامه بها وسهمته منها[١٦٤]. ولما أهلّ القرن الثالث كان الشعر العربي قد استقر على أسس وقواعد معينة في لغته وأسلوبه وأغراضه، وقد حدّدها ابن قتيبة بقوله: «وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها. . . ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدّة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليُميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه. . . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسُرى الليل وحرّ الهجير. . . فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل. . . بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح. . . فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطل فيُملّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ

---

(١٦٣) انظر حوله: أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ٤ ج (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، ج ١، ص ١٥٠ - ١٦٣، وحسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية (تونس: مطبعة المنار، ١٩٦٤)، ص ٢٤٤ - ٢٤٦.

(١٦٤) أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، نشره احمد أمين وعبد السلام محمد هارون (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١ - ١٩٥٣)، ص ١١.

إلى المزيد . . . وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام»[١٦٥].

وقد التزمت القصيدة بوحدة القافية والوزن مهما بلغ عدد أبياتها، كما استمر تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة بحيث يستطيع الشاعر أن يذهب إلى غرض معين في كل بيت من أبياتها باعتباره مستقلاً عن البيت الذي سبقه والبيت الذي يليه، على أن يؤلف بين الأبيات في سبكها ورصف مفرداتها وتنسيق موضوعاتها بما يجعلها منسجمة متلاحمة الأجزاء. ومهما تعددت الموضوعات والأفكار في القصيدة فقد كان على الشعراء الالتزام بتعاقب تلك الموضوعات بحيث يكون الغزل في مطلعها ويليه المدح والوصف والحكم وغيرها. وقد اعتبرت القصيدة التي لا تبدأ بالنسيب بتراء[١٦٦]. إلا أن التطور الحضاري الذي صار إليه العرب بعد احتكاكهم بحضارات الأمم الأخرى وثقافاتها وتأثرهم بأساليب حياتها جعل للحياة الجديدة بأوجهها السياسية والاجتماعية تأثيراً عميقاً في حياتهم الأدبية وبخاصة في الشعر. فطرأت عليه تغييرات مهمة سارت به قدماً نحو الأمام. فأخذ يتطور في لغته وأسلوبه وأغراضه، إذ صار يكلّم الناس بما يفهمونه ويرتاحون إليه، وقد رغبوا عن الأوصاف التي كان الشاعر يبدأ بها قصيدته، وتطلعوا إلى وصف مظاهر الحياة الجديدة، وهو ما أدى إلى خلق ألوان من الشعر مستمدة من هذه الحياة. أما لغته وأسلوبه فقد انتابها شيء من التكلف والزخارف البديعية، وبعض الابتكار والتوليد اللفظي والمعنوي. كما تأثر تركيب القصيدة فغدت عند بعض الشعراء وحدة متكاملة في موضوعها، فتكون أبياتها مترابطة المعنى لتعبّر عن رأي أو موضوع معين فتصبح القصيدة كأنها مقال متسلسل المعاني. وكان الشاعر ابن الرومي خير مثال لهذا النهج في بناء قصائده فيبدأ من أول بيت فيها حتى نهايتها ولا يترك معنى لذلك الغرض حتى يستوفيه.

وأصاب الشعر كذلك تطور ملحوظ في تحرره من بعض أصوله التقليدية وانتهاج أصول جديدة. وكان شعر أبي تمام والبحتري وابن الرومي، وهم أبرز شعراء هذا القرن، مثالاً واضحاً لهذا التطور الذي تُلاحظ بعض سماته في التحول في الألفاظ والمعاني إلى أصول تتميز بالذوق الفني وجمال المعنى. وقد حدد قدامة بن جعفر حدود الشعر وقال إن من شروط الشعر الجيد أن يأتلف اللفظ مع المعنى والوزن، ويأتلف المعنى مع الوزن والقافية[١٦٧]. وقد أثار موضوع لفظ الشعر ومعناه وفي أيّها يكمن جماله وتأثيره، جدلاً بين نقاد الشعر. إذ يرى قدامة أن اللفظ «يجب أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة» و «أن يكون المعنى مواجهاً للغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب»[١٦٨]. إلا أن نقاداً

---

(١٦٥) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٤)، ص ٢٠ ـ ٢٢.

(١٦٦) ناصر الحاني، النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي (بغداد: مطبعة بغداد، ١٩٥٥)، ص ٩٠.

(١٦٧) أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى (القاهرة: مطبعة أنصار السنّة المحمدية، ١٩٤٨)، ص ٢٠.

(١٦٨) المصدر نفسه، ص ٢١ و٥٦ على التوالي.

آخرين يؤكدون على أهمية اللفظ لأن جودته وجزالته وحسن اختياره أوقع في النفوس وأدعى إلى القبول، وكلما كان سلساً وقد سُبك بدقة كان معناه أقرب إلى الفهم. أي أن المعنى رهن بجودة اللفظ وحسن تركيبه. وعلى رأس القائلين بأهمية اللفظ كبير أدباء عصره أبو عثمان الجاحظ، فهو يقول: «إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك»(١٦٩).

ويرى ابن رشيق أن «اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته... ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب... ومن الناس من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده... ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعني بها واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط... ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ وقبحه وخشونته... وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى... وحجتهم أن اللفظ أغلى من المعنى ثمناً، وأعظم قيمة، وأعز مطلباً، فإن المعاني موجودة في طباع الناس يستوي فيها الجاهل والحاذق ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف... والكلام الجزل عندهم أغنى عن المعاني اللطيفة»(١٧٠).

لقد تحرر الشعراء من الأساليب القديمة في بناء القصيدة، ومن القيود التي كانت تعتبر أصولاً لازمة للشعر. وأخذوا بصورة عامة، ينتهجون أساليب تقوم على اختيار الألفاظ الرقيقة الواضحة السهلة، وابتكار المعاني المحدثة وتوليدها بما يناسب التقدم الحضاري، وكثرة استخدام المحسّنات البديعية، حتى بلغ بعضهم فيها حدّ الإسراف، والاعتماد على عالم المحسوسات بتجسيم المعنويات وتشخيصها، واستعمال بعض الألفاظ الفلسفية والمنطقية، وإهمال المطلع التقليدي للقصيدة من النسيب والغزل عند أغلب الشعراء، وبذل الجهد في تنسيق القصيدة وانسجامها. وقد كان لعدد من شعراء هذا القرن البارزين دور مهم في هذا التطور الذي طال ألفاظ الشعر ومعانيه وأغراضه وأساليبه. وكان أمراً طبيعياً أن لا تظهر آثار ذلك في شعر جميع الشعراء بدرجة واحدة. فقد تباينت درجات تجديدهم باختلاف عواطفهم وأحاسيسهم ومبلغ ثقافتهم وقدرتهم اللغوية وسعة خيالهم. ولسوف يتضح ذلك عند بحث أغراض الشعر وأنواعه، ومن كان مجلياً منهم في كل غرض منها.

ونال الشعر في هذا القرن اهتماماً بالغاً من علماء اللغة والأدب ومن بعض الفقهاء والمؤرخين. فبذلوا كثيراً من الجهود في جمع شعر الشعراء وأخبارهم، فجمع بعضهم أشعار قدامى الشعراء ومحدثيهم ورتّبوها بحسب طبقاتهم ومراتبهم، أو بدواوين منفردة لبعضهم. وصنّف آخرون في الشعر والشعراء، وفي نقد الشعر. وذكر ابن النديم عدداً كبيراً من تلك المصنفات، منها: كتاب الشعر والشعراء للراوية المؤرخ عمر بن شبّة(١٧١). وكتاب قواعد

---

(١٦٩) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ٧ ج (القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨ - ١٩٤٥)، ج ٣، ص ١٣١ - ١٣٢.

(١٧٠) أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدبه ونقده، ط ٤ (بيروت: دار الجليل، ١٩٧٢)، ج ١، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(١٧١) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (طهران: مكتبة الأسدي، ١٩٧١)، ص ١٢٥.

الشعر، وكتاب ضرورة الشعر، وكتاب العروض، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرِّد إمام النحويين البصريين في زمانه[١٧٢]. وكتاب الشعر والشعراء لابن السرّاج أبرز تلاميذ المبرد[١٧٣]. وكتاب معاني الشعر لأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي[١٧٤]. وكتاب الشعراء لأبي عبيد القاسم بن سلّام[١٧٥]. وكتاب معاني الشعر، وكتاب سرقات الشعراء وما اتفقوا فيه ليعقوب بن السّكيت[١٧٦]. وكتاب معاني الشعر، وأشعار الفحول وغيرهم، ومعاني القرآن، والشعر مما سُمِع وتُكلّم عنه، لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب[١٧٧]. وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب المراتب والمناقب من عيون الشعر، لأبي عبد الله بن قتيبة[١٧٨]. وكتاب الشعر والشعراء لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري[١٧٩]. وكتاب أخبار الشعراء، وكتاب من قال شعراً على البديهة، وكتاب الاستعداء على الشعراء، لأبي الحسن المدائني[١٨٠]. وكتاب ألقاب الشعراء، وكتاب كنى الشعراء، وكتاب نقائض جرير والفرزدق، لأبي جعفر محمد بن حبيب بن أمية[١٨١]. وكتاب أشعار الملوك، وكتاب طبقات الشعراء، لعبد الله بن المعتز[١٨٢]. وكتاب الورقة في أخبار الشعراء، وكتاب الشعر والشعراء، لمحمد بن داود بن الجرّاح[١٨٣]. وصنّف أبو عبد الله الزبير بن بكار كتباً عدة عن أخبار الشعراء، منها: أخبار عمر بن أبي ربيعة، أخبار جميل، أخبار نُصيب، أخبار كثيّر، أخبار العرجي، أخبار المجنون[١٨٤]. وعمل أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري عدة دواوين من أشعار العرب الفحول منها: شعر زهير، وشعر النابغة الجعدي، وشعر الأعشى[١٨٥]. كما عمل أبو سعيد الحسن السكّريّ أشعار جماعة من فحول الشعراء، منهم امرؤ القيس، والنابغتان، وقيس بن الخطيم، وتميم بن مقبل، وهذيل، وهدبة، والأعشى، ومزاحم العقيلي، والأخطل، وزهير، كما رتّب شعر أبي نواس على معانيه وغريبه، وصنّف كتاب الأبيات السائرة[١٨٦]. كما صنّف الفقيه محمد بن داود بن

---

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ٦٥.
(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٦٨.
(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٧٦.
(١٧٥) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(١٧٦) المصدر نفسه، ص ٧٩.
(١٧٧) المصدر نفسه، ص ٨١.
(١٧٨) المصدر نفسه، ص ٨٦.
(١٧٩) المصدر نفسه، ص ٨٦.
(١٨٠) المصدر نفسه، ص ١١٦.
(١٨١) المصدر نفسه، ص ١١٩.
(١٨٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.
(١٨٣) المصدر نفسه، ص ١٤٢.
(١٨٤) المصدر نفسه، ص ١٢٤.
(١٨٥) المصدر نفسه، ص ٨٢.
(١٨٦) المصدر نفسه، ص ٨٦.

علي الظاهري كتاب الزهرة وهو مجموعة شعرية في الهوى وأحكامه وأحواله.

ب ـ نقد الشعر

يمكن القول إن قواعد الشعر العربي من حيث وضعه وانتحاله وكل ما يتعلّق بحدوده وألفاظه، ومعانيه وأغراضه، ونعته وعيوبه، قد ثبتت في خلال هذا القرن. ولعل أول كتاب عالج بعض هذه المواضيع وبخاصة انتحال الشعر وتحديد بعض عيوبه، هو كتاب **طبقات فحول الشعراء** لابن سلّام الجمحي. ثم وضع قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي كتابه المشهور **نقد الشعر** فكان أكمل كتاب من نوعه وأبرزه. وفي ما يلي خلاصة بما عالجه الكتابان من الموضوعات المتعلقة بالشعر.

كان أبو عبد الله محمد بن سلّام الجمحي أحد الاخباريين الرواة، وقد صنّف عدداً من الكتب، منها كتابان عن الشعراء: **طبقات الشعراء الجاهليين، وطبقات الشعراء الاسلاميين**(١٨٧). وقد طُبعا في كتاب واحد بعنوان **طبقات فحول الشعراء**، وقال فيه: «فقصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجّة، وما قال فيه العلماء»(١٨٨). ويعتبر كتابه من أقدم ما وصل إلينا من كتب نقد الشعر والشعراء. وكان يعزو تفوق الشاعر وتقدم طبقته إلى كثرة ما له من العروض والقصائد الطويلة وتعدد أغراضه ومعانيه(١٨٩). وقد عني بصفة خاصة بصحة نسبة الشعر إلى صاحبه، وتنبّه إلى أن قسماً من الشعر المسموع كان مفتعلاً منحولاً، إذ يقول «وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء»(١٩٠).

وقال عن الشعر في الجاهلية إنه كان ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون، ولما جاء الإسلام تشاغلت عنه العرب بالجهاد، فلهوا عن الشعر وروايته. ولما اطمأنوا بالأمصار راجعوا رواية الشعر وذكروا أيام العرب ومآثرها، فوجدوا أن أكثر رواته هلكوا بالموت والقتل، ولم يحفظ من الشعر إلا أقلّه، وقد ذهب عليهم منه كثير(١٩١). وقد استغل بعض العشائر ما وجدوه من شعر شعرائهم وأيام وقائعهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم زاد الرواة على ذلك(١٩٢). وهو يرى أن الشعر الموضوع لا تستعصي معرفته على أهل العلم إلا ما وضعه الرجال من أهل البادية من

---

(١٨٧) المصدر نفسه، طبعة القاهرة، ص ١٧١.

(١٨٨) محمد بن سلّام الجُمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ذخائر العرب؛ ٧ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢)، ص ٢١.

(١٨٩) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(١٩٠) المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٦.

(١٩١) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(١٩٢) المصدر نفسه، ص ٣٩.

أولاد الشعراء وغيرهم. ويروي مثلاً على ذلك فيقول «اخبرني ابو عبيدة أن ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة فنزل النخيب، فأتيته أنا وابن نوح العطاردي، فسألناه عن شعر أبيه متمم (يعني جده)، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته. فلما نفد شعر ابيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله»[193].

وطعن ابن سلاّم بحمّاد الراوية واعتبره غير ذي ثقة ويعجب لمن يأخذ عنه، وقد كان يكذب ويلحن، إذ يقول عنه: «وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار». ويروي ما يؤيد رأيه ويقول: «اخبرني ابو عبيدة عن يونس، قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة، وهو عليها، فقال: ما أطرفتني شيئاً، فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة في مديح أبي موسى. فقال: ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى [و] لا أعلم به، وأنا أروي شعر الحطيئة، ولكن دعها تذهب في الناس»[194].

وحاول ابن سلاّم أن يضع بعض القواعد لعيوب الشعر، وقد اعتبرها أربعة، هي: الزِّحاف والسِّناد والإبطاء والإكفاء وهو الإقواء. واعتبر الزحاف أهونها؛ وهو أن ينقص الجزء عن سائر الأجزاء فينكره السمع ويثقل على اللسان، ومنه ما نقصانه أخفى، ومنه ما نقصه أشنع. والإقواء هو أن يختلف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة أو منصوبة، وهو في شعر الأعراب كثير، ويكاد ينحصر في من هم دون الفحول من الشعراء، ويرى عدم التسامح به للشعراء المولدين لأنهم قد عرفوا عيبه. والإبطاء هو أن تتفق القافيتان في قصيدة واحدة، فإن كان أكثر من قافيتين فهو أسمج له. أما السِّناد فهو أن تختلف القوافي نحو: نقيب وعيب، وقريب وشيب وأمثالها[195].

إن ما أورده ابن سلاّم الجمحي من ملاحظات واستدراكات يمثل طريقته في نقد الشعر. وإن ما عرضه من شكوك في صحة قسم من الشعر المروي عن شعراء ما قبل الإسلام، وأن بعضه منتحل أدخله الرواة بدوافع مختلفة، يجعله من أوائل من تشكّك من قدامى الأدباء في قسم من الشعر المروي، ورأى ضرورة التحرّي عن صحته قبل الأخذ به.

أما قدامة بن جعفر، وهو أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليه في علم المنطق[196]، وهو صاحب كتاب الخراج وصناعة الكتابة، فقد صنّف كتاباً في نقد الشعر، أي علم جيّد الشعر ورديئه، وثبّت فيه كل ما يختص بالشعر من حدود وأوزان ونعوت وعيوب. وكان سبّاقاً في كثير من المواضيع التي عالجها في كتابه هذا. وقد وضعه بأسلوب علمي مرتب سهّل للآخرين قياس الشعر والحكم على شاعرية صاحبه. وبيّن في مقدمته سبب وضعه بأن الناس عنوا بوضع الكتب في أقسام الشعر الخاصة بالعروض

---

(١٩٣) المصدر نفسه، ص ٤٠ ـ ٤١.

(١٩٤) المصدر نفسه، ص ٤١.

(١٩٥) المصدر نفسه، ص ٥٨ ـ ٦٢.

(١٩٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٩٤.

والوزن، وأمر القوافي والمقاطع، وأمر الغريب والنحو، وتكلموا في المعاني الدال عليها الشعر وما الذي يريد به الشاعر. ويقول إنه لم يجد واحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً، والكلام عنده في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المذكوره. وإن علم جيد الشعر من رديئه، فإن الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم، فقليلاً ما يصيبون. ولما وجد الأمر على ذلك وتبين أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخرى، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه، رأى أن يتكلم في ذلك بما يبلغ وسعه[١٩٧].

اعتبر قدامة مقاييس معرفة الشعر الجيد أن تتوفر فيه عدة أمور أهمها: حسن النظم، واعتدال الوزن، وصحة المقابلة، وجزالة اللفظ، وإصابة التشبيه، وجودة التفصيل، وقلة التكلف، والمشاكلة في المطابقة، واعتبر أضداد هذه الأمور عيباً في الشعر تمجّه الأذان، ويخرج عن وصف البيان[١٩٨]. وقد عرّف حد الشعر تعريفاً جامعاً بقوله «إنه قول موزون مقفّى يدل على معنى، فقولنا: قول، دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا: موزون، يفصله عما ليس بموزون، وقولنا: مُقفّى، فصل بين ما له من الكلام الموزون قوافٍ وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا: يدل على معنى، يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى. ولما كان الشعر هو ما قدمناه، فليس من الاضطرار إذن أن يكون ما هذه سبيله جيداً ابداً ولا رديئاً ابداً، بل يحتمل أن يتعاقبه الأمران على حسب ما يتفق، وحينئذ يُحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الرديء»[١٩٩].

وخصص قدامة أكثر صفحات كتابه لبحث نعت الشعر، أي محاسنه وصفاته الجيدة، وسوف نذكرها عند بحث موضوع أغراض الشعر. أما عيوب الشعر فهو يرى أنها قد تظهر في اللفظ بأن يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللغة، وأن يستخدم الشاعر من الألفاظ ما كان شاذاً مهجوراً. وعيوب الوزن خروجه عن العروض، والتخلّع، أي أن يكون قبيح الوزن وقد أُفرط في تزحيفه. ومن عيوب القوافي التجميع، وهو أن تكون قافية المصراع الأول من البيت على رويّ متهيىء لأن تكون قافية آخر البيت بخلافه. والإقواء، وهو أن يختلف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة مثلاً وأخرى مخفوضة، والسّناد، وهو أن يختلف تعريف القافيتين[٢٠٠].

ومن عيوب المعاني أن يكون ما يأتي من المدح على خلاف الجهة التي ذكرت في النعوت، وكذلك في عيوب المراثي والوصف والتشبيه والغزل أن يأتي بالمضاد من نعوتها. ومتى ما سلب المهجوّ أموراً لا تجانس الفضائل الإنسانية كان ذلك عيباً في الهجاء. ومن عيوب المعاني أيضاً فساد التفسير والاستحالة والتناقض، ومخالفة العُرف بما ليس في العادة والطبع، وأن ينسب إلى الشيء ما ليس له أو فيه[٢٠١].

---

(١٩٧) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٩ - ١٠.

(١٩٨) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(١٩٩) المصدر نفسه، ص ١١.

(٢٠٠) المصدر نفسه، ص ١٧٠ - ١٨١.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص ١٨٤ - ٢١٠.

ويرى قدامة أنه «لما لم يكن كل شعر جامعاً جميع النعوت والعيوب وَجب أن تكون الوسائط التي بين المدح والذم تشتمل على صفات محمودة وصفات مذمومة. فما كان فيه من النعوت أكثر كان إلى الجودة أميل، وما كان فيه من العيوب أكثر كان إلى الرداءة أقرب. وما تكافأت فيه النعوت والعيوب كان وسطاً بين المدح والذم»[٢٠٢].

ومما له علاقة بنعت الشعر وعيوبه موضوعان آخران أثارا جدلاً بين نقاد الشعر، هما غلوّ الشاعر في ما يذهب إليه، ومناقضته نفسه في شعره. فقد خلا شعر الأقدمين من الغلو إلاّ قليلاً، فهم لم يجوزوا المألوف في التعبير عن إعجابهم أو حزنهم، إلا أن المتأخرين من الشعراء، وبخاصة المولّدين منهم، تكلّفوا الإيغال في شعرهم. ويظهر أن ذلك لم ينل تأييد الناقدين، إلا أن قدامة استحسن الغلو وأسهب في نقاشه، ودعا إليه، إذ يقول: «إني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر، وهما الغلو في المعنى إذا شُرِع فيه، والاقتصار على الحد الأوسط في ما يقال منه... فأقول: إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه... إنما أرادوا المبالغة والغلوّ فيما يخرج عن الموجود»[٢٠٣]. وكذلك فإنه لم يَرَ بأساً من مناقضة الشاعر نفسه، فيقول: «إن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك ذماً حسناً بيّناً غير منكر عليه ولا معيب من فعله، إذا أحسن المدح والذمّ، بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها... لأن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني ـ كائناً من كان ـ أن يجيده في وقته الحاضر لا أن ينسخ ما قاله في وقت آخر»[٢٠٤].

لقد لقيت آراء قدامة هذه في نقد الشعر رواجاً كبيراً بين النقاد وعلماء الشعر، وكان تأثيره على النقاد المتأخرين كثيراً ولا سيما ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، والآمدي حسن بن بشر في كتابه الموازنة.

ج ـ أغراض الشعر

تباين علماء الشعر ونقاده في تصنيفه بحسب أغراضه، فقسّمه بعضهم إلى قسمين رئيسيين هما: المدح والهجاء، واعتبروا الموضوعات الأخرى تبعاً لهما. وصنّفه آخرون إلى مدح وهجاء ورثاء وغزل، وأضاف بعضهم الوصف إلى ذلك. يقول قدامة بن جعفر: «وللشعراء فنون من الشعر كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة، هي: المديح، والهجاء، والحكمة، واللهو. ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون، فيكون من المديح: المراثي والافتخار والشكر، واللطف في المسألة، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه. ويكون من الهجاء: الذم، والعتاب، والاستبطاء، والتأنيب، وما أشبه ذلك وجانسه. ويكون من الحكمة: الأمثال، والتزهيد، والمواعظ، وما شاكل ذلك. ويكون من اللهو: الغزل، والطرد، وصفة الخمر، والمجون، وما أشبه ذلك وقاربه»[٢٠٥]. ويرى أن «جماع الوصف لذلك أن يكون المعنى مواجهاً

---

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص ٢٠ ـ ٢١.
(٢٠٣) المصدر نفسه، ص ١٩.
(٢٠٤) المصدر نفسه، ص ١٣ ـ ١٤.
(٢٠٥) المصدر نفسه، ص ٨١.

للغرض المقصود غير عادل عن الأمر المطلوب. ولما كانت أقسام المعاني التي يُحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعدده... رأيت أن أذكر منه صدراً ينبيء عن نفسه... وأن اجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشعراء وما هم عليه أكثر حوماً... وهو: المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه»[206].

وقال أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني إن أكثر ما تجري عليه أغراض الشعر خمسة: النسيب، والمديح، والهجاء، والفخر، والوصف، ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف، وهو يهمل الرثاء باعتباره فرعاً من المديح. ويقول إن البعض الآخر يقسم أصناف الشعر إلى أربعة، وهي التي ذكرها قدامة مع ما يتفرع منها من أغراض أخرى[207].

أما العواطف الباعثة على قول الشعر فهي الرغبة والرهبة والطرب والغضب، وينشأ عنها المديح والاعتذار والغزل والهجاء[208]. وشبيه بهذا ما يقوله الشاعر دعبل الخزاعي في كتابه: من أراد المديح فبالرغبة، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء، ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء. فقسّم الشعر إلى هذه الأقسام الأربعة واعتبر الرثاء من باب المديح، وجعل العتاب بدلاً عنه[209].

وقد اختلفت أغراض الشعر منذ القرن الثاني اختلافاً بيّناً عما كانت عليه سابقاً. ونشأ بعض هذا الاختلاف عن تطور أغراض الشعر القديمة وجاء هذا القسم جديداً مبتكراً بفعل التطور الحضاري. أما الأغراض التي جدَّت فكانت الإغراق في الخلاعة والمجون، وإمعان بعض الشعراء في وصف الحياة اللاهية المبتذلة، ودعوتهم إليها بلغة صريحة، الأمر الذي أوجد ما يُعرف بشعر المجون والخمريات. ومع أن الشعر العربي لم يكن يخلو قبل ذلك من الحكم والمواعظ، إلا أنه أضيف إلى ذلك الدعوة إلى الزُهد والتقشف في الحياة، والابتعاد عن ملذّاتها ومغرياتها، والاقتناع باليسير منها. وقد قامت هذه الدعوة كرد فعل لما صار إليه الناس آنذاك من انغماس في الترف والبذخ والبحث عن المسرّات، ولمقاومة أهل الفسق والمجون والخلعاء من الشعراء.

وكنا أشرنا إلى الحدود التي ثبّتها قدامة لأغراض الشعر الخمسة، والتي أقرّها النقّاد الذين جاءوا بعده. وسنذكر فيما يلي هذه الأغراض مع ذكر أبرز من اشتهر بكل منها من شعراء القرن الثالث. أما عن سيرتهم وتاريخ حياتهم فأحسب أن ما كتب عنهم قديماً وحديثاً كافٍ وافٍ، بحيث لم تبقَ زيادة لمستزيد. ولذا فإننا لا نرى ثمة حاجة لترجمة حياة أيّ منهم أو بحث سيرته، ولسوف نقتصر على ذكر أهم النواحي التي تميَّز بها كل منهم في شعره، ونقدم نماذج من صناعته في الغرض الشعري الذي أحسنه واشتهر به.

---

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٢٠٧) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ج ١، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢٠٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٨، وابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٨.

(٢٠٩) القيرواني، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٢.

(١) المديح

حاول قدامة بن جعفر أن يضع قواعد وأسساً معينة لشعر المديح، وكان مبدعاً عندما قصر المديح على الفضائل والنواحي الخلقية للممدوح. فهو يرى أن الفضائل الانسانية هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، وأن المصيب من الشعراء مَنْ مدح الرجال بهذه الخلال. وقد أوضح ما تنطوي عليه هذه الفضائل من خصال حميدة «فمن أقسام العقل: ثقافة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية، والعلم، والحلم... ومن أقسام العفّة: القناعة، وقلّة الشره، وطهارة الإزار... ومن أقسام الشجاعة: الحماية، والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة... ومن أقسام العدل: السماحة ويراد بها التغابن وهو من أنواعها، والانظلام، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف»[٢١٠]. وهو يرى أن المديح ينبغي أن يتفق وأصناف الممدوحين من الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات، فيمدح الوزير والكاتب بما يتصل بالفكر والروية وحسن السياسة، ويمدح القائد بما يجانس البأس والنجدة وما يدخل في باب شدّة البطش والبسالة. أما مدح السوقة فينقسم بحسب انقسامهم في أصناف معايشهم وحرفهم. وان المدح يجود كلما اغرق الشاعر في أوصاف الفضيلة، وأتى بأكثر خواصها[٢١١].

ولم يخرج صاحب العمدة عما حدده قدامة للمديح، وأضاف أن على الشاعر إذا مدح ملكاً أن يسلك طريقة الايضاح والإشادة بذكر الممدوح وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية غير مبتذلة، ويجتنب التجاوز والتطويل، فإن للملك سآمة وضجراً ربما عاب من أجلهما ما لا يعاب وحرم من لا يريد حرمانه[٢١٢].

ويعتبر موضوع المديح من أوسع أغراض الشعر، ولا يخلو شعر شاعر مهما كانت منزلته الشعرية من قصائد قالها تقرّباً إلى الممدوح أو تودداً إليه، أو استمالة واستعطافاً، أو طلباً لجائزته وصلته. ويلاحظ أن أغلب قصائد المديح تقليدية تبدأ بمقدمة بالغزل وذكر ما قطع الشاعر من المفاوز وما تجشم من متاعب الطريق للوصول إلى ممدوحه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مدحه. ولعل أبرز من اشتهر بالمديح في شعره هو أبو عبادة البحتري الوليد بن عبيد الله بن يحيى الطائي المتوفى سنة ٢٨٤. وقد اختص بالبلاط ومدح خلفاء سامراء وبعض الوزراء والقواد وأعيان الدولة، مما جعل معظم شعره في هذا الباب. ويمكن وصفه بشاعر المتوكل على الله وابنه المعتز بالله لكثرة ما مدحهما، وربما كانت أجود مدائحه ما قاله فيهما. والبحتري شاعر مطبوع يرسل نفسه على سجيتها لا يتعمّق ولا يتكلف إلا نادراً. وقد جرى في مديحه على الطريقة التقليدية، وذهب فيه مذهب القدماء في الألفاظ والأساليب. ورغم أنه كان يحاول أن يحتذي بأبي تمام، إلا أنه لم يتوفر له استخدام المنطق في شعره فقصر عنه في طلب المعاني، وأقام شعره على اللفظ والفن الشعري وموسيقاه. وكان يغلب على مديحه أن يستهله

---

(٢١٠) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٥٩ ـ ٦١.

(٢١١) المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٨٤.

(٢١٢) القيرواني، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٨.

بأبيات من الغزل التقليدي مما لا علاقة له بما يقوله، مما يفقد الشعر الانسجام المطلوب. على أن مديحه، مثل بقية شعره، يتميّز بسلامة الأسلوب وعذوبة الألفاظ التي يحلو وقعها في نفس السامع وأذنه لسهولة مآخذها ووضوح معانيها، وقلة استعمال البديع والمحسّنات اللفظية.

والبحتري من الشعراء الذين تكسّبوا بالشعر، فكان يستدرّ به عطايا الخلفاء وذوي الجاه والسلطة والثراء، بما يضفي عليهم من النعوت ما يليق بمراكزهم ولو أنها لا تتوفر فيهم، ولذلك خلت بعض مدائحه من صدق العاطفة والتقدير. وكان مليئاً قد فاض كسبه من الشعر فكان يركب في مركب من عبيده[213].

عاصر البحتري ستة من خلفاء سامراء واتصل بهم ومدحهم، وقد عاد فهجا اثنين منهم، هما المستعين بالله والمنتصر بالله. وقد تضمنت مدائحه ذكر أحداث تاريخية مهمة وقعت في أيامه، كما خلّد قصور سامراء التي عفّى عليها الزمان.

ومن غرر مدائح البحتري في المتوكل على الله قصيدته التي وصف بها خروجه إلى الصلاة يوم العيد، وبدأها بأبيات في النسيب، ومطلعها[214]:

أُخفي هوىً لكِ في الضلوعِ وأُظهِرُ   وأُلامُ في كمدٍ عليكِ وأُعذرُ

ثم يقول:

الله مكّنَ للخليفةِ جعفرٍ   مُلكاً يُحسّنهُ الخليفةُ جعفرُ
نُعمى مِنَ اللهِ اصطفاهُ بفضلِها   واللهُ يرزقُ مَن يشاءُ ويَقدُرُ
فاسلَمْ - أميرَ المؤمنين - ولا تزَلْ   تُعطى الزيادةَ في البقاءِ وتُشكَرُ
عمّت فواضلُكَ البريّةَ، فالتقى   فيها المُقِلُّ على الغِنى والمُكثِرُ
بالبِرّ صُمْتَ وأنتَ أفضلُ صائمٍ،   وبِسُنّةِ اللهِ الرَّضيّةِ تُفطِرُ
فانعَمْ بيومِ الفِطرِ عيناً! إنّهُ   يومٌ أغرُّ، مِنَ الزّمانِ، مُشَهَّرُ
أظهرتَ عِزَّ المُلكِ فيهِ بجحفلٍ   لَجِبٍ يُحاطُ الدِّينُ فيه ويُنصَرُ

* * *

حتى انتهيتَ إلى المصلّى لابساً   نورَ الهُدى يَبدو عليكَ ويَظهَرُ
ومشيتَ مِشيَةَ خاشعٍ مُتواضعٍ   للهِ لا يُزهى ولا يَتكبَّرُ
فلو أنَّ مشتاقاً تكلّفَ غيرَ ما   في وُسعِهِ لَمشى إليكَ المِنبَرُ
أبدَيتَ مِن فَصلِ الخطابِ بِحِكمةٍ   تُنبي عنِ الحقِّ المبينِ وتُخبِرُ
صلّوا وراءَكَ آخذينَ بعِصمةٍ   مِن ربّهم، وبذِمّةٍ لا تُخفَرُ
اللهُ أعطاكَ المحبّةَ في الورى   وحَباكَ بالفضلِ الذي لا يُنكَرُ
ولأنتَ أملأُ للعيونِ لَدَيهِمِ   وأجلُّ قدراً في الصدورِ وأكبَرُ

ومدح المعتز بالله بعد أن استقرت له الخلافة بقصيدة منها[215]:

---

(٢١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٨٥.

(٢١٤) أبو عبادة الوليد بن عبيد الله البحتري، ديوان البحتري، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، ٤ ج، ذخائر العرب؛ ٣٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣)، ج ٢، ص ١٠٧٠ - ١٠٧٣.

(٢١٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٨ - ١١١.

لَبِسْتَنا من «المعتزّ بالله» نعمةً ... هي الروضُ مَوْليًّا بِخَزْز السحائبِ
أقامَ قناةَ الدين بعد اعوجاجِها ... وأربى على شَغْبِ العدوِّ المُشاغِبِ
أخو الحزم قد ساس الأمورَ، وهذَّبتْ ... بصيرتَهُ فيها صروفُ النوائبِ
ومُعتصِميُّ العزم يساوي برأيهِ ... إلى سَنَنٍ من مُحْكَماتِ التجاربِ

* * *

ولولا تلافيكَ الخلافةَ لانبرتْ ... لها هِمَمُ الغاوينَ من كلِّ جانبِ
فما زلتَ حتى أذعنَ الشرقُ عَنْوةً ... وانستَ على صُغْرٍ أعالي المغاربِ
جيوشٌ مَلأْنَ الأرضَ حتى تركْنَها ... وما في أقاصيها مفرٌّ لهاربِ
مَدَدْنَ وراء «الكوكبيِّ» عجاجةً ... أرتْه نهاراً طالعاتِ الكواكبِ
وَزَعْزَعْنَ «ذَنْباوَنْد» من كلِّ وُجْهَةٍ ... وكان وقوراً مُطْمَئِنَّ الجوانبِ
وقدْ أيقنَ الصُّفَّارُ حتى تمطّلتْ ... إليه المنايا في القنا والقواضبِ
فعاذَ حساماً عن وَلِيِّكَ ذَبُّه ... وحدُّ سِنانٍ في عدوِّكَ ناشبِ

* * *

ولأبي تمام عدد كبير من القصائد قالها في مدح الخلفاء وبعض رجال الدولة. وأبو تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفى سنة ٢٣١ شاعر مفكر حادّ الذكاء، واسع العلم والثقافة، عالم بالشعر وأفانينه، ساعدته موهبته على أن يغدو «واحد عصره في ديباجة لفظه، ونصاعة شعره، وحسن أسلوبه»[٢١٦]. وقد جاء بمعانٍ وتراكيب غريبة مستخدماً الاستعارة والطباق والجناس، مما لا يُفهم إلا بعد إجهاد الفكر، فعسُر فهم شعره. وصفه المرزوقي في مقدمة شرحه ديوان الحماسة بأنه «نازع في الابداع إلى كل غاية، حامل في الاستعارات كل مشقة، فتوصّل إلى الظفر بمطلوبه من الصنعة أين اعتسف وبماذا عثر، متغلغل إلى توعير اللفظ وتغميض المعنى أنّى تأتّى له وقدر»[٢١٧].

اختص أبو تمام بالخليفة المعتصم بالله وابنه الواثق بالله ومدحهما بقصائد عديدة في مناسبات مختلفة. كما مدح عدداً من الوزراء والقادة والأعيان. وتعتبر قصيدته في مدح المعتصم بالله عندما غزا بلاد الروم وفتح عمورية، من غرر قصائد المدح، ومنها[٢١٨]:

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في ... مُتونِهِنَّ جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ
والعِلمُ في شُهُبِ الأرواحِ لامعةً ... بين الخميسينِ لا في السبعةِ الشُّهُبِ
أينَ الروايةُ بل أينَ النجومُ وما ... صاغوه من زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ
تخرُّصاً وأحاديثاً مُلفّقةً ... ليستْ بنبعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ
عجائباً زعموا الأيامَ مُجفِلةً ... عنهنَّ في صَفَرِ الأصفارِ أو رَجَبِ
وخوّفوا الناسَ من دهياءَ مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَّنَبِ

---

(٢١٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٢٣٥.
(٢١٧) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ص ٤.
(٢١٨) حبيب بن أوس أبو تمام، ديوان أبي تمام، تحقيق وتعليق محمد عبده عزام، ٤ ج، ذخائر العرب؛ ٥ (القاهرة: دار المعارف، [د.ت.])، ج ١، ص ٤٠ - ٧٤.

وصيّروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلباً أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بيّنت قط أمراً قبل موقعه ... لم تخف ما حلّ بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتّح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمّورية انصرفت ... منك المنى حفّلاً معسولة الحلب
أبقيت جدّ بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب

* * *

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب، في الله مرتغب

* * *

لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد ... إلا تقدّمه جيش من الرُّعب
لو لم يقد جحفلاً يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب
من بعد ما أشّبوها واثقين بها ... والله مفتاح باب المعقل الأشب
لبّيت صوتاً زبطرياً هرقت له ... كأس الكرى رضاب الخرّد العرب
أجبته معلناً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبت بغير السيف لم تجب
خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

وهي قصيدة طويلة عدد أبياتها نيف وسبعون بيتاً، وقد منحه المعتصم بالله عن كل بيت ألف دينار[219].

ومدح أبو تمام الخليفة الواثق بالله، ومن أولى قصائده في مدحه قصيدة هنّاه فيها بتوليه الخلافة، ورثى المعتصم بالله، منها[220]:

ما للدموع تروم كل مرام ... والجفن ثاكل هجعة ومنام
يا حفرة المعصوم تربك مودع ... ماء الحياة وقاتل الإعدام
إن الصفائح منك قد نضدت على ... ملقى عظام لو علمت عظام
فنق المدامع أن لحدك حلّه ... سكن الزمان وممسك الأيام
ومصرّف الملك الجموح كأنه ... قد زمّ مصعبه له بزمام
هدمت صروف الموت أرفع حائط ... ضربت دعائمه على الإسلام

* * *

ما دام هارون الخليفة فالهدى ... في غبطة موصولة بدوام
إنا رحلنا واثقين بواثق ... بالله شمس ضحى وبدر تمام
لله أي حياة انبعثت لنا ... يوم الخميس وبعد أي حِمام
أودى بخير إمام اضطربت له ... شعب الرجال وقام خير إمام

* * *

(219) الذهب المسبوك، ص 221.
(220) أبو تمام، المصدر نفسه، ج 3، ص 203 - 209.

أكرمْ بيومِهمُ الذي مَلَّكْتَهُم   في صدرِهِ وبعامِهم مِنْ عامِ
لو لم يكن بِدْعاً نَصَبُوا له   سِمَةً يَبينُ بها من الأعوامِ
قُبِضَتْ، أميرَ المؤمنين، قلوبُهم   بين المحبّةِ فيكَ والإعظامِ
شُرِحت بدولتك الصدورُ وأصبحتْ   خُشَّعُ العيونِ إليك وهي سوامِ

* * *

وممّن أجاد المديح من شعراء هذا القرن الشاعر الحسين بن الضحّاك المعروف بالشاعر الخليع. وهو أبو عليّ بن الضحّاك بن ياسر البصري المتوفى سنة ٢٥٠. وكان شاعراً مطبوعاً لا يتكلّف في لفظ أو معنى، وإنما يقول الشعر على سجيته كلاماً طبيعياً أو أقرب إلى الطبيعي. وتميّز بالنغمة الموسيقية التي تطبع أغلب شعره وبخاصة ما كان يصنعه لكي يتغنّى به المغنون في مجالس الخلفاء والأمراء. ومن جيِّد مدائحه ما قاله في الخليفة المعتصم بالله عندما استقدمه من البصرة إلى سامراء حاضرة الخلافة. فلما دخل عليه أول مرة استأذنه في الإنشاد فأذن له، فقال[٢٢١]:

هلاّ رحمتَ تلدُّدَ المشتاقِ   ومننتَ قبل فراقِهِ بتلاقِ
إن الرقيبَ ليستريبُ تنفُّسي   الصُّعَدا إليك وظاهرَ الإقلاقِ
ولئنْ أربْتُ لقد نظرتُ بمقلةٍ   عَبْرى عليك سخينةِ الآماقِ
نفسي الفداءُ لخائفٍ مترقّبٍ   جعلَ الوداعَ إشارةً بعناقِ

* * *

خيرُ الوفودِ مبشّرٌ بخلافةٍ   خصّتْ ببهجتها أبا إسحاقِ
وافتْه في الشهرِ الحرامِ سليمةً   من كلِّ مشكلةٍ وكلِّ شقاقِ
أعطتْه صفقتَها الضمائرُ طاعةً   قبلَ الأكفِّ بأوكدِ الميثاقِ
سكنَ الأنامُ إلى إمامِ سلامةٍ   عفِّ الضميرِ مهذّبِ الأخلاقِ
فحمى رعيّتَه ودافعَ دونها   وأجارَ مُملقَها من الإملاقِ
قُلْ للألى صرفوا الوجوهَ عن الهُدى   متعسّفين تعسُّفَ المُرّاقِ
إنّي أحذّركم بوادرَ ضيغمٍ   دَرِبٍ بخطْمِ موائلِ الأعناقِ
متأهّبٍ لا يستفزُّ جنانَهُ   زَجَلُ الرعودِ ولامعُ الأبراقِ

* * *

حتى إذا أمَّ الحصونَ منازلاً   والموتُ بين ترائبٍ وتَراقِ
هرّتْ بطارقُها هريرَ ثعالبٍ   بُدِهَتْ بزأرِ قساورٍ طُرّاقِ
ثم استكانتْ للحصارِ ملوكُهم   ذلاً وناطَ حُلوقَهم بخِناقِ

ولما تولى الواثق بالله الخلافة جلس للناس ودخل إليه المهنئون والشعراء فمدحوه، ثم استأذن الحسين بن الضحّاك بعدهم في الإنشاد، فأذن له، فأنشد قصيدةً جاء في آخرها قوله[٢٢٢]:

---

(٢٢١) أشعار الحسين بن الضحاك، جمعها وحقّقها عبد الستار أحمد فراج (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٠)، ص ٨٣ - ٨٥.

(٢٢٢) المصدر نفسه، ص ٩٦ - ٩٨.

يضيق الفضاء به إن غدا   يطوّي أعاريبه والعجم
ترى النصر يقدم راياته   إذا ما خفقن أمام العلم
وفي الله دوّخ أعداءه   وجرّد فيهم سيوف النقم
وفي الله يكظم من غيظه   وفي الله يصفح عمّن جرم
رأى شيم الجود محمودة   وما شيمُ الجود إلا قسم
فراح على نعم واغتدى   كأنْ ليس يحسن إلا نعم

* * *

ولابن الرومي قصائد عديدة في المديح قال أكثرها تكسّباً بالشعر وطلباً للعطايا، ولذا كان أغلبها جافاً تنقصه العاطفة الصادقة والشعور الدافق نحو الممدوح. وكان ابن الرومي يعتبر مدحه كذباً إذا لم يُمنح عليه ما يرضيه. وما أكثر ما عاد إلى هجاء من سبق أن مدحه لأنه لم ينل من عطاياه شيئاً. وهو طويل النفس في مدحه، يطيل في القصيدة ويستطرد، ويتناول مواضيع شتّى فيتبسّط في الشكوى من الزمان، والعِتاب، والحِكَم. وقد يكرر بعض المعاني حتى يستوفي المعنى الذي يطلبه. وقد مدح الخليفة المعتضد بالله بعدد من القصائد، منها القصيدة التي يقول فيها[223]:

تجرّد من عضدين سيفٌ مهنّدُ   همام مضت أسلافه فهو أوحدُ
شهابٌ أضاء البدرُ والشمسُ نجله   وغابا فأمسى وهو في الأرض مفردُ
قد اعتضدت بالله والحسن نفسه   فأصبح معضوداً، وما زال يُعضد
فلا يفرحنّ الشامتون فإنما   يُصمّم حدُّ السيف حين يُجرّدُ

* * *

كريمٌ يطلّ الأمس يُعجِل نحوه   تلفُّتَ ملهوف يشتاقه الغدُ
يودّ زمانٌ ينقضي عنه أنه   عليه إلى أن ينفد الدهرُ سرمدُ
تواضع إذ نال التي ليس فوقها   منالٌ، وهل فوق التي نال مصعدُ؟

* * *

وأنت أبو العباس إذ خاض خائضٌ   وإن لزم المُشكِل فأنت أحمدُ
تدبيرٌ لما تكنّى به لذوي النُهى   بشيرٌ لما تسمّى به لا تُفنَّدُ
لك اسمٌ وجدناه بخيرك واعد   وإن قارنته كنيةٌ تتوعّدُ
عداتٌ لمن باتي السداد ورادعا   وعيدٌ لمن يطغى ومن يتمرّدُ
ألا فليخف غادٍ، ولا يخشَ راشد   فعدلُك مسلولٌ وجودك مُغمَدُ

ومدح الكاتب أحمد بن ثوابة بقصيدة طويلة تعتبر نموذجاً لقصائده الطوال في المديح، وقد تنقّل فيها من شكوى إلى عتاب وحِكَم فمديح، وقد بلغت ثلاثة وسبعين ومئة بيت، ومما جاء فيها قوله[224]:

(٢٢٣) أبو الحسن علي بن العباس بن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسن نصّار (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٤)، ج ٢، ص ٧٨٦ - ٧٨٨

(٢٢٤) أبو الحسن علي بن العباس بن الرومي، ديوان ابن الرومي، شرح شريف سليم (القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩١٧)، ج ١، ص ٢٥٥ - ٢٩٥.

أذاقتنيَ الأسفارُ ما كرَّه الغنى ... إليَّ وأغراني برفْضِ المطالبِ
فأصبحتُ في الإثراء أزهدَ زاهدٍ ... وإن كنتُ في الإثراء أرغبَ راغبِ
حريصاً جباناً أشتهي ثم انتهي ... بلحظي جناب الرزق لحظَ المراقبِ
وَمَنْ رَاحَ ذا حرصٍ وَجُبنٍ فإنّه ... فقيرٌ أتاه الفقرُ من كلّ جانبِ
ولَمّا دعاني للمثوبة سيّدٌ ... يرى المدحَ عاراً قبل بذْلِ المثاوبِ
تنازعني رغبٌ ورهبٌ كلاهما ... قويٌ وأعياني اطلاعُ المغايبِ
فقدَّمتُ رجلاً رغبةً في رغيبةٍ ... وأخّرتُ رجلاً رهبةً للمعاطبِ
أخاف على نفسي وأرجو مفازَها ... واستارُ غيبِ الله دونَ العواقبِ
ألا من يُريني غايتي قبل مذهبي ... ومن أين والغاياتُ بعد المذاهبِ؟

* * *

ألا ماجدُ الأخلاقِ حُرٌّ بِعالُهُ ... تُباري عطاياه عطايا السحائبِ
كمثلِ أبي العباسِ إنَّ نوالَهُ ... نوالُ الحيا يَسعى إلى كلّ طالبِ
يسيرُ تحوي عُرْفَهُ فيزورُني ... هنيئاً ولم أركبْ صعابَ المراكبِ
يسيرُ إلى محتاجيهِ فيجودُهُ ... ويكفي أخا الإعمالِ زَمُّ الرُّكائبِ

* * *

كأني أراني قائلاً إذْ أعانني ... تدالكَ على زَيْبِ الخُطوبِ الرُّواهبِ
جُزيتَ العلا من مُستغاثٍ أجابني ... جوابَ ضَحوكِ البرقِ داني الهيادبِ

* * *

ونظم عبد الله بن المعتز في المديح عدداً من القصائد وكان أديباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً، وهو من أكثر الشعراء بديعاً، ويعتبر أول من جمع البديع وألّف فيه كتاباً. توفي سنة ٢٩٦ مقتولاً بعد أن تولّى الخلافة ليوم وليلة. ورغم أنه نظم الشعر في أغراض عديدة، إلا أنه لم يكن من المجلّين فيها إلاّ في الوصف والتشبيه، وفي قليل من قصائده في النسيب. ولذلك لم يبلغ مرتبة فحول عصره من الشعراء سواء في ألفاظه أو معانيه. ويظهر أنه بحكم تربيته كان يقول الشعر ترفاً من غير تعمّق في المعاني والأفكار. وأكثر مدائحه في الخليفة المعتضد بالله وابنه المكتفي بالله، وقد يكون ما قاله فيهما أحسن شعره. من ذلك قوله يمدح المعتضد بالله وهو ابن عمه، ويصف قصر الثريا الذي شيّده[٢٢٥]:

سلمتَ أميرَ المؤمنين على الدهرِ ... ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمْرِ
حَلَلْتَ الثُّريَّا خيرَ دارٍ ومَنزلٍ ... فلا زالَ معموراً وبُوركَ من قصْرِ
فليسَ لَه فيها بني الناسُ مشبهٌ ... ولا ما بَناه الجنُّ في سالفِ الدَّهْرِ
وما زالَ يرعاهُ الإمامُ برأيهِ ... وبالعزِّ والتقديمِ والنَّهي والأمْرِ

ثم ينتقل إلى وصف القصر:

---

(٢٢٥) أبو العباس عبد الله بن المعتز، ديوان ابن المعتز، تحقيق محيي الدين الخياط (دمشق: المكتبة العربية، [د.ت.])، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

جنانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونُها ... فأورَقْنَ بالأثمارِ والورَقِ الخُضْرِ
ترى الطَّيرَ في أغصانهنّ هواتفاً ... تنقّلُ من وكرٍ لهنّ إلى وكْرِ
هجرتَ سواها كلَّ دارٍ عرفتَها ... وحُقَّ لدارٍ غيرِ داركَ بالهَجْرِ
وبنيانُ قصرٍ قد علتْ شرفاتُه ... كصفِّ نساءٍ قد تربّعْنَ في الأُزُرِ
وأنهارُ ماءٍ كالسلاسلِ فُجِّرتْ ... لتُرضعَ أولادَ الرياحينِ والزَّهْرِ
وميدانُ وحشٍ تركضُ الخيلُ وسطَه ... فيؤخَذُ منها ما يشاءُ على قدْرِ

ويعود إلى مدح الخليفة :

حكمتَ بعدلٍ لم يرَ الناسُ مثلَه ... وداويتَ بالرِّفقِ الجموحَ وبالقهْرِ
ولا بأسَ أنكى من تثبّطِ حازمٍ ... ولا درعَ أوقى للنفوسِ من الصبرِ
فكلّ أناسٍ يشهرون أكفّهم ... دعاءً له بالعزِّ فيهم وبالنصْرِ

ومدح ابن المعتز المكتفي بالله ببعض القصائد، منها قوله(٢٢٦):

يا حاديَ الأظعانِ أينَ تريدُ ... إنّي بمن تحدو به لَكَميدُ
قامتْ تودّعني كغصنٍ ناعمٍ ... ضرّبته كفُّ الريحِ فهو يَميدُ
فوضعتُ وجدي بالتنفّسِ والبكا ... ورأيتُ ماءَ المزنِ كيف يجودُ
بالمكتفي كفى الأنامَ همومَهم ... وغدا عليهم طالعٌ مسعودُ
جاءوك يحشرُهُمْ إليك محبةٌ ... طوعاً وسيفُك عنهُمُ مغمودُ
ولطالما قلبتْ إليك نفوسُهم ... وطريقُ بابِك عنهُمُ مسدودُ
فالآن أعتبهم بملكك دهرُهم ... وحلا زلالُ العيشِ وهو شديدُ

* * *

ولما رأوا أُسْدَ الحروبِ وفوقَهم ... شجرُ القنا وثمارُهنّ حديدُ
وقد انتضوا هنديةً مصقولةً ... بيضاً وجوهُ الموتِ فيها سودُ
أعطَوا ندامتَهم وعجَّلَ حَيْنَهم ... ضربٌ وطعنٌ ليس عنهُ محيدُ
فاشدُدْ يديك على عنانِ خلافةٍ ... لكَ إرثُها وبقاؤها الممدودُ

(٢) الهجاء

يقول قدامة بن جعفر: لما كان الهجاء ضد المديح فينظر في أقسام المديح وأسبابه، فيجري أمر الهجاء بحسبها في المراتب والدرجات، وأن يكون ضد المعنى الذي يدلّ عليه المديح. وكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى(٢٢٧). ويرى ابن رشيق أن أبلغ الهجو ما كان بمنزلة الهزل وما اعترض بين التصريح والتعريض، وأن القذف والإفحاش سباب محض ليس للشاعر فيه سوى إقامة الوزن، وأن أجود الهجاء ما سلب الإنسان فضائله النفسية، أما ما كان في الخلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون المطلوب(٢٢٨).

---

(٢٢٦) المصدر نفسه، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٢٢٧) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٩٨.
(٢٢٨) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ج ٢، ص ١٧١ ـ ١٧٤.

والهجاء من الأغراض الشعرية التي أكثر الشعراء فيه النظم فلا يكاد يخلو شعر أي شاعر منه. إلا أنهم يتفاوتون في أسلوبهم وألفاظهم ودرجة غلوّهم وقسوتهم في هجائهم. وهذا ينطبق على شعراء هذا القرن فكلهم قالوا شعراً في هذا الباب، ولكل منهم أسلوبه ونهجه في ذلك. ويمكن القول إن أغلب ما قالوه في الهجاء نهجوا فيه الأسلوب التقليدي القائم على الألفاظ الموجعة من الفحش والإقذاع في ما يتعلق بالخصائص الخُلُقية للمهجو مستهدفين إهانته والطعن فيه.

وأبرز من يمثّل هذا الاتجاه دِعْبل الخزاعي، وقد اختلف في اسمه فقيل الحسن وقيل عبد الرحمن، ودعبل لقبٌ غلب عليه، وهو ابن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي(٢٢٩). وكان دعبل هجّاء مقذعاً «بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحطّ من أقدار الناس، وهجا الخلفاء فمن دونهم»(٢٣٠). وقد استخدم موهبته الشعرية في هذا الغرض من الشعر، ويظهر أن هجاءه انعكاس لخبث طبيعته وفساد طويّته وكرهه للآخرين. ومن لاذع هجائه ما قاله عندما اختفى ابراهيم بن المهديّ عن أنظار المأمون، إذ قال يهجو ابراهيم وكان قد تولى الخلافة ببغداد عندما كان المأمون لا يزال في خراسان(٢٣١):

تعسر ابن شكلة بالعراق وأهله ... فهفا إليه كلُّ أطلسَ مائقِ
إن كان ابراهيم مضطلعاً بها ... فلتصلُحَن من بعده لمخارقِ
ولتصلحنْ من بعد ذاك لِزَلْزلٍ ... ولتَصْلُحَنْ من بعده للمارقِ
أنّى يكونُ وليس ذاك بكائن ... يرثُ الخلافةَ فاسقٌ عن فاسقِ

ولما توفي المعتصم بالله وبويع الواثق بالله بالخلافة قال دعبل(٢٣٢):

الحمدُ لله لا صبرٌ ولا جلدُ ... ولا عزاءٌ إذا أهل البلا رَقَدوا
خليفةٌ ماتَ لم يحزنْ لهُ أحدُ ... وآخرُ قامَ لم يفرحْ به أحدُ
فمرَّ هذا ومرَّ الشؤمُ يتبعُه ... وقام هذا فقامَ الشؤمُ والنَّكَدُ

ووعده أحد أصحابه وقد عاد من الحج أن يهدي له نعلاً، فأبطأ عليه، فكتب إليه دعبل(٢٣٣):

وَعدْتَ النعلَ ثم صَدفتَ عنها ... كأنك تشتهي شيئاً وقذفا
فإنْ لم تُهدِ لي نعلاً فكُنْها ... إذا اعجمتَ بَعْدَ النونِ حرفا

* * *

---

(٢٢٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد او مدينة السلام، ج ٨، ص ٣٨٣ و٣٨٥، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٣٤.

(٢٣٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦.

(٢٣١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١.

(٢٣٢) دعبل بن علي الخزاعي، ديوان دعبل بن علي الخزاعي، تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي (النجف: مطبعة الآداب، ١٩٦٢)، ص ٩٣.

(٢٣٣) التحف والهدايا، ص ٢٢٣.

كما اشتهر ابن الرومي وهو علي بن عباس بن جريج بقسوة هجائه. وجدّه رومي الأصل، إلا أن علياً نشأ ببغداد وتثقف ثقافة عربية اسلامية، وكان يتمتع بموهبة شعرية فائقة، وقد تميّز على معاصريه من الشعراء بأنه كان أكثرهم اختراعاً للمعاني وبحثاً عنها ولا يستخدم من الألفاظ إلا ما كان سهلاً بسيطاً يفهمه القارىء والمستمع العادي. وهو يؤثر المعانيَ عليها، وعندما يقصِّر في موضوع ما «يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية»(٢٣٤). ويقول عنه ابن رشيق «وهو يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته»(٢٣٥).

وكانت «نظرة ابن الرومي إلى الأشياء ونظرته إلى الطبيعة وتفكيره فيما يفكر فيه من المعاني، كل هذا يخالف المألوف عند الشعراء المتقدمين والمعاصرين إلا في شعر أبي تمام»(٢٣٦). أما قسوة هجائه فتعود إلى مزاجه العصبي؛ فكان سريع الغضب لما يمسّه من غبن أو انتقاص منه، فيقذف خصمه بحمم الشتم والإقذاع، أو يصوِّره بأبشع ما في خلقته من نواقص ومعايب. وقال يبرر هجوه الآخرين(٢٣٧):

قيل لي: لِمْ ذممتَ كلَّ البرايا ... وهجوتَ الأنامَ هجواً قبيحا؟
قلت: هَبْ أنني كذبتُ عليهم ... فأروني من يستحق المديحا

نهج ابن الرومي في هجائه أسلوبين، أحدهما تقليدي يقوم على استخدام الشتم والفحش، وآخر تصويري واقعي يعتمد الهزء والسخرية اللاذعة من المهجو بحيث يضحك القارىء أو المستمع منه. إذ يعمد إلى ابراز ملامحه الخاصة ومعايب خَلقه وخُلقه، فيصوره بالصورة التي يريدها له. وهو هجاء فني ساخر كان ابن الرومي مبدعاً فيه ولم يسبقه إليه أحد من الشعراء، كما أنهم عجزوا عن مجاراته فيه، وقد ساعدته قدرته على الوصف والتشبيه في هجائه هذا، فرسم صوراً هزلية ساخرة تعجز ريشة أمهر الرسّامين عن رسمها.

ومن شعره التقليدي في الهجاء قصيدة طويلة هجا بها الشاعر البحتري، شتّمه فيها بأقذع السُّباب وأفحشها، جاء في آخرها(٢٣٨):

يا بحتريُّ لقدْ اقبلتَ منقلباً ... يومَ اكتسبتَ هجائي شرَّ مُنقلبِ
اقسمتُ بالمانحي وجهاً أضنُّ به ... على السؤالِ وعِرضاً غيرَ مُنتَهبِ
وبُنيةً عصمتني ان ارى نَجِفاً ... بين باعةِ السرُّوجة الروحاء بالنّصبِ
ما مُشْبعٌ قربكَ المكروهَ ذا رشدٍ ... يا قريبةَ النّفطِ لا قُدِّستَ في القُرَبِ
وأيّ نفطٍ كرشحٍ انتَ راشحهُ ... سوادُ لونٍ ونتناً غيرَ مكتسبِ
كم قائلٍ لكَ، إذا مسَّتكَ قارعةٌ ... دعِ السكونَ فهذا حينُ مُضطربِ

---

(٢٣٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٣.
(٢٣٥) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ج ١، ص ١٢٦.
(٢٣٦) طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١)، ص ١٣٧.
(٢٣٧) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسن نصار، ج ٢، ص ٥٦٩.
(٢٣٨) المصدر نفسه، شرح شريف سليم، ج ١، ص ٤٢٦.

أصبحتَ تُدعى شقيَّ الأشقياءِ لما | وأصبحتَ بكَ تدعى قِرْنِيةَ الذِّرِبِ
أبا عُبادةَ ذَرْ ما كنتَ تنسِجُهُ | وخُذْ لِنفسِكَ يا مسكينُ في النُّدَبِ
قَدْ كُنتَ تعرفُ مني في الرضا رجلاً | حلوَ المذاقةِ فاعرِفْني لدى الغضبِ
تعرفُ فيَّ فيه طوراً مجتنى سلعٍ | للمجتنين وطوراً مجتنى رُطَبِ

وهجا سوّار بن أبي شراعة بقصيدة منها[239]:

أرى العصفورَ يعجِبُكُ بالفِخاخِ | وما لِجِناقِهِ فيها مراخي
وقال الشعرَ يُضرِبُ فيه حتى | لخيلٍ من اليمامةِ أو أضاخِ
ولم يجنِ المسامعُ منه معنىً | وهل تُجني الثمارُ من السِّباخِ؟
وعرِّضْ عِرضَه عمداً لشعري | ليغسلَ عِرضَه بعد اتّساخِ
ولم يكُ غاسلاً ثوباً بنارٍ | أخو عقلٍ يُعَدُّ ولا طَبَّاخِ
تسامى الناسُ في دَرَجِ المعالي | وما سَوّارُ إلّا في مساخِ
وإنّ بالسموِّ لِذي سَفالٍ | فسيخِ الطُّعمِ مِن نَفرٍ بِساخِ

ومن هجائه الفنّي الساخر، قال يهجو بخيلاً اسمه عيسى[240]:

يُقتِّرُ عيسى على نفسِهِ | وليسَ بباقٍ ولا خالدِ
فلو يستطيعُ لتقتيرِهِ | تنفّسَ مِن مِنخرٍ واحدِ
عذرْناه أيامَ إعدامِهِ | فما عُذرُ ذي بَخلٍ واجدِ

وقال يهجو رجلاً ذا لحية طويلة عريضة[241]:

إن تَطُلْ لِحيةٌ عليكَ وتعرضْ | فالمخالي معروفةٌ للحميرِ
علّقَ اللهُ في عِذاريكَ مخلا | ةً ولكنّها بغيرِ شعيرِ
لو غدا حُكمُها إليّ لطارتْ | في مهبِّ الرياحِ كلَّ مطيرِ

* * *

وجاء في شعر أبي تمام عددٌ من قصائد الهجاء، قال أغلبها في أشخاص معدودين يكرر هجاءهم. وهو في أكثر هجائه معتدل قليل الإفحاش، ويحاول إفحام خصمه لا شتمه، ويكاد أن يكون منطقياً في هجائه شأن شعره في الأغراض الأخرى. فقد هجا عُتبة بن أبي عاصم بأبيات هي[242]:

أعتبةُ اجنُنُ الشُّغلَيْنِ عَتْباً | بجهلِكَ صرتَ للمكروهِ نَصْبا
رُميتَ بِمَنْ لو انّ الجِنَّ ترمى | بهِ لتنهّبَتْها الإنسُ نَهْبا
وإنّكَ إن تساجلني لَجُذْني | لرأسِكَ جَندلاً ولِفيكَ تُرْبا
تجدْ صِلاً تخالُ بكلّ عضوٍ | لهُ من شدّةِ الحركاتِ قلبا

---

(٢٣٩) المصدر نفسه، تحقيق حسن نصار، ج ٢، ص ٥٧٨ - ٥٨١.
(٢٤٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤١ - ٦٤٢.
(٢٤١) الحاتي، النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي، ص ١٦٧.
(٢٤٢) حبيب بن أوس أبو تمام، ديوان أبي تمام، قدّم له عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى (مصر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ١٩٤٢)، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

أخنا المقبلوات قد احسيبي وأردي		ركاباً في صحاصحها وركبا
فكاد بأن يرى للشرق شرقاً		وكاد بأن يرى للغرب غربا
وأنت تديرُ قطبَ رحى عليّا		ولم ترَ لِلرُّحى العلياءِ قُطْبا
ترى ظفراً بكلِّ صراعِ قِرنٍ		إذا ما كنتَ أسفلَ منه كعْبا
تكلتُ قصائدي إن سرَّ يومٌ		وأمّا اقضِ فيه منكَ نَحْبا
وكنتُ إذنْ كأنتَ فإنَّ مِثلي		إذا ما كانَ مثلَكَ كانَ كلْبا

وقال يهجو يوسف السرّاج الشاعر المصري:

أيوسفُ جئتَ بالعجبِ العجيبِ		تركتَ الناسَ في أمرٍ مُريبِ
سمعتُ بكلِّ داهيةٍ نآدٍ		ولم أسمعْ بسرّاجٍ أديبِ
أمَا لو أنَّ جهلَكَ كانَ علماً		إذاً لنفذتَ في علمِ الغيوبِ
فما لكَ بالغريبِ يدٌ ولكنْ		تعاطيكَ الغريبَ منَ الغريبِ
فلو نُبِشَ المقابرُ عن زُهيرٍ		لصرّحَ بالعويلِ وبالنحيبِ
متى كانتْ قوافيهِ عيالاً		على تفسيرِ بقراطَ الطبيبِ
فكيفَ ولم يزلْ للشعراءِ ماءٌ		يرفُّ عليهِ ريحانُ القلوبِ
أرى ظُلْميكَ إنصافاً وعدلاً		وذنبي فيكَ تكفيرُ الذنوبِ

* * *

وكان البحتري كثير المدح، كثير الهجاء، إلا أن ما تركه من هجاء على قلّته لم يكن من البلاغة والمعاني ما تميز به شعره في المديح والوصف، الأمر الذي يستنتج منه أنه لم يكن حريصاً على هذا الغرض من الشعر. ولعلّ هذا يفسّر قلة أبيات قصائده الهجائية. وجاء هجاؤه تقليدياً محشواً ببذيء الكلام، قاسي المعنى. فقد هجا الشاعر عليّ بن الجهم بهذه الأبيات[243]:

يا ثقيلاً على القلوبِ إذا عنـ		ـنَ لها أيقنتْ بطُولِ الجهادِ
يا قذىً في العيونِ يا غُلّةً بيـ		ـنَ التراقي حزازةً في الفؤادِ
يا طلوعَ العذولِ ما بينَ إلفيـ		ـنِ يا غريماً أتى على ميعادِ
يا رُكوداً في يومِ غيمٍ وصيفٍ		يا وجوهَ التجارِ يومَ الكسادِ

وقال يهجو ابن عمرو بن مسعدة[244]:

قدْ لَعمري آذيْتَنا		يا ابنَ عمرو بنِ مَسْعَدهْ!
بأحاديثِكَ التي		هي للعقلِ مَفْسَدَهْ
فأحاديثُكَ الطّوا		لُ صُخُورٌ مُنضّدهْ
وأحاديثُكَ القصا		رُ قِلالٌ مُبرَّدَهْ!

وقال يهجو ابن بسطام[245]:

---

(243) البحتري، ديوان البحتري، ج ٢، ص ٧٩٨.
(244) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٢٧.
(245) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١١٥.

لله دَرُّكَ قـد اكـمـلـتَ أربـعـةً	مـا هُنَّ في أحـدٍ مـن سَـائِـرِ الـبَشَرِ
الـجـرْضُ مُمتَـهـنٌ، والـنـفسُ سـاقـطةٌ	والـوجـهُ من سَفَنٍ، والعـينُ مِن حَجَـرِ

(٣) الرثاء

لا يرى قُدامة بن جعفر بين المرثية والمِدحة فصلاً إلاّ أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: كان، وتولّى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك، أي أن تأبين الميت ورثاءه إنما هو بمثل ما كان يُمتدح به في حياته، وأن اصابة المعنى في الرثاء وتحقيق غرضه هي أن يجري الأمر فيه على سبيل المديح في استيعاب الفضائل الأربع التي سبق ذكرها[٢٤٦]. ويرى القيرواني أن سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام، وبخاصة إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً، وأن يكون مجملاً كالمدح، فيقع موقعاً حسناً لطيفاً[٢٤٧].

وأبو تمام نوّاحة مدّاحة، كما وصفه البحتري، فهو يجمع في مراثيه بين المدح والرثاء، باعتبار أن الرثاء مدح الميت، فيضفي على المرثي من الأوصاف والمديح ويطنب في ذلك ويحتجّ له، إلى جانب ما يعبر عنه من ألم ممض وحسرة عميقة، ما يزيد في لهفته وعميق تفجّعه، مما جعل شعره في هذا حيّاً خلّد به من رثاهم، ومن جيّد شعره في هذا الباب ما قاله في أخ له حضر وفاته، إذ يقول[٢٤٨]:

إني أظنُّ الـبِـلى لـو كـانَ يـفـهَـمُـه	صـدَّ الـبِلى عن بقـايـا وَجْهِـهِ الحسنِ
يـا يَـوْمَـهُ لم تَـدعْ حُـسْـنـاً ولا أدبـاً	إلاّ حـكـمـتَ بـه لـلَّحـدِ والـكـفـنِ
لله مـقـلـتُـه والـمـوتُ يـكـسـرُهـا	كـأنَّ أجـفـانَـهُ سَكْـرى مِـن الـوسَـنِ
يـردُّ أنـفـاسَـهُ كُـرْهـاً وتَـعـطِـفُـهـا	يـدُ المنيّـة عـطفَ الـريـحِ للغُصُنِ
يـا هـولَ مـا ابصـرتْ عيني ومـا سمعتْ	أذني فـلا أبـصـرتْ عـيْـني ولا أُذُني
لم يـبـقَ مـن بـدَني جـزءٌ عـلـمـتُ بـهِ	إلاّ وَقـدْ حـلّـه جـزءٌ مِـنَ الحَزَنِ
كـان الـلحـاقُ بـه أحـنى وأحـسـنَ بي	مـن أن أعيش سقـيـمَ الـرُّوحِ والـبَـدَنِ

ورثى القائد العربيّ خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني بقصيدة طويلة، منها قوله[٢٤٩]:

نـعـاني إلى كـل حـيٍّ نُـعـاتـي	فـتى الـعُـربِ اخـتطَّ رَبْـعَ الـفَـنَـاءِ
أصِـبْـنَـا جـمـيـعـاً بِـسـهـمِ الـنِّـضـالِ	فـهـلّا أصِـبْـنَـا بـسـهـمِ الـغَـلاءِ
ألا أيُّـهـا الـمـوت فَـجَـعْـتَـنَـا	بِـمـاءِ الـحـيـاةِ ومـاءِ الـحـيـاءِ
فـماذا حـبـوتَ بـهِ حـاضـراً	ومـاذا خـبـأتَ لأهـلِ الـخِـبـاءِ
نَـعَـاةٌ نـعـاه شـقـيـقَ الـنـدى	إلـيـه نـعـيّـاً قـلـيـلَ الـجَـداءِ
وكـانـا جـمـيـعـاً شـريـكَـيْ عِـنـانٍ	رضـيـعَـيْ لِـبـانٍ خـلـيـلَي صَـفـاءِ

---

(٢٤٦) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٩٨ ـ ١٠١.

(٢٤٧) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ج ٢، ص ١٤٧ ـ ١٥٠.

(٢٤٨) أبو تمام، ديوان أبي تمام، قدّم له عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

على خالد بن يزيد بن مز ... يدِ أمسرَ دمعاً نجيعاً بماءِ
ولا تسرينَّ البكا سُبَّةً ... والعمقِ جوىً بلهيبِ رُوَاءِ
فقد كبُرَ الرزءُ قدرَ الدموعِ ... وقد عظُمَ الخطبُ شأنَ البكاءِ
فباطنُهُ ملجأً للأسى ... وظاهرُهُ مَيْسَمٌ للوفاءِ
مضى الملِكُ الوائليُّ الذي ... حَلَبْنا به العيشَ وُشْعَ الإناءِ
فأودى النَّدى ناضرَ العودِ والـ ... ـفتوَّةِ مغموسةً في الغناءِ
وأضحتْ عليه العُلا خُشَّعاً ... وبيتُ السماحةِ مُلقى الكفاءِ

* * *

غليلي على خالدٍ خالدٌ ... وضيفُ همومي طويلُ الثَّواءِ
فلمْ يُجزني الصبرُ عنهُ ولا ... تقنَّعتُ عاراً بلومِ العزاءِ
تذكرتُ نظرةَ ذاك الزمانِ ... لذيهِ وعمرانَ ذاك الفِناءِ
وزوَّارُهُ للعطايا حضورٌ ... كأنَّ حضورَهُمُ للقضاءِ

* * *

وكان البحتريّ قليل الشعر في الرثاء، وقلّما رثى أحد ممدوحيه بعد موته. وللنقاد في ذلك تفسيرات متباينة. وتعتبر مرثيته للمتوكل على الله فريدة في هذا الباب ومن أجود ما قيل في معناها. وقد كان شهد مصرعه في مجلسه، جاء فيها[٢٥٠]:

محلٌّ على «القاطول» أخلقَ داثرُهْ ... وعادت صُروفُ الدهرِ جيشاً تُغاوِرُهْ
كأنَّ الصَّبا تُوفي نُذوراً إذا انبرت ... تُراوِحُهُ أذيالُها وتُباكِرُهْ
ورُبَّ زمانٍ ناعمٍ ـ ثمَّ ـ عَهْدُهُ ... تَرِقُّ حَواشيهِ، ويُونِقُ ناضِرُهْ
تغيَّرَ حُسْنُ «الجعفريِّ» وأُنْسُهُ ... وقُوِّضَ بادي «الجعفريِّ» وحاضِرُهْ
تحمَّلَ عنهُ ساكنوهُ فُجاءةً ... فعادتْ سَواءً دُورُهُ ومَقابِرُهْ
إذا نحنُ زُرْناهُ أجدَّ لنا الأسى ... وقدْ كانَ قبلَ اليومِ يَبهجُ زائِرُهْ
ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذ رِيعَ سِربُهُ ... وإذْ ذُعِرَتْ أطلاؤُهُ وجآذِرُهْ
وإذْ صِيحَ فيهِ بالرَّحيلِ فهُتِّكَتْ ... على عَجَلٍ أستارُهُ وستائِرُهْ

* * *

صريعٌ تقاضاهُ السيوفُ حُشاشةً ... يجودُ بها الموتُ والموتُ حُمرٌ أظافِرُهْ
أدافِعُ عنهُ باليدينِ ولمْ يكنْ ... ليَثني الأعادي أعزلُ الليلِ حاسِرُهْ
ولوْ كانَ سيفي ساعةَ القتلِ في يدي ... دَرى القاتلُ العَجلانُ كيفَ أساوِرُهْ
حرامٌ عليَّ الرَّاحُ بعدكَ أو أرى ... دماً بدمٍ يجري على الأرضِ مائِرُهْ
وهلْ أرتجي أنْ يطلبَ الدَّمَ واترٌ ... يدَ الدهرِ، والموتورُ بالدَّمِ واتِرُهْ؟!
أكانَ وليُّ العهدِ أضمرَ غَدْرةً؟ ... فمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّيَ العهدَ غادِرُهْ!
فلا مُلِّيَ الباقي تُراثَ الذي مضى، ... ولا حمَلتْ ذاكَ الدُّعاةَ منابِرُهْ!
ولا وَأَلَ المشكوكُ فيهِ ولا نجا ... من السَّيفِ ناضي السيفِ غَدْراً وشاهِرُهْ
لنِعْمَ الدَّمُ المسفوحُ ليلةَ «جعفرٍ» ... هَرَقْتُمْ، وجُنْحُ الليلِ سُودٌ دَياجِرُهْ

(٢٥٠) البحتري، ديوان البحتري، ج ٢، ص ١٠٤٥ - ١٠٤٩.

كأنكم لم تعلموا مَنْ وليُّهُ ... وناعيه تحت المرهفات وثائرُهْ
وإني لأرجو أن تردَّ أموركم ... إلى مُخلِفٍ من شخصه لا يغادرُهْ
مُقلَّبِ آراءٍ تخافُ أناتُهُ ... إذا الأخرقُ العَجْلانُ خيفتْ بوادرُهْ

وللشاعر الحسين بن الضحّاك، على قلّة شعره، عدةُ مراثٍ أجاد فيها، قالها بعد قتل الخليفة محمد الأمين، وكان من أقرب ندمائه إليه. ورثاؤه فيه صادق العاطفة مليء بالوفاء والألم، فقد قال في إحدى مراثيه فيه[251]:

يا خيرَ أُسرتِهِ وإن زعموا ... إنّي عليك لمُثبَتٌ أسِفُ
اللهُ يعلمُ أن لي كبداً ... حَرّى عليك ومُقلةً تكِفُ
ولئِن شَجيتُ لِما رُزئتُ به ... إني لأضمِرُ فوقَ ما أصِفُ
هلاّ بقيتَ لسدِّ فاقتِنا ... أبداً وكان لغيرِكَ التَّلَفُ
فلقد كانَ فيكَ لِمَن مضى خَلَفٌ ... ولسوفَ يعوزُ بعدَكَ الخَلَفُ
لا بات رهطُكَ بعد هفوتِهِم ... إنّي لِرَهطِكَ بعدَها شَنِفُ

* * *

مَلِكٌ تخوَّنَ مُلكَهُ قَدَرٌ ... فَوَهى وصرفُ الدهرِ مختلِفُ
هيهاتَ بعدَكَ أن يدومَ لنا ... عِزٌّ وأن يبقى لنا شَرَفُ
لا هيَّبوا صُحُفاً مُشرَّفةً ... للغادرين تحثُّها الجِدَفُ
أفَبَعدَ عهدِ اللهِ تقتُلُهُ ... والقتلُ بعد أمانِهِ سَرَفُ
فستعرفونَ غداً بعاقبةٍ ... عِزَّ الإلهِ فأُورِدوا وقِفوا
يا مَن تخوَّنَ نومَهُ أرَقٌ ... هَدَتِ الشجونُ وقلبُهُ لَهِفُ
قد كنتَ لي أملاً غنيتُ به ... فمضى وحلَّ محلَّهُ الأسَفُ
مَرِجَ النظامُ وعادَ منكرُنا ... عُرفاً وأُنكِرَ بعدَهُ العُرُفُ
والشملُ منتشِرٌ لفقدِكَ والدنيا سُدىً والبابُ منكسِفُ

* * *

وممّن أحسنَ الشعر في الرثاء ابن الرومي، وله عدد من القصائد الباكية، وقد رثى ابنه بأرقّ ما عبرت عنه عواطفه الملتاعة كأب فجع بابنه العزيز، فقال في قصيدة طويلة، منها[252]:

بُكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجدي ... فجودا فقد أودى نظيركما عندي
بُنَيَّ الذي أهدَتْهُ كفّاي للثرى ... فيا عزّةَ المُهدى ويا حسرةَ المُهدي
ألا قاتلَ اللهُ المنايا ورَمْيَها ... مِنَ القومِ حبّاتِ القلوبِ على عَمْدِ
توخّى حِمامُ الموتِ أوسطَ صبيتي ... فلله كيف اختارَ واسطةَ العِقْدِ

* * *

عجبتُ لقلبي كيفَ لم ينفطرْ لهُ ... ولو أنّهُ أقسى من الحجرِ الصَّلدِ

---

(٢٥١) أشعار الحسين بن الضحّاك، ص ٧٨ ـ ٨٠.

(٢٥٢) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسن نصار، ج ٢، ص ٦٢٤ ـ ٦٢٧.

بسودّي أني كنت قد قُدّمت قبله ... وأن المنايا دونه صَمَّمدت صَمْدي
ولكنَّ ربّي شاء غيرَ مشيئتي ... وللربّ إمضاءُ المشيئة لا العبدِ

* * *

أودُّ إذا ما الموت اوفد مَعْشَراً ... إلى عَسْكرِ الأمواتِ أنّي مِن الوَفْدِ
وَمنْ كان يستهدي حبيباً هديةً ... فطيفُ خيالٍ منكَ في النوم أستهدي
عليك سلامُ الله مني تحيةً ... ومنْ كلّ غيْثٍ صادقِ البرقِ والرَّعدِ

(٤) النسيب

والنسيب كما يحدّده قدامة هو ذكر خَلْق النساء وأخلاقهن وتصرُّف أحوال الهوى به معهنّ، وهو يفرّق بين النسيب والغزل. فالغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهنّ من أجله. فكأن النسيب ذكر الغزل الذي يتمثّل بالتّصابي والاستهتار بمودات النساء. ويرى أن ما يميلهن إليه هو الشمائل الحلوة، والمعاطف الظريفة، والحركات اللطيفة، والكلام المستعذب، والمزاح المستغرب. ولهذا فإن النسيب الذي يتم به الوصول إلى الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة[٢٥٣]. ولذا كان مما يُحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة، فإذا ما كانت جاسية جافة كان ذلك عيباً في شعر النسيب[٢٥٤].

ويرى صاحب العمدة أن النسيب والغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد، وهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن، ويجب أن يكون حلو الألفاظ رسلها، قريب المعاني سهلها، وأن يُختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، شفّاف الجوهر، يطرب الحزين ويستخفّ الرَّصين. ومن سُحكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده متصلاً به[٢٥٥].

ونظم شعراء هذا القرن في الغزل والنسيب إما كمقدمة لغرض شعري آخر، أو لغرض التشبيب ذاته. ويُعتبر البحتري أرقّ الشعراء نسيباً وأملحهم طريقة فيه. ومن جيّد غزله إذ يذكر حبيبته علوة قوله[٢٥٦]:

ردّت عليّ هديّةً لو أنها ... بَعَثَتْ إليّ بمثلها لم أرْدُدِ
وتقولُ: إنّي قد تركتُ غوايتي ... فاذْهبْ لشأنِك راشداً لم تُطْرَدِ
قد كنتُ الفتى من أخي وعُمومتي ... فبِكَ الأذى بشتيمتي وتَهدُّدي
فاليومَ أقصرْ بباطلٍ، وتَراجَعتْ ... نفسي بحُسْنِ تَصَوُّنٍ وتجلُّدِ
نبذتْ مُكاتبتي، وردّ رسائلي ... وتبدَّلتْ بمصابحِها في المَسْجدِ
إن كان سفكُ دمي بغير جنايةٍ ... يا علوَ منكِ عبادةً فتعبَّدي

* * *

(٢٥٣) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ١٢٣.
(٢٥٤) المصدر نفسه، ص ١٩٢.
(٢٥٥) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج ٢، ص ١١٦ - ١١٧.
(٢٥٦) البحتري، ديوان البحتري، ج ٢، ص ٧٦٢ - ٧٦٣.

فَسَلي فُؤادَكِ كيفَ عاصى بَعدَنا ... قد كانَ يَنبغي ذليلَ المِقوَدِ
أيامَ يَرصُدني أخوكِ بسيفِهِ، ... والسيفُ يَمنعُه، ويَمنعُهُ يَدي

ومن رقيق شعره في النسيب قوله[257]:

أَمِنْ نَظري إليكِ صَدَدتِ عنّي ... وَواجَهني التفاتُكِ بالوَعيدِ
فَأَجرُ نظرةٍ كانتْ وعيداً ... وأوّلُ نظرةٍ سببُ الصُدودِ
فأيُّ النظرتَينِ أشدُّ شُؤماً ... وأقربُ مِن مُساعَدةِ الحَسودِ؟
وما بَرِحتْ ظُنونُكِ فيَّ حتى ... تَناولَني عِقابُكِ مِنْ جَديدِ

وقوله[258]:

إنّي وإنْ جانَبْتُ بَعضَ بَطالتي ... وَتَوهَّمَ الواشونَ أني مُقصِرُ
ليَشُوقُني سِحرُ العيونِ المجتلى ... ويَروقُني وَردُ الخدودِ الأحمرُ

* * *

ومن وُصف بجودة شعره في الغزل الحسين بن الضحاك الذي اعتبره أبو نواس أشعر أهل زمانه في الغزل[259]. ومن جيّد غزله قوله[260]:

بنفسي حبيبٌ لا يَمَلُّ التعتُّبا ... إذا زدتُه في الصدرِ زادَ تَغَضُّبا
يُطيلُ ضِراري بامتحانِ صَبابتي ... وقد عَلِمَ المكنونَ منه المُغَيَّبا
فلستُ أناجي غيرَه مذ عَرفتُه ... وأنظُرُ إلّا خائفاً مُترَقِّبا
أيا مَنْ تَجنّى الذنبَ أعلمُ أنه ... على ثِقةٍ أنْ لستُ بالغيبِ مُذنِبا
أما لخُضوعي من ضَميرِكَ شافعٌ ... من السُقمِ قد يَشفي المُلحُّ المُعذَّبا؟

وقوله[261]:

رَمَتْكَ غداةَ السبتِ شمسٌ من الخُلْدِ ... بسهمِ الهوى عَمْداً ومَوتُكَ في العَمْدِ
مُخَشَّاةُ الأطرافِ رُؤْدٌ شَبابُها ... مُعَقرَبةُ الصُدغَينِ كاذبةُ الوَعْدِ
أقولُ ونفسي بينَ شوقٍ وزَفرةٍ ... وقد شَخَصت عيني، ودَمعي على الخدِّ
أجيزي على مَن قد تركتِ فؤادَهُ ... بِلَحْظَتِهِ بينَ التأسُّفِ والجَهْدِ
فقالتْ: عذابٌ بالهوى مَعَ قُربِكم ... ومَوتٌ إذا اقترحت قلبَك بالبُعْدِ

وقوله[262]:

كَأنّي إذا فارقتُ شخصكِ ساعةً ... لِفَقْدِكِ بينَ العالمينَ غريبُ

---

(٢٥٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٨٧.
(٢٥٨) القيرواني، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٩.
(٢٥٩) الأصبهاني، الأغاني، ج ٧، ص ١٧٤.
(٢٦٠) أشعار الحسين بن الضحّاك، ص ٣١، وأبو بكر محمد بن داود، الزهرة (بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٣٢)، ص ١٤٥، مع اختلاف طفيف ببعض الألفاظ.
(٢٦١) أشعار الحسين بن الضحّاك، ص ٤٤، والأصبهاني، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٠٩.
(٢٦٢) أشعار الحسين بن الضحّاك، ص ٢٦، وابن داود، المصدر نفسه، ص ١٦٦.

وَقَـدْ رمتُ أسبابَ السُّلُوِّ فَخانني ... ضَميرٌ عليهِ مِنْ هَواكِ رقيبُ
فما لي إلى ما تشتهينَ مُسارعٌ ... وفيمَ لك عمّا لا أُحبُّ قريبُ
أَغَرَّكِ صَفْحي عن ذنوبٍ كثيرةٍ ... وغضّي على أشياءَ منكِ تُريبُ
كأنْ لم يكنْ في الناسِ قبلي مُتيَّمٌ ... ولم يكُ في الدُّنيا سِواكِ حبيبُ
إلى اللهِ أشكو إذ ذكرتِ فلم يكُن ... لشكوايَ مِنْ عَطْفِ الحبيبِ نصيبُ

ولابن الرومي غزل رقيق مشبوب العاطفة. ويظهر أن ما قاله في هذا الباب كان ردَّ فعل لحرمانه. وقد أبدع في عدد من القصائد الغزلية وبخاصة تلك التي تغزَّل بها في جارية اسمها وحيد. فمن قوله فيها[263]:

يا خليليَّ تيَّمتني وحيدُ ... ففؤادي بها مُعنًى عميدُ
غادةٌ زانَها من الغُصنِ قدٌّ ... ومِن الظبيِ مُقلتانِ وجيدُ
وزها من فَرْعِها من الخدِّ ... دَيْنِ ذاك السوادُ والتوريدُ
أوقدَ الحسنُ نارَهُ من وحيدٍ ... فوقَ خدٍّ ما شانَهُ تخديدُ
فهي بردٌ بخدِّها وسلامٌ ... وهي للعاشقينَ جهدٌ جهيدُ

* * *

وحسانٍ عرضنَ لي قلتُ: مهلاً ... عن وحيدٍ، فحقُّها التوحيدُ
حُسْنُها في العيونِ حُسنٌ وحيدٌ ... فلها في القلوبِ حُبٌّ وحيدُ
وتَصبيحٌ يلومُنا في هواها ... ضلَّ عنه التوفيقُ والتسديدُ
لو رأى مَن يلومُ فيه لأضحى ... وهو المستَريبُ المستَزيدُ

* * *

ضافني حبُّك الغريبُ فالوى ... بالرُّقادِ النسيبِ فهو طريدُ
عجباً لي أنَّ الغريبَ مقيمٌ ... بين جَنْبيَّ والنسيبَ شريدُ
قد مَلِلْنا مِنْ شَتّرِ شيءٍ مليحٍ ... تشتهيهِ، فهل لهُ تجريدُ؟
هو في القلبِ وهو أبعدُ من نجـ ... ـمِ الثُّريا، فهْوَ القريبُ البعيدُ

ومن جيِّد شعره في الغزل[264]:

قلبي إليكِ وإن أعرضتِ، منقادُ ... ليستْ عليك، وإنْ أذنبتِ، أحقادُ
أنتِ الحياةُ فإنّي عنكِ منصرفي ... وإن بدا منكِ إقصاءٌ وإبعادُ
احببتُ مُذْ عَلِقَتْ نفسي بحبِّكُم ... صوتاً يخفِّي لقلبي فيه إقصادُ
شوقي إليكِ على الأيامِ يزدادُ ... والقلبُ بعدَكِ للأحزانِ معتادُ

* * *

---

(٢٦٣) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسن نصار، ج ٢، ص ٧٦٢ ـ ٧٦٥.
(٢٦٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٩٧

ولابن المعتز بعض القصائد في الغزل، وأكثرها في حبيبته شرّة، ومن جميل قوله فيها[٢٦٥]:

قف خليلي نسألْ لشرّةَ دارا ... أو محلاً منها خلاءً قفارا
ألْبَستني سُقماً أقام وسارتْ ... واستجابَ قلبي إليها فطارا
لي حبيب مكذّبٌ بالأماني ... جعلَ الدهرَ مَوعِداً وانتظارا
ضاعَ شوقي إليكِ لو تعلمين ... باتَ بين الأحشاءِ يوقدُ نارا
ويناجي بناتِ نعشٍ بذكرا ... كِ إذا الليلُ ألبسَ الأرضَ قارا
وسؤالي عن بلدةٍ أنتِ فيها ... أتلقّى من نحوكِ الأخبارا
ما رأينا شبيهاً لشرّةَ في النا ... سِ فَسُقياً بشرّةَ الأمطارا

وقال فيها أيضاً[٢٦٦]:

أغارُ عليكِ من قلبي إذا ما ... رآكِ وقد تنأيتِ وما رآكِ
وطيفي حين غبتِ فباتَ ليلاً ... يسيرُ ولم أسِرْ حتى أتاكِ
وغيثاً جادكِ ربيعاً منك قفراً ... أليس كما بكيتك قد بكاكِ
ومن عين الرسولِ ومن كتابٍ ... إذا ما فضّ مُشتْغِهُ يداكِ
ومن طرَفِ القضيبِ من الأراكِ ... إذا أعطيته يا شرُّ فاكِ

ومن رقيق غزله قوله[٢٦٧]:

أبى القلبُ إلا حبَّ مَن هو هاجرُ ... ومَن هو يَنْساني ومَن هُوَ ذاكرُ
ومَن هو عني كلّما جئتُ مُعرِضٌ ... ومَن لا يوافيني ومَن أنا عاذِرُ
فكيفَ بعشوقٍ يُحَبُّ ويُشتَهى ... أأكتمه وجدي به أم أجاهرُ؟
وكيفَ يراني إن بدا ليَ مَنْعُه ... أأتركُه زاهداً به أم أكابِرُ؟

* * *

ولأبي تمام مقاطع شعرية قصيرة في النسيب، وهي على قلّة عدد أبياتها نهج فيها الشاعر منهجه في عمق المعاني وقوة البيان مع وعورة اللفظ، فجاء غزله خالياً من الرقة واللطافة والعاطفة المشبوبة، مما يجب توفره في هذا النوع من الشعر. ولذلك لم يلقَ النسيب في شعر أبي تمام ما لقيه نسيب الشعراء البارزين الآخرين. يقول ابن رشيق انه «لم تكن له حلاوة توجب له حسن التغزل، وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال قصائده»[٢٦٨]. وفي ما يلي بعض من القطع التي قالها في النسيب[٢٦٩]:

وبديعُ الجمالِ يضحكُ عن اضـ ... ـوائه والبدرُ عندَ بدوِ الطلوعِ
ما اجتلته عينُ التجمّلِ إلاّ ... رجعت منه عن جمالٍ بديعِ

---

(٢٦٥) المصدر نفسه، شرح شريف سليم، ج ١، ص ٩٩.
(٢٦٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٢.
(٢٦٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٠.
(٢٦٨) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ج ٢، ص ١١٩.
(٢٦٩) أبو تمام، ديوان أبي تمام، قدّم له عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى، ص ٣٨٢.

كلّما منظر رأيت من الحسـ ـن فنفسيه جميعُ ذاك الجميع
غير أنّ العيون تجني بأيدي اللحظ من وجنتيه زهر الربيع

وقال[270]:

سقى الله من أهوى على بُعد نأيه وإعراضه عني وطول جفائه
أبى الله إلاّ أن كَلِفْتُ بحبّه فأصبحتُ فيه راضياً بقضائه
وأفردتُ عيني بالدّموع فأصبحتْ وقد غصَّ فيها كلُّ جفنٍ بمائه
فإنْ مِتُّ مِنْ وَجْدٍ به وصبابةٍ فكمْ مِنْ مُحبٍّ ماتَ قبْلي بدائه

وقال[271]:

يا جفوناً سواهر أعْدَمتْها لذّةَ النوم والرقادِ جفونُ
أين منكِ الدّما فقد نفدَ الدمعُ الذي تمتريه منكِ الحزينُ
بليَ الجسمُ لكنْ الشوق حيٌّ لشيءٍ يُبلى وليس تبلى الشجونُ
إن لله في العبادِ منايا سلَّطتها على القلوبِ العيونُ

(٥) الوصف والتشبيه

الوصف، على رأي قدامة، هو ذكر الشيء كما هو عليه من الأحوال والهيئات. ولما كان أكثرُ وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركّبة من ضروب المعاني كان أحسنهم فيه من أتى في شعره بأكثر المعاني التي يتركب منها الموصوف، وبأظهرها حتى يحاكيه بشعره ويمثّله للحسن بنعته[272]. أما التشبيه فهو، على رأيه، إنما يقع بين شيئين فيهما اشتراك في معانٍ يوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها، ولذا فإنّ أحسن التشبيه هو ما جمع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، بحيث يرقى بهما إلى حالة الاتحاد[273]. ويلاحظ أن التشبيه يُستخدم في شتى أغراض الشعر، وهو في الوصف والمديح وما يتفرّع عنهما أظهر وأوضح. وكلا الوصف والتشبيه أكثر استخداماً في أغراض الشعر الأخرى. وقد تفاوت الشعراء في استخدامهما لما يتطلبان من حسٍّ مرهف وشعور عميق، ودقة في التمييز. ولهذا برع عدد قليل من الشعراء بهذا النوع من الشعر.

وعلى رأس الشعراء المجيدين للوصف والتشبيه أبو عبادة البحتري الذي كان مجيداً فيهما إجادته في المديح، ولكنه كان فيهما أكثر دقة وأعمق تفصيلاً. وأكثر وصفه لوحات فنيّة بما يأتي به من ألفاظ عذبة سهلة ونعوت حلوة ترتاح إليها النفس، فيقف القارىء أمامها

(٢٧٠) المصدر نفسه، ص ٣٦٤.
(٢٧١) المصدر نفسه، ص ٣٩٣.
(٢٧٢) مقدمة في الشعر، ص ١١٨.
(٢٧٣) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

مبهوراً. ومن روائع وصفه وتشبيهاته، وصف بركة المتوكل على الله وقصوره. فقد قال واصفاً البركة(٢٧٤):

يا مَنْ رأى البركة الحسناءَ رؤيتَها … والآنسات إذا لاحتْ مَغَانيها
بحسْبِها أنّها من فضلِ رُتْبتِها … تُعَدُّ واحدةً، والبَحْرُ ثانيها
ما بالُ دِجلةَ كالغَيْرى تُنافِسُها … في الحُسنِ طَوْراً، وأطواراً تُباهيها
أمَا رأت كالِئَ الاسلامِ يَكْلأها … مِن أن تُعابَ، وبَاني المجدِ يَبنيها
كأنَّ جِنَّ سليمانَ الذين وَلُوا … إبداعَها فأدقّوا في معانيها
فلو تمرُّ بها «بلقيس» عَنْ عُرُضٍ … قالت: هي الصَّرحُ تمثيلاً وتشبيها
تَنْحطُّ فيها وفودُ الماء مُعْجَلَةً … كالخَيْلِ خارجةً مِنْ حَبْلِ مُجريها
كأنّما الفضةُ البيضاءُ سائلةً … من السبائكِ تَجري في مَجَاريها
لا يَبْلُغ السَّمَكُ المحصورُ غايتَها … لِبُعدِ ما بينَ قاصِيها ودانيها
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مُجنَّحةٍ … كالطيرِ تَنقَضُّ في جَوٍّ خَوافيها
لَهنّ صحنٌ رحيبٌ في أسافلِها … إذا انحطَطْنَ، وبهوٌ في أعاليها
صورٌ إلى صورةِ الدُّلفينِ يُؤْنِسُها … مِنهُ انزواءٌ بعينيهِ يُوازيها
وزادَها زينةً مِنْ بَعدِ زينتِها … أنّ اسمَهُ حينَ يُدعى من أساميها
محفوفةٌ برياضٍ لا تَزالُ تَرى … ريشَ الطواويسِ تحكيهِ وتَحكيها
وَدَكّتينِ كمِثلِ الشِّعرَيَيْنِ غَدتْ … إحداهُما بإزا الأخرى تُساميها

كما وصف بعض القصور التي شيّدت بسامراء، ومنها قصر الغَرْد الذي يقول فيه(٢٧٥):

أَحْسِنْ بدجلةَ مَنظراً ومُخَيّماً، … والغَرْدِ في أكنافِ دِجْلةَ مَنْزِلا
خَضِلَ الفِناءُ متى وَطِئْتَ تُرابَهُ … قُلْتَ: الغَمامُ انهلَّ فيه فاسْبَلا
حَشَدتْ له الأمواجُ فَضْلَ دوافعٍ … أعجَلْنَ دولابَيْهِ انْ يَتَمَهّلا
كالكوكبِ الدُّرّيّ أخلصَ ضَوءَهُ … حَلَكُ الدُّجى حتّى تألّقَ وانجلى
وَفَدتْ جوانِبَهُ القبابُ مَيامِناً … ومَياسِراً، وسَفَلْنَ عنهُ، واعتَلى
فتخالُه وتخالُهن إزاءَهُ … مَلِكاً تَدينُ له الملوكُ مُمَثّلا
وعلى أعاليهِ رقيبٌ ما يَني … كَلِفاً بتصريفِ الرِّياحِ مُوَكَّلا
مِنْ حيثُ دارتْ دارَ يَطلُبُ وجهَها … فِعْلَ المُقاتِلِ جالَ ثُمّ استقْبَلا
بِدَعٌ لِبِدْعٍ في السَّماحةِ ما ترى … مِن أمرِه إلاّ عجيباً مُحْدَلا

* * *

وتميّز ابن الرومي بدقة وصفه وتشبيهه، وقد اشتهر شعره فيها. وكان ذلك من آثار طبيعته الانعزالية. فبعد أن هجر الناس وهجروه اتجه إلى الطبيعة فوصف مظاهرها وعجائبها، فشخّصها بأن نفخ فيها الحياة ليستنطقها ويحاورها. فكان دقيقاً في وصفه، وهو يرى في الموصوف ما لا يراه غيره، فيحسُّ ويشعر بما يصفه، ويضفي عليه حياة وحركة تقرّبه من القارىء أو السامع فيجعله يحسُّ بما يقرأ وكأنه أمام لوحة رسمت بمهارة. وقد أحسن ابن

---

(٢٧٤) البحتري، ديوان البحتري، ج ٤، ص ٢٤١٤ - ٢٤٢١.

(٢٧٥) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٥١ - ١٦٥٤.

الرومي استخدام التشبيه في وصفه. وهو يوصي بالاقتصاد في الوصف لأن الإمعان فيه يؤدي إلى رد فعل معاكس لما يريده الشاعر فيقول(٢٧٦):

إذا ما وصفت امرءاً لامرىء ... فلا تغلُ في وصفه واقْصِدِ
فإنك إنْ تغلُ تغلُ الظنو ... ن فيه إلى الغرض الأبعد
فيصغر من حيث عظّمته ... لفضل المغيب على المشهد

ومن روائع شعر ابن الرومي في الوصف والتشبيه، ما قاله في وصف روضة(٢٧٧):

ومُونقةِ الروّاد مهتزةِ الرُّبا ... بمحاسنها سارٍ وغادٍ ورائحُ
تُوقّدُ فيها كلّما تلْعَ الضحى ... مصابيحُ تذكو حين تخبو المصابحُ
تُضاحِكُ نُوّاراتُها زهراتها ... لها أرَجٌ في نافح العطر نافحُ
إذا مدّه المهمومُ في صُعداتِه ... إلى قلبه تساختْ عليه الجوانحُ

وقال يصف امرأة(٢٧٨):

مُخَفَّفةٌ مُثقّلةٌ تراها ... كأنْ لم يعْدُ نصفيها غذاءُ
إذا الإغبابُ جدّد حسنَ شيءٍ ... من الأشياء جدّدها اللقاءُ
لها ريقٌ تشفّ له الثنايا ... وتروي عنه لامسته الظماءُ
وأنفاسٌ كأنفاس الخُزامى ... قُبيْلَ الصبح بلّتها السماءُ
تنفّس نشرها سحراً فجاءتْ ... به سَحَرِيَّةَ المسرى رُخاءُ

وقال يصف خبّازاً(٢٧٩):

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ به ... يدحو الرُّقاقةَ وَشْكَ اللمح بالبَصرِ
ما بينَ رؤيتِها في كفّه كرةً ... وبينَ رؤيتِها زهراءَ كالقمرِ
إلا بمقدارِ ما تنداحُ دائرةٌ ... في صفحةِ الماءِ يُرمى فيه بالحَجرِ

* * *

ومن الشعراء الذين أجادوا الوصف وأبدعوا فيه الحسين بن الضحاك، حتى «كان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمرة فيغير عليها... وله فيها معان في صفتها أبدع فيها وسبق إليها»(٢٨٠). وذكر له أبو الفرج في كتابه الأغاني بعض مقطوعات من شعره في الوصف، منها قوله متغنياً بوصف جمال الطبيعة(٢٨١):

ألستَ ترى الصبحَ قد أسفرا ... ومُبْتَكِرَ الغيثِ قد أمطرا
وأسفرتِ الأرضُ عن حُلّةٍ ... تُضاحِكُ بالأحمرِ الأصفرا

---

(٢٧٦) ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، تحقيق حسن نصار، ج ٢، ص ٦٨٨.
(٢٧٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢١.
(٢٧٨) المصدر نفسه، شرح شريف سليم، ج ١، ص ٨٢.
(٢٧٩) القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده، ج ٢، ص ٢٣٧.
(٢٨٠) الأصبهاني، الأغاني، ج ٧، ص ١٤٦.
(٢٨١) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٩٧، وأشعار الحسين بن الضحّاك، ص ٦٥ - ٦٦.

وَوَافَاكَ نَيْسَانُ في وَرْدِهِ ... وَحَثَّكَ في الشُّرْبِ كَيْ تَسْكَرا
وَتَسْتَعْمِلَ كَأْسَيْنِ في فِتْيَةٍ ... تَسْطَارُدُ بالأَصْغَرِ الأَكْبَرَا
يَحُثُّ كُؤُوسَهُمْ مُخْطَفٌ ... تُجَاذِبُ أَرْدَافُهُ المِئْزَرا
تَرَجَّلَ بالبَانِ حَتَّى إِذَا ... أَدَارَ غَدَائِرَهُ وَفَّرا
وَفَضَّضَ في الجُلَّنَارِ البَهَا ... رَ والأَبْنُوسَةَ والعَبْهَرَا
فَلَمَّا تَمَازَجَ مَا شَذَّرَتْ ... مَقَارِيضُ أَطْرَافِهِ شَذَّرا

وقوله(٢٨٢):

وَصَفَ البَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حَتَّى ... خِلْتُ أَنِّي لِمَا أَرَاهُ أَرَاكَا
وإذا مَا تَنَفَّسَ النَّرْجِسُ الغَضُّ تَوَهَّمْتُهُ نَسِيمَ شَذَاكَا
وأَخَالُ الَّذِي لَثَمْتُ أَنِيسِي ... وَجَلِيسِي مَا بَاشَرَتْهُ يَدَاكَا
فَإِذَا مَا لَثَمْتُ لِلْتَّمْكِ فِيهِ ... فَكَأَنِّي بِذَاكَ قَبَّلْتُ فَاكَا
خِدَعٌ لِلْمُنَى تُعَلِّلُنِي فِيكَ بِإِشْرَاقِ ذَا وَبَهْجَةِ ذَاكَا
لأَدُومَنَّ يَا حَبِيبِي عَلَى العَهْدِ لِهَذَا وَذَاكَ إِذْ حَكَيَاكَا

* * *

ومن أحسن الوصف والتشبيه عبد الله بن المعتز، فقد أجاد في شعره الوصفي وأحسن التشبيهات فيه. وهو شغوف بهذا الفن «ويظهر انه تفوّق فيه على الشعراء، وهو فن الوصف، والوصف المادي بنوع خاص، ووصف الأشياء المادية الجميلة التي تلائم هواه، وهو من أكثر الشعراء تشبيهاً ومن أبدعهم في هذا التشبيه»(٢٨٣). ومن جميل أوصافه قوله في وصف النجم في الليل، إذ يقول(٢٨٤):

والنَّجْمُ في اللَّيْلِ البَهِيمِ تَخَالُهُ ... عَيْناً تُخَالِسُ غَفْلَةَ الرُّقَبَاءِ
والصُّبْحُ مِنْ تَحْتِ الظَّلامِ كَأَنَّهُ ... شَيْبٌ بَدَا في لِمَّةٍ سَوْدَاءِ

وقال يشبّه الهلال بالمنجل(٢٨٥):

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ الهِلالِ بَدَا ... يَهْتِكُ مِنْ أَنْوَارِهِ الحِنْدِسَا
كَمِنْجَلٍ صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ ... يَحْصُدُ مِنْ زَهْرِ الدُّجَى نَرْجِسَا

وقال يصف بركة(٢٨٦):

وَبِرْكَةٍ تَزْهُو بِنَيْلُوفَرٍ ... الوَانُهُ بِالحُسْنِ مَنْعُوتَةْ
نَهَارُهُ يَنْظُرُ مِنْ مُقْلَةٍ ... شَاخِصَةِ الأَجْفَانِ مَبْهُوتَةْ
كَأَنَّمَا كُلُّ قَضِيبٍ لَهُ ... يَحْمِلُ في أَعْلاهُ يَاقُوتَةْ

---

(٢٨٢) أشعار الحسين بن الضحّاك، ص ٨٨ ـ ٨٩، والأصبهاني، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦٩.
(٢٨٣) حسين، من حديث الشعر والنثر، ص ١٥٩.
(٢٨٤) ابن المعتز، ديوان ابن المعتز، ص ٣٠٠.
(٢٨٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.
(٢٨٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

الفصل السابع

التاريخ والجغرافيا

أولاً: علم التاريخ

١ ـ نشوء التاريخ عند العرب

نشأ علم التاريخ عند العرب في أحضان علم الحديث. فقد كانت إلى جانب السيرة النبوية وحوادثها روايات أخرى كثيرة عن أخبار الأمم الماضية، والعرب قبل الإسلام، وأحداث صدر الإسلام، ولا سيما ما يتعلق منها بالفتوح، وقد أطلق على تلك الروايات اسم الأخبار وسمي رواتها الاخباريين. ومن الملاحظ أن الاخباريين كانوا لغويين، وكان بعضهم من رواة الحديث، وكان من الطبيعي أن يتأثر هؤلاء في جمع الأخبار ونقدها وروايتها بطرق رجال الحديث واللغة، وذلك بإسنادها إلى مصادرها الأصلية بعد التثبت من سلسلة رواتها وعدالتهم، أي صدقهم في رواياتهم. فاهتموا بنقد الرواة وتقصّي عدالتهم، فلا يرتضون خبراً ما لم يتأكدوا من صحة سنده بأن يكون راويته قد شهد الخبر عند حدوثه وتعرّف عليه معرفة مباشرة، أو أنه سمعه من آخرين ممن يثق بهم. ومتى ما كان هذا الراوي أو السند موثوقاً به كان ذلك ضماناً لصحة روايته. لأن من يثبت صدقه يعتبر ثقة أميناً لا يقول غير الصدق. ومن الطبيعي أن تزداد قوة مثل هذا السند كلما كان قريباً من زمن وقوع الحادث الذي ينقل خبره. وقد بلغت دقة الضبط في السند أنه كان يعنى بوقت وقوع الحادث ليس بالسنين والشهور بل بالأيام أيضاً. ولهذا كان جمع أخبار السيرة النبوية أولى خطوات تدوين التاريخ عند العرب.

وقد كانت ثمة عوامل استدعت الاهتمام بجمع تلك الاخبار وتدقيقها وتدوينها. فقد اشتدت الرغبة في التعرّف إلى أحوال الأمم الماضية التي ورد ذكرها في الكتاب والسنّة، واحتاجت الدولة إلى معرفة ما فتح من البلدان عنوة أو صلحاً لغرض فرض الخراج والجزية،

لأن لكل من الحالتين حكماً خاصاً. هذا بالإضافة إلى ما تنطوي عليه تلك الفتوحات من أخبار كانت موضع فخر العرب والمسلمين واعتزازهم وتقديرهم. وكذلك معرفة الأنساب لعلاقتها بتقدير العطاء للجند وغيرهم. ويمكن القول إن اهتمام العرب الموروث بمعرفة أنسابهم وأيامهم كان في جملة تلك العوامل أيضاً. وكما اهتم الخلفاء والولاة بالتعرف إلى أخبار الملوك الماضين وطرقهم في سياسة الرعية وادارة الحروب، اهتموا كذلك بتدوين أخبارهم وفتوحاتهم. كما كان هناك عامل روحي للاهتمام بتدوين التاريخ، ذلك «ان المذاهب الاسلامية كلها أجمعت على أن تجلّي الوحي الإلهي يرتبط بالأمة الاسلامية، ولذا صارت دراسة أحوال هذه الأمة وتاريخها ضرورية لتكملة دراسة الوحي الإلهي في القرآن الكريم والحديث النبوي، ومن ثمَّ صار تدوين التاريخ الاسلامي جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الاسلامية»[1].

لقد أخذ الاخباريون يستقلون عن المحدّثين حينما اكتفوا برواية الأخبار. كما أخذ كل منهم يهتم بجمع أخبار قطر معين. يقول ابن النديم «قالت العلماء: أبو مخنف ـ لوط بن يحيى ـ بأمر العراق وأخبار فتوحها يزيد على غيره، والمدائني ـ علي بن محمد ـ بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي ـ محمد بن عمر ـ بالحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام»[2].

وظل التاريخ العربي حتى نهاية القرن الثاني يقتصر على أخبار الأمم الماضية ومنها العرب قبل الإسلام، والسيرة النبوية، وأحداث صدر الاسلام، إلا أنه اتّسم في القرن الثالث بالزيادة الواسعة في المادة التاريخية من حيث زمانها ومكانها، وبدقة التحرّي عن صحتها ووثوقها. كما أصبحت مصادر المؤرخ عن تاريخ هذا القرن أكثر دقة وضبطاً لأنها تستمد مادتها من سجلات دواوين الدولة المختلفة التي كان يرأسها عادة الأدباء والكتّاب المتميزون بسعة اطلاعهم وتنوّع دراساتهم، وهو ما يجعل لمدوناتهم الديوانية أهمية كبيرة في هذا الباب. كما ساعدت أسفار طلاب العلم وتنقلهم بين مختلف أقاليم الدولة العربية على التعرف إلى أماكن الأحداث وحصولهم على كثير من الأخبار ممن شهدها مباشرة أو سمع عنها. أما عن تأثير حركة الترجمة التي ازدهرت في هذا القرن فلا ينكر أنها زودت المؤرخين العرب بمعلومات وأخبار عن الأمم السالفة وبخاصة ما يتعلق بالناحية الحضارية لها. ويظهر تأثير ذلك واضحاً في ما كتبه اليعقوبي في تاريخه عن علوم أمة اليونان ومعارفها.

٢ ـ طليعة المؤرخين (الرواة الاخباريون ومصنفاتهم)

كان بعض الرواة الأخباريين من علماء اللغة والأخبار قد حاولوا في خلال هذا القرن أن يجمعوا الروايات والأخبار وما سبق أن كتب عن سيرة الرسول ﷺ، وما يتصل بالأنساب، والفتوح، ويدوّنونها في سياق تاريخي متصل، فكانوا بحق طليعة المؤرخين، لما كان لمصنفاتهم

---

(١) هاملتون ألكسندر روسكن غب، دراسات في حضارة الاسلام، تحرير ستانفورد شو ووليم بولك، ترجمة إحسان عباس، محمد يوسف نجم ومحمود زايد (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤)، ص ١٥٣.

(٢) ابو الفرج محمد بن إسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ١٤٣.

من تأثير مهم في تطور علم التاريخ وتدوينه عند العرب. وكان أبرز هؤلاء الهيثم بن عديّ، وأبو الحسن المدائني، وابن سعد، وخليفة بن خياط، والزبير بن بكّار، وعمر بن شبّة، وابن قتيبة. وفي ما يأتي لمحة موجزة عن كل منهم وما صنّفه من الكتب، وتأثيره في حركة تدوين التاريخ. وسنرى أنهم، رغم اختلافهم في الطريقة والأسلوب، قد وضعوا الأسس المهمة لتدوين التاريخ.

أ ـ الهيثم بن عديّ

أبو عبد الرحمن الهيثم بن عديّ بن عبد الرحمن بن زيد الطائي الكوفي، عالم بالشعر والأنساب والأخبار، وكان راوية أخبارياً نقل كثيراً من كلام العرب وأشعارها[٣]. وقد عدّه ابن قتيبة في النسابين وأصحاب الأخبار[٤]. كانت ولادته بالكوفة سنة ١٣٠ ووفاته بفم الصلح غرة المحرم سنة ٢٠٧ أو ٢٠٩[٥]. قال عنه الجاحظ «كان هشام بن الكلبي علاّمة نسّابة راوية للمثالب، فإذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص»[٦]، ويستدل من هذا أن الهيثم لم يكن يباريه أحد في علمه ومعرفته بالأنساب.

كان الهيثم ممن كثرت تصانيفه وتعدّدت كتبه، وقد ذكر له ابن النديم ما ينيف على خمسين كتاباً في السير والأخبار والمناقب والمثالب ومواضيع تاريخية مختلفة، منها: تاريخ الأشراف الكبير، وتاريخ الأشراف الصغير، وطبقات الفقهاء والمحدثين، وكتاب التاريخ مرتب على السنين[٧]. وكانت كتبه من أهم المصادر التي استفاد منها المؤرخون الذين جاءوا بعده.

ب ـ المدائني

أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، ولد بالبصرة، وبها كانت نشأته ودراسته، وسكن المدائن مدة فنُسب إليها، ثم انتقل إلى بغداد ولم يزل بها إلى حين

---

(٣) شمس الدين ابو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ٥، ص ١٥٧، وشهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦)، ج ٧، ص ٢٦٥.

(٤) ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، حقّقه وقدم له ثروت عكاشة (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٠)، ص ٥٣٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٣٩؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٥١؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٦٤، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٦١ و٢٦٥.

(٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٦٢.

(٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

وفاته في سنة ٢٢٥، وكان من ثقات الرواة الأخباريين لا تحتاج روايته إلى سند[٨]. ويعتبر أشهر الرواة وأوثقهم معرفة بشعر العرب وأخبارهم وأنسابهم وأيامهم، وبسيرة النبي ﷺ، وبأخبار الغزوات والفتوح وبخاصة فتوح بلاد فارس والهند[٩].

وللمدائني عدد كبير من المصنفات، ذكر ابن النديم منها ما ينيف على مئتي كتاب في مختلف البحوث والمواضيع التاريخية، وقد صنفها بحسب مواضيعها، في أخبار النبي ﷺ وأخبار قريش، وأخبار الخلفاء، وفي الأحداث، وفي الفتوح، وفي أخبار العرب، وفي أخبار الشعراء، وفي مواضيع متفرقة أخرى. ونقلها عنه ياقوت الحموي[١٠]. يقول أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب النحوي: من أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائني[١١]. ويقول أبو المحاسن: إنه كان عالماً حافظاً ثقة، وهو صاحب التاريخ، وتاريخه أحسن التواريخ، وعنه أخذ الناس تواريخهم[١٢].

وبالنظر إلى كثرة تصانيف المدائني ومؤلفاته التاريخية، وكثرة ما نقل وروى عنه العديد من المؤرخين والأدباء كالجاحظ، وأبي الفرج الأصبهاني، وأبي حيان التوحيدي، والبلاذري، وابن قتيبة وغيرهم، يصح أن يسمى «أبا المؤرخين العرب».

ج - ابن سعد

أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، المؤرخ المحدّث، كتب للواقدي وصحبه زماناً وروى عنه، وكان ممن اجتمعت كتبه عنده، وكان كثير العلم غزير الحديث والرواية[١٣]. وقد وصف بأنه من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه، وأنه يتحرّى في كثير من رواياته، وأنه كان مستوراً عالماً بأخبار الصحابة والتابعين[١٤]. وكان في جملة الفقهاء والمحدّثين الذين أشخصهم إسحاق بن ابراهيم صاحب شرطة بغداد إلى الرقة لمقابلة الخليفة المأمون، وقد أجاب ابن سعد بالقول بأن القرآن مخلوق[١٥].

---

(٨) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ١٢، ص ٥٤، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٠٩.

(٩) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٥٥، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(١٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٥٣ - ١٥٨، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣١٢ - ٣١٨.

(١١) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٥٥.

(١٢) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، [د.ت.])، ج ٢، ص ٢٥٩.

(١٣) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٢١، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٧٣.

(١٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٥١، والخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٢١.

(١٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨)، ج ٨، ص ٦٣٤.

كان ابن سعد عالماً حسن التصانيف نقل وروى عنه كثيرون[16]. وقد صنّف عدداً من الكتب أشهرها كتاب طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته، ويعرف بـ طبقات ابن سعد أو الطبقات الكبرى. وهو يتضمن السيرة النبوية، والمغازي، والمهاجرين، والبدريين، والأنصار، والصحابة والتابعين، وقد رتبه بحسب الأمصار، ويقع في خمس عشرة مجلدة[17]. وله أيضاً كتاب الطبقات الصغرى، وكتاب أخبار النبي ﷺ[18].

توفي ابن سعد ببغداد يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ ودفن في مقبرة باب الشام[19].

د ـ خليفة بن خياط

أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الشيباني البصري، ويلقب بـالعُصفري، فقيه محدّث، ومؤرخ نسابة، سمع الحديث ورواه، وكان موثوق الرواية صادقاً، روى عنه محمد بن اسماعيل البخاري والإمام أحمد بن حنبل[20]. وله من المؤلفات كتاب التاريخ المسمى باسمه في عشرة أجزاء[21]، وقد رتّبه على الطريقة الحولية. وذكر له صاحب هدية العارفين كتاب تاريخ الزّمنى والعرجان والمرضى والعميان، وطبقات الرواة، وطبقات القراء[22].

وقد اختلف في سنة وفاة ابن خياط بين سنتي ٢٣٠ و٢٤٦، إلاّ أن المسعودي يقول إنه توفي سنة ٢٤٠ وهذا ما ثبته قاموس الأعلام[23].

---

(١٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٢٥٨.

(١٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٧٣، ويوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ج ١، ص ١١٦.

(١٨) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٣، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٥١.

(١٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٥١؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٤٧٣، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٥، ص ٣٢٢.

(٢٠) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤.

(٢١) خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٢، ١٠ ج في ٥ (القاهرة: مطبعة كونستانوماس، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥)، ج ٢، ص ٣٦١.

(٢٢) اسماعيل بن محمد أمين البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ ج (استانبول: وكالة المعارف العامة، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٣٥٠.

(٢٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٤؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م. : د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٢، ص ٣٩٧، وجاء اسمه فيه هباب بن خياط، والزركلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦١.

هـ - الزبير بن بكار

أبو بكر الزبير بن بكار بن عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، من أعيان علماء المدينة المنوّرة، سمع الحديث على ابن عيينة ومن في طبقته، وروى عنه ابن ماجة وابن أبي الدنيا، وكان ثقة ثبتاً وعالماً بالأنساب عارفاً بأخبار المتقدمين، وقد وُلّي القضاء بمكة، وورد بغداد أكثر من مرة وحدَّث بها(٢٤). روى الخطيب البغدادي خبراً عن الزبير يدل على انصرافه إلى الدرس والمطالعة أغلب وقته، قال: قالت ابنة لأختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله لا يتخذ ضرة ولا يشتري جارية، فقالت المرأة: والله لهذه الكتب أشدّ علي من ثلاث ضرائر(٢٥).

وللزبير بن بكار مصنفات عديدة في الأنساب والأخبار، منها: كتاب نسب قريش وأخبارها وقد جمع فيها شيئاً كثيراً، وعليه اعتماد الناس في معرفة نسب القرشيين، وكتاب أخبار العرب وأيامها، وكتاب الموفقيات في الأخبار، وهو مجموع من الأخبار والنوادر التاريخية ألّفه للموفق أخي الخليفة المعتمد على الله، وغيرها من المصنفات التي تدل على سعة اطلاعه ومعرفته بالأخبار(٢٦)، وكان ابن بكار من مؤدبي الموفق لما كان صغيراً.

توفي ابن بكار بمكة وهو على قضائها، ليلة الأحد لتسع ليال بقين من ذي القعدة سنة ٢٥٦، ويقول ابن النديم إنه سقط من سطح له فانكسرت ترقوته ووركه فكان ذلك سبب موته(٢٧).

و - عمر بن شبّة

أبو زيد عمر بن شبّة بن عبيد بن ريطة النميري البصري، وشبّة لقب غلب على أبيه واسمه زيد. كان أديباً فقيهاً محدثاً صادق اللهجة، وراوية للأخبار عالماً بالآثار، وُلد ونشأ بالبصرة ثم انتقل إلى سامراء وسكن فيها وبها كانت وفاته في يوم الاثنين لستّ بقين من جمادى الآخرة سنة ٢٦٢ وقد عمِّر طويلاً(٢٨). وقد صنّف عدداً كبيراً من الكتب التاريخية

---

(٢٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٦٦؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ٨، ص ٤٦٧، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٨.

(٢٥) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٧١.

(٢٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٦٦، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٣٧٢.

(٢٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٦٧؛ الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٧١، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٦٩.

(٢٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٦٩؛ ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٤٨، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٣، ص ١١٤، وفيه: عبيد الله بن رابطة.

والأدبية، ذكر له ابن النديم عدداً منها، بينها كتب عدة عن تواريخ كـل من البصرة والكوفة ومكة والمدينة، وعن أمراء كل منها، وعن أخبار المنصور، وكتاب التاريخ، ونقلها عنه ياقوت الحموي[٢٩].

ز ـ ابن قتيبة

سبقت الإشارة إليه كفقيه مجتهد وأديب بارع، وقد صنف عديداً من الكتب جمع فيها بين علوم القرآن، والفقه، واللغة وآدابها، والأخبار. وهـو من المصنفين المكـثرين، قال عنـه المسعودي «فأما عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَري فممن كثرت كتبه واتسع تصنيفه ككتابه المترجم بكتـاب المعارف وغيره»[٣٠]. وذكر له ابن النديم ما ينيف على ثلاثين كتابـاً[٣١]، منها كتـاب المعارف وهـو موسوعة منسَّقة ومبوَّبة، تشتمل خلاصة عن مبدأ الخلق، وتاريخ الأنبياء، وأنساب العـرب، والسيرة النبويـة، وأخبار الصحـابة والتـابعين والخلفـاء والمشهورين من الأشراف وأصحـاب السلطان، وأصحاب الرأي والحديث والقراءات، والنسّابين وأصحـاب الأخبار ورواة الشعر والمعلمين. كما تضمن أخبار الفتوح وأسماء من ولي العراق، وأخبار الفرق الإسلامية، وملوك العرب قبل الاسلام في الجزيرة واليمن والحيرة، وملوك الحبشة والعجم. وهو مختصر وأشبه ما يكـون برؤوس أقـلام أو عناوين لـمواضيع يمكن التـوسع فيهـا. وكتاب عيـون الأخبار ويمكن اعتباره تاريخاً حضاريـاً مع أنـه أقرب إلى اللغـة والأدب، وقد وضعـه في عشرة أبواب تبحث عن السلطان، والحـرب، والسؤدد، والـطبـائـع، والعلم، والبيـان، والـزهـد، والإخـوان، والحوائج، والطعام، والنساء.

٣ ـ الطرق التي اتبعت في تدوين التاريخ

ذكرنا في أول الفصل ما يتعلق بجمـع الحقائق التـاريخية وضـمان ضبطهـا، أما طـريقة تـدوينها وعـرضهـا فقـد اتبع المؤرخـون أول الأمر أسلوب تـرتيب الحـوادث بحسب المـواضيع كفتـوح العراق، وفتـوح الشام، والجمـل، وصِفّين، والنهـروان. ثم اتبعوا طـريقـة تـرتيبهـا بحسب سنوات حدوثها، وهي ما عرفت بالطريقة الحولية. وذلـك بتقسيم الخبر إلى وحـدات صغـيرة تتناولـه سنة فسنـة. وقد انتقـدت هذه الـطريقة بـأنها تشتت الخبر أو الحـادث الـذي تستغرق وقائعه أكثر من سنة، فتتجزأ روايتـه، ويذكـر كل جـزء في سنة وقـوعه منفصـلاً عن الجزء الآخر الذي سبقه أو تلاه، وهو ما يفقده أهمية وحدة الخبر المتعرّف إلى أسبابه ونتائجه. إلا أنه «مهما كانت نقائص هـذه الطريقـة فمن المؤكد أنها أكـثر تقدماً من تاريـخ الخبر، لأنها ضمنت، على الأقل، الاستمرارية الظاهـرية، وتنسيـق مـواد متنوعـة، وهي خصـائص غـريبة عـلى صورة الخـبر»[٣٢]. وتلتها

---

(٢٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٦٩، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٨.

(٣٠) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٥.

(٣١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣٢) فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح احمد العلي؛ مراجعة محمد توفيق حسين (بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٣)، ص ١٠١.

طريقة ترتيب الحوادث بربطها بسياق تاريخي متصل ضمن مدة محدودة، وقد عرفت بطريقة العهود، وهي لا شك متقدمة على الطريقة الأولى، وتقوم على تنظيم رواية الخبر بحيث تعالج عهداً معيناً في فصل واحد، بدمج أقسام الخبر المجزّأة لأكثر من سنة واحدة وجعلها مجموعة كاملة من الأحداث المترابطة ببعضها. وهناك طريقة ثالثة اتبعها بعض المصنفين تقوم على ترتيب الحوادث والأخبار بحسب الأمصار التي وقعت فيها، كما اتبع بعضهم المبدأ النَّسَبي في كتابة التاريخ.

ولكن رغم ما تميّزت به هذه الطرق في عرض الحوادث ودقة ضبطها وتوثيقها، فإن المؤرخين العرب والمسلمين اقتصر ما في مادتهم التاريخية على أخبار البلاط من خلفاء وقواد ووزراء، وعلى حوادث الحروب والفتن دون تحليل أو نقد، أو محاولة تحرّي أسباب تلك الأحداث ونتائجها، مكتفين بقيمتها السطحية دون الاهتمام بدلالاتها الاقتصادية والاجتماعية، مع إهمالهم شؤون عامة الناس وتجاهلهم تأثيرهم في مجريات الأمور والأحداث. فقد خلت مدوّناتهم من ذكر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفنية إلا نادراً أو عَرَضاً. ولذا فإن الباحث في هذه الأمور يلقى عنتاً في التوصل إلى بعض الحقائق عن هذه الأحوال بين تلك المدوّنات التاريخية الهائلة. على أنه مع هذا النقص البارز فإن ما دوّنوه، بمختلف الطرق، كان تمهيداً، بل عاملاً أساسياً في تقدم علم التاريخ ووصوله على يد المؤرخ العربي ابن خلدون إلى مفهومه الصحيح من حيث مادته ونطاق بحثه، فإن ما جاء في مقدمته المشهورة من آراء تاريخية لا تكاد تختلف عن الآراء الحديثة[٣٣].

٤ ـ أبرز المؤرخين ومصنفاتهم

كان من نتائج ازدياد مصادر المؤرخين في القرن الثالث ان ازدادت المادة التاريخية وتوسّع نطاقها، مما تطلّب التفرغ لها والانصراف إلى دراستها وتصنيفها وترتيب عرضها وتدوينها. ويمكن القول إن بدايات التأليف التاريخي بمعناها الواسع ظهرت في منتصف هذا القرن. فقد برز عدد من المؤرخين المتميّزين ممن كان لتصانيفهم التاريخية أهمية كبيرة في تثبيت أسس علم التاريخ وقواعده من جهة، كما أنها أصبحت مصادر غنية مهمة لمن جاء بعدهم من المؤرخين من جهة أخرى. وكان أبرز هؤلاء أربعة هم البلاذري والدينوري واليعقوبي والطبري. ولسوف نستعرض في ما يأتي سيرة كل منهم وجهوده في تطور علم التاريخ ومدى تأثره بمن سبقه من طلائع المؤرخين، وتأثيره في الآخرين.

أ ـ البلاذري

أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري البغدادي، كان جدّه جابر يكتب للخصيب صاحب مصر، وكان هو من رجال البلاط في سامراء، جالس المتوكل على الله

---

(٣٣) جوزيف هِلْ، الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم احمد العدوي؛ مراجعة حسين مؤنس، الألف كتاب؛ ٨٨ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦)، ص ١٠٤.

والخلفاء بعده حتى أيام المعتمد على الله. وهو عالم في الأنساب وراوية متقن، وقد نشأ ببغداد وأخذ عن أئمة فقهائها وأعلام أدبائها وكبار الأخباريين فيها، منهم علي المديني، والقاسم بن سلّام وأبو الحسن المدائني وابن سعد الزهري[٣٤]. وروى عنه جمٌّ غفير[٣٥].

وكان معنياً بأخبار الفتوحات العربية التي أُنجزت في صدر الاسلام، وبحكم اهتمامه بجمعها تكبّد مشاق السفر فزار كثيراً من البلدان التي ذكرها في كتابه. ويظهر مما ذكره ياقوت الحموي عن شيوخ البلاذري أنه زار مدن بلاد الشام، دمشق وحمص وحماة وأنطاكية وأخذ عن علمائها واستمع إلى رواتها[٣٦]. ولا يخفى تأثير مثل هذه الرحلات على المؤرخ المعني بجمع الأخبار، فقد توفرت لدى البلاذري معلومات محلية غزيرة عن الأمصار التي زارها وهو ما زاد في قيمة ما يرويه عن الفتوح العربية.

أما مصنفاته فقد ذكر له ابن النديم كتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير لم يتمّه، وكتاب الأخبار والأنساب[٣٧]. ويضيف صاحب هدية العارفين كتاب الاستقصاء في الأنساب والأخبار - ولعله - هو الكتاب نفسه الذي ذكره ابن النديم آنفاً - وكتاب أنساب الأشراف بمجلدين[٣٨]، وهو كتاب الأخبار والأنساب نفسه. وجاء في معجم الأدباء أن البلاذري له كتب جياد ونقل ما ذكره ابن النديم وأضاف كتاب الفتوح[٣٩]. وقد وصلنا من كتبه التاريخية كتابان مهمان هما فتوح البلدان، وأنساب الأشراف. تناول في أولهما الفتوح التي تمّت في صدر الاسلام وأيام الأمويين في الشام، وقد راعى في بحثها وعرضها تسلسلها الزمني، وبيّن ما إذا كانت قد فُتحت صلحاً أو عنوة، وذكر أسماء القواد الفاتحين، وأسماء القبائل التي استقر بعض أبنائها في البلدان المفتوحة. وتتخلّل بحوثه معلومات حضارية مهمة كتعريب الدواوين، وضرب النقود العربية، وأمر الخاتم، والخط، وما بذله الخلفاء في مختلف العهود حتى أيامه في تعمير البلاد المفتوحة وإصلاح أراضيها وبناء المساجد والجوامع فيها وتحصين ثغورها وحشدها بالجند. وهو يورد ذلك بأسلوب سهل واضح أقرب إلى الايجاز منه إلى الإسهاب والإطناب، ويحاول أن يكون دقيقاً في نقل الروايات حول المواضيع التي يبحثها، ويبيّن رأيه فيها. وحرص على أن يذكر السند في كل خبر يرويه تقريباً، إلا في حالات قليلة يقول فيها: أخبرني، أو حدثني جماعة من أهل العلم، أو أنه يقول: قال، أو قالوا، أو يقال، ثم يأتي بالخبر. وأبرز من اعتمد على رواياتهم من الرواة الاخباريين:

---

(٣٤) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٢، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٣٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣، ص ٨٣.

(٣٦) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٧.

(٣٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٧٠.

(٣٨) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٥١.

(٣٩) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٢، ص ١٣١.

الواقدي محمد بن عمر، والمدائني علي بن محمد، وأبي عبيد القاسم بن سلاّم، ومعمر بن المثنى، وهشام الكلبي، وأبي مخنف، وهشام بن عمرو الدمشقي، وعثمان بن أبي شيبة، وخلف بن هشام البزار.

أما كتابه الآخر أنساب الأشراف فهو يشتمل على تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده حتى العصر العباسي الأول. ولم يرتّبه البلاذري ترتيباً زمنياً بل رتبه على أساس العلاقات القبلية والعائلية للشخصيات التاريخية التي يذكرها. ويبدو أنه كتب على هيكل تواريخ الخلفاء، والتزم بالمبدأ النَّسبي لهم، رغم أنه تسطغى عليه تراجم الخلفاء[40]. وقد التزم البلاذري في كتابه هذا أيضاً بذكر السند في كل خبر يرويه تقريباً، وأبرز من اعتمد على رواياتهم من الأخباريين، هم الذين اعتمد عليهم في كتابه السابق مع عدد آخر، منهم: المقرىء أبو عمر حفص بن عمر الدوري، وعباس بن هشام الكلبي عن أبيه، والهيثم بن عدي، ومصعب بن عبد الله الزبيري.

وقد ذكر المسعودي هذين الكتابين وأثنى على كتاب الفتوح، يقول «وكتاب النسب لأحمد بن يحيى البلاذري، وكتابه أيضاً في البلدان وفتوحها صلحاً وعنوة من هجرة النبي ﷺ وما فُتح في أيامه على يد الخلفاء بعده، وما كان من الأخبار في ذلك، ووصف البلدان في الشرق والغرب والجنوب، ولا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه»[41].

وكانت وفاة البلاذري في أواخر أيام المعتمد على الله.

ب ـ أبو حنيفة الدينوَري

وممن كتب في التاريخ في هذا القرن من العلماء الموسوعيين أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢. عاش معظم حياته في مسقط رأسه مدينة الدينوَر، وأمضى ردحاً من شبابه في الرحلات، فسافر إلى العراق وبلاد الشام والحجاز، ودرس مختلف العلوم المعروفة على أيامه، وكان مفتناً في علوم النحو واللغة، والهندسة والحساب، ثقة في ما يرويه[42]. وتكاد تُجمع المصادر الأولية على أنه كان نحوياً لغوياً، ومهندساً، ومنجّماً حاسباً، وقد قال عنه أبو حيان التوحيدي «إنه من نوادر الرجال جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، له في كل فن ساق وقدم ورواء وحكم»[43].

لقد تعددت تصانيف أبي حنيفة في مختلف المواضيع، فقد ألّف في الشعر والفصاحة والتفسير والحساب والجبر والمقابلة والمنطق. أما في التاريخ فقد وضع كتاباً سماه الأخبار

---

(٤٠) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٣٦.

(٤١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٥، وجاء فيه علي بدلاً من يحيى.

(٤٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٢٢، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ١٢٣.

(٤٣) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٥.

الطوال ضمّنه الأحداث التاريخية المهمة منذ عهد آدم حتى نهاية عهد المعتصم بالله. ورغم أنه عاش حتى سنة ٢٨٢ إلا أنه لم يؤرخ شيئاً من حوادث هذه السنين على أهميتها ومعاصرته لها. ويظهر أن همّته انصرفت إلى الميادين العلمية الأخرى فوضع فيها مصنّفات تعتبر من أروع وأهم ما كُتب في مواضيعها. مثل كتاب النبات وقد أكسبه شهرة كبيرة لما تضمّنه من معلومات فريدة استخلصها من شعر الأقدمين، وقد أتينا على ذكره في فصل آخر، وكتاب الأنواء وهو لا يقل في شهرته عن الكتاب السابق، فقد قال عنه ياقوت الحموي «إن كلام أبي حنيفة في كتاب الأنواء يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك وعجائب القبة السماوية»(٤٤).

أما كتابه الأخبار الطوال فإنه يتميز بأنه لم يضعه على الطريقة الحولية، وإنما كتبه بطريقة أقرب إلى طريقة العهود، وذلك بإيراد الأحداث التاريخية من بدئها إلى ما انتهت إليه، ذاكراً أهم مراحلها وملابساتها، وقد يذكر أسبابها ونتائجها أحياناً. ويظهر أن تسمية الكتاب بُنيت على ما يحتويه من الأخبار والأحداث التي طالت أزمانها فكانت أخباراً طوالاً. وقد اعتمد في مصادره على قدماء الرواة الاخباريين كالشعبي أبي عمرو عامر بن شراحيل المتوفى سنة ١٠٣ الراوية الكوفي المتخصص بأخبار المغازي، والأصمعي أبي سعيد عبد الملك بن قُرَيب الباهلي البصري المتوفى سنة ٢١٧ إمام الأخباريين وصاحب النوادر والملح، والهيثم بن عدي الراوية الذي يعتبر بمصنفاته التاريخية من طلائع المؤرخين العرب، والكسائي علي بن حمزة الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ إمام اللغة والنحو والقراءة وصاحب التصانيف العديدة، وأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى سنة ١٥٧ الراوية العالم بالسير والأخبار والمتخصص بأخبار العراق وفتوحها، والكلبي هشام بن محمد السايب المتوفى سنة ٢٠٤ عالم الأنساب وأخبار العرب وأيامها.

أما محتويات كتاب الأخبار الطوال فتتضمن الأحداث التاريخية التي اعتبرها أبو حنيفة الدينوري مهمة ذات شأن، منذ عهد آدم حتى نهاية عهد المعتصم بالله المتوفى سنة ٢٢٧، وهو يعرض الأخبار والحوادث عرضاً سريعاً في القسم الأول من الكتاب الخاص بتاريخ ما قبل الاسلام. أما تاريخ العرب بعد الاسلام فإنه يبدأه بالفتوحات التي تمت في عهدَي الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان. ويسهب في أهم الوقائع الحربية التي انتصرت فيها الجيوش العربية. ثم يتكلم بإسهاب على عهد الإمام علي بن أبي طالب حتى مقتله، ومبايعة معاوية بن أبي سفيان وما تم في عهده وعهد ابنه يزيد، فيذكر خروج الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب إلى الكوفة ونهايته، ثم يتكلم بإيجاز على بقية الخلفاء الأمويين، وانتقال الخلافة إلى العباسيين، فيتكلم على خلفائهم بإيجاز أيضاً حتى وفاة المعتصم. وكان أبو حنيفة، حسبما يظهر، قد حاول أن ينتهج في تاريخه هذا أسلوباً جديداً لا يلتزم فيه بالطرق التي كانت مألوفة في كتابة التاريخ، فلم يذكر الحوادث بحسب تسلسلها الزمني عاماً بعد عام، ولم يتّبع طريقة العهود، وإنما أخذ بطريقة تقوم على عرض الحوادث والوقائع كوحدات كاملة من بدايتها حتى نهايتها مع ما يكتنفها من ملابسات وعوامل تؤثر في اتجاهها ونتائجها.

---

(٤٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٥.

مما جعل كتابه أقرب إلى مجموعة من قصص الأحداث التاريخية، وهو أسلوب شيّق من أساليب التأليف، يستهوي القارىء ويبسّط له الموضوع، لا سيما أن المؤلف كتبه بأسلوب أدبي أخّاذ ولغة سهلة يسيرة.

ج - اليعقوبي وتاريخه

اليعقوبي هو أحمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي، كان جده الأعلى واضح من رجال أبي جعفر المنصور «وكان خصيصاً عنده إلى الغاية، وكان يندبه إلى المهمات لشجاعة كانت فيه وشدة. ولما ولي إمرة مصر شدّ على أهلها فشكوا منه فعزله المهدي عنهم... واستمر واضح على بريد مصر..»[45]. أما أبوه إسحاق أبو يعقوب فكان من أصحاب البريد. وقد نشأ أحمد ببغداد وتلقى علومه فيها، وكان فيه ميل شديد إلى الارتحال للتعرّف إلى مختلف البلدان، والاطلاع بنفسه على أحوالها وطبائع أهلها. فسافر إلى المغرب وتجوّل في أهم مدنه، وأقام مدة في أرمينيا، وزار الأقطار العربية والهند[46]. وقد استفاد اليعقوبي من رحلاته إذ استوعب الكثير مما رآه وسمعه، وظهر أثر ذلك واضحاً في مؤلفاته التاريخية والجغرافية. وقد اشتهر اليعقوبي بكتابيه البلدان والتاريخ وسنتعرض لكتاب البلدان في الفصل الخاص بالجغرافيا. أما كتاب التاريخ المعروف باسمه تاريخ اليعقوبي فهو جزءان، الأول منهما خاص بتاريخ ما قبل الإسلام، والثاني في ما بعده حتى سنة ٢٥٩. ورغم أن اليعقوبي امتدت به الحياة حتى سنة ٢٩٢، فإنه وقف بكتابه هذا عند أوائل سنة ٢٥٩، ولا ندري ما إذا كان قد واصل تدوينه بعد السنة المذكورة ولم يصل إلينا، أم أنه انصرف عنه لأسباب نجهلها.

وتظهر في كتاب اليعقوبي هذا ميزاته كمؤرخ عربي يمثّل روح عصره، وهو عصر الانبعاث العلمي عند العرب. فكان على درجة عالية من الثقة في ما يكتبه ويرويه، بحيث لم يعد بحاجة إلى ذكر أسانيده، فجاء كتابه خالياً منها. كما أنه لم يلتزم بطريقة واحدة في عرض موادّه، وإنما انتهج أساليب عدة بحسب اختلاف طبيعة المواضيع والأحداث التي يعالجها وأزمان حدوثها. فقد اتبع طريقة المواضيع في ما يتعلق بالقسم الخاص بما قبل الاسلام وصدر الاسلام متبعاً فيها التسلسل التاريخي، إلا أنه في الجزء الأخير من هذا القسم، عند الكلام على أديان العرب وحكامهم وأزلامهم وشعرائهم وأسواقهم يتبع طريقة وحدة الموضوع. وانتهج طريقة الربط المتصل للحوادث على أساس العهود في ما بعد ذلك. فكان أول مؤرخ عربي يسلك هذه الطريقة في تدوين التاريخ.

كما أنه تميز في الجزء الأول من كتابه بنظرته العالمية للتاريخ، واهتمامه بالجانب الحضاري، ولا سيما الثقافي منه، حيثما تيسرت له المادة الواضحة الكافية. وتميّز كذلك بنزعته العلمية المنطقية القائمة على تحكيم العقل، فلم يدوّن من الأخبار ما تغلب عليه المبالغة أو

---

(٤٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٢، ص ٤٠.

(٤٦) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢)، ص ٥.

الخرافات والأساطير. فهو لا يأخذ بالأخبار كما تروى ما لم يتأكد من مصداقيتها، وأنها لا تخرج عن دائرة العقل والمنطق. فيقول في مقدمة ما كتبه عن تاريخ فارس مستبشعاً المبالغات فيه «فارس تدعي لملوكها أموراً كثيرة، مما لا يُقبل مثلها، من الزيادة في الخلقة، حتى يكون للواحد عدة أفواه وعيون، ويكون للآخر وجه من نحاس، ويكون على كتفي آخر حيّتان تطعمان ادمغة الرجال، وطول المدة في العمر، ودفع الموت عن الناس، وأشباه ذلك، مما تدفعه العقول ويُجرى مجرى اللعبات والهزل، ومما لا حقيقة له»[47].

ويميل اليعقوبي في كتابته إلى الاختصار عند ايراد الحوادث التاريخية دون إسهاب أو استطراد، ودون أن يستشهد بالأمثال والأشعار، ويظهر أنه قد تقصّد في ذلك، إذ يقول «وجعلناه كتاباً مختصراً حذفنا منه الأشعار وتطويل الأخبار»[48].

وقد ظهر أثر حركة الترجمة واضحاً في كتابه. إذ استفاد مما ترجم من مؤلفات فلاسفة اليونان وعلمائهم، فخصّص فصلاً طويلاً عن علوم اليونانيين لخص فيه كتب أبقراط الأربعة التي لا بد للمتطببين من معرفتها والإلمام بما جاء فيها، وهي: كتاب الفصول، وكتاب تقدمة المعرفة، وكتاب الأهوية والأزمنة والمياه والأمصار، وكتاب ماء الشعير[49]. كما لخص كتب جالينوس باعتباره أحكم حكيم بعد أبقراط، وأهم عالم بالطب لما فسّره من كتب أبقراط، رغم تباعد ما بينهما من السنين. فعدّد هذه الكتب وبيّن مضامينها، وعلى الأخص كتاب فِرَق الطب المخالفة بعضها بعضاً في الجنس، وكتاب التشريح الكبير، وكتاب القوى الطبيعية في الأفعال النفسانية، وكتاب العناصر، وكتاب الأمزجة[50].

ثم تكلم على فيثاغورس، وتلامذته وأعمالهم، وعلى أفلاطون وفلسفته، وعلى إقليدس وكتابه في الحساب، وتفسيره كتاب المجسطي لبطلميوس، ولخّص محتوى الكتاب الأخير بمقالاته الثلاث عشرة، وكتابه في المناظر، وتكلم كذلك على نيقوماخس وهو أبو ارسطوطاليس، وكتابه الأرثماطيقي الذي قصد به إبانة الأعداد، ولخّص ما جاء فيه. كما تكلم على أرسطوطاليس وأهم كتبه وبخاصة المنطقية منها والطبيعية والنفسانية، ولخصها تلخيصاً جيداً[51].

وتكلم كذلك على بطلميوس وكتابه المجسطي ولخصه مكتفياً برؤوس المواضيع، كما تكلم على كتبه الثلاثة الأخرى: ذات الحلق، وذات الصفائح، وكتاب القانون في علم النجوم وحسابها، وذكر محتوياتها[52].

---

(٤٧) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ١، ص ١٥٨.

(٤٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٥ - ١١٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤ - ١١٨.

(٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٩ - ١٣٢.

(٥٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٣ - ١٤٢.

ويلاحظ أن تلخيص اليعقوبي مواضيع الكتب المذكورة جاء واضحاً، مما يدل على دراسته لها وإحاطته بمضامينها ومحتواها.

أما محتويات تاريخ اليعقوبي فقد تضمّن الجزء الأول منه، كما أشرنا آنفاً تاريخ العالم المعروف آنذاك قبل ظهور الإسلام. فهو يبتدىء بتاريخ الأنبياء منذ آدم حتى السيد المسيح عيسى بن مريم. ويظهر أن قسماً من أول البحث قد فُقد بما فيه مقدمة المؤلف. وهو يتبع في عرض المادة طريقة التراجم. ثم يتناول ملوك الأمم القديمة وبعض ممالكها، كملوك بابل ونينوى والهند واليونان والروم وفارس والصين ومصر وممالك البربر والأفارقة والحبشة والسودان والبُجَة. ويتكلم بعدها على حرب كندة، وولد إسماعيل بن ابراهيم، ومواضيع عربية تتعلق بالدين والحكام والشعراء والأسواق.

أما الجزء الثاني من الكتاب فإنه يبحث في التاريخ العربي بعد الاسلام. ويقول في أول الكتاب «إنه لما انقضى كتابنا الأول الذي اختصرنا فيه ابتداء كون الدنيا وأخبار الأوائل من الأمم المتقدمة والممالك المفترقة والأسباب المتشعبة ألفنا كتابنا هذا على ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السيرَ والأخبار»[٥٣]. ويذكر نهجه في تصنيفه فيقول «ولم نذهب إلى التفرد بكتاب نصنفه ونتكلف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا، لكنا ذهبنا إلى جمع المقالات والروايات لأنّا وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمار، وزاد بعضهم ونقص بعض، فأردنا أن نجمع ما انتهى إلينا مما جاء به كل امرىء منهم لأن الواحد لا يحيط بكل العلم، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «العلم أكثر من أن يُحفظ فخذوا من كل علم محاسنه»»[٥٤]. ثم يأتي ببعض الحكم التي تؤكد أهمية المعرفة وتحض على طلب العلم. ويعدّد مضامين هذا الجزء، فيقول «وابتدىء كتابنا هذا من مولد رسول الله ﷺ وخبره في حال بعد حال، ووقت بعد وقت إلى أن قبضه الله إليه، وأخبار الخلفاء بعده وسيرة خليفة بعد خليفة وفتوحه، وما كان منه وعُمل به في أيامه وسني ولايته»[٥٥]. ويذكر أسماء من روى عنهم، وكلهم من الرواة الأخباريين، وأبرزهم: أبو البختري وهب بن وهب بن كثير المتوفى سنة ٢٠٠ القاضي العالم بالأنساب[٥٦]، ومحمد بن عمر الواقدي، توفي سنة ٢٠٧، وله عدد كبير من المصنفات في التاريخ والفتوح والسير[٥٧]. وعبد الملك بن هشام المؤرخ العالم بالأنساب وأخبار العرب وصاحب السيرة النبوية المعروفة بـ سيرة ابن هشام وقد توفي سنة ٢١٣[٥٨]. والهيثم بن عدي العالم بالشعر والأنساب والأخبار وقد سبق ذكره في طليعة المؤرخين. وعليّ بن محمد المدائني أشهر الرواة الأخباريين وأوثقهم، وقد ذكرناه في طليعة المؤرخين. وأبان بن عثمان بن يحيى المتوفى سنة

(٥٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥.
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦.
(٥٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٥٢، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٩، ص ١٥٠.
(٥٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٥٠.
(٥٨) الزركلي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣١٤.

٢٠٠ العـالم بالأخبـار والأنساب والمغـازي[٥٩]. وعيسى بن يزيـد النسابـة الراويـة، توفي سنـة ١٧١[٦٠]. وأبو معشر جعفر بن محمد الفلكي، ومحمد بن موسى الخوارزمي الرياضي المنجّم، وما شاء الله الحاسب. وقد اعتمد على الثلاثة الأخيرين في طوالـع السنين والأوقـات. ويقول اليعقـوبي إنه أخـذ عن غير هؤلاء الـذين سمّاهم جمـلاً من الأخبار جـاء بهـا غـيرهم ورواهـا سواهـم، وأضاف إلى ذلك معلوماته الخاصة عن سير الخلفاء وأخبارهم[٦١].

لقد سلك اليعقوبي في هذا الجزء من الكتاب مسلكه نفسه في الجزء الأول، فلم يتقيـد بطريقة واحدة في عرض المادة التاريخية. فسار في تدوين السيرة النبوية على نهج كتاب السيرة والمغـازي، أما مـا وقع من الأحـداث منذ وفـاة الرسـول ﷺ حتى السنة التي انتهى عنـدهـا الكتاب فقد دوّنها باعتبارها حوادث دولة عربية واحدة، وفقاً لترتيبها الزمني، أي عـلى أساس توالي الخلفاء. فقام تدوين التاريخ عنده في هذا القسم من الكتاب على الأشخـاص. وهو في كلامه على عهد كل خليفة يجعل عنوان بحثه «أيام فلان» ويذكر تاريخ مُبايعته باليـوم والشهر والسنة، ويشير إلى وضـع البروج الفلكية عندئذ. ثم يتبع ذلك بذكـر أهم ما تم في أيـامه من أعمال وحروب وأحداث، ثم يأتي إلى نهايته وكيف تمّت، فيذكـر مدة خـلافته ومـا خلّفه من أولاد، وينهي البحث بذكر وزرائه وبعض الولاة والقادة ورجال الـدولة الآخـرين، كما يـذكر أحياناً أشـهر القضاة في عهده، ولا بد من أن يذكر من تولّى الحج في سني ولايته. كما يشير في ثنـايـا البـحث إلى وفيـات بعض الأعيـان من قـادة وعلماء، وإلى بعض الحـوادث والكـوارث الطبيعية التي تقع في مختلف أرجاء الدولة. وقد يضع عناوين فرعية لبعض الأحداث المهمة.

د ـ الطبري وتاريخ الرسل والملوك

عرفنا في بحث سابق أبا جعفر محمد بن جـرير بن يـزيد الـطبري المفسّر وكتابـه جامع البيان عن تأويل القرآن الـذي أجمع العلماء والفقهـاء، على مـر العصور بـأنه أجـلّ التفاسـير وأعظمها، لم يصنّف مثله. وعرفناه إماماً في فنون كثيرة وفقيهاً مجتهداً لم يقلّد أحـداً، بل قلّده عدد من الفقهاء وأخذوا بأقواله وآرائه. إن هذا العـالم الفقيه المجتهـد عندمـا تصدّى لكتـابة التاريخ جاء بنموذج فذّ في هذا الباب، بحيث كان أبرز علماء القرن الثالث في الفقه والتفسير والتاريخ.

لقد اشتهر كتابه تاريخ الرسل والملوك الذي عُرف باسمه، فقال عنه المؤرخ المسعودي في معرض اشارته إلى ما صنّف من كتب التاريخ «وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب المصنفات، فقد جمع أنواع الأخبار، وحوى فنون الآثار، واشتمل عـلى صنوف العلم، وهو كتاب تكثر فائدته، وتنفع عائـدته، وكيف لا يكـون ذلك ومؤلفـه فقيه عصره وناسك دهـره، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار وحملة السنن والآثار؟»[٦٢].

---

(٥٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١.
(٦٠) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٩٨.
(٦١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦.
(٦٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ١٥.

وقد ساعد الطبري على تصنيف هذا الكتاب ما كان يتقنه من العلوم والآداب، وخبرته في التصنيف، فهو كما قال عنه صاحب الفهرست الخبير بالكتب وأصحابها «علامة وقته وإمام عصره وفقيه زمانه»[٦٣]. يضاف إلى ذلك ما تميّز به أسلوبه في الكتابة من حسن التعبير وتخير الألفاظ والأساليب التي تعبّر عن غرضه بدقة وبساطة ووضوح دون لبس أو غموض.

قامت مادة كتاب الطبري في التاريخ على ما أحاط به من أخبار عصره وحوادث أيامه إلى جانب اعتماده الأخبار الماضية عن رواتها الأولين مع ذكر أسانيدها، فاستند إلى ثلة من الرواة الاخباريين والمؤرخين ممن سبقوه في هذا الميدان. ومن أهم من اعتمد على رواياتهم وأخذ عنهم:

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، المتوفى سنة ٩٢ أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، انتقل إلى البصرة ثم إلى مصر، وعاد إلى المدينة فمات فيها، وهو أخو عبد الله بن الزبير[٦٤].

(٢) شرحبيل بن سعد الخطمي المدني، وهو محدّث اخباري عالم بالمغازي وأخبار البدريين، توفي سنة ١٢٣[٦٥].

(٣) هشام بن عروة بن الزبير، تابعي من أئمة الحديث، كثير الأخبار، مات ببغداد سنة ١٤٦[٦٦].

(٤) محمد بن اسحاق بن يسار المطلبي المدني، المتوفى سنة ١٥٠، من أقدم مؤرخي العرب، له السيرة النبوية رواها عنه ابن هشام، وكتاب الخلفاء، وكان من حفّاظ الحديث[٦٧].

(٥) أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي، راوية عالم بالسير والأخبار، إمامي من أهل الكوفة، من كتبه التاريخية: فتوح الشام، والردة، وفتوح العراق وغيرها. يقول عنه ابن النديم: قالت العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها وفتوح الشام يزيد على غيره. توفي سنة ١٥٧[٦٨].

---

(٦٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٤٠.

(٦٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ٤١٨ ـ ٤٢١.

(٦٥) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٣، ص ٢٣٣.

(٦٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج ١٤، ص ٣٧، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٦٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٤٢، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ٦، ص ٣٩٩.

(٦٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٤٢ ـ ١٤٣، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٦) سيف بن عمر الأسدي التميمي، المتوفى سنة ٢٠٠ من أصحاب السير والأحداث، كوفيّ الأصل اشتهر ببغداد، ومن أهم كتبه الفتوح الكبير والردة[٦٩].

(٧) هشام بن محمد بن السايب بن بشر الكلبي، المتوفى سنة ٢٠٤ مؤرخ عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، كثير التصانيف، ذكر له ابن النديم عدداً كبيراً من الكتب وقد صنّفها حسب مواضيعها إلى: أخبار الأوائل، وفي ما قارب الإسلام من أمر الجاهلية، وأخبار الاسلام، وأخبار البلدان، وأخبار الشعر وأيام العرب، وفي الأنساب[٧٠].

(٨) محمد بن عمر الواقدي السهمي، من أقدم المؤرخين العرب وأشهرهم، وقد مرَّ ذكره في أول هذا الفصل.

(٩) الهيثم بن عدي الطائي، العالم بالشعر والأخبار والأنساب وقد سبق الكلام عليه.

(١٠) محمد بن سعد بن منيع الزهري، الحافظ المحدِّث المؤرخ صاحب كتاب الطبقات الكبرى، وقد أشرنا إليه آنفاً.

(١١) عمر بن شبَّة بن عبيدة النميري البصري، الشاعر الراوية المؤرخ، وقد ذكرناه في أول هذا الفصل.

من هذا يتضح أن مصادر الطبري عربية صرفة، فقد اعتمد على من سبقه من الرواة والأخباريين والمؤرخين العرب، وأخذ عن كل منهم ما اختص به من الأخبار.

انتهج الطبري في تنظيم مادة كتابه أسلوب الترتيب الزمني للحوادث، أي الطريقة الحولية. وكانت هي الطريقة المألوفة آنذاك في كتابة التاريخ. فقد أفرد لكل سنة أخبارها وما وقع فيها من الأحداث وما يتوفر لديه من المعلومات والروايات حولها، فيشير إلى مجمل الحادث في أول سنة حدوثه ثم يذكر تفصيلاته في السنوات التالية التي استمر فيها. ومن الطبيعي أن تتوقف سعة المعلومات والروايات في كل سنة على الأهمية التي يعطيها المؤلف للأحداث التي وقعت خلالها. وهو يبدأ في أول كل سنة بقوله: «ثم دخلت سنة كذا» أو «ذكر الخبر عما كان فيها من الاحداث» أو ما في معناه. وإذا ما كان الحادث ذا أهمية أفرد له عنواناً خاصاً به، فيقول «ذكر كذا» أو أن يذكر عنوان الحادث مجرداً. وهو يربط بين الأحداث والأخبار بالعبارات المألوفة مثل: «وفيها» أو «فمن ذلك» وأمثالها. أما ما يختص بأخبار الخلفاء فإنه يضع عنواناً كاملاً لكل خليفة، فيذكر مبايعته الخاصة والعامة وتاريخ كل منهما، ثم يأتي بذكر ما تم في أيامه من أعمال وما وقع من أحداث، سواء كانت جديدة، أو أنها استمرار لما سبق منها في السنة أو السنوات السابقة. وعند وفاة الخليفة يُجمل صفاته وسيرته وما عرف عنه واشتهر به،

---

(٦٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٤٣، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٥٠ - ٢٥٤.

(٧٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٤٦ - ١٤٩، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٥٠ - ٢٥٤.

ويشير إلى سبب موته، ويذكر عمره، ومدة خلافته.

وقد اعتاد الطبري أن يذكر ما وصل إلى علمه من الكوارث والحوادث الطبيعية، كالأوبئة والفيضانات والزلازل، التي وقعت في السنة التي يدوّن أخبارها. ويذكر اسم الأمير الذي تولّى الحج بالناس فيها، ولا يفوته ذكر ما عاناه الحجاج من مشاكل في الموسم، كقلة المياه أو تأثير الحر الشديد أو البرد القارس أو السيول فيهم. كما يثبت في أكثر الأحيان وفيات بعض الأمراء أو الأعيان من رجال الدولة والعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، ممن توفوا خلالها. ويستمر على هذا النهج حتى مطلع القرن الرابع حيث ينتهي كتابه عند حوادث سنة ٣٠٢.

ولما كان الطبري محدّثاً ثقة، وفقيهاً مجتهداً، ومفسراً عظيماً، فمن الطبيعي أن يظهر تأثير ذلك في أسلوبه وطريقته في تدوين التاريخ. فإن القارىء يلمس دقته في ذكر مختلف الروايات عن الموضوع الواحد. وقد التزم في إشارته إلى سند الخبر بذكر الرواة واحداً عن واحد إذا ما تعدّدوا، بعبارات مثل «حدثنا فلان وحدّثني فلان، وحُدِّثت عن فلان» أو يقول «قال فلان، أو قال فلان وفلان وفلان وغيرهم» وإذا كان هو صاحب الخبر قال عن نفسه «قال أبو جعفر». وإذا ما كان له رأي يختلف عما ذكره الرواة الآخرون، قال «والصحيح عندنا». ولا ينكر أن ذكر الأسانيد وتعدّدها مما يزيد في قيمة الخبر والثقة به. وتلك ميزة امتاز بها تاريخ الطبري.

أما في حالة اختلاف الرواة، فإنه يذكر رواياتهم جميعاً مع أسانيدهم ويترك للقارىء المقارنة والمقايسة والاجتهاد لقبول الرواية التي يقتنع بأفضليتها. وهي نزعة في البحث حيادية موضوعية قلّما توفرت في غير الطبري من المؤرخين.

وثمة أساس آخر التزم به الطبري في كتابه، هو نظرته العامة في أحداث تاريخ ما قبل الاسلام، وتركيز اهتمامه بالأحداث التي مرت بها الأمة العربية منذ تأسيس دولتها عند ظهور الاسلام، باعتبارها وحدة تاريخية طاولت الزمن. وهي نظرة شمولية يمكن اعتبارها من المميزات المهمة لتاريخ الطبري. كما أن الطبري، بحكم التزامه بالأسانيد، فقد احتفظ لنا، اضافة إلى ما ذكره من أخبار وأحداث، بكثير من نصوص العهود والأشعار والأقوال ذات القيمة التاريخية الكبيرة.

ويمكن القول إن التدوين التاريخي قد بلغ ذروته في الكمال في القرن الثالث، ممثلة بكتاب الطبري الذي أراد لتاريخه أن يكون مكملاً لتفسيره المشهور، ولعل هذا ما يفسّر لنا الوضوح ودقة التحري والتحقق التي اتسم بها الكتاب المذكور. وإن تعزيزه بالروايات الموثّقة بالأسانيد جعله مصدراً أساسياً لمن جاء بعده من المؤرخين الذين أصبح بوسعهم اعتماد ما ذكره الطبري دون أن يضطروا إلى ذكر الأسانيد. ولذا فلا غرابة لما صار إليه تاريخ الطبري من مكانة مرموقة، بحيث غدا مثالاً يُحتذى به ومصدراً أساسياً للمؤرخين. يقول عنه المستشرق هاملتون غب «وكتابه بما يتمتع به من صدق وشمول يعني لنا خاتمة حقبة كاملة، ولا نجد بعده مصنّفاً يأخذ على عاتقه من جديد جمع المواد عن تاريخ صدر الإسلام والنظر فيها، وإنما المصنفون بعده إما نقلة

للروايات من تاريخ الطبري، وإما مؤرخون من حيث انتهى الطبري»[71]. ويقول عنه المستشرق فرانز روزنتال «ولقد أسبغ الطبري على كتابه تدقيق المتكلمين وطول نَفَسهم، وما للفقيه العالم من دقة وحب للنظام، وما للسياسي القانوني العملي من بصيرة في الأمور السياسية، كل هذه الخصائص أدّت إلى احلاله مكانة مرموقة دائمة ومتزايدة في الأوساط الفكرية في الاسلام»[72].

ونرى أن خير ما نختتم به هذا البحث عن تاريخ الطبري، أن نذكر بعض ما جاء في مقدمة الكتاب المذكور التي وضعها الإمام الطبري لكتابه. فقد بدأها بـ «الحمد لله الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، والدائم بلا زوال والقائم على كل شيء بغير انتقال، والخالق خلقه من غير أصل ولا مثال، فهو الفرد الواحد... وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتدأ ربنا جلّ جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم ممن انتهى إلينا خبره... مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه... بوجيز من الدلالة غير طويل، إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين وجُمل من أخبارهم، وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم، وأيام الخلفاء السابقين وبعض سيرهم، ومبالغ ولاياتهم والكائن من الأحداث في أعصارهم... وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه. إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم، إلا بأخبار المخبرين، ونقل الناقلين... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه... فليعلم أنه لم يُؤتَ ذلك من قبلنا وإنما أتي من قبل بعض ناقليه، وأنّا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أدي إلينا»[73].

ثانياً: الجغرافيا

مقدمة

إن كلمة جغرافيا يونانية الأصل وتعني «صورة الأرض»، وكانوا يريدون بها علم التعرف إلى أحوال الأقاليم في الربع المسكون من كرة الأرض، وعروض البلدان وأطوالها، مع مواقع مدنها وجبالها وبحارها وأنهارها، وغير ذلك، واختلاف السكان باختلاف هذه المواقع[74]. وفسرّ المسعودي كلمة جغرافيا بأنها قطع الأرض[75]، أي مسحها. وقد جرى قدماء الجغرافيين العرب على استعمال هذه الكلمة لتدل على كتاب بطلميوس المعروف في

---

(71) غب، دراسات في حضارة الاسلام، ص ١٥٦.

(72) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٨٦.

(73) الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٣ - ٨.

(74) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه محمد شرف الدين يالتقايا ورفعت الكليسي، ٢ ج (استانبول: مطبعة الحكومة، ١٩٤١ - ١٩٤٣)، ج ١، ص ٥٩٠ - ٥٩١.

(75) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والإشراف، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨)، ص ٣٠.

الجغرافيا[٧٦]، وعلى كتاب مارينوس الصوري في الموضوع نفسه[٧٧]. واستعملت كلمة جغرافيا لأول مرة بمعنى «علم الجغرافيا» في رسائل اخوان الصفا[٧٨]، ولكنها فسرت في هذا الموضوع أيضاً بأنها صورة الأرض. ولم يصبح لهذه الكلمة المعنى الذي نعرفه اليوم من علم الجغرافيا إلا في الأزمنة الحديثة[٧٩].

وكان مفهوم الجغرافيا عند علماء العرب إبّان نهضتهم العلمية يتضمن مواضيع متفرقة مما نسميه اليوم الجغرافيا بأقسامها الوصفية، والرياضية، والإقليمية، والبشرية، والاقتصادية. ويمكن القول إنهم لم يتصوروا الجغرافيا علماً محدداً له مدلول خاص، وموضوع خاص، بالمعنى الحديث. ولذلك توزعت معارفهم الجغرافية بين مناهج عدة ومواضيع قائمة بذاتها، تناولت وجوهاً شتى من الجغرافيا. وكانوا في بحثهم هذه المواضيع يطلقون عليها عناوين من قبيل كتاب البلدان وصورة الأرض والمسالك والممالك. ويظهر من هذا أن الاصطلاح «صورة الأرض» كان الترجمة المعهودة آنذاك لكلمة (جغرافيا) اليونانية[٨٠].

يعتبر علم الجغرافيا من العلوم المساعدة الضرورية لفهم التاريخ، لشدة الارتباط بين الأحداث باعتبارها مادة التاريخ، ومسرح حدوثها، أي جغرافيته. وقد يكون للعوامل الجغرافية القائمة عند وقوع الحادث تأثير حاسم في حدوثه بالشكل الذي صار إليه. ولذا لا بد للباحث في تاريخ حدث معين، أن يعرف موقع حدوثه ويلمّ بكل العوامل الجغرافية التي أحاطت به عند وقوعه، وأثّرت في تكوينه، لتتضح له الصورة الكاملة. ومن هنا نشأت أهمية علم الجغرافيا وضرورة الاهتمام به. وتعتبر الكتب البلدانية التي أخذت تظهر في هذا القرن وتتضمن من المعلومات ما يمتزج فيها التاريخ بالجغرافيا، أوضح دليل على العلاقة المتينة بين الموضوعين. فقد وصف مؤلفوها، وأغلبهم ممن أكثروا السفر والترحال، تخطيط المدن الكبرى، وشبكات الطرق والمسالك بينها، وأخلاق سكانها وتقاليدهم وعاداتهم، وما يتقنونه من صناعات، وغير ذلك من المعلومات التي غطّت مواضيعها الميادين الرياضية والوصفية والبشرية والاقتصادية من علم الجغرافيا. وبالنظر إلى ما تحتويه هذه الكتب من المعلومات الجغرافية فقد كانت مقدمة للكتب الجغرافية، لأنها لم تلبث بمرور الزمن أن أخذت محتوياتها تقتصر على المعلومات الجغرافية، مما أدى إلى ظهور الجغرافيا كعلم مستقل. إلا أن ذلك تطلّب وقتاً طويلاً، إذ استمرت المعلومات الجغرافية حبيسة الكتب البلدانية خلال هذا القرن والقرن التالي له.

---

(٧٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٨٩.
(٧٧) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٣٠.
(٧٨) رسائل إخوان الصفاء (بيروت: دار صادر، ١٩٥٧)، ج ١، ص ١٥٨.
(٧٩) دائرة المعارف الاسلامية، ج ١٢، ص ٨١ - ٨٢.
(٨٠) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم؛ مراجعة ايغور بليايف، ٢ ج (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣ - ١٩٦٥)، ج ١، ص ٩٩.

١ ـ الجغرافيا وحركة الترجمة

كان للكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية في الجغرافيا والفلك تأثير مهم في علم الجغرافيا عند العرب، إذ حصلوا على معلومات مهمة استفادوا منها وتأثروا بها، بحيث يمكن القول إن دراسة الجغرافيا بدأت عندهم بتأثير ما اقتبسوه من التراث اليوناني في هذا الموضوع. فقد اطلعوا على أبحاث بطلميوس وآرائه في الفلك والجغرافيا عندما نُقل من مصنفاته إلى العربية الكتابان المهمان، كتاب الجامع في الفلك ويقع في ثلاثة عشر كتاباً بجداوله، وكتاب جغرافيا في المعمور وصفة الأرض. وقد سبقت الإشارة إلى ترجمة الكتاب الأول الذي سماه العرب كتاب المجسطي. أما الثاني فقد نقله الفيلسوف الكندي إلى العربية نقلاً جيداً، كما يقول القفطي، أو نقل له نقلاً رديئاً، ثم نقله ثابت بن قرّة إلى العربية نقلاً جيداً، كما يقول ابن النديم[٨١]. وهو يتضمن جداول هامة بأسماء الأمكنة ومواضعها بخطوط الطول والعرض وخرائط عن العالم المعروف آنذاك، وفي جملتها بلاد ما بين النهرين[٨٢].

ويقول صاحب كشف الظنون إنه ذكر فيه «ان عدد المدن أربعة آلاف وخمسمئة وثلاثون مدينة في عصره وسماها مدينة مدينة، وإن عدد جبال الدنيا مئتا جبل ونيف، وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر، وذكر البحار وما فيها من الجزائر والحيوانات وخواصها، وذكر أقطار الأرض وما فيها من الخلائق على صورهم وأخلاقهم وما يأكلون وما يشربون وما في كل صقع مما ليس في الآخر غيرُه من الأرزاق والتحف والأمتعة، فصار أصلاً يرجع إليه من صنّف بعده»[٨٣].

وأظهرت الدراسات الحديثة لهذا الكتاب أنه «رسالة في الجغرافيا تمثّل في جوهرها جداول فلكية لعروض وأطوال النقاط الرئيسية المسكونة في العالم. ويعتبرها أحد كبار البحاثة المعاصرين ـ مقدمة لموضع مصوّر جغرافي ـ وليست بجغرافيا، وذلك وفقاً لمفهوم الجغرافيا الذي تطور فيما بعد. ووفقاً لرأيه فإن هدف بطلميوس كان المعاونة في رسم صورة الأرض لا وصفها»[٨٤].

ويتضح تأثير بطلميوس في جغرافيي العرب في أمرين مهمين: الأول، أنهم اقتبسوا منه الأطوال والعروض والمواضع، والآخر، انهم اتبعوا طريقته في تقسيم العالم إلى أقاليم، ولو أنهم اختلفوا عنه في عددها. ويظهر أن الفيلسوف الكندي تأثّر بمحتويات هذا الكتاب بحيث إنه صنّف كتاباً في الموضوع نفسه هو رسالته الكبرى في الربع المسكون وهو اسم لا يبعد كثيراً عن اسم كتاب بطلميوس الآنف الذكر. كما أن العالم الرياضي محمد بن موسى الخوارزمي استمد أكثر مادة كتابه صورة الأرض من كتاب بطلميوس، وهذا ما سنراه في بحثنا هذا. كما يظهر هذا التأثير في كتاب الأعلاق النفيسة الذي صنفه أحمد بن عمر المعروف

---

(٨١) ابو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٩٨، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٨٩.

(٨٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٢)، ص ١١٣.

(٨٣) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٥٩٠ ـ ٥٩١.

(٨٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج ١، ص ٨٠.

بابن رستة في أواخر القرن الثالث ـ حوالى سنة ٢٩٠ وفيه «نجد أثر بطلميوس عنده أوضح منه في غيره، فالأقسام الأولى من الكتاب: الأرض وعلاقتها بالفضاء، وخطوط الزوال والأجرام، وتقسيم هيئة الأرض، وما إلى ذلك من الموضوعات، بطلميوسية»(٨٥).

أ ـ الخوارزمي وكتابه

لقد كان كتاب الخوارزمي صورة الأرض إحدى ثمرات حركة الترجمة. ويمكن اعتباره أول كتاب في الجغرافيا الرياضية عند العرب، شاملاً جميع ما كان معروفاً عندهم في هذا الموضوع. فقد أفاد الخوارزمي من كتاب بطلميوس إلا أنه لغلبة الدراسات الرياضية والفلكية عند الخوارزمي فقد رتّب كتابه على هيئة الزيج، أي بجداول. وتبدأ هذه الجداول بعد البسملة مباشرة على عمودين في كل صحيفة، يذكر فيها أسماء المدن التي خلف خط الاستواء، ثم المدن المعروفة بحسب الأقاليم السبعة وما خلف الإقليم السابع إلى آخر العمران. ثم يتلو ذلك توزيع الجبال بحسب الأقاليم السبعة وما وراءها، والبحار التي على كرة الأرض المعمورة وجزائرها. ثم المواضع التي تكتب فيها حدود البلدان. ويشمل القسم الأخير من الكتاب، وهو أوسع أقسامه، ذكر العيون التي خلف خط الاستواء والعيون والأنهار موزعة على الأقاليم السبعة.

وقد أرفقت بالكتاب أربع خرائط أوضحها وأدقها خريطة نهر النيل وأهم المدن عليه، ويتضح أن مجراه كان معروفاً بشكل جيد حينذاك من منبعه في جبال القمر حتى مصبّه في البحر مع فروعه العديدة عند المصب. ويظهر على الخريطة خط الاستواء وحدود الأقاليم الأول والثاني والثالث. ولهذه الخرائط أهمية كبيرة باعتبارها أقدم ما وصل إلينا من الخرائط العربية.

ويختلف تبويب كتاب الخوارزمي اختلافاً بيّناً عن طريقة ترتيب كتاب بطلميوس الذي عدّد جبال كل منطقة وأنهارها ومدنها على حدة، وان عدد المناطق عنده (٢١) منطقة، بينما وُزّع ذلك في كتاب الخوارزمي على سبعة أقاليم، كما أنه قلّ أن يتفق الكتابان على تحديد الأبعاد الجغرافية للأماكن المختلفة، ويمكن أن يُستنتج من هذا أن كتاب الخوارزمي يمثل شرحاً لخارطة العالم رسمت على طريقة بطلميوس، وهذه الخارطة لم تصل إلينا(٨٦). ويلاحظ أن الخوارزمي في كثير من الحالات لا يذكر اسم المدينة أو الجبل أو النهر الذي يحدد موضعه، وإنما يذكر ذلك بصيغة النكرة. أما البحار فيذكر أسماءها ويحدد امتدادها طولاً وعرضاً، وقد

---

(٨٥) نقولا زياده، الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٢)، ص ١٨.

(٨٦) كراتشكوفسكي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠١ ـ ١٠٢. ويقول المسعودي: «ورأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ، وأحسن ما رأيت من ذلك... في الصورة المأمونية التي عملت للمأمون، اجتمع على صنعها عدة من حكماء عصره، صُوّر فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك، وهي أحسن مما تقدّمها من جغرافيا بطلميوس وجغرافيا مارينوس وغيرهما». انظر: المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٠.

يذكر بعض المدن الواقعة عليها. ويذكر الجزر موزعة على البحار بحسب مواقعها من خطوط الطول والعرض، وقد يذكر ما بها من مدن وأنهار. كما يذكر أسماء البلدان التي تمر بها الأنهار، وبعض المدن التي تقع عليها، ويحرص دائماً أن يشير إلى مصابّ الأنهار.

ويرى المستشرق كرامرز أن كتاب الخوارزمي مختصر لكتاب بطلميوس، وأن خطوط الطول والعرض التي جاءت فيه مستمد أكثرها من آراء بطلميوس، وأنه يعيّن المواقع الجغرافية للأمكنة والأقاليم كما وجدت عقب الفتح الاسلامي، ومنها ما لم يذكره بطلميوس، وأنه جمع نتائج أبحاث العلماء المسلمين الأوائل في هذا الموضوع[٨٧].

٢ ـ تطور علم الجغرافيا

ومع أن الجغرافيين العرب ترسّموا خطى المؤلفات الجغرافية اليونانية وبخاصة ما يتعلق منها بحجم الأرض وشكلها وأقسامها وموقعها بين الأفلاك، فإنهم أجروا كثيراً من التصحيحات فيها، وأدخلوا عليها إضافات مهمة. ومما ساعد على تطور علم الجغرافيا في هذا القرن أن بعض الفلاسفة والعلماء الرياضيين والفلكيين أخذوا يدرسون بعض المسائل والموضوعات المختلفة من الجغرافيا الرياضية والطبيعية، وسجلوا نتائج تجاربهم وخبراتهم وملاحظاتهم في كتبهم الفلكية أو الفلسفية أو في كتب خاصة بتلك المواضيع، كالجبال والأمطار والرعد والبرق والصواعق والزلازل وغيرها من مواضيع الجغرافيا الطبيعية، وعن كسوف الشمس والقمر وظاهرة المد والجزر وغيرها من مواضيع الجغرافيا الرياضية.

ومن الفلاسفة البارزين الذين أفاد الجغرافيون مما جاء في كتبهم من آراء ونظريات، فيلسوف العرب الكندي، وتلميذه ابن الطيّب، وثابت بن قرّة، والبتّاني.

أ ـ الكندي

أما الكندي فقد وضع عدداً من الرسائل عالج فيها مواضيع جغرافية، محاولاً تعليلها وبيان أسبابها. وقد سبقت الإشارة إلى رسالته الكبرى في الربع المسكون. ومما وصل إلينا من رسائله مما له علاقة بالجغرافيا: رسالة في العلة التي لها يبرد أعلى الجو ويسخن ما قرب من الأرض، ورسالة في العلة التي لها تكون بعض المواضع لا تكاد تمطر، ورسالة في علة كون الضباب والأسباب المحدثة له، ورسالة في علة كون الثلج والبرَد والصواعق والرعد والزمهرير، ورسالة في العلة الفاعلة للمد والجزر. وله رسائل مهمة أخرى في هذه المواضيع تضمنتها قوائم كتبه في الفهرست لابن النديم، والقفطي، وابن أبي أصيبعة.

ويعرض الكندي المواضيع الجغرافية عرضاً علمياً قائماً على المشاهدة، مستخلصاً ما يمكن استخلاصه منها. وليس يشترط أن يتفق ذلك جميعه مع معارفنا الحالية، فلا ننسى أنه

---

(٨٧) توماس أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ١٣٣.

كتبها قبل أحد عشر قرناً من الزمان. وسنلخص رسالته في العلة الفاعلة للمد والجزر لنتعرف إلى طريقة بحثه ومعالجته للموضوع. فهو يبتدىء بتعريف المد فيقول «إنما سمي بهذا الاسم، أعني المد، زيادة الجسم الرطب، أعني الماء، زيادة طبيعية. والزيادة الطبيعية إنما تكون من صِغَر إلى عِظَم لا بزيادة المادة»[88]. ثم يقسم المد إلى عَرَضي وطبيعي، فالطبيعي هو «استحالة الماء من صغر الجسم إلى عِظَمه، والعرضي هو زيادة الماء بانصباب مواد فيه. وهذا المد كثير في الأنهار والأودية، والفيوض التي أصلها من الأنهار»[89]. ثم يتكلم على العيون والأحساء[90] وسبب تكونها، وعلى المياه الباطنية، وعلى تأثير الشمس والقمر وزحل على سطح الأرض. وبعد ذلك يقسم المد إلى مد سنوي، وهو الزيادة في ماء البحار في وقت محدد من السنة في موضع دون موضع بتأثير حركات الأشخاص العالية ـ أي الأجرام السماوية ـ. ومد شهري الذي يعرض في كل شهر، في الاجتماع والامتلاء، بحالين مختلفين. ومد وجزر يومي وأكبر الفعل فيه للقمر، «فإن القمر إذا صار في مشرق موضع كان أول وقوع ضدّه عليه فابتدأ في الحمي وقبول الزيادة في الأجزاء، إلا أن ذلك أظهر ما يكون في الماء. فكلما علا كان حمي ذلك المكان أشدّ، حتى يصير في وتد سمائه، فهو نهاية قبول ذلك الموضع للحرارة، لحركة القمر، ونهاية مدّه. لأن الأجرام كلما حميت احتاجت إلى مكان أوسع، كما قلنا متقدماً. فإذا انحدر عن ذلك الموضع الذي هو وسط السماء نقص حرُّ الموضع من الأرض المنفعل به، بقدر ما انحط، وبردت أجرام ذلك الموضع فاحتاجت إلى مكان أضيق، فجزر الماء أعني نقص، ثم لم يزل متزيداً في الجزر مع تزيُّد القمر في الانحطاط نحو المغرب، حتى ينتهي إلى نقطة المغرب، فيكون ذلك نهاية الجزر. . . وكل موضع من الأرض يظهر فيه المد والجزر اليومي، فإنما يظهر فيه حين يبتدىء طلوع القمر عليه، ويبتدىء جزره حين يبتدىء زوال القمر عن سمت رؤوس أهله، ويتم الجزر حين يصير القمر في مغربه. ثم يبتدىء المدّ فيه ـ يقصد في الجهة الأخرى ـ حين يزول القمر عن مغربه ذاهباً إلى وتد الأرض ويتم حين يسامت وتد أرضه. ثم يبتدىء الجزر فيه حين يزول القمر عن وتد أرضه ذاهباً إلى مشرقه ويتم إذا صار في نقطة مشرقه. ثم يبتدىء المد أيضاً إذا زال القمر عن نقطة مشرقه كما قدّمنا. . .»[91].

لقد حدد الكندي أنواع المد والجزر ووصفها وبيَّن تأثير القمر في حدوثها بما يطابق ما نعرفه اليوم عنها. إلا أنه فسَّر تأثير القمر بحرارة يسبّبها في جو الأرض فيضيف إلى حرارة الشمس، وهذه الحرارة الناشئة توسّع حجم الهواء وبالتالي حجم مياه البحر التي يمر فوقها القمر. وهكذا فإن الكندي أصاب في تعليله حدوث المدّ والجزر وتأثير القمر في ذلك، ولكنه لم يتنبّه إلى أن للقمر جاذبية، وهي التي تؤثر على سطح البحار، وأن تأثيره لا يعود إلى ما فيه من حرارة.

---

(٨٨) ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، حققها واخرجها محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣)، ج ٢، ص ١١٠.

(٨٩) المصدر نفسه.

(٩٠) الأحساء: جمع حسي، وهو سهل من الأرض يستنقع فيه الماء، أو غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطر، وكلما نزحت دلواً جمّت أخرى. انظر: مادة «الحسي»، في: الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ٤ ج (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٩)، ج ١، ص ٥٥٨.

(٩١) الكندي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٨ ـ ١٣١.

ب ـ السَّرخسي

ومن كتب في المواضيع الجغرافية من الفلاسفة أيضاً الفيلسوف أحمد بن الطيّب السرخسي أبرز تلاميذ الكندي. فقد صنَّف كتاب المسالك والممالك، وكتاب منفعة الجبال، وكتاب في برد العجوز، وكتاب في كون الضباب، وكتاب في أحداث الجو(٩٢). ولم يصل إلينا شيء من هذه الكتب، إلا أنه من الواضح أن الكتاب الأول من الكتب البلدانية التي تضم معلومات جغرافية متنوّعة سبقت الإشارة إليها. أما الكتب الأربعة الأخرى فهي، كما يظهر من عناوينها، تبحث في مواضيع جغرافية طبيعية، وتتناول الثلاثة الأخيرة منها أبحاثاً في موضوع الآثار العلوية، أي الأحوال الجوية التي سبق للكندي أن صنَّف عدداً من الرسائل والكتب فيها. ولا نعرف ما إذا كان ابن الطيّب قد صنَّفها لتأييد أستاذه في آرائه وتعليلاته، ام أنه وضعها للردّ عليه وتفنيد أقواله.

ج ـ ثابت بن قرّة

صنَّف المهندس الفيلسوف ثابت بن قرّة في مواضيع جغرافية، منها: كتابه في جوامع المسكونة، وكتاب في سبب كون الجبال(٩٣). ويمكن اعتبار بعض كتبه الفلكية مما يختص بالنيّرين من كتب الجغرافيا الرياضية.

د ـ البتّاني

كتب الفلكي الرياضي أبو جعفر محمد بن جابر البتاني في بعض المواضيع الجغرافية كذلك. فقد تضمَّن كتابه الزيج الصابىء معلومات جغرافية، فهو يقدّم لنا أتمَّ وصف للعالم كما عرفته العصور السابقة مأخوذ عن جغرافيي المدرسة اليونانية. وقد أفاد منه ممثلو الجغرافيا الوصفية من معاصري البتاني، كما توجد شذرات منه لدى ابن رستة والمسعودي وقدامة بن جعفر، مأخوذة من مصادر أخرى(٩٤). إذ تضمَّن القسم الأخير من الباب السادس معلومات من الجغرافيا الطبيعية والإقليمية تحتوي وصفاً للأرض وأقاليمها، والبحار وخلجانها وجزرها، والجبال. كما ثبت في الجداول الملحقة بآخر الكتاب أسماء ما ينوف على ثلاثمئة موضع مع بيان مواقعها بحسب العروض والأطوال(٩٥).

---

(٩٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٨٠، وابو العباس أحمد بن القاسم بن ابي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٢٩٤ و٢٩٨.

(٩٣) ابن ابي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٧، وفيه: كتاب في سبب خلق الجبال.

(٩٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٠٦.

(٩٥) ابو عبد الله محمد بن جابر البتاني، الزيج الصابىء، اعتنى بطبعه وتصحيحه وترجمه إلى اللغة اللاتينية كارلو نالينو (رومية: مطبعة رومية، ١٨٩٩)، ص ٢٥ ـ ٢٨ و٢٣٤ ـ ٢٤٢.

٣ ـ الأنواء والآثار العلوية

لقد حقق العلماء العرب في المواضيع التي تدخل ضمن ما نسميه اليوم الجغرافيا الطبيعية تقدماً محسوساً، ولا سيما في ما أطلقوا عليه اسم «علم الأنواء» و «الآثار العلوية» وهما يقابلان ما ندعوه اليوم علم الظواهر الجوية ـ Meteorology. وعلم الأنواء من العلوم العربية الأصيلة، تمتد جذوره إلى عهود العرب في جزيرتهم قبل الإسلام. وما ينطوي عليه هذا العلم من معرفة بالكواكب والنجوم من حيث مواقعها وحركاتها، وبأحوال الجو من خلال فصول السنة، ومواسم الأمطار، ومهاب الرياح، والاهتداء بالنجوم ليلاً، يجعله أحد الأدلة على أنه ثمرة حضارة راقية كانت قائمة في جزيرة العرب في عهود قديمة من تاريخها. مع العلم أن ما وصل منه إلى أيام النهضة العلمية في القرن الثالث متمثلاً بالشعر والسجع من الأقوال، ما هو إلا غيض من فيض.

ولم تكن المعلومات في الأنواء تدوّن حتى أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث، عندما أخذ العلماء من رجال اللغة والنحو يجمعون من أشعار العرب وأقوالهم وأمثالهم ما يصنّفون منها كتباً قائمة على موضوع واحد كالإبل، والخيل، والنحل، والطير، وخلق الإنسان، والنبات، والزرع، والشجر، والنخل. وبذلك كانوا أول من عني بجمع المعلومات عن علم الأنواء. ثم أخذ غيرهم من العلماء والفقهاء والجغرافيين يصنّفون في هذا الموضوع. فقد صنّف فيه من علماء اللغة كل من الأصمعي، وابن الأعرابي محمد بن زياد الكوفي، ومحمد بن حبيب، والمفضّل بن سَلَمة، وأبو مُحلِّم الشيباني، والمبرِّد، والأخفش الصغير، وابن دريد. ومن العلماء الفقهاء والمؤرخين أبو حنيفة الدينوري، وابن قتيبة. ومن العلماء الفلاسفة ثابت بن قرّة[٩٦].

وكان علماء اللغة قد جمعوا في ما صنفوه من كتب الأنواء ما قاله قدامى العرب من الشعر والسجع مما يتضمن معلوماتهم عن مطالع النجوم ومساقطها، ومنازل القمر وهيئاتها، والأزمنة ـ أي الفصول، وتحديدها، والمواسم والأمطار، وأنواع الرياح ومهابها. وكان مفهوم الأنواء عندهم هو حوادث الجو في مختلف أيام السنة «سميت أنواء لأنها تقدمة المعرفة بأحوال السنة وأقسامها وأيامها»[٩٧]. ولا يكاد يختلف مفهوم الأنواء عند أهل اللغة وعند علماء الفلك إلا بالترتيب والتنظيم والشمول. ويلاحظ أن ما اطلع عليه علماء العرب من معلومات حكماء اليونان عن الأنواء، لم يزد شيئاً عما كان يعرفه قدماء العرب في هذا العلم.

وقد طُبع من الكتب التي وصلت إلينا عن الأنواء كتاب لأبي حنيفة الدينوري، وكتاب

---

(٩٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٣٦، ما عدا المفضل بن سلمة (ص ١١٧)، والأخفش الصغير (ص ١٢٩)، وثابت بن قرة، انظر: أخبار الحكماء، ص ١١٨.

(٩٧) علم الفلك عند العرب، ص ١٣٤.

اخر لابن قتيبة[٩٨]. وسنعرض في ما يلي مفهوم الأنواء وما يتصل بها اعتماداً على ما جاء في الكتاب الأخير. إن معنى النوء «هو سقوط النجم منها ـ أي من منازل القمر ـ في المغرب مع الفجر وطلوع اخر يقابله من ساعته في المشرق. وسقوط كل نجم منها في ثلاثة عشر يوماً خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً، فيكون انقضاء سقوط الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة، ثم يرجع الأمر إلى النجم الأول في ابتداء السنة المقبلة»[٩٩].

وتضمّن كتاب ابن قتيبة مواضيع علم الأنواء الرئيسية وهي: منازل القمر، وطلوع الشمس وغروبها، ونسبة المطر إلى النوء، وأسماء المنازل وهيئاتها وكيفية نزول القمر بها وما ينسب إليها. ثم تكلم على أوقات النتاج، وأوقات تبدِّي العرب ورجوعها إلى محاضرها، ويذكر الأزمنة الأربعة وتحديد أوقاتها مع نجومها ونجوم أنوائها. ويلي ذلك موضوعات فلكية تتعلق بالقطبين والمجرّة والكواكب السيارة والنجوم الثابتة، وموضوع الرياح وتحديد مهابها وأفعالها، والسحاب والمطر، وينتهي باختلاف مناظر النجوم وكيفية الاهتداء بها.

ولعل من المناسب أن نذكر نموذجاً مما تعرّض له ابن قتيبة من مواضيع علم الأنواء، فهو يقول عن الأزمنة وأقسامها: إن العرب لم تكن تذهب في تحديد أوقات الأزمنة إلى مثل هذا ـ ويقصد تقسيمها في أيامه ـ ولا تجعل الربيع أول السنة، ولكنها تذهب إلى ما تعرفه في بلادها من إقبال الحر والبرد وادبارهما، وطلوع النبات واكتهاله ـ نضجه ـ ويبسه. وتذهب في عدد الأزمنة إلى الابتداء بالخريف وتسميه الربيع، لأن أول الربيع وهو المطر، يكون فيه. ثم يكون بعده فصل الشتاء، ثم يكون بعد الشتاء فصل الصيف وهو الذي يسميه الناس الربيع وتأتي فيه الأنوار، وإنما سموه صيفاً لأن المياه عندهم تقل فيه ـ والكلأ يهيج، وقد يسميه بعضهم الربيع الثاني. ثم يكون بعد فصل الصيف القيظ وهو الذي يسمّيه الناس الصيف، وأول الربيع عندهم ـ وهو الخريف ـ ثلاثة أيام تخلو من أيلول [سبتمبر]، وأول الشتاء ثلاثة أيام تخلو من كانون الأول [ديسمبر]، وأول الصيف ـ وهو الربيع الثاني ـ خمسة أيام تخلو من اذار [مارس] وأول وقت القيظ أربعة تخلو من حزيران [يونيو]. والخريف عندهم المطر الذي يأتي في آخر القيظ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للفصل[١٠٠].

وكانوا يُسمّون شهري الشتاء الخالص شهري قِماح، وسميا بذلك لأن الإبل ترفع رؤوسها عند الماء لشدة برده، والإبل القِماح هي التي ترفع رؤوسها. ويدعون هذين الشهرين ملحان وشَيْبان لبياض الأرض بالصقيع والجليد. ويسمون شهري القيظ اللذين يشتد فيهما الحر شهري ناجر، وسميا بذلك لأن الإبل تشرب ولا ترتوي، والنجرُ هو أن تشرب فلا ترتوي[١٠١].

---

(٩٨) ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الأنواء في مواسم العرب (حيدر آباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٦).

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٦ ـ ٧.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

ثم يتكلم بعد ذلك على نجوم الأزمنة ونجوم أنوائها، لكل فصل وأمطاره ونباته ورياحه. ويربط مواعيد كل هذه الظواهر بمواعيد النجوم التي تخص كل فصل منها.

أما ما يتعلق بالظواهر الجوية وعلل تغيّرها باستمرار فإن أحسن ما يمثّل ما توصّل إليه العرب آنذاك ما كتبه الفيلسوف الكندي من رسائل وكتب حول هذا الموضوع مما سبقت الاشارة إليه. فقد عالج الكندي المواضيع الخاصة بالآثار العلوية وفق نظرية قال بها، عرفت بقانون انبساط الأجسام. وهي تعارض نظرية أرسطوطاليس القائلة بأن حدوث الآثار العلوية إنما تنشأ عن افتراق البخارين، أي البخار الرطب والبخار الجاف الدخاني فوق الأرض بتأثير الشمس. فالبخار الرطب هو مادة المطر والثلج والبرد وما يشابه ذلك، بينما البخار الجاف هو مادة الرياح، وهو يعزو سبب حدوث المطر إلى التقاء البخار الرطب بالبرودة دون أن يفسّر أثر البرودة عليه أو يعلله»[102]. أما نظرية الكندي فقد جعلت تمدّد الأحجام هو السبب الرئيس لتكوين الحوادث الجوية، فهو يقول «وكل جسم برد القبض واحتاج إلى مكان أصغر من مكانه قبل برده، وكل جسم حي انبسط واحتاج إلى مكان أعظم من مكانه قبل حيه»[103]. وعلى هذا فإن العلة الأساسية في حدوث المطر، كما يرى الكندي، هي انقباض حجم البخار الذي يحصل بتأثير اختلاف الحرارة، إذ يقول: «فإذا تناهى البخار إلى موضع بُعده من سمت الشمس بُعدَ يبرُد جوه بالمقدار الذي يعصر ذلك البخار ويغلظه ويكثفه، استحال ما ماسّه من الهواء ماء، فانحلب أمطاراً سائلة إلى الأرض ما كان فيه من البخار المائي»[104].

وكذلك الأمر في حدوث الرياح، فقد قسم أرسطوطاليس الرياح قسمين: الرياح العمودية والرياح الأفقية، وتحصل الأولى بطلوع البخار الجاف إلى الأعلى واصطدامه بالبرودة فيرجع إلى الأرض، وهذه الحركة تولّد الرياح العمودية، أما الرياح الأفقية فهي في رأيه أن حركة طبقة الهواء الموجودة حول الكرة الأرضية تابعة للحركة الكلية مع الفلك الأفقي، وهو تعليل مبهم ينطوي على تناقضات[105]. بينما يعلل الكندي حدوث الرياح بقوله: «فإذا كانت الشمس في الميل الشمالي حميت المواضع التي في الجهة الشمالية، وبردت التي في الجهة الجنوبية، فسال الهواء الشمالي واتسع لحرارته، إلى الجهة الجنوبية لانقباض الهواء الجنوبي ببرده. فلذلك تكون أكثر رياح الصيف شمالاً وأكثر رياح الشتاء جنائب، إلا ما عرض من الأسباب السفلية من جري الأودية والفيوض العارضة والنقائع والمروج والشروق على الجبال المصلدة والسّباخ المحرقة والزروع والغياض والآجام، في بعض الأوقات دفعةً، وفي بعضها على جزء فجزء. فإن بهذه الأسباب وما أشبهها تحدث علل يكون سيل البخار بها إلى جهات مختلفة، نعرض بها صنوف من الرياح على قدر أوضاع المواضع من الاشراف، والأنهار، والأغوار والهويات ومن التهاب النيران، وما أشبه ذلك»[106]. وهو تفسير يخالف ما قال به أرسطوطاليس، وينطبق تماماً على

---

(١٠٢) فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية الاسلامية (فرانكفورت: [د. ن.]، ١٩٨٤)، ص ١٠٥.

(١٠٣) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج ٢، ص ٧١.

(١٠٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٢.

(١٠٥) سزكين، المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(١٠٦) الكندي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١ - ٧٢.

النظريات الحديثة في الموضوع، التي تنسب إلى جورج هاردلي وعمانوئيل كنت من علماء القرن التاسع عشر الميلادي[١٠٧].

٤ ـ الكتب البلدانية

استطاع علم التاريخ في هذا القرن أن يتحرر من الجغرافيا ويقتصر على الوقائع والأحداث إلى حد بعيد، بحيث أصبح علماً مستقلاً له أهدافه ونطاقه وطرقه. وظهرت الكتب التاريخية الخالصة مما سبقت الإشارة إليها. إلا أن علم الجغرافيا لم تتيسر له الأسباب الكافية التي تجعله علماً قائماً بذاته، وذلك لعدم اتضاح مواضيعه وأهدافه بصورة كاملة، فبقي طوال هذا القرن والقرن التالي أسير الكتب البلدانية. إن اهتمام الدولة والناس بالتعرف إلى طبيعة الأقاليم ومدنها وخططها، والطرق الموصلة إليها، ومحصولات أرضها، وصناعات أهلها وتجاراتهم، كانت حوافز مهمة لدراسة هذه المعلومات وجمعها وتدوينها بعدد من الكتب البلدانية التي أخذت تظهر في هذا القرن. فقد احتاجت الدولة إلى هذه المعلومات لأغراضها السياسية والمالية والعسكرية والادارية، واحتاجها الناس في أسفارهم للحج والتجارة وطلب العلم أو لأغراض أخرى. فكان التجار يتنقلون بين مختلف الأمصار والبلدان بحكم عملهم في نقل البضائع والأموال بين بلد وآخر للاتجار بها. وتسافر أعداد غفيرة من المسلمين سنوياً إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، كما يرحل أعداد كبيرة من الطلبة طلباً للعلم والحديث وللدرس على مشاهير الشيوخ والعلماء في أوطانهم، وللتعرف إلى مختلف البلدان وأحوالها. وكانت وحدة الدولة العربية سياسياً ودينياً ولغوياً قد يسّرت للناس ذلك.

لقد كان من نتائج هذه الرحلات والأسفار أن ازدادت المعلومات والمعارف الجغرافية. إذ كان بعض هؤلاء المتنقلين بين البلدان يعنون بتدوين بعض مشاهداتهم وملاحظاتهم وما يسمعونه عن أحوال تلك البلدان التي سافروا إليها واطّلعوا على حياة أهلها من حيث عاداتهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم، وما تشتهر به، وعرفوا مواقعها وطرق الوصول إليها. أو أنهم يردّون تلك المعلومات لغيرهم ممن يدفعه حب الاستطلاع لسماعها، أو للإفادة منها. فكانت هذه المعلومات المادة الأساس للكتب المشار إليها. والواقع أننا نجد في ما وصل إلينا من هذه الكتب معلومات وفيرة ومفصّلة عن أقاليم الدولة العربية آنذاك، ومدنها الكبرى ومعالمها، والطرق إليها ومحطات استراحة القوافل فيها، وما تشتهر به كل منها من الصناعات ومحصولات أرضها، وما تتّجر به من البضائع مما تصدّره أو تستورده. كما أنها تتضمن أحياناً وصف حياة الناس فيها وعاداتهم ولباسهم وما يُستحسن أو يعاب فيهم.

وقد حملت هذه الكتب عناوين مختلفة: منها الأقاليم، والبلدان، وصورة الأرض، وصفة العالم، والمسالك والممالك، والأخير أكثرها استعمالاً. ومن الملاحظ أن المعلومات الجغرافية التي جاءت في هذه الكتب كانت وصفيّة، وأن بعضها تضمّن شيئاً من غرائب

---

(١٠٧) سركين، المصدر نفسه، ص ١٠٧.

الأخبار وعجائب العالم، مما يدخل في موضوع الأساطير والقصص الخيالي. ولا يخفى أن الكتب البلدانية التي صنفت في القرن التالي ـ الرابع ـ كانت أوسع شمولاً وأكثر دقة وتحرّياً. وخير ما يمثلها كتاب صورة الأرض لابن حوقل محمد الموصلي التاجر الرحالة المتوفى سنة ٣٦٧، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي البشاري محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٨٠، وأن ما جاء فيهما خلاصة المعلومات والآراء الجغرافية التي توصّل إليها العرب في خلال القرنين الثالث والرابع.

ومما وصل إلينا من الكتب البلدانية التي صنّفت في القرن الثالث كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه، وكتاب البلدان لليعقوبي، وهما نموذجان جيّدان للكتب البلدانية، وسنحاول فيما يأتي أن نلم بمحتويات كل منهما من المعلومات الجغرافية لنتعرّف إلى أهمية الكتب البلدانية في تطور علم الجغرافيا.

أ ـ كتاب المسالك والممالك

صنفه أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه، الأديب الجغرافي المتوفى نحو سنة ٢٨٠[١٠٨]. نشأ ببغداد وتلقى ثقافة عربية، وصار من رؤساء الدواوين، ونادم الخليفة المعتمد على الله واختُص به وولّاه ديوان البريد في الولايات الشرقية. ويعتبر كتابه المسالك والممالك أول كتاب وضع بهذا العنوان. ويقول ابن النديم إن أول من ألّف في هذا الموضوع هو أبو العباس جعفر بن أحمد المتوفى سنة ٢٧٤ وهو أحد المؤلفين في سائر العلوم، ويظهر أنه لم يتم تصنيفه[١٠٩]. إلا أن دو غويه ناشر كتاب ابن خرداذبه يرى أن مسودته الأولى ترتفع إلى حوالى سنة ٢٣٢ وأعدّت مسوّدته الثانية سنة ٢٧٢، وجاء مثل هذا في كتاب تاريخ الأدب الجغرافي العربي، وفي دائرة المعارف الاسلامية، ويعتبره المستشرق نيكلسون أقدم مصنف جغرافي وصل إلينا، ويصفه بأنه دليل رسمي[١١٠].

يمكن أن يُستنتج مما جاء في مقدمة الكتاب الوجيزة أن المصنف قد وضعه تلبية لطلب الخليفة ليوضح فيه مسالك الأرض وممالكها وصفتها، وبعدها وقربها، وعامرها وغامرها، على ما رسمه المتقدمون، ويقول إنه اعتمد في وضعه على كتاب بطلميوس دون أن يسميه، ومن الواضح أنه يقصد كتاب جغرافيا في المعمور[١١١]. وفسّر ما يعنيه عنوان كتابه بقوله «هذا كتاب

---

(١٠٨) هكذا ثبت اسمه ناشر الكتاب، ومثله جاء في: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٦٦٥. إلا أن ابن النديم سمّاه عبيد الله بن أحمد، في: الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢١٨، وكذلك سماه الزركلي، في: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٤، ص ٣٤٣.

(١٠٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

(١١٠) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج ١، ص ١٥٦، ودائرة المعارف الاسلامية، ج ١٢، ص ١٢٣.

(١١١) ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، المسالك والممالك، تحقيق ميخائيل دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٨)، ص ٣.

فيه صفة الأرض وبنية الخلق عليها، وقبلة أهل كل بلد، والممالك، والمسالك إلى نواحي الأرض»[112].

يبدأ الكتاب بمعلومات موجزة عن صفة الأرض الكروية وخط الاستواء والقطبين الشمالي والجنوبي، وقسمة سطح الأرض إلى سبعة أقاليم متبعاً تقسيم الخوارزمي. ويبيّن اتجاه قبلة كل بلد من البلدان الاسلامية. ثم يتكلم بإسهاب على سواد العراق من حيث أقسامه الإدارية وتقدير جباية خراجه مقدّرة بوزن الحاصلات الزراعية وقيمتها بآلاف الدراهم. ويذكر بعد ذلك ملوك الأرض في أول الزمان وممالكهم وألقابهم. ثم يبدأ القسم الأساسي للكتاب فيتكلم على المسالك الرئيسة بدرجة متفاوتة من التفصيل ذاكراً أهم المدن والقرى والمواقع التي تمر بها مع مقدار المسافات بينها بالفراسخ. مبتدئاً بطرق المشرق، ثم طرق الجنوب إلى الهند، فطرق الشمال إلى آسيا الصغرى وبلاد الروم. مع ملاحظات عن التقسيم الإداري والخراج والحاصلات الزراعية والمعادن وغرائب الحيوان، وبعض الأخبار عن عجائب البلدان التي تمر بها المسالك والطرق المذكورة. ثم يذكر أجناس أهل الهند، ويقصد بذلك الطبقات الاجتماعية. كما يصف الطرق الموصلة إلى عاصمة الروم ويعدّد أعمال بلاد الروم وأقسامها الادارية، ويذكر تفاصيل أخرى رواية عن مسلم بن أبي مسلم الجرمي، صاحب المصنفات في أخبار الروم وبلادهم، وطرقها ومسالكها، وأوقات غزوها، وما جاورها من الممالك من البرجان والبرغز والصقالبة والخزر وغيرهم[113]. ويذكر بإسهاب الطرق الموصلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة من حاضرة الخلافة أو من أمهات الأمصار، مبيناً منازلها، ويعطي لتوفر المياه فيها أهمية كبيرة، وهو ما يجعل هذا القسم من الكتاب خير دليل للحجاج.

ويتكلم بعد ذلك على طرق التجارة الخارجية، فيصف الطرق التي اعتاد التجار سلوكها في رحلاتهم التجارية، وقد سبق ذكرها في الفصل الخاص بالتجارة عند بحث الطرق الخارجية.

ثم ينتقل إلى الكلام على تقسيم المعمور من الأرض إلى أربعة أقسام هي: أورفى، وفيها الأندلس والصقالبة والروم وفرنجة وطنجة إلى حد مصر. ولوبية وفيها مصر والقلزم والحبشة والبربر والبحر الجنوبي. وإيتوفيا وفيها تهامة واليمن والسند والهند والصين. واسقوتيا وفيها ارمينيا وخراسان والترك والخزر.

ويلي ذلك فصل عن عجائب الأرض، فيذكر بعض ما يعتبره من العجائب بالأندلس والهند وبلاد الروم والحجاز ومصر وسد يأجوج ومأجوج. وعن هذا السد يذكر خبر البعثة التي أرسلها الواثق بالله من سامراء إلى موقع السد برئاسة سلّام الترجمان. وهو يروي الخبر عن رئيس البعثة الذي أملاه عليه من كتابه الذي كتبه للخليفة الواثق بالله. وهو أقدم مصدر

(١١٢) المصدر نفسه، ص ٤.

(١١٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٦٢.

هذا الخبر، وعنه نقله الآخرون، رغم تشكك بعضهم بصحته. ويكمل بعد ذلك عجائب البلدان الأخرى كالتبت والأهواز وبلاد الزنج والبحرين. كما يتكلّم على عجائب استحالة المياه، وعجائب الجبال. ثم يخصص باباً لمخارج الأنهار، أي منابعها.

والكتاب بما احتوى من المواضيع لا يمكن اعتباره كتاباً جغرافياً بالمعنى المفهوم لهذا العلم، إلا أنه تضمّن أوصاف بعض البلدان وذكر حاصلاتها، وطبيعة أرضها، وأمطارها، ومناخها، وأمثال ذلك من معلومات ذات طابع جغرافي. ولا ننسى أن الغرض الأصلي من تصنيف الكتاب، كما قال مصنّفه في مقدمته، هو توضيح مسالك البلدان وممالك الأرض. وللكتاب أهمية خاصة لأن ما ورد فيه عن الطرق والمسالك صار مرجعاً لمن جاء بعده لدقة معلوماته التي اكتسبها بعمله في ديوان البريد، وباطلاعه على ما جاء عنها في وثائق دواوين الدولة. كما أن بحوثه لا تنحصر في أقاليم الدولة العربية وطرقها، بل تمتد إلى جميع البلدان والممالك الأخرى التي استطاع أن يجمع أخبارها.

أما أسلوب الكتاب ولغته فدون المستوى المطلوب، علماً أن للمؤلف مصنفات أخرى في الأدب والندماء والجلساء وأدب السماع والأنواء[114]، فقد جاء بأسلوب جاف ولغة ضعيفة. كما أن الكتاب بمجموعه ينقصه التنسيق والتبويب الصحيح، فلم ينهج نظاماً خاصاً في تأليفه؛ فعند كلامه على صفة الأرض (ص ٤) لم يستكمل المعنى إلا في الصفحتين (٩٣ و١٥٥) ولعل هذا الضعف في الأسلوب واللغة وعدم التنسيق في عرض المادة يعود إلى أن نسخة الكتاب المطبوعة ليست أصل الكتاب وإنما تمثل موجزاً متأخراً له وجد في مخطوطتين فقط، كما يقول ناشر الكتاب[115]. وجاء في كتاب الأدب الجغرافي العربي للمستشرق الروسي كراتشكوفسكي[116] أن دو غويه اطلع على مخطوطة ثالثة للكتاب واستفاد منها في طبعة سنة ١٨٨٩.

وختاماً نرى، كما يقول المستشرق الروسي كراتشكوفسكي، انه «قد كان لاهتمام المؤلف بالرّحلات أن حفظ لنا مادة مفيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق في عهود مبكّرة... ولا شك أن عدم التناسق في مادة الكتاب هو المسؤول عن التناقض في حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه. غير أن تأثيره على الأدب الجغرافي التالي كان كبيراً جداً، فأخذ عنه من المؤلفين المتقدمين اليعقوبي وابن رستة وابن حوقل والمقدسي والجيهاني والمسعودي، وذلك عن مخطوطة ثالثة هي أفضل المخطوطات جميعاً»[117].

ب ـ كتاب البلدان

من الكتب البلدانية المهمة التي وضعت في هذا القرن كتاب البلدان ومصنّفه المؤرخ

---

(١١٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢١٩.

(١١٥) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج ١، ص ١٥٦.

(١١٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٨.

(١١٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٨.

أحمد بن اسحاق اليعقوبي صاحب التاريخ المعروف باسمه، والذي سبق أن تحدثنا عنه. كان اليعقوبي، كما يقول في مقدمة كتابه، معنياً في عنفوان شبابه بأخبار البلدان ومسافة ما بين بلد وآخر، فسافر وهو حديث السن، واتصلت أسفاره وطال تغرّبه فأقام مدة بأرمينيا وخراسان وزار الهند وفلسطين والمغرب، ومكث مدة في مصر في أيام إمارة الطولونيين. وجمع أخبار تلك البلدان وغيرها، وبلغ من حبّه للمعرفة أنه كان يسأل كل من يلقاه عن بلده وموقعه وسكانه، وشرب أهله، وحاصلاته الزراعية والمسافة بين ذلك البلد وما يقرب منه من البلدان، ولا يفوته أن يستفسر عن لباس الناس ودياناتهم. وهو لا يأخذ المعلومات إلا ممن يثق بصدقه. ومما يدل على دقته في جمع المعلومات أنه كان يستظهر بمساءلة قوم بعد قوم عن الموضوع نفسه. وكان يحضر مواسم الحج حيث يفد الناس إلى مكة المكرمة من مختلف أرجاء العالم الاسلامي، فيتصل بأكبر عدد منهم ليتعرف إلى أحوال البلاد التي قدموا منها. فتجمعت لديه معلومات كثيرة كان يكتبها تدريجياً، فألّف هذا الكتاب. وكان يضيف إليه كل ما يحصل عليه من معلومات أخرى من ثقات أهل الأمصار. ولاعتقاده بأن ما جمعه من المعلومات عن بلد ما لا يحيط بكل أحواله، فقد جعل كتابه هذا «مختصراً لأخبار البلدان» وهو يعتذر ممن يجد أخباراً عن بلد لا يتضمنها هذا الكتاب، لأنه لم يقصد الإحاطة بكل ما يخص ذلك البلد، متمثلاً بقول الحكيم «ليس طلبي للعلم طمعاً في بلوغ ناصيته والاستيلاء على نهايته، ولكن معرفة ما لا يسع جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه»[(118)]. وقد حدد الموضوعات والبحوث التي ضمها الكتاب بقوله «ذكرت اسماء الأمصار والأجناد والكور وما في كل مصر من المدن والأقاليم والطساسيج ومن يسكنه... ومن فتحه من قادة جيوش الاسلام وتاريخ ذلك في سنته وأوقاته، ومبلغ خراجه»[(119)].

وقد ابتدأ ببلاد العراق «لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض»[(120)] وتكلم أولاً على بغداد وسُرّ من رأى «لأنها مدينة الملك ودار الخلافة»[(121)] وقد أسهب في الكلام عليهما وبخاصة ما يتعلق بتأسيسهما وخططهما وما طرأ من تغييرات عليهما، مما استغرق ربع مجموع صفحات الكتاب. ثم ذكر بعد ذلك سائر البلدان. وهو يقسم العالم المعروف آنذاك إلى أربعة أقسام بحسب الجهات الأصلية، فيقول «فلنذكر الآن سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلد ومدينة ومدينة على اقسام اربعة حسب ما تقسم عليه أقطار الأرض بين المشرق والمغرب ومهبّ الجنوب، وهو القبلة وهو مطلع سهيل الذي يسميه الحُسّاب التيمُّن، ومهب الشمال وهو كرسي بنات نعش الذي يسميه الحُسّاب الجدي، ونصف كل بلد إلى الربع الذي هو منه والذي يتصل به»[(122)]. ويلاحظ أنه لم يتقيد بتقسيم بطلميوس، كما أنه لم يأخذ بأقاليم الخوارزمي، وإنما وضع تقسيماً خاصاً يقوم على الجهات الأصلية الأربع. وهذه الأقسام هي:

الربع الأول وهو ربع المشرق ويشمل الأقاليم الشرقية للدولة العربية. وتطرّق فيه إلى

---

(١١٨) احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، ص ٢٣٣.

(١١٩) المصدر نفسه.

(١٢٠) المصدر نفسه.

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٢٦٨.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

فتح سجستان وذكر ولاتها على التتابع وولاة خراسان منذ الفتح العربي حتى أيامه، وتضمّن ذلك معلومات تاريخية مهمة.

الربع الثاني وهو الربع القِبلي وتكلّم فيه على مدينة الكوفة وخططها، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة، واليمن، مع بيان المسافات بينها. واهتم بطريق الحج الموصل بين بغداد ومكة والمدينة عن طريق الكوفة، والمنازل التي في هذا الطريق، كما ذكر طريق الحج بين اليمن ومكة ومنازله.

الربع الثالث وهو الربع الجربيّ وهو ربع الشمال وتضمّن الكلام فيه على المدائن والبصرة. وقبل أن يكمل ما يختص بالبصرة ينتقل إلى الولايات الغربية فيتكلم على جند حمص وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين. ثم يتكلم على مصر وكورها، ومعادن التبر، وبلاد النوبة، وبلاد البُجة. ثم يكمل كلامه على مدن مصر وفتحها، وعلى طريق مكة من مصر، وعلى المغرب، وبرقة، وسرت، واطرابلس، والقيروان، وجزيرة الأندلس ومدنها، وسجلماسة، والسوس الأقصى، وعندها ينتهي الكتاب بملحق عن نهر الأهواز، وشيراز، ونصيبين ومَلَطية، ودلوك ومنبج واسكندرونة، وتفليس، وأقسام أرمينيا.

ونستنتج من هذا الارتباك، وسعة ما تضمّنه الربع الثالث، وعدم تجانس الأقاليم فيه، أنه قد حصل نقص في القسم الأخير منه، واختلط بعض أقسام الربع الرابع مع نقص في أوائله. وبصرف النظر عن هذا النقص والخلط الذي طرأ على الكتاب على أيدي النسّاخين وعوادي الزمن، فقد أحسن اليعقوبي في تبويب كتابه، وهو تبويب جغرافي إداري قائم على الجهات الأربع، والولايات ومدنها المهمة. وقد درج المصنف على أن يصف أهم المدن فيتكلم على فتحها وجغرافيتها من حيث سطحها ومياهها وحاصلاتها، إدراكاً منه لأهمية هذه العوامل الجغرافية في التقدم الحضاري. كما يذكر المسافات بالمراحل أو الفراسخ.

لقد وضع اليعقوبي كتابه هذا على ما رأى وما سمع، وكان دقيقاً في تحرّيه وروايته. ويمكن القول إنه أول المصنّفين البلدانيين وصف البلدان وخصائصها معتمداً على ملاحظاته ومشاهداته في رحلاته، وما اعتمد عليه من مسموعاته من الآخرين. وقد تناول فيه جوانب مختلفة من علم الجغرافيا، كالناحية البشرية، والناحية الطبيعية، والناحية الوصفية، اضافة إلى اهتمامه بالخراج والإدارة. والكتاب بلدانيّ يختلط فيه التاريخ بالجغرافيا، ومع أن المعلومات الجغرافية فيه أغلب، فإن المعلومات التاريخية تطغى في بعض المواضيع التي يسردها اليعقوبي المؤرخ.

ويتميز الكتاب بأنه كتب بروح علمية، فقد خلا تقريباً من أي خبر عن العجائب والأساطير التي لم يخلُ منها كتاب بلداني. كما أنه لم يقتصر فيه على بلدان الدولة العربية بل تناول أقطاراً أخرى كبلاد الروم، والأندلس، والصين، والهند. ويعتبر ما كتبه اليعقوبي عن بغداد وسامراء أهم ما انطوى عليه الكتاب، وهذا ما جعله أهم مصدر عنهما. أما أسلوبه فشيّق ممتع، سهل المأخذ، وهو إلى الاختصار أقرب، إذ يحاول أن يقدم للقارىء صورة عامة

واضحـة ومختصرة عن البلد الذي يتحـدث عنه. وقـد يكون من المنـاسب أن نعـرض بعض المقاطع من الكتاب كنماذج على أسلوبه ومادته. يقول في كلامه على المدينة المنورة: «والمدينة كما سمّاها رسول الله ﷺ طيّبة في مستوى من الأرض عذبة بريّة جبلية... وأهلها المهاجرون والأنصار والتـابعون، وبها قبائل العرب من قيس... ولها أربعة أودية يأتي ماؤها في وقت الأمطار والسيول من جبال بموضـع يقال لـه حَرَّة بني سُليم على مقدار عشرة فراسخ من المدينة، وهي وادي بُطحـان والعقيق الكبير والعقيق الصغير ووادي قناة. فمياه هذه الأودية تأتي في وقت السيول ثم يجتمع كلها بموضع يقـال له الغـابة، ويخـرج إلى وادي يقال لـه وادي إضَم... وبهـا آبار يُسقى منهـا النخل والمزارع تجرّهـا النواضـح، وهي الإبل التي تعمـل في الزرانيق. وبالمدينة عيون نابعة معيّنة... وأكثر أموال أهلها النخـل ومنه معـاشهم وأقواتهم، وخـراجها من أعشـار النخل والصدقات. والبحر الأعظم منها على ثلاثة أيام، وساحلها موضـع يقال لـه الجار وإليه تُرسى مـراكب التجار، والمراكب التي تحمل الطعام من مصر..»[123].

ويقول عند كلامه على بغداد: «ثم هي وسط الدنيا لأنها على ما أجمع عليه قول الحُسّـاب وتضمنته كتب الأوائـل من الحكماء في الإقليم الرابع، وهـو الإقليم الأوسط الذي يعتـدل فيه الهواء في جميـع الأزمان والفصول فيكون الحرّ بها شديداً في أيام القيظ والبرد شديداً في أيام الشتاء ويعتدل الفصلان الخريف والربيع في أوقاتها. ويكون دخول الخريف إلى الشتاء غير متباين الهـواء، ودخول الـربيع إلى الصيف غـير متباين الهـواء، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء إلى هواء ومن زمان إلى زمان، فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثرى وعـذب الماء وزكت الأشجار وطابت الثمار وأخصبت الزروع وكثرت الخيرات وقرب مُستنبط معينها. وبـاعتدال الهـواء وطيب الـثرى وعذوبة المـاء حسـنت أخـلاق أهلهـا ونضرت وجـوههم وانفتقت أذهـانهم حتى فضلوا النـاس في العلم والأدب...»[124].

وفي معرض كلامه على التبر يقول: «ومن أراد المعادن معادن التـبر خرج من اسوان إلى موضـع يقـال له الضيقـة بين جبلين ثم البسويب ثم البيضية ثم بيت ابن زيـاد ثم عذيفـر ثم جبل الأحمر ثم... وادي العلاّقي. وكل هذه المواضع معادن التبر، يقصدها أصحاب المطالب، ووادي العلاّقي كالمدينة العظيمة به خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم أصحاب المطالب، وبها أسواق وتجارات، وشربهم من آبار تحفر في وادي العلاّقي. وأكثر من بالعلاّقي قـوم من ربيعة من بني حنيفـة من أهل اليمامة انتقلوا إليهـا بالعيـالات والذرية. ووادي العلاّقي وما حواليه معادن للتبر، وكل ما قرب منه، يحتمل فيه الناس، لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان يعملون في الحفر ثم يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ثم يُسبك... وعيذاب سـاحل البحـر المالـح يـركب النـاس منـه إلى مكـة والحجـاز واليمن، ويـأتيـه التجـار فيحملون التـبر والعـاج وغـير ذلـك في المراكب..»[125].

---

(123) المصدر نفسه، ص ٣١٢ - ٣١٣.
(124) المصدر نفسه، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.
(125) المصدر نفسه، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

الفصل الثامن

العُلوم الطبيعيّة

اعتُبر علم الطبيعيات في عصر النهضة العلمية العربية أحد أجزاء القسم النظري من الفلسفة، وهو يبحث في ما له عنصر ومادة من الأشياء[1]. وعرَّفه ابن خلدون، وحدّد نطاقه بأنه علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق وغيرها، وفي مبدأ حركة الأجسام[2]. ولهذا سنحصر بحثنا في هذا الباب بعلوم الكيمياء والمعادن، والفيزياء والميكانيكا، والحيوان والنبات.

أولاً: الكيمياء والمعادن

١ ـ الكيمياء

اسم صناعة الكيمياء عربي، وهو مشتق من كَمى يكمي إذا ستر وأخفى، ويقال كمى الشهادة يكميها إذا كتمها وأخفاها، والمحققون لهذه الصناعة يسمّونها الحكمة، وبعضهم يسميها الصنعة[3]. وقد بدأ المشتغلون في هذه الصنعة أول ما بدأوا، بالعمل والسعي

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، مفاتيح العلوم (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٩٢٣)، ص ٨٠.

(٢) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، ٧ ج (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ٢٦٨.

(٣) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٤٦، والطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ٤ ج (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٩)، ج ٤، ص ٧٥.

للحصول على «ملح الإكسير» وهو «الدواء الذي إذا طبخ به الجسد المذاب جعله ذهباً أو فضة . أو غيَّره إلى البياض أو الصفرة»[٤] مستهدفين تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن ثمينة ، وكانوا يعتقدون بتحقيق ذلك . وفي عملهم الدؤوب من أجل الوصول إلى صنع ملح الإكسير أفادوا من تجاربهم ، وتوصّلوا إلى كثير من حقائق علم الكيمياء ، فوضعوا بذلك أساسه العلمي . على أن البحث عن الإكسير لم يكن السبب الوحيد الذي دفع العلماء العرب إلى الاهتمام بصناعة الكيمياء ، فقد كانت ثمة عوامل أخرى لا تقلّ عنه أهمية دفعتهم إلى ذلك ، منها : اهتمامهم بتحضير الأدوية وتركيبها ، وحاجتهم إليها في صناعة صبغ الملابس ، ودبغ الجلود ، وفي صناعة الورق ، وتركيب العطور .

عرّف ابن خلدون الكيمياء بأنها علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، والمادة هي الإكسير الذي يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب والفضة ، بالاستعداد القريب من الفعل ، مثل الرصاص والقصدير والنحاس ، بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً إبريزاً . وإمام المدونين في هذه الصناعة هو جابر بن حيّان ، حتى إنهم يخصّونها به فيسمونها علم جابر[٥] . وقد رفض ابن خلدون القول بإمكان تحويل المعادن ، وردَّ على ذلك في الفصل الذي كتبه بعنوان «فصل في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها» ويبني ردّه على تعذّر مساوقة الطبيعة في عملها ، وأن العاملين فيها عجزوا عن تحقيق مطلبهم ، ولذا فإن التدبير الذي يبذل في ذلك عقيم ، وإذا ما صح زعم جابر بن حيّان ومسلمة المجريطي بأنها تمكّنا من تحضير الإكسير ، فإن ذلك لم يتم بالصناعة ، وإنما كان ذلك من باب السحر والخوارق[٦] .

أ ـ الكيمياء في القرن الثالث

أطلق الكيميائيون العرب اسم «الأجساد» على الذهب والفضة والحديد والنحاس والأسرب والرصاص والخارصين ، لأنها تثبت وتقوم على النار ، واسم «الأرواح» على الكبريت والزرنيخ والزئبق والنوشادر ، لأنها تطير إذا مسّتها النار[٧] . وكانوا يستخدمون في تجاربهم الكيميائية أنواع الأملاح والنوشادر ، والبورك ، والزاجات ومنها الشبّ والمغنيسيا والتوتيا والكحل والطّلق والزرنيخ[٨] ، وبعض الآلات التي استخدموها في هذه الصناعة مماثلة لآلات الصاغة . فقد استخدموا في التجارب والعمليات الكيميائية البوطقة المركّبة ، وهي بوطقة مثقوبة من أسفلها توضع على أخرى ويوصل بينها بطين ، ثم يذاب الجسد في البوطقة العليا فينزل إلى السفلى صافياً ، ويبقى خبثه ووسخه في العليا ، ويسمون هذه العملية الاستنزال .

---

(٤) الخوارزمي ، المصدر نفسه ، ص ١٥٠ .
(٥) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٥ .
(٧) الخوارزمي ، المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

ثم القرع، والأنبيق، وهما آلتا صُنّاع ماء الورد، والأثال ويُعمل من زجاج أو فخّار على هيئة الطبق ذي المكبَّة، ويستعمل لتصعيد الزئبق والكبريت ونحوهما»(٩).

إن ما تُرجم من الكتب اليونانية في الكيمياء لم يكن ذا نفع هام للكيميائيين العرب، لأن محتوياتها من المعلومات الكيميائية كانت أقلّ بكثير مما كانوا يعرفونه، وأغلبها أوهام وخرافات، بل إن «ما ترجم منها، كلّها أو جلها، مَنسوبة لشخصيات وهمية لا وجود لها»(١٠). وكان تفوّق العرب في صناعة الكيمياء واضحاً، لأن تجاربهم الكثيرة للوصول إلى ملح الإكسير كشفت لهم كثيراً من الغوامض وأكسبتهم خبرة ساعدتهم على تحضير الحوامض وغيرها من المركّبات الكيميائية، كزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الفضة (حامض النّتريك) وماء الذهب (حامض النتروهيدرو كلوريك) والسليماني (كلوريد الزئبق) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والزاج الأخضر (كبريتات النحاس)(١١). كما أنهم عرفوا من العمليات الكيميائية الأساسية: التقطير، والتصعيد، والتحليل، والتشميع، والتصدية، والالغام، والتصويل، والاستنزال، والتكليس، والترجيم، والمعقد، وأوجدوا طرق الترشيح والتبلور(١٢).

يتضح من هذا أن العرب استطاعوا بانتهاجهم طريق التجربة والاختبار أن يسيروا بعلم الكيمياء خطوات كبيرة في خلال القرن الثالث، وذلك بما اكتشفوه من أملاح وحوامض وزاجات، وبما أتقنوه من وسائل تحليل المواد وتصعيدها وتقطيرها، بحيث يصحّ اعتبارهم مؤسسي علم الكيمياء بمفهومه الحديث. «وفضلاً عن ذلك فإننا نظفر في كتب العرب بمعلومات عن الكيمياء لم يسبقهم إليها أحد في الأزمنة السالفة لهم... وتجلت المجهودات الرائعة التي قام بها العرب في ميدان الكيمياء في زيادة أنواع المواد المجهزة تجهيزاً صناعياً، وفي تحسين الطرق التي وصلتهم من الإغريق تحسيناً تاماً، وتطبيقها على معظم المواد المختلفة. وان تفوّق العرب الواضح على الإغريق في هذا الميدان يُعزى إلى استخدامهم للتجارب العلمية في استجلاء الغموض والمظاهر المبهمة في دراسة الطبيعة، وذلك على حين اعتمد الإغريق الأول على التأملات البحتة»(١٣).

ب ـ أشهر علماء الكيمياء العرب

اشتغل بالكيمياء في هذا القرن عدد من العلماء والكيميائيين، اشتُهر منهم الكندي والرازي وابن وحشيّة وذو النون وآخرون.

---

(٩) المصدر نفسه، ص ١٤٦.

(١٠) توماس أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٤٥٩.

(١١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ٥ ج (القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٢)، ج ٣، ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(١٢) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٤٩ ـ ١٥٠، وفيه شرح لهذه العمليات.

(١٣) جوزيف هِلّ، الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي؛ مراجعة حسين مؤنس، الألف كتاب؛ ٨٨ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦)، ص ١١١.

(١) الكندي والكيمياء

كان المشتغلون بالكيمياء قبل الكندي وفي عهده يوقنون بإمكانية تحويل المعادن البخسة القيمة إلى معادن ثمينة، وقد صرفوا جهودهم وأوقاتهم وأموالهم في اجراء مختلف التجارب الكيميائية أملاً في أن يتحقق لهم ذلك. إلا أن الكندي أنكر هذه النظرية واعتبرها مضيعة للوقت والجهد، وأنها تقوم على الخداع والتضليل. فكان أول كيميائي عربي رفض الفكرة القائلة بتحويل المعادن، وقال إن المعادن توجد في مناجمها الطبيعية كما هي. وقد وضع الكندي عدداً من الكتب والرسائل في مواضيع كيميائية مختلفة. منها: **رسالة في بطلان دعوى المدّعين صنعة الذهب والفضة وخِدعهم**[١٤]، **ورسالة في التنبيه على خِدع الكيميائيين**[١٥]، ورسالتان في العطور الأولى في **كيمياء العطر والتصعيدات** والثانية في **العطر وأنواعه**. وقد طبع كارل كرابرز في ليبزك سنة ١٩٤٨ **رسالة كيمياء العطر والتصعيدات** مع ترجمتها بالألمانية[١٦]. وشرح الكندي في هذه الرسالة كيفية صنع أنواع عديدة من العطور، كما تطرّق فيها إلى ذكر عمليات كيميائية عديدة كالترشيح والتقطير والتصعيد، ورسم شكلاً يمثل عمليات التقطير، ذكر فيه الموقد والأتون ثم القَرْعة (دورق التقطير) والأنبيق والقابلة (دورق المقطر)[١٧].

ووضع الكندي عدداً من الرسائل عن السيوف وصناعتها، منها: **رسالة في أنواع السيوف والحديد**[١٨]، وقد توصّل فيها إلى صنع الحديد الذي نسميه اليوم الفولاذ، وتوصّل إلى تلوين السيوف بمعاملة الحديد بمحاليل الأعشاب التي تحتوي على مادة السيناميد، فتكسبه لوناً يتراوح بين الأحمر والأزرق، وذكر طرقاً مختلفة لعملية التلوين[١٩]. وتوصّل كذلك إلى طريقة لحفظ السيوف من الصدأ بطلائها في أثناء طبعها بمواد تحول دون تأثير الماء والأكسجين فيها[٢٠]. أما في رسالته فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتثلم ولا تكلّ فقد ابتكر

---

(١٤) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ٣٧٩؛ أبو العباس احمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٢٩٣، وأبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٣٧٦، وجاء فيه اسم الكتاب: إبطال دعوة من يدّعي صنعة الذهب والفضة.

(١٥) ابن النديم، المصدر نفسه؛ ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، والقفطي، المصدر نفسه.

(١٦) رتشرد يوسف مكارثي، التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٢)، ص ٦٩.

(١٧) فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء (بغداد: دار الحرية، ١٩٨١)، ص ٨٩.

(١٨) ترجم فيدمان هذه الرسالة إلى الألمانية ونشرها ضمن تقارير الجمعية الفيزيائية الطبية في ايرلانغن في سنة ١٩١١. انظر: مكارثي، المصدر نفسه، ص ٦٤.

(١٩) الطائي، المصدر نفسه، ص ٩١.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٩١ - ٩٢.

الكندي طريقة لصنع سيوف قوية جداً لا تتثلم ولا تنكسر عند استعمالها، وذلك بمعاملة حديدها عند طبعها بمواد معدنية وغير معدنية وتعريضه إلى تفاعلات كيميائية عديدة تكسبه الصلابة المطلوبة[٢١].

ومما طبع من رسائل الكندي الأخرى في السيوف رسالة في السيوف وأجناسها[٢٢] وكان قد ترجمها ملخصة إلى الفرنسية المستشرق النمساوي هامر برغشتال[٢٣]. ويرى مؤلف كتاب التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب أن هذه الرسالة هي الرسالة نفسها الموسومة رسالة إلى بعض اخوانه في السيوف[٢٤].

وحقق الدكتور فيصل دبدوب رسالة الكندي في عمل السيوف ونشرها في سنة ١٩٦٢ وأوضح أن هذه النسخة تختلف عن النسخة التي حققها عبد الرحمن زكي، إذ إنها تبحث عن طبع السيف وتعدد أنواع الحديد، وطرائق السقي، والمواد اللازمة، والظروف التي يجب أن تتم بها الطريقة من حيث درجة الحرارة والنفخ والمدَّة، وقال إن الرسالة مقدمة إلى الخليفة المعتصم بالله، وهي مبتورة[٢٥]. ويرى مؤلف كتاب التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب أن هذه الرسالة هي نفسها رسالة أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي للمعتصم أمير المؤمنين في اتخاذ جواهر الحديد للسيوف وغيرها من الأسلحة وسقيانها وأنواع الحديد التي تطبع بها السيوف وسقيانها وما يطرح منها[٢٦].

(٢) أبو بكر الرازي والكيمياء

ومع أن أبا بكر الرازي كان ماهراً في صنعة الطب مشتهراً بها، فقد كتب في مواضيع متعددة أخرى كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام والفلك والكيمياء والفيزياء والنفس والسياسة، مما دل على سعة اطّلاعه وتعدّد مواهبه ومعارفه وانه كان من أولئك الموسوعيين من رجال الحكمة. والواقع أن الرازي تطلّع إلى معرفة جميع العلوم والفنون المعروفة على أيامه وأحاط بأكثرها، وانصرف إلى بعضها فأتقنه وتمهّر فيه. وكانت الكيمياء من العلوم التي عني بها وصرف وقتاً وجهداً عظيمين في إجراء التجارب الكيميائية. وكانت للكيمياء في رأيه أهمية خاصة، فهو يراها ضرورية للفيلسوف، وكان يقول: «انا لا اسمّي الفيلسوف فيلسوفاً إلا إذا كان

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٩٤، وقد ألف الكندي هذه الرسالة لأحمد بن المعتصم بالله، انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٢.

(٢٢) ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، «رسالة في السيوف وأجناسها،» حقّقها وطبعها عبد الرحمن زكي، مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول)، مج ١٤، ج ٢ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧).

(٢٣) نشرها في: المجلة الأسيوية، العدد ٨ (١٨٥٤)، انظر: مكارثي، التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب، ص ٨٠.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٢٦) مكارثي، المصدر نفسه، ص ٥٩ و٧٠.

قد ألمّ بصناعة الكيمياء لأنه قد استغنى عن التكسب من أوساخ الناس، وتنزّه عما في أيديهم ولم يحتج إليهم»[٢٧]. وهو رأي يؤيد عمله في الكيمياء بحثاً عن الإكسير، ويعبر عما في دخيلة نفسه من حب للمال مما لا يتفق وصفات الحكيم العالم. والواقع أن الرازي عُني بالكيمياء سعياً وراء الإكسير الذي تُحوِّل بواسطته المعادن البخسة إلى ذهب وفضة. ولكن يظهر أنه لما أيس من تحقيق ذلك توجّه نحو صنعة الطب التي رأى فيها ما يحقق آماله في الحصول على المال. وقد ذكرنا في سيرته كطبيب سبب تركه الكيمياء وتوجهه نحو صنعة الطب.

كان الرازي من القائلين بتحويل المعادن بواسطة حجر الإكسير وان ذلك أقرب إلى الممكن منه إلى الممتنع[٢٨]، وصنّف كتاب الرد على الكندي في إدخاله صناعة الكيمياء في الممتنع، لأن الكندي كما سبق أن ذكرنا أنكر تحقيق ذلك، بل قال باستحالته، ووصف من يعملون في هذا الميدان بالخداع والشعوذة. يقول ابن جلجل إن الرازي «حقّق صناعة الكيمياء وألّف فيها أربع عشرة مقالة»[٢٩]. ويقول ابن أبي أصيبعة: «حدثني بعض الأطباء أن الرازي كان قد باع لقوم من الروم سبائك ذهب، وساروا بها إلى بلادهم، ثم إنهم بعد ذلك بسنين عدة وجدوها وقد تغيّر لونها بعض التغيّر، وتبينّ لهم زيفها، فجاءوا بها إليه وألزم بردّها»[٣٠]. ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الحقيقة فهي دلالة على اشتغال الرازي بصنعة الكيمياء، لأنه كان يرى حقيقة الصنعة وقد ألّف في ذلك كتباً كثيرة، فمنها كتاب يحتوي على اثني عشر كتاباً[٣١] وقد عددها ابن النديم، وأضاف إليها سبعة كتب أخرى في الموضوع نفسه. كما أن ابن أبي أصيبعة ذكر هذه الكتب[٣٢].

ومن أهم هذه الكتب كتاب سر الأسرار الذي يعتبر أهم ما صنّفه الرازي في الحكمة، وقد اشتهر بين أهل الصنعة، وهو الكتاب الوحيد الذي لم يفقد من كتب الرازي في الكيمياء. كما نال شهرة واسعة في أوروبا، وترجمه روسكا إلى الألمانية وعلّق عليه تعليقات وافية. ويُظهر هذا الكتاب ميل الرازي واهتمامه بالناحية العملية من الكيمياء، وترجيح العمل على التأملات النظرية. وقد وُصف هذا الكتاب بأنه دليل مختبر يشرح فيه الرازي التجارب التي قام بها بنفسه، ويبينّ الأجهزة التي استخدمها في تلك التجارب[٣٣]. وكتاب

---

(٢٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٩.

(٢٨) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧٢.

(٢٩) أبو داود سليمان بن حسّان بن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، نصوص وترجمات؛ ١٠ (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥)، ص ٧٧ - ٧٨.

(٣٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٩.

(٣١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٥١٨.

(٣٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٢.

(٣٣) الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، ص ١١٣ - ١١٤.

الترتيب، ذكر فيه ترتيب العمل للمجربين ودعاوى أهل الصنعة وشرح الجمل التي تضمّنها كتاب جابر بن حيّان المسمى الرحمة، وسمّاه كتاب الراحة[٣٤].

ويظهر أن الرازي كان معجباً بجابر بن حيّان حتى إنه كان يقول في كتابه: «قال أستاذنا ابو موسى جابر بن حيان»[٣٥]. وقد تأثر بما قرأه من كتبه وآمن مثله بأن جميع المواد تتألف من أربعة عناصر فقط هي التراب والماء والهواء والنار، وأن العناصر الأساسية في تكوين المواد هي الزئبق والكبريت، وأضاف مكوناً ثالثاً هو الملح. ولذلك كان تحوُّل معدن إلى آخر محتملاً، ومن ثم بالإمكان تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة بوساطة الإكسير، وان الحصول على الإكسير ممكن[٣٦].

لقد استفاد الرازي من تجاربه الكيميائية إذ توصّل إلى معرفة عدد كبير من المركّبات الكيميائية وطرائق متعددة من العمليات الكيميائية التي لا تزال مستعملة إلى يومنا هذا. وصنّف الرازي المواد الكيميائية أربعة أصناف أساسية، معتمداً على خواص المركّبات الطبيعية، والمواد هي: الترابية أو المعادن، والنباتية، والحيوانية، والمشتقات المتولدات، ويضم كل صنف منها أنواعاً، ويقسم كل نوع بدوره إلى مواد متعددة[٣٧]. إن تصنيف الرازي للمواد الكيميائية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية، ما زال حتى الآن ثابتاً في العلم الحديث[٣٨].

(٣) كيميائيون آخرون

هناك كيميائيون آخرون اشتغلوا في صنعة الكيمياء باذلين جهودهم وأوقاتهم للوصول إلى تحضير حجر الإكسير، ذكر ابن النديم بعضهم، ومنهم:

(أ) ذو النون المصري

أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم الأخيمي، الزاهد المصري المشهور، المتوفى سنة ٢٤٥. كان فصيحاً حكيماً وله أثر في الصنعة، وقد صنّف فيها عدداً من الكتب منها: **كتاب الركن الأكبر، وكتاب الثقة في الصنعة**[٣٩].

---

(٣٤) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه محمد شريف بالتقايا ورفعت الكليسي، ٢ ج (استانبول: مطبعة الحكومة، ١٩٤١ - ١٩٤٣)، ج ٢، ص ١٤٠٣.

(٣٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٥١٤.

(٣٦) الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، ص ١١٤.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٥٣ - ١٥٩.

(٣٨) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٤٦٦.

(٣٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٥١٧ - ٥١٨، واسماعيل بن محمد امين البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ ج (استانبول: وكالة المعارف العامة، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٢٤٩.

(ب) ابن وَحْشِيَّة

أبو بكر أحمد بن علي بن قيس بن المختار الكسداني الصوفي المتوفى سنة ٢٩٦، من أهل قسين، كان أحد فصحاء النبط عالماً بالفلاحة والكيمياء والسموم، وعمل في فن السحر والشعبذة والعزائم وكان له في ذلك حظ، كما اشتغل في الصنعة[٤٠]. وله عدد من الكتب في هذه المواضيع ذكرها ابن النديم وصاحب هدية العارفين[٤١]. ومن كتبه في صنعة الكيمياء: كتاب الأصول الكبير في الصنعة، وكتاب الأصول الصغير في الصنعة، وكتاب المدرّجة، وكتاب المذاكرات في الصنعة، وذكر له صاحب كشف الظنون كتاب الفوائد العشرون في الكيمياء، ويقول إنه سماه بهذا الاسم لأنه ذكر فيه جميع ما استفاده في أسفاره في هذا الموضوع[٤٢].

(ج) الأخميمي

عثمان بن سويد المتوفى سنة ٢٩٨ وهو من اخميم إحدى قرى مصر. كان مقدماً في صنعة الكيمياء، وله مع ابن وحشية مناظرات ومكاتبات. وله عدد من الكتب في الصنعة منها: كتاب الكبريت الأحمر، وكتاب الإبانة، وكتاب آلات القدماء، وكتاب التدبير، وكتاب التصعيد والتقطير[٤٣].

(د) أبو قران

لم يذكر ابن النديم اسمه، ولا تاريخ وفاته، إلا أنه قال عنه إنه من أهل نصيبين، وكان يزعم أن صناعة الكيمياء قد صحّت له، فنال شهرة بين أهل هذه الصناعة، وكانوا يجلّونه. وقد ذكره ابن وحشية في بعض كتبه.

ولأبي قران عدد من الكتب في الصنعة، منها: كتاب شرح كتاب الرحمة لجابر، وكتاب الخمائر، وكتاب شرح الأثير، وكتاب التمويه، وكتاب الإشارة[٤٤].

(هـ) دُبَيس

محمد بن يزيد، وهو من تلاميذ الفيلسوف الكندي، كان ممن يتعاطون الصنعة وله فيها عدد من الكتب منها: كتاب الجامع، وكتاب الأصباغ والمداد والحبر[٤٥].

---

(٤٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٤٧ و٥١٨، ومعجم المؤلفين، ج ٢، ص ٢٣.

(٤١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥١٨، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥.

(٤٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥١٨، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ٤٣٩.

(٤٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥١٩، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٥٢، وجاء في الكتاب الأول: كتاب الكبريت الأعظم.

(٤٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٥١٩.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٥٢٠.

٢ ـ المعادن

ذكرنا أن علماء الكيمياء العرب أطلقوا اسم «الأجساد» على الذهب والفضة والنحاس والرصاص والخارصين، لأنها تثبت على النار، واسم «الأرواح» على الكبريت والزرنيخ والزئبق والنشادر لأنها تطير إذا مسّتها النار. وكان من أهم إنجازات أبي بكر الرازي تطويره هذا التقسيم وتصنيفه المواد الكيميائية إلى: نباتية، وحيوانية، وترابية، ويقصد بالترابية «المعدنية». وقسّم المعادن إلى ستة أنواع هي: (١) الأرواح أو الخلاصات وتشمل الزئبق والنشادر والزرنيخ والكبريت. (٢) الأجساد وهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والأسرب والخارصين. (٣) الأحجار وتضم ثلاثة عشر نوعاً، منها الأحجار الكريمة المعروفة كالفيروز واللازورد. (٤) الأملاح. (٥) البوارق. (٦) الزاجات[٤٦]. ولا زال تصنيف الرازي هذا ثابتاً في العلم الحديث، كما أشرنا سابقاً.

وكان أبو اسحق الكندي قد وضع قبل ذلك عدداً من الرسائل عن الحديد واستخدامه في صنع السيوف وغيرها، وقد توصّل حسبما يظهر مما جاء في هذه الرسائل إلى صنع الفولاذ، وتلوين السيوف، وحفظ الحديد من الصدأ، وذلك بالطُرق الكيميائية، ومعاملة الحديد بمواد معدنية وغير معدنية بما يكسبه الصلابة والمتانة، ويحول دون تأثير الماء والأكسجين عليه، وكنا قد ذكرنا ذلك.

لقد أتقن العرب فن التعدين واستخرجوا المعادن المختلفة والأحجار الكريمة من مناجم ومحاجر في مختلف أرجاء الدولة العربية. وقد عني الكندي العالم الفيلسوف بدراسة الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة من حيث أنواعها، ومواصفاتها، وأماكن وجودها، وصنّف في ذلك عدداً من الرسائل، منها: رسالة في أنواع الجواهر الثمينة وغيرها[٤٧]، ورسالة في أنواع الحجارة[٤٨]. ولا نعرف ما تضمنته هذه الرسائل سوى أن البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ أشاد بعلم الكندي في الجواهر والأحجار الكريمة وأنه اقتبس من رسائله في الموضوع. فقال في كتابه الجماهر: «لا نريد الآن أن نخوض في تعديد الجواهر والأعلاق النفيسة المذخورة في الخزائن ونفرد مقالة... ولم يقع إليّ من هذا الفن غير كتاب أبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي في الجواهر والأشباه، وقد افترع فيها عذرته وظهر ذرونه كاختراعه البدائع في كل ما وصلت إليه يده من سائر الفنون... ثم مقالة لنصر بن يعقوب الدينوري الكاتب... وهو تابع للكندي في أكثرها»[٤٩]. وقد كان كتاب الجواهر والأشباه للكندي

---

(٤٦) الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٤٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٨؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٥، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٢، وفيه جاء اسم الكتاب: في أنواع الجواهر والأشباه.

(٤٨) ابن النديم، المصدر نفسه؛ القفطي، المصدر نفسه، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، مع بعض التغيير في اسم الكتاب.

(٤٩) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، الجماهر في معرفة الجواهر (بيروت: عالم الكتب، [د. ت.])، ص ٣١ ـ ٣٢.

المصدر الرئيسي للبيروني، وقد اقتبس منه بعض مواصفات الجواهر وأنواعها وألوانها وعيوبها ومواطنها، بل انه نقل أسماءها عنه[50].

وكان أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كبير أدباء زمانه ممّن عني بالجواهر والأحجار الكريمة في عصر النهضة العلمية العربية. فقد عقد في كتابه التبصر بالتجارة باباً لما يعتبر من الجواهر النفيسة ومعرفتها وقيمتها. فتكلم على اللؤلؤ من حيث شكله ومذاقه وحجمه وألوانه وصفاؤه ومتى يسمى درّاً، ويقول إن اللؤلؤ العماني خير أنواع اللؤلؤ. وتكلم على الياقوت من حيث مكان استخراجه وألوانه وصفاؤه - أي نقاوته من الشوائب - وعلى الزّبَرْجد وصفائه، وعلى العقيق اليماني المخطط منه والخالص اللون، والفيروزج وألوانه، ويقول عنه إنه حجر لا يعمل المبرد فيه ولا يتغير لونه في النار والماء الحار. وتكلم كذلك على حجر البيجاذي وعلى لونه الملتهب كالتهاب النار، وأنه كلما كان أصلب كان أنفس وأثمن، وعلى البلّور وامتيازه بالصفاء. وقال إن خير الماس هو البلوري الأبيض الصافي النقي. وعيّن أكثر المناطق التي تجلب منها بعض هذه الأحجار، فقال إن الياقوت الأحمر يجلب من الهند، والعقيق من اليمن، والزبرجد من مصر[51].

ولأبي بكر الرازي رسالة في البحث عن الأرض الطبيعية هي الطين أم الحجر[52] ويظهر من عنوانها أنه بحث فيها عن تركيب تربة الأرض، وهو بحث يقرب من بحوث علم الجيولوجيا الحديث.

ثانياً: الفيزياء وفنون الميكانيكا

١ - الفيزياء

كان من جملة الكتب التي نُقلت من اليونانية إلى اللغة العربية في المواضيع الفيزيائية كما نسميها اليوم، كتاب اختلاف المناظر لاقليدس، وكتاب الآلات المصوِّتة المسماة بالأرغنن البوقي والأرغنن الزمري، وكتاب آلة مصوّتة تسمع على ستين ميلاً لمورطس[53]، وكتاب الإيقاع لأرسطكاس[54]، وكتاب الصوت لجالينوس[55]، وكتب أخرى غيرها. وقد استوعب

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥١.

(٥١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التبصر بالتجارة، عني بنشره والتعليق عليه حسن حسني عبد الوهاب (مصر: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٥)، ص ١٦ - ٣٥.

(٥٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣٤؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧٦، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢٥.

(٥٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩١، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

(٥٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩١.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١١٨، والقفطي، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

العرب الذين عُنوا بهذه المواضيع، ما جاء في هذه المصنفات المترجمة، وصححوا ما ثبت لهم من الأخطاء فيها، وجاءوا بأفكار أنارت السبيل لتوضيح هذه المواضيع وتوسيع نطاقها. واهتموا بصورة خاصة بموضوعين أساسيين منها هما الضوء والصوت، إلى جانب مواضيع أخرى.

أ ـ الضوء

أطلق العرب على الضوء اسم البصريات أو علم المناظر، وكانت لهم آراء ونظريات جديدة فيه ساعدت على نموه وتطوره. وكان أشهر من درس الضوء وصنّف فيه في القرن الثالث فيلسوف العرب الكندي، والفيلسوف المهندس ثابت بن قرة، وأكبر أطباء عصره أبو بكر الرازي. ويظهر من كتابات الكندي في هذا الموضوع أنه سار على هدى أرسطوطاليس، فنقّح بحوثه في البصريات، منها انعكاس الضوء الذي سماه مطرح الشعاع[٥٦]. وقد ذكره ابن النديم في القائمة الخاصة بالنجوميات[٥٧]. ومن الكتب التي وضعها الكندي في موضوع الضوء: رسالة في اختلاف المناظر، ورسالة في اختلاف مناظر المرآة، ورسالة في عمل المرايا المحرقة، ورسالة في البرهان على الجسم السائر وماهية الأضواء والاظلام[٥٨].

لقد عرف الكندي سير الضوء وزوايا سقوطه وانعكاسه وخداع الأجهزة البصرية كالعدسات، والمرايا المقعّرة والمحدّبة، إلاّ أن دراساته وملاحظاته اقتصرت على ايضاح الظواهر وتعريف الزوايا دونما قياس. وذلك ما أكمله في القرن التالي ابن الهيثم الذي تمكّن من قياس زوايا السقوط والانعكاس. أما عن سرعة الضوء فقد قال الكندي إن الضوء لا يحتاج إلى زمن لانتقاله، وإن رؤيته تتم دون حاجة إلى وقت، لأن سرعته عظيمة جداً. وعن عملية الإبصار، فإنه أخذ برأي اقليدس القائل بأن العين تبعث بنورها على الأجسام فتراها، واحتذى حذوه فقال إن الحزمة الضوئية تخرج من العين إلى الجسم المرئي على هيئة مخروط قمّته بؤبؤ العين وقاعدته ما تراه العين. وجعل هذا ميزة للعين على بقية الحواس، فبينما ترسل العين الضوء لترى الأجسام فإن الحواس الأخرى تتأثر بوقع الأشياء عليها[٥٩].

على أن ما توصّل إليه ثابت بن قرّة في كتابه البصر والبصيرة في علم العين وعللها ومداواتها عن كيفية حدوث الإبصار في العين كان حافزاً لأبي بكر الرازي لأن يتصدى لدراسة الضوء وعملية الإبصار، فوضع كتابين مهمّين في الموضوع، أولهما كتاب في كيفية

---

(٥٦) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٢)، ص ٢٣٥.

(٥٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٣.

(٥٨) المصدر نفسه، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ و٣٧٩؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧١، ٣٧٦ و٣٨٢، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٥٩) حول اراء الكندي في الضوء والابصار، انظر: الطائي، أعلام العرب في الكيمياء، ص ٧٦ ـ ٧٧.

الإبصار. ويقول ابن أبي أصيبعة إنه بيّن فيه أن الإبصار ليس يكون بشعاع يخرج من العين، وانه نقض فيه آراء اقليدس في المناظر[٦٠]. ولا نعرف ما إذا كان الرازي قد توصّل بكتابه المذكور إلى التفسير الصحيح لعملية الإبصار، كما أوضحها ابن الهيثم في ما بعد، أم أنه اكتفى بنقض ما قاله اقليدس والكندي في هذا الشأن. ويقول سارتون في كتابه مقدمة في تاريخ العلم إن الرازي قلب نظرية الإبصار، إذ قال إن الإبصار يحصل من خروج الضوء أو الشعاع من الجسم المنظور[٦١]. على أن الكتاب الثاني للرازي، وهو كتاب العلة التي من أجلها تضيق النواظر في النور وتتسع في الظلمة[٦٢] وهو متمّم في موضوعه لكتابه الأول الآنف الذكر، إذ يتناول فيه تأثير شدة الضوء الواقع على بؤبؤ العين وضعفه، يمكن أن يؤكد صحة ما ذهب إليه سارتون، فيكون الرازي بهذا قد سبق ابن الهيثم في تفسير عملية الإبصار تفسيراً صحيحاً.

ب ـ الصوت

يعتبر الفيلسوف الكندي أول من درس ظاهرة الصوت وكتب عنها. فهو يقول عن سرعته إنها تدرك بزمن، وإن هذا الزمن يتوقف على بعد مصدر الصوت. فقد قال في رسالته في علة الثلج والبَرَد والبرق والصواعق والزمهرير: «إن السماع تدرك محسوساته بزمان كالذي يُرى من الضارب خشبة أو غير ذلك من الأجسام مما يعلو صوته من بعد، يمكن أن ينال السمع ضرب المضروب منه. فإننا ندرك بأبصارنا ضربة الضارب ولا نسمع صوتاً إلا بعد ذلك بمدة بحسب البعد إن كان كبيراً كان أطول، وإن كان قليلاً كان أقصر»[٦٣].

لقد درس العلماء العرب منشأ الصوت وانتبهوا إلى درجاته وقسموها إلى أنواع منها الجهير والخفيف، ومنها الحاد والغليظ. وشرحوا العلاقة بين الوتر وغلظه وقوة توتّره وشدة النقر من جهة وبين الصوت الذي يحدث من جهة أخرى، وقد ساعدهم ذلك على أن يبرعوا ويتميزوا في فن الموسيقى وآلاتها[٦٤]. وصنفوا في ذلك كتباً عديدة، منها ما صنّفه الكندي وقد ذكر له ابن النديم سبعة كتب موسيقية[٦٥]. وصنّف تلميذه أبو الطيّب ثلاثة كتب فيها أهمها كتاب الموسيقى الكبير. يقول عنه ابن النديم: إنه لم يعمل مثله حسناً وجلالة[٦٦]. وكذلك

---

(٦٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٢.

(٦١) الطائي، المصدر نفسه، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٦٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣٤؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧٦، مع بعض التغيير.

(٦٣) أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، حققها وأخرجها محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣)، ج ٢، ص ٨٢.

(٦٤) أنور الرفاعي، تاريخ العلوم في الاسلام (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص ١٥٣.

(٦٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٨٠.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

صنف ثابت بن قرّة كتابين في الموسيقى[٦٧]. وذكر ابن أبي أصيبعة كتاباً في الموسيقى لأبي بكر الرازي هو كتاب في جمل الموسيقى[٦٨]. ووضع المغني إسحاق الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ كتاب ـ النغم والإيقاع[٦٩]، ويعتبر اسحاق أول من صبَّ النظام العربي القديم في الموسيقى بقالب جديد ضمّنه كتابه هذا[٧٠].

ج ـ حركة الأجسام، والمغناطيسية، والجاذبية

من المواضيع الأخرى التي تدخل ضمن موضوع الفيزياء، مما بحثه العلماء العرب وأبدوا بعض الآراء والنظريات فيها موضوع حركة الأجسام، وموضوع المغناطيسية، كما تطرّقوا إلى موضوع الجاذبية. قال الكندي عن حركة الأجسام إنها تتحركُ بطبيعتها، وإنها من أول ابداعها متحركة ولا زالت. ويظهر ذلك واضحاً من كتبه الثلاثة التي وضعها في الرد على من قال بتوقّف الأجسام أو سكونها، وهي كتاب في الرد على من زعم أن للأجرام في هويتها في الجو توقفات وكتاب في بطلان قول من زعم أن بين الحركة الطبيعية والعرضية سكون وكتاب في أن الجسم في أول ابداعه لا ساكن ولا متحرك ظن باطل[٧١].

وقد أيد الرازي مقولة الكندي عن حركة الأجسام وأضاف إليها ما يوضّحها، إذ قال إن الحركة المذكورة ليست مرئية ولكنها معلومة، وإنها من الجسم نفسه وهي طبيعية فيه. وصنّف في هذا الموضوع كتابين هما: كتاب في الحركة وأنها ليست مرئية بل معلومة وكتاب في أن الجسم يتحرك من ذاته وأن الحركة مبدأ طبيعته[٧٢]. ويقول دي بور إن القول بحركة الجسم أبداً بذاته كانت نظرية جديدة خطيرة تناقض ما ذهب إليه أصحاب أرسطو، ولو استمر العرب في إكمال بنائها لكانت لها نتائج مهمة في علم الطبيعيات. وكنا أشرنا إلى هذا في الفصل الخاص بالفلسفة.

أما عن المغناطيسية، فقد انتبه العلماء العرب إلى علة عمل حجر المغناطيس في جذب الحديد. وقد ثبت أنهم استفادوا من ذلك في استعمال الإبرة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه[٧٣].

---

(٦٧) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٦٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤٢٦.

(٦٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٢٠٨.

(٧٠) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٣٢.

(٧١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩١.

(٧٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٣٢، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٥، وعنوان الكتاب الثاني فيه: كتاب في أن الجسم محرّك من ذاته وأن الحركة منه طبيعية.

(٧٣) الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام، ص ١٥٤.

ويظهر أن المعنيين بالعلوم الطبيعية من علماء العرب قد بحثوا في سقوط الأجسام، وانهم أدركوا قوة التجاذب بين الأجسام عندما تختلف كتلتها. ويعزى إلى أحد أولاد موسى بن شاكر، أو إلى أبيهم، أنه قال بأن هناك تفاعلاً بين الأجرام السماوية الذي يطلق عليه اسم «الجاذبية العمومية». و «قد سبق أن اشار إلى هذا التفاعل بطلميوس حاسباً أنه هو الذي يجعل الاجسام تقع على الارض متجهاً نحو مركزها، وأنه هو الذي يربط كواكب السماء بعضها ببعض»[74]. وقال المهندس الفيلسوف ثابت بن قرة: إن المدرة[75] تعود إلى السفل لأن بينها وبين الأرض مشابهة في الأعراض، أعني البرودة والكثافة، والشيء ينجذب إلى أعظم منه. وقد شرح محمد بن عمر الرازي هذه العبارة في أواخر القرن السادس بقوله: إننا إذا رمينا المدرة إلى فوق فإنها ترجع إلى أسفل، فعلمنا أن فيها قوة تقتضي الحصول في السفل، حتى إذا رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوة إلى أسفل[76]. وقد سعى الكندي إلى إثبات صيغ القوانين التي تحكم سقوط الأجسام، وهو موضوع لم يلقَ من علماء العرب كبير اهتمام[77]. ويقول إن له كتاباً في قوانين التجاذب[78].

ويذكر ابن خرداذبه أن «بنية الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل، لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد»[79].

٢ ـ فنون الميكانيكا

وقد سماها العرب «علم الحيل» وقسموها إلى قسمين، يشتمل القسم الأول على وسائط جرّ الأثقال ورفعها بالقوة اليسيرة، ويشتمل القسم الآخر على الحركات والأواني العجيبة. ويلاحظ أن هذه المواضيع تعتبر اليوم من مواضيع علم الفيزياء.

كانت قد تُرجمت بعض الكتب من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية في هذه المواضيع، مثل كتاب شيل الأثقال وكتاب الحيل الروحانية وهما لهيرن الاسكندري[80]، وهو عالم يوناني عاش في الاسكندرية بمصر، وصنف عدداً من الكتب في هذه المواضيع، وله كتاب في حل

---

(٧٤) قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٤١)، ص ٩٩.

(٧٥) المدرة هي القطعة من الطين اليابس.

(٧٦) الرفاعي، المصدر نفسه، ص ١٤٤، وعمر رضا كحالة، العلوم البحتة في العصور الاسلامية (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٧٢)، ص ٢٢٣.

(٧٧) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٥٨٢.

(٧٨) الرفاعي، المصدر نفسه، ص ١٤٤.

(٧٩) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، المسالك والممالك، تحقيق ميخائيل دو غويه، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٨)، ص ٤.

(٨٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٠.

مشاكل اقليدس، تُرجم إلى العربية أيضاً[81]، وكتاب الثقل والخفة لاقليدس[82]، وكتاب آلة ساعات الماء التي ترمي بالبنادق لأرخيدس[83]، وكتاب الدوائر والدواليب لهرقل النجار[84]. وكان ما اطّلع عليه العرب في هذه الكتب وغيرها، قد ساعدهم على أن يتوسّعوا في هذا العلم، فصنعوا كثيراً من الأجهزة والأدوات التي استخدموها في الحياة العملية، وتشغيل الساعات، ورفع المياه، وغير ذلك مما سنراه في ما بعد.

أ ـ جر الأثقال ورفعها بالقوة اليسيرة

استخدمت لرفع الأثقال وجرّها أو نقلها بعض الأدوات والأجهزة، ذكر الأديب محمد بن أحمد الكاتب المعروف بالخوارزمي، بعضها. منها: الآلة المسماة «الكثيرة الرفع» وهي آلة تُسوّى من عوارض وبكرات وأقلاس تُجرّ بها الأحمال الثقيلة. و«البرطيس» وهو فلكة كبيرة من الخشب يكون في داخلها محور تجر به الأثقال. و«المُخْل» وهو خشبة مدورة أو مثمّنة تُحرك بها الأجسام الثقيلة وذلك بأن يحفر تحت الجسم الذي يراد تحريكه، ويوضع فيه رأس المُخل ثم يكبَس الرأس الآخر، فيستقلّ الجسم الثقيل[85]. والقَلْس هو الحبل الغليظ الذي تُشدّ به السفن أو غيرها من الأجسام الثقيلة.

ب ـ الموازين

ولتعيين ثقل الأجسام، أي أوزانها، اتخذوا أنواع الموازين المختلفة منها القبّان الذي كانوا يسمونه باسمه اليوناني «القرسطون» وكان يستخدم لوزن الأحمال الثقيلة، اعتماداً على النسبة بين بُعدي راسي عمود القبّان، وذلك أن أحد رأسيه طويل بعيد عن المعلاق، والآخر قصير قريب منه. فإذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل وعلى رأسه القصير ثقل كبير تساويا وتوازيا إذا ما كانت نسبة الثقل القليل إلى الكثير كنسبة بعد الرأس القصير إلى بعد الرأس الطويل من المعلاق. ومنها الموازين العادية ذات الكفتين المتساويتين في الوزن.

وكانت قد صنّفت كتب عديدة في الأوزان والموازين والمكاييل؛ فقد صنّف قسطا بن لوقا المهندس البارع والعالم الفيلسوف كتاباً عن الأوزان والمكاييل[86]. وصنّف ثابت بن قرّة المهندس الفيلسوف والرياضي الماهر ثلاثة كتب في الموازين، أحدها في صفة استواء الوزن

---

(٨١) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٦٤ و٧٣.

(٨٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٦.

(٨٣) المصدر نفسه.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٣٩١.

(٨٥) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٨٦) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٣.

واختلافه وشرائط ذلك والثاني عن القرسطون والثالث في ان سبيل الأثقال التي تعلّق على عمود واحد متصلة هي سبيلها إذا جعلت ثقلاً واحداً مبثوثاً في جميع العمود على تساو[٨٧]. وصنّف الاخوة أبناء موسى في «القرسطون» أيضاً[٨٨].

كما تفنّن العرب في صناعة الموازين والمكاييل الدقيقة التي تستخدم لوزن الأدوية أو كيلها، أو لوزن المعادن الثمينة والأحجار الكريمة. فقد خصّص الرازي القسم التاسع من كتابه الحاوي للأوزان والمكاييل الخاصة بالصيدلة[٨٩]. ولثابت بن قرّة كتاب في أجناس ما توزن به الأدوية[٩٠]. وبلغت هذه الموازين درجة عالية من الدقة. وقد ثبت من بعض الأبحاث الحديثة أن فرق الخطأ في وزن بعض مواد تجاربهم كان أقل من أربعة من ألف جزء من الغرام، فقد وزن فلندر (بتري) ثلاث قطع من نقد عربي فوجد أن الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الغرام، فقال إنه لا يمكن الوصول إلى هذه الدقة في الوزن إلا باستعمال أدق الموازين الكيميائية، وبتكرار الوزن مراراً حتى لا يبقى فرق ظاهر في رجحان احدى كفّتي الميزان على الأخرى[٩١].

وقد ابتكر الرازي جهازاً دقيقاً خاصاً لحساب الوزن النوعي للأجسام السائلة وقد سماه «الميزان الطبيعي» ووصفه في كتابه محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي[٩٢]. وقد سبقت الإشارة إلى هذا في الفصل الخاص بالطب، وقلنا إنه لا يزال يستخدم حتى اليوم، ويُعرف بالمكثاف.

واشتهرت مدينة حرّان كمركز لصنع الموازين الدقيقة بحيث كانت مضرب الأمثال في صحتها ودقتها[٩٣].

ج ـ الاستفادة من قوة المياه

وقد تنبّه العرب إلى القوة الناشئة عن اندفاع الماء وسقوطه ومسيله، فدرسوا نواحي مختلفة تتعلق بهذه القوة واستفادوا منها في الحياة العملية. فشرح بعضهم صعود مياه الفوّارات والعيون إلى أعلى، وكيفية ترشيح مياه الأبار من الجوانب، وبيّنوا كيفية صعود المياه إلى

---

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١١٧، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.
(٨٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣١٦، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٣.
(٨٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٣١.
(٩٠) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٩، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠٠.
(٩١) الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام، ص ١٤١.
(٩٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٣.
(٩٣) أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦)، ص ١٤١ و١٤٥.

الأماكن العالية بالحصون والقلاع، وطبّقوا ذلك في حاجاتهم وقلاعهم[94]. واستخدموا قوة المياه الجارية في تدوير الدواليب الكبيرة لرفع المياه إلى مستويات أعلى من مستويات جريانها، لسقي الأراضي العالية. وطوّروا هذه الدواليب لاستخدامها في إدارة أرحاء الطواحين التي كانوا ينصبونها على سفن رواكد في وسط دجلة والفرات في الأماكن التي يكون بها تيار الماء قوياً يكفي لإدارة تلك الدواليب. ويُستنتج من ذلك أنهم تمكنوا من تحويل دوران الدولاب من شكله العمودي إلى الشكل الأفقي لادارة رحى الطاحونة. وكان طحين هذه الأرحاء مضرب المثل في جودة طحنه[95].

كما أنهم استخدموا حركات الماء في صنع أجهزة عجيبة تتحرك بذاتها. ومن جملة هذه الأجهزة: «الاجّانة» و «الدُّبّة» و «سارقة الماء» والآلة المسماة «السحّارة المخنوقة»، و «الغيم»[96]. ومن هذه الآلات ما يسمى الآلات الروحية أو الروحانية، وقد سميت بذلك لارتياح النفس بغرائبها. وهي آلات مبنية على ضرورة عدم الفراغ، ومنها قدح العدل، وقدح الجدر[97].

ومن الآلات المائية الأخرى في علم الحيل «القطّارات» وهي آلات تعمل بشكل يقطر منها الماء أو غيره من السوائل على قدر الحاجة وفي أشكال متنوعة. و «الحنّانات» وهي آلات تعمل بالماء فتحنّ بصوت مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيرها على قدر الحاجة. و «النضّاحات» وهي آلات تعمل للنضح في وجوه الناس على نحو ما يريد صانعها. و «الفوّارات» وهي التي تُعمل عادة في الحياض والحمّامات، يفور منها الماء في أشكال مختلفة[98].

وكانوا يستخدمون الرمل بدل الماء أحياناً في بعض الآلات، وذلك بأن يعمل جهاز على هيئة البربخ الطويل يُثقب أسفله ثقباً صغيراً، ويكون رأسه مفتوحاً. ثم يُملأ رملاً توضع فوقه قطعة رصاص تُشدّ بخيط يُعلّق به ما يُحتاج إلى تحريكه. ثم يوضع البربخ منتصباً ليخرج الرمل من الثقب الذي في أسفله، وكلما تناقص الرمل تحركت قطعة الرصاص إلى الأسفل وجذبت ما هو متصل بها. وقد ترتّب من ذلك حركات عجيبة.

د ـ الساعات المائية والمزولة

وبما له علاقة بعلم الحيل صنع الساعة المائية والمزولة. فقد مهر العرب في صنع المزولة

---

(٩٤) الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام، ص ١٤٠.

(٩٥) الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ج ٤، ص ٩٦، ومحمد بن أحمد أبو المطهر الأزدي، حكاية أبي القاسم البغدادي، تحرير آدم متز (هيدلبرغ: مطبعة كارل ونتر، ١٩٠٢)، ص ٣٨.

(٩٦) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٤٣ ـ ١٤٥، وفيه تفصيلات هذه الأجهزة.

(٩٧) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ١٤٨.

(٩٨) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٤٥.

والساعة المائية التي كانت تُصنع آنذاك بكثرة. وقد قدم سفراء هارون الرشيد إحداها هدية إلى شارلمان[99]. إن مصادرنا التراثية ليس فيها ما يشير إلى ذلك، إلا أن المصادر اللاتينية تقول إن ثلاثة سفراء أحدهم يسمى عبد الله وكان رسول الخليفة وراهبان من بطاريق القدس وصلوا في أوائل سنة ٨٠٧م أي سنة ١٩٢هـ إلى بلاط شارلمان، وقد حمل رسول الخليفة إلى الإمبراطور هدايا ثمينة منها صيوان ملون بألوان متنوعة جميلة، ومنسوجات من الحرير والكتان، وعطور، وبلسم، وساعة مائية، وأواني نحاسية كبيرة[100]...

إن المزولة تساعد على معرفة ساعات النهار من ظلال شاخصها الساقطة على الخطوط المرسومة على صفيحتها. وهي أنواع، منها البسائط أي الأفقية، والقائمة، أي العمودية. وكانت صفيحة المزولة أول أمرها مقسمة إلى اثني عشر جزءاً، أي بعدد ساعات النهار، فيُعرف الوقت من ظلّها على هذه الأجزاء. وقد استطاع أحمد بن عبد الله حبش، وهو من علماء الأرصاد وصاحب الزيج المأموني، ومؤلف كتاب الرخائم والمقاييس أن يقسم صفيحة المزولة إلى ستين جزءاً، وبذلك تيسّر الحصول على جدول الظلال التام في أجزائها، بموجب معادلة رياضية معقدة لتعيين ارتفاع الشمس[101]. فصارت المزولة بهذا التعديل أكثر دقة في تعيين الوقت نهاراً.

وكانت الساعات على أنواع منها الرملية، والمائية، ومنها ما تسمى الدورية وهي معمولة بالدواليب يدير بعضها بعضاً[102]. وصار للساعات علم خاص يُعنى بها على اختلاف أنواعها، وكيفية اتخاذ آلات يُقدَّر بها الزمن، وغايته معرفة أوقات الصلوات من غير ملاحظة حركات الكواكب[103]. وصنّفت كتب عديدة في الساعات والمزاول، وصنعها، وتعيين الوقت رياضياً. فقد صنّف محمد بن موسى الخوارزمي العالم الرياضي كتاب الرخامة[104]. وصنّف الكندي رسالة في استخراج خط نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة ورسالة في عمل الرخامة بالهندسة ورسالة في استخراج الساعات على نصف كرة بالهندسة ورسالة في عمل الساعات على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق خير من غيرها[105]. وصنّف

---

(٩٩) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٧٨ و٥٧٧.

(١٠٠) مجيد خدّوري، الصلات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان (بغداد: مطبعة التفيّض الأهلية، ١٩٣٩)، ص ٣٦ - ٣٧.

(١٠١) أرنولد [وآخرون]، المصدر نفسه، ص ٥٨٠.

(١٠٢) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٢٥٥.

(١٠٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٥.

(١٠٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٧.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٣٧٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧١.

ثابت بن قرّة كتاباً في آلات الساعات التي تسمى رخامات وكتاباً في أشكال الخطوط التي يمر عليها ظل القياس(١٠٦).

وممن اشتهر بعلم الحيل في القرن الثالث أبناء موسى بن شاكر الذين أشرنا إلى جهودهم في تنشيط حركة نقل الكتب من بلاد الروم والانفاق عليها. وكان أوسطهم أحمد دون أخويه في العلم إلا في صناعة الحيل فإنه قد فتح فيها ما لم يفتح لغيره ممّن عمل في الصناعة المذكورة(١٠٧). وذكر له صاحب كتاب تاريخ العلوم في الاسلام بعض الأجهزة والأدوات التي صنعها(١٠٨).

يقول ابن خلكان «وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات... ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة. وقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها، وهو مجلد واحد»(١٠٩). ويحتوي هذا الكتاب على مئة عملية ميكانيكية، عشرون منها ذات قيمة عملية، منها ما يعالج أمور الأوعية ذات المياه الحارة والباردة، والآبار ذات المستوى المعيّن الثابت. وأغلبها وصف لبعض الألعاب، كأوعية الشراب المجهزة بآلة موسيقية وأشباهها، المستندة إلى القواعد الميكانيكية التي وضعها هيرن الاسكندري(١١٠). ويظهر أنهم جمعوا فيه ما كان معروفاً من علم الحيل وتجاربهم الخاصة فيه. وفي مكتبة الفاتيكان رسالة في الحيل وفيها وصف لآلات وأنواع من الأجهزة المتحركة وضعت بدقة وبراعة عظيمتين(١١١).

كما وضع أبناء موسى رسالة في الآلات الموسيقية التي تزمر بنفسها وقد عثر عليها في كلية الروم الأورثوذكس ببيروت(١١٢).

وجاء بين مصنفات الكندي كتاب في عمل القمقم الصياح ورسالة في أركان الحيل(١١٣). ويظهر بين مصنفات ثابت بن قرّة كتاب في أشكال له في الحيل(١١٤).

---

(١٠٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٧ - ١١٨.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٤٤٢.

(١٠٨) الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(١٠٩) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ٤، ص ٢٤٧.

(١١٠) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٦٠.

(١١١) المصدر نفسه، ص ٥٧٧.

(١١٢) طبعت في: مجلة المشرق (بيروت)، العدد ٤٤٤. انظر: المصدر نفسه، ص ٥٢٧.

(١١٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٩، وجاء فيه الكتاب الأول: في عمل القمقم النبّاح، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٥.

(١١٤) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٨.

ثالثاً: عِلما الحيوان والنبات

١ ـ عِلما الحيوان والنبات وحركة الترجمة

لعل أهم ما تُرجم من الكتب في علم الحيوان كتاب الحيوان لأرسطوطاليس، نقله يحيى بن البطريق إلى السريانية نقلاً جيداً، ونُقل منها إلى العربية نقلاً غير جيد، بقي متداولاً وله عدد من المختصرات حتى القرن الرابع فنقله أبو علي عيسى بن زرعة المتوفى سنة ٣٩٨. وهو من متقدمي علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجيدين[١١٥]. ولأرسطو كتب أخرى عن الحيوان لم يثبت أنها ترجمت إلى العربية سوى كتاب منافع أعضاء الحيوان ترجمه ابن زرعة المذكور[١١٦].

أما ما تُرجم من الكتب ذات العلاقة بعلم النبات فكانت ثلاثة كتب مهمة هي:

أ ـ كتاب الحشائش والنباتات

(أو كتاب الأدوية المفردة أو هيولى علاج الطب) لديسقوريدس[١١٧]. وقد سبق القول إن اصطفن بن بسيل ترجمه من اليونانية إلى العربية للخليفة المتوكل على الله. وجاء في كشف الظنون عن أهمية الكتاب أن ديسقوريدس داوم أربعين سنة على دراسة النباتات ومنافعها حتى وقف على منافع البزور والحبوب والقشور واللُّبوب، فصنَّف الكتاب وأخبر به تلاميذه[١١٨]. ويتألف الكتاب من خمس مقالات: تشتمل المقالة الأولى منه على ذكر أدوية عطرية، وأفاويه، وأدهان، وصموغ، وأشجار كبار. وتشتمل المقالة الثانية على ذكر الحيوان ورطوباته، والحبوب والقطاني، والبقول المأكولة، والبقول والأدوية الحرِّيفة. وتشتمل المقالة الثالثة على ذكر أصول النبات، وعلى النبات الشوكي، وعلى بذور وصموغ وحشائش مزهرة. أما المقالة الرابعة فتشتمل على ذكر أدوية أكثرها حشائش باردة، وعلى حشائش حارة مسهلة ومقيِّئة، وعلى حشائش نافعة من السموم. وتشتمل المقالة الخامسة على ذكر الكرم، وعلى أنواع الأشربة، وعلى الأدوية المعدنية[١١٩].

ب ـ كتاب الفلاحة الرومية

للحكيم قسطوس بن اسكور نقله إلى العربية المترجم قسطا بن لوقا[١٢٠].

---

(١١٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٦٦.

(١١٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(١١٧) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، هامش ص ٢٢.

(١١٨) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ١٤١٢.

(١١٩) كحالة، العلوم البحتة في العصور الاسلامية، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨، وجاء اسم الكتاب فيه: في الحشائش والأدوية المفردة.

(١٢٠) حاجي خليفة، المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٤٧.

ج ـ كتاب الفلاحة النبطية

نقله إلى العربية أحمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية. ويمكن اعتباره أهم الكتب المترجمة التي احتوت على معلومات وافية عن الزراعة والنباتات، وقد ظلّ معتمد أهل الزراعة ردحاً طويلاً من الزمن. وجاء في مقدمة الترجمة: «اعلم يا بنيّ أني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين ـ الكلدان أو النبط ـ يترجم معناه إلى العربية: كتاب فلاحة الأرض واصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها. وكان هؤلاء الكسدانيون أشد غيرة عليها لئلا يظهر هذا الكتاب، فكانوا يخفونه بجهدهم. وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم فوصلت إلى ما أردت من الكتب بهذا الوجه. وكان هذا الكتاب عند رجل متميّز، فأخفى عني علمه، فلما اطلعت عليه ألححت في إخفاء الكتاب عني وقلت له: إنك إن أخفيت هذا العلم دُثر ولا يبقى لأسلافك ذكر، وما يصنع الإنسان بكتب لا يقرأها ولا يخلي من يقرأها، فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر، فصدّقني في ذلك وأخرج إليّ الكتب، فجعلت أنقل كتاباً بعد كتاب. فكان أول كتاب نقلته كتاب ادواناي البابلي في معرفة أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم، وهو كتاب عظيم المحلّ. ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه»(١٢١). ويقول ابن وحشية إنه يكتبه بقصد صلاح الأرض واصلاح الزروع والشجر والثمار وعلاج آفاتها، كما يقول إنه خطر له بعد ذلك أن يختصره ليكون أسهل منالاً لدى طلاب هذا النوع من المعرفة(١٢٢). إن إشارة ابن وحشية هذه توحي بأنه هو مصنِّف الكتاب وقد كتبه أول الأمر مفصلاً، ثم آثر أن يختصره ليكون أسهل منالاً، وتدعو إلى الشك في ما جاء في أول مقدمته بأنها قد تكون قصة اختلقها ليوهم بقدم الكتاب وأنه ترجمه من لغة قديمة، وذلك ليزيد في أهميته.

يقع الكتاب في ستمئة وعشر ورقات وهو لا يزال مخطوطاً يحتفظ به معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية. ولقد لخصه الدكتور عبد الحليم منتصر في كتابه تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه(١٢٣). ويظهر من هذه الخلاصة أن الكتاب مقسم إلى عدة أبواب تتناول بحث مختلف أنواع النباتات وخواصها وكيفية زرعها وغرسها وتسميدها وريّها، ويبحث طبيعة المياه وطعمها واستنباطها وكيفية حفر الآبار واستخراج المياه من أعماقها. وعندما يبحث في الحشائش والأزهار والخضروات والأشجار، يذكر أسماءها ويعدد صفاتها، ويذكر أوقات زراعتها وجنيها. وفي بحثه عن الأشجار يفرد باباً خاصاً بذوات النوى من الثمار، ويسهب في الحديث عنها من حيث زراعتها وتكثيرها وتسميدها. ويختم الكتاب بقوله إنه وجد فيه أجل المنافع وأكثر الفوائد في صرف المهالك عن الشجر والنخل والكرم. أما البقر والغنم وغيرها من الحيوانات المعينة على الفلاحة فقد أفرد لها كتاباً جعله تالياً لهذا الكتاب، وأنه سيفرد في الكتاب الثاني باباً خاصاً للحمام والطيور والكراكيّ.

---

(١٢١) أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون، ٣ ج (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧)، ج ١، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(١٢٢) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط ٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥)، ص ٢٢٩.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.

٢ ـ علما الحيوان والنبات عند العرب

أما مصنفات العلماء العرب في علمي الحيوان والنبات فقد ظهرت بوادرها مبكرة، إذ صنِّف منذ القرن الثاني كتب لغوية في أصلها، إلا أنها كانت تتضمن شيئاً من المعلومات مما ندعوه اليوم التاريخ الطبيعي ـ علم الحيوان وعلم النبات ـ. ويمكن القول إن جميع علماء اللغة الذين اشتهروا في خلال القرن الثالث، وضعوا كتباً عن الجمال، والخيل، وعن الزرع والنبات، وصنّف بعضهم في خلق الإنسان. وقد وضعت جميعها لأغراض لغوية، وكأنها صنفت لتكون معاجم للحيوان أو النبات الذي تبحث فيه. وبعضها ينطوي على كثير من المادة العلمية تناثرت بين ثنايا المعلومات اللغوية. وفي ما يلي بعض ما صنّف في ذلك:

ـ صنّف العتبي أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٢٢٨ كتاب الخيل[١٢٤].

ـ وصنّف ابن الأعرابي محمد بن زياد ١٥٠ ـ ٢٣٠ كتاب صفة النخل، وكتاب النبات، وكتاب النبت والبقل، وكتاب صفة الزرع، وكتاب الخيل[١٢٥].

ـ وصنّف أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي المتوفى سنة ٢٣١ كتاب الشجر والنبات، وكتاب الزرع والنخل، وكتاب الإبل، وكتاب الخيل، وكتاب الطير، وكتاب الجراد[١٢٦].

ـ وصنّف يعقوب بن السّكّيت ١٨٦ ـ ٢٤٤ كتاب النبات والشجر، وكتاب الإبل، وكتاب الوحوش، وكتاب الحشرات[١٢٧].

ـ وصنّف ابن قتيبة عبد الله بن مسلم ٢١٣ ـ ٢٧٦ كتاب الخيل، وكتاب خلق الإنسان. ويذكر ابن النديم بين مصنفات ابن قتيبة كتاب معاني الشعر الكبير، وقد أشار إليه ابن قتيبة نفسه في كتاب عيون الأخبار، وسمّاه كتاب أبيات المعاني، وهو يحتوي على اثني عشر كتاباً منها: كتاب الفَرَس، وكتاب الإبل، وكتاب السّباع والوحوش، وكتاب الهوام[١٢٨]. وتطرّق ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار إلى ذكر كثير من المعلومات والمعارف في علمي الحيوان والنبات، سنذكر جانباً منها في ما بعد.

---

(١٢٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ١٨٢.

(١٢٥) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦)، ج ٧، ص ٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٣، ص ٤٣٣.

(١٢٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٨٩، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠٦.

(١٢٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١١٤؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٠٢، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٤١.

(١٢٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢١، وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، عيون الأخبار، ٤ ج (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣)، ج ١، ص ١٥٨.

ـ وصنّف أبو عثمان الجاحظ ١٦٣ ـ ٢٥٥ كتاب الحيوان، وكتاب الزرع والنخل، وكتاب الإبل، وكتاب البغل[١٢٩].

وتضمنت قائمة كتب الكندي فيلسوف العرب مصنفات في علم الحيوان هي: كتاب في الخيل والبيطرة، ورسالة في أنواع النحل وكرائمه، ورسالة في أجساد الحيوان إذا فسدت، ورسالة في الحشرات[١٣٠].

ـ وصنّف أبو حاتم سهل بن محمد الجشمي السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ كتاب النبات، وكتاب الطير، وكتاب الإبل، وكتاب النخلة، وكتاب الوحوش، وكتاب الحشرات، وكتاب الزرع، وكتاب الكروم، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب العشب، وكتاب النحل والعسل، وكتاب الجراد[١٣١].

ـ وصنّف أبو جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ كتاب الخيل، وكتاب النبات[١٣٢].

ـ وصنّف أبو محلم محمد بن هشام السعدي المتوفى سنة ٢٤٨ كتاب الخيل، وكتاب خلق الإنسان[١٣٣].

ـ وصنّف أبو حنيفة الدينوري أحمد بن داود المتوفى سنة ٢٨٢ كتاب النبات[١٣٤].

ـ وصنّف أبو سعيد الحسن السكري المتوفى سنة ٢٧٥ كتاب الوحوش، وكتاب النبات[١٣٥].

ـ وصنّف أبو إسحاق الزجّاج إبراهيم بن السريّ المتوفى سنة ٣١١ كتاب خلق الإنسان، وكتاب خلق الفرس[١٣٦].

ـ وصنّف محمد بن ثابت من علماء القرن الثالث كتاب خلق الإنسان.

---

(١٢٩) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٦، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٨٠٣.

(١٣٠) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٢ و٣٧٥ ـ ٣٧٦؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٦ و٣٧٩، وجاء فيه: أنواع النحل وكرائمه.

(١٣١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٣؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٨، وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(١٣٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٦١.

(١٣٣) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص ١٢٢، وأبو البركات عبد الرحمن محمد بن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة، تحقيق عطية عامر (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٣)، ص ٢٤٠.

(١٣٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢٣، وابن الأنباري، المصدر نفسه، ص ٢١١.

(١٣٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٩٧.

وذكر أبو عبيد القاسم بن سلّام الفقيه اللغوي المتوفى سنة ٢٢٤ في كتابه غريب المصنف أبواباً خاصة بالنبات منها: «باب في أشجار الجبال»، و«باب في ما ينبت منها في السهل وما ينبت في الرمل»، و«باب الحمض والخلة والعضاة»، و«باب ثمار الشجر»، و«باب ضروب النبت»، و«باب الكمأة»، و«باب الشجر المر»، و«باب الحنظل»، وذكر في كتابه هذا كتباً كان صنّفها في علم الحيوان منها: كتاب الخيل، وكتاب الطيور والهوام، وكتاب الإبل ونعوتها، وكتاب الغنم ونعوتها، وكتاب الوحش، وكتاب السباع[١٣٧].

وقد طُبع من الكتب آنفة الذكر كتاب الحيوان للجاحظ، وكان طبعه لأول مرة بسبعة أجزاء في القاهرة ـ الجزءان الأول والثاني بالمطبعة الحميدية في سنة ١٣٢٣، وطبعت الأجزاء الأخرى بمطبعة التقدم في سنة ١٣٢٥هـ[١٣٨]، وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة بأربعة أجزاء بدار الكتب المصرية في خلال الفترة ١٩٢٤ ـ ١٩٣٠، وكتاب النبات للدينوري وقد طبع بمطابع دار القلم ببيروت في سنة ١٩٣٤. وكتاب خلق الانسان للزجّاج في مطبعة المجمع العلمي العراقي في سنة ١٣٨٢هـ. وكتاب خلق الإنسان لمحمد بن ثابت، في الكويت في سنة ١٩٦٥. وسنستعرض في ما يأتي خلاصة موجزة لكتابي خلق الإنسان، ولـ كتاب النبات، ولـ كتاب الحيوان، ولما جاء في كتاب عيون الأخبار، لنطّلع على مدى ما تحتويه هذه الكتب من المادة العلمية إلى جانب مادتها اللغوية.

أ ـ كتابا خلق الإنسان للزجّاج، ولمحمد بن ثابت

قصر الزجّاج كتابه على ذكر أسماء أعضاء جسم الانسان مبتدئاً بالرأس ومنتهياً بالقدم. وقد خلا من أية معلومات علمية تتعلق بالأعضاء التي سماها. وما سنورده عن قوله في صفة الرأس قد يكون نموذجاً لمحتوى الكتاب واقتصاره على اللغة فقط. قال: الرأس، منها الكُرّس، يقال: رجل كُرّس، وهو العظيم الرأس. ومن الرؤوس الأكيس وهو العظيم المستدير، ويقال هامة كيساء وكياس إذا كانت كذلك. ومنها المصفح، وهو الذي يُضغط من قبل صدغيه فيطول ما بين جبهته وقفاه. ومنها الخشاش وهو الخفيف يشبّه برأس الحية، ومنها الصعل وهو الصغير الذي فيه دقة وخفة، ويقال رجل صَعْل، ومنها المؤدّم وهو الضخم المستدير[١٣٩].

وتناول كتاب محمد بن ثابت أسماء أعضاء الإنسان جميعاً في مختلف مراحل حياته منذ

---

(١٣٧) كحالة، العلوم البحتة في العصور الاسلامية، ص ٢٨٥.

(١٣٨) يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ص ٦٦٨.

(١٣٩) أبو اسحق ابراهيم بن السري بن الزجّاج، خلق الإنسان، تحقيق ابراهيم السامرائي (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٢هـ)، ص ١٠.

بدء حمل أمه به إلى أن يصبح رِمَّة. وتكاد تكون جميع الأسماء التي يذكرها معزّزة بالشواهد من الشعر. والكتاب بمجموعه كتاب لغة لا يتخلّله شيء من المادة العلمية عن الموضوع.

ب ـ كتاب النبات للدينوَري

لقد أغنى العلماء العرب المعرفة الإنسانية في مجال علم النبات باكتشافهم كثيراً من النباتات والأعشاب ذات النفع الطبي. ولعل أهم الكتب التي أُلّفت في القرن الثالث في موضوع النبات هو كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوَري. وقد ذكر في مقدمته أنه استقصى ما نطقت به العرب من أسماء النبات، وشرحها شرحاً علمياً بعد أن عاين النباتات في أماكنها ولاحظها بنفسه. فزاد كثيراً مما وجده منها على من تقدمه من الباحثين في الموضوع. فلم يترك شاردة ولا واردة إلا أثبتها في كتابه، حتى فاق من تقدمه من علماء اللغة والباحثين في النبات، وصار كتابه عمدة للغويين وأصحاب المفردات الطبية ومصنفي كتب النبات[١٤٠].

إن ما تضمّنه القسم المطبوع من الكتاب هو الجزء الثالث، والنصف الأول من الجزء الخامس. والبحث فيه لغوي معزّز بالشعر، إلا أنه لا يخلو من إشارات وملاحظات علمية تتعلق بخصائص النبات الذي يذكره. وسنلخّص في ما يلي أحد بحوثه، هو موضوع الكمأة، لنتعرف على ما تضمّنه من العلم واللغة.

يقول المصنف إن الكمأة عند العرب جنيٌ يخصبون عليها إذا كثرت في الموسم، وإذا قلّت عدّوها جدباً. وإن أنجع الأمطار فيها أمطار الوسمي، وان الرواعد فيها أبلغ من الخرس. وأول زمان أجنائها مفتتح الدفء وهو سقوط الجبهة، وهي تطاول إلى أن يتحرك... والكمأة جمع وواحده كمء، وهو نادر الكلام لأن بناء الكلام على أن تكون الواحدة بهاء وبالجمع تطرح الهاء. وحكى عن أبي زيد أن الكمأة تكون واحدة وجمعاً. وحكى غيره: كمأة واحدة وكمأتان وكمآت على القياس. وإذا كثرت الكمأة بالأرض قيل: أكمأت الأرض. ويقال للموقع الكثير الكمأة: المكموء[١٤١].

ويقال للذين يخرجون لاجتناء الكمأة: المتكمّئون، والواحد منهم الكمّاء. ويقال: كمأت القوم أطعمتهم الكمأة، وكذلك أكمأتهم. ويستدل على الكمأة بشيئين: بتشقّق الأرض، وارتفاعها عنها، وذلك إذا كبرت وسمنت وضاق موضعها عنها فارتفعت القِلْقِعة، ويقال لذلك الموضع تنقّض عن الكمأة فانصدع: النقض والجمع الأنقاض، ويقال للكمأة حينئذ نِقض[١٤٢].

والكمأة إذا أرادت أن تظهر نقضت عن نفسها الأرض وبدت. ويلتمس مع ذلك

---

(١٤٠) كحالة، العلوم البحتة في العصور الاسلامية، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(١٤١) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، النبات، حقّقه وشرحه برنهارد لفين (بيروت: دار القلم، ١٩٧٤)، ص ٧١.

(١٤٢) المصدر نفسه، ص ٧٢.

نبات الإجْرِد والقصيص فإنها من مظانّها. وقال الراجز وقد وصف الكمأة:

جنيتُها من مجتنىً عويصِ من منْبت الإجرد والقصيص

ويقال لما يلزم بالكمأة من تراب إذا أخرجت: السِّرْر، يقال: انقض عن الكمأة سِرْرُها، يعني ترابها[143].

ويقال لخيار الكمأة الجَبْأة، ولشرّها وأردأها الفقعة. وأكثر ما تنبت الكمأة قريباً من حيث ينبت القصيص والإجْرَد. ويقال إن كمأة السهل بيضاء رخوة وكمأة الأكام سود جيدة، وكذلك كمأة الدَّكادك التي ليس فيها رمل ولا جبل، والأرض من الدكادك تنبت القصيص والإجرد[144].

والفَقْع الكمأ الأبيض، وهو أردأ الكمأة طعماً وأسرعه فساداً. والغُرّاد الكمأة الصغار، واحدتها غُرّادة، ويقال: هي الغِراد واحدتها غَرْدة. ويقال: أجبأت الأرض إجباء فهي مُجبئة إذا كثرت جِبأتها، وهي أرض مَجْبأة. والعسقول ضرب من الجَبْأة وهي كمأة بين البياض والحمرة. والكمأة إذا ظهرت فلم تُجتنَ ابيضّت[145].

والقِرْحان ضرب من الكمأة أبيض، صغارها ذوات رؤوس كرؤوس الفطر، والواحدة قرحانة[146].

ويلاحظ أن محتوى البحث يضم إلى جانب اللغة معلومات علمية عن الكمأة، كموعد ظهورها وعلاماته، والمطر الصالح لها، والأرض المناسبة لظهورها، ووجود نباتي القصيص والإجرد قريباً منها، كنباتين تتعايش معهما، والفروق بين النوع الجيد من الكمأة والنوع الرديء. كما يلاحظ أن كتاب النبات هذا كتاب عربي بمادته، لأن مصادره كلها عربية فلم يعتمد على مصدر غريب آخر يوناني أو غيره.

ج ـ كتاب الحيوان للجاحظ

يقسم الجاحظ، في مقدمة الكتاب، عالم الحيوان إلى أربعة أقسام: شيء يمشي، وشيء يسبح، وشيء ينساح، وشيء يطير. والقسم الذي يمشي أربعة أقسام: أناس، وبهائم، وسباع، وحشرات. أما حيوان الماء فيقول إنه ليس كل عائم سمكاً وإن كان مناسباً للسمك في كثير من خصائصه. فهناك كلب الماء والسلحفاة والضفدع والسرطان والدلفين. ويقسم الحيوان بالنسبة إلى النطق، إلى فصيح وأعجم، والفصيح هو الانسان، والأعجم هو الحيوان. ثم يذكر أسماء أصوات الحيوان كالنباح والزئير والصفير... الخ.

---

(١٤٣) المصدر نفسه، ص ٧٣ ـ ٧٤.
(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(١٤٥) المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٣.
(١٤٦) المصدر نفسه، ص ٨٥.

والكتاب ينطوي على معلومات علمية غزيرة عن عالم الحيوان، من حيث تكاثره، وطباعه، ومنافعه، وأعضاؤه وتطورها، وألوانه، وطعامه، وتعليمه، وموطنه، وأثر البيئة فيه. ولذا يمكن اعتباره رغم ما يحتويه من معلومات في فروع أخرى، من كتب الطبيعيات لا من كتب الأدب. إلا أن معلوماته العلمية لم ترتّب، إذ جاء أغلبها في ثنايا الأخبار اللغوية والشواهد الأدبية المختلفة التي يرويها الجاحظ، كعادته، بإسهاب واستطراد. والكتاب كما يصفه المؤلف نفسه «كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه»[147]. فهو لم يقصر بحثه على الحيوان وما يتصل به، بل يتناول أوجهاً عديدة من وجوه المعرفة. فقد تكلم فيه على مسائل فلسفية، ومعارف طبيعية، ومواضيع أهل علم الكلام، وعلى أثر البيئة في الحيوان والنبات والإنسان. كما تناول أموراً تاريخية، ومواضيع جغرافية. وعرض لأمراض الإنسان والحيوان، وغير ذلك، مستشهداً في معظم ما يتعرّض له من المواضيع بعيون الشعر العربي. ناهيك عما يتخلل الكتاب من نوادر وأقاصيص وفكاهات ومجون، يحاول الجاحظ أن يخفف بها عن قارئه بين حين وآخر. وبهذا اختلف الجاحظ عمن سبقوه ممن صنفوا في الحيوان من رجال اللغة. إذ تضمّن كتابه كثيراً من الحقائق العلمية الخاصة بالحيوان الذي يتحدث عنه، كطُرق كسبه معاشه، ورعايته صغاره، وعلاقة الذكر بأنثاه، مع ملاحظات علمية مهمة عن سلوك الحيوان، مما يجعل الكتاب أول مصنّف عربي في موضوع علم الحيوان.

ونعرض في ما يلي بعض الفقرات والمقاطع من مواضيع مختلفة مما تضمّنه الكتاب من المادة العلمية. فهو يقول في أقسام الكائنات: «إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متفق، ومختلف، ومتضاد، وكلها في جملة القول جماد ونام، وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال نام وغير نام. ولو أن الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسماً كما وضعوا للنامي اسماً، لاتبعنا أثرهم، وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا»[148].

ويقول عن تقسيم النامي: «ثم النامي على قسمين: حيوان ونبات. والحيوان على أربعة أقسام: شيء يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح. إلا أن كل طائر يمشي، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائراً. والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات. على أن الحشرات راجعة في المعنى إلى مشاكلة طباع البهائم والسباع»[149]. ويقول في تقسيم الطير: «والطير كل سبع وبهيمة وهمج. والسباع من الطير على ضربين: فمنها العتاق والأحرار والجوارح، ومنها البُغاث، وهو كل ما عظم من الطير سبعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقفة، كالنسور والرخم والغربان وما أشبهها من لئام السباع... ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما أشبهها، وشيء يكون سلاحه المناقير كالنّسور والرخم والغربان، وإنما جعلناها سباعاً لأنها آكلة لحوم. ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكراكيّ وما أشبهها، ومنها ما يكون سلاحه الأسنان كالبوم والوطواط وما أشبهها، ومنها ما يكون سلاحه الصياصي كالديكة، ومنها ما يكون سلاحه السُّلح كالحُبارى... والسبع من الطير ما أكل اللحم خالصاً،

---

(١٤٧) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ٧ ج (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨ - ١٩٤٥)، ج ١، ص ٣٧.

(١٤٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦.

(١٤٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧.

والبهيمة ما أكلت الحب خالصاً. وفي الفن الذي يجمعها من الخلق المركّب والطبع المشترك، كلام سنأتي عليه»[150].

ويقول في خصائص الأفعى: «والأفعى لا تدور عينها في رأسها، وهي تلد وتبيض، وذلك أنها إذا طرّقت بيضها تحطم في جوفها فترمي بفراخها أولاداً، حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيواناً مثله»[151]. وفي قوة بدن الحية وعلة ذلك يقول: «ربما قبض الرجل الشديد الأسر والقوة على قفا الحية فتلتف عليه فتصرعه. وفي صعودها وفي سعيها خلف الرجل الشديد الحُضر، أو عند هربها حتى تفوت وتسبق، وليست بذات قوائم، وإنما تنساب على بطنها، وفي تدافع أجزائها وتعاونها وفي حركة الكل من ذات نفسها، دليل على إفراط قوة بدنها. . . وإنما أتتها هذه القوة، واشتدت فقر ظهرها هذه الشدة، لكثرة أضلاعها وذلك أن لها من الأضلاع عدد أيام الشهر»[152].

وعن هجرة السمك يقول: «وهذا بحر البصرة والأُبُلّة، يأتيهم ثلاثة أشهر معلومة معروفة من السنة السمك الأسبور، فيعرفون وقت مجيئه وينتظرونه، ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره، فلا يمكث بهم الحال إلا قليلاً حتى يُقبل السمك من ذلك البحر في ذلك الأوان، فلا يزالون في صيد ثلاثة أشهر معلومة من السنة، وذلك في كل سنة مرتين لكل جنس. . . فأما الأسبور فهو يقع إليهم من بلاد الزنج، وذلك معروف عند البحريين. وان الأسبور في الوقت الذي يقطع إلى دجلة البصرة لا يوجد في الزنج، وفي الوقت الذي يوجد في الزنج لا يوجد في دجلة»[153].

وتظهر آثار دراسة الجاحظ واطّلاعه على ما ترجم من الكتب من اللغة اليونانية في كثير من الأقوال والأخبار التي يرويها عن أرسطوطاليس وجالينوس وبطلميوس واقليدس من حكماء اليونان. وقد اقتبس من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس عديداً من النصوص الخاصة بطبائع الحيوان وشؤونه وغرائبه، إلا أنه لا يفوته التعليق عليها أو تفنيدها. بل إنه يشكّك أحياناً في أقواله لنقصان الشاهد. فهو يقول في معرض كلامه عن السمك: «وقد أكثر في هذا الباب أرسطوطاليس، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه»[154] ويقول في كلامه عن الحيّات: «وزعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حيّة لها رأسان. فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق»[155]، غير أن الجاحظ يشكك بالأمر فيقول «إن هذه الاحاديث مما يزيد في الرعب منها وفي تهويل أمرها»[156]. ويعلّق على زعم أرسطوطاليس في التناج المركب، فيقول: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما نظنّ بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحقّقها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول»[157].

---

(150) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨ ـ ٢٩.
(151) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٣.
(152) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٢٦.
(153) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١١٠.
(154) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧.
(155) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥٦.
(156) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٥٦.
(157) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٥.

ويقول الجاحظ: قيل لي «وقرأت في كتاب الحيوان أن ريح السذاب يشتد على الحيات، فألقيت على وجوه الأفاعي جُرُزاً من السذاب، فما كان عندها إلا كسائر البقل»[158]. وهو في مثل هذه الحال يعمد إلى أن يجرب القول بنفسه ويقف على صحته وعدمها. ويقول: «فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلا ببعض الماء، فأي عيان دلّ على هذا وهو عسّ»[159]. ويقول في مكان آخر من كتابه «ولقد قلت لرجل من البحريين: زعم ارسطوطاليس أن السمكة لا تبتلع الطعم إلا ومعه شيء من ماء، مع سعة المدخل وشره النفس. فكان من جوابه أن قال لي: ما يعلم هذا إلا من كان سمكة مرة، أو أخبرته به سمكة، أو حدَّثه بذلك الحواريُّون..»[160]. وهو تهكم جميل من كلام ينقصه الدليل.

د ـ كتاب عيون الأخبار

يتألف الكتاب من عشرة كتب (أبواب) موزعة على أربعة أجزاء. يشتمل الجزء الأول على ثلاثة كتب، تطرّق ابن قتيبة في الكتاب الأول إلى الكلام على الخيل والبغال والحمير والإبل، فذكر صفاتها وما يستحسن منها، وذلك بأسلوب تغلب عليه الناحيتان الأدبية واللغوية، ولكنه لا يخلو من المعرفة العلمية. فقال عن وسائل التمييز بين عتاق الخيل وهجينها، إنها إذا قدِّم إليها الماء بطست ووضع على الأرض وتقدمت إلى الشرب، فما ثنى منها سنبكه فشرب فهو هجين، وما شرب ولم يثن سنبكه فهو أصيل، لأن في أعناق الهجن قصر فهي لا تنال الماء حتى تثني سنابكها، وأعناق العتاق طوال[161].

وذكر أوصاف الحمار بخبر أورده عن الفضل الرقاشيّ لما سئل لماذا يؤثر الحمير على جميع المركوب «قال: لأنها أكثرها مرفقاً... لا تستبدل بالمكان على قدر اختلاف الزمان، ثم هي أقلها داءً، وأيسرها دواء، وأسلم صريعاً، وأسهل تصريفاً، وأخفض مهوىً، وأقل جماحاً، وأشهر فارهاً، وأقل نظيراً، ويُزهى راكبه وقد تواضع بركوبه»[162].

ويظهر مما ذكره ابن قتيبة أن من أحسن صفات الجمال سرعتها في جريها بحيث انها إذا جرت بدت كأنها تعوم وتنسلّ كأنها ثعبان يسيل سيلاً كالماء[163].

ويشتمل الجزء الثاني على كتاب الطبائع، والأخلاق المذمومة، وتكلم فيه على طبائع الإنسان وطبائع الحيوان، ويختم الكتاب بذكر بعض النباتات وأوصافها. وفي الباب الخاص بطبائع الانسان يقدم فذلكة علمية عن خلق الإنسان والطبائع التي ركبت فيه. وعند ذكر العلاقة بين الحمل والحيض يقول: «ويقول بعضهم إن الجنين يغتذي دم الحيض يسيل إليه من السرّة بغذائه، وقالوا لذلك لا تحيض الحوامل، وقد رأينا من الحوامل من تحيض. والعرب تقول: حملت فلانة سهواً إذا حاضت على الحمل، قال الهذلي يمدح رجلاً:

---

(158) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٦٥.
(159) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٥٤١.
(160) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧.
(161) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج ١، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(162) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(163) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٢.

ومـبـرّأً مـن كـلّ غُـبَّرِ حَـيْـضـةٍ ورَضـاعِ مُـغْـيِـلَةٍ وداءٍ مـعـضـلِ[164]

فأعلمك أنها لم ترَ عليه دم حيض في حملها، ودلّ على أنه قد يكون. قالوا: فإذا خرج الجنين من الرحم دفعت الطبيعة ذلك الدم الذي كان يغتذيه إلى الثديين، وهما عضوان ناهدان عصبيان فغيّراه وجعلاه لبناً»[165].

ويشير إلى اختلاف مدة الحمل ويذكر عدداً من الحالات التي زادت فيها تلك المدة عن الحدّ الطبيعي وهو تسعة أشهر، أو نقصت عنها، معززاً ذلك بأمثلة يذكرها. ويذكر وصية الخليفة عمر بن الخطاب إلى بني السائب لما رأى أولادهم ضعاف البنية، فقال لهم: إنكم قد أضويتم فانكحوا في النزائع. أي أنه أوصاهم بالزواج من غير عشيرتهم. والعرب تقول: اغتربوا لا تَضْوَوا، أي أنكحوا في الغرائب فإن القرائب يضوين الأولاد[166].

ويقول ابن قتيبة «والإنسان يعيش حيث تحيا النار ويتلف حيث لا تبقى النار. وأصحاب المعادن والحفائر إذا هجموا على نفق في بطن الأرض أو مغارة قدَّموا شمعة في طرف قناة، فإن ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب ما يريدون وإلا أمسكوا»[167].

ويتكلم بتفصيل على طبائع الأنعام بما فيها الإبل والسباع وما شاكلها، والطير بأنواعها، معزّزاً أقواله بحوادث معينة وما ورد من أشعار في ذلك[168]. ثم يستطرد آخر هذا الباب فيتكلم على خواص بعض النباتات، فيقول نقلاً عن صاحب الفلاحة «بين الكرنب والكرم عداوة، فإذا زرع الكرنب بحضرة الكرم ذبل أحدهما وتشنّج. ويقول: وكل زهر ونَوْر ينحرف مع الشمس ويحوّل إليها وجهه، ولذلك يقال هو يضاحك الشمس»[169].

وخصص آخر أبواب الجزء الثالث لكتاب الطعام، فتكلم فيه على صنوف الأطعمة، وبيّن أوضارها ومنافعها. ويكاد يحصر بحثه في النباتي منها، فيتكلم على خواص مختلف الخضروات والبقول والفواكه والحبوب والبزور، ذاكراً ما قيل من الفوائد فيها. فيقول عن البصل «إن الأطباء تقول فيه إنه يشهّي إلى الطعام إن أكل مشوياً أو نيئاً... والإكثار منه يفسد العقل، والمسلوق منه يُدرّ البول والدمعة»[170]. ويقول عن الثوم: «وهو ينفع من العطش الحادث من البلغم، ويقوم مقام الترياق في لسع الهوام، والأمراض الباردة. وتقول الروم في الثوم إنه دواء لمن أصابه وجع السقي في بطنه، وإن أكله من ظهر فيه حرّة من شري وغيره أبرأه. وإن دُقّ الثوم يابساً فأُغلي بسمن ولبن ثم جعله من يشتكي ضرسه في فيه سُخناً فأمسكه ساعة، ذهب وجع ضرسه. وهو نافع لمن اجتوى»[171].

---

(١٦٤) الغُبَّر: بقايا الحيض، والمُغْيِلة: الحبلى أو التي تُغشى وهي تُرضع.

(١٦٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤.

(١٦٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٦ - ٦٧.

(١٦٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٤.

(١٦٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١.

(١٦٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(١٧٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٨٣.

(١٧١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٨٥. والجوى: داء السلّ، أو داء بالحلق في الصدر.

الفصل التاسع

الرياضيات وعلم النجوم

أولاً: العلوم الرياضية

١ - العرب والرياضيات

تعتبر العلوم الرياضية، وتسمى العلوم العددية أيضاً، من أوائل العلوم التي اهتم بها العرب في القرن الثالث لحاجتهم إليها في حياتهم العملية وفي العلوم الأخرى. وكما استفاد العرب من بطلميوس وكتبه في علم الفلك كذلك أفادوا من إقليدس في الرياضيات بعامة، وفي الهندسة بصورة خاصة. كما أنهم استفادوا من حساب الهند. ويقال إن الرجل الهندي الذي قدم على الخليفة أبي جعفر المنصور كان قد جاء بكتابين، أحدهما في الحساب، والآخر في علم الفلك، وقد عُرف عند العرب بعد ترجمته باسم السِّند هند وسنشير إلى تأثيره في إثارة اهتمام العرب بالدراسات الفلكية. أما كتاب الحساب فلم يكن يقلّ أهمية عن الكتاب السابق لأن العرب اقتبسوا منه الأرقام الهندية التي انتقلت في ما بعد إلى أوروبا باعتبارها أرقاماً عربية. كما اقتبسوا منه النظام العشري في الحساب، مما مكّن تعدّد الطرق الحسابية بخاصة والرياضية بصورة عامة. وذلك ما لم يكن ليسهل تحقيقه في النظام الحسابي العربي القديم[1]. كما كان لاقتباسهم الصفر من الهند أيضاً وتطويره بالشكل الذي نستعمله اليوم[2]، أهمية بالغة في تقدم العلوم الرياضية.

وسوف نرى في سيرة العلماء الذين اشتهروا في العلوم الرياضية في هذا القرن مدى

(١) اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي (القاهرة: دار العصور، ١٩٢٨)، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٤١)، ص ٢٢، وأنور الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص ١٥٧.

التقدم الذي بلغته هذه العلوم على أيديهم. ذلك أنهم لم يكتفوا بدراسة ما نقلوه منها عن اليونان والهند، بل انهم أعادوا تنسيق المعلومات، وصححوا ما وجدوه فيها من أخطاء، وأكملوا نواقصها، وأضافوا إليها من ابتكاراتهم، ولم يكن ذلك بالشيء اليسير. فإنهم لم يقفوا عند تهذيب الأرقام التي اقتبسوها من الهند، واستعمال الصفر بما يسّر الأمور الحسابية، بل فصلوا الجبر عن الحساب، وجعلوه علماً قائماً بذاته، وتقدّموا به مراحل هامة. ووضعوا أسس الهندسة التحليلية، وتوصلوا إلى معرفة الجَيْب وجيب التمام وجيب الزاوية للمثلث القائم الزاوية، مما ساعدهم على تثبيت علم المثلثات المستوية فقطعوا في تقدّمه أشواطاً ساعدت على تأسيس علم المثلثات الكروية الذي كان من أبرز ابتكاراتهم في حقل العلوم الرياضية[3]. وساعدتهم معرفتهم خصائص الأعداد الفردية والزوجية وما بينها من علاقات على استخراج الجذور التربيعية والتكعيبية[4]. كما أنهم اهتموا بموضوع قياس مسافات الأمكنة وأبعادها والارتفاعات على سطح الكرة الأرضية، كارتفاع الجبال، وعمق الوديان وسعتها، وحساب البعد بين نقطتين تقعان على سطح منبسط.

يقول المستشرق الفرنسي البارون كارا دي فو في مطلع الفصل الذي كتبه عن الفلك والرياضيات، معترفاً بإنجازات الرياضيين العرب: «أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً، فعلّمونا استعمال الصفر، ولو أنهم لم يكونوا مبتكريه، وهكذا ابتدعوا حساب الحياة اليومية. انهم جعلوا الجبر علماً متقناً وتقدّموا به، ووضعوا أسس الهندسة التحليلية، وهم بلا منازع مُوجدو علمي المثلثات المستوية والكروية، اللذين لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف. كما أنهم عملوا في الفلك أرصاداً عديدة قيّمة... والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى... ووصلوا إلى قمة نشاطهم ـ الذي استمر حتى القرن الخامس عشر ـ في القرنين التاسع والعاشر»[5].

تشتمل العلوم الرياضية على علوم عدة تتصف كلّها باعتمادها على العدد، وأهمها علم الحساب، وعلم الجبر والمقابلة، وعلم الهندسة، وعلم المثلثات. وسنحاول أن نلقي نظرة فاحصة على ما وصل إليه كل من هذه العلوم في خلال هذا القرن. ونُتبع ذلك بذكر أشهر العلماء الذين برزوا في هذه العلوم، ونتبين جهودهم وانجازاتهم، وأهم مصنفاتهم فيها.

٢ ـ الحساب والجبر والمقابلة

أ ـ علم الحساب

ويُصطلح عليه باليونانية الأرثماطيقي، كما يستخدم بعض الرياضيين العرب هذا

---

(٣) طوقان، المصدر نفسه، ص ٨١.

(٤) جوزيف هِلْ، الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي، مراجعة حسين مؤنس، الألف كتاب؛ ٨٨ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦)، ص ١٠٨.

(٥) توماس أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٤.

الاصطلاح أحياناً للمعنى نفسه. وهو علم استخراج المجهولات العددية من معلومات مخصصة، أي معروفة، والمراد بالاستخراج معرفة الكمية. وموضوع علم الحساب هو البحث في العدد وعوارضه الذاتية، وهو من العلوم النافعة في الحياة اليومية، كما يحتاج إليه في أغلب العلوم الأخرى. أما بالنسبة إلى الانسان فهو نعم المقوِّم لسلوكه، ويقال إن من أخذ نفسه بتعلّم الحساب أول أمره يغلب عليه الصدق، لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير لذلك خلقاً، فيتعود الصدق ويلازمه[6]. والحساب، على رأي ابن خلدون، يمثل الناحية العملية للأعداد بالضم والتفريق، ويكون الضم بالجمع والتضعيف، والتفريق بالطرح والقسمة[7].

لقد اطّلع العرب على الحساب عند الهنود، وأخذوا عنهم نظام الترقيم لما وجدوه أفضل من نظامهم الترقيمي القائم على حساب الجُمَّل. وقد هذّب العرب سلسلتين من الأرقام الهندية، أولاهما أرقامنا الحالية المستعملة في أرجاء الوطن العربي والعالم الاسلامي، والأخرى عُرفت بالأرقام الغبارية والتي انتشرت في بلاد المغرب والأندلس، ثم انتقلت في ما بعد إلى الأقطار الأوروبية فانتشرت فيها وعُرفت بالأرقام العربية، وهي المستعملة عندهم حالياً. ويقول القفطي: ومما وصلنا من علومهم حساب العدد، بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي، وهو أوجز حساب وأخطره وأقربه تناولاً وأسهله مأخذاً[8]. على أن هناك من يشكّك بالرأي القائل بأن العرب أخذوا الأرقام من الهند ويقول إن كلمة «هندي» المستعملة في هذا الموضوع قد تكون «هندسي» نسبة إلى الهندسة «ففي مواضع كثيرة استعملت لفظة هندي بشكل يستدعي إحلال لفظة هندسي محلّها لتكون أوفى غرضاً وأنسب مقاماً»، ثم يردّ على قول البيروني «إن الأرقام الغبارية والهندية هي احسن ما عند الهنود وهي منتخبة من أرقام الحساب المتنوعة التي كانت معروفة عندهم» فيقول «ولكنه لم يعين بالضبط ماهية ذلك الشكل ولم يخبر عن أي مكان في الهند كانت تستعمل». وهو يريد أن الأرقام العربية هندسية، لا هندية الأصل، لأن شكلها هندسي وهي أبسط وأسهل تناولاً من مثيلاتها لدى أي شعب آخر، ولذا فإنه يرى «من المحتمل جداً أن العرب توصلوا إلى تلك الرموز ككثير من علومهم»[9].

ولعل أهم ما قام به العرب في حقل الأرقام انهم استخدموا طريقة الإحصاء العشري

---

(٦) مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، عني بتصحيحه محمد شريف بالتقايا ورفعت الكليسي، ٢ ج (استانبول: مطبعة المعارف، ١٩٤١ - ١٩٤٣)، ج ١، ص ٦٦٢ - ٦٦٣.

(٧) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، ٧ ج (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ٢٧٢.

(٨) أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٢٦٧.

(٩) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٧٤ - ٥٧٥.

للأرقام، والصفر لحفظ المراتب[١٠]. ويوضع الصفر في المواضع التي ليس فيها أعداد، فإذا جاوزت الأعداد الألوف صُيِّرت الألوف مرتبة الآحاد، ثم تليها مرتبة العشرات، ثم مرتبة المئين، ثم مرتبة الألوف، فإذا زادت صُيِّرت مرتبة الألف ألف مرتبة الآحاد على هذا القياس إلى ما لا نهاية له[١١]. ويعتبر الصفر في النظام الرقمي أهم شيء في سلسلة مضاعفات العشرة والمئة الخ . . . ولولاه لاضطررنا إلى استعمال جدول ذي حقول منها للآحاد وآخر للعشرات وثالث للمئات، وهكذا . . . ويحفظ كل رقم في الحقل الخاص به. وقد اقتبس العرب فكرة الصفر من الهنود الذين كانوا يستخدمون الفراغ للدلالة على الصفر. فطوّروا التعبير عنه بدائرة صغيرة توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها أعداد، وسمّيت هذه الدوائر الأصفار[١٢]. ويظهر أن العرب ما لبثوا أن استعملوا النقطة لتدل على الصفر لمشابهة الدائرة الرقم خمسة الذي يُكتب بشكل دائرة أيضاً. وهكذا عرف العرب الصفر واستخدموه في الحساب والعلوم الرياضية الأخرى قبل أن يعرفه الغرب بقرنين ونصف على الأقل، إذ إنه دخل أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي، بينما يذكره صاحب كتاب **مفاتيح العلوم** في القرن العاشر ويشير إلى حالات استعماله[١٣].

كانت معلومات العرب الحسابية غزيرة جداً، فقد عرفوا أنواع الأعداد وخصائصها: الفردية والزوجية، وزوج الفرد، وزوج الزوج، والعدد التام، والعدد الناقص، والأعداد المتحابّة، والأعداد المسطّحة، والأعداد المجسّمة، بأقسامها المختلفة. وعرفوا الكمية المضافة وقسموها إلى قسمين: أحدهما المعادل، والآخر المضاف، كما عرفوا العيارات، أي النسبة والحدود، وهي الأعداد التي تُعبِّر بها النسب المختلفة. وتوسّعوا في بحوث النسبة وصنّفوها إلى ثلاثة أنواع: عددية وهندسية وتأليفية، واستخدموا النوع الأخير في استخراج الأنغام واللحون الموسيقية. وأجادوا في موضوعات التناسب وكيفية استخراج المجهول بوساطتها وبخاصة في حساب الأبعاد والأوزان[١٤].

واستخدموا الوجوه الحسابية، أي العمليات، بشكل صحيح. وعرفوا الجذر وما يتعلّق به، بأنواعه: الجذر المطلق وهو الجذر المنطوق به وتُعرف حقيقة مقداره، والجذر الأصم، وهو الذي لا سبيل إلى معرفة حقيقته بالعدد، فيؤخذ بالتقريب. وعرَّفوا المكعب بأنه المال إذا ضرب في ضلعه، أي جذره، فالمبلغ هو المكعب، وذلك الجذر هو الكعب. وإذا ضرب المال في نفسه فإن المجتمع هو مال المال، وكذلك إذا ضرب المكعب في كعبه صار مال المال أيضاً.

---

(١٠) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٢٢.

(١١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، مفاتيح العلوم (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٩٢٣)، ص ١١٣.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٧٦.

(١٤) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٠٩ - ١١٢.

فـالمال إذا ضرب في المكعب سمّي «مـال كعب» وإذا ضرب مـال المـال في المكعب سمّي «المبلغ»[١٤].

وعرّفوا الضرب بأنه تضعيف أحد العددين بآحاد الآخر مثل أن تضرب ثلاثة في أربعة فتبلغ اثني عشر. فكـأنك أضعفت الأربعـة ثلاث مـرات، أو أضعفت الثلاثـة أربع مـرات. فكـان معنى قولـك ثلاثـة في أربعة: ثـلاث أربع مـرات. قال الخليـل: مبلغ مـا يجتمـع من الضرب هـو الجُـذاء، تقـول جُـذاء عشرة في عشرة مئـة، ويسمّـون جملة هـذا الحسـاب البرجان[١٦]. كما عرّفوا القسمة بأنها أخذ حصة الواحد من المقسوم عليهم في المقسوم، كأنـك تقسم عشرين درهمـاً على خمسـة نفر فحصـة الـواحـد من المقسـوم عليهـم، وهم النفـر، من الدراهـم أربعة. وهذا المال هو المقسوم، والرجال هم المقسوم عليهم، وما يخـرج من القسمة فهو القِسم، بكسر القاف[١٧].

وقسّم الرياضيـون العرب الحسـاب العملي إلى قسمين: الغباري وهـو الـذي يحتـاج استعماله إلى أدوات كالقلم والورق، والهوائي وهو الحساب الذهني الـذي لا يحتاج استعماله إلى أدوات، ويُتعرّف فيه كيفيـة احتساب الأمـوال العظيمـة في الخيال بـلا كتابة. وله طـرق وقواعد مذكورة في بعض الكتب الحسابية. وهذا القسم من الحساب عـظيم النفع للتجـار في الأسفـار، ولأهل السـوق من العوام الـذين لا يعرفـون الكتابـة، وللخواص إذا عجـزوا عن إحضار أدوات الكتابة[١٨].

ب ـ علم الجبر والمقابلة

هو أحد فروع علم العدد، وقد اشتق من علم الحساب فاستقل عنه كعلم قائم بذاته. وبواسطتـه يستخرج المجهـول من قبل المعلوم المفـروض إذا كانت بينهما نسبة تقتضي ذلـك. ويعني الجبر زيادة قدر ما نقص من الجملة المعادلة بالاستثناء في الجملة الأخـرى ليتعادلا ـ أي نقل الحدود من أحـد طرفي المعـادلة إلى الـطرف الآخر. أمـا المقابلة فهي إسقـاط الزائـد من إحـدى الجملتين للتعـادل ـ أي اختصـار مـا يجوز اختصـاره بعد عمليـة الجبر، ومن ثم ايجـاد النتيجة. وذلك أنهم اصـطلحوا عـلى أن يجعلوا للمجهولات مـراتب من نسبة تقتضي ذلـك، أولها: العدد لأنه به يتعينّ المطلوب المجهـول باستخـراجه من نسبـة المجهـول إليـه. وثانيهـا: الشيء لأن كـل مجهول فهـو من حيث إبهامـه شيء، وهو أيضـاً جذر لمـا يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية. وثالثها: المال وهو مربع مبهم. فيخرج العمل المفروض إلى معادلة بين مختلفين أو أكـثر من هذه الأجنـاس، فيقابلون بعضهـا ببعض ويجبرون مـا فيها من الكسر حتى يصـير

---

(١٥) المصدر نفسه، ص ١١٢ ـ ١١٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٧) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(١٨) حول قسمي الحساب، انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٦٦٤.

صحيحاً ويؤول إلى الثلاثة التي عليها مدار الجبر، وهي العدد والشيء والمال. وقد سمّي هذا العلم بها «علم الجبر والمقابلة» لكثرة وقوعها فيه[19]. ويستخدم هذا العلم لاستخراج المسائل العويصة في الوصايا والمواريث والمعاملات، وسمّي بهذا الاسم لما يقع في المسائل من جبر النقصانات والاستثناءات، ومن المقابلة بالتشبيهات وإلقائها[20].

والعرب أول من ألّفوا في الجبر بصورة علمية، وهم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم، وعنهم أخذه الأوروبيون بلفظه. ويعتبر كتاب الجبر والمقابلة لمحمد بن موسى الخوارزمي أول كتاب صُنِّف فيه، وسنتكلم عليه في ما بعد.

لقد اشتغل العرب بهذا العلم وقطعوا به أشواطاً بعيدة من التقدم. فقد عرفوا معادلات الدرجة الأولى والدرجة الثانية، وهي لا تختلف عما نجده اليوم في كتب الجبر الحديثة. ولم يكونوا يجهلون أن لهذه المعادلات جذرين، واستخرجوهما إذا كانا موجودين. وتنبه الخوارزمي في كتابه الآنف الذكر إلى الحالة التي يكون فيها الجذر كمية تخيّلية، فقال: «واعلم أنك إذا نصّفت الأجذار وضربتها في مثلها، فكان يبلغ ذلك أقل من الدراهم التي مع المال، فالمسألة مستحيلة»، أي عندما تكون الكمية تحت الجذر سالبة، أي تخيلية كما تسمى بحسب التعبير الرياضي الحديث، فلا يكون هناك حد للمعادلة[21].

لقد كان كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة منهلاً نهل منه علماء العرب وأوروبا على السواء، واعتمدوا عليه في بحوثهم، وأخذوا عنه كثيراً من النظريات[22]، مما أحدث أكبر الأثر في تقدم علم الجبر في خلال هذا القرن والذي بعده. لقد رأى الخوارزمي أن الأعداد التي يحتاج إليها في حساب الجبر والمقابلة على ثلاثة ضروب هي: جذور، وأموال، وعدد مفرد لا ينسب إلى الجذور ولا إلى المال. والجذر هو ما يرمز إليه في الجبر بالرمز (س) والمال (س^{2}) والعدد المفرد هو العدد الخالي من (س)، ولا يخفى تأثير الرموز في تسهيل الرياضيات وتقدّمها[23].

وكان من نتائج التقدم الذي أحرزه علماء الرياضيات العرب أنهم توصلوا إلى حل بعض معادلات الدرجة الأولى بطريقة حساب الخطأين. ووضع الخوارزمي حلاً لمعادلة الدرجة الثانية، وقد صنّفها وعالج كل صنف منها واستعمل في حلها قاعدة الجبر والمقابلة[24]. كما حل العرب معادلات من الدرجة الثالثة، وقد أجادوا في ذلك وابتكروا ابتكارات قيّمة تثير الإعجاب. وهناك من الرياضيين المحدثين من يرى أن حل العرب المعادلات التكعيبية

---

(19) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٧٨ - ٥٧٩، وابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٩٣.

(20) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١١٦.

(21) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٣٠.

(22) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(23) المصدر نفسه.

(24) الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام، ص ١٥٩.

بوساطة قطوع المخروط من أهم الأعمال التي قام بها العرب في حقل الرياضيات[٢٥].

٣ ـ الهندسة والمثلثات

أ ـ علم الهندسة

علم الهندسة أحد فروع العلوم العددية، تُعرف به الأحوال العارضة للكم من حيث هو كم، والنظر في المقادير المتصلة كالخط والسطح والجسم، والمنفصلة كالأعداد وما يعرض لها من العوارض الذاتية، مثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان، وكل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان[٢٦]. وتُعرَّف الهندسة أنها صناعة المساحة، وقد أطلق العرب اسم المهندس على الشخص الذي يقدِّر مجاري القنوات ومواضعها حيث تُحفر[٢٧]. وعرَّف الفارابي علم الهندسة تعريفاً فلسفياً شاملاً؛ فهو يقسمه إلى هندسة عملية تنظر في خطوط وسطوح في جسم معيّن بحسب الحاجة إلى ذلك الجسم، وهندسة نظرية وتنظر في خطوط وسطوح أجسام على الاطلاق والعموم. «والقسم النظري هو الذي يدخل في جملة العلوم وهو يفحص في الخطوط وفي السطوح، وفي المجسمات على الإطلاق: عن أشكالها ومقاديرها وتساويها وتفاضلها، وعن أصناف أوضاعها وترتيبها، وعن جميع ما يلحقها من النقط والزوايا وغير ذلك... وكيف الوجه في استخراج كل ما كان سبيله منها أن يستخرج، ويعرف أسباب هذه كلها، ولِمَ هي كذلك ببراهين تعطينا العلم اليقين الذي لا يمكن أن يقع فيه الشك»[٢٨].

ويرى ابن خلدون أن الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره، لأن براهينها بيّنة الانتظام، جليلة الترتيب، فيضيق الفكر بممارستها عن الخطأ، ويتكوّن لصاحبها عقل على ذلك المَهْيع[٢٩]. وقد زعموا أنه كان مكتوباً على باب أفلاطون من لم يكن مهندساً فلا يدخلن منزلنا[٣٠]. ويمكن اعتبار علم الهندسة أهم العلوم التي اقتبسها العرب من اليونانيين الذين كانوا قد أحرزوا تقدماً كبيراً في مجالاتها المختلفة. وقد تمثّل ما خلّفوه من تراثهم الهندسي بكتاب الفيلسوف الرياضي اقليدس الذي اعتبروه أبا الهندسة اليونانية. فترجمه العرب ودرسوه دراسة جيدة واستوعبوه وألمّوا بمحتوياته. وما لبثوا أن اكتشفوا أخطاءه فأصلحوها، ونواقصه فأكملوها، وزادوا على نظرياته مسائل ونظريات تفنّنوا في حلولها، وبرهنوا على مسائل لم يبرهن عليها اقليدس.

---

(٢٥) طوقان، المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٢٦) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦٤، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ٢٠٤٦.

(٢٧) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١١٧.

(٢٨) أبو نصر محمد بن محمد الفارابي، إحصاء العلوم، تحرير عثمان محمد أمين (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣١)، ص ٣٧.

(٢٩) المَهْيع: الطريق البيّن.

(٣٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦٤.

وإقليدس من رجال الرياضيات اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد ٣٣٠ ـ ٢٧٠ ق.م وهو صاحب مبادىء الهندسة جمعها ورتّبها، وكان يعلّم بالإسكندرية[٣١]. وهو «ابن نوقطرس بن برنيقس، المظهر للهندسة المبرّز فيها، ويعرف بصاحب جومطريا. واسم كتابه في الهندسة باليونانية الأسطروشيا ـ ومعناه أصول الهندسة، حكيم قديم العهد، يوناني الجنس، شاميّ الدار، صوريّ البلد، نجار الصنعة، له اليد الطولى في علم الهندسة»[٣٢] و «كتابه المعروف بـ الأركان، وهو اسمه بين حكماء اليونان، وسماه الروم بعده الاسطقصات، وسماه الاسلاميون الأصول ـ هو كتاب جليل القدر، عظيم النفع، أصل في هذا الفن، لم يكن ليونان قبله كتاب جامع في هذا الشأن، ولا جاء بعده إلا من دار حوله وقال قوله. وقد عُني به جماعة من رياضيي يونان والروم والاسلام، فمن بين شارح له، ومشكّل عليه، ومخرج لفوائده. وما في القوم إلّا من سلّم إلى فضله وشهد بغزير نيله»[٣٣].

نقل كتاب إقليدس هذا إلى اللغة العربية في بداية حركة الترجمة أحد أشهر المشتغلين بالرياضيات هو الحجاج بن يوسف بن مطر المتوفى سنة ٢٢١ وقد نقله في عهد الخليفة هارون الرشيد فسمي النقل المذكور بـ الهاروني، ثم أعاد نقله في أيام الخليفة المأمون فسمّي هذا النقل بـ المأموني. ويظهر ان النقل الأخير أصح من الأول وأكثر دقة، لأنه صار المعوّل عليه[٣٤].

لقد اهتم علماء الرياضيات في هذا القرن بدراسة كتاب الأصول وأفادوا منه كثيراً. وقد اعتبره ابن خلدون مبدأ العلوم الهندسية على الإطلاق[٣٥]. وقد أعاد بعضهم ترجمته إلى العربية، وفسّره وشرحه عدد من العلماء المهتمين بالعلوم الرياضية. وألقى الكندي بعض الضوء على أصل الكتاب في رسالته المسماة أغراض كتاب اقليدس فقال: إن هذا الكتاب ألّفه رجل يقال له ابلينس النجار وقد صنّفه بخمس عشرة مقالة، فلما تقادم عهده أهمل، حتى تهيأ له أحد ملوك الاسكندرانيين، وكان اقليدس على عهده، فأمره بإصلاح هذا الكتاب وتفسيره، ففعل وفسر منه ثلاث عشرة مقالة، فنسب إليه[٣٦].

ثم نقل الكتاب بعد ذلك إلى العربية المترجم الطبيب إسحاق بن حنين وتولى الفيلسوف المهندس ثابت بن قرّة إصلاحه. كما نقل أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي، وهو من المترجمين المجيدين، بعض مقالات منه[٣٧]. وأعاد ثابت بن قرّة نقله وإصلاحه بحيث

---

(٣١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦)، ص ٢٧٦.

(٣٢) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ٣٨٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٦٢.

(٣٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٦٤، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٥.

(٣٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦٥.

(٣٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٦، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٣٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٠، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٦٤.

أصبح أكثر وضوحاً وأسهل منالاً، وصنف له مدخلاً، قال عنه القفطي إنه عجيب[٣٨]. وفسَّر الكتاب المهندس الفلكي سند بن علي[٣٩]. كما فسره وشرحه كل من العباس بن سعيد الجوهري أحد رجال الأرصاد في أيام المأمون، وأحمد بن عمر الكرابيسي من علماء الهندسة والأعداد[٤٠]. وشرحه أبو العباس الفضل بن حاتم النَّيريزي أحد المتقدمين في علم الهندسة والفلك[٤١]. ووضع قسطا بن لوقا البعلبكي المتحقّق بعلم العدد والهندسة كتاب شكوك اقليدس[٤٢].

ولقد ألمَّ العرب بمختلف المصطلحات الهندسية التي جاءت في كتاب اقليدس، ثم أضافوا عليها وعرَّفوها تعريفاً واضحاً، مثل البسائط والأجسام، ونهايات البسائط أي الخطوط، وقسموها إلى مستقيمة ومقوسة ومتوازية ومتلاقية. كما قسموا الزوايا إلى مسطحة ومجسمة وعددوا أنواعها. وعرَّفوا العمود والوتر والسهم، والجيب المستوي والمعكوس، وسطح البسائط المسطّحة والمقبَّبة والمقعَّرة والهلالية والبيضية، كما عرَّفوا أشكال المجسَّمات[٤٣].

وبيَّنوا كيفية إيجاد نسبة محيط الدائرة إلى قطرها. ويظهر مما جاء في كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي أن القيمة التي وردت فيها للنسبة الثابتة هي $\frac{22}{7}$ إذ يقول «وكل مدورة فإن ضربك القطر في ثلاثة وسبع هو الدور المحيط الذي يحيط بها... ولأهل الهندسة فيه قولان آخران، أحدهما أن تضرب القطر في مثاله ثم في عشر ثم تأخذ جذر ما اجتمع فما كان فهو الدور. والقول الثاني لأهل النجوم منهم وهو أن تضرب القطر في اثنين وستين ألفاً وثمانمئة واثنين وثلاثين ثم تقسم ذلك على عشرين ألفاً فما خرج فهو الدور. وكل ذلك قريب بعضه من بعضه»[٤٤].

ومن فروع الهندسة التي برز بها العرب دراسة هندسة الأشكال الكروية والمخروطات وتسطح الكرة، وكان لهم فيها مستنبطات جليلة، وبخاصة في الموضوع الأخير الذي يعتبر من الرياضيات العالية العسيرة[٤٥]. ويعني تسطيح الكرة كيفية نقل الكرة إلى سطح مستوٍ مع حفظ نسبة الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة ودقتها عندما تنقل إلى سطح مستوٍ. وكان أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني أشهر من صنَّف فيه[٤٦].

أفاد العرب من الهندسة فوائد جُلَّى في حياتهم العملية، فقد استخدموها في عمليات استنباط المياه وحفر العيون والآبار والكهاريز. وكان هناك مهندسون مختصون بهندسة وزن

---

(٣٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٩ و١١٥.
(٣٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٦.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٣٩٢ و٤٠٦، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢١٩.
(٤١) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٥، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
(٤٢) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٦٣.
(٤٣) حول تعاريفها، انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١١٨ - ١١٩.
(٤٤) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٤٧.
(٤٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٦٤.
(٤٦) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ٤٠٣.

الماء واستنباطه من الأرض[٤٧]. كما أنهم استخدموها في شؤون الري المختلفة كحفر الأنهار، وفتح القنوات، وبناء السدود. وبلغت هندسة الري في هذا القرن درجة كبيرة من التقدم، إذ تمكنوا من بناء قناطر فوق النهر ليعبر عليها نهر آخر. فقد بنوا على مجرى نهر القاطول قنطرة يجري فيها نهر الجعفري الذي حُفر ليسقي مدينة الجعفرية التي بناها المتوكل على الله شمالي سامراء. وتدل آثار هذه القنطرة على كفاية هندسية عالية، لا سيما وأن القنطرة المذكورة كانت في الوقت نفسه جسراً لعبور السابلة، حيث يسير نهر الجعفري وسط القنطرة، ويعبر الناس على ممرين على جانبيها[٤٨].

كما كانت البرك والأحواض التي تقام في المساجد والقصور تقام بأسلوب هندسي ينظّم انسياب المياه إليها، وارتفاعه بفوارات فيها إلى الأعلى، وتصريف المياه الزائدة منها إلى كهاريز تخرج من قعر البرك والأحواض وتتوحد بمجرى ينتهي إلى نهر دجلة[٤٩].

أما في الناحية المعمارية وتخطيط المدن فإن تشييد مدينة سامراء ومدينة المتوكلية وبناء مساجدهما وقصورهما الفخمة العديدة، وتنظيم شوارعهما ودور السكن فيها وساحات الرياضة والسباق، خير دليل على تقدّم هندسة البناء. ولا زال كثير من بقايا المدينتين ماثلاً للعيان شاهداً على الفن الهندسي الذي أقيمت بموجبه المدينتان. وساعد علم الهندسة الفنان العربي على ابتكار الزخارف والنقوش التي غدت سمة من سمات الفن العربي.

وسهّلت الهندسة لهم معرفة المسافات بين المواضع على سطح الأرض، وحساب الأبعاد، كارتفاع الجبال والأمكنة، وسعة الوديان، وعمق الأنهار والآبار. وقد ابتكروا طرقاً متقدمة لذلك كانت متقدمة على ما يعرفه قدماء اليونان، وصنفوا كتباً في هذا الموضوع سواء لصنع الأجهزة والآلات، أو لبيان طريقة القياس. وقد سمّاها ابن النديم «الأبعاديات». ولا ينكر أن مهارة العرب في علم الفيزياء والميكانيك (الحيل) يعود قسم كبير منه إلى تقدمهم في علم الهندسة. كما أن القوانين الهندسية ساعدتهم كثيراً في حل بعض المسائل الجبرية، فقد ابتكر ثابت بن قرّة حلولاً هندسية لبعض المعادلات التكعيبية، وله مقالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية[٥٠]. كما وضع الكندي عدداً من الرسائل يعالج فيها مسائل حسابية وفلكية بالهندسة، منها رسالة في استخراج خط نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة، ورسالة في استخراج الساعات على نصف الكرة بالهندسة[٥١].

---

(٤٧) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، البلدان (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢)، ص ٣١٤.

(٤٨) أحمد سوسة، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٩)، ج ٢، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٥٠) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٩.

(٥١) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٢٩٠.

ب ـ علم المثلثات

هو أحد فروع العلوم الرياضية، يعود اختراعه إلى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وقد اخترعه الفلكي الرياضي اليوناني إبراخس، المولود في حدود سنة ١٦٠ ق.م. ويقال إنه أستاذ بطلميوس[٥٢]. وكان أحد المشتغلين بالرّصد، وهو علم عملي حدث اختراعه بحكم ضرورته للأبحاث الفلكية[٥٣]. ويقوم على دراسة خاصية المثلث الذي لا تشاركه فيه الأشكال الأخرى المحاطة بمستقيمات، وهي التي تجعل من المثلث شكلاً أساسياً في نظرية التشابه. ولذلك يُعدّ التثليث (أي تنظيم تشكيلة من المثلثات) عملية أساسية في مسح الأراضي. ومن هذه العملية اشتق اسم علم المثلثات[٥٤].

وبالنظر لما أدخله علماء العرب من التعديلات والإضافات على هذا العلم اعتبر من تراثهم في الرياضيات. إذ لولاهم لما كان هذا العلم على ما هو عليه اليوم. ويرجع الفضل إلى علماء الرياضيات العرب الذين برزوا في القرن الثالث في وضعه بشكل مستقل عن علم الفلك، مما جعل الكثيرين يعتبرونه علماً عربياً، كما اعتبروا الهندسة علماً يونانياً، إذ كانت معلومات اليونان في هذا الموضوع ضئيلة يسيرة، لا تتعدى بعض المعلومات الأولية عن الزوايا وقياس جيبها لتساعدهم في علم الفلك، بينما استعمل الرياضيون العرب «الجيب» بدلاً من وتر ضعف القوس، ولهذا أهمية كبيرة في تسهيل حلول المسائل الرياضية[٥٥].

لقد نظّم العرب هذه المعلومات ووسّعوها فاشتغلوا بالمثلثات المستوية والمثلثات الكروية وتوصلوا إلى نتائج جديدة مهمة، وحلّوا مسائل على المثلثات الكروية القائمة الزاوية والمائلة الزاوية. وعرفوا جيب التمام، أي قياس الزاوية المفروضة بالضلع المجاور لها مقسوماً على الوتر في المثلث القائم الزاوية، واستعملوا المماسّات التي سموها الظل والظل تمام، والقواطع ونظائرها، في قياس الزوايا، ونظّموا لذلك جداول مهّدت لاكتشاف اللوغاريتمات. كما انهم ابتكروا حساب الأقواس التي تسهل قوانين التقويم وتغني عن استخراج الجذور التربيعية. كما أنهم أثبتوا أن نسبة جيوب الأضلاع بعضها إلى بعض هو كنسبة جيوب الزوايا المؤثرة بتلك الأضلاع بعضها إلى بعض في أي مثلث كروي.

وقد كان لثابت بن قرّة والبتّاني تأثير مهم في تثبيت مبادىء هذا العلم وأسسه بما أدخلاه من تحسين وإصلاح على حساب أوتار الدائرة وأوتار المثلث، وما أوجداه من علاقات بين النسب المثلثية، بحيث مهّدا لنشوء حساب التفاضل والتكامل.

---

(٥٢) ابو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (طهران: مكتبة الأسدي، ١٩٧١)، ص ٣٢٧.

(٥٣) الفرد نورث وايتهيد، مقدمة للرياضيات، ترجمة محيي الدين يوسف (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٢)، ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٥٥) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٥١.

٤ ـ أشهر المشتغلين بالعلوم الرياضية

استهوت العلوم الرياضية بفروعها المختلفة عدداً كبيراً من العلماء والفلاسفة، فاهتموا بدراستها، لحاجتهم إليها في حياتهم العلمية والعملية ولأنها من ضرورات الفلسفة، فتقدموا خطوات مهمة بها في هذا القرن. إلا أن مما يؤسف له أن مصادرنا التراثية لم تحفل إلا بعدد قليل منهم، وأن ما تذكره عنهم لا يشفي الغليل، لأنه لا يتضمن ما يوضح جهودهم أو انجازاتهم إلا اليسير. وسنحاول أن نستخلص من المصادر المذكورة وغيرها بعض ما يوضح جهودهم وانجازاتهم ومدى أهميتهم وما صنفوه من الكتب والرسائل في المواضيع الرياضية، ومدى تأثير ذلك في تقدم هذه العلوم.

أ ـ الحجاج بن يوسف

ابن مطر الكوفي، من طلائع رياضيي القرن الثالث وأقدمهم عهداً. وكان أهم عمل قام به في حقل العلوم الرياضية أنه نقل إلى اللغة العربية كتاب **الأصول** في الهندسة لإقليدس. وقد نقله مرتين، النقل الأول في عهد الخليفة هارون الرشيد وعرف بـ الهاروني، والثاني نقله أيام الخليفة المأمون وعرف بـ المأموني، وعليه عوَّل أكثر العلماء[٥٦].

ب ـ الخوارزمي

أبو عبد الله محمد بن موسى، ولد في بلاد خوارزم فنسب إليها، وكان يلقّب بالبغدادي أيضاً لأنه قدم بغداد في زمن المأمون وعاش بها بقية حياته في رعاية الخليفة، وظهرت مواهبه في علوم الهيئة وعلوم الرياضيات[٥٧]. ولفت الخوارزمي نظر المأمون بما أظهره من كفاية في علوم الفلك والرياضيات فأسند إليه خزانة بيت الحكمة. وكان من أول أعماله التي اشتهر بها أنه اختصر كتاب السند هند الكبير الذي وضعه ابراهيم بن حبيب الفزاري في أيام الخليفة أبي جعفر المنصور، وعمل منه زيجه المعروف باسمه. وسنتكلم عليه في الفصل الخاص بعلم الفلك[٥٨].

على أن أهم إنجازات الخوارزمي إنما كانت في حقل العلوم الرياضية وبخاصة في علمي الحساب والجبر ـ إذ يرجَّح أنه هو الذي اقتبس نظامين من الأرقام الهندية أحدهما يعرف بالأرقام الغبارية والآخر بالأرقام الهندية. واستخدمها في مؤلفاته وبيّن فوائدها

---

(٥٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، طبعة القاهرة، ص ٣٨٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٦٤.

(٥٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٧، واسماعيل بن محمد أمين البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ٢ ج (استانبول: وكالة المعارف العامة، ١٩٥٤)، ج ٢، ص ٩.

(٥٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

ومزاياها[59]. ووضع كتاباً في الحساب يعتبر الأول من نوعه من حيث محتواه وترتيبه. وقد نقله ادلارد الباثي إلى اللاتينية بعنوان الغورتمي، أي الخوارزمي، وهو أول كتاب عربي دخل أوروبا وبقي زمناً طويلاً مرجع العلوم والتجار والمحاسبين، والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم وأعمالهم الحسابية[60].

كما صنّف الخوارزمي كتاباً في الجبر كان له تأثير كبير في تقدم العلوم الرياضية، هو كتاب الجبر والمقابلة[61]. وقد اعتمد عليه علماء العرب في دراساتهم عن الجبر. ويعتبر الخوارزمي أول من استخدم اصطلاح علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب وفي قالب منطقي، وأول من ألّف فيه بصورة علمية منظمة[62]. وقد صنّفه في أيام المأمون وبتشجيع منه. يقول الخوارزمي «وقد شجعنا ما فضّل الله به الإمام المأمون أمير المؤمنين مع الخلافة التي حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلّاه بزينتها من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهماً وتسهيل ما كان مستوعراً، على أن ألّفت من كتاب الجبر والمقابلة كتاباً مختصراً حاصراً للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكَرْي الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه . . .»[63].

وقد عالج المؤلف في كتابه هذا المعادلات من الدرجة الثانية، وبحث في عمليتي الضرب والقسمة الجبريتين، ثم تعرّض لمعالجة المسائل المتعلقة بمساحات السطوح وغيرها، وما يتعلق بتقسيم التركات، وغيرها من المسائل القانونية التي هي في الغالب معادلات جبرية من الدرجة الأولى، وإن كانت تبدو لأول وهلة شديدة التعقيد، وكلها معروضة بأمثلة رقمية. وقد تضمّن كتاب تراث العرب العلمي في الرياضيات خلاصة لعدد من بحوث الكتاب[64].

ويظهر أن للخوارزمي من الكتب الرياضية، إضافة إلى ما ذكرنا، كتاباً في الطريقة الهندسية للحساب، وكتاباً آخر في الجبر. وكان قد ترجمها إلى اللغة اللاتينية جيرارد القرموني، وهما معروفان بهذه الترجمة فقط[65]. وقد جمع في الأول بين الحساب والهندسة

---

(59) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (بغداد: مطبعة الحوادث، 1972)، ص 231، وطوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 22.

(60) طوقان، المصدر نفسه، ص 86.

(61) البغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج 2، ص 9.

(62) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 263، وحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 1، ص 579.

(63) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص 81.

(64) المصدر نفسه، ص 30 - 32.

(65) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص 570.

والموسيقى والفلك، وهو يمثّل خلاصة دراساته لا ابتكاراته، كما يقول سارتون في مقدمته في تاريخ العلم(٦٦).

ج - أبناء موسى بن شاكر

كان لأبناء موسى، محمد وأحمد والحسن، جهود كبيرة في حقل العلوم الرياضية. فقد انتقدوا وصحّحوا كتاب المخروطات لأبلونيوس، الكتاب الذي يمثّل أعلى مراتب الرياضيات التي وصل إليها علماء اليونان. وحاولوا ايجاد طريقة لاحتساب نسبة قطر الدائرة إلى محيطها أدق مما سبق أن قام به أرخميدس، ووضعوا طريقة خاصة لتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية بحساب الجذر التكعيبي، كما وضعوا كتاباً في مساحة الأكر(٦٧).

واشتهر الإخوة الثلاثة وبخاصة أصغرهم في تقدمهم بعلم الهندسة ولهم فيها مؤلفات. فقد صنّف كبيرهم محمد كتاب الشكل الهندسي الذي بيّن جالينوس أمره، وصنّف أوسطهم أحمد كتاباً بيّن فيه بطريق تعليمي ومذهب هندسي أنه ليس في خارج كرة الكواكب الثانية كرة تاسعة(٦٨). وكان أصغرهم الحسن منفرداً في هذا الفرع من الرياضيات، «وله طبع عجيب فيها لا يدانيه أحد، وعلم كل ما علم بطبعه ولم يقرأ من كتب الهندسة إلا ست مقالات من كتاب إقليدس في الأصول، ولكن ذكره كان عجيباً وتخيُّله كان قوياً حتى حدّث نفسه باستخراج مسائل لم يستخرجها أحد من الأولين، كقسمة الزاوية بثلاثة أقسام متساوية، وطرح خطين بين خطين ذوي نوال على نسبة، فكان يحلّها ويردّها إلى المسائل الأخر»(٦٩). وله مناظرة في مجلس المأمون مع أحد العلماء الرياضيين ممن درسوا كتاب اقليدس والمجسطي، تفوّق فيها على مناظره وأعجزه، رغم أنه لم يقرأ من الكتابين المذكورين سوى ما ذكرناه. فأعجب به الخليفة، إلا أنه طلب إليه أن يقرأ كتاب إقليدس(٧٠).

د - سند بن علي

كان سند يُعنى بالعلوم الرياضية إلى جانب عمله في الأرصاد، وله فيها تصانيف عديدة منها: كتاب الحساب الهندي، وكتاب الجمع والتفريق، وكتاب الجبر والمقابلة(٧١). وقد سبق أن أشرنا إلى أنه فسّر تسع مقالات من كتاب الأصول في الهندسة لإقليدس. ويقول القفطي عنه إن له في النجوم والحساب مصنفات مشهورة، دون أن يذكر شيئاً منها(٧٢).

---

(٦٦) طوقان، المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٦٧) فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية الاسلامية (فرانكفورت: [د. ن.]، ١٩٨٤)، ص ٧٠ - ٧١.

(٦٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٣، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣١٦.

(٦٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ٤٤٢.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٤٤٣.

(٧١) ابن النديم، المصدر نفسه، طبعة طهران، ص ٣٩٨.

(٧٢) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

هـ ـ الفرغاني

أحمد بن محمد بن كثير، ولد بفرغانة فنُسب إليها، وعاش ببغداد في كنف الخليفة المأمون، وهو أحد كبار علماء الفلك وأحكام النجوم، كما كان مهندساً بارعاً. أرسله المتوكل على الله من العراق في سنة ٢٤٧ إلى مصر ليتولّى بناء مقياس النيل بأرض الجزيرة، وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، فأشرف عليه وأنجز بناءه وكتب اسمه عليه، وكانت النفقة عليه كبيرة(٧٣).

ولما كلّف الخليفة المذكور ابني موسى بن شاكر بحفر نهر الجعفري الذي قرّر حفره ليوصل المياه إلى مدينة المتوكلية التي بناها شمالي سامراء، كلّفا ابن كثير الفرغاني أن ينفّذ العمل، فنهض به وأنجز حفر النهر. إلا أن الماء لم يجرِ فيه بصورة مستديمة جديدة، ويقال إن ذلك نشأ عن خطأ في حساب ارتفاع صدر النهر عن مستوى الماء في دجلة. وكنا قد ذكرنا ذلك عند الكلام على الفيلسوف الكندي.

يمكن اعتبار الرياضيين الذين ذكرناهم وهم ممن استعان بهم المأمون في ترجمة الكتب الرياضية أو عملوا في عهده في حقل هذه العلوم، طليعة العلماء المشتغلين بالعلوم المذكورة. ثم تلت أولئك طبقة أخرى من العلماء والفلاسفة الذين كان جزء من نشاطهم العلمي والفلسفي يتمثل بالاهتمام بالعلوم الرياضية، ومن أشهرهم: الفيلسوف الكندي، والعالم المهندس ثابت بن قرّة، والفلكي البارع البتّاني، والفيلسوف المترجم قسطا بن لوقا، والحاسب سنان بن الفتح الحرّاني، والفضل الحاسب، والكرابيسي.

و ـ يعقوب بن اسحاق الكندي

اهتم الكندي الفيلسوف بالعلوم الرياضية واعتبرها ضرورية للفيلسوف، أي أنها لا بد منها لمختلف نواحي المعرفة. وتنص احدى رسائله على أنه لا تُنال الفلسفة إلا بعلم الرياضيات(٧٤). وقد وضع عدداً من المصنفات الرياضية الجليلة الأهمية، جعلت العالم الايطالي كاردانو يعده واحداً من اثني عشر عبقرياً من أهل الطراز الأول في الذكاء(٧٥). استخدم الكندي الرياضيات في اللحون الموسيقية، وفي تركيب الأدوية، وفي البرهنة على بعض مقولاته الفلسفية، مما سبق أن أشرنا إليه في فصول أخرى.

وكانت للكندي آراء ونظريات في الهندسة بمختلف فروعها وبخاصة في ما يتعلق بشؤون الري، حيث كان يُرجع إلى مؤلفاته الهندسية عند القيام بشق الأنهر وتوزيع المياه.

---

(٧٣) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ٢، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٧٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٩.

(٧٥) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٩٢.

وقد أشرنا إلى محاولة ابني موسى بن شاكر الاستفادة من كتبه الهندسية في حفر قناة الجعفري فأغضبا عليه الخليفة واحتويا مكتبته. وقد صنّف الكندي في العلوم الرياضية عدداً كبيراً من الكتب والرسائل، قسّمها ابن النديم إلى: الحسابيات، والكريات، والهندسيات، والأبعاديات، ونهج القفطي نهجه في ذلك. من كتبه الحسابية: رسالة في المدخل إلى الأرثماطيقي، ورسالة في استعمال الحساب الهندي، ورسالة في تأليف الأعداد، ورسالة في الكمية المضافة. وكان له اهتمام خاص بمدلولات الأعداد وما تحمله من معاني خاصة، فوضع بعض الكتب عنها مثل كتاب في الزجر والفأل من جهة العدد، وكتاب في الحيل العددية وعلم أضمارها، وكتاب رسالة في التوحيد من جهة العدد.

ومن كتبه في الكريات، كتاب في أن الكرة أعظم الأشكال الجرمية، والدائرة أعظم من جميع الأشكال البسيطة، ورسالة في تسطيح الكرة، ورسالة في عمل السمت على كرة.

ومن كتبه الهندسية، رسالة في أغراض كتاب اقليدس، ورسالة في اصلاح كتاب اقليدس، وكتاب في تقريب وتر الدائرة، وكتاب في كيفية عمل دائرة مساوية لسطح اسطوانة مفروضة، وكتاب قسمة الدائرة ثلاثة أقسام.

أما كتبه في الأبعاديات فمنها، كتاب رسالة في عمل آلة يعرف بها بُعد المعاينات، وكتاب رسالة في معرفة أبعاد قلل الجبال[٧٦].

ز ـ ثابت بن قرّة

كان أبو الحسن ثابت بن قرّة من أولئك العباقرة الذين تعدّدت مواهبهم. فنبغ في الفلسفة والرياضيات والفلك والطب، ووضع في هذه المواضيع مصنفات جليلة عديدة. وكان قد تمرّس في الرياضيات وبخاصة في الهندسة وفي الفلك فقطع فيهما شوطاً مهماً وأضاف إليهما من بحوثه وابتكاراته بحيث يعتبر من مؤسسي علم المثلثات، وأول من مهّد لحساب التفاضل والتكامل. واشتغل في موضوع الهندسة التحليلية وأجاد فيها إجادة عظيمة، وله فيها ابتكارات لم يُسبق إليها[٧٧]. وقد اعتبره المستشرق الفرنسي البارون كارا دي فو أعظم هندسي عربي على الإطلاق[٧٨].

وقد تعددت كتب ثابت بن قرّة في الرياضيات بمختلف فروعها. وقد ذكرنا جهوده في اصلاح ترجمة كتاب الأصول لإقليدس، وأنه وضع له مدخلاً. وجاء في كشف الظنون أنه

---

(٧٦) حول كتاب الكندي في الرياضيات، انظر: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٤ ـ ١٣٧٨ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٥، وابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٧٧) طوقان، المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٧٨) ارنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٥٧٧.

أصلح كتاب الكرة والأسطوانة لأرخميدس المصري، والمقالة الأولى من كتاب نسبة الجذور[79].

ومن مصنفاته الأخرى في الرياضيات: كتاب الأرثماطيقي في الأعداد، والجبر والمقابلة[80]، وكتاب في أن الخطين المستقيمين إذا خرجا على أقل من زاويتين قائمتين التقيا في جهة خروجهما، وكتاب في عمل شكل مجسم ذي أربع عشرة قاعدة تحيط به كرة معلومة[81]، وجوامع عملها لكتاب نيقوماخس في الأرثماطيقي، وكتاب في قطع المخروط المكافىء، وكتاب في مساحة الأجسام المتكافئة، ومقالة في الهندسة[82]، ومقالة في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية، وكتاب اصلاح المقالة الأولى من كتاب ابلونيوس في النسبة المحددة وقد أصلحها وشرحها[83]، وكتاب في ظلال المزولة في أشكال طرق الخطوط التي يمر عليها ظل المقياس وهو أقدم ما عرف في الموضوع[84]، ورسالة في كيف ينبغي أن يُسلك إلى نيل المطلوب من المعاني الهندسية، ذكر فيها بعض الظواهر التي لاحظها في الجو والهواء[85].

ح ـ البتّاني

محمد بن جابر بن سنان الحرّاني، من اشهر الفلكيين الرياضيين في هذا القرن. وقد أشرنا إلى انجازاته في علم الفلك وأحكام النجوم. أما أعماله في ميدان الرياضيات فلم تكن أقلّ اهمية مما أنجزه في عالم الأفلاك. فقد كان أول من استعمل الجيب بدل الوتر الذي استعمله بطلميوس في حساباته الفلكية، والظلّ وظل التمام. واكتشف بعض المعادلات المهمة في المثلثات الكرية، إذ يُعتبر مبدع علم النسب المثلثية، وقد وضع عدداً من المعادلات القائمة على تلك النسب. وأعدّ جداول مهمة في المثلثات في ظلال تمام الزوايا لكل درجة، كما وضع قاعدة لإيجاد جيب تمام المثلث الكروي. وبذلك ساهم في وضع علم المثلثات واستقلاله عن علم الفلك[86].

ط ـ قسطا بن لوقا البعلبكي

كان مترجماً مجيداً، وقد برع في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد،

---

(79) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ٢، ص ٢٩٦ و٣٠٤.
(80) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٤.
(81) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٦.
(82) المصدر نفسه، ص ١١٧.
(83) المصدر نفسه، ص ١١٨.
(84) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٥٧٨.
(85) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٩.
(86) علم الفلك عند العرب، ، ص ١٢٥؛ ارنولد [وآخرون]، المصدر نفسه، ص ٥٨٠، وباقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٢٤٤.

وتميّز بفصاحته في اللغتين العربية واليونانية(٨٧). وله مصنفات ومترجمات في هذه العلوم. أما مصنفاته في الرياضيات فقد ذكر له ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة عدداً منها هي: كتاب المدخل إلى علم الهندسة على طريق المساءلة والجواب، وكتاب في شكوك كتاب إقليدس، وكتاب استخراج المسائل العددية من المقالة الثالثة من كتاب إقليدس، وكتاب حساب التلاقي على جهة الجبر والمقابلة، كما أنه فسر ثلاث مقالات ونصف المقالة من كتاب برقطوس في المسائل العددية(٨٨).

ي ـ سنان بن الفتح الحرَّاني

من العلماء الرياضيين الذين اشتهروا في أوائل هذا القرن، وقد اشتغل في الرياضيات وبرز فيها وبخاصة في الحساب والجبر. قال عنه ابن النديم إنه كان مقدّماً في صناعة الحساب والأعداد وله فيها تصانيف مشهورة، منها: كتاب التحت في الحساب الهندي، وكتاب الجمع والتفريق، وكتاب حساب المكعبات، وكتاب الوصايا، وكتاب شرح الجبر والمقابلة للخوارزمي(٨٩). وقد شرح سنان في كتابه الجمع والتفريق الطريقة التي يمكن بواسطتها إجراء الأعمال الحسابية بالضرب والقسمة بوساطة الجمع والطرح بدلاً عنهما، وشرح الأصول الموجودة في هذا الكتاب بكتابه عن المكعبات المذكور(٩٠).

ك ـ الفضل الحاسب

الفضل بن محمد بن عبد الحميد بن واسع، ولد ببغداد، وبها توفي سنة ٢٩٨(٩١). كان من العلماء بالحساب متقدماً فيه، وله من الكتب الرياضية: كتاب المعاملات، وكتاب المساحة(٩٢). ويحتوي الكتاب الأول على مسائل حسابية مختلفة مع حلولها، وبعضها نادر معروف بأهميته عند علماء الرياضيات، ويبحث الكتاب الثاني في مساحة الأشكال الهندسية المختلفة(٩٣).

---

(٨٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٤، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٢.

(٨٨) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٢٥؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٦٣، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٣٠.

(٨٩) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٠٦.

(٩٠) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٩٤.

(٩١) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ ج (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.])، ج ١٢، ص ٣٧٣.

(٩٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٥٤.

(٩٣) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٠٨.

ل ـ الكرابيسي

أحمد بن عمر، ونسبته إلى صنع الكرابيس وهي ثياب من القطن الأبيض[٩٤]. كان من المهندسين البارزين وعلماء الأعداد وله تقدّم فيهما، وله من الكتب: تفسير كتاب إقليدس وشرحه، وكتاب الدور، وكتاب الوصايا، وكتاب مساحة الحلقة، وكتاب الحساب الهندي[٩٥].

وممن صنّف في العلوم الرياضية من علماء هذا القرن وفلاسفته، أبو بكر الرازي أعظم أطباء عصره، فقد ذكر ابن النديم في قائمة كتبه كتاب الرد على من استقل بفصول الهندسة[٩٦]، ورسالة في قطر المربع، ورسالة في أنه لا يتصوّر لمن لا رياضة له بالبرهان أن الأرض كرية[٩٧].

والفيلسوف أحمد بن الطيّب، إذ ذكر له ابن النديم كتاب الأرثماطيقي في الأعداد والجبر والمقابلة[٩٨].

وأبو حنيفة الدينوري الذي صنّف في كل فن وعلم تقريباً. ومن تصانيفه في العلوم الرياضية: كتاب الجبر والمقابلة، وكتاب التحت في حساب الهند، وكتاب الجمع والتفريق[٩٩].

والمنجم الخبير بالأرصاد وحساب الفلك العباس بن سعيد الجوهري، وكان الغالب عليه الهندسة، وقد صنّف فيها: كتاب تفسير كتاب اقليدس، وكتاب الأشكال التي زادها في المقالة الأولى من إقليدس[١٠٠].

ثانياً: علم النجوم

مقدمة في مفهوم علم الفلك وعلم التنجيم

قبل الخوض في أبحاث علمي الفلك والتنجيم، نرى أن نحدد مفهوم كل منهما عند العرب إبان نهضتهم العلمية. هناك اصطلاحات عدة متداخلة المعنى، هي: علم النجوم،

(٩٤) الطاهر أحمد الزاوي، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، ٤ ج (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٩)، ج ٤، ص ٢٨.

(٩٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٦، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٧٩.

(٩٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٣٠.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٣٩٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢١٩.

وعلم الهيئة، وعلم أحكام النجوم، وعلم صناعة النجوم، وعلم التنجيم، وصناعة التنجيم، تستعمل أحياناً للدلالة على ما نسميه اليوم علم الفلك، وأحياناً للدلالة على التنجيم. فقد عرّف البتّاني «علم صناعة النجوم» «أنه العلم الذي تعرف به مدة السنين والشهور، والمواقيت، وفصول الأزمان، وزيادة النهار والليل ونقصانها، ومواضيع النيرين، وكسوفهما، وسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدّل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها»[101]. ويظهر من هذا أن البتاني يعني بعلم صناعة النجوم ما ندعوه علم الفلك، وقد حدّد بتعريفه هذا المواضيع التي يتناولها هذا العلم.

ويقول الفارابي عن «علم النجوم» إنه اسم يطلق على عِلمين: أحدهما علم دلالات الكواكب على ما سيحدث في المستقبل وعلى كثير مما هو موجود الآن وعلى كثير مما تقدم، والآخر العلم التعليمي، وهو الذي يعدّ من العلوم أوفى التعاليم، ويبحث فيه عن الأجسام السماوية من حيث أشكالها ومقادير اجرامها ونسب بعضها إلى بعض، ومقادير أبعاد بعضها عن بعض وحركاتها. أما الأول فإنما يعدّ في القوى والمهن التي بها يقدر الانسان على الإنذار بما سيكون مثل عبارة الرؤيا والزجر والعرافة وأشباه هذه القوى[102]. ويلاحظ أنه استخدم علم النجوم للدلالة على ما يدعى علم الفلك، وعلى ما يدعى علم أحكام النجوم.

وصناعة التنجيم كما يقول المسعودي: هي جزء من أجزاء الرياضيات وتنقسم إلى قسمين: أحدهما العلم بهيئة الأفلاك وتراكيبها وتأليفها، والآخر العلم بما يتأثر عن الفلك وما يوجب من الأحكام، وهو ليس بمستغنٍ عن العلم الأول الذي هو علم الهيئة، لأن التأثيرات تقع بالحركات والتبدّل. فإذا ما وقع الجهل بهذه الحركات وقع الجهل بتأثيراتها[103]. فهو يطلق اسم «علم الهيئة» على حركات الكواكب والأفلاك، و «الأحكام» على تأثيرها.

ويتفق الخوارزمي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٧٣ مع المسعودي فيطلق اسم علم الهيئة على معرفة تركيب الأفلاك وهيئة الأرض[104].

ويتضح مما جاء في الرسالة الثالثة من رسائل اخوان الصفاء وخلّان الوفاء أنهم أطلقوا «علم النجوم» على كل ما يتصل بحركات الكواكب وتركيب الأفلاك والاستدلال منها على ما سيكون وعلى معرفة حلّ الزيجات، وقسموه إلى «علم الهيئة» وهو معرفة الأفلاك وكمية الكواكب وأقسام البروج وحركاتها، و «علم الأحكام» وهو كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج وحركات الكواكب على الكائنات قبل كونها، ومعرفة حلّ الزيجات، أي عمل التقاويم واستخراج التواريخ[105]. أي أنهم أخذوا بما قاله المسعودي.

---

(١٠١) أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني، الزيج الصابيء، اعتنى بطبعه وتصحيحه وترجمه إلى اللغة اللاتينية كارلو نالينو (رومية: مطبعة رومية، ١٨٩٩)، ص ٦.

(١٠٢) الفارابي، إحصاء العلوم، ص ٤٣ ـ ٤٥.

(١٠٣) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والإشراف، عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي (القاهرة: مكتبة الشرق الاسلامية، ١٩٣٨)، ص ١٢.

(١٠٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٢٥.

(١٠٥) رسائل إخوان الصفاء (بيروت: دار صادر، ١٩٥٧)، ج ١، ص ١١٤.

ويشبه هذا ما قاله ابن خلدون من أن علم صناعة النجوم هو صناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات قبل حدوثها من قِبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها باعتبار أن أوضاع الأفلاك والكواكب تدلّ على ما سيحدث من الكائنات الكلية والشخصية[106]. وعرّف علم الهيئة بأنه علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة ويستدل بكيفيات تلك الحركات على أشكال الأفلاك وأوضاعها[107].

وقد نهج الفلكيون العرب في هذا الموضوع نهج بطلميوس في تقسيمه علم النجوم إلى قسمين: قسم يدرك به الأشكال الحادثة للأجرام السماوية بسبب حركتها بالنسبة إلى بعضها البعض أو إلى الأرض، وقسم يبحث في التغييرات والأفعال التي تحدث على الأرض بسبب الخواصّ الطبيعية لتلك الأشكال. والقسم الأول هو ما اصطلحوا على تسميته «علم الهيئة» وهو علم قائم بذاته لا علاقة له بالقسم الثاني الذي سمّوه «أحكام النجوم» وهو متعلق بالأول ويستمد منه أحكامه[108].

يمكننا أن نستخلص مما تقدم أن لعلم النجوم جانبين، أحدهما **علمي** يتناول دراسة حركة الأجرام السماوية وما يتصل بها، وهو ما يسمى عادة **علم الهيئة** أو **علم الفلك**، والآخر **توهمي** يقوم على استنتاج بعض المدلولات من تلك الحركات وقد عرف بـ**علم أحكام النجوم** أو **علم التنجيم**. وإن الاصطلاحات التي ذكرناها في صدر هذه المقدمة كانت تطلق آنذاك على العلمين، وإن لفظي المنجِّم والفلكي كان يراد بهما من يشتغل بالعلمين المذكورين أو بأحدهما، وإذا ما أريد بهما المشتغلون بعلم أحكام النجوم قيل الأحكاميون أو أصحاب أحكام النجوم. إلا أن علم الهيئة اختص بدراسة الفلك وحركات الأجرام السماوية ولم يطلق على علم أحكام النجوم. وسوف نلتزم في بحثنا هذا بالمفاهيم المذكورة فنعني بعلم الهيئة «علم الفلك» وبعلم أحكام النجوم «علم التنجيم» وسنفرد فصلاً خاصاً بكل منهما.

١ ـ العرب وعلم الفلك

يعتبر علم الفلك من أقدم العلوم التي عرفها العرب، إذ كانت أسسه الأولى قد وُضعت في بلاد الرافدين منذ عهد البابليين، واقتبسته عنهم شعوب أخرى كالهنود والفرس واليونان. وكان العرب قبل الإسلام يعنون بمواقع النجوم ولديهم معلومات واسعة عنها وأغلبها صحيح يتّفق وما توصل إليه علم الفلك الحديث. فكانوا يعرفون الأبراج ومنازل القمر وتغيّرها تبعاً لفصول السنة، والكواكب السيارة المعروفة آنذاك، ومواقع عدد كبير من النجوم، وقد أشرنا إلى ذلك في موضوع الأنواء في باب علم الجغرافيا. ولا يخفى أنهم كانوا يعرفون ذلك على حسب ما أدركوه بفرط العناية والملاحظة وطول التجربة بدافع الحاجة إليها

---

(١٠٦) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٩٩.
(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٢٦٥.
(١٠٨) علم الفلك عند العرب، ، ص ٢٩ ـ ٣٠.

لأسباب تتعلق ببيئتهم وطريقة معيشتهم. إلا إذا افترضنا أن تلك المعارف إنما هي بقايا حضارة عريقة قامت في الجزيرة العربية في عصور سحيقة. وهو ما نميل إليه.

أما بعد الاسلام فقد ازداد اهتمام العرب بعلم الفلك، إذ تطلبت بعض الواجبات الدينية مزيداً من المعلومات الفلكية. فإن تعيين أوقات الصلوات الخمس واختلافها بين بلد وآخر، واختلافها في البلد الواحد باختلاف المواسم والفصول، يستلزم معرفة موقع البلد الجغرافي من حيث الطول والعرض، وموقع الشمس في فلكها. كما أن معرفة اتجاه القبلة يتطلب معرفة موقع البلد بالنسبة إلى الكعبة المشرّفة ومعرفة سمت القبلة. وكذلك فإن بداية الصيام في شهر رمضان ونهايته تحتّمان مراقبة الهلال للتأكد من رؤيته في الحالتين. يضاف إلى ذلك اهتمام الخلفاء أنفسهم بالأمور الفلكية ولا سيما ما يتصل منها بالتنجيم، وسنوضّح ذلك في فصل قادم، فشجّعوا على دراسته وأسسوا المراصد لتساعد على ذلك. كما لا يخفى أن عدداً من آيات القرآن الكريم تدعو إلى التأمل في القوانين التي تحكم سير الأجرام السماوية وحركاتها ودلالتها على وجود الخالق عز وجل وعظمة ابداعه وجليل قدرته.

لقد اعتبر البتّاني علم النجوم من أشرف العلوم، إذ قال في مقدمة زيجه «إن من أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأحسنها حلية وأعلقها بالقلوب وألمها بالنفوس وأشدها تحديداً للفكر والنظر وتذكية للفهم ورياضة للعقل بعد العلم بما لا يسع الانسان جهله من شرائع الدين وسننه علم صناعة النجوم، لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان الخ...»[109].

ولهذا استطاع العلماء العرب أن يتفهّموا كتاب السدهانت الهندي الذي تُرجم إلى اللغة العربية في منتصف القرن الثاني، فزادا اهتمامهم بعلم الفلك واتسعت معارفهم فيه بحيث انهم استطاعوا أن يترجموا أمهات الكتب فيه، في أواخر القرن المذكور وفي خلال القرن الثالث. فترجموا كتاب المجسطي لبطلميوس، واستوعبوا ما فيه من نظريات وحسابات، بل إنهم استطاعوا في أواخر القرن الثالث أن يصلحوا ما فيه من أخطاء حسابية وفلكية.

أ ـ ترجمة المجسطي وأثره

يعتبر كتاب المجسطي أهم ما نقل من التراث اليوناني إلى اللغة العربية، ومن أكثر الكتب التي ساعدت على تقدم علم الفلك عند العرب. وضعه بطلميوس الذي انتهى إليه «علم حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك، وعنده اجتمع ما كان متفرقاً من هذه الصناعة بأيدي اليونانيين والروم وغيرهم من ساكني أهل الشق الغربي من الأرض وبه انتظم شتيتها وتجلّى غامضها وما أعلم أحداً بعده تعرّض لتأليف مثل كتابه المعروف بـ المجسطي ولا تعاطى معارضته»[110]. ويبحث كتاب المجسطي في

---

(١٠٩) البتّاني، الزيج الصابىء، ص ٦.

(١١٠) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٩٦.

علم النجوم والحركات، وتفسير المجسطي (الكتاب الأكبر)[111]. وقد نُقل المجسطي إلى اللغة العربية أكثر من مرة، وأصلحه عدد من العلماء والفلاسفة، وشرحه آخرون. ويتألف الكتاب من ثلاث عشرة مقالة[112]. **الأولى**، في المقدمات مثل البرهان على كروية السماء والأرض، وعلى ثبوت الأرض في مركز العالم، ثم ميل البروج، ومطالع درج البروج في الفلك المستقيم. **والثانية**، في البحث في ما يختلف باختلاف عروض البلدان، مثل طول النهار وارتفاع القطب، والمطالع في الأقاليم والزوايا الناشئة عن تقطع دائرتين من دوائر الأفق ونصف النهار، ومعدل النهار وفلك البروج وغيرها. **والثالثة**، في تعيين أوقات نزول الشمس في نقطتي الاعتدال ونقطتي الانقلاب، ثم في مقدار السنة الشمسية وحركتي الشمس المعتدلة والمختلفة، والطريقة الهندسية لبيان اختلاف الحركة بفلك المركز أو بفلك التدوير، ثم في اختلاف الأيام بلياليها وتحويل الأيام الوسطى إلى المختلفة وبالعكس. **والرابعة**، في حركات القمر المعتدلة في الطول والعرض. **والخامسة**، في بيان اختلافات حركات القمر وحساباتها، ثم حساب اختلاف المنظر في الارتفاع والطول والعرض. **والسادسة**، في اجتماعات النيرين واستقبالاتهما وكسوفهما. **والسابعة**، في الكواكب الثابتة ومواضعها في الطول والعرض. **والثامنة** في جريدة الكواكب الثابتة ومواضعها في الطول والعرض. . **والتاسعة حتى الحادية عشرة**، في بيان حركات الكواكب الخمسة المتحيزة في الطول. **والثانية عشرة**، في الرجوع والاستقامة، والمقامات العارضة للكواكب الخمسة المتحيرة. **والثالثة عشرة**، في عروض الكواكب الخمسة المتحيرة وظهورها واختفائها[113].

لقد كان للمجسطي تأثير مهم على علماء العرب المشتغلين بعلم النجوم، لأنه احتوى «كل فروع علم الفلك القديم ووصل العمل بالنظر في جميع المسائل فلم يأت بقاعدة إلا وبرهن عليها بالطريقين الهندسي والعددي، ولم يُثبت شيئاً من حركات الأجرام السماوية إلا وبيّن كيف توصّل الفلكيون إلى معرفته وقياسه، ولم يجعل جدولاً إلا وأوضح أصول حسابه»[114].

كما كان لترجمة كتاب المقالات الأربع في أحكام النجوم لبطلميوس أيضاً، وهو ذيل لكتابه المجسطي، تأثير في الاهتمام بعلم الفلك. وقد ترجمه إبراهيم بن الصلت وأصلحه حنين بن اسحاق. وكان لكتاب إقليدس في أصول الهندسة تأثير واضح أيضاً إذ تعلّم العلماء العرب منه فن وضع البراهين الهندسية، فبرعوا في الناحية العملية من علم الفلك المتمثلة في الأرصاد.

---

(١١١) احمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢ ج (بيروت: دار صادر، ١٩٦٠)، ج ١، ص ١٣٣.

(١١٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٣ - ١٣٦، وفيه تلخيص للمقالات الأربع الأولى من الكتاب، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٩٧.

(١١٣) علم الفلك عند العرب، ص ٢٢١ - ٢٢٢، وطوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٦٠.

(١١٤) علم الفلك عند العرب، ص ٢٢٢.

ب ـ المراصد وآلاتها

بدأ إنشاء المراصد في أواخر عهد الخليفة المأمون. فإنه عندما وقف على ما جاء في كتاب المجسطي من معلومات فلكية وعن المراصد والآلات المستخدمة فيها، تقدّم إلى العلماء الرياضيين والفلكيين أن يقوموا برصد الكواكب ويمتحنوا حقيقة ما جاء فيه وأن يصلحوا آلات الرصد على ما يذكره(١١٥). وأمر في سنة ٢١٥ بإقامة مرصد بالشماسية بأعلى بغداد عُرف بالمرصد المأموني. وجعل على رئاسته والاشراف على ارصاده المهندس الفلكي سند بن علي. وقد عمل في هذا المرصد عدد من مشاهير فلكيي القرن الثالث، منهم: يحيى بن أبي منصور كبير منجّمي المأمون، والعباس بن سعيد الجوهري، وخالد بن عبد الملك، وأبناء موسى بن شاكر، وثابت بن قرة. كما أمر المأمون بالوقت نفسه بإنشاء مرصد آخر في دمشق على جبل قاسيون، فأنجز وبوشر بالرصد فيه في السنة نفسها(١١٦). وأقيمت بعد المأمون، وفي خلال هذا القرن، مراصد أخرى، منها مرصد أبناء موسى بن شاكر الذي أقاموه قريباً من الجسر ببغداد، كما أقيم مرصد بالرّقة عرف بمرصد البتّاني لطيلة عمل محمد بن جابر البتاني فيه، ومرصد آخر في انطاكية عمل فيه البتّاني بعض الوقت.

إن أعمال الرصد تحتاج إلى آلات وعدد مختلفة لا بد منها للعاملين في رصد الكواكب والأفلاك. وكانت المراصد التي أقيمت منذ أيام المأمون قد جهزت بالعُدد والأجهزة المطلوبة. ويعتبر الاصطرلاب أهم الآلات الفلكية وأشهرها وأكثرها استعمالاً، كما أنه يعتبر العُدَّة الأولى بالنسبة إلى المنجمين أصحاب الأحكام. وقد سمّاه العرب الآلة الشريفة تقديراً منهم لفوائده العديدة، إذ استخدموه في الأرصاد الفلكية وفي الملاحة. كما أتقنوا صناعته وأصبح له علم خاص يبحث فيه عن كيفية استعماله للتوصل إلى معرفة كثير من الأمور النجومية على أسهل طريق وأقرب مأخذ، كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع وسمت القبلة وعرض البلد وغير ذلك(١١٧). كما استخدم في حلّ المسائل الرياضية، لا سيما في حساب المثلثات وفي قياس الارتفاعات والمسافات، بالإضافة إلى استخداماته الفلكية(١١٨).

ويتكوّن الاصطرلاب من قرص معدني مقسّم إلى درجات، ويدور على هذا القرص عضادة ذو ثقبين في طرفيه. ويعلّق الاصطرلاب عمودياً ثم يوجه نحو الشمس فمتى مرت أشعة الشمس من الثقبين قرىء ارتفاع الكواكب من الحد الذي وقف العضاد عليه. وكان من عادة

---

(١١٥) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧١.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٣٥٧، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٧.

(١١٧) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ١٠٦.

(١١٨) الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام، ص ١٧٦، واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ١٣٩ - ١٤٠.

فلكيي العرب أن يقسموا الدقيقة إلى اثني عشر قسماً يدل كل قسم على خمس ثوان. وأهم أجزاء الاصطرلاب الأخرى: أم الاصطرلاب، والحجرة، والصفائح، والعنكبوت، والعضادة، والمحور. كما أن ظهر الاصطرلاب يقسم إلى (٣٦٠) درجة، وإلى أربعة أرباع الدائرة، ويكتب على بعضها أسماء البروج والاشارات الضرورية للعمل به[119].

ومن أجهزة الرصد المهمة الأخرى:

ـ اللبنة: وتستخدم لمعرفة درجة عرض المكان ولقياس أبعاد الكواكب، ومعرفة الميل الكلي، وهي جسم مربع مستو.

ـ المحلّقة أو ذات الحلق: وهي أعظم الآلات هيئة ومدلولاً، وتتألف من ست حلقات نحاسية، ترتكز الأولى على الأرض وتسمى دائرة نصف النهار، ثم دائرة معدّل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، والدائرة الشمسية. وبها يعرف سمت الكواكب. وهي آلة عربية يُعزى اختراعها إلى الفيلسوف الفلكي الأندلسي عباس بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤. وهي تختلف عن ذات الحلق اليونانية المكونة من تسع حلقات بعضها في جوف بعض، ولكنها تؤدي الغرض نفسه.

ـ ذات السمت والارتفاع: وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح، يُعرف بها السمت وارتفاعه.

ـ ذات الشعبتين: وتتكون من ثلاث مساطر على كرسي خاص، يُعلم بها الارتفاع.

ـ الربع المجيب: ويتكون من ربع دائرة، ويُسمى أيضاً الربع المقطوع أو الربع المقنطر. وهو في الأصل جزء من الاصطرلاب ينقش على ظهره. ويستعمل الربع المجيب في المجالات الفلكية والرياضية والجغرافية[120].

وصنفت في هذا القرن كتب عديدة في صناعة الاصطرلاب وبعض آلات الرصد الأخرى، وطريقة العمل بها. فقد صنف الفيلسوف الكندي كتاباً في صنعة الاصطرلاب بالهندسة، ورسالة في عمل الحلق الست واستعمالها، ووضع عطارد بن محمد كتاب العمل بالاصطرلاب، وكتاب العمل بذات الحلق. وصنف حبش الحاسب كتاب عمل الاصطرلاب، ووضع محمد بن موسى الخوارزمي كتاب عمل الاصطرلاب، وكتاب العمل بالاصطرلاب[121].

---

(١١٩) ناجي معروف، المراصد الفلكية ببغداد في العصر العباسي (بغداد: دار الجمهورية، ١٩٦٧)، ص ٢٧.

(١٢٠) حول آلات الرصد، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٣٠؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ١٤٥ ـ ١٤٧؛ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٣٣، والرفاعي، المصدر نفسه، ص ١٧٦ ـ ١٧٨.

(١٢١) حول الكندي، انظر: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين =

وكانت آلات الاصطرلاب تصنع بمدينة حرّان، ثم انتشرت صناعتها واتسع العمل فيها منذ أيام المأمون، واشتهر بصنعها وصنع ذات الحلق عدد من الصناع الذين مهروا في صناعة آلات الرصد[122].

٢ ـ أهم الأرصاد الفلكية

أشرنا في الفصل السابع إلى أن أول رصد قام به الفلكيون العرب كان بالمرصد المأموني ببغداد وبمرصد قاسيون بدمشق، وقام به جماعة على رأسهم سند بن علي. وقد استغرق عملهم منذ سنة ٢١٤ حتى وفاة المأمون في سنة ٢١٨، ويعتبر هؤلاء طليعة علماء الرصد من الفلكيين العرب. فحققوا في أرصادهم بعض ما قاله بطلميوس، وصححوا بعضه الآخر. وثبّتوا نتائج عملهم في جداول عرفتْ بالرصد المأموني. كما وضع كل منهم كتاباً بزيج نسب إليه، وقد أطلق على أزياجهم الأزياج المُمتحنة. ويقول المستشرق نللينو إنهم اشتركوا في تأليف زيج عُرف بالزيج المُمتَحَن، وهو مبني على أرصادهم الممتحنة التي قاموا بها[123]. إلا أن ابن النديم والقفطي يقولان عن يحيى بن أبي منصور إن له من التصانيف الزيج الممتحن وهو نسختان[124]، وعن العباس الجوهري إنه حقق بعض الكواكب والنيرين، وعمل على ذلك زيجاً مشهوراً مذكوراً عند أهل هذا الشأن[125]. وعن سند بن علي إن له زيجاً مشهوراً يعمل به المنجمون[126]. ويظهر من هذا أن نللينو واهم في ما ذهب إليه، إلا إذا كان يقصد جداول الرصد المأموني.

وأبرز أعمال الرصد التي أُنجزت في عهد المأمون هو قيام الفلكيين بقياس محيط الكرة الأرضية. وهناك ثلاث روايات عن الذين كلّفهم المأمون بالعمل المذكور؛ الأولى هي الخلاصة التي ذكرها المسعودي، يقول: «وذكر من عُني بمساحة الأرض وشكلها أن تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل، . . . وذلك انهم نظروا إلى مدينتين في خط واحد إحداهما أقلّ عرضاً من الأخرى، وهما الكوفة ومدينة السلام، فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقل من الأكثر ثم قسموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما فكان نصيب الدرجة مما يحاذيها من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلاً وثلثي ميل على ما ذكر بطلميوس، فإذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلاثمئة وستون درجة كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل، وكان قطرها الذي هو طولها وعرضها وغلظها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلاً. . .»[127].

= وأسماء كتبهم، ص ٢٧٣ و٣٧٥؛ حول عطارد، ص ٤٠١؛ حول حبش، ص ٣٩٨، وحول الخوارزمي، ص ٣٩٧.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٤١٠.

(١٢٣) علم الفلك عند العرب، ، ص ٢٨٢.

(١٢٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٨، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٥٨.

(١٢٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(١٢٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٧، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(١٢٧) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٤ ـ ٢٥.

والرواية الثانية هي ما رواه ابن يونس المصري المتوفى سنة ٣٩٩(١٢٨) وخلاصتها أن سند بن علي ذكر في كلام له «أن المأمون أمره وخالد بن عبد الملك أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الأرض، قال فسرنا لذلك جميعاً. وأمر عليّ بن عيسى الاصطرلابي وعلي بن البحتري بمثل ذلك، فسارا إلى ناحية أخرى. قال سند بن علي: فسرت أنا وخالد بن عبد الملك إلى ما بين وامية وتدمر، وقسنا هنالك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بسطح كرة الأرض فكان سبعة وخمسين ميلاً. وقاس علي بن عيسى وعلي بن البحتري فوجدا مثل ذلك. وورد الكتابان من الناحيتين في وقت بقياسين متفقين. . .»(١٢٩).

والرواية الثالثة هي ما رواه ابن خلكان تحت عنوان «المأمون يأمر بضبط محيط الأرض»، إذ يقول «إن المأمون كان مُغرًى بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل. . . فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك، فسأل بني موسى عنه، فقالوا: نعم هذا قطعي. قال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا. فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي، فقيل لهم: صحراء سنجار في غاية الاستواء، وكذلك وطآت الكوفة. . . وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موقع منها، فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات، وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين أو اليسار حسب الإمكان. . . ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه زاد على الارتفاع الأول درجة. فمسحوا ذلك القدر الذي قدّروه بالحبال، فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل، فعلموا أن كل درجة من درجة الفلك، يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان. ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتر الأول وشدّوا فيه حبلاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال. . . فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة، فصحّ حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك. . . ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلاثمئة وستون درجة. . . فضربوا عدد درج الفلك في ستة وستين ميلاً ـ أي التي هي حصة كل درجة ـ فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل، وهي ثمانية آلاف فرسخ. . . فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل، طلب تحقيق ذلك في موضع آخر، فسيرهم إلى أرض الكوفة، وفعلوا كما فعلوا في سنجار، فتوافق الحسابان. فعلم المأمون صحة ما حرّره القدماء»(١٣٠).

ويرى نللينو أن رواية ابن خلكان يشوبها الخطأ، فقد نسب تنفيذ أمر الخليفة إلى بني موسى، والمعروف أنه كلّف المنجمين أصحاب الزيج الممتحن، لأن بني موسى كانوا آنذاك في سن صغيرة ولم ينالوا من العلوم ما يؤهلهم للقيام بذلك العمل. وأخطأ في ذكره وطآت الكوفة التي كانت آنذاك كلها بطائح وترع ومزارع، لا تصلح لإجراء المسح المطلوب. كما أخطأ في قوله إن حاصل القياس ومقداره $66\frac{2}{3}$ ميلاً موافق لما وجده القدماء، ويرى أن الرواية الصحيحة هي التي ذكرها ابن يونس في زيجه. ويرى نللينو في ضوء ما جاء فيهما أن جماعة الفلكيين الذين كلّفوا بالعمل قاسوا قوساً من خط نصف النهار في صحراوين، أي

---

(١٢٨) ابن يونس الفلكي: علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري، من علماء الفلك، اختص بالحاكم الفاطمي. له الزيج الحاكمي بأربع مجلدات صحح به أغلاط من سبقوه، وكان تعويل أهل مصر عليه. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٢، ١٠ ج في ٥ (القاهرة: مطبعة كوستاتسوماس، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥)، ج ٥، ص ١١٢.

(١٢٩) علم الفلك عند العرب، ، ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.

(١٣٠) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

برّية سنجار وبرّية شمالي تدمر، وان حاصلي العملين اختلفا في ما بين ١/٤ ٥٦ ميلاً و٥٧ ميلاً تقريباً، فاتخذوا متوسطهما أي ٢/٣ ٥٦ ميلاً تقريباً، وبذلك يكون محيط الأرض ٤١,٢٤٨ كيلومتراً، ويقول «وهو قدر قريب من الحقيقة دالّ على ما كان للعرب من الباع الطويل في الأرصاد وأعمال المساحة. . . أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجري كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة، واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل. فلا بد لنا من عداد ذلك القياس في أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة»[١٣١].

ومن الأرصاد المهمة التي تمّت في هذا القرن ما قام به الرياضي الفلكي البارع أبو عبد الله محمد بن جابر البتّاني. فقد أقام مدة اثنتين وأربعين سنة في مرصدي مدينتي الرقّة وانطاكية، يراقب يومياً النيرين، الشمس والقمر، والكواكب المتحيّرة والنجوم الأخرى، متتبّعاً حركاتها ومنازلها ومسار أفلاكها، ويسجل ذلك، فحقّق كثيراً من النتائج العلمية، وكانت له انجازات مهمة في ذلك ساعدت على ازدهار علم الفلك آنذاك. وستتكلم على أعمال البتّاني في الرصد بشيء من التفصيل عند الكلام عليه في فصل قادم.

كما كانت الأرصاد التي قام بها الفيلسوف المهندس ثابت بن قرّة في المرصد المأموني ومرصد بني موسى بن شاكر، ببغداد، من الأعمال الفلكية المهمة التي كانت من عوامل تقدّم علم الفلك أيضاً. وسنشير إلى جهوده في ذلك في فصل قادم أيضاً.

وهكذا نرى أن العرب لم يقفوا في دراساتهم الفلكية في خلال هذا القرن عند حدود النظريات والمقولات التي ورثوها عن اليونان، بل إنهم قاموا بأعمال في هذا الميدان تميزوا بها عن غيرهم. فأقاموا المراصد في مطلع هذا القرن، واهتموا بالتحقّق مما جاء في كتب اليونان، فرصدوا الشمس والقمر والكواكب السيارة والنجوم الأخرى، وابتكروا طرقاً رياضية لاحتساب الأرصاد التي قاموا بها، ووضعوا الأزياج الصحيحة القائمة على الرصد والحسابات الفلكية. كما قاموا بتطوير آلات الرصد وتحسينها، ولا سيما ما يتعلق بحجومها، وابتكروا آلات جديدة. ويمكن تلخيص أهم ما حققوه في أرصادهم وكان قريباً جداً من الواقع بما يأتي:

أ ـ انهم توصلوا إلى معرفة أن أوج الشمس ـ أي أبعد نقطة لها عن الأرض ـ غير ثابت، وأنه يتغير بمعدل ١٢ ثانية في السنة. وهو تقرير يزيد بنصف ثانية عما هو ثابت اليوم وهو ١١,٥ ثانية، وهو فرق طفيف وتظهر أهميته في أنهم حققوه بأجهزتهم وآلاتهم البسيطة بالنسبة إلى ما هو متوفر في العصر الحالي[١٣٢].

ب ـ وقاموا بقياس طول الدرجة الواحدة من خطوط الطول وتوصلوا إلى أنها ٢/٣ ٥٦

---

(١٣١) علم الفلك عند العرب، ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٩.

(١٣٢) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٨٢؛ سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية الاسلامية، ص ٨٢، وعبد الحليم منتصر، تاريخ العلوم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط ٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥)، ص ٢٠٨.

ميلاً فتسنّى لهم معرفة طول خط الاستواء، أو محيط الكرة الأرضية، مما سهّل للبيروني في القرن التالي أن يحدد بطريقة بارعة مقدار محيط الكرة الأرضية[١٣٣].

ج ـ واستطاعوا قياس مدة الحركة البطيئة ـ أي مقدار تقدّم وقت تساوي الليل والنهار ـ فكان درجة واحدة في كل ٦٦ سنة، واستمروا في تصحيح هذا الزمن إلى أن ثبتوه بدرجة واحدة كل سبعين سنة وهو تحديد قريب جداً مما ثبته علماء الفلك في العصر الحديث، وهو درجة واحدة في كل ٧٢ سنة[١٣٤]. وتوصّل ثابت بن قرّة إلى وجود حركتين: مستقيمة ومتقهقرة لنقطتي الاعتدال[١٣٥].

د ـ ونجحوا بشكل دقيق في تحديد ميل سمت الشمس، وكذلك مدارها ومدار القمر والكواكب، واستطاعوا بفضل علم الفلك والرياضيات أن يحددوا اتجاه القِبلة في الجوامع والمساجد في مختلف أرجاء الدولة[١٣٦].

هـ ـ وكنا ذكرنا أن ثابت بن قرة توصّل إلى معرفة طول السنة النجمية، وأنها كانت أكثر من الحقيقة بنصف ثانية. كما ذكرنا أن البتّاني توصل إلى احتساب طول السنة الشمسية وحصل على نتيجة تقلّ عما هو معروف اليوم بدقيقتين واثنتين وعشرين ثانية.

و ـ ويظهر أنهم تنبّهوا إلى أن الكرة الأرضية هي المتحركة وليست الأفلاك، إذ قال بعض الفلكيين «إن الذي يُرى من الدوران للكواكب إنما هو دور الأرض لا الشمس والفلك»[١٣٧]. إلا أنهم لم يعيروا هذا الموضوع اهتماماً كافياً رغم أهميته، فلم يوغلوا فيه. وكان موقفهم هذا شبيهاً من القول بجاذبية الأرض، وكنا أشرنا إليه في موضوع العلوم الطبيعية.

٣ ـ علم أحكام النجوم (التنجيم)

أ ـ التنجيم

كان الاهتمام بالنجوم والكواكب والأفلاك من حيث مواقعها وتتبّع آثارها ونتائج حركاتها، وربط بعض الظواهر الأرضية كالفصول والمواقيت بها، قد أثار اعتقاداً لدى البعض بأن تأثير حركاتها لا يقتصر على ما ذكرناه من أمور فلكية، بل إنه يشمل بني الإنسان أيضاً، وان ما يصيبهم من خير أو شر مرتبط بها وناشيء عن أوضاعها. وكان بطلميوس الفلكي

---

(١٣٣) علم الفلك عند العرب، ، ص ٢٨٧، وجِلّ، الحضارة العربية، ص ١١٠.
(١٣٤) سزكين، المصدر نفسه، ص ٨٢، ومنتصر، المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
(١٣٥) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٠٤.
(١٣٦) جِلّ، الحضارة العربية، ص ١١٠.
(١٣٧) أحمد بن عمر بن رستة، الأعلاق النفيسة، المكتبة الجغرافية العربية؛ ٧ (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١)، ص ٢٣ ـ ٢٤.

اليوناني على رأس القائلين بهذا التأثير، إذ كان «يرى أن الأرض بما عليها من أحياء نتيجة لعمل القوى السماوية ونور منبعث من الدور العلوي، وصدر للانسجام الأولي بين الأفلاك»[١٣٨]. ومن هنا نشأ إلى جانب علم الفلك، علم آخر هو علم الأحكام أو صناعة التنجيم. وبينما قام العلم الأول على الحساب والعقل والمنطق والتجربة، قام الثاني على الحدس والتخمين والاستنتاج، وكثير من الأوهام أحياناً. واعتبر أصحابه أن الأرض بما عليها من كائنات حية تتأثر بالقوى الفلكية، وان من يتعمّق بدراسة حركات الأفلاك من حيث اقترانها وافتراقها، واقترابها وابتعادها، وظهورها وأفولها، بمقدوره أن يستطلع ما تنبىء عنه تلك الأوضاع من حوادث وتأثيرات. ونظراً لما جبل عليه الإنسان من حب الاستطلاع والشغف الشديد بمعرفة ما تخبئه الأيام، فقد ازداد الاهتمام بالتنجيم عند العرب وأصبح له رجاله المختصون به البارعون باستخلاص دلائل حركات النجوم وأفلاكها، وقد وضعوا الكتب العديدة في موضوعه، واحتلوا مقاماً محترماً بين الناس. ومع أن الدين الاسلامي ينكر التنجيم ولا يقر الاعتقاد بعلاقة النجوم بما يجري على الأرض من أحداث وتغييرات، فإن ذلك لم يمنح شغف الخلفاء والقواد والوزراء وبقية الناس من استشارة المنجمين في كثير من أمورهم وأحوالهم. فكان الخلفاء يستشيرونهم في ما يزمعون القيام به من أعمال، أو يستعلمون منهم عن بعض الأمور المقبلة أو يسألونهم عن أمور مجهولة. كما كان الوزراء والأمراء والقواد والولاة يعتمدون في بعض حركاتهم وأعمالهم على ما تحكم به النجوم حسب ادّعاء المنجم.

أما تأثير علم التنجيم على علم الفلك فقد كان ايجابياً ساعد على تقدمه، لأن اهتمام الخلفاء في بغداد وسامراء بالتنجيم لم يكن يستغني عن الدراسات والأرصاد الفلكية للوقوف على حركات النجوم والأفلاك. وقد كان في بلاط الخلفاء عادة عدد من المنجمين يُختارون من كبار الفلاسفة وعلماء الرياضيات والفلك. فكان فيلسوف العرب يعقوب بن اسحاق الكندي، وثابت بن قرة، وسند بن علي، وأبو معشر، ومحمد بن أحمد بن كثير، والفضل بن حاتم، وهم من كبار الفلاسفة والرياضيين والمهندسين، من منجّمي البلاط في بغداد وسامراء في القرن الثالث. وكان المنجمون الذين يختص بهم الخلفاء يعتبرون من موظفي الدولة كالأطباء، والكتّاب، لهم رواتبهم وأرزاقهم[١٣٩].

ويلاحظ أن المؤرخ اليعقوبي اعتاد أن يذكر عند مبايعة كل خليفة مواقع الشمس والقمر والكواكب الأخرى ومنازلها من الأبراج بالدرجات والدقائق، منذ أن بويع الخليفة عمر بن الخطاب في أواخر جمادى الآخرة سنة ١٣ حتى مبايعة المعتمد على الله في منتصف رجب سنة ٢٥٦. ولا نعرف ما إذا كان اليعقوبي يؤمن بالتنجيم وعلاقة الأفلاك بمصائر البشر، أم أنه وضع هذه المعلومات جرياً على الاعتقاد السائد يومئذ بأن ذلك يساعد منجمي

---

(١٣٨) ت.ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨)، ص ١٤٤.

(١٣٩) المحسن بن علي التنوخي، الفرج بعد الشدة (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٥٥)، ج ١، ص ٩٤.

الخليفة وغيرهم على تتبّع الأحداث والتنبؤ بمدة خلافة الخليفة الجديد ومقدار عمره، وما سيكون من الأحداث في عهده.

ومن الطبيعي ألّا يتحقق أغلب ما يتنبأ به المنجمون، بل قد يقع العكس منه. ولذا كان الناس - مع شغفهم بالتنجيم - بصورة عامة يرمونهم بالافتراء والاختلاق والدجل، ويتندرون عليهم، حتى لقد سرى المثل المشهور «كذب المنجمون ولو صدقوا». وهناك كثير من الأخبار عن عدم إصابة ما يحكم به المنجمون. فإن الخليفة المعتصم بالله لما تجهز لغزو بلاد الروم في سنة ٢٢٣ واستشار منجّميه في أمر هذه الحملة، وجدوا بحساباتهم أن الوقت غير مناسب لأن مذنّب هالي كان قد مرَّ بالأرض في السنة السابقة فاعتبروا ذلك نذير شؤم. فأنذروا الخليفة مغبّة خروجه، وأن جيوشه ستهزم. إلا أن المعتصم بالله، وهو العسكري الواثق من قوة جيشه عدة وعدداً، خرج بحملته متحدياً تحذيراتهم، وحقق انتصاراً باهراً على الروم وافتتح مدينة عمورية مسقط رأس ملكهم وأكبر مدنهم بعد العاصمة. فقال الشاعر أبو تمام الطائي الذي كان بصحبة الخليفة، بائيته المشهورة رد فيها على تخرّصات المنجمين ودعاواهم، وأن الفتح الذي أراده الله تعالى قد جلّ وجه الجيش العربي، بعد أن تنبأ له المنجمون بالهزيمة. وهذه بعض أبيات من مطلع القصيدة[١٤٠]:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتبِ	في حدِّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في	مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشكِّ والريبِ
والعِلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً	بينَ الخميسَينِ لا في السبعةِ الشُّهُبِ
أينَ الروايةُ؟ بلْ أينَ النجومُ وما	صاغوه من زُخرُفٍ فيها ومن كذبِ؟
تَخَرُّصاً وأحاديثاً ملفقةً	ليستْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ
عجائباً زعموا الأيامَ مجفلةً	عنهنَّ في صَفَرِ الأصفارِ أو رَجَبِ
وخَوَّفوا الناسَ من دهياءَ مظلمةٍ	إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَّنَبِ
يَقضُون بالأمرِ عنها وهيَ غافلةٌ	ما دارَ في فلكٍ منها وفي قُطُبِ
فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به	نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ منَ الخُطَبِ

وجاء في تاريخ الطبري أن الخليفة الواثق بالله لما اشتدت علّته التي مات فيها، أمر بإحضار المنجمين، فأحضر عامة من ينظر في النجوم، فنظروا في علّته ونجمه ومولده، وقالوا: يعيش دهراً طويلاً وقدّروا له خمسين سنة مستقبلة. إلا أنه لم يلبث سوى عشرة أيام مات بعدها[١٤١].

ومن أخبار التندّر على المنجّمين والتهكّم من أحكامهم أن الخليفة المعتز بالله لما جلس على سرير الخلافة، اجتمع خواصه حوله، وأحضروا المنجمين وطلبوا إليهم أن ينظروا كم

---

(١٤٠) انظر كامل القصيدة، في: حبيب بن أوس أبو تمام، ديوان أبي تمام، تحقيق وتعليق محمد عبده عزام، ٤ ج، ذخائر العرب؛ ٥ (القاهرة: دار المعارف، [د.ت.])، ج ١، ص ٤٠ - ٧٤.

(١٤١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨)، ج ٩، ص ١٥١.

سيعيش وكم يبقى في الخلافة. وكان بالمجلس أحد الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار عمره وطول حكمه، فقالوا: فكم تقول إنه يعيش ويملك؟ قال: مهما أراد الأتراك[142].

على أن المصادفة قد تلعب دورها، أو أن المنجم قد تتوفر له من المعلومات والدلائل مما لا علاقة له بالنجوم، فيبني نبوءته عليها فتصدق كلها أو بعضها. يقال إن الخليفة المستعين بالله استطلع رأي المنجم أبي معشر في أمر، كان أبو معشر على معرفة به، فأخبره بما سيكون من شأنه، فلما تحقق ذلك عاقب الخليفة منجّمه، فكان أبو معشر يقول «اصبت فعوقبت»[143].

ب ـ نطاق التنجيم ووسائله

يقوم علم احكام النجوم على أساس أن يكون لنجوم أو كواكب معينة ـ وهي في وضع معيّن من أفلاكها، وفي وقت معيّن ـ دلالة معينة أو ما بمعناها يستخلصها المنجم ليفضي بها إلى المستطلع الذي يلجأ إليه. ويحاول المنجم عادة أن يوفق بين الدلالات التي يتوصل إليها وبين ما يراه على ملامح المستطلع من احاسيس، لتكون نبوءته أقرب إلى نفسه وأكثر قبولاً لديه. مما يستدعي أن يتميّز المنجم بالإضافة إلى علمه، بقوة الفراسة وسرعة الخاطر.

لقد رُتّبت أوضاع النجوم الثابتة والكواكب المتحيّرة في خمس وأربعين صورة، منها اثنتا عشرة صورة في وسط الفلك وهي صور البروج الاثني عشر، ومنها تسع عشرة صورة شمالية، وأربع عشرة صورة جنوبية، وجُعل للقمر ضمن هذه الصور ثمانية وعشرون منزلاً[144]. وجعلوا لكل من الكواكب السيارة بيتاً، وشرفاً، واقتراناً. فلبيت الكواكب برج ينسب إليه الكوكب، ولكل واحد من النيرين بيت واحد، ولكل واحد من الخمسة المتحيّرة بيتان: فالأسد بيت الشمس، والسرطان بيت القمر، والجدي والدلو بيتا زحل، والحوت والقوس بيتا المشتري، والحمل والعقرب بيتا المرّيخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والسنبلة والجوزاء بيتا عطارد[145].

وشرف الكوكب درجة يبلغها في أحد الأبراج، ويسمى شرف الكوكب أيضاً أوْجَه وهو أعز موضع له، والمبوط ضدُّه. فشرف زحل في الميزان، وشرف المشتري في السرطان، وشرف المريخ في الجدي، وشرف الزهرة في الحوت، وشرف عطارد في السنبلة، وشرف

---

(١٤٢) محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (مصر: مطبعة الموسوعات، ١٨٩٩)، ص ٢٢٠.

(١٤٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٠.

(١٤٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٢٣ ـ ١٢٤، وفيه أسماء الأبراج والمنازل.

(١٤٥) المصدر نفسه، ص ١٣١، وأبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، ترجمه إلى الإنكليزية رمزي ريت (لندن: مكتبة لوزاك، ١٩٣٤)، ص ٢٥٦.

الشمس في الحمل، وشرف القمر في الثور[١٤٦]. ولكل واحد من الكواكب الخمسة بيت من حيّز الشمس وبيت من حيّز القمر. ووبال كل كوكب في مقابلة بيته[١٤٧].

واقتران الكوكب أن يكون مقارناً للشمس وبينهما بضع دقائق فإذا بلغ الفرق ست عشرة دقيقة صار الكوكب في الصميم[١٤٨].

وقسموا البروج إلى أربعة أقسام يدعى كل قسم منها «المثلثة» وهي: «ثلاثة» أبراج تكون ناريّات حارّات يابسات شرقيات، على طبيعة واحدة، وهي: الحمل والأسد والقوس. و «ثلاثة» ترابيات باردات يابسات جنوبية، على طبيعة واحدة، وهي: الثور والسنبلة والجدي. و «ثلاثة» هوائيات حارات رطبات غربيات، على طبيعة واحدة، وهي: الجوزاء والميزان والدلو. و «ثلاثة» مائيات باردات رطبات شماليات على طبيعة واحدة، وهي: السرطان والعقرب والحوت. ويكون أحد الأبراج المثلثة صاحبها مقدماً بالنهار، والثاني مقدماً بالليل، والثالث شريكهما بالنهار والليل[١٤٩].

وهناك أوضاع مختلفة للكواكب والبروج يجب أن يلم بها من يتصدّى لعلم أحكام النجوم (التنجيم) منها:

ـ سير الكواكب وإقامتها ورجوعها: سير الكواكب طولاً هو سيرها في نطاق البروج، وسيرها عرضاً هو تباعدها عن نطاق البروج إلى ما يلي أحد القطبين. وإقامة الكواكب وقفتها قبل الرجوع. واستقامتها سيرها على نضد البروج. ورجوعها سيرها طولاً على خلاف نضد البروج[١٥٠].

ـ الكواكب العلوية والسفلية: يطلق على زحل والمشتري والمريخ الكواكب العلوية، لأنها فوق الشمس، وعلى الزهرة وعطارد والقمر الكواكب السفلية لأنها تحت الشمس[١٥١].

ـ السَّعدان والنَّحسان من الكواكب: يُسمى المشتري والزهرة السعدان، وزحل والمريخ النَّحسان[١٥٢].

ـ حالات البروج: «الطالع» من البروج هو الذي يطلع من المشرق، و «الغارب» نظيره الذي يغرب في أفق المغرب. و «وسط السماء» هو البرج الذي يتوسط السماء، و «وتد

(١٤٦) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٣١؛ رسائل اخوان الصفاء، ج ١، ص ١٢٠، والبيروني، المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

(١٤٧) رسائل إخوان الصفاء، ج ١، ص ١٢٠.

(١٤٨) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ١٣١؛ رسائل اخوان الصفاء، ج ١، ص ١١٩، والبيروني، التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، ص ٢٥٩.

(١٥٠) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(١٥٢) المصدر نفسه، ص ١٣٢، والبيروني، المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

الأرض» نظيره وهو الذي تحت وسط الأرض. ويطلق على هذه الحالات الأربع اسم «الأوتاد الأربعة». وتسمى البروج التي تلي الأوتاد «ما يلي الأوتاد». وتسمى الأربعة التي تليها السواقط والزوائل[153].

ويعتبر الطالع بيت النفس، والذي يليه بيت المال، والثالث بيت الإخوة، والرابع بيت الآباء، والخامس بيت الولد، والسادس بيت المرض والعبيد، والسابع بيت النساء، والثامن بيت الموت، والتاسع بيت السفر والدّين، والعاشر بيت السلطان والعمل، والحادي عشر بيت الأصدقاء، والثاني عشر بيت الأعداء[154].

وهناك اصطلاحات عدة لأوضاع الكواكب وحالاتها، منها: المزاعمة، والابتزاز، والاستعلاء، والحصار، والتشريق، والتغريب، والدستورية، والهيلاج، والتسيير. واصطلاحات لأوضاع خاصة يستنتج منها حالات النحس والسعادة، ومقدار العمر، والرزق، وغيرها[155].

ج ـ آلات التنجيم

أما الآلات والعُدد التي يستعين بها المنجم للوصول إلى المعلومات الفلكية والتنجيمية الآنفة الذكر، فهي بعض الأجهزة مما يستخدمه علماء الفلك في المراصد الفلكية. وأهمها: الاصطرلاب، وذات السمت والارتفاع، والربع المجيب، والمحلّقة، والكرة. وقد سبق وصف هذه الأجهزة.

كما صُنّفت كتب تنجيمية مثل كتب الاختيارات أو ما يسمى كتب الدلالات، وكتب القرانات. وهي تفسّر الأوضاع المختلفة للبروج والأفلاك في مختلف الأوقات، كما كانوا يزعمون. وأكثر مصنّفات أبي معشر في هذه المواضيع، منها: كتاب القرانات، وكتاب الاختيارات[156]. وصنّف الأبحّ الحسن بن ابراهيم كتاب الاختيارات وقد عمله للخليفة المأمون[157]. وصنّف محمد بن البازيار كتاب القرانات[158]. وصنّف الفضل بن نوبخت كتاب الفأل النجومي[159].

---

(١٥٣) الخوارزمي، المصدر نفسه، ص ١٣٢.
(١٥٤) المصدر نفسه.
(١٥٥) المصدر نفسه، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.
(١٥٦) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١. ويقصد بكتب الاختيارات كتب التنجيم، وبكتب الدلالات أحكام النجوم.
(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٩٨.
(١٥٨) المصدر نفسه، ص ٣٩٩.
(١٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٩٧.

د ـ الشريعة والتنجيم

مع أن علم أحكام النجوم قد استقرت أسسه، واختص به فلاسفة وعلماء رياضيون وفلكيون وأدباء من المشهورين، إلا أن موقف الشريعة الاسلامية منه كان ينكره ويكفّر القائلين به. ولعل ما ذكره ابن خلدون حول هذا الموضوع خير ما يمثّل ذلك. قال «إن تأثير الكواكب فيما تحتها باطل، إذ قد تبين في باب التوحيد أن لا فاعل إلا الله، بطريق استدلالي... واحتج له أهل علم الكلام بما هو غني عن البيان، من أن اسناد الأسباب إلى المسببات مجهول الكيفية، والعقل متهم على ما يقضي به فيما يظهر بادىء الرأي من التأثير... سيما والشرع يرد الحوادث كلها إلى قدرة الله تعالى ويبرأ مما سوى ذلك. والنبوّات أيضاً منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها. واستقراء الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله: إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته... فقد بان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع وضعف مداركها مع ذلك من طريق العقل، مع ما لها من المضار في العمران الإنساني... فينبغي أن أحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران، لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول»[١٦٠].

وقد حاول إخوان الصفاء وخلان الوفاء أن يدافعوا عن التنجيم، وينفوا صفة ادعاء العلم بالغيب عن المنجّمين، باعتبار أن ما يتنبأون به إنما هو استقراء مبني على الخبرة والمعرفة. فقد جاء في الرسالة الثالثة من القسم الرياضي، أن كثيراً من الناس يظنون أن علم أحكام النجوم هو ادعاء الغيب، وليس الأمر كما ظنوا؛ لأن علم الغيب هو أن يعلم ما يكون بلا استدلال، ولا علل ولا سبب من الأسباب، وهذا لا يعلمه أحد إلا الله عز وجل. فأما علم النجوم على رأيهم فهو اكتساب من الانسان وتكلف منه وجهد واجتهاد في تعلّم العلم وطلبه. وهكذا الزجر والفأل والنظر في الكف وضرب الحصى والكهانة والقيافة والعرافة وتأويل المنامات وما شاكلها، كلّها يحتاج الإنسان فيها إلى التعلم والنظر والفكر والرؤية والاعتبار. وهذا الفن يتفاضل فيه الناس بعضهم على بعض[١٦١]. وهم بهذا يفسّرون التنجيم بأنه اجتهاد المنجم بأحوال تكون عليها الأفلاك والبروج والكواكب، وليس علماً بالغيب. إلا أن موقف الشريعة منه واضح كما أشرنا.

٤ ـ أشهر الفلكيين والمنجمين

اشتهر في القرن الثالث عدد كبير من الفلكيين والمنجمين. وكان بعضهم قد اشتغلوا بالرصد الفلكي وصنفوا كتباً فيه، كما عمل بعضهم بالتنجيم، ووضع كتباً في هذه الصناعة. بينما اقتصر البعض الآخر على التصنيف في الموضوعين أو في أحدهما دون الممارسة. ونعرض في هذا الفصل موجزاً عمّن توفرت معلومات كافية عنهم، بحسب تسلسلهم الزمني.

ويمكن اعتبار أصحاب الأرصاد والمنجمين الذين انتدبهم الخليفة المأمون في سنة ٢١٥ للعمل بالرصد واصلاح آلاته في مرصد الشّماسية ببغداد، ومرصد جبل قاسيون بدمشق،

---

(١٦٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣٠٠.

(١٦١) رسائل إخوان الصفاء، ج ١، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

طليعة العلماء الفلكيين والمنجمين في هذا القرن، وقد صنفوا جداول فلكية (أزياج) اشتهرت بأسمائهم، إلى جانب كتب أخرى، وهم:

أ ـ سند بن علي

الرياضي المهندس، كان منجماً خبيراً بتسيير النجوم والأرصاد، وقد جعله المأمون في جملة منجميه، وانتدبه على الأرصاد كلها[162]. وهو من أوائل من عمل بالرصد عندما طلب إليه المأمون العمل على رأس جماعة من الفلكيين، في المرصد المأموني بالشماسية ومرصد جبل قاسيون بدمشق، فأصلح آلات الرصد وحقّق مواضع بعض الكواكب والنيرين. وله زيج مشهور عمل به المنجمون في زمانه وبعده. وله تصانيف في النجوم والحساب، منها كتاب المنفصلات والمتوسّطات. وكان معاصراً للفيلسوف المهندس ثابت بن قرة الحرّاني، وبينهما مساجلات ومداولات[163].

ب ـ يحيى بن أبي منصور

من موالي المأمون وقد أسلم على يده، وقد تقدّم مركزه عند الخليفة لما لمس من سعة معرفته بأحكام النجوم وخبرته بتسيير الكواكب. وكان من جملة من انتدبهم الخليفة للعمل بمعيّة سند بن علي وآخرين للعمل في الرصد بمرصدي الشماسية وجبل قاسيون. وله من التصانيف كتاب الزيج الممتحن، وهو نسختان، وكتاب مقالة في عمل ارتفاع سدس ساعة لعرض مدينة السلام، وكتاب يحتوي على أرصاده، ورسائل إلى جماعة في الأرصاد.

توفي يحيى في خروجه إلى طَرَسوس، ودفن بحلب في مقابر قريش، وكانت وفاته في سنة ٢٢٠[164].

ج ـ العباس بن سعيد

الملقب بالجوهري، كان من جملة أصحاب الأرصاد، خبيراً بالتسيير والحسابات الفلكية، وماهراً بصناعة بعض آلات الأرصاد. وهو من أوائل الذين قاموا بالرّصد، عندما انتدبه المأمون مع فلكيين آخرين للعمل في المرصد المأموني في الشماسية ببغداد ومرصد جبل قاسيون بدمشق. فحقّق مواضع بعض الكواكب السيارة والنيرين، وعمل على ذلك زيجاً

---

(١٦٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٧.

(١٦٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٠٢ و٢٠٦.

(١٦٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٢١١ و٣٩٨؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٩، ص ٢١٩.

اشتهر باسمه عند الفلكيين. وكان الغالب عليه علم الهندسة، وله فيه مصنفات سبق أن أشرنا إليها(١٦٥).

د ـ خالد بن عبد الملك

أحد المشتغلين بعلم النجوم، وممن كانوا في الجماعة التي انتدبها المأمون برياسة سند بن علي للقيام بالرصد وإصلاح آلات الرصد، في مرصدي الشماسية وجبل قاسيون(١٦٦).

هـ ـ حبش الحاسب

وممن كان من أصحاب الأرصاد في أيام المأمون «حبش الحاسب» وهو لقب غلب عليه، واسمه أحمد بن عبد الله، عاصر الخليفتين المأمون والمعتصم بالله، وتوفي سنة ٢٢٠. وكان متقدماً مشهوراً في حساب تسيير الكواكب(١٦٧). قال عنه القاضي صاعد الأندلسي إنه ممن اشتهر بعلم حركات النجوم وهيئة العالم، وله ثلاثة أزياج: أولها المؤلَّف على مذهب السند هند، وقد خالف فيه الفزاري والخوارزمي في عامة الأعمال، واستعماله حركة إقبال فلك البروج وإدباره على رأي ثاون الاسكندراني ليصلح بها مواضع الكواكب في الطول. وكان تأليفه هذا الزيج أول مرة في أيام كان سائداً فيها حساب السند هند. والثاني المعروف بـ الممتحن وهو أشهر كتبه، ألّفه بعد أن مارس الرصد، وضمّنه حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان في زمانه. والثالث الزيج الصغير. وله كتاب حسن في العمل بالإصطرلاب(١٦٨).

وقد أثنى البيروني على طريقة حبش في احتسابه رؤية الهلال في زيجه الممتحن وسمّاه الحكيم حبش. ويقول: وعملت كتاباً وسميته تكميل زيج حبش بالعلل وتهذيب أعماله من الزلل(١٦٩).

ولحبش عدد من المصنفات في علم الفلك وآلات الرصد والقياس، منها: كتاب عمل الإصطرلاب، وكتاب الأبعاد والأجرام، وكتاب الزيج الدمشقي، وكتاب الزيج المأموني،

---

(١٦٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(١٦٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢١٩ و٢٤٢.

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ١١٧٠ ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٨، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص ٢٧.

(١٦٨) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره وذيّله بالحواشي وأردفه بالروايات لويس شيخو اليسوعي (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢)، ٥٤.

(١٦٩) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق إدوار سخاو (ليبزك: ادوارد سخاو، ١٩٢٣)، ص ١٩٨ و٤٠ على التوالي.

وكتاب الرخائم والمقاييس[١٧٠]. ويقول البيروني إن هذين الزيجين قد يكونان كناية عن الزيج الممتحن[١٧١].

وتلت هذه الطبقة من طليعة الراصدين جماعة من العلماء والفلاسفة كانوا أبرز الفلكيين والمنجمين في هذا القرن وقد جمعوا بين العلم والعمل في ميزان علم الفلك، فكانت لهم أرصاد سجلوا نتائجها وحققوا عديداً من القضايا الفلكية، كما مارس بعضهم التنجيم.

و ـ الكندي

تميز يعقوب بن اسحاق الكندي بتعدد العلوم التي عني بدراستها إلى جانب الفلسفة التي برع فيها وحاز قصب السبق في أفانينها. ومن العلوم التي برز فيها علم النجوم بقسميه، الفلك والتنجيم. وكانت له دراسات وأرصاد فلكية توصّل بها إلى بعض الآراء المهمة. فقد رصد المذنّب هالي الذي ظهر في سنة ٢٢٢ وتتبّع حركاته ووضع أربع رسائل عنه، هي[١٧٢]: رسالة في الكوكب الذي ظهر ورصده أياماً حتى اضمحل، ورسالة في الكوكب ذي الذؤابة، ورسالة في الأثر الذي يظهر في الجو ويسمى كوكباً، ورسالة في ما رصد من الأثر العظيم في سنة ٢٢٢. واعتبره بعض المؤرخين واحداً من ثمانية، هم أئمة العلوم الفلكية في القرون الوسطى، وقال عنه العالم الشهير رودجر بيكون: إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطلميوس[١٧٣].

وكانت منازل القمر عند العرب قبل الإسلام تشتمل على بعض الكواكب الخارجة عن صور البروج الاثني عشر، كما أنها كانت غير متساوية في الطول. إلا أن علماء الفلك العرب أخذوا في القرن الثالث تقسيم المنازل الهندي وهو سبعة وعشرون منزلاً، وسموها بالأسماء العربية القديمة نفسها. ويعتبر الكندي أول من اتّبع هذا المنهج الهندي في تقسيم فلك البروج إلى سبعة وعشرين منزلاً، طول كل منزل ثلاث عشرة درجة وثلثا الدرجة، أي في كل برج منزلان وربع المنزل، ويبدو ذلك واضحاً في رسالته المسماة في علل القوى المنسوبة إلى الأشخاص العالية الدالة على المطر[١٧٤]، وممن اتّبع الكندي في تقسيمه هذا من الفلكيين المعاصرين له أبو معشر، فقد صنّف كتاباً في الأمطار والرياح وتغير الأهوية وقد وضعه على مذهب الهند في تقسيم البروج، كما أن البتّاني حاول تعديل ما قام به الكندي فقسّم فلك

---

(١٧٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٨، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧٠.

(١٧١) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٩٦.

(١٧٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٨؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٧٤، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٢.

(١٧٣) طوقان، المصدر نفسه، ص ٩٢.

(١٧٤) علم الفلك عند العرب، ص ١١٧ ـ ١١٨.

البروج إلى ثمانية وعشرين منزلاً متساوياً وجعل لكل منزل اثني عشرة درجة وستة أسباع الدرجة، فوقع لكل برج منزلان وثلث المنزل[175].

وكان الكندي إلى جانب اهتمامه بعلم الفلك منجّماً ماهراً، فكان منجّم بلاط الخلافة منذ عهد هارون الرشيد حتى أيام المتوكل على الله. وهو يرى أن الأشخاص العالية، ويسميها أحياناً الأشخاص السماوية، ويقصد بها الأجرام السماوية، تؤثر في الكائنات الأرضية مما يقع تحت الكون والفساد. على أنه يرى أيضاً أن هذه الأشخاص لم يكن لها أي تأثير في علّة الكيفيات الأولى، أي القوة المبدعة الخالقة. وذلك واضح من رسالته في هذا الموضوع رسالة في الإبانة أن الاختلاف الذي في الأشخاص العالية ليست علّة الكيفيات الأولى كما هي علة ذلك في التي تحت الكون والفساد، ولكن علة ذلك حكمة مبدع الكل عزّ وجلّ[176]. بل إن الكندي يعتقد أيضاً أن لحركات النجوم في أوضاع معينة تأثيراً على منفعة الطب والعلاج للإنسان، وقد أوضح ذلك في رسالته في الإبانة عن منفعة الطب إذا كانت صناعة النجوم مقرونة بدلائلها[177].

وصنّف الكندي في علم النجوم إضافة إلى ما ذكر عدداً آخر من الكتب والرسائل تتعلق بالأفلاك والكواكب والأبراج. ومن هذه الكتب: كتاب رسالة في تركيب الأفلاك، وكتاب في أن طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الأربعة وأنها طبيعة خامسة، ورسالة في المناظر الفلكية، ورسالة في سرعة ما يُرى من حركة الكواكب إذا كانت في الأفق وإبطائها كلما عَلَت، وكتاب في إيضاح علة رجوع الكواكب، ورسالة في رجوع الكواكب المتحيّرة، ورسالة في ما ينسب إليه كل بلد من البلدان إلى برج من البروج وكوكب من الكواكب، ورسالة في علل الأوضاع النجومية، ورسالة في أن رؤية الهلال لا تضبط بالتحقيق وإنما بالقول فيه بالتقريب، ورسالة في منفعة صناعة الأحكام ومن الرجل المسمى منجماً بالاستحقاق، ورسالة في الاستدلال بالكسوفات، ورسالة في تقدمة المعرفة بالاستدلال بالأشخاص السماوية، ورسالة في دلائل التحسين في برج السرطان[178]. ويسميها ابن أبي أصيبعة رسالة في اقتران النحسين في برج السرطان ويقول إن هذه الرسالة هي نفسها رسالته في الإخبار عن كمية مُلك العرب[179]. ويبحث الكندي في هذه الرسالة في اقتران زحل الذي هو النحس الأكبر بالمريخ، الذي هو النحس الأصغر، في برج السرطان. وهذه الحالة عند

---

(175) المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(176) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٩، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٣.

(177) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(178) حول كتبه في علم النجوم، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٣، وابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٦.

(179) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩١.

المنجمين مشؤومة لأنها دليل نحس، وأن الكندي تنبأ في رسالته المذكورة عن مقدار ملك العرب ونهايته.

ويقول ابن خلدون عن هذه الرسالة إن يعقوب بن اسحاق الكندي وضع كتاباً سماه الشيعة الجفر باسم الكتاب المنسوب للإمام جعفر الصادق، ذكر فيه في ما يقال، أحداث دولة بني العباس وأشار إلى أنها ستنقرض في انتصاف المئة السابعة(١٨٠). ومن المعروف أن التتار هاجموا الدولة العربية بقيادة هولاكو ودخلوا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله اخر خليفة عباسي، في سنة ٦٥٦.

ز - بنو موسى

قال عنهم القاضي صاعد الأندلسي «وكانوا جميعاً من المتقدمين في علم الفلسفة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم»(١٨١)، وكنا أشرنا في فصول سابقة إلى مآثرهم في الترجمة وفي العلوم الرياضية. وكانت لهم جهود بارزة كذلك في علم النجوم. فقد أقاموا مرصداً على طرف الجسر المتصل بباب الطاق ببغداد وحققوا نتائج فلكية مثيرة. منها أنهم استخرجوا حساب العرض الأكبر من عروض القمر، وقاسوا عرض مدينة بغداد في سنة ٢٤٥ وثبتوه بثلاث وثلاثين درجة وعشرين دقيقة، وهو قريب جداً من العرض الحقيقي(١٨٢). كما ساهموا في القيام بقياس محيط الكرة الأرضية.

وكان محمد المتوفى سنة ٢٥٩، أكبر إخوته، متقدماً في علم الفلك وله من الكتب فيه، كتاب حركة الفلك الأولى، وتقويمات لمواضع الكواكب السيارة، في ضوء الأرصاد التي أجراها(١٨٣).

أما أوسطهم أحمد بن موسى فله في علم الفلك كتاب مهم هو كتاب الجزء وقد بيَّن فيه بطريق تعليميّ ومذهب هندسيّ أنه ليس في خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة(١٨٤).

ح - ثابت بن قرّة

كان ثابت مع شهرته في الفلسفة والهندسة فلكياً منجماً متميزاً، له منجزات ومصنفات عدة في علم الفلك. لقد كانت له أرصاد مهمة للشمس قام بها بمرصد بغداد وجمعها في كتاب بيِّن فيه مذهبه في سنة الشمس وما توصل إليه عن أوجها وحركاتها وصورة

---

(١٨٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٨٤.

(١٨١) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥.

(١٨٢) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٠٥ و١١٠.

(١٨٣) المصدر نفسه، ص ١٠١، والبغدادي، هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ٢، ص ١٦.

(١٨٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٣، والبغدادي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠.

تعديلها[185]. والكتاب هو رسالة في سنة الشمس[186]. وكنا أشرنا في فصل سابق من هذا الباب إلى توصّله إلى معرفة طول السنة النجمية وإلى وجود حركتين لنقطة الاعتدال. كما قام بأرصاد مشتركة مع أبناء موسى بن شاكر في مرصدهم، فدرس آثاراً ظهرت في الجو وأحوالاً كانت في الهواء[187].

ولثابت كتب فلكية أخرى تتعلق بالأفلاك عامة، وبالشمس والقمر خاصة، ومنها: كتاب في تركيب الأفلاك وخلقتها وعددها وعدد حركات الجهات لها والكواكب فيها ومبلغ سيرها والجهات التي تتحرك فيها. وهو كتاب واسع عن الأفلاك. وكتاب في إبطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها وتوسّطها بحسب الموضع الذي يكون فيه من الفلك الخارج المركز. وكتاب في ما يظهر في القمر من آثار الكسوف وعلاماته، وكتاب في علة كسوف الشمس والقمر، يقول عنه القفطي إنه من كتبه الموصوفة. وكتاب في رؤية الأهلة من الجداول، وكتاب في ما أغفله (ثاون) في حساب كسوف الشمس والقمر[188]. وله كتب عديدة أخرى في الأرصاد باللغتين العربية والسريانية[189]. هذا بالإضافة إلى جهوده في تبسيط المجسطي وجعله سهل التناول.

وقد سبق أن ذكرنا أن ثابت بن قرّة كان منجماً في بلاط الخليفة المعتضد بالله، وكان مقرّباً إليه، مبجّلاً لديه. وله في علم الأحكام كتابان مهمان هما: كتاب في طبائع الكواكب وتأثيراتها، وكتاب في محنة حساب النجوم[190].

ط ـ البتّاني

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرّاني المعروف بالبتّاني نسبة إلى بتّان إحدى قرى حرّان، وقد وُلد فيها وعاش أكثر أيامه في الرقة التي ينسب إليها أحياناً، من مشاهير علماء العرب في الفلك والرياضيات. وقد ابتدأ الرصد، كما قال هو عن نفسه منذ سنة أربع وستين ومئتين إلى سنة ست وثلاثمئة، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه في سنة ٢٩٩[191]. يقول عنه صاعد الأندلسي «أحد المشهورين برصد الكواكب، والمتقدمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم وصناعة الأحكام... ولا أعلم أحداً في الإسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان

---

(١٨٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٥.

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٩، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٨.

(١٨٧) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

(١٨٨) حول كتبه في علم الفلك، انظر: المصدر نفسه، ص ٢٩٩، والقفطي، المصدر نفسه، ص ١١٧ ـ ١١٨.

(١٨٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٩، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(١٩٠) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٧، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

(١٩١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٨١.

حركاتها، وله بعد ذلك عناية بأحكام النجوم»[192]. ويقول عنه ابن خلكان «صاحب الزيج الصابي»، له الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة، وكان أوحد عصره في فنه. وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه»[193].

وقال عنه سارتون: «إنه من أعظم علماء عصره، وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات، ووصل إعجاب لالاند، العالم الفرنسي، ببحوث البتّاني ومآثره إلى درجة جعلته يعده من العشرين فلكيا المشهورين في العالم كله»[194].

وكان البتّاني قدم إلى بغداد مع وفد من بني الزيات، في عهد الخليفة المقتدر بالله، لرفع ظلامة كانت لهم، فلما رجع مات في الطريق عند قصر الجص قرب سامراء في سنة ٣١٧[195]. وقد وهم ابن خلكان حين سماه قصر الحضر.

أرصاده: اشتغل البتّاني برصد الكوكب مدة ٤٢ عاماً، أقام في خلالها بمدينة الرقّة على نهر الفرات، يراقب من مرصدها الأفلاك والنجوم ويتتبع حركاتها ويسجل كل ما يراه يومياً، مما جعل لأرصاده أهمية خاصة. وقد تناولت أرصاده أول ظهور القمر، وميلان فلك البروج، وطول المدارَيْن، والسنة النجومية، والحاصّات القمرية، والخسوفات والكسوفات، واختلاف المناظر[196]. وقد استهدى في أرصاده بمذهب بطلميوس المبيَّن في كتابه المجسطي، فيقول «أجريت في تصحيح ذلك وإحكامه على مذهب بطلميوس في الكتاب المعروف بـ المجسطي، بعد إنعام النظر وطول الفكر والرؤية مقتفياً أثره متبعاً ما رسمه، إذ كان قد تقصَّى ذلك من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعددي الذي لا تدفع صحته ولا يُشك في حقيقته فأمرّ بالمحنة والاعتبار بعده. وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إبرخس وغيره من نظرائه لجلالة الصناعة ولأنها سمائية جسيمة لا تدرك إلا بالتقريب»[197].

ورغم عدم توفر الآلات الدقيقة آنذاك فقد أنجز البتّاني في أرصاده ما لا يزال موضع اعجاب المختصين. وساعده على ذلك مهارته في الهندسة والفلك وحساب النجوم، وكان قد جمع بينها بدرجة عالية من التفوق. وأهم ما أنجزه أنه صحح بعض ما توصّل إليه بطلميوس، مثل قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي، وميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجدها نتيجة حسابه (٢٣) درجة و (٣٥) دقيقة، وهي تقلّ عما يعرفه الفلكيون في أيامنا بدقيقة واحدة، وحسب طول السنة الشمسية فوصل إلى مقدار مضبوط يقلّ بدقيقتين واثنتين وعشرين ثانية عما هو معروف اليوم، وصحح بعض حركات القمر والكواكب السيّارة، كما توصّل إلى التثبت من مواقع كثير من النجوم. وعيَّن أوقات حدوث الكسوف

---

(١٩٢) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥.
(١٩٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، ص ٢٥٠.
(١٩٤) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٢٣.
(١٩٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٤، وابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٥٠.
(١٩٦) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٥٧٩.
(١٩٧) البتّاني، الزيج الصابيء، ص ٧.

وأثبت احتمال حدوث الكسوف الحلقي للشمس، وقد استفاد علماء الغرب من أرصاده للكسوف والخسوف في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمن[١٩٨].

وبنتيجة أرصاده وضع البتّاني كتاب الزيج المشهور باسمه، وقد ضمّنه خلاصة ما توصّل إليه في أرصاده، مع جداول ورسوم فلكية توضيحية وضعها بدرجة عالية من الدقة والإتقان. اعتمد البتاني في تنظيم زيجه هذا على نتائج تحقيقاته الفلكية ومعلوماته الرياضية. ويعتبر أول زيج عربي يحتوي على معلومات صحيحة دقيقة. وقد قيل إنه أصح من زيج بطلميوس، وانه من أنفس الكتب، وان البتّاني توفّق في بحثه عن حركة الشمس توفيقاً عظيماً[١٩٩]. وتبدو دقّة البتاني في أرصاده الفلكية، وما بذله من جهود، وما كابده من مشقّة وصبر، في قوله «ووضعت في ذلك كتاباً أوضحت فيه ما استعجم وفتحت ما استغلق وبيّنت ما أشكل من أصول هذا العلم وشذّ من فروعه وسهّلت به سبيل الهداية لمن يتأسّر به ويعمل عليه في صناعة النجوم. وصحّحت فيه حركات الكواكب ومواضعها من منطقة فلك البروج على نحو ما وجدتها بالرصد وحساب الكسوفين وسائر ما يُحتاج إليه من الأعمال»[٢٠٠] ثم يقول في خاتمة الكتاب «وإنما تصحّ الأشياء التي هذه سبيلها إذا كان القياس بآلتين متقنتين في سائر أمورهما أو بآلة واحدة صحيحة لم تتغير عن الحالة الأولى في شيء من الأشياء، وإن الذي يكون فيها من تقصير الإنسان في طبيعته عن بلوغ حقائق الأشياء في الأفعال كما يبلغها في القوة يكون يسيراً غير محسوس عند الاجتهاد والتحرّز، ولا سيما في المدد الطوال. وقد يعين الطبع وتسعد الهمة وصدق النظر وإعمال الفكر والصبر على الأشياء، وإن عسر إدراكها...»[٢٠١]. وقد ترجم كتاب الزيج الصابىء إلى اللغة اللاتينية بلاتو التيفولي (Plato of Tivoli) حوالى سنة ١١٥٠[٢٠٢].

ولمعرفة طريقة بحث البتاني في الكتاب، وما انطوى عليه من المواضيع، ونهجه في ذلك نرى أن نعرض محتواه بإيجاز:

يتضمن الكتاب سبعة وخمسين باباً، خُصِّص الأول منها لمقدمة الكتاب التي بيّن فيها المصنِّف خطته في تأليفه وأسباب وضعه، يقول إنه وقف «على اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم وما تهيأ على بعض واضعيها من الخلل... وما اجتمع في حركات النجوم على طول الزمان لما قيست أرصادها إلى الأرصاد القديمة وما وجد في ميل فلك البروج عن فلك النهار من التقارب وما تغيّر بتغيّره من أصناف الحساب وأقدار أزمان السنين وأوقات الفصول. فأجرى تصحيح ذلك وأحكمه على مذهب بطلميوس في كتابه المجسطي مقتفياً أثره ومتبعاً ما رسمه»[٢٠٣].

وأبرز أبواب الكتاب الأخرى حسب أهمية المواضيع التي تضمنتها [البابان الرابع والخامس] ويبحثان في معرفة ميل فلك البروج عن فلك معدل النهار وتجزئة هذا الميل وجهاته

(١٩٨) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٢٤.
(١٩٩) المصدر نفسه، ص ١٢٦.
(٢٠٠) البتّاني، المصدر نفسه، ص ٧.
(٢٠١) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.
(٢٠٢) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ١٧٩.
(٢٠٣) البتّاني، المصدر نفسه، ص ٧.

ومراتبه في صعوده وهبوطه، وهو ميل الشمس على الفلك المستقيم، وفي معرفة مطالع البروج في الفلك المستقيم. و[البابان الثامن عشر والسادس والعشرون] في معرفة أبعاد الكواكب على فلك معدل النهار وما يتوسط السماء معها من أجزاء البروج، ومعرفة أبعاد ما بين الكواكب في رسمها في الفلك ومواضع بعضها من بعض، وبه يعلم بُعد القمر عن الشمس على الحقيقة بحسب عرض القمر. و[الباب السابع والعشرون] في معرفة مقدار أزمان السنة ومسير الشمس فيها. و[الباب الثلاثون] في صفة أفلاك القمر واختلاف حركاته وزيادة ضوئه ونقصانه، وعلل الكسوفين، وأبعاد النيّرين عن مركز الأرض وأقطارها وعظم أجرامها إذا قيسا إلى الأرض. و[الباب الثاني والثلاثون] في معرفة تاريخ العرب والروم والقبط والفرس وتحويل بعضها إلى بعض. و[الباب الحادي والأربعون] في رؤية الهلال في أوائل الشهور وأواخرها وسمت موضعه الذي يُرى به في ارتفاعه وانخفاضه وشكل صورته على حساب ما فيه من الضوء واعتدال طرفيه وميلها عن نطاق البروج. و[البابان الثالث والأربعون والرابع والأربعون] في معرفة كسوف القمر بالحساب والجداول ومعرفة أقدار الكسوف وأوقاته وجهة الظلمة والانجلاء من دوائر الآفاق المختلفة للبلدان، وفي معرفة كسوف الشمس وإقراره وأوقاته في كل بلد من البلدان وجهات ظلمته، وجهات انجلائه بالحساب وبالجداول. و[البابان الخامس والأربعون والثامن والأربعون] في معرفة مواضع الكواكب المتحيّرة من فلك البروج ورجوعها وعروضها وطلوعها وغروبها. و[البابان الخمسون والواحد والخمسون] في معرفة أبعاد الكواكب وأقطارها وعظم اجرامها وسعة أفلاكها، وحركتها الثابتة التي تتحرك في فلكها أو يتحرك فلكها بها. و[الباب الثاني والخمسون] في معرفة ما ذكره أصحاب الطلّسمات في قولهم إن للفلك حركة انتقال مقبلة ومدبرة وما يظهر من فساد قولهم. و[الباب السادس والخمسون] يتناول فيه عمل آلة بسيطة وقائمة يعرف بكل واحدة ما يمضي من النهار من ساعة زمانية في كل بلد، وتدعى الرخامة. ويتضمن [الباب السابع والخمسون] صنعة بعض آلات الرصد، وهي: البيضة، واللبنة، والعضادة. ويختم الفصل بإرشادات حول كيفية استخدام جداول الكتاب لاستخراج أوائل سني العرب وشهورهم، وأوائل شهور الروم.

وأُلحقت بالكتاب جداول تاريخية عن ملوك اليونان ومدة ملكهم، وعن الخلفاء من لدن هجرة الرسول ﷺ. وجداول بأوساط البلدان، ويذكر اسم (٩٤) بلداً، وهي الواردة في كتاب بطلميوس، والتي أغفلها الخوارزمي في كتابه صورة الأرض، وجداول بعدد كبير من أسماء المدن مع خطوط أطوالها وعروضها. ثم جداول تفصيلية للكواكب التي رصد البتاني حركاتها، مع بيان مواقعها.

وتختلف طريقة البتاني في البحث باختلاف طبيعة الموضوع الذي يعالجه. فيتبع أحياناً الطريقة التقريرية فيمهد للبحث بمعلومات معينة عنه، ثم يذكر الأرصاد التي قام بها والعمليات الحسابية التي أجراها، ويصف مشاهداته، ويبين ملاحظاته، وما حققه من نتائج وما أصلحه من أخطاء. أو أنه يتبع أسلوباً تعليمياً يوجه به القارىء ليقوم ببعض العمليات

حتى يصل إلى النتيجة المطلوبة. وهو يقدّم ذلك بأسلوب علمي خالٍ من الحشو والتكرار، تلمس فيه ثقة المؤلف بنفسه، ودقة معلوماته وسعتها، وإحاطته بها. فقد بحث في الباب السابع والعشرين في تحقيق طول السنة الشمسية بأن مهّد للموضوع فذكر رأي بطلميوس فيه، ثم وضّح ما قام به من أرصاد، وبيّن الفرضيات التي تمّت بموجبها خطوات عمله، والعمليات الحسابية التي أجراها حتى توصّل إلى النتيجة النهائية.

وتضمّن الباب السادس من الكتاب معلومات جغرافية قيّمة كنا أشرنا إليها في بحث موضوع الجغرافيا.

وللبتاني مصنفات فلكية أخرى، منها: **كتاب مطالع البروج في ما بين أرباع الفلك**، **ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات**، وقد عملها للوزير أبي الحسن علي بن محمد بن موسى المعروف بابن الفرات المتوفى سنة ٣١٢، **وكتاب شرح الأربعة لبطلميوس**[٢٠٤].

ي - النيريزي

أبو العباس الفضل بن حاتم المتوفى سنة ٣١٠ من الرياضيين الذين اشتهروا في هذا القرن، وقد اشتغل بعلم النجوم وكان ممن يشار إليه فيه، وبخاصة في علم الهيئة منه[٢٠٥]. كما كان متقدماً في علم الهندسة وله تواليف مشهورة[٢٠٦]. وقد شرح كتاب **المجسطي**، كما سبق له أن شرح كتاب **الأصول** لإقليدس. وقد مارس أعمال الرصد فكان من مشهوري الفلكيين[٢٠٧].

وللنيريزي مؤلفات عديدة في علم النجوم، منها: **كتاب الزيج الكبير** وقد وضعه على مذهب السند هند، **وكتاب الزيج الصغير**، **وكتاب البراهين وتهيئة آلات يتبيّن فيها أبعاد الأشياء**، **وكتاب سمت القبلة**، **وكتاب تفسير كتاب الأربعة لبطلميوس**[٢٠٨].

وتُرجم من كتبه إلى اللاتينية شرح كتاب **الأصول**، ترجمه جيرارد القرموني[٢٠٩].

وكان إلى جانب الذين ذكرناهم من الفلكيين والمنجمين، عدد من الفلاسفة والعلماء

---

(٢٠٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٤.

(٢٠٥) المصدر نفسه، ص ٤٠٣.

(٢٠٦) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٥٤.

(٢٠٧) طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ١٢١.

(٢٠٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(٢٠٩) طوقان، المصدر نفسه، ص ١٢١.

اعتنوا بدراسة علم النجوم بقسميه الفلك والتنجيم وصنفوا فيهما كتباً مهمة، ومنهم التالية أسماؤهم بحسب تسلسلهم الزمني:

ك ـ عطارد بن محمد

الحاسب المنجّم، له من الكتب في علم النجوم: كتاب الجفر الهندي، وتفسيره، وكتاب تركيب الأفلاك، وكتاب العمل بالإصطرلاب، وكتاب العمل بذات الحلق[٢١٠].

ل ـ الخوارزمي

محمد بن موسى، الرياضي الشهير صاحب الجبر والمقابلة. اشتغل بعلم الهيئة وصنّف فيه. وكان من أول أعماله التي اشتهر بها أنه اختصر كتاب السند هند الذي وضعه ابراهيم بن حبيب الفزاري في أيام الخليفة أبي جعفر المنصور «وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الإسلام، وعوّل فيه على أوساط السند هند وخالفه في التعاديل والميل، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس ـ وهي سنون شمسية بسيطة تشتمل على ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً دون كسر أو كبس[٢١١] ـ وميل الشمس فيه على مذهب بطلميوس ـ الذي يحتسب سنة الشمس حركتها وابتداءها، من نقطة الفلك الخارج للمائل حتى تعود إلى تلك المنطقة، وأن مدة ذلك من الزمان ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم إلا جزءاً من ثلاثمئة جزء من اليوم[٢١٢] ـ واخترع فيه من أنواع التقريب أبواباً حسنة. . . فاستحسنه أهل ذلك الزمان من أصحاب السند هند وطاروا به في الآفاق وما زال نافعاً عند أهل العناية بالتعديل إلى زماننا هذا»[٢١٣].

ويقول ابن النديم «وكان الناس قبل الرصد وبعده يعوّلون على زيجيه الأول والثاني ويعرفان بالسند هند»[٢١٤].

وللخوارزمي من الكتب في علم النجوم اضافة إلى ما ذكرناه، كتاب العمل بالإصطرلاب، وكتاب عمل الإصطرلاب، وكتاب الرّخامة[٢١٥].

م ـ ابن البازيار

محمد بن عبد الله بن عمر بن البازيار البغدادي المتوفى سنة ٢٤٥ وهو تلميذ حبش الحاسب. كان في جملة ندماء الخليفة الواثق بالله. ويعتبر من المتقدمين في أحكام النجوم وما

---

(٢١٠) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٠١، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٢١١) علم الفلك عند العرب، ص ١٦٣.

(٢١٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٨٨.

(٢١٣) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧١.

(٢١٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٧.

(٢١٥) المصدر نفسه، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

يتعلق بحوادثها، وله في ذلك من الكتب: كتاب الزيج المنسوب إليه، وكتاب القرانات وتحويل سني العالم، وكتاب المواليد وتحويل سنيها[216].

ن ـ الفُرغاني

أحمد بن محمد بن كثير، المهندس القدير. يعتبر من أعظم فلكيي القرن الثالث، نشأ في فرغانة من بلاد تركستان، وكتابه العظيم في جوامع علم النجوم ترجمه إلى اللاتينية جيرارد القرموني[217]. ويظهر أن هذا الكتاب هو الذي ذكره صاعد الأندلسي باسم المدخل إلى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم وقال عنه إنه كتاب لطيف الجرم عظيم الفائدة تضمّن ثلاثين باباً احتوت على جوامع كتاب المجسطي بأعذب لفظ وأبين عبارة[218].

وكان المأمون قد اتخذ الفرغاني منجّماً لما لمسه فيه من براعة في علم أحكام النجوم[219]. قال عنه ابن النديم إنّه كان منجماً مقدماً في صناعته ولقّبه بالحاسب وذكر له من الكتب الأخرى في علوم النجوم: كتاب الجمع والتفريق، وكتاب الفصول اختيار المجسطي، وكتاب عمل الرخامات[220].

س ـ الصيمري

القاضي محمد بن اسحاق بن أبي العنبس، أحد ندماء المتوكل على الله، غلب عليه خبث اللسان والهزل. كان عارفاً بأحكام النجوم وله فيه كتاب يمدحه المنجمون، ومن كتبه في هذا الموضوع: كتاب أحكام النجوم، وكتاب المدخل إلى صناعة التنجيم، وكتاب الرد على المنجمين، وكتاب أصل الأصول في خواص النجوم، وكانت وفاته في سنة ٢٧٥[221].

ع ـ ابن الطيِّب

أحمد بن محمد بن مروان السُّرخسي، أبرز تلاميذ الكندي، درس عليه الفلسفة وعلوماً أخرى، وكان واحد العلماء الفقهاء المحصّلين الفصحاء البلغاء، له في علم الأثر الباع الوساع... وله في كل

---

(٢١٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٩٩؛ والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٢١٧) أرنولد [وآخرون]، تراث الاسلام، ص ٥٧٠.

(٢١٨) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢١٩) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٢٢٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠٣ و٤٠٧.

(٢٢١) المصدر نفسه، ص ٢٢٣؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص ٤٠٢ و٤٥٤، والزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٦، ص ٢٥٢.

من تصانيف»[٢٢٢]. قرّبه الخليفة المعتضد بالله واتخذه نديماً مستشاراً لما رآه من رجاحة عقله، ولم تشر المصادر الأولية إلى اشتغاله بالتنجيم، كما أن الخليفة لم يدخله في منجمي بلاطه. ولكن بين مصنفاته كتاب في علم النجوم هو كتاب المدخل إلى صناعة النجوم[٢٢٣]. ويظهر مما ذكره البيروني أن لابن الطيّب كتاباً في قران النحسين في برج السرطان[٢٢٤]. ويبدو أنه صنّفه اقتداء بأستاذه الكندي الذي صنّف كتاباً في الموضوع ذاته، سبقت الإشارة إليه.

ف ـ أبو حنيفة الدينوري

أحمد بن داود المتوفى سنة ٢٨٢، كان من الذين اشتغلوا بعلوم متعددة، منها الرياضيات والفلك. يقول عنه ابن النديم إنه كان مفنناً في علوم كثيرة وإنه ثقة في ما يرويه. وذكر له من الكتب مما يتعلق بعلم النجوم كتاب الزيج المعروف باسمه، وكتاب الأنواء، الذي ينطوي على معلومات فلكية غزيرة تدل على سعة علمه في الموضوع، وكتاب القبلة والزوال، وكتاب الرد على رصد الأصفهاني[٢٢٥].

ص ـ أبو معشر

لعل أشهر من عمل بصناعة أحكام النجوم هو جعفر بن محمد بن عمر البَلْخي، أصله من بَلْخ من مدن ما وراء النهر، وأقام مدة طويلة ببغداد وبها اشتهر فكان ينسب إليها أحياناً. ويظهر أنه لم يرق له ما وصل إليه الفيلسوف الكندي من منزلة علمية واجتماعية، فأخذ يغري به العامة ويشنّع عليه بعلوم الفلاسفة، فدسّ عليه الكندي من حسّن له النظر في علوم الحساب والهندسة، فدخل في ذلك فلم يتم له شيء منها، فعدل عنها إلى علم أحكام النجوم، فانقطع شرّه عن الكندي. ويقال إنه تعلّم أحكام النجوم بعد السابعة والأربعين من عمره، فكان حسن الإصابة فيه[٢٢٦]. وصار إمام وقته في فنه وله فيه تصانيف عديدة[٢٢٧]. واعتبره القاضي صاعد الأندلسي «عالم أهل الاسلام بأحكام النجوم وصاحب التاليف الشريفة والمصنّفات المفيدة في صناعة الأحكام وعلم التعديل»[٢٢٨].

---

(٢٢٢) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د. ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦) ج ١، ص ١٥٨.

(٢٢٣) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨١، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٧٨.

(٢٢٤) البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ١٣٢.

(٢٢٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ١٢٢، وياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، ج ١، ص ١٢٥.

(٢٢٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٠٠، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٥٣.

(٢٢٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ١، ص ٣١٠.

(٢٢٨) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٧.

ورغم ما عدَّده ابن النديم من مصنفات أبي معشر في أحكام النجوم، فإنه يشكك في أن تكون جميعها من تصنيفه، فيقول «كان سند بن علي وهب أبا معشر كتاب المدخل فانتحله أبو معشر، لأنه تعلّم النجوم على كِبَر ولم يبلغ عقله صنعة هذا الكتاب، ولا التسع مقالات في المواليد، ولا الكتاب في القرانات المنسوب إلى ابن البازيار، هذا كله لسند بن علي»[٢٢٩] وقد قال القفطي مثل هذا مؤيداً انتحال أبي معشر هذه الكتب[٢٣٠].

وكنا أشرنا في الفصل الخاص بخزائن الكتب إلى أن خزانة علي بن يحيى المنجِّم، وُصفت لأبي معشر فأقام بها مدة تعلّم فيها علم أحكام النجوم. ويظهر من شهرة أبي معشر ومصنفاته أنه اقتصر على جانب الأحكام من علم النجوم، ولم يبرز في الرياضيات التي حسَّن الكندي له دراستها لأنه لم تكن له القابلية على استيعابها، خاصة أنه باشر الدراسة في مرحلة متأخرة من عمره.

كان أبو معشر أحد منجمي الخليفة المستعين بالله، وقد سبق أن أشرنا إلى قصته معه. ولما تولى المعتز بالله الخلافة انتدب أبا معشر لرياسة منجمي البلاط. وكان لعلاقة أبي معشر بالمعتز بالله قصة خلاصتها أن الشاعر أبا عبادة البحتري وأبا معشر المنجم قد ضاقت بهما الحال فعنَّ لهما أن يزورا المعتز بالله وكان محبوساً آنذاك، فيتوددا إليه ويؤصلا عنده أصلاً، فتوصّلا حتى لقياه في حبسه. فأنشده البحتري أبياتاً كان قالها في أحد القواد، فخاطب بها المعتز كأنها عملت له في الحال. فأخذ المعتز الرقعة التي فيها الأبيات وطلب إلى خادمه أن يحتفظ بها ويذكّره بأمرها إن فرّج الله تعالى عنه ليقضي حق الشاعر. ويقول أبو معشر: وقد كنت أنا أخذت مولده وقت عُقد له العقد ووقت عُقدت البيعة للمستعين بالخلافة فنظرت في ذلك، وصححت الحكم للمعتز بالخلافة بعد فتنة تجري وحروب، وحكمت على المستعين بالقتل، فسلّمت ذلك إلى المعتز وانصرفنا. وضرب الدهر ضربه وصحّ الحكم بأسره. قال لي أبو معشر: فدخلت أنا والبحتري إلى المعتز بالله وهو خليفة بعد المستعين، لتعزيته، فقال لي المعتز: لم أنسك وقد صح حكمك وقد أجريت لك في كل شهر مئة دينار رزقاً وثلاثين ديناراً نزلاً، وجعلتك رئيس المنجمين في دار الخلافة، وأمرت لك عاجلاً بإطلاق ألف دينار صلة، فقبضت ذلك كله من يومي[٢٣١].

كما اتخذ الأمير الموفق أبو أحمد أخو الخليفة المعتمد على الله وقائد جيوشه، أبا معشر منجماً خاصاً به صحبه في حروبه مع الزنج بالبصرة[٢٣٢].

---

(٢٢٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنِّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٨.

(٢٣٠) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٥٤.

(٢٣١) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج ١، ص ٩٣ - ٩٤.

(٢٣٢) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٥٣.

ولأبي معشر عديد من الكتب في أحكام النجوم منها: كتاب المدخل، وكتاب القرانات وقد وضعه لابن البازيار، وكتاب تحويل سني المواليد، وكتاب اقتران النحسين في برج السرطان، وكتاب الاختيارات على منازل القمر، وتفسير المنامات بالنجوم، وكتاب الزيج الكبير، وهو جامع لأكثر علوم الفلك بالقول المطلق المجرد من البرهان، وكتاب الزيج الصغير المعروف بـ زيج القرانات، ويتضمن معرفة أوساط الكواكب لأوقات اقتران زحل والمشتري منذ عهد الطوفان[٢٣٣].

وقد توفي أبو معشر بمدينة واسط في أواخر شهر رمضان من سنة ٢٧٢ وقد جاوز المئة سنة من عمره[٢٣٤].

ق ـ قُسطا بن لوقا البعلبكي

كان عالماً بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى، وكان متحققاً بعلم العدد والنجوم[٢٣٥]. وله من الكتب في علم النجوم: كتاب المدخل إلى علم النجوم أو المدخل إلى الهيئة وحركات الأفلاك والكواكب، وكتاب العمل بالكرة النجومية[٢٣٦].

ر ـ أبو بكر الرازي

كان محمد بن زكريا الرازي، أكبر أطباء العرب في زمنه، عني إلى جانب انصرافه إلى الطب، بعلوم كثيرة أخرى، فقد اهتم بدراسة الكيمياء والرياضيات وعلم النجوم والفلسفة[٢٣٧]. ويظهر من الكتب الفلكية التي صنّفها الرازي أنها مكرسة للبرهنة على كرية الأرض، وأن الأرض ثابتة في مركز الكون. فقد صنّف كتاب هيئة العالم وغرضه أن يبين كرية الأرض، وأنها في وسط الفلك وهو ذو قطبين يدور عليهما، وأن الشمس أعظم من الأرض، والقمر أصغر منها، وما يتبع ذلك من المواضيع[٢٣٨]. وكتاب في سبب وقوف الأرض وسط الفلك على استدارة[٢٣٩]، ورسالة في أن غروب الشمس وسائر الكواكب عنّا وطلوعها علينا ليس من أجل حركة الأرض بل من حركة الفلك[٢٤٠] ويظهر من هذا أن الرازي لم يكن

---

(٢٣٣) المصدر نفسه، ص ١٥٤؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٠١، والأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٧.

(٢٣٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٠٠، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣١١.

(٢٣٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٢٤، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٦٢.

(٢٣٦) ابن النديم، المصدر نفسه، والقفطي، المصدر نفسه.

(٢٣٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢٢.

(٢٣٨) المصدر نفسه، ص ٤٢٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٥، وفيه: وسط السماء.

(٢٣٩) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٤.

(٢٤٠) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ٢٣ ـ ٢٤.

يعتقد بأن ذلك ناشيء عن حركة الأرض. وقد قال بعض المصنفين «إن الذي يُرى من الدوران للكواكب إنما هو دور الأرض لا الشمس والفلك»[241]، وكتاب في فسخ ظن من يتوهم أن الكواكب ليست في نهاية الاستدارة، وكتاب في أنه لا يتصور لمن لا دربة له بالبرهان أن الأرض كريّة وأن الناس حولها[242].

وكنا أشرنا عند الكلام على فلسفة الرازي إلى أنه كان يرى للأجسام العلوية (الأجرام الفلكية) في حركاتها تأثيراً على الكائنات الأرضية. وعبّر عن ذلك بقوله «بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات، وباختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطبائع الأدوية والأغذية». وله كتاب مقالة في ما يمكن أن يستدرك في أحكام النجوم على رأي الفلاسفة الطبيعيين ومن لم يقل منهم إن الكواكب أحياء[243].

---

(٢٤١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧٦.

(٢٤٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(٢٤٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٧.

الفصل العاشر

الفلسفة

أولاً: الفلسفة العربية

١ ـ معنى الفلسفة وأقسامها

اعتبر العرب الفلسفة من العلوم الدخيلة، والواقع أنهم نقلوها عن غيرهم إبان نهضتهم العلمية في هذا القرن. و«الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية هي فيلاسوفيا ومعناها محب الحكمة. فلما أعربت قيل فيلسوف، ثم اشتقت الفلسفة منه. ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح»[١]. وجاء في كتاب تاريخ الحكماء، عند الكلام على فيلسوف العرب الكِندي «أبو يوسف الكندي المشتهر في الملّة الاسلامية بالتبحُّر في فنون الحكمة اليونانية»[٢]. ونقل ابن أبي أصيبعة عن الفارابي أنه قال «اسم الفلسفة يوناني وهو دخيل في العربية، وهو على مذهبهم فيلسوفا، ومعناه إيثار الحكمة وهو في لسانهم مركّب من فيلا وسوفيا، ففيلا: الإيثار، وسوفيا: الحكمة، والفيلسوف مشتق من الفلسفة... ومعناه المؤثر للحكمة»[٣]. ويقول ابن خلدون «إن قوماً من عقلاء النوع الانساني زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسّ، تُدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية... وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة... وإمام هذه المذاهب الذي حصل مسائلها ودوَّن علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا هو أرسطو المقدوني من أهل مقدونية من بلاد الروم... ثم كان من بعده

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي، مفاتيح العلوم (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٩٢٣)، ص ٧٩.

(٢) أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٣) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٦١٤.

في الإسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه»[٤]. وقد استعمل العرب كلمة الحكمة مرادفة للفلسفة. وكثيراً ما نجد في كتب المؤلفين منهم من وضع كلمة الحكمة والحكيم للدلالة على الفلسفة والفيلسوف.

وقسّم صاحب مفاتيح العلوم الفلسفة إلى قسمين: أحدهما الجزء النظري، والآخر الجزء العملي. وينقسم الجزء النظري إلى ثلاثة أقسام، وذلك أن منه ما الفحص فيه عن الأشياء التي لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة. ومنه ما الفحص فيه عما هو خارج العنصر والمادة ويسمى علم الأمور الإلهية، ويسمى باليونانية «ثاولوجيا». ومنه ما ليس الفحص فيه عن أشياء لها مادة، ولكن عن أشياء موجودة في المادة مثل المقادير والأشكال والحركات وما أشبه ذلك، ويسمى العلم التعليمي والرياضي، وكأنه وسط بين العلم الأعلى وهو الإلهي، وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي. أما الفلسفة العملية فهي ثلاثة أقسام أيضاً، أحدها تدبير الرجل نفسه أو واحداً خاصاً ويسمّى علم الأخلاق، والقسم الثاني تدبير الخاصة ويسمى تدبير المنزل، أي انتظام حياة الإنسان العائلية من حيث علاقته بأبويه وزوجه وأولاده وذوي قرباه. والقسم الثالث تدبير العامة وهو سياسة المدينة والأمة والملك[٥].

٢ ـ الفلسفة العربية

إن خطوط الفلسفة العربية ومادتها الأساسية جاءت من التراث اليوناني، كما أشرنا. فقد كانت مدن الرُّها وحرّان ونصيبين ورأس العين وقنّسرين من مراكز الثقافة اليونانية في الشرق العربي عندما حرّر العرب العراق وبلاد الشام من نير الروم. ومع أن اللغة السريانية كانت لغة الكنيسة بقسميها الغربي والشرقي، فإن اللغة اليونانية كانت تدرَّس إلى جانبها في مدارس الكنائس والأديرة في المدن المذكورة. وتتناول الدراسة في تلك المدارس علوم اللاهوت وما يتصل بالعقيدة المسيحية وحاجات الكنيسة، وتدرّس معها من المعارف اليونانية بعض المواضيع الفلسفية والطبية، مما ساعد الطلاب من رجال الدين وغيرهم على التعرّف إلى بعض كتب حكماء اليونان القدامى أمثال أبقراط وجالينوس وسقراط. وبذلك انتشرت الآراء والأفكار الفلسفية بينهم، وظهرت بوادر حركة علمية استمرت بعد الفتح العربي. وهذا ما جعل السريان من أبناء المدن المذكورة من أوائل الذين نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من معارف اليونان وفلسفتهم، كما مرَّ بنا في البحث الخاص بحركة الترجمة. ومن الحق أن نشير إلى أن العرب اعتادوا في فتوحاتهم أن يحافظوا على ما يجدونه في البلاد المحرَّرة من المظاهر الحضارية والثقافية، وسرعان ما كانوا يكتسبونها ويضيفون عليها، مما أتاح لهم أن يقيموا حضارة علمية عمرانية مزدهرة.

---

(٤) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون، ٧ ج (مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤)، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٥) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٧٩ ـ ٨٠.

كنا أشرنا في فصل سابق إلى أهمية حركة الترجمة وتأثيرها في مسيرة النهضة العلمية العربية في القرن الثالث. إذ إنها يسَّرت لطلاب العلم وغيرهم من القراء كتب قدماء اليونان وبخاصة في الحكمة والطب باللغة العربية. وقد اهتم بعض علماء العرب بدراسة الكتب المترجمة في مواضيع المنطق والفلسفة، وشرح ما كان غامضاً مبهماً منها، ومناقشة ما جاء فيها من آراء وأفكار حول عديد من المسائل، مما خلق حركة فكرية جعلت ذوي المواهب منهم يتفرَّغون لها، ويتوفرون على الإحاطة بها والإدمان في إدراك معانيها وفهم أسرارها، هؤلاء عرفوا بالفلاسفة.

وقد بدأ العرب يتعرَّفون إلى فلسفة اليونان في الوقت الذي أخذ علماء المذهب الأفلاطوني الجديد يشرحون فلسفة أرسطو إلى جانب تدريس كتب أفلاطون وشرحها. وظلوا مدة يدرسون الفلسفة الأفلاطونية المتأثرة بمذهب فيثاغورس «والنقط الرئيسية في هذا المذهب الأفلاطوني المحدث، كما يبدو في الإلهيات الإسلامية تعرض العقل الفعّال، أو كما عبّر عنه الاسكندر الافروديسي باعتباره فيضاً من الإله. وتعرض العقل الهيولاني في الإنسان كأنه لا ينشط إلا من طريق العقل الفعّال. وهذا هو في جوهره ما قاله الاسكندر الافروديسي. وهدف الإنسان أن يصل إلى الاتصال الذي يتّحد عقله فيه بالعقل الفعّال»[٦].

إن الأفلاطونية الجديدة هي إحياء آراء أفلاطون حكيم اليونان وفلسفته ممزوجة بفلسفة فيثاغورس، وتأثرهما بالديانات الشرقية. ويعتبر امونيوس الاسكندري مؤسس الأفلاطونية الجديدة. وقد تولى نشرها تلميذه أفلوطين الذي قضى النصف الثاني من حياته ٢٤٥ ـ ٢٣٧م في روما يرشد تلاميذه إلى الحياة الروحية. ونظَّم تلميذه فورفوريوس محاضرات أستاذه ومقالاته وقدَّم لها بترجمة لأفلوطين. وشرح فورفوريوس محاورات أفلاطون الكبرى، كما شرح من كتب أرسطو: المقولات، والأخلاق، والطبيعة، والإلهيات. ووضع كتاب المدخل إلى المعقولات. وأشهر كتبه الأخرى إيساغوجي، أي المدخل إلى مقولات أرسطو.

وقد كان لأفلاطون بفضل نزعته الروحية حظ كبير عند المسيحيين في بلاد اليونان. كما كان لأرسطو مثل هذا الحظ عند السريان، فنقلوا كتبه إلى لغتهم ثم إلى العربية. وكان السريان قد نقلوا كتب أرسطو عن شرّاح أدخلوا عليها بعض التأويلات. وأكبر هؤلاء الشراح الاسكندر الافروديسي، في القرن الثالث للميلاد، وفورفوريوس، في القرن الرابع، ويوحنا النحوي، في القرن السادس. كما نقلوا أيضاً مختارات من التاسوعات الثلاث الأخيرة لأفلوطين وسمّوها أوثولوجيا أرسطو ومختارات من مبادىء الإلهيات لأبروقلوس وأسموها كتاب العلل. فنقلت هذه الكتب إلى اللغة العربية بهذا الاعتبار. إذ رأوا ما فيها من روحية اشراقية تتمة لكتب الحكمة الإنسانية. فجاءت الفلسفة العربية مزيجاً من الأرسطوطالية والأفلاطونية الجديدة[٧]. ولعل هذا ما يفسر اهتمام دارسي الفلسفة العرب بالمسائل الروحية

---

(٦) إسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي (القاهرة: دار العصور، ١٩٢٨)، ص ١٣١.

(٧) لمزيد من الاطلاع حول الأفلاطونية الجديدة، انظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦)، ص ٣٢٢ ـ ٣٣١.

والنفسية. فقد أخذت تراجم مؤلفات أرسطو وأفلاطون تلقى اهتماماً وقبولاً عندهم. وكانت كتب أرسطو في المنطق والنفس والطبيعة هي أول ما نال اهتمامهم، فتولاّها العلماء ممن عملوا في ميدان الفلسفة بالشرح والاختصار. ومن الطبيعي ألا يتمكن العرب آنذاك من معرفة جميع مصنفات أفلاطون وأرسطو، لأن معظمها كان مفقوداً. كما أنهم لم يكونوا يميزون الكتب الأصلية من المنحولة على الفلاسفة الأقدمين، فانصبّ اهتمامهم على ما وقع في أيديهم من تلك المصنفات. فمن كتب أفلاطون التي وصلت إليهم مبكراً دفاع سقراط ويسمى احتجاج سقراط على أهل أثينا، وكرايتون السفسطائي وفيدروس والجمهورية وطيماوس وكتاب النواميس وفيدون. وقد فسر حنين بن اسحاق كتاب السياسة، ونقل كتاب النواميس إلى اللغة العربية. ونقل اسحاق بن حنين كتاب السفسطائي وأصلحه يحيى بن عديّ. ونقل ابن البطريق كتاب طيماوس، وأصلحه حنين بن اسحاق.

ويظهر أن أفلاطون كان أقرب الفلاسفة إلى العقلية العربية الاسلامية، لقوله إن العالم محدث، وإن النفس جوهر روحي، وإن في العالم نفساً كلية واحدة وإن نفوس البشر جزء منها. وهي آراء لا تتنافى مع العقيدة الاسلامية. إلا أنه بعد أن اطّلع العرب على المزيد من فلسفته وأدركوا رأيه في النفس الانسانية بأنها أجزاء متناهية، وذلك بعكس ما يقوله أرسطو الذي رفع كثيراً من شأن النفس، اتجهوا نحو أرسطو وأقبلوا على كتبه التي اخذت تصلهم بشروح رجال المذهب الأفلاطوني الجديد. وأعجبوا بما تضمّنه كتاب أوثولوجيا المنسوب إلى أرسطو، وقد ترجمه عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصيّ إلى اللغة العربية بعنوان كتاب الربوبية. والنفس هي محور الكتاب، وقد جاء فيه عنها «كل معرفة إنسانية صحيحة هي معرفة النفس... والحكمة العليا هي هذه المعرفة التي لا يبلغها إلا قليل جداً، وهي لا تدرك من طريق المفهومات الفكرية. ولذلك يبرزها الفيلسوف... والنفس تقع في وسط مراتب الوجود، من فوقها الله والعقل، ومن تحتها الطبيعة والمادة، وهي تفيض من الله على العقل، وبتوسط العقل تفيض على المادة، فتحلّ في الجسم ثم تسرح إلى مكانها... والعقل ملاك كل شيء، وكل الأشياء فيه معاً. أما النفس فهي عقل أيضاً، ولكن ما دامت في الجسم فهي عقل بالقوة، هي عقل تصوّر بصورة الشوق إلى العالم الأعلى، إلى عالم الكواكب، عالم الخير والسعادة»[٨].

ساعد هذا الكتاب مع تعاليم الاسكندر الأفروديسي على انتشار آراء الأفلاطونية الجديدة، فكان لها أثر واضح في الفلسفة العربية. وظلّ العرب يعتمدون في دراسة فلسفة أرسطو على مصنفات علماء المذهب الأفلاطوني الجديد وشروحهم. وكان أصحاب هذا المذهب الفلسفي يعتقدون أن آراء أرسطو وتعليماته، وآراء أفلاطون وتعليماته شيء واحد في جوهرها، وأن الاختلاف الظاهر بينهما لا يمكن أن يستعصي على التخريج[٩]. ويفسّر هذا اتجاه الفلاسفة العرب إلى العمل على التوفيق بين فلسفتي أرسطو وأفلاطون، وهاتين

---

(٨) ت. ج. دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨)، ص ٤٦ - ٤٧.

(٩) مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٣٠.

الفلسفتين والعقيدة الاسلامية، وحاولوا في سبيل ذلك أن يظهروا نظريات وآراء الفيلسوفين المذكورين وغيرهما بما لا يناقض العقيدة الاسلامية صراحة. وهذا ما سنراه في البحث الخاص بالكندي الذي كان أول من عمل من الفلاسفة في هذا الاتجاه.

وكان «من حسن حظ المسلمين أنهم جعلوا نقطة بدايتهم الفلسفة الأرسططالية أو فروعها الحديثة، ذلك أن هذه الفلسفة اتصفت بدقة الملاحظة والتعلق الشديد بالمثل العليا التي من شأنها صرف الإنسان عما عداها من أمور. ولذلك كان أرسطو معلم العرب الأول، وقد نقلوا تعاليمه دون نزاع، ونقلت إلى العربية إذ ذاك جميع كتبه المعروفة»[10].

على أن العرب وإن كانوا قد درسوا الفلسفة على فلاسفة اليونان وتأثروا بالنواحي الايجابية منها بما لا يتعارض وأحكام الدين الاسلامي، فإنهم استطاعوا بعد حين أن يقيموا فلسفة عربية اسلامية لها طابعها وطرقها في معالجة المسائل الفكرية المختلفة. وكان الكندي والفارابي بعده هما اللذان مهدا السبيل لاستقلال الفلسفة العربية. أما قول دي بور «وظلت الفلسفة الاسلامية على الدوام فلسفة انتخابية عمادها الاقتباس مما ترجم من كتب الإغريق... ولم تتميز تميزاً يذكر عن الفلسفة التي سبقتها لا بافتتاح مشكلات جديدة، ولا هي استقلت بجديد فيما حاولته من معالجة المسائل القديمة، فلا نجد لها في عالم الفكر خطوات جديدة تستحق أن نسجّلها لها...»[11]. فهو حكم سطحي فيه كثير من التجني ولا يتّفق مع المنهج العلمي. ويكفي أن نشير إلى قيام الفلسفة العربية ضمن حدود الدين الاسلامي، وقولها بحدوث العالم وتناهيه، مما يجعلها تختلف في معالجة القضايا الفكرية عن الفلسفة اليونانية الوثنية، إلى حد غير قليل، بحيث يجعل لها سمات مميزة عن غيرها، وإن ما طرحه المعتزلة وعلماء الكلام من المسائل والمقولات التي دار النقاش والجدل حولها طويلاً، يُظهر فساد قول دي بور.

ثانياً: الكندي وفلسفته

١ ـ يعقوب بن اسحاق الكندي

أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح بن عمران، يرتقي نسبه إلى الصحابي الأشعث بن قيس الكندي، أمير كندة في الجاهلية والاسلام، وكان أبوه قيس ملكاً على كندة، وهو الذي مدحه الشاعر أعشى قيس ميمون بن قيس من بني ثعلبة[12]. وكندة من أهم

---

(١٠) جوزيف هِلّ، الحضارة العربية، ترجمة ابراهيم أحمد العدوي؛ مراجعة حسين مؤنس، الألف كتاب؛ ٨٨ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦)، ص ١٠٧.

(١١) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ٥٠.

(١٢) ويلقّب بالأعشى الكبير، وهو من شعراء الجاهلية وأحد أصحاب المعلّقات. ولكثرة شعره وجودته، سمّي صنّاجة العرب. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٢، ١٠ ج في ٥ (القاهرة: مطبعة كونستا توماس، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥)، ج ٨، ص ٣٠٠.

القبائل القحطانية في جنوبي الجزيرة العربية وأبعدها قِدَماً في الحضارة، وقد نزح كثير من أبنائها إلى العراق واستوطنوا فيه منذ عهود بعيدة[13]. وكان اسحاق أبو يعقوب من ولاة الدولة العربية، ولاّه الخليفة محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور إمارة الكوفة، وظل يتناوب إمارتها أيام ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد[14].

ولد يعقوب في الكوفة في أواخر القرن الثاني وهناك خلاف في سنة ميلاده، ونشأ ببغداد وتلقّى تعليمه بها. فدرس العربية والعلوم الدينية وعلم الكلام، وقضى حياته ببغداد وسامراء مقرّباً من الخلفاء منذ أيام المأمون حتى عهد المتوكل على الله، كعالم فيلسوف ومنجّم ونديم. وكان عظيم المنزلة عند المأمون[15]، لغزارة علمه ورجاحة عقله، وقد عُرف عن المأمون مجالسة كبار العلماء ومناظرتهم. ويقال إن الكندي كان في جملة من عُهد إليهم بترجمة كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان[16]. وقد ندبه المأمون لذلك، لأنه كان ملماً بإحدى اللغتين الذائعتين آنذاك وهما اليونانية والسريانية[17]. وكذلك كانت منزلته عند المعتصم بالله عالية، فكان معجباً بسعة اطّلاعه وتعدُّد معارفه، وقد اتخذه مؤدباً لابنه أحمد، حتى قيل إن دولة المعتصم كانت تتجمل به وبمصنفاته الكثيرة جداً[18].

ولما تولى المتوكل على الله الخلافة بقي الكندي على منزلته في البلاط، مقرّباً من الخليفة إلى أن أثار الأخوان أحمد ومحمد ابنا موسى بن شاكر غضب الخليفة عليه، حسداً له وطمعاً بمكتبته. ويرجّح أنهما استغلا موقف الخليفة المتشدِّد من المعتزلة، فحرَّضاه على الكندي باعتباره من أنصارهم، فأقصاه عن بلاطه وأمر بضربه ومصادرة مكتبته، وكانت تضم إلى جانب مصنفاته كتباً عديدة أخرى في مختلف العلوم والفنون، فاستولى عليها الأخوان المذكوران واستفادا مما فيها من الكتب الخاصة بالآلات المتحركة[19]، أي كتب الحِيَل والهندسة

---

(١٣) حول نسب الكندي، انظر: أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في اخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ٣٧١؛ أبو القاسم صاعد بن احمد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره وذيّله بالحواشي وأردفه بالروايات لويس شيخو اليسوعي (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢)، ص ٥١، وابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٥.

(١٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨)، ج ٨، ص ١٢٠، ١٤١، ١٤٩ و٣٤٦.

(١٥) ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(١٦) قدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك (القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٤١)، ص ٩١.

(١٧) تاريخ فلاسفة الاسلام، ص ١.

(١٨) مصطفى عبد الرازق، فيلسوف العرب والمعلم الثاني (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥)، ص ٤١.

(١٩) أبو جعفر احمد بن يوسف بن الداية، المكافأة، صحّحه وضبطه وشرحه أحمد أمين وعلي الجارم (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤١)، ص ١٩٥.

وغيرها مما ينفعهما في حفر النهر الجعفري الذي كلفهما الخليفة القيام على إنشائه. ولكن فشلهما في مشروع النهر أغضب الخليفة عليهما فأمر المهندس سند بن علي أن يتحرّى النهر المذكور ويعلمه بمدى صلاحه أو فشله. ففزع أحمد وأخوه إلى سند بن علي ليقف إلى جانبهما ويؤيد صلاح النهر. فاشترط هذا لمساعدتهم أن يسعيا لدى الخليفة للعفو عن الكندي، وأن يعيدا إليه مكتبته. فقاما بذلك، فاستعاد الكندي مكتبته كاملة[20]. إلا أن ما لقيه الكندي من غضب الخليفة، واقصائه عن البلاط، وما لحقه من مهانة الضرب، أثّر فيه كثيراً، فاعتزل الناس ولزم بيته. وكان بطبيعته يميل إلى العزلة فلا يختلط إلا بمن كان بمستواه الفكري والعلمي، وذلك شأن المفكرين والفلاسفة، فزادت هذه النكبة في بعده عن الناس. وروي عن أحمد بن الطيِّب تلميذ الكندي، أنه قال إن الكندي أنشده لنفسه الأبيات الآتية[21]:

أناف الذنابى على الأرؤس ... فغمِّض جفونك أو نكِّس
وَضائِل سوادك واقبض يديك ... وفي قعر بيتك فاستجلس
وعند مليكك فابْغِ العلوّ ... وبالوحدة اليومَ فاستأنس
فإنّ الغنى في قلوب الرِّجال ... وإنّ التعزز بالأنفس
وكائنْ ترى من أخي عُسْرة ... غني وذي ثروة مُفلس
ومن قائم شخصُهُ ميِّتٌ ... على أنه بَعْدُ لم يُرمس
فإن تطعم النفس ما تشتهي ... تقيك جميع الذي تحتسي

وهي أبيات تنبىء عن حالته النفسية اليائسة التي صار إليها بعد نكبته وانقطاعه عن الناس وزهده في الحياة.

وقد توفي الكندي بعد ذلك بسنوات قضاها مغموراً، فلم تُشر المصادر الأولية إلى سنة وفاته؛ وإن ما قيل عن أنه توفي في أواخر سنة ٢٥٢ إنما كان من باب الاستنتاج والمقارنة[22].

ويروي القفطي عن سبب وفاته قائلاً «كانت علة يعقوب بن اسحاق أنه كان في ركبته خام وكان يشرب له الشراب العتيق فيصلح فتاب من الشراب، وشرب شراب العسل فلم تنفتح له أفواه العروق ولم يصل إلى أعماق البدن وأسافله شيء من حرارته. فقوي الخام فأوجع العصب وجعاً شديداً حتى تأدّى ذلك الوجع إلى الرأس والدماغ فمات الرجل»[23].

امتاز الكندي بذكائه الخارق وميله إلى الدرس وحبّ الاستطلاع، مما أتاح له الإلمام بمعارف زمانه، وغدا واسع الاطلاع في جميع العلوم. ويعتبر ألمع من أنجبتهم النهضة العلمية العربية في القرن الثالث، فقد أظهر إبداعاً محسوساً في كثير من المواضيع التي عالجها وصنّف فيها. وقد أشاد بسعة معارفه وكثرة تصانيفه كل من كتب عنه من قدامى المصنِّفين. وصفه

---

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٩٧.

(٢١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢٢) عبد الرازق، فيلسوف العرب والمعلّم الثاني، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢٣) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

ابن النديم بأنه «فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، ويسمى فيلسوف العرب، وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيقي والموسيقى والنجوم وغير ذلك... انا وصلنا ذكره بالفلاسفة الطبيعيين إيثاراً لتقديمه لموضعه في العلم»[24] وقال عنه ابن جلجل «كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد والهيئة وعلم النجوم. ولم يكن في الاسلام فيلسوف غيره احتذى حذو أرسطوطاليس، وله تواليف كثيرة في فنون من العلوم... وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل، ولخّص المستصعب، وبسط العويص»[25]. وقال القاضي صاعد الأندلسي: «لم يكن في الاسلام من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة حتى سمّوه فيلسوفاً غير يعقوب، وله في أكثر العلوم تآليف مشهورة»[26]. وقال القفطي: «أبو يوسف الكندي المشتهر في الملة الاسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية، متخصص بأحكام النجوم وأحكام سائر العلوم، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها»[27]. وقال ابن أبي أصيبعة «فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها... كان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وعند ابنه أحمد، وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جداً في جميع العلوم»[28].

نشأ الكندي وعاش في خضم النهضة العلمية العربية، وقد بلغت حركة الترجمة أوجها، مما أتاح له جوّاً علمياً وفكرياً ساعده على تحصيل معارف عديدة، والاتصال بالعلماء والمترجمين، والمشاركة في المناظرات والمناقشات العلمية والفلسفية والأدبية التي كانت تعقد في مجالس الخلفاء والعلماء، والاطلاع على كثير من كتب حكماء اليونان وآرائهم في الفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية والرياضية. وقد ساهم في النهضة المذكورة مساهمة فعالة بما ترجمه وفسّره وشرحه من تلك الكتب، وما صنّفه من كتب ورسائل في مختلف أفانين المعرفة، وما أبدعه وابتكره من نظريات وآراء. إلا أنه مال بصورة خاصة إلى دراسة الفلسفة فبرع فيها واشتهر بين أقرانه بفيلسوف العرب.

لقد كان الكندي عالماً موسوعياً أحاط بمعارف زمانه، وصنّف فيها. وقد صنّف ابن النديم كتبه بحسب مواضيعها إلى سبعة عشر صنفاً هي: الفلسفية، والمنطقية، والحسابيات، والكُريّات، والموسيقيات، والنجوميات، والهندسيات، والفلكيات، والطبيات، والأحكاميات[29]، والجدليات، والنفسيات، والسياسيات، والأحداثيات[30]، والأبعاديات[31]،

---

(٢٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧١.

(٢٥) أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، نصوص وترجمات؛ ١٠ (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥)، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢٦) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٢.

(٢٧) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢٨) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٢٩) أي الكتب التي تبحث في علم النجوم.

(٣٠) وأكثرها يبحث في الآثار العلوية، أي الأحوال الجوية.

(٣١) التي تبحث في أبعاد المسافات.

والتقدميات(٣٢)، والأنواعيات(٣٣). وقد حذا القفطي في ترتيب كتب الكندي ورسائله حذو ابن النديم، مع بعض الاختلافات البسيطة في أسمائها قد حصلت في أثناء النسخ(٣٤). أما ابن أبي أصيبعة فقد ذكرها جميعاً بقائمة واحدة وزاد عليها عدداً من الكتب(٣٥).

ومن يستعرض هذه القوائم لا يقتصر عجبه على كثرتها وقد جاوز عددها المئتين وخمسين كتاباً ورسالة، بل يعجب كذلك من تنوع مواضيعها وشمولها أغلب ميادين المعرفة. وذلك لا يتيسّر إلا لذي عقلية جبّارة وعبقرية فذّة، وذلك ما كان يتمتع به الكندي فيلسوف العرب.

٢ ـ فلسفة الكندي

انتهج الكندي في الفلسفة منهج المذهب الطبيعي، وهو المذهب الذي يُعنى بدراسة المظاهر المادية الملموسة في الطبيعة وآثارها، ويتوخى الوصول بماهيات الأشياء إلى العلّة الأولى أو الصانع الحكيم المبدع، الواحد الفرد. وهو لا يقرّ من أصول الفلسفة إلا ما لا يعارض عقيدته الدينية بالإله الواحد وبالنبوة ومعجزاتها وبحدوث العالم وتناهيه وبالبعث، وهي عقائد الإسلام الأساسية. ومن دلائل إيمانه بالواحد الأحد قوله في رسالته «في الفاعل الحق الأول التّام والفاعل الناقص الذي هو بالمجاز»(٣٦)، «إن الفعل الحقّي الأول هو تأييس الأيسات عن ليس، وهذا الفاعل بيّنٌ أنه خاصة الله تعالى الذي هو غاية كل علة، فإن تأييس الأيسات عن ليس، ليس لغيره، وهذا الفعل هو المخصوص باسم الإبداع. فأما الفاعل الحقّي الثاني الذي يلي هذا الفعل فهو أثر المؤثّر في المؤثّر فيه. فأما الفاعل الحق فهو المؤثّر فيه، من غير أن يتأثر هو بجنس من أجناس التأثر. فإذن، الفاعل الحقّ هو الفاعل مفعولاته من غير أن ينفعل هو بتة. فأما المنفعل فهو المتأثر من تأثير المؤثر، أعني المنفعل عن الفاعل. فإذن، الفاعل الحقّ الذي لا ينفعل بتة هو الباري فاعل الكل جلّ ثناؤه. وأما دونه، أعني جميع خلقه، فإنها تسمّى فاعلات بالمجاز لا بالحقيقة، أعني أنها كلها منفعلة بالحقيقة . . .»(٣٧).

والكندي يعتبر الفلسفة أرقى العلوم الإنسانية حيث يقول: «إن أعلى الصفات الإنسانية منزلة وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة التي حدُّها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان. لأن غرض الفيلسوف في علمه الحق، وفي عمله العمل بالحق»(٣٨). ويقول «وأشرف الفلسفة وأعلاها مرتبة الفلسفة

---

(٣٢) أي المقدمات.

(٣٣) وتضم كتباً في مواضيع مختلفة. انظر: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٩.

(٣٤) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٦.

(٣٥) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

(٣٦) أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، حقّقها وأخرجها محمد عبد الهادي أبو ريدة، ٢ ج (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣)، ج ١، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٧.

الأولى، أعني علم الحق الأول الذي هو علّة كل حق. . .»[39]. وهو بهذا يعرِّف الفلسفة تعريفاً موجزاً لكنّه شامل جامع.

وهو يعتبر «الحقيقة» ثمرة بحث أجيال الانسانية طوال العصور بحيث يضيف كل جيل ما يتوصل إليه إلى من سبقه، ويمهِّد السبيل إلى من سيأتي بعده، إذ يقول: «وغير ممكن ان يجتمع في زمن المرء الواحد، وإن اتسعت مدته، واشتد بحثه، ولطف نظره، وآثر الدأب، ما اجتمع بمثل ذلك من شدة البحث وإلطاف النظر وإيثار الدأب في أضعاف ذلك من الزمان الأضعاف الكثيرة. . . وينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به. . . فحسن بنا ـ إذ كنا حراصاً على تتميم نوعنا إذ الحق في ذلك ـ أن نلزم في كتابنا هذا عاداتنا في جميع موضوعاتنا من إحضار ما قال القدماء في ذلك قولاً تاماً، على أقصد سبله وأسهلها سلوكاً على أبناء هذه السبيل، وتتميم ما لم يقولوا فيه قولاً تاماً على مجرى عادة اللسان وسُنّة الزمان، وبقدر طاقتنا. . . لأن في علم الأشياء بحقيقتها علم الربوبية وعلم الوحدانية وعلم الفضيلة، وجملة كل نافع والسبيل إليه، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه. .»[40]. يكشف الكندي في رأيه هذا في البحث عن الحقيقة وأخذها من أي مصدر كان عن أساس مهم من أسس فلسفته، هو اعتبار الحضارة والثقافة وكل أنواع المعرفة، تراثاً إنسانياً تعاونت على تكوينه أمم وشعوب مختلفة في عصور متعاقبة. وقد يكون لأمة ما في عهد ما دور في ذلك أكثر أهمية مما للأمم الأخرى، إلا أن ذلك لم يتم إلا بالاستفادة مما قدمته أمم أخرى في عهود سابقة. ولذلك فهو لا يرى عيباً في الاستفادة مما توصّلت إليه أجيال سابقة في أمم أخرى، لأن ما سيتحقق سوف تستفيد منه أجيال قادمة في أمم شتى، كل منها حسب قابليتها ورغبتها ودرجة حضارتها. ونظرته هذه، كما لا يخفى، نظرة انسانية عامة.

لقد تأثر الكندي في فلسفته بآراء أرسطوطاليس ونظرياته الفلسفية، فدرس كل ما وصل إلى يده من كتبه وشرح أغلبها وبسّطها وأوضح غامضها. ويعتبر خير من عرَّف بكتب أرسطوطاليس وفلسفته، وقد وضع رسالة في كمية كتب أرسطوطاليس وما يُحتاج إليه في تحصيل الفلسفة[41]. وقد اعتبر الكندي هذه الكتب هي التي يحتاج إليها دارس الفلسفة ليكون فيلسوفاً حقاً.

وكان الكندي معجباً بسقراط الحكيم اليوناني الأشهر الذي «أعلن بمخالفته اليونانيين في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة، فثوّروا عليه العامة واضطروا ملكهم إلى قتله، فأودعه ملكهم الحبس. . . ثم أسقاه السُّم»[42]. فصنف الكندي عدة كتب عن فضيلته وألفاظه وخبر موته ومحاوراته[43].

---

(٣٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٤١) انظر نص الرسالة، في: المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٤ ـ ٣٨٤.

(٤٢) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٩٨.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٤، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٧.

كما أخذ الكندي ببعض مقولات المعتزلة فكتب عدداً من الكتب في المواضيع ذات العلاقة بأصول الاعتزال. فقد صنّف كتاباً في أن أفعال الباريء جل اسمه كلها عدل لا جور فيها. وكتب في توحيد الباري عزَّ وجل رسالة في التوحيد بتفسيرات ورسالة في البرهان وهو يبحث في الرسالتين وحدانية الله تعالى، ويتصدى لتفسير مفهوم التوحيد. ويعتبر الكندي أول من كتب في توحيد الباريء على طريق المنطق[44]. كما صنّف كتاباً في الاستطاعة وزمان كونها ويظهر أنه صنّفه لبيان رأيه في المسألة: هل توجد الاستطاعة للفعل قبل وقوعه - كما ذهب إليه المعتزلة - أو مع الفعل، كما ذهب إليه أهل السنّة. على أن موقف الكندي لا يتضح من عنوان الكتاب.

وتصدّى الكندي للملاحدة والدهريين فوضع رسائل في الردّ على المنّانيّة وفي الرد على الثنوية وفي نقض مسائل الملحدين، ووضع كتاباً في القول في الرد على النصارى وإبطال تثليثهم على أصل المنطق والفلسفة[45].

وقد أولى الكندي علم الرياضيات اهتماماً بالغاً، واعتبر دراستها والإلمام بها ضروريين لدارس الفلسفة. فقال في رسالته في كمية كتب ارسطوطاليس وما يُحتاج إليه في تحصيل الفلسفة: «إن عُدم احد علم الرياضيات التي هي علم العدد والهندسة والتنجيم والتأليف، ثم استعمل كتب ارسطو دهره، لم يستتم معرفة شيء منها، ولم يكن سعيه فيها يكسبه شيئاً إلا الرواية إن كان حافظاً. فأما علمها على كنهها وتحصيلها فليس بموجود إنْ عُدم الرياضيات، البتة»[46]. وله كتاب في أنه لا تُنال الفلسفة إلا بعلم الرياضيات[47]. وقد طبّق الرياضيات في أبحاثه الفلسفية والموسيقية والطبية، إذ بنى فعل الأدوية المركّبة، وفعل الموسيقى على نسبة المتوالية الهندسية المضاعفة. ففي الأدوية رأى ضرورة تناسب الكيفيات المحسوسة وهي الحار والبارد والرطب واليابس «فإذا اريد ان يكون الدواء حاراً في درجة (١) فلا بد له من الحرارة ضعف حرارة المزيج المعتدل، وإذا أريد أن يكون الدواء حاراً في درجة (٢) فلا بد له من الحرارة أربعة أمثال حرارة المزيج المعتدل، وهلمّ جراً...»[48]. وقد اعتبره كاردانو (Cardano)، وهو من فلاسفة عصر النهضة الأوروبية، لقوله بهذه النظرية، واحداً من اثني عشر مفكراً هم أنفذ المفكرين عقولاً[49].

---

(٤٤) اسماعيل حقي الإزميري، فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندي، ترجمة عباس الغزاوي (بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٦٤)، ص ٥٤.

(٤٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٦؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٣؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩١، ورتشرد يوسف مكارثي، التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب (بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٢)، ص ٥٢.

(٤٦) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج ١، ص ٣٧٧. والتأليف في الرياضيات هو إيجاد نسبة عدد إلى عدد آخر وقرنه إليه، ومعرفة المؤتلف منه والمختلف.

(٤٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٧٢، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

(٤٨) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ١٨٢.

(٤٩) المصدر نفسه.

كما نلمس نزعته الرياضية في بعض رسائله الفلسفية، كما جاء في رسالته في مائية ما لا يمكن أن يكون لا نهاية له، وبأي نوع يقال الذي لا نهاية له إذ يضع أربع مقدمات بديهية يتخذها أساساً لإقامة الدليل على وجود جرم لا نهاية له، لأن الجرم والحركة والزمان، حسب رأيه، لا يسبق بعضها بعضاً. وبعد أن يثبت أن الزمان الذي لا نهاية له متناهٍ، يتوصل إلى أنه لا الجرم ولا الحركة ولا الزمان أزلية وإنما هي متناهية[٥٠]. ونلمس مثل هذا كذلك في رسالته في إيضاح تناهي جرم العالم فهو يضع مقدّمات يثبتها رياضياً ثم يبني أقواله عليها[٥١].

إن نزعة الكندي الرياضية جعلت بعض أقواله وآرائه الفلسفية يلفّهما شيء من الغموض، فهي لا تتضح إلا لمتمرّس في الفلسفة. ولعل هذا ما جعل البعض ينتقده بعدم التوضيح والتحليل، كالقاضي صاعد الأندلسي والقفطي. ورغم اعتراف القاضي بأن كتب الكندي في المنطق قد نفقت عند الناس نَفَاقاً عاماً، فإنّه ينتقده بأنها «خالية من صناعة التحليل التي لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل في كل مطلوب إلا بها. وأما صناعة التركيب وهي التي قصد يعقوب في كتبه هذه إليها، فلا ينتفع بها إلا من كانت عنده مقدّمات، فحينئذ يمكن التركيب. ومقدمات كل مطلوب لا توجد إلا بصناعة التحليل. ولا أدري ما حمل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة، هل جهل مقدارها أو ضنّ على الناس بكشفه، وأي هذين كان فهو نقص فيه»[٥٢]. ويقول القفطي «وكان مع تبحّره في العلم يأتي بما يصنّفه مقصراً فيذكر مرة حججاً غير قطعية، ويأتي مرة بأقاويل خطابية وأقاويل شعرية، وإهمال صناعة التحليل التي لا يتحرر قواعد المنطق إلاّ بها. فإن لم يكن جهلها فهو نقص عظيم، وإن يكن ضنّ بها فليس ذلك من شيم العلماء. وأما صناعة التركيب التي قصدها في تواليفه فلا ينتفع بها إلا المنتهي الذي هو في غنى عنها بتبحّره في هذا النوع»[٥٣].

وقد اعتبر ابن أبي أصيبعة ما قاله القاضي صاعد تحاملاً على الكندي، فقال «هذا الذي قاله القاضي صاعد عن الكندي فيه تحامل كثير عليه وليس ذلك مما يحط من علم الكندي ولا مما يصُدّ الناس عن النظر في كتبه والانتفاع بها»[٥٤].

لقد كان الكندي إلى جانب براعته في الفلسفة عالماً موسوعياً، أحاط بمعارف زمانه وصنّف في أكثرها. وقد سبقت الإشارة إلى مصنفاته وأنواعها. وقد ذكر له ابن النديم اثنين وعشرين كتاباً ورسالة في الفلسفة[٥٥]. وقد حقق الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة مجموعة من رسائل الكندي الفلسفية التي تم العثور عليها، وطبعهما في جزأين يتضمن الأول منهما أربع عشرة رسالة، والثاني إحدى عشرة رسالة. ويتضح للمدقق أن تسع عشرة رسالة منها

---

(٥٠) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج ١، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٥ - ١٨٦.

(٥٢) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٢.

(٥٣) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٥٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٨٧.

(٥٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٢.

قد ذكرها ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة مع اختلاف بسيط في عناوين بعضها مما لا يخفى على المطالع الحصيف.

ومن الجدير بالذكر أن الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي رتب سجلاً بمصنفات فيلسوف العرب، وضمّن القسم الثاني منه تصانيف الكندي المخطوطة والمطبوعة والمترجمة في مختلف المواضيع[56]، وهو جهد مشكور يسّر الموضوع للمتتبعين.

وإذا ما صح ما قيل عن الكندي إنه كان من حذّاق المترجمين، فإن ذلك ساعده على تفهّم الآراء الفلسفية بلغة أصحابها. ولكن من الملاحظ أنه لم يتحقّق أنه نسب إليه ترجمة كتاب معيّن سوى ما ذكره القفطي بأنه نقل كتاب جغرافيا في المعمور وصفة الأرض لبطلميوس إلى العربية نقلاً جيداً وكان هذا الكتاب مترجماً إلى السريانية كذلك[57]. وقد يكون الكندي نقله من الترجمة السريانية. كما سبقت الإشارة إلى أنه كان في جملة من عهد إليهم المأمون بترجمة كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان. إلا أنه يظهر أن المقصود بالترجمة هو ما عناه ابن جلجل بقوله إنه ترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخّص المستصعب وبسط العويص[58]، انه كان يجيد عرض آراء فلاسفة اليونان بلغة عربية فصيحة وبأسلوب مبسّط واضح. وهناك إشارات عديدة إلى أنه لخّص وهذّب وفسّر بعض الكتب التي ترجمها غيره. فقد فسّر كتب أرسطو في المنطق وكان قد ترجمها حنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين[59]، واختصر كتاب أبوطيقا الذي نقله إلى العربية أبو بشر متى بن يونس[60]، وأصلح كتاب اثولوجيا المنسوب إلى أرسطو، وكان قد نقله إلى العربية ابن ناعمة الحمصي[61].

وتظهر في ما طبع من رسائله كفايته العالية في اللغة العربية وإحاطته بمفرداتها ومشتقاتها، وبخاصة القديمة منها، فيستخدمها في مكانها المناسب لتعطي القارىء المعنى المطلوب باللغة اليونانية. ويظهر ذلك بوضوح أكثر في المصطلحات الفلسفية، وبخاصة تلك التي يشتقها لتؤدي مفاهيم معينة. فقد استعمل كلمة «الأيس» للدلالة على الموجود إجمالاً، وجمعها «أيسات» للدلالة على الموجودات، واشتق منها «الأيسية» للدلالة على حالة الوجود، كما اشتق منها فعلاً ليدل على الإيجاد فقال «يؤيس» وتعني يوجد الشيء من لا شيء، ثم يستعمل مصدرها «التأييس» في معنى الايجاد مطلقاً. وان رسالته في حدود الأشياء ورسومها

---

(٥٦) مكارثي، التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب، ص ٦١ - ٨٠.

(٥٧) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٩٨.

(٥٨) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٧٣ - ٧٤.

(٥٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ٣٥ - ٣٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٨ و٣٢٣.

(٦١) المصدر نفسه، ص ٤٢.

ورسالته في الجواهر الخمسة[٦٢] خير شاهد على سعة احاطته باللغة العربية. ويمكن اعتبار هاتين الرسالتين قاموساً فلسفياً ضرورياً لقراءة رسائل الكندي وكتبه الفلسفية، والكتب الفلسفية الأخرى، لما احتوت عليه من تعابير ومصطلحات يستعملها أهل الفلسفة.

ومع أن الكندي تأثر بآراء أرسطو وحذا حذوه في تصانيفه، فإنه كان قد درس آراء أفلاطون وتأثر بها كذلك، واتخذها مثالاً إلى جانب آراء أرسطو، وكان يعتبرهما إمامي الفلسفة اليونانية. فبنى آراءه الفلسفية على ما صح عنده من الأراء والنظريات حول كثير من المسائل الفلسفية دون التقيد بما نسب إلى أحدهما. وعملاً بمنهجه الفلسفي، فإنه لم يُقرّ من أصول فلسفتيهما إلا ما لا يتناقض مع أحكام الدين الاسلامي الواضحة في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية. وكان يرى أن الفلسفة في تحرّيها عن الحقيقة ودعوتها إلى كل نافع والسبيل إليه، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه، لا تختلف عما أتت به الرسل الصادقة عن الله تعالى. فإنهم إنما جاءوا بالإقرار بربوبيته تعالى ووحدانيته، وبالتزام الفضائل المرتضاة عنده والابتعاد عما يناقضها من الرذائل، وهذا هو علم الأشياء بحقائقها نفسه، ولذا، فإن الفلسفة في مراميها وغاياتها لا تختلف عن الدين. ويظهر مما جاء في كتابه إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ان بعض رجال الدين عارضوه في رأيه هذا، وهو ينسب معارضتهم إلى جهلهم وضيق فطنتهم عن فهم أساليب الحق، ودفاعاً عن مراكزهم التي وصلوا إليها عن غير استحقاق[٦٣].

وفي سبيل الدفاع عن منهجه الفلسفي راح الكندي يعمل جاهداً ليثبت أن الفلسفة لا تناقض الدين، ويعمل للتوفيق بينهما. وكان أول فيلسوف عربي مسلم حاول ان يؤوّل الآراء الفلسفية ليوفّق بينها وبين الدين، مما مهّد طريق الفلسفة لمن يريد أن ينتهجها وينهل من مواردها.

٣ ـ بعض نظريات الكندي الفلسفية

وللتعرف إلى مزيد من جوانب فلسفة الكندي ومنهجه فيها نستعرض في ما يأتي آراءه ونظرياته في بعض المسائل الفلسفية المهمة:

أ ـ وحدانية الله تعالى

يحاول الكندي أن يدلّل على وحدانيته تعالى بأن يثبت استحالة وجود جسم بالفعل لا نهاية له، كما يثبت تناهي الزمان وجرم العالم أيضاً، وذلك في رسالته في وحدانية الله وتناهي جرم العالم[٦٤]، فهو يرى استحالة وجود ما لا نهاية له بالفعل أياً كان، وان الحركة هي علة

---

(٦٢) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج ١، ص ١٦٥ ـ ١٨٠، وج ٢، ص ٨ ـ ٣٢.

(٦٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٦٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠١ ـ ٢٠٧، وقد كتبها إلى الشاعر علي بن الجهم جواباً عن سؤال منه.

الزمان إذ يقول «إنه لا يمكن أن يكون زمان بالفعل لا نهاية له. والزمان زمان جرم الكلّ ـ اعني مدته ـ فإذا كان الزمان متناهياً فإن آنيّة الجرم متناهية، إذ الزمان ليس بموجود. ولا جرم بلا زمان، لأن الزمان إنما هو عدد الحركة ـ أي مدة تعدّها الحركة ـ فإن كان حركة كان زمان، وإن لم تكن حركة لم يكن زمان. والحركة إنما هي حركة الجرم، فإذا كان جرم كانت حركة وإن لم يكن جرم لم تكن حركة. والحركة هي تبدّل الأحوال. . . فكل تبدّل فهو لذي زمان». وبعد أن ينتهي إلى وجوب تناهي الجسم والحركة والزمان، يقرر أنه «يمتنع أن يكون جرم لم يزل، فالجرم إذاً مُحدث اضطراراً، والمحدَث محدِث المحدِث، فللكل محدث اضطراراً عن ليس»[٦٥].

ثم ينتقل إلى اثبات أن المحدِث المبدع واحد، وهو محدِث الكل. لأن الكثرة في المحدثين تجعلهم مركّبين في ذواتهم بحكم اشتراكهم في حال واحدة هي انهم جميعاً فاعلون، كما أنهم مختلفون بفصول تخصصهم، فيصبح كلٍ منهم مركّباً في ما يخصه ومما يعمّه ويعمّ غيره. وهذا يقتضي حدوث كل منهم وحاجته إلى مركّب يُركّبه، أي «يجب أن يكون للفاعل فاعل، فإن كان الواحد هو الفاعل الأول، وإن كان كثيراً ففاعل الكثير كثير دائماً، وهذا يخرج بلا نهاية، وقد اتضح بطلان ذلك. فإذن ليس كثيراً بل واحد غير متكثر، سبحانه وتعالى»[٦٦].

ويؤكد الكندي في كتابه في الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد[٦٧] أن في الظاهر للحواس لأوضح دليل على تدبير مدبّرٍ أول، ويعني مدبّراً لكل مدبّر، وفاعلاً لكل فاعل، ومكوِّناً لكل مكوَّن، وأولاً لكل أول، وعلّة لكل علة[٦٨]. وان الله جل ثناؤه هو الموجود الحق لم يكن ولا يكون ليساً أبداً، ولم يزل ولا يزال أيساً أبداً. وأنه هو الحي الواحد الذي لا يتكثر أبداً، وأنه هو العلة الأولى التي لا علة لها والفاعلة التي لا فاعل لها والمؤيس الكلّ عن ليس[٦٩]. ويرى أن «في نظم هذا العالم وترتيبه، وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، واتقان هيئته على الأمر الأصلح في كون كل كائن وفساد كل فاسد، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل، لأعظم دلالة على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبِّر، وعلى احكم حكمة، ومع كل حكمة حكيم»[٧٠].

ب ـ نظريته في الكون والفساد[٧١]

تُعتبر نظرية الكندي في الكون والفساد من أهم نظرياته الفلسفية المبتكرة وقد ضمّنها آراء جديدة يخالف فيها ما ذهب إليه فلاسفة اليونان. فهو يقول إن كل حركة إما أن تكون

---

(٦٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٧.
(٦٦) المصدر نفسه.
(٦٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٤ ـ ٢٣٧.
(٦٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٤.
(٦٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٥.
(٧٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٥.
(٧١) الكون هنا بمعنى التكوين والخلق أو التجديد، والفساد بمعنى الهلاك والاضمحلال. ويبحث الكندي هذا الموضوع في كتابه: في الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد. انظر: المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٤ ـ ٢٣٧.

مكانية أو ربوية أو اضمحلالية أو استحالية أو كوناً أو فساداً. كما أنها تكون ذاتية، أي من ذاتية الشيء، أو عرضية، أي ليست من ذاتيته. ويعني بالكون من ذات الشيء ما لا يفارق الشيء الذي هو فيه إلا بفساد جوهر، ويضرب مثلاً على ذلك بحياة الحي التي لا تفارق الحيّ إلا بفساد جوهره وانتقاله إلى لا حيّ. أما عن علة الحركة الكونية الفسادية فيذكر أربع علل طبيعية هي: العنصرية والصورية والفاعلة والتمامية. ويشير إلى أنه سيبحث في علة واحدة منها هي العلة الفاعلة، باعتبارها هي العلة الأساسية. على أن هذه العلة قد تكون قريبة أو تكون بعيدة. والعلة الأولى البعيدة في ما يتعلق بالكون والفساد في هذا العالم، على رأيه، هو الذات الإلهية، أي الله جلّ جلاله المبدع للكل، المتمم للكل، علة العلل ومبدع كل فاعل. أما العلة الفاعلة القريبة فيقول عنها «إنه قد اتضح في الأقاويل الطبيعية أن الكون والفساد إنما يكون في ذوات الكيفيات المتضادات، وان الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبس هي أوائل الكيفيات المتضادة، وان الجرم الأقصى من العالم ـ أعني ما بين حضيض القمر إلى آخر نهاية جسم الفلك ـ لا حار ولا بارد ولا رطب ولا يابس، وأنه لا يعرض فيه الكون والفساد أيام مدة زمانه الذي صيّر الله جلّ ثناؤه له، وان الكون والفساد إنما يكون فيما دون فلك القمر»[72].

ويعدّد الكندي العناصر التي في فلك ما دون القمر، وهي النار والهواء والماء والأرض، وهي كرات بعضها في داخل البعض: النار في أعلى ويليها الهواء وهما يتحركان إلى أعلى، أي إلى خارج العالم، ثم الماء والأرض وهما يتحركان إلى أسفل، أي نحو مركز العالم الذي هو الأرض. ثم يتكلم على تأثير هذه العناصر بعضها في البعض الآخر، ويبين أنها ليست فاسدة في جملتها، بل إنها تكون وتفسد في بعض أجزائها. أما ما هو مركّب منها، ويعني بالمركّبات الحرث والنسل والمعادن وما أشبه ذلك، فإنها كائنة فاسدة بكمال أشخاصها. ولا تخلو علة الكون والفساد الكائن في أجزاء العناصر الأربعة القريبة، من أن تكون قريبة منها أو من غيرها، وإما أن يكون أحدها علة ذلك، أو بعضها، منها ومن غيرها معاً.

ثم يشرح تأثير الحركة في العناصر ومركّباتها وما تولّده فيها من الحرارة، مع ملاحظة تأثير الزمان والمكان والكمية. ويبين «أن أفاعيل النفس متبعة مزاجات الأجسام، والمزاجات تختلف باختلاف الأشخاص العالية بالمكان والزمان والكيفية»[73]. ويوضح الفوارق البدنية والعقلية والخلقية بين سكان المناطق الثلاث: الحارة والباردة والمعتدلة، ويؤكد على فعل الحرارة والبرودة وتأثيرهما في تلك الفوارق. وهو يعزو ذلك كله إلى فعل الأشخاص العالية، إذ يقول «ومن الدليل الأكبر على أن هذه الأشخاص السماوية علة كوننا ما نرى من حركة الشمس البيّنة جداً دون الحساب، والكواكب المتحيّرة البينة جداً للحس. فإن هذه الكواكب خاصة من بين جميع الأجرام السماوية، ونظم بعضها إلى بعض، وتعديل أبعادها من هذه الأشياء الطبيعية الواقعة تحت الكون والاستحالة واعداد حركاتها التي بعضها من الشرق إلى الغرب، وبعضها من الغرب إلى الشرق، وقربها من المركز وبعدها عنه، أدلّ من غيرها من الأشخاص السماوية على أنها علة كون الأشياء الواقعة تحت الكون والفساد والاستحالة، ودوام صورها إلى المدة التي قدّر لها خالقها جلّ ثناؤه ولا سيما الشمس»[74].

---

(72) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(73) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(74) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

وهو لا يعزو تأثير الأجرام السماوية إلى فعل أشخاصها، بل إلى ما ينشأ من حركاتها التي تجري حسب قانون طبيعي قدّره لها خالقها. ويعطي الكندي الأهمية الكبرى في ذلك للشمس من حيث حجمها وبعدها وما تبعثه من حرارة، واستمرار تأثيرها، ولولا ذلك «لم يكن شتاء ولا صيف ولا ربيع ولا خريف، وكان زمان كل موضع من الأرض واحداً إما صيف أبداً وإما شتاء أبداً، وأما غير ذلك من الأزمان لا يختلف. ولو كان هذا هكذا لما ثبت كون ولا فساد، ولكانت الأشياء واحدة لا كون فيها ولا فساد، وبطلت صورة الكون جميعاً»[٧٥].

وهكذا يرى الكندي «أن قوام الأشياء الواقعة تحت الكون والفساد وثبات صورها إلى نهاية المدة التي أراد باري الكون للكون جلّ ثناؤه، وحفظ نظامها، إنما يكون من قِبل اعتدال الشمس في بعدها من الأرض، ومن قبل سلوكها في الفلك المائل وانقيادها لحركة الفلك الأعظم المحرِّك لها من المشرق إلى المغرب، ومن قبل خروج مركز فلكها عن مركز الأرض، وأعني في دنوّها من مركز الأرض تارة وبعدها منه تارة، لكون نهاية الزمان التي بها تكون الأكوان»[٧٦].

ثم يلخص الكندي نظريته في الكون والفساد بقوله «فقد تبين أن كون جميع الأشخاص السماوية على ما هي عليه من المكان الذي هو الأرض والماء والهواء ونضد ذلك[٧٧]، وتقسيطه، هو علّة الكون والفساد في الكائنات الفاسدات، الفاعلة القريبة، أعني المرتّبة بإرادة باريها هذا الترتيب الذي هو سبب الكون والفساد، وأن هذا من تدبير حكيم عليم...»[٧٨].

يتضح مما تقدم أن الكندي لا يقول بقِدم العالم ولا بقِدم الزمن والحركة، وهو يخالف بهذا ما قاله أرسطوطاليس عن قِدم العالم وأزليته. ولكن يلاحظ من جهة أخرى أنه يعالج الموضوع على اعتبار أن الأرض مركز الكون وأن الشمس والكواكب الأخرى تدور حولها، وهو ما قال به فلاسفة اليونان. كما أنه يلمح إلى تأثير جاذبية الأرض، ويعتبر الحياة عليها مرتبطة بوجود الشمس. «فقد لاحظ أوضاع النجوم والكواكب ولا سيما الشمس والقمر بالنسبة للأرض، وما ينشأ عنها من ظواهر يمكن تقديرها من حيث الكم والكيفية والزمان والمكان. وربط بين ذلك وبين نشأة الحياة على الأرض في آراء تتسم بالخطورة والجرأة»[٧٩]. وقد ذكر ابن أبي أصيبعة بين كتب الكندي رسالة في الحياة[٨٠]. ويظهر أنه أوضح نظريته المذكورة في هذه الرسالة.

ج ـ آراؤه في العقل

وضع الكندي رسالة في العقل[٨١] وبيَّن في مقدمتها أنه وضعها بشكل موجز على رأي المحمودين من فلاسفة اليونان أمثال أرسطوطاليس ومعلّمه أفلاطون الحكيم. ويبدأ في

---

(٧٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٩.
(٧٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣١.
(٧٧) نضده: إحكامه.
(٧٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٧٩) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط ٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥)، ص ١٦١.
(٨٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩١.
(٨١) الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج ١، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٨.

توضيح نظرية العقل بأن يقسم المعرفة إلى حسِّية وعقلية، لأن الصورة قد تكون هيولانية ـ أي مادية، واقعة تحت الحس، أو غير هيولانية ـ أي مجردة، واقعة تحت العقل. وأن الصورة المحسوسة إذا أفادتها النفس صارت هي والنفس شيئاً واحداً، وأن النفس تفيدها لأنها فيها بالقوة، فإذا ما باشرتها صارت فيها بالفعل، والقوة الحاسمة ليست سوى النفس. وكذلك الصورة التي تكون في النفس بالقوة تصير في النفس بالفعل، وهذه الصورة هي العقل المستفاد من العقل الأول وموضوعها الأشياء الثابتة التي هي بالفعل دوماً. وكل شيء أفاد شيئاً فإن المستفيد كان له ذلك الشيء بالقوة، وكل ما كان لشيء بالقوة فليس يخرج إلى الفعل بذاته وإنما بشيء آخر. وعلى هذا يرى أن الصورة العقلية في النفس هي والنفس شيء واحد ـ أي أن العقل والمعقول واحد من جهة النفس، وعلى هذا «فإن العقل إما علة وأول لجميع المعلولات والعقول الثواني، وإما ثانٍ وهو بالقوة للنفس ما لم تكن النفس عاقلة بالفعل. والثالث هو الذي بالفعل للنفس قد أقتنته وصار لها موجوداً متى شاءت استعملته وأظهرته لوجود غيرها منها، كالكتابة في الكاتب فهي معدَّة ممكنة قد اقتناها وثبتت في نفسه، فهو يخرجها ويستعملها متى شاء. وأما الرابع فهو العقل الظاهر المبيِّن من النفس، متى أخرجته، فكان موجوداً لغيرها منها بالفعل»[82].

ويوضّح الكندي ان العقل الأول هو العلة الأولى الشريفة في مقابل العقول الأخرى التي هي عقول ثوانٍ بحسب صنفها ومرتبتها الوجودية، مجرّدة عن المادة ولا تتمثل في الوهم في صورة حسية. وان النفس تكون عاقلة بالقوة، فإذا ما اتحد بها أحد العقول الثواني المجردة صارت عاقلة بالفعل ـ أي أن العقل الثالث يكون أولاً عقلاً بالقوة، ثم يصير عقلاً بالفعل. ولما كان هذا العقل ليس إحدى القوى النفسانية التي لكل كائن حي، بل هو آتٍ من خارجه ومآله إلى ترك الإنسان، فقد سمّاه الكندي «العقل المستفاد» أي أنه لم يكن للنفس ثم صار لها. إن الكندي في مقولته عن العقل لم يكن بعيداً عن التأثر بأرسطو وغيره من الفلاسفة اليونان، بل إنه بنى رأيه فيه على ذلك، ولكن يبدو أنه طوَّر ما قالوا به في ضوء الآراء الأفلاطونية الجديدة، فأضاف العقل الرابع وهو ما سمّاه بالعقل الظاهر أو المبيِّن، لأن النفس تبيِّن به عما فيها إلى عقل آخر[83].

ثالثاً: فلاسفة آخرون

١ ـ الرازي والفلسفة

كان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، أعظم أطباء عصره، ذا عقلية علمية، يؤمن بالدراسة والتجربة للحصول على نتائج صحيحة، والوصول إلى الحقيقة. فهو يؤثر الحكمة التي تضافرت على تكوينها مئات الأجيال ويوصي بالاستكثار من قراءة كتب الحكماء ودراستها، لأن العمر أقصر من أن يجرِّب الانسان فيه كل شيء. إذ يقول: «الاستكثار من قراءة

(٨٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٨.

(٨٣) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ١٧٨، ومظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٥٠.

كتب الحكماء، والإشراف على أسرارهم، نافع لكل حكيم عظيم الخطر» ويقول: «إن العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات الأرض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه، ودع الشاذ، واقتصر على ما جرّبت»[84].

وكما كان يدعو إلى الاستفادة من تجارب الآخرين كان يدعو إلى الاستمرار في التجارب واعتماد القياس والأخذ بما اجتمع عليه الآخرون. فيقول: «ما اجتمع عليه الأطباء، وشهد عليه القياس، وعضدته التجربة، فليكن أمامك»[85]. ومن هذا يظهر أن الرازي وإن أوصى من الاستكثار من القراءة والدرس، فإنه كان يعني أيضاً بالتجربة والقياس. ولهذا فقد كان يقدّر جالينوس وأرسطوطاليس كثيراً، إذ قال: «متى اجتمع جالينوس وأرسطوطاليس على معنى فذلك هو الصواب، ومتى اختلفا صعب على العقول إدراك صوابه جداً»[86].

لقد عالج الرازي، شأن أمثاله من الحكماء، بعض المواضيع الفلسفية التي كانت تشغل بال الفلاسفة على أيامه، وأبدى آراءه فيها. إلا أن آراءه الفلسفية لم تكن توازي آراءه الطبية من حيث عمقها وأهميتها وتأثيرها، ولذا غلبت عليه صنعة الطب وشهرته بها. ويمكن القول إن الرازي لم يتفرغ للفلسفة بما تنطوي عليه الكلمة من معنى، وإنما كانت له آراء وأقوال فلسفية. ويظهر أن ما لقيه من اتهامات في عقيدته، جعله ينصرف عن معالجة هذه المواضيع، مكتفياً بنجاحه في ميدان الطب. ولعل اتصاله ببعض منتحلي المذاهب الغريبة عن الاسلام وأخذه ببعض آرائهم انحرف به عن جادة الصواب. وقد اعتبره القاضي صاعد الأندلسي من أشياع الفلسفة الطبيعية، ويقول عنه إنه صنّف في ذلك كتباً انحرف فيها عن ارسطوطاليس، وإنه استحسن في كتابه الطب الروحاني وغيره مذهب الثنوية في الاشتراك، وآراء البراهمة في إبطال النبوّة[87]. وهو يرى أن سبب ذلك أن الرازي «لم يوغل في العلم الإلهي ولا علم غرضه الأقصى فاضطرب لذلك رأيه، وتقلد آراء سخيفة، وانتحل مذاهب خبيثة، وذمّ أقواماً لم يفهم عنهم ولا هدي لسبيلهم»[88]. وقد نقل هذا الرأي عنه كل من القفطي وابن أبي أصيبعة[89]. ويحاول ابن أبي أصيبعة أن يدفع بعض التّهم عن الرازي عندما يذكر كتابه «فيما يرويه من إظهار ما يدّعي من عيوب الأولياء»[90]، فيقول «وهذا الكتاب إن كان قد ألّف، والله أعلم، فربما أن بعض الأشرار المعادين للرازي قد ألّفه ونسبه إليه ليسيء من يرى ذلك الكتاب او يسمع به، الظن بالرازي، وإلا فالرازي أجلّ من أن يحاول هذا الامر وأن يصنّف في هذا المعنى»[91].

---

(84) ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢٠.

(85) المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(86) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(87) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٢٣.

(88) المصدر نفسه، ص ٥٣.

(89) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧١، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤١٦.

(90) ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٦، وجاء اسمه في: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣٣: «كتاب ما يدعى من عيوب الأنبياء»، وفي القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٦: «كتاب ما يدعى من عيوب الأولياء».

(91) ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٦.

كانت اراء الرازي الفلسفية تنحو منحى الفلسفة الطبيعية، فهو يرى أن النفس هي ذات الشأن الأول في العلاقة بينها وبين الجسم، وان ما يعتريها من خواطر وما تحسّ به من افراح والام يمكن أن يُستشفّ من ملامح الجسم الظاهرة، ولذلك أكد على طبيب البدن أن يراعي هذه الناحية في مريضه فيعالج حالته النفسية، وقد سبقت الاشارة إلى ذلك في سيرة الرازي الطبية.

ويقول دي بور إن الرازي لم يكن يحفل بأوامر الشريعة كتحريم الخمر وما إليه، ويظهر أن نزعته الإباحية هي التي أدت به إلى التشاؤم، وأنه وجد أن الشر في الوجود أكثر من الخير، وأن اللذة ليست سوى الراحة من الألم، وهي رجوع النفس إلى حالتها الطبيعية التي كان اضطرابها سبباً في الألم. أما النفس الكلية فهي بحسب تصوّره قد اشتاقت الدخول إلى هذا العالم فأصبحت أسيرة فيه، فأرسل الخالق تعالى جزءاً من جوهره الإلهي وهو العقل ليعود بالنفس إلى رشدها ويذكّرها أن هذا العالم لا يليق بها. ولذا فهو يدعو إلى صفاء النفس والعمل على تحريرها مما يربطها بهذا العالم، ويرى أن الفلسفة هي التي تمكّن النفس من معرفة عالمها الحقيقي. ولذا كانت مهمة الفلاسفة إعادة النفوس إلى طريق الرشاد، وأصبح البحث عن الحقيقة غاية الفلسفة.

ويرى الرازي أن الأجسام العلوية والسفلية جميعاً مؤلفة من العناصر الأربعة: الحار والبارد واليابس والرطب، وكلها موجودة منذ الأزل. ولما كانت الأجرام العلوية مكونة من العناصر نفسها التي تتكون منها الأجسام الأرضية، فإن هذه معرضة دائماً للتأثر بتلك الأجرام. وقال «بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات، وباختلاف عروض البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطبائع الأدوية والأغذية»[92]. وهو رأي يماثل ما يذهب إليه المنجمون. وفي هذا دلالة واضحة على أنه ربما كان منجماً.

أما رأيه في ما بعد الطبيعة، فإنه لا يختلف عن الاراء القديمة، فهو يؤكد على خمسة مبادىء أساسية ويقول بقِدَمها وأزليّتها، وهي: الباريء تعالى، والنفس الكليّة، والهيولى الأولى، والمكان المطلق، والزمان المطلق. وهي أسس ومبادىء لا بد منها لوجود هذا العالم. فالإحساسات الجزئية تدل على الهيولى بالمعنى المطلق، والجسم بين محسوسات مختلفة يستلزم المكان، وإدراك ما يختلف على المادة من أحوال وتغير يستلزم القول بالزمان، ووجود الأحياء يدلنا على وجود النفس، ووجود العقل في بعض الكائنات الحيّة يدل على وجود خالق أحسن كل شيء خلقه.

وقد اختلف الرازي مع فلاسفة عصره في إمكان التوفيق بين الفلسفة والدين. وألّف بعض الكتب في الرد على المعتزلة وغيرهم ممن حاولوا استخدام البراهين العلمية والعقلية في الدين، مثل كتابه الانتقاد والتحرير على المعتزلة[93].

---

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(٩٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

وجاء الرازي برأي عن حركة الجسم يخالف ما ذهب إليه أصحاب أرسطو. فقد كتب مقالة في أن للجسم تحريكاً من ذاته وأن الحركة مبدأ طبيعي[94]. إن القول بتحرك الجسم من ذاته وبطبيعته رأي جديد في الفلسفة، ولكن يظهر أن الرازي لم يكن متحمّساً بما يكفي لانتشاره. وللرازي ثلاثة كتب أخرى عن حركة الأجسام، أحدها كتاب في أن الحركة ليست مرئية بل معلومة[95] والثاني كتاب في أنه لا يجوز أن يكون سكون وافتراق[96] والثالث في أنه يجوز سكون واجتماع ولا يجوز أن يكون حركة واجتماع[97]. ولا ندري ما إذا كان ما جاء في هذه الكتب شرحاً وتأييداً لرأي الرازي في كتابه الأول عن حركة الجسم. ويقول دي بور عن مقولة الرازي هذه «لو ان الرازي وجد من يؤمن به ويتم بناءه لكان نظرية مثمرة في العلم الطبيعي»[98].

وللرازي كتب أخرى في الفلسفة ذكرها ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة في قائمة كتبه. منها: كتاب في اللذة، وغرضه أن يبيّن انها داخلة تحت الراحة، وكتاب في المدة وهي الزمان وفي الخلاء والملاء وهما المكان، وكتاب في الهيولى المطلقة والجزئية، وكتاب في العلم الإلهي على رأي أفلاطون، وكتاب الحاصل، وغرضه فيه ما يحصل من العلم الإلهي من طريق الأخذ بالحرص وطريق البرهان، وكتاب تثبيت المعاد، غرضه فيه الرد على من أبطل المعاد. وكتب في مواضيع فلسفية متفرقة[99].

٢ ـ ثابت بن قرّة

كنا ذكرنا ثابت بن قرّة الحرّاني في الفصل الخاص بالترجمة، كمترجم قدير يحسن اللغات العربية واليونانية والسريانية، وقلنا إنه ترجم عدداً من الكتب المهمة، وصحح عدداً اخر نقله إلى العربية مترجمون آخرون. وقد كان لثابت بن قرّة اهتمامات علمية أخرى. يقول ابن أبي أصيبعة «لم يكن في زمنه من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة»[100].

---

(٩٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢١. وجاء ببعض الاختلاف في: ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣٢، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٩٥) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٤٣٢؛ ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٣، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٥.

(٩٦) ابن أبي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٥.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٤٢٥.

(٩٨) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ١٥٠، وحول آراء الرازي الفلسفية الأخرى، انظر: المصدر نفسه، ص ١٤٩ ـ ١٥٢.

(٩٩) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٣؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٧، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٧.

(١٠٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

ويقول ابن جلجل «وكان الغالب عليه الفلسفة دون الطب»[101]. ويقول القفطي «وكان الغالب عليه الفلسفة»[102]، وهو يؤكد بهذا قول ابن جلجل. لقد اشتهر ثابت بإحاطته بعلوم عديدة مهر بها جميعاً، فكان مهندساً لامعاً، وفلكياً من ذوي الأرصاد، وفيلسوفاً عالماً، وطبيباً ماهراً، ولد بمدينة حرّان في سنة ٢٢١[103] وبها نشأ، وكانت من المراكز العلمية آنذاك في إقليم الجزيرة، ثم انتقل إلى بغداد فاتصل بالخليفة المعتضد بالله الذي كان يجلّه كثيراً ويحترمه لسعة علمه وتعدّد معارفه، وقد اتخذه نديماً ومنجماً مختصاً به. وكان اتصال ثابت بالخليفة قد تم بوساطة محمد بن موسى بن شاكر الذي كان قد تعرّف إليه في حران في منصرفه من بلاد الروم وجاء به إلى بغداد لما رآه فيه من نباهة وفصاحة ورغبة في العلم، فقدّمه إلى الخليفة فأدخله في جملة المنجّمين في البلاط[104]. وهناك رواية أخرى لاتصال ثابت بالخليفة المتعضد بالله يرويها ابن أبي أصيبعة نقلاً عن ثابت بن سنان، حفيد ثابت بن قرة، وخلاصتها أن الأمير الموفّق أخا المعتمد على الله لما غضب في أواخر أيامه على ابنه أبي العباس أحمد حبسه في دار الوزير اسماعيل بن بلبل. فتقدم الوزير إلى ثابت بن قرّة بأن يدخل على أبي العباس ويؤنسه في وحدته. فأنس أبو العباس به كثيراً. إذ كان ثابت يحادثه ويعرّفه أحوال الفلاسفة وأمور الهندسة والنجوم وغير ذلك، فشغف به. ولما تقلد الخلافة أقطعه ضياعاً جليلة، وكان يجلسه بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام[105].

إن الحياة الرغيدة التي أتاحها الخليفة لثابت بن قرة ساعدته على الانصراف إلى الترجمة وتصنيف الكتب والرسائل في ما يتقنه من العلوم والفنون. فكان عمله في الترجمة جديراً بالتقدير. أما في ميدان التأليف فإنه يعتبر من المكثرين فيه، فقد ذكر له ابن أبي أصيبعة ما يقرب من ١٥٠ كتاباً ورسالة[106]. وفيها من كتب الفلسفة والمنطق: جوامع كتاب بارمينياس، وجوامع كتاب أنالوطيقا الأول، واختصار المنطق، ونوادر من طوبيقا، واختصار كتاب ما بعد الطبيعة، وكتاب في أغاليط السوفسطائيين، وكتاب في الرد على من قال إن النفس مزاج، وكتاب في الأخلاق، وكتاب المدخل إلى المنطق، ومختصر الأصول من علم الأخلاق، وكتاب في النفس، وكتاب في الطريق إلى اكتساب الفضيلة.

---

(١٠١) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٧٥.

(١٠٢) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٥.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ١٢٢؛ ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٩٤؛ شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ١، ص ٢٧٨، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٧، وفيه أنه ولد سنة ٢١١.

(١٠٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٩٤؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٨؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٥، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

(١٠٥) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

٣ ـ أحمد بن الطيِّب

أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان بن الطيِّب، ولد في مدينة سرخس فنُسب إليها. وهو أبرز تلاميذ أبي يوسف يعقوب الكندي، درس عليه وأخذ منه، وكان غزير العلم بالتاريخ والفلسفة والسياسة والرياضيات والفلك والأدب والموسيقى. وصفه ابن النديم بأنه «كان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب، حسن المعرفة، جيد القريحة، بليغ اللسان، مليح التصنيف والتأليف»[١٠٧] وأضاف ابن أبي أصيبعة إلى ذلك قوله، وكان «أوحد في علم النحو والشعر، وكان حسن العشرة مليح النادرة، خليعاً ظريفاً، وسمع الحديث وروى شيئاً منه»[١٠٨]. وقال عنه المسعودي «كان موضعه من الفلسفة لا يُجهل، وله مصنفات حسان في الفلسفة وفنون الأخبار»[١٠٩] ووصفه القفطي بقوله «أحد فلاسفة الإسلام... أحد المتفننين في علوم الفلسفة، وله تواليف جليلة في الموسيقى والمنطق وغير ذلك حلوة العبارة جيِّدة الاختصار»[١١٠]. أما ياقوت الحموي فكان معجباً به كثيراً إذ قال عنه: «أحد العلماء الفهماء المحصّلين الفصحاء البلغاء، له في علم الأثر الباع الوساع، وفي علوم الحكماء الذهن الثاقب الوقاد وبسطة الذراع، وهو تلميذ الكندي، وله في كل فن تصانيف ومجاميع وتواليف»[١١١].

تولى أحمد بن الطيِّب أول أمره تأديب أبي العباس أحمد بن الموفق ثم نادمه لما تولى الخلافة ولقِّب المعتضد بالله. ولعلاقة المعتضد الطويلة بابن الطيِّب وما لمسه منه من ولاء وأمانة، وما كان عليه من علم واسع وعقل راجح، فقد اختص به واتخذه نديماً ومستشاراً كان يفضي إليه بأسراره ويستشيره في أمور مملكته[١١٢]. وولاه الحِسبة، وسوق الرقيق، والمواريث، ببغداد في سنة ٢٨٣، إلا أنه ما لبث أن قبض عليه في السنة التالية وسلّمه إلى بدر أحد غلمانه فأودعه السجن، ووجّه إلى داره من قبض على جميع أمواله[١١٣]. أما سبب غضب الخليفة عليه فتتفق الروايات على أنه «أفضى إليه بسر يتعلق بالقاسم بن عبيد الله وبدر غلام المعتضد بالله، فأفشاه وأذاعه بحيلة من القاسم عليه مشهورة، فسلّمه المعتضد بالله إليهما فاستصفيا ماله ثم أودعاه

---

(١٠٧) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(١٠٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٣.

(١٠٩) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ٢٥٩.

(١١٠) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٧٧.

(١١١) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء، تحقيق د.ص. مرجليوث، ط ٢، ٩ ج (القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦)، ج ١، ص ١٥٨.

(١١٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٨٠؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٧٧، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٣.

(١١٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٤٨٠، وياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٨.

المطامير...»[114]. ويروي ياقوت الحموي أن عبد الله بن حمدون نديم الخليفة المعتضد بالله قال إنه سأل الخليفة عن سبب قتله أحمد بن الطيّب، ولم تكن له جناية ظاهرة، فقال الخليفة: ويحك إنه دعاني إلى الإلحاد، فقلت له: يا هذا أنا ابن عم صاحب الشريعة وأنا الآن منتصب منصبه، فألحد حتى أكون من[115]؟

أما عن قتله، فإنه كان قد أودع السجن، ولما أمر المعتضد بالله في سنة ٢٨٦ وزيره القاسم بن عبيد الله بأن يقدم له أسماء جماعة من المسجونين ممن ينبغي أن يقتلوا ليستريح من انشغال باله بهم، أدخل القاسم اسم أحمد بن الطيّب في جملة الأسماء، وعندما علم الخليفة بالأمر في ما بعد لم ينكره[116]. وكان موته في صفر سنة ٢٨٦. ولابن الطيّب عدة مصنفات في الفلسفة إلى جانب عدد كبير من المؤلفات الأخرى في الرياضيات والفلك والطب وفي صناعة النجوم والموسيقى والمنادمة والمجالسة[117]. أما كتبه الفلسفية فمنها: كتاب أن المبدعات في حال الابداع لا متحركة ولا ساكنة، وكتاب النفس، وكتاب في العقل، وكتاب في وحدانية الله تعالى، وكتاب في أدب النفس ألّفه للخليفة المعتضد بالله، وكتاب في ألفاظ سقراط، وكتاب في أن الجزء ينقسم إلى ما لا نهاية له، إضافة إلى اختصاره كتب أرسطو في المنطق[118].

---

(١١٤) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٠؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٧٧، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

(١١٥) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٩.

(١١٦) ابن النديم، المصدر نفسه، ص ٣٨٠؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٧٨، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

(١١٧) ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٨.

(١١٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

الفصل الحادي عشر

الطبُّ وأشهر الأطِبَّاء

أولاً: تقدم الطب العربي

مقدمة

يأتي علم الطب بعد الفلسفة تراثاً يونانياً تسلّمه العرب فأولوه رعايتهم واهتمامهم فتقدم على أيديهم، حتى أصبح من أوضح معالم الحضارة العربية في عصورها الزاهرة. على أن هناك ملاحظتين مهمتين لا بد من ذكرهما، الأولى، أن كبار أطباء اليونان كانوا علماء نظريين أكثر مما كانوا متمرسين بالتجربة والتطبيق، بينما اهتم الأطباء العرب الذين تأثروا بمؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما، بتطبيق ما جاء فيها من نظريات وآراء وجرّبوها على المرضى في مختلف الظروف والأحوال، فأقروا ما ثبت صلاحه منها وطوّروا قسماً آخر، ونبذوا ما سوى ذلك. والملاحظة الأخرى هي أن المؤلفين في الطب من علماء العرب وفلاسفتهم مع اعتمادهم في بعض مواضيع كتبهم على المؤلفات اليونانية المذكورة، فإنهم أضافوا إليها الكثير من ابتكاراتهم وأعمالهم الأصيلة مما لم يُسبقوا إليه، كما أنهم أحسنوا تدوين تلك المعارف الطبية وتبويبها بحيث تميزوا على المؤلفين اليونانيين الذين لم يكونوا يحافظون على تسلسل مادة الموضوع ووحدته، ولا على التوافق بين أصناف المعلومات واسم الكتاب الذي يتضمنها[1].

لقد كان لتأسيس بيت الحكمة تأثير مهم في النشاط الطبي الذي شهده القرن الثالث، وبخاصة عندما تولى رئاسة الترجمة فيه الطبيب الحاذق والمترجم القدير حنين بن اسحاق. فقد حفلت معظم سنوات هذا القرن بأعظم النشاط في الترجمة والنقل، كما نُقحت وصُححت في

---

(١) كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي (بغداد: دار الحرية، ١٩٨٥)، ج ١، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

خلاله المترجمات التي تمّت قبل ذلك. وقد تهيأ لبيت الحكمة مترجمون قديرون لهم معرفة جيدة باللغات العربية واليونانية والسريانية. وسبق أن ذكرنا في باب الترجمة أشهر المترجمين الذين عملوا بمعيّة حنين بن اسحاق، فترجمت جميع كتب أبقراط وجالينوس وشروحها إلى اللغة العربية، حتى بلغ عدد ما ترجم من آثار جالينوس ما يقارب من مئة كتاب بالسريانية وتسعة وثلاثين كتاباً باللغة العربية، وكذلك ترجمت جميع مؤلفات أبقراط وشروح جالينوس عليها[2]. وذكر ابن النديم الكتب الستة عشر لجالينوس التي يقرأها المتطببون أولاً، وكتبه الأخرى ويربو عددها على الخمسين كتاباً، وقد ترجمها إلى العربية عدد من المترجمين، وقد أصلح حنين بن اسحاق كثيراً منها[3]. وتناولت هذه الكتب مختلف فروع علم الطب وعلاج أنواع الأمراض. فكانت مصدراً غنياً نهل منه الأطباء العرب ما ساعدهم على التمرس في هذه الصناعة، وغدوا بعد ردح من الزمن يصنّفون في هذه المواضيع، حتى احتلّت الكتب الطبية العربية مركز الصدارة في نهاية هذا القرن وبعده. وقد نقل الغربيون قسماً غير قليل منها إلى اللغة اللاتينية. ويمكن القول إن «دراسة كتب الأطباء العرب وأخبار المصادر تعطي الانطباع بأن عملية الأخذ والتمثل لطب الأجانب قد اكتملت في أواسط القرن الثالث... وربما انحصرت جهودهم في هذه الناحية في ذلك العهد على ترتيب وتلخيص وتنظيم وصقل كتب القدماء، وتعتبر كتب حنين بن اسحاق أفضل مثال على هذه العملية»[4].

وكان لتشجيع الخلفاء واهتمامهم بالشؤون العلمية عامة، وبالطبية بصفة خاصة، الأثر الكبير في تقدم الطب عند العرب آنذاك.

يتضح مما تقدم أن أهم ما ساعد على تقدم الطب العربي وتطوره في هذا القرن، حركة الترجمة التي أتاحت للأطباء العرب التعرف إلى الطب اليوناني وأشهر رجاله. وكان قد سبق ذلك استقدام عدد من مشاهير الأطباء من معهد جنديسابور ومن الهند منذ أيام الخليفة أبي جعفر المنصور، وما لقيه هؤلاء من رعاية الخلفاء واهتمامهم بهم، الأمر الذي شجع أطباء آخرين على القدوم إلى بغداد وسامراء، فنشروا معارفهم الطبية سواء بالتدريس أو بالترجمة والتأليف، بحيث تسنى للطب العربي أن يستقيم عوده في أواخر هذا القرن على قاعدة علمية متينة، هي خلاصة ما وصل إليه علم الطب عند الأمم الأخرى، وما أضافه الأطباء العرب على ذلك.

وكما كان دور العرب في إحياء التراث الطبي اليوناني مهماً جداً، كذلك كان لهم فضل الحفاظ على التراث المذكور من الضياع بعد أن أهمله أهله.

---

(٢) توماس أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨)، ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

(٣) أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠)، ص ٤١٧ - ٤١٩.

(٤) فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية الاسلامية (فرانكفورت: [د. ن.]، ١٩٨٤)، ص ٤٢.

١ ـ أهم مظاهر تقدم الطب العربي

يُلاحظ أن أبرز الأطباء العرب كانوا يتعاطون الفلسفة متأثرين بنظرة اليونان إلى الطب كفرع من فروع الفلسفة، وأن لا بد لمن يريد أن يكون طبيباً حاذقاً أن يكون فيلسوفاً بالوقت نفسه. وبالمقابل، فإن الفلاسفة العرب كانوا يتقنون علم الطب ويدرّسونه ويصنّفون فيه كتباً ولم يكونوا يمارسونه إلا نادراً. وقد تمّت على أيدي هؤلاء العلماء والأطباء تطويرات مهمة في صناعة الطب من حيث أساليبها ووسائلها. وسنتلمس في ما يأتي أبرز مظاهر هذا التقدم.

أ ـ يمكن وصف الطب العربي بأنه طب وقائي للأصحاء بقدر ما كان طباً للمرضى، فهو يعمل على حفظ الصحة أولاً. ويعتبر هذا النمط مما أحدثه الأطباء العرب ولم يكن اليونان قد مارسوه بسعة، كما لم تمارسه أمم أخرى ممن سبق العرب بمعرفة الممارسة الطبية[٥]. إذ كانت مهام الطبيب تدبير الأجسام وحفظ الصحة الموجودة في البدن واجتلابها للعليل[٦]. وعبّر عن ذلك الطبيب أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة بقوله «إن موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض»[٧].

وقد صنّف مشاهير أطباء هذا القرن وعلمائه كتباً ورسائل في تدبير الجسم في حالة الصحة. إذ صنّف يوحنا بن ماسويه كتاباً في تدبير الأصحاء، وهو في الوقاية الصحية[٨]. وصنّف بختيشوع بن جبرائيل للمأمون رسالة في تدبير البدن ردّاً على سؤاله عن ذلك[٩]. وللفيلسوف الكندي رسالة في تدبير الأصحاء أو كتاب تدبير الأصحاء[١٠]، وكتاب تقويم الصحة بالأسباب الستة التي ذكرها فيه، وهي: إصلاح الهواء الواصل إلى القلب، وتقدير المآكل والمشرب، وتعديل الحركات والسكون، ومنع النفس من الإغراق في النوم واليقظة، وتقدير استفراغ الفضلات واحتقانها، وأخذ النفس بالقصد في حرقة وغضبة وهمّ وفزع[١١]. وللطبيب الحاذق حنين بن اسحاق أربعة كتب في تدبير الصحة هي: كتاب تفسير كتاب حفظ الصحة لروفس الإفسسي، ورسالة في تدبير الأصحاء بالمطعم والمشرب، ومقالة في حفظ

---

(٥) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٣٧٥.

(٦) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥ ([د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧)، ج ٤، ص ٨٠.

(٧) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٣٠٨.

(٨) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٢٧.

(٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩٣.

(١٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٥، وأبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحرير يوليوس ليبرت (ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣)، ص ٢٩١.

(١١) السامرائي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٧١.

الأسنان واللثة، ومقالة تتعلق بحفظ الصحة وغيرها[١٢]. كما صنف الطبيب الفيلسوف قسطا بن لوقا البعلبكي رسالة في حفظ الصحة وإزالة المرض، ورسالة في تدبير الأبدان في السفر للسلامة من المرض والخطر[١٣]، وكتاباً في تدبير الأبدان في سفر الحج[١٤]. وللفيلسوف الرياضي ثابت بن قرة الحراني كتاب في تدبير الصحة[١٥]. ووضع أعظم أطباء زمانه الرازي كتاباً بين فيه أن الحمية المفرطة والمبادرة إلى الأدوية، والتقليل من الأغذية، لا يحفظ الصحة بل يجلب الأمراض[١٦]. ويبحث علي بن ربّن في أغلب أبواب المقالة الرابعة من النوع الثاني من كتابه فردوس الحكمة في الطب، في موضوع حفظ الصحة، ومراعاة كل مزاج في كل سن، وتدبير الأعضاء[١٧]. وله كتاب آخر في الموضوع هو كتاب حفظ الصحة[١٨].

ب ـ ومن مظاهر التقدم البارزة الأخرى اهتمام الأطباء العرب بالعقاقير الطبية. وكان أكثرها في البدء نباتياً. وقد توسّعوا في استعمالها بعد اطلاعهم على كتاب ديسقوريدس في الحشائش. ثم استخدموا العقاقير الحيوانية والمعدنية، وقد مهروا في تركيبها، وهو ما ساعد على تقدم صناعة الصيدلة التي كان العرب روّادها. وقد أطلقوا على العقاقير الأصلية سواء كانت نباتية أو معدنية أو حيوانية اسم «الأدوية المفردة»، وإذا ما جمع عقاران أو أكثر حصل على «أدوية مركّبة» وسماها العرب «الأقرباذين»، وكان تحضير الأدوية المركّبة من وظائف الصيدلاني. وكان الطبيب الماهر يوحنا بن ماسويه أول من صنف في موضوع الأدوية المركبة، فقد صنف كتاباً بعنوان تركيب الأدوية المسهلة واصلاحها وخاصة كل دواء منها ومنفعته[١٩].

وقد وضعت في خلال هذا القرن كتب عديدة عن الأدوية المفردة منها والمركّبة. فوضع الكندي عدداً من الكتب عن الأدوية منها: رسالة الأدوية الممتحنة، وكتاب الأقرباذين، وكتاب جوامع الأدوية لجالينوس[٢٠]، ورسالة في كيفية إسهال الأدوية وانجذاب الأخلاط[٢١]. وصنّف يوحنا بن بختيشوع كتاب تقويم الأدوية فيما اشتهر من الأعشاب والعقاقير والأغذية[٢٢].

---

(١٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٣.

(١٣) السامرائي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨٤.

(١٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٤٢٢ و٤٢٥ على التوالي.

(١٧) أبو الحسن علي بن سهل الطبري بن ربّن، فردوس الحكمة، تحقيق محمد زبير الصديقي (برلين: مطبعة آفتاب، ١٩٢٨)، ص ٩٩ ـ ١٠٥.

(١٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤١٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(٢١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٣٧٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٧٢.

(٢٢) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٣٩٧.

وللطبيب المترجم حنين بن اسحاق كتب عدة مترجمة ومصنّفة في الأدوية، منها: اختصار كتاب جالينوس في الأدوية المفردة، وكتاب في أسماء الأدوية المفردة على حروف المعجم، وكتاب في أسرار الأدوية المركبة، وكتاب تفسير الأدوية المكتومة لجالينوس، شرح فيه ما ذكره جالينوس في كل واحد من الأدوية[23]. وجوامع معاني الخمس مقالات من كتاب جالينوس في قوى الأدوية المفردة، وضعها على طريق المسألة والجواب، وكتاب الأقرباذين، وكتاب ابدال الأدوية المفردة، وكتاب تركيب الأدوية حسب المواضع الآلمة[24]. وكتاب اختيار الأدوية المحرقة[25].

وصنّف علي بن ربّن الطبري كتاب منافع الأدوية والأطعمة والعقاقير، وكرّس الباب الأول من المقالة الثانية للبحث في الأدوية المفردة والعقاقير[26].

كما صنف قسطا بن لوقا البعلبكي رسالة في الأدوية المسهلة والعلاج بالإسهال، ورسالة في ذكر اصلاح الأدوية المسهلة ونفي ضررها ومقدار الشربة منها وضروب استعمالها[27].

ولإسحاق بن حنين كتاب الأدوية المفردة، وكتاب الأدوية الموجودة بكل مكان، وكتاب إصلاح الأدوية المسهلة[28].

ووضع ثابت بن قرة الحراني كتاب جوامع جالينوس في الأدوية المنقية، وكتاب جوامع جالينوس في الأدوية المفردة[29].

ولأبي بكر الرازي عدد من الكتب في الأدوية منها: كتاب الأدوية الموجودة بكل مكان، يذكر فيه أدوية لا يحتاج الطبيب الحاذق معها إلى غيرها إذا ضم إليها ما يوجد في المطابخ والبيوت، وكتاب في أثقال الأدوية المركبة، وكتاب كيفية الاغتذاء وهو جوامع ذكر الأدوية المعدنية، وكتاب الأقرباذين المختصر، وكتاب في الدواء المسهل والمقيء، وكتاب صيدلية الطب، ومقالة في إبدال الأدوية المستعملة في الطب والعلاج وقوانينها وجهة استعمالها[30]، وكتاب في انتقاء الأدوية المركبة، وكتاب ابدال الأدوية[31]. وخصص الرازي

---

(٢٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢٤) السامرائي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٥، ٤٥٤ و٤٥٩.

(٢٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٤، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧٤.

(٢٦) انظر المقدمة، في: ابن ربّن، فردوس الحكمة، ص ط و٣٦٩ - ٤٠٤.

(٢٧) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٢٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٨٠.

(٢٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٨ - ١١٩، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٠٠ و٢٩٨.

(٣٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ و٤٢٦ - ٤٢٧.

(٣١) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٥٢٠ - ٥٢١.

الأجزاء (٢٠ - ٢٣) من كتابه الحاوي في الطب للبحث في الأدوية المفردة، وفي الصيدلة، وفي قوانين استعمال الأدوية والأشربة، كما كرس القسم الثالث من كتابه الجامع المعروف بـ الجامع الحاصر لصناعة الطب، للأدوية المركبة على سبيل الأقرباذين، والقسم الرابع منه للصيدلة، وسحق الأدوية واحراقها وتصعيدها وغسلها واستخراج قواها[٣٢].

ج - كما اهتم الأطباء العرب بغذاء المريض، وعرفوا خواصّ الأغذية من البقول والفواكه واللحوم والألبان، الضار منها والنافع. ووضع بعض كبار العلماء والأطباء عدداً من الكتب في هذا الموضوع. فقد صنّف فيلسوف العرب الكندي رسالة في الغذاء والدواء المهلك، ورسالة في تدبير الأطعمة[٣٣].

وصنّف يوحنا بن ماسويه كتاباً في خواص الأغذية والبقول والفواكه واللحوم والألبان وأعضاء الحيوان والأفاويه[٣٤]، وكتاب دفع ضرر الأغذية[٣٥] وكتاب إصلاح الأغذية[٣٦].

ووضع جبرائيل بن بختيشوع رسالة في الطعام والشراب ومنافع كل منهما ومضارّه في حالتي الصحة والمرض، وكان قد وضعها للمأمون[٣٧].

ولحنين بن اسحاق عدد من الكتب المترجمة والمصنفة في موضوع الأغذية منها: كتاب في طبائع الأغذية وتدبير الأبدان، ومقالة في ماء البقول، وكتاب في قوى الأغذية، وهو جوامع المقالات الخمس الأولى من كتاب جالينوس في قوى الأغذية، وكتاب في اللبن[٣٨]، وكتاب الفوائد في تنويع الموائد، ومقالة في الفواكه ومنافعها، وكتاب في اصلاح الجبن ومنافعه وما يستعمل منه[٣٩]، وشرح كتاب الغذاء لأبقراط، وكتاب وضعه للخليفة المعتمد على الله في ما سأله عن الفرق بين الغذاء والدواء المسهل[٤٠].

وصنّف قسطا بن لوقا البعلبكي رسالة في الأغذية عن طريق القوانين الكلية، وكتاب النبيذ وشربه في الولائم[٤١]، وكتاب في قوانين الأغذية. ولعله هو الكتاب الأول[٤٢].

---

(٣٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١٥ و٥٢١.

(٣٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩١.

(٣٤) السامرائي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٢.

(٣٥) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٥.

(٣٦) أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، نشره وذيّله بالحواشي واردفه بالروايات لويس شيخو اليسوعي (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢)، ص ٣٦.

(٣٧) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٣٩١.

(٣٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٣.

(٣٩) السامرائي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤٢ و٤٥٧.

(٤٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(٤٢) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٥، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٣.

ووضع ثابت بن قرة كتاباً اختصر فيه جوامع جالينوس في الأغذية وهو ثلاث مقالات[43].

وصنف علي بن ربّن الطبري كتاباً في ترتيب الأغذية[44]. وبحث في الأبواب الثلاثة من النوع الثالث من كتابه فردوس الحكمة في الطب في علة الاغتذاء، وفي أقدار الأغذية وما ينبغي أن يقدّم منها أو يؤخر، وفي أنواع الأغذية وقواها وما يتولد منها. وخصص أبواب المقالة الأولى من النوع السادس من الكتاب للبحث في الحبوب وفي قوى البقول والقرع والخيار، وفي قوى الثمار، وفي قوى اللّحمان، وفي قوى الألبان والأجبان، وفي قوى الأشربة والعصارات والمربيات والخلّ والكوامخ، وفي قوى السمك، وفي قوى الحلاوات والأبازير، وفي قوى الرياحين وأفاويه الطيب[45].

وصنّف أبو بكر الرازي في الموضوع أكثر من عشرة كتب منها: كتاب الملوكي وعلاج الأمراض كلها بالأغذية، ومقالة في ما ينبغي أن يقدَّم من الأطعمة وما يؤخر منها، وكتاب أطعمة المرضى، وكتاب منافع الأغذية ودفع مضارّها. وهو مقالتان يذكر في الأولى ما يدفع ضرر الأغذية في كل وقت ومزاج، ويبحث في الثانية استعمال الأغذية ودفع التخمة ومضارها[46]. وبيّن الرازي في الكتاب الأخير منافع الحنطة والماء البارد والماء الساخن والثلج والشراب المسكر، والأغذية غير المسكرة، واللحوم الطازجة واللحوم المجففة والأسماك، وأنواع البطيخ والجبن واللبن والبيض والبقول والتوابل والفواكه الطرية واليابسة والحلوى، كما بيّن مضار هذه الأغذية إلى جانب منافعها، والأحوال التي ينبغي تناولها فيها أو تجنّبها[47]. وخصّص الرازي القسم الثاني من كتاب الجامع لموضوع قوى الأغذية وتدبير أحوال المرضى[48].

د ـ ولم تقتصر مهمة الطب العربي على معالجة الأمراض الجسمية حسب، بل اهتم بالناحية النفسية للمريض. فكان الأطباء إلى جانب اهتمامهم بالتعرّف إلى طبيعة جسم المريض ومهنته وعاداته في طعامه وشرابه، وعمره، وتأثره بحالات الجو المختلفة، يهتمون أيضاً بالأعراض النفسية التي تعرض له من غمّ وحزن وفرح وغضب وغير ذلك، مما يساعدهم في تشخيص ما يشكو منه وعلاجه. وقد صنف يوحنا بن ماسويه كتاب الماليخوليا وأسبابها وعلاماتها وعلاجها[49].

---

(٤٣) القفطي، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٤٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٤.

(٤٥) ابن ربّن، فردوس الحكمة، ص ١١٤ ـ ١٢٠ و٣٧٤ ـ ٣٩٨.

(٤٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ و٤٢٥.

(٤٧) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ط ٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥)، ص ١٦٩.

(٤٨) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٥٢١.

(٤٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٥٥.

وممّن صنّف في المواضيع النفسية الفيلسوف الكندي، فله رسالة في الحيلة لدفع الأحزان، ورسالة إلى يوحنا بن ماسويه في النفس وأفعالها(٥٠).

وللطبيب الحاذق حنين بن اسحاق كتابان في هذا الموضوع هما: كتاب تفسير جالينوس لكتاب طبيعة الإنسان لأبقراط، وكتاب في تدبير السوداويين(٥١).

وصنّف ثابت بن قرة جوامع كتاب سوء المزاج المختلف لجالينوس، وكتاب في سوء المزاج المختلف(٥٢).

أمّا أبو بكر الرازي فله في هذا الموضوع كتاب في الأوهام والحركات النفسانية، كما صنّف كتابين في النفس أحدهما كبير والآخر صغير(٥٣)، وكتاباً في معرفة المزاج الآدمي(٥٤).

ثانياً: ممارسة الطب والرعاية الصحية

١ ـ ممارسة الطب والصيدلة

لم تكن ممارسة صنعة الطب أول الأمر تستلزم إجازة من السلطة أو من جهة علمية معينة، إذ لم يكن على الراغب في مزاولتها سوى ملازمة أحد الأطباء النابهين، أو العلماء المشهورين بعلم الطب، فيقرأ ويتدرب عليه، ومتى ما آنس من نفسه القدرة على مزاولة الصنعة عمل فيها. ويتوقف نجاحه وشهرته على ما يبديه من مهارة في علاج المرضى ومداواتهم، واتقانه معرفة طبائع الأدوية. وبديهي أنه كلما تعمق في الدراسة وتوسع فيها واستمر في الممارسة أصبح إلى الكفاية أقرب، وصار في عداد المشهورين من الأطباء. وبقي الأمر كذلك حتى أيام الخليفة المقتدر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٢٩٥. فقد فرض على من يريد مزاولة الصنعة أن يؤدي الامتحان ويحصل على إجازة تخوّله العمل فيها.

ويعود فضل هذا التنظيم إلى رئيس الأطباء آنذاك سنان بن ثابت بن قرّة الحراني الذي أدخل إصلاحات مهمة في حقل الشؤون الصحية. منها طلبه إلى الخليفة محاسبة من يقصر من ممارسي الصنعة في معالجة المرضى أو يخطىء بها. وكان قد بلغ الخليفة أن غلطاً جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فأمر بأن يمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه رئيس الأطباء وثبتت قدرته في الصنعة وعلمه بها، فتقدم إلى الامتحان في

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٢٧٣.
(٥٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ٤٢١ ـ ٤٢٦.
(٥٤) السامرائي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٢٤.

جانبي بغداد ما ينيف على ثمانمئة وخمسين رجلاً، سوى من استغنى عن محنته لاشتهاره بالتقدم في عمله، وسوى من كان منهم في خدمة دار الخلافة[٥٥].

على أنهم كانوا قبل ذلك معرّضين لرقابة المحتسب الذي كان أهم واجباته في ما يتعلق بذوي المهن الطبية أن يأخذ عليهم عهد أبقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، «ويحلّفهم ألاّ يعطوا أحداً دواءً مضرّاً، ولا يركّبوا له سماً، ولا يصفوا التمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يُسقط الأجنّة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل. وليغضّوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار، ولا يهتكوا الأستار»[٥٦]. «وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن اسحاق في كتابه المعروف محنة الطبيب. . . وأما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحاق كذلك، أعني العشر مقالات، فمن وجده فيها امتحنه به عارفاً بتشريح عدد طبقات العين السبع وعدد رطوباتها الثلاث، وعدد أمراضها الثلاثة، وما يتفرع من ذلك من الأمراض، وكان خبيراً بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير، أذن له المحتسب بالتصدّي لمداواة أعين الناس. . . وأما المجبرون فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كنّاش بولص في الجبر، وأن يعلم عظام الآدمي وصورة كل عظم منها، وشكله وقدره، حتى إذا انكسر منها شيء أو انخلع ردّه إلى موضعه على هيئته التي كان عليها، فيمتحنهم المحتسب بجميع ذلك. . . وأما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بـ قطاجانس في الجراحات والمراهم»[٥٧]. ومن الطبيعي أن المحتسب لا يقوم بهذه المهمة بنفسه وإنما يحيلها على رئيس الأطباء.

وقد وضعت بعض الكتب في موضوع امتحان الطبيب في وقت مبكر من هذا القرن، منها: كتاب محنة الطبيب ليوحنا بن ماسويه[٥٨]. وكتاب في امتحان الأطباء لحنين بن اسحاق[٥٩]. ثم وضع بعد ذلك كبير أطباء هذا القرن أبو بكر الرازي رسالة في محنة الطبيب وكيف ينبغي أن يكون حاله في نفسه وبدنه وسيرته وأدبه[٦٠]. ويرجح د. كمال السامرائي ان المقصود بمحنة الطبيب هنا ليس امتحانه لإجازته ممارسة الصنعة، انما ذكر ما يجب أن يكون عليه الطبيب من اللياقة الجيدة والمعرفة بعلم الطب، وحسن معاملة المرضى، وإلفات نظر الناس إلى هذه الصفات عند اختيار الطبيب الذي يريدون استشارته[٦١]. إن ما ذهب إليه د. السامرائي يصدق على عهد ما قبل المقتدر حين لم يكن الأطباء يمتحنون للحصول على إجازة العمل. أما بعد ذلك فيظهر مما ذكرناه عما جاء في كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة أن

---

(٥٥) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٩١، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٠٢.

(٥٦) عبد الرحمن بن نصر الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحرير السيد الباز العريني؛ إشراف محمد مصطفى زيادة (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦)، ص ١٨.

(٥٧) المصدر نفسه، ص ٩٩ - ١٠١.

(٥٨) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٦، وله أيضاً: كتاب معرفة محنة الكحالين. انظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٥٥.

(٥٩) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٣.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٤٢٥.

(٦١) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٥٣.

امتحانهم بكتاب حنين بن اسحاق كان لا بد منه لممارستهم الصنعة، ومن ثم فإن كتب محنة الطب التي وضعت بعد ذلك كانت لاختبار الأطباء.

أما في ما يتعلق بمن يتصدى لاحتراف الصيدلة فلم يكن هنالك ما يلزمه بأن يحصل على اجازة في عمله. إلا أن ذلك لا يعفيه من مراقبة المحتسب وتفتيشه بين حين وآخر. ويقول الشيزري إن مجال الاحتيال والتدليس في هذه الصنعة واسع «لا يمكن حصر معرفته على التمام... لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها. فمنها ما يصلح لمرض ومزاج، فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها فأضرّت بالمريض لا محالة... وينبغي للمحتسب أن يخوّفهم ويعظهم وينذرهم العقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل اسبوع»[٦٢]. ثم يذكر أنواعاً من الغش في مختلف الأدوية المفردة ولا سيما النباتية منها، ليكون المحتسب على معرفة بذلك[٦٣].

ويظهر مما ذكره القفطي وابن أبي أصيبعة أن المأمون كان قد تنبه إلى تدليس بعض الصيادلة، وأن أحدهم لا يطلب منه انسان شيئاً، وسواء كان عنده أو لم يكن، إلا أخبره بأنه عنده ودفع إليه شيئاً مما لديه، وقال هذا الذي طلبت. فامتحن المأمون صيادلة بغداد بأن وجّه إليهم جماعة في طلب دواء وهمي لا وجود له، فذكر كل منهم أنه عنده، وأخذ الثمن من الرسول ودفع إليه شيئاً من حانوته[٦٤]. إلا أنهما لم يذكرا ما اتخذه المأمون بشأن أولئك الصيادلة.

وعندما وجّه الخليفة المعتصم بالله قائد جيوشه الأفشين لإخماد حركة بابك الخُرَّمي، أشار الطبيب زكريا بن عبد الله الطيفوري، وكان من الأطباء الذين رافقوا الحملة، على الأفشين أن يمتحن الصيادلة الذين كانوا في معسكره بمثل محنة المأمون لهم. فامتحنهم الأفشين بأن وجّه إليهم من يطلب منهم أدوية مسماة بأسماء وهمية، فأنكر بعضهم وجود الدواء الذي سئل عنه، وادعى آخرون وجوده وأخذوا الدراهم من الرسل ودفعوا إليهم أشياء من حوانيتهم. فطرد الأفشين من لا يتصف بالعلم والأمانة، وأبقى الآخرين، وكتب إلى الخليفة يلتمس بعثه بصيادلة ذوي دين، فاستحسن المعتصم بالله فعله ووجّه إليه بما سأل[٦٥].

ولكن لا يظهر ما إذا كان امتحان الصيادلة قد صار قاعدة لإجازتهم، أم كان حدثاً موقتاً استهدف تطهير مهنة الصيدلة من الجهلة أو عديمي الذمّة. على أن ما ذكرناه مما جاء في كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة عن واجبات المحتسب تجاه الصيادلة، وتشديد الرقابة عليهم، يرجح الرأي الثاني.

---

(٦٢) الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص ٤٤.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٤٧.

(٦٤) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٨٨ - ١٨٩، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٤٤.

(٦٥) القفطي، المصدر نفسه، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه.

٢ ـ المستشفيات والرعاية الصحية

كان أول مستشفى أقيم ببغداد هو البيمارستان الذي أمر بإنشائه الخليفة هارون الرشيد، وعيّن لرئاسته ماسويه، وهو والد الطبيب الشهير يوحنا بن ماسويه، باقتراح من طبيب الخليفة جبرائيل بن بختيشوع(٦٦).

وأسس الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله ونديمه بيمارستاناً بمصر في خطة المغافر بين العامر من المدينة وبين مصلّى خولان(٦٧). وأسس أمير مصر أحمد بن طولون في سنة ٢٥٩ في مصر بيمارستاناً نُسب إليه، وحبس عليه من الوقوف ما يلزم للإنفاق عليه. واشترط أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك. وبنى فيه حمّامين أحدهما للرجال والآخر للنساء. وكان إذا جيء بالعليل تنزع ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين البيمارستان، ثم يُلبس ثياباً ويُفرش له، ويُغدى ويراح عليه بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ. فيؤمر بالانصراف ويعطى ماله وثيابه(٦٨).

وجاء في جدول نفقات المعتضد بالله أنه خصص لبيمارستان الصاعدي أموالاً للنفقة عليه قدرها خمسة عشر ديناراً يومياً لأرزاق المتطببين والكحالين، ولخدمة المغلوبين على عقولهم، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة. وربما كان هذا البيمارستان قد أسسه الوزير القائد صاعد بن مخلد وزير الموفق فنُسب إليه. وكان صاعد تقلّد الوزارة في جمادى الآخرة سنة ٢٦٥ ـ عندما كانت سامراء عاصمة الخلافة ـ وبقي حتى رجب سنة ٢٧٢(٦٩). ولا يُعرف ما إذا كان هذا المستشفى قد انشيء بسامراء أو ببغداد.

ومن المستشفيات التي أقيمت ببغداد في خلال هذا القرن مستشفى السيدة أم الخليفة المقتدر بالله. وقد افتتحه رئيس أطباء بغداد سنان بن ثابت بن قرّة الحرّاني في أول يوم من المحرم سنة ٣٠٣ وسمي بيمارستان السيدة، وقد شيّد بسوق يحيى، وخصّص للنفقة عليه ستمئة دينار شهرياً. وبإشارة من رئيس الأطباء أمر الخليفة المقتدر بالله أن يؤسس مستشفى آخر ببغداد، فأقيم بباب الشام وسمي البيمارستان المقتدري. وكانت النفقة عليه مئتي دينار في الشهر(٧٠). ويستدل مما ذكره ابن أبي أصيبعة عن ثابت بن سنان في تاريخه أن كان ببغداد

---

(٦٦) القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٨٣، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٦٧) أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ٢ ج (مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤)، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٦٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٥.

(٦٩) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ذخائر العرب؛ ٣٠ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨)، ج ٩، ص ٥٤٤، وج ١٠، ص ١٠.

(٧٠) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٩٤، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠٢.

مستشفى آخر باسم بدر المعتضدي مولى المعتضد بالله وأحد قواده، قتل في سنة ٢٨٩ في أول خلافة المكتفي بالله، وكانت النفقة عليه من ايراد وقف شجاع أم المتوكل على الله[٧١].

وقد تعددت البيمارستانات بحيث كان ببغداد وحدها في مطلع القرن الرابع خمسة بيمارستانات يشرف على ادارتها الطبيب الماهر سنان بن ثابت بن قرة الحراني[٧٢].

وكانت المستشفيات تبنى عادة في أماكن فسيحة نقية الهواء وافرة المياه، وقريباً من الجوامع الكبيرة. ويعمل فيها عدد من الأطباء من مختلف الاختصاصات الطبية، فقد كان فيها مع الأطباء العاديين عدد من الكحالين (أطباء العيون) والجراحين والمجبّرين. وهي مجهزة بكل ما يحتاجه هؤلاء من عدد ولوازم في أعمالهم. ويتألف المستشفى من أقسام عديدة لمختلف الأمراض ولكل قسم طبيب أو أكثر. وكان من الطبيعي أن يخصص بعضها للمرضى من الرجال ويتولى الخدمة فيه خدم وممرضون من الرجال، وقسم منها للنساء وله مما يحتاجه من الخادمات والممرضات.

ويتولى ادارة المستشفى والتطبيب فيه مديران، أحدهما طبيب يرأس الأطباء الموجودين فيه ويشرف على أعمالهم وهو مسؤول عن قيام المستشفى بواجبه تجاه المرضى من حيث العلاج والرعاية الطبية ويسمى الساعور، والآخر مسؤول عن ادارة المستشفى ومراقبة عماله وخدمه وحسن سير العمل فيه، وهو من غير الأطباء، ويراعى أن تتوفر فيه متانة الخلق والأمانة والحنكة الإدارية.

ولم تقتصر المستشفيات عند العرب على معالجة المرضى العاديين فقط، بل كانت تعنى كذلك بالمرضى من المغلوبين على عقولهم، وذوي الأمراض النفسية، والأمراض الجلدية كالجذام وغيره. وكان هؤلاء المرضى ينالون رعاية خاصة بدافع من العواطف الإنسانية.

ويلاحظ أن أعمال التمريض والخدمة تناط بالعبيد، وأن بعض المستشفيات يُستخدم للدراسة، إذ يتلقى الطلاب بعض معلوماتهم عملياً على بعض المرضى. وكان لهذا الأسلوب في تعليم الطب أثر مهم في تقدم الطب عند العرب.

ومن الطبيعي أن تلك المستشفيات لم تكن تُنشأ من أول أمرها كاملة من حيث أقسامها ومرافقها وأطبائها، إلا أنها بمرور الزمن كانت تتحسن حتى تستكمل مستلزمات التطبيب والتمريض. وتجدر الإشارة إلى أن الخدمات الطبية من المداواة وإجراء العمليات وإطعام المرضى، كانت مجاناً، لأن الدولة توقف ايرادات بعض أملاكها لإدامتها والإنفاق عليها، كما تنال بعض التبرعات من المحسنين[٧٣].

---

(٧١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٠١.

(٧٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (حيدر اباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ - ١٩٣٩)، ج ٦، ص ١٣٩.

(٧٣) حول المستشفيات، انظر: السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٢٨ - ٤٣٢.

ومن مظاهر اهتمام العرب بالشؤون الصحية العامة انهم كانوا يقيمون إلى جانب الجوامع الكبيرة خزانة للأدوية عليها قيّم مسؤول وخدم، وفيها طبيب لمعالجة من يحتاج إلى المعالجة ممن يقصدون الجامع للصلاة في يوم الجمعة، وهي بمثابة مركز للاسعاف. يقول المقريزي عند كلامه على تشييد جامع ابن طولون بمصر، إنه بني في مؤخرته ميضأة، وخزانة فيها جميع الشرابات والأدوية وعليها خدم وفيها طبيب يجلس يوم الجمعة لحادث قد يحدث للحاضرين للصلاة»[74]. ولما كان جامع ابن طولون قد شيّد على غرار جامع سامراء الكبير، فيمكن القول إن هذا الجامع كان إلى جانبه مثل هذه الخزانة للأدوية، وكذلك الأمر في الجوامع الكبيرة الأخرى.

ويمكن القول إن العرب أول من تنبه إلى مراعاة حالة السجناء الصحية. فقد كتب وزير المقتدر بالله علي بن عيسى الجرّاح إلى رئيس أطباء بغداد سنان بن ثابت الحرّاني كتاباً جاء فيه: «فكرت، مد الله في عمرك، في أمر من في الحبوس وانهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض وهم معوّقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي، أكرمك الله، أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويزيحوا عللهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى»[75]. ففعل سنان ذلك طول أيامه.

كما أن العرب كانوا أول من أنشأ المستوصفات السيارة، فقد كتب الوزير علي بن عيسى الجرّاح إلى رئيس الأطباء «فكرت فيمن بالسواد من أهله وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبّب عليهم لخلو السواد من الأطباء فتقدم، مدّ الله في عمرك، بإنفاذ متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره. ففعل سنان ذلك»[76].

ومن طريف ما حدث للأطباء الموفدين لمعالجة المرضى من أهل السواد أن مرّوا بقرية سكانها من اليهود الذين طلبوا معالجة مرضاهم. فاستأذنوا رئيس الأطباء في المقام عليهم وعلاجهم. ولما عرض الأمر على الوزير كتب إليه «فهمت ما كتبت به، اكرمك الله، وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة... صواب. فاعمل، أكرمك الله على ذلك»[77].

ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه المستشفيات السيارة كانت ترافق الحملات العسكرية وفيها العدد الكافي من الأطباء والجراحين والمجبّرين والصيادلة، لمعالجة من يتمرّض أو يصاب من المقاتلين. وكان قوّاد الحملات يحرصون على أن يكون الأطباء بمختلف اختصاصاتهم والصيادلة من أهل الصناعة الكفوئين في أعمالهم.

---

(74) المقريزي، الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها، ج ٢، ص ٦٦.

(75) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٩٣، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠١.

(76) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٩٣ - ١٩٤، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٠١.

(77) القفطي، المصدر نفسه، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه.

ثالثاً: أشهر أطباء القرن الثالث

بَرز في خلال هذا القرن عدد من كبار الأطباء الذين مارسوا الصناعة واشتهروا بها ووضعوا فيها مصنفات تضمنت صفحات من خبراتهم وتجاربهم. كما برز عدد من العلماء في علم الطب فدرسوه وعلّموه وصنفوا فيه كتباً مهمة، إلا أنهم لم يمارسوه عملياً إلّا لماماً. وفي ما يلي خلاصة يسيرة لمن نبه منهم ونال شهرة واسعة وكان له أثر مهم في ميدان علم الطب وفي ترجمة الكتب الطبية وتصنيفها. وسوف نقتصر على ذكر ما له علاقة بصناعة الطب، فنشير إلى مهاراتهم ومبادراتهم فيها وما تفرّدوا به. ولا يخفى أن المصنفات أهم ما يميز الطبيب الحاذق، باعتبارها جزءاً من جهوده وأعماله في هذا الميدان. ويلاحظ أن أغلب هؤلاء كانوا أطباء لمن عاصرهم من خلفاء الدولة العربية، وندماء لهم يحضرون مجالسهم ويشتركون في المناظرات والمناقشات التي تدور فيها. ونعتقد أن ذكرهم بحسب تسلسلهم الزمني مما يساعد على توضيح خطى تقدم الطب العربي في هذا القرن.

١ ـ سَلْمُويه بن بنان

من أبرز الأطباء الذين اشتهروا في أوائل هذا القرن بحيث اتخذه الخليفة المعتصم بالله عندما تولى الخلافة طبيباً خاصاً به. قال عنه حنين بن اسحاق: إن سلمويه كان أعلم أهل زمانه بصناعة الطب[٧٨]. وقد تميز بمهارته في تشخيص الأمراض والعلل[٧٩]. وكان من عادته أن يستمع إلى ما يتشكى منه المريض وما يذكره من الأعراض، ويتعرّف إلى ما يتناوله من الأطعمة والأشربة، فيستنتج من ذلك كله سبب شكواه، فيصف له ما يراه ينفعه من الدواء. وكان أكثر ميلاً إلى استخدام الأدوية المفردة البسيطة.

كان المعتصم بالله لا يعتمد على غيره من الأطباء، يثق به ويعتبره سبب حياته، ويروى أنه قال عنه: سلمويه طبيبي عندي أكبر من قاضي القضاة لأنه يحكم في نفسي، ونفسي أثمن من مالي وملكي[٨٠]. ولما مات حزن عليه حزناً شديداً، وقال: سألحق به لأنه كان يمسك حياتي ويدبّر جسمي[٨١]. وأمر أن يحتفى بتجهيزه ودفنه، فأحضرت جنازته إلى الدار العامة وصلّي عليه بالشموع والبخور على زي النصارى الكامل، بحضور الخليفة[٨٢]. وكانت وفاته في سنة ٢٢٥[٨٣].

---

(٧٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٨١) المصدر نفسه، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٨٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(٨٣) خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط ٢، ١٠ ج في ٥ (القاهرة: مطبعة كوستا توماس، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥)، ج ٣، ص ١٧٣.

ولسلمويه عدد من المصنفات في الطب عدا ما سبقت الإشارة إليه: المختصر في الطب، وشرح منافع الأعضاء لجالينوس[84]. ولاهتمام سلمويه بالطب اليوناني، ومواصلته الدراسة، ترجم له حنين بن اسحاق إلى اللغة السريانية من كتب جالينوس: كتاب في النبض، وكتاب في الحاجة إلى النبض، وكتاب تركيب الأدوية، أو كتاب الأدوية المركبة[85]. وترجم له حُبيش الأعسم كتاب في حركة الصدر والرئة لجالينوس إلى السريانية[86].

٢ ـ يوحنا بن ماسويه

اشتهر ببغداد منذ أيام الخليفة هارون الرشيد فجعله أميناً على ترجمة الكتب القديمة التي جاء بها من بلاد الروم. ولما تولى المأمون الخلافة قدّر في يوحنا علمه وسموّ خلقه فعيّنه رئيساً لبيت الحكمة، وظل يتولاه حتى وفاته. خدم ابن ماسويه الرشيد والمأمون ببغداد، والمعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله بسامراء، فكانوا لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم إلا بحضوره، وكان يقف على رؤوسهم ومعه مختلف الجوارشنات[87]. وكان طبيباً عالماً كثير القراءة والدرس، وقد درس عليه بعض مشاهير الأطباء، أشهرهم حنين بن اسحاق. وله أخبار تدلّ على سعة علمه ومهارته في صنعته[88]. إلا أن الطبيب سلمويه بن بنان كان ينتقد طريقته في المعالجة واعتماده على الأدوية المركّبة وإكثاره من أخلاط الأدوية، وهو يقول عنه «يوحنا آفة من الآفات على من اتخذه واعتمد على علاجه... وإنما الغرض في اتخاذ الناس المتطببين حفظ صحتهم في أيام الصحة وخدمة طبائعهم في أيام العلة، ويوحنا لجهله بمقادير العلل والعلاج غير قائم بهذين البابين ومن لم يقم بهما فليس بمتطبب»[89]. ولما أشار على المعتصم بالله باستخدام ابن ماسويه حذّره من استعمال الأدوية التي يصفها له إلا أقلها أخلاطاً[90].

ولما تولى الواثق بالله الخلافة اتخذ يوحنا طبيباً مختصاً به ونديماً لا يكاد يفارق مجالسه، إذ كان معجباً بعلمه وبمهارته الطبية؛ يقول ابن أبي أصيبعة إنه كان مشغوفاً ضنيناً به[91].

كان يوحنا ولوعاً بالتشريح وقد أهداه المعتصم بالله قرداً كبير الحجم فشرّحه وصنف في الموضوع كتاباً لاقى استحساناً كبيراً[92]. وقد ابتلي بابن بليد لا يكاد يفهم شيئاً، فكان يقول

---

(٨٤) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ٢، ص ٥١٥.

(٨٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٠، ١٨٧ و ١٩٠.

(٨٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٦.

(٨٧) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٨٠.

(٨٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٥٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٧، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٨٥.

(٩٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٣٤، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(٩١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

«ولولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لا يعنيه لشرّحت ابني هذا حيًّا مثلما كان جالينوس يشرّح القرود والناس فكنت أعرف بتشريحه الأسباب التي كانت لها بلادته»[93].

ويعتبر ابن ماسويه من المصنّفين المكثرين وقد زادت مؤلفاته على الخمسين كتاباً عدا ما سبق ذكره، منها: كتاب الحميّات، كتاب المنجح في الصفات والعلاجات، كتاب في الجذام لم يسبقه أحد إلى مثله، كتاب السموم وعلاجها، كتاب في الصداع وعلله وأوجاعه وجميع أدويته والسدود والعلل المولّدة لكل نوع منه وجميع علاجه، ألّفه لعبد الله بن طاهر، كتاب دغل العين، كتاب علاج النساء اللواتي لا يحبلن حتى يحبلن، كتاب القولنج، كتاب تركيب خلق الانسان وأجزائه وعدد أعضائه ومفاصله وعظامه وعروقه ومعرفة أسباب الأوجاع، ألّفه للخليفة المأمون، كتاب جامع الطب مما اجتمع عليه أطباء فارس والروم[94].

توفي يوحنا بن ماسويه بسامراء يوم الاثنين لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٤٣[95].

٣ ـ حنين بن اسحاق

من أشهر أطباء القرن الثالث، تميّز في سلوكه الطبي وعلو كعبه في الترجمة وسعة علمه. تطلّع منذ نشأته إلى علم الطب، فاجتاز الصعاب التي واجهته، وأكمل دراسته على يوحنا بن ماسويه. وكان إلى جانب مهارته في الترجمة يجيد صناعة الطب والكحالة، ويحسن معالجة المرضى ويعنى بهم، مع تواضع في السلوك واخلاص في العمل[96]. يقول عنه المستشرق الفرنسي لاكلير «إنه ابرز شخصية في القرن التاسع الميلادي، واكبر العقول المتحلية باسمى الاخلاق، وإذا لم يكن هو الذي خلق النهضة في المشرق فليس من مخلوق آخر عمل اكثر منه في سبيل العلم»[97].

وكان جبرائيل بن بختيشوع طبيب دار الخلافة في أيام المأمون قد أعجب بما ترجمه حنين من الكتب فسماه ربّن حنين تقديراً وتبجيلاً له، وقدّمه إلى الخليفة الذي أدخله في عداد أطبائه وولّاه بيت الحكمة ورئاسة الترجمة فيه[98]. واستمر حنين طبيباً للخلفاء حتى عهد المتوكل على الله الذي اختص به واعتمد عليه في رعاية صحته ومعالجته، إلا أنه ما لبث أن نكبه وصادر أمواله. فقد كان ما بلغه حنين من نجاح وشهرة، وما حصل عليه من حظوة لدى الخليفة، أثار عليه حسد أرباب صناعته فكادوا له، فأصابته بعض المحن. وقد ذكر

---

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
(٩٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٥، والقفطي، المصدر نفسه، ص ٣٨١.
(٩٥) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٥.
(٩٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٢.
(٩٧) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٣٩.
(٩٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٥٩.

تفاصيل ما لحقه من أذى بأسلوب مفعم بالألم في رسالته في ما أصابه من المحن والشدائد[99]. إلا أن الخليفة عفا عنه بعد ذلك وأعاده إلى سابق منزلته. ولكن ما لقيه من عنت ومهانة كان قد أثر فيه كثيراً.

كان حنين بن اسحاق فيلسوفاً وعالماً متبعاً، كثير التصانيف. وأهم مصنفاته، عدا ما سبق ذكره في فصول أخرى، كتاب مسائل حنين، ويعتبر أشهر كتبه وأهمها «لانه جمع فيه جملاً وجوامع تجري مجرى المبادىء والأوائل لهذا العلم، وأن حنيناً جمع معاني هذا الكتاب في طروس ومسودات بيّض منها البعض في حياته. ثم ان حبيش بن الحسن تلميذه وابن أخته رتب الباقي بعده وزاد فيه»[100]. ويقول المسعودي إنه وضعه للخليفة الواثق بالله[101]. وكتاب العشر مقالات في العين، وهو في تركيب العين وعلاجها على رأي أبقراط وجالينوس. ويقول حنين في المقالة الأخيرة من هذا الكتاب «إني قد كنت ألّفت منذ نيف وثلاثين سنة في العين مقالات مفردة نحوت فيها إلى أغراض شتى، سألني تأليفها قوم بعد قوم. قال: ثم إن حبيشاً سألني ان أجمع له ذلك، وهو تسع مقالات وأجعله كتاباً واحداً، وأن اضيف إليه مقالة اخرى أذكر فيها كتبهم لعلل العين»[102]. ووجدت مقالة أخرى لحنين مضافة إلى هذا الكتاب يذكر فيها علاج الأمراض التي تعرض في العين بالحديد[103]. وكتاب في العين عن طريق المسألة والجواب ألّفه لولديه داود واسحاق، وهو مئتان وتسع مسائل، وكتاب فيمن يولد لثمانية أشهر عن طريق المسألة والجواب ألّفه لأم ولد المتوكل على الله، وكتاب في معرفة أوجاع المعدة وعلاجها، وكتاب في تشريح آلات الغذاء وهو ثلاث مقالات، وكتاب في الحميات[104].

وقد ترجم قسطنطين الافريقي المتوفى سنة ١٠٧٨م كتاب العشر مقالات في العين إلى اللغة اللاتينية باسم أمراض العين، وصار من الكتب المتداولة في أوروبا[105]. وحققه د. ماكس مايرهوف وطبعه في سنة ١٩٢٨ بالمطبعة الأميرية بالقاهرة، وقال عنه في مقدمته «إنه اقدم كتاب في طب العيون ألّف على الطريقة العلمية»[106].

توفي حنين بسامراء لست خلون من صفر سنة ٢٦٠ عن عمر ناهز السبعين عاماً»[107].

---

(٩٩) انظر نص الرسالة، في: المصدر نفسه، ص ٢٦٤ - ٢٧٠.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٢٧١، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٤.

(١٠١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، ص ٨١.

(١٠٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧١.

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٢.

(١٠٤) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٦، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(١٠٥) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٤٤.

(١٠٦) العشر مقالات في العين، ص ٧.

(١٠٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٣؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء =

٤ ـ بختيشوع بن جبرائيل

هو ابن جبرائيل حفيد جورجيوس بن جبرائيل الطبيب السرياني الذي استقدمه الخليفة المنصور إلى بغداد واتخذه طبيباً خاصّاً به. وكان هارون الرشيد قد جعل أبا بختيشوع جبرائيل كبير أطبائه، فنال لديه حظوة عالية. فنشأ بختيشوع بمعية أبيه مقرّباً من دار الخلافة، فمهر في خدمة الخلفاء ومداواتهم، مما أكسبه ثقتهم فحصل منهم على كثير من الأموال والضياع، فبلغ من عظم المنزلة وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين عاصروه. وعاش مرفهاً يضاهي الخليفة في اللباس والفرش[108]. إلا أنه لم يسلم من غضب الواثق بالله فنفاه وصادر أمواله[109] وكذلك فعل معه المتوكل على الله الذي غضب عليه ونكبه أكثر من مرة[110].

إلاّ أن أحوال بختيشوع تحسنت بعد وفاة المتوكل على الله، فردّه المستعين بالله إلى الخدمة وأعاد إليه بعض ما صودر منه، وكذلك رعاه المهتدي بالله فأعاد إليه بقية ما كان قد أخذ من أمواله[111].

تميز بختيشوع على أقرانه الأطباء بأنه كان في ممارسته الطب أكثرهم اعتماداً على القياس دون التجربة، ويعنى بخاصة بالوقاية من الأمراض ومداواتها بإحدى طرق الاستفراغ وتعديل الأخلاط والأمزجة[112]. وكان يقول «الشرب على الجوع رديء، والأكل على الشبع أردأ» و «أكل القليل مما يضرّ أصلح من أكل الكثير مما ينفع»[113].

ويظهر أن بختيشوع بن جبرائيل كان من القائلين بتأثير الأجرام السماوية على الكائنات الأرضية، فكان يأمر بشرب الدواء والقمر مناظر للزهرة، فيصحّ العليل من يومه، ويعالج القولنج بأن يأمر بحقن المريض والقمر متصل بالذنب، فيشفى القولنج من ساعته[114].

توفي بختيشوع يوم الأحد لثمانٍ بقين من صفر سنة ٢٥٦[115]. ومما صنّفه من الكتب، إضافة إلى ما سبق ذكره، نبذة في الطب، ورسالة فيها نكات من تحفيات الرموز في الطب[116]، وكتاب في الحجامة على طريق المسألة والجواب[117].

= بأخبار الحكماء، ص ١٧٣، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٦٣، وفيه وفاته سنة ٢٦٤.

(١٠٨) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٠٢، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(١٠٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٠٢، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(١١٠) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٠٣، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(١١١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(١١٢) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٣٩٣.

(١١٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

(١١٤) المصدر نفسه.

(١١٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٩، والقفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٠٤.

(١١٦) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٣٩٣.

(١١٧) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

٥ ـ الرازي

أبو بكر محمد بن زكريا، ولد بمدينة الري وبها نشأ وتلقّى علومه الأولى فنُسب إليها. وسافر إلى بغداد بعد أن جاوز الثلاثين من عمره[١١٨]. وقد اشتغل في عدد من الأعمال في مطلع حياته، ثم انصرف إلى الفلسفة فنال منها كثيراً[١١٩]. وتعلّم صنعة الطب بعد أن جاوز الأربعين من عمره[١٢٠]. إلا أنه انصرف بكل جهوده إليها فتعرّف إلى حقائقها وأصولها وأسرارها، إذ قرأ ما وصل إلى يده من كتب أبقراط وجالينوس فتمهّر فيها، وتفرّد في أسلوب مداواة المرضى والاستدلال على أحوالهم الصحية، وفي طريقة تدريسه الطلاب. وقد أكسبه اشتغاله في صنعة الكيمياء في مطلع حياته خبرة في الأدوية لم يصل إليها كثير من الأطباء[١٢١]، حتى غدا إمام وقته في علم الطب، تُشدّ إليه الرِّحال، وصنّف فيه الكتب النافعة[١٢٢].

تنقّل الرازي في عدد من البلدان وخدم بعض أمراء الولايات وحكامها وصنّف لهم بعض كتبه الطبية. ولما استقر ببغداد تولى إدارة البيمارستان الكبير فيها، فازداد مهارة في عمله.

واشتغل الرازي كذلك بالعلوم الحكمية ووضع فيها تصانيف عديدة. وكان يرى أن من صفات الطبيب الحاذق أن يكون فيلسوفاً مطلعاً على الكتب الطبيعية، عارفاً بالقوانين المنطقية. يقول: «من لم يُعنَ بالأمور الطبيعية والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية، وعدل إلى اللذات الدنيائية، فاتّهمه في عمله، لا سيما في صناعة الطب»[١٢٣]. وكان يؤكد أهمية الخبرة والتجربة المتحصلة من الممارسة، وأهمية الدراسة والإكثار من قراءة الكتب، ويوصي الطبيب بالاجتهاد في العمل واللجوء إلى القياس والاستفادة من تجاربه وتجارب الآخرين، وهو يرى أن «الحقيقة في الطب غاية لا تُدرك والعلاج بما تنصّه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر» وأن «الاستكثار من قراءة كتب الحكماء والإشراف على أسرارهم، نافع لكل حكيم عظيم الخطر» «ومتى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خُذل»[١٢٤]. ونستفيد من آراء الرازي هذه أنه كان يجمع بين طريقتي التجربة والقياس في ممارسة الطب، ويوصي الأطباء بانتهاجها في عملهم.

---

(١١٨) المصدر نفسه، ص ٤١٤.

(١١٩) أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، نصوص وترجمات؛ ١٠ (القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥)، ص ٧٧، والأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٣.

(١٢٠) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ ج (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠)، ج ٤، ص ٢٤٥.

(١٢١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٦.

(١٢٢) ابن خلكان، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٤.

(١٢٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

كان أبو بكر الرازي «بلا جدال أعظم من أنجبته المدنية الاسلامية من الأطباء، وأحد مشاهير أطباء العالم في كل زمن»[١٢٥]. ويقول عنه المستشرق أوليري «إن أبا الطب العربي الحقيقي هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي...»[١٢٦]. وسمّاه القفطي «طبيب المسلمين غير مدافع»، ويقول عنه ابن أبي أصيبعة «... حتى تصدّى لتعلّم الصناعة وكان منه جالينوس العرب»[١٢٧].

تميّز الرازي بالاهتمام بغذاء المريض، بحيث يفضله على الدواء. يُستنتج ذلك من قوله «إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة»[١٢٨]. وقوله «مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركّب»[١٢٩]. كما تميّز الرازي بالاهتمام بالحالة النفسية لمرضاه وتأثيرها على كيانهم الصحي، وهو منحى جديد في الطب جاء به الرازي. إذ كان يعتقد أن بين النفس والبدن صلة وثيقة، وأن ما تتأثر به نفس الإنسان من أفراح وأتراح ينعكس على بدنه وملامحه الظاهرة. ولذلك فهو يؤكد على الطبيب أن يراعي نفس المريض أو روحه، إذ يقول «ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ويرجّيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، لأن مزاج الجسم تابع لأخلاق النفس»[١٣٠]. وسبق أن ذكرنا بعض مصنفات الرازي في موضوع الأغذية، وفي حالة المريض النفسية.

ويعتبر تشخيص مرض الجدري ومرض الحصبة أعظم منجزات الرازي الطبية، فقد وصف المرضين وصفاً دقيقاً، وبخاصة ما يتعلق بأعراضهما الأولية، رغم تشابه تلك الأعراض، ووصف طريقة معالجتهما، ووضع بذلك رسالة تضمنت خبرته عنهما، وقد ترجمت إلى اللاتينية، ونقلت إلى لغات أخرى منها الانكليزية حيث طبعت بها حوالي أربعين مرة في خلال الفترة ١٤٩٨ ـ ١٨٦٦م[١٣١]. وطبعها لأول مرة باللغة العربية مع مقدمة باللاتينية الأستاذ يوهانس شاننك في لندن سنة ١٧٦٦م[١٣٢].

وصنّف بعض كتبه ورسائله الطبية لمخدوميه من الوزراء والكتّاب، ولأصدقائه وتلاميذه. فقد صنّف كتاب برء ساعة للوزير أبي الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان، نشرها د. كيلك مدرّس الصيدلة في المكتب الطبي ببيروت في سنة ١٩٠٣م[١٣٣]. ورسالة في

---

(١٢٥) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٦٣.

(١٢٦) اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي (القاهرة: دار العصور، ١٩٢٨)، ص ١٢٥.

(١٢٧) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧١، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٥.

(١٢٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(١٢٩) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، ص ٢٤٥.

(١٣٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(١٣١) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٦٤.

(١٣٢) يوسف اليان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية (القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨)، ص ٩١٤.

(١٣٣) المصدر نفسه، ص ٩١٤.

الأعلال الحادثة على ظاهر الجسد للوزير أبي الحسن علي بن عيسى بن داود الجرّاح وزير المقتدر بالله، ورسالة في أدوية العين وعلاجها ومداواتها وتركيب الأدوية لما يحتاج إليه من ذلك لتلميذه يوسف بن يعقوب[١٣٤]. وكتاب في الفصد وضعه للأمير أبي علي أحمد بن اسماعيل من أمراء السامانيين. وكتاب المنصوري صنّفه لصديقه الأمير منصور بن اسحاق بن أحمد حاكم الري، وسماه باسمه. وقد تحرّى الرازي فيه الاختصار والإيجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علماً وعملاً[١٣٥].

ومن تصانيف الرازي الطبية الأخرى كتاب الحاوي وهو أجلّ كتبه وأجمعها وأعظمها في صنعة الطب. لأنه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها، من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم إلى زمانه. ونسب كل شيء نقله إلى قائله، علماً أن الرازي توفي قبل أن يحرر هذا الكتاب[١٣٦]. ويعتبر الحاوي عمدة الأطباء في النقل منه والرجوع إليه عند الاختلاف[١٣٧]. ويقال إن تلاميذه الأطباء رتّبوه بعده وخرج على ما هو عليه[١٣٨]. وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية فرج بن سالم الصقلي بأمر شارل الأول سليل آنجو، فانتشر في اوروبا مخطوطاً أول الأمر، ثم طبع في سنة ١٤٨٦م، وكان تأثيره في الطب الأوروبي عظيماً[١٣٩]. وفي معجم المطبوعات أنه طبع لأول مرة في البندقية في سنة ١٥٠٩م[١٤٠].

وللرازي كتب طبية أخرى ذكرها ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة. ويمتاز الأخير بذكر بعض التفصيلات عن قسم من الكتب التي يذكرها[١٤١].

أصيب الرازي في أواخر حياته بالعمى بماء نزل في عينيه فقيل له: لو قدحت، قال: لا، لقد أبصرت من الدنيا حتى مللت، ولم يسمح بقدح عينيه[١٤٢]. وتختلف المصادر الأولية

---

(١٣٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢٧.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٢٣، وابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣١.

(١٣٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢١.

(١٣٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٤، ص ٤٤٤.

(١٣٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(١٣٩) أرنولد [وآخرون]، تراث الإسلام، ص ٤٦٥.

(١٤٠) سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية، ص ٩١٤.

(١٤١) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٣٠ - ٤٣٣؛ القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٧٣ - ٢٧٧، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢١ - ٤٢٧.

(١٤٢) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٧٨؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٧٢، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

التي أرّخت وفاته في ذكر السنة التي توفي فيها، إلا أن المستشرق روسكا نشر مقالاً بعنوان «البيروني كمصدر لحياة الرازي وكتبه» ترجم فيه فقرات مأخوذة من فهرست كتب الرازي للبيروني المحفوظ بليدن، تعين أن وفاة الرازي كانت في ٥ شعبان سنة ٣١٣(١٤٣).

٦ ـ إسحاق بن عمران

ولد ببغداد وبها نشأ ودرس على يوحنا بن ماسويه، وكان ذا علم واسع في صنعة الطب وأصولها. وقد اشتهر باسم «سم ساعة» اشارة إلى سرعة تأثير الدواء الذي كان يصفه لمرضاه، مما يدلل على مهارته في تشخيص العلل ووصف ما يناسبها من الأدوية. دعاه أمير بني الأغلب ابراهيم الثاني إلى افريقيا، فاستجاب وصار الطبيب الخاص بالأمير(١٤٤). وكان إلى جانب خدمة الأمير يعمل في بيت الحكمة الذي أسسه الأمير ابراهيم نفسه في رقادة، وفي معالجة المرضى بالمستشفى أو في عيادته الخاصة. وكانت ممارسته في الطب على طريقة الأوائل تقوم على نظرية الأخلاط وحفظ التوازن بينها(١٤٥).

كان اسحاق ممن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعي، مقدّماً في قريحته وصحة علمه، وهو الذي ألّف بين الطب والفلسفة بديار المغرب(١٤٦). ويقول عنه ابن جلجل «وبه ظهر الطب بالمغرب، وعرفت الفلسفة، وكان طبيباً حاذقاً متميّزاً بتأليف الأدوية المركّبة، بصيراً بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته»(١٤٧). وبهذا يعتبر اسحاق مؤسس المدرسة الطبية في ربوع افريقيا، وقد تلقّى عليه عدد من الأفارقة الفلسفة والطب منهم ابنه علي، واسحاق بن سليمان(١٤٨).

ظل اسحاق الطبيب الخاص بأمير بني الأغلب ابراهيم الثاني، وخلفه زيادة الله الثالث، وكان هذا مصاباً بمرض نفسي، إذ ما لبث أن غضب على اسحاق فأمر بقتله وصلبه في سنة ٢٩٤(١٤٩).

ولاسحاق بن عمران عدد من الكتب في مواضيع مختلفة، ومن كتبه الطبية كتاب في داء الماليخوليا لم يُسبق إلى مثله، وكتاب في الفصد، وكتاب في النبض(١٥٠)، وكتاب في الأدوية

---

(١٤٣) ابن جلجل، المصدر نفسه، هامش ص ٧٧.

(١٤٤) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية (تونس: مطبعة المنار، ١٩٦٤)، ص ٢٣٤.

(١٤٥) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٦١٩.

(١٤٦) الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٦٨.

(١٤٧) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٨٥.

(١٤٨) عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية، ص ٢٣٤، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٧٩.

(١٤٩) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٨٥ ـ ٨٦.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص ٨٥.

المفردة، وكتاب العنصر والتمام في الطب، ومقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته، وهي رسالة كتبها إلى العباس، وكيل ابراهيم بن الأغلب[١٥١].

٧ - ابن ربَّن الطبري

أبو الحسن علي بن سهل ربَّن الطبري، كان أبوه عالماً بارعاً في الطب والهندسة والتنجيم، ونقل بعض الكتب الحكمية من لغة إلى أخرى، وكان يتولى الكتابة لأمراء طبرستان، وقد لقّب بربَّن لعلمه وفضله، ومعناه الأستاذ أو المعلم العظيم[١٥٢]. وقد تولى تربية ابنه وتدريسه فعلّمه الطب والفلسفة والهندسة إلى جانب اللغتين العربية والسريانية. ولما مات حلّ ابنه علي محلّه في الكتابة لأمراء طبرستان، واستمر في دراساته حتى غدا طبيباً ماهراً، ومارس الطب مدة في الري نال بها شهرة. ثم انتقل إلى العراق وسكن سرَّ من رأى وتولّى الكتابة في ديوان الخليفة المعتصم بالله واعتنق الإسلام على يديه[١٥٣]. ويقول محقق كتاب فردوس الحكمة إن المتوكل على الله هو الذي دعاه إلى الإسلام فلبّاه، فلقّبه المتوكل بلقب مولى أمير المؤمنين[١٥٤].

ولعلي بن ربَّن عدد من الكتب الطبية سبق أن ذكرنا بعضها، لا سيما كتاب فردوس الحكمة وهو أشهرها. ويقول عن سبب تأليفه إنه وجد في ما قرأه من كتب الحكماء عبارة عن مختصرات اقتصر أصحابها على فنّ واحد من فنون الطب الكثيرة، ولذلك صمّم على تأليف كتاب يجمع محاسن الكتب المؤلفة في هذا الباب، فتهيأ له منها كتاب يحيط بأكثر ما يتمناه المتمني من علم الطب ومعرفة أصوله وفروعه[١٥٥]. وقد استغرق تأليفه سنوات عدة لكثرة مشاغله الأخرى التي لم تتح له فرصة للتفرغ للكتابة، حتى تيسّر له اتمامه في سرَّ من رأى في السنة الثالثة من خلافة المتوكل على الله[١٥٦].

يتألّف الكتاب من سبعة أنواع من العلم، ولهذه الأنواع ثلاثون مقالة، وللمقالات ثلاثمئة وستون باباً[١٥٧]. ويظهر أن ابن ربَّن لم ينصرف إلى صنعة الطب إلا مدة يسيرة، ولذا فإن ما جاء في كتابه هذا لم يكن نتيجة تجارب علمية حصل عليها في أثناء ممارسته إياها، وإنما

---

(١٥١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٧٩.

(١٥٢) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٨٧؛ ابراهيم بن محمد البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٦)، ص ٢٢، وابن ربَّن، فردوس الحكمة، ص ١.

(١٥٣) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٦؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ١٨٧ و٢٣١، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤١٤.

(١٥٤) انظر المقدمة، في: ابن ربَّن، المصدر نفسه، ص ط.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ١ - ٢.

(١٥٦) المصدر نفسه، ص ٢.

(١٥٧) المصدر نفسه، ص ٧.

جمعه من محاسن الكتب المصنفة في هذه المواضيع، كما ذكر هو ذلك في مقدمة الكتاب نفسه.

ومن الطريف أن ابن ربّن نقل كتابه المذكور إلى اللغة السريانية، ونشر منه عدة نسخ في بلدان مختلفة، وذلك للتحرز من أن ينتحل أحد كتابه هذا(١٥٨).

توفي علي بن ربّن بسرّ من رأى في سنة ٢٤٧(١٥٩). وله من المصنفات الطبية الأخرى: كتاب كناش الحضرة، وكتاب إرفاق الحياة، وكتاب الحجامة(١٦٠).

٨ ـ الكندي

كان فيلسوف العرب يعقوب بن اسحاق الكندي متعدد المعارف، ومن أهم العلوم التي أحاط بها إلى جانب الفلسفة وما سبق أن ذكرناه من علوم أخرى، علم الطب. ومع أنه لم يتخذ هذه الصنعة مهنة له، فقد ألمّ بجوانبها وسبر أغوارها ووضع فيها عدداً من المصنفات كانت مراجع للأطباء في مواضيعها، وبخاصة ما يتعلق منها بالأدوية. وقد اهتم الكندي بالطب اليوناني أكثر من اهتمامه بالطب الهندي(١٦١)، وظهر ذلك في كتبه الطبية بشكل واضح. وقد ذكر له ابن النديم اثنين وعشرين كتاباً في باب الطبيات، منها: رسالة في الطب البقراطي، ورسالة في أقسام الحميّات، ورسالة في وجع المعدة والنقرس، ورسالة في قدر منفعة صناعة الطب، ورسالة في علة نفث الدم، ورسالة في أشفية السموم، ورسالة في علة بحارين الأمراض الحادة، ورسالة في علم الجذام وأشفيته، ورسالة في علاج الطحال الجاسي(١٦٢). ويضيف ابن أبي أصيبعة: كتاب جوامع كتاب الأدوية لجالينوس، ورسالة في الإبانة من منفعة الطب إذا كانت صناعة النجوم مقترنة بدلائلها، وكتاب الأدوية الممتحنة، وكتاب الأقرباذين(١٦٣). والكتاب الأخير في تركيب الأدوية، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع في ستراسبورغ في سنة ١٥٣١م(١٦٤). وطبع الأصل العربي مع ترجمة انكليزية، ترجمها وعلّق عليها مارتن ليفي، بمطبعة جامعة وسكنسن بأمريكا سنة ١٩٦٦م، وهو يتضمّن اختيارات الكندي من الأدوية المجربة التي كان يستعملها.

---

(١٥٨) المصدر نفسه، ص ٨.

(١٥٩) الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج ٥، ص ٩٩.

(١٦٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٦، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٤.

(١٦١) اسماعيل حقّي الإزميري، فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندي، ترجمة عباس الغزاوي (بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٦٤)، ص ٣٨.

(١٦٢) ابن النديم، المصدر نفسه، ص٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(١٦٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩١.

(١٦٤) الإزميري، فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندي، ص ٨٨.

٩ ـ ثابت بن قرة

أبو الحسن الحرّاني، سبقت الإشارة إليه في باب الرياضيات والفلك، وكان الغالب عليه الفلسفة والنجوم والهندسة، وله كتب كثيرة في فنون مختلفة من العلوم[١٦٥]. وقد ذكر ابن أبي أصيبعة ما يربو على ثلاثين كتاباً في المواضيع الطبية، منها: كتاب الأمراض الحادة لجالينوس، وكتاب أصناف الأمراض، وكتاب الحصى المتولد في الكلى والمثانة، وكتاب في تدبير الأمراض الحادة، ورسالة في الجدري والحصبة، ومقالة في الصفرة العارضة للبدن وعدد أصنافها وأسبابها وعلاجها، ومقالة في وجع المفاصل والنقرس، ومقالة في صفة كون الجنين، ومقالة في البصر والبصيرة في علم العين وعللها ومداواتها[١٦٦].

١٠ ـ قسطا بن لوقا البعلبكي

يقول عنه ابن النديم مشيداً بمهارته الطبية «وقد كان يجب أن يقدّم على حنين لفضله وتقدمه في صناعة الطب... وكان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب»[١٦٧]. وكان قسطا متحققاً بعلم العدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية، ماهراً في صناعة الطب»[١٦٨]. ويقول عنه ابن أبي أصيبعة «طبيب حاذق، نبيل، فيلسوف، وكان في أيام المقتدر... وكان جيد النقل فصيحاً... وله رسائل في صناعة الطب وغيرها»[١٦٩].

ذكر له كل من ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة عدداً من الكتب، منها: كتاب جامع الدخول إلى علم الطب، ألّفه لإبراهيم بن محمد المعروف بابن المدبّر وهو من كبار الكتّاب، وكتاب في النبض ومعرفة الحميات وضروب البحرانات، وكتاب في علة الموت فجأة، ألّفه لأبي الحسن محمد بن أحمد كاتب بطريق البطارقة، وكتاب في معرفة الخدر وأنواعه وعلله وأسبابه وعلاجه، ألّفه لقاضي القضاة أبي محمد الحسن بن محمد، وكتاب في أيام البحران في الأمراض الحادة، وكتاب في الأخلاط الأربعة وما تشترك فيه، ومختصر كتاب في الكبد وخلقتها وما يعرض فيها من الأمراض، وكتاب في دفع ضرر السموم، وكتاب في الاستدلال بالنظر لأصناف البول[١٧٠]. وتنحصر كتب قسطا الطبية في الاختصاصات الدقيقة، وهي على الأكثر لا تدل بأي حال على سعة تمرسه بعلومها[١٧١].

---

(١٦٥) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٥.

(١٦٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(١٦٧) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٤.

(١٦٨) القفطي، تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٢٦٢.

(١٦٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٢٩.

(١٧٠) ابن النديم، الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، ص ٤٢٨؛ القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٦٣، وابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(١٧١) السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ١، ص ٤٨٣.

١١ ـ سنان بن ثابت بن قرّة

أبو سعيد سنان الحرّاني، من أبرز الأطباء الذين اشتهروا في أواخر هذا القرن. نشأ ببغداد وبها تلقّى علومه على والده ثابت بن قرّة الحرّاني وغيره من علماء الطب. وكان رفيع المنزلة عند الخليفة المقتدر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٢٩٥، خصيصاً به، فجعله رئيساً للأطباء ببغداد. وخدم بعده القاهر والراضي. وتمت على يديه إصلاحات مهمة لتنظيم الشؤون الطبية، كامتحان الأطباء، والعناية الطبية بأهل الأرياف والمحبوسين، مما سبقت الإشارة إليه.

امتدت الحياة بسنان بن ثابت حتى سنة ٣٣١، فكان من أبرز أطباء القرن الرابع. ولهذا اكتفينا بهذه النبذة المختصرة عنه.

السنوات الهجرية وابتداؤها وما يقابلها من السنوات الميلادية

الهجرية	تبتدىء في	الميلادية	الهجرية	تبتدىء في	الميلادية
٢٠١	٣٠ تموز/ يوليو	٨١٦	٢٢٣	٣ كانون الأول/ ديسمبر	٨٣٧
٢٠٢	٢٠ تموز/ يوليو	٨١٧	٢٢٤	٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر	٨٣٨
٢٠٣	٩ تموز/ يوليو	٨١٨	٢٢٥	١٢ تشرين الثاني/ نوفمبر	٨٣٩
٢٠٤	٢٨ حزيران/ يونيو	٨١٩	٢٢٦	٣١ تشرين الأول/ اكتوبر	٨٤٠
٢٠٥	١٧ حزيران/ يونيو	٨٢٠	٢٢٧	٢١ تشرين الأول/ اكتوبر	٨٤١
٢٠٦	٦ حزيران/ يونيو	٨٢١	٢٢٨	١٠ تشرين الأول/ اكتوبر	٨٤٢
٢٠٧	٢٧ أيار/ مايو	٨٢٢	٢٢٩	٣٠ أيلول/ سبتمبر	٨٤٣
٢٠٨	١٦ أيار/ مايو	٨٢٣	٢٣٠	١٨ أيلول/ سبتمبر	٨٤٤
٢٠٩	٤ أيار/ مايو	٨٢٤	٢٣١	٧ أيلول/ سبتمبر	٨٤٥
٢١٠	٢٤ نيسان/ ابريل	٨٢٥	٢٣٢	٢٨ آب/ اغسطس	٨٤٦
٢١١	١٣ نيسان/ ابريل	٨٢٦	٢٣٣	١٧ آب/ اغسطس	٨٤٧
٢١٢	٢ نيسان/ ابريل	٨٢٧	٢٣٤	٥ آب/ اغسطس	٨٤٨
٢١٣	٢٢ آذار/ مارس	٨٢٨	٢٣٥	٢٦ تموز/ يوليو	٨٤٩
٢١٤	١١ آذار/ مارس	٨٢٩	٢٣٦	١٥ تموز/ يوليو	٨٥٠
٢١٥	٢٨ شباط/ فبراير	٨٣٠	٢٣٧	٥ تموز/ يوليو	٨٥١
٢١٦	١٨ شباط/ فبراير	٨٣١	٢٣٨	٢٣ حزيران/ يونيو	٨٥٢
٢١٧	٧ شباط/ فبراير	٨٣٢	٢٣٩	١٢ حزيران/ يونيو	٨٥٣
٢١٨	٢٧ كانون الثاني/ يناير	٨٣٣	٢٤٠	٢ حزيران/ يونيو	٨٥٤
٢١٩	١٦ كانون الثاني/ يناير	٨٣٤	٢٤١	٢٢ أيار/ مايو	٨٥٥
٢٢٠	٥ كانون الثاني/ يناير	٨٣٥	٢٤٢	١٠ أيار/ مايو	٨٥٦
٢٢١	٢٦ كانون الأول/ ديسمبر	٨٣٥	٢٤٣	٣٠ نيسان/ ابريل	٨٥٧
٢٢٢	١٤ كانون الأول/ ديسمبر	٨٣٦	٢٤٤	١٩ نيسان/ ابريل	٨٥٨

يتبع

الهجرية	تبتدىء في	الميلادية	الهجرية	تبتدىء في	الميلادية
٢٤٥	٨ نيسان/ ابريل	٨٥٩	٢٧٦	٦ أيار/ مايو	٨٨٩
٢٤٦	٢٨ آذار/ مارس	٨٦٠	٢٧٧	٢٥ نيسان/ ابريل	٨٩٠
٢٤٧	١٧ آذار/ مارس	٨٦١	٢٧٨	١٥ نيسان/ ابريل	٨٩١
٢٤٨	٢ آذار/ مارس	٨٦٢	٢٧٩	٣ نيسان/ ابريل	٨٩٢
٢٤٩	٢٩ شباط/ فبراير	٨٦٣	٢٨٠	٢٣ آذار/ مارس	٨٩٣
٢٥٠	١٣ شباط/ فبراير	٨٦٤	٢٨١	١٣ آذار/ مارس	٨٩٤
٢٥١	٢ شباط/ فبراير	٨٦٥	٢٨٢	٢ آذار/ مارس	٨٩٥
٢٥٢	٢٢ كانون الثاني/ يناير	٨٦٦	٢٨٣	١٩ شباط/ فبراير	٨٩٦
٢٥٣	١١ كانون الثاني/ يناير	٨٦٧	٢٨٤	٨ شباط/ فبراير	٨٩٧
٢٥٤	١ كانون الثاني/ يناير	٨٦٨	٢٨٥	٢٨ كانون الثاني/ يناير	٨٩٨
٢٥٥	٢٠ كانون الأول/ ديسمبر	٨٦٨	٢٨٦	١٧ كانون الثاني/ يناير	٨٩٩
٢٥٦	٩ كانون الأول/ ديسمبر	٨٦٩	٢٨٧	٧ كانون الثاني/ يناير	٩٠٠
٢٥٧	٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر	٨٧٠	٢٨٨	٢٦ كانون الأول/ ديسمبر	٩٠٠
٢٥٨	١٨ تشرين الثاني/ نوفمبر	٨٧١	٢٨٩	١٦ كانون الأول/ ديسمبر	٩٠١
٢٥٩	٧ تشرين الثاني/ نوفمبر	٨٧٢	٢٩٠	٥ كانون الأول/ ديسمبر	٩٠٢
٢٦٠	٢٧ تشرين الأول/ اكتوبر	٨٧٣	٢٩١	٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر	٩٠٣
٢٦١	١٦ تشرين الأول/ اكتوبر	٨٧٤	٢٩٢	١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر	٩٠٤
٢٦٢	٦ تشرين الأول/ اكتوبر	٨٧٥	٢٩٣	٢ تشرين الثاني/ نوفمبر	٩٠٥
٢٦٣	٢٤ أيلول/ سبتمبر	٨٧٦	٢٩٤	٢٢ تشرين الأول/ اكتوبر	٩٠٦
٢٦٤	١٣ أيلول/ سبتمبر	٨٧٧	٢٩٥	١٢ تشرين الأول/ اكتوبر	٩٠٧
٢٦٥	٣ أيلول/ سبتمبر	٨٧٨	٢٩٦	٣٠ أيلول/ سبتمبر	٩٠٨
٢٦٦	٢٣ آب/ اغسطس	٨٧٩	٢٩٧	٢٠ أيلول/ سبتمبر	٩٠٩
٢٦٧	١٢ آب/ اغسطس	٨٨٠	٢٩٨	٩ أيلول/ سبتمبر	٩١٠
٢٦٨	١ آب/ اغسطس	٨٨١	٢٩٩	٢٩ آب/ اغسطس	٩١١
٢٦٩	٢١ تموز/ يوليو	٨٨٢	٣٠٠	١٨ آب/ اغسطس	٩١٢
٢٧٠	١١ تموز/ يوليو	٨٨٣			
٢٧١	٢٩ حزيران/ يونيو	٨٨٤			
٢٧٢	١٨ حزيران/ يونيو	٨٨٥			
٢٧٣	٨ حزيران/ يونيو	٨٨٦			
٢٧٤	٢٨ أيار/ مايو	٨٨٧			
٢٧٥	١٦ أيار/ مايو	٨٨٨			

المصدر: أطلس التاريخ الاسلامي، ص ٤٤.

المــــراجع

كتب

ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**. شرح وتحقيق نزار رضا. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠.

ابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد. **سلوك المالك في تدبير الممالك**. القاهرة: دار الشعب، ١٩٨٣.

ابن أبي طاهر طيفور، أبو الفضل أحمد. **بغداد**. عني بنشره عزت العطار. القاهرة: مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ١٩٤٩.

ابن الأثير، أبو الحسن علي. **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر، ١٩٦٥ - ١٩٦٧. ١٣ ج.

ابن الإخوة، ضياء الدين محمد بن محمد. **معالم القربة في أحكام الحسبة**. عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي. كيمبرج: مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧.

ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن محمد. **نزهة الألباء في طبقات الأدباء أي النحاة**. تحقيق عطية عامر. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٣.

ابن بطلان، أبو الحسن المختار بن الحسن. **رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد**. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٤. (سلسلة نوادر المخطوطات؛ ٤)

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، [د.ت.].

ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسّان. **طبقات الأطباء والحكماء**. تحقيق فؤاد سيد. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥. (مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، نصوص وترجمات؛ ١٠)

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٣٨ - ١٩٣٩.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد. الفصل في الملل والأهواء والنحل. بيروت: مكتبة خياط، [د.ت.].

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي. صورة الأرض. بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤.

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. المسالك والممالك. تحقيق ميخائيل دو غويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٨. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٦)

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: مقدمة ابن خلدون. مصر: المطبعة الخيرية، ١٩٠٤. ٧ ج.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٥٠. ٦ ج.

ابن داود، أبو بكر محمد. الزهرة. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٣٢.

ابن الداية، أبو جعفر أحمد بن يوسف. المكافأة. صحّحه وضبطه وشرحه أحمد أمين وعلي الجارم. القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٤١.

ابن ربّن، أبو الحسن علي بن سهل الطبري. فردوس الحكمة. تحقيق محمد زبير الصديقي. برلين: مطبعة آفتاب، ١٩٢٨.

ابن رستة، أحمد بن عمر. الأعلاق النفيسة. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩١. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٧)

ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس. ديوان ابن الرومي. شرح شريف سليم. القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩١٧.

ـــــ. ـــــ. تحقيق حسن نصار. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٤.

ابن الزبير، أبو الحسن أحمد. الذخائر والتحف. تحقيق محمد حميد الله. الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٥٩. (التراث العربي؛ ١)

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية. مصر: مطبعة الموسوعات، ١٨٩٩

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. العقد الفريد. شرحه ورتّب فهارسه احمد أمين، أحمد الزين وابراهيم الأبياري. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠ - ١٩٥٣. ٧ ج.

ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد. البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وليفي بروفنسال. بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧. ٤ ج.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت: المكتبة التجارية للطباعة والنشر، [د.ت.]. ٢ ج.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. **الأنواء في مواسم العرب**. حيدر آباد الدكن: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٦.
ـــــ. **تأويل مشكل القرآن**. شرح وتحقيق السيد أحمد صقر. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤.
ـــــ. **الشعر والشعراء**. بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٤.
ـــــ. **عيون الأخبار**. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٣. ٤ ج.
ـــــ. **المعارف**. حقّقه وقدّم له ثروت عكاشة. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.
ابن المعتز، أبو العباس عبد الله. **ديوان ابن المعتز**. تحقيق محيي الدين الخياط. دمشق: المكتبة العربية، [د. ت.].
ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، ١٩٥٥ - ١٩٥٦. ١٥ ج.
ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق. **الفهرست في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم**. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٠.
ـــــ. ـــــ. طهران: مكتبة الأسدي، ١٩٧١.
أبو تمام، حبيب بن أوس. **ديوان أبي تمام**. قدّم له عبد الحميد يونس وعبد الفتاح مصطفى. مصر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ١٩٤٢.
ـــــ. ـــــ. تحقيق وتعليق محمد عبده عزام. القاهرة: دار المعارف، [د. ت.]. ٤ ج. (ذخائر العرب؛ ٥)
أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن علي. **المختصر في أخبار البشر**. القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٨٦٩. ٤ ج في ٢.
أبو المطهر الأزدي، محمد بن أحمد. **حكاية أبي القاسم البغدادي**. تحرير آدم متز. هيدلبرغ: مطبعة كارل ونتر، ١٩٠٢.
أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء. **الأحكام السلطانية**. صحّحه وعلّق عليه محمد حامد الفقي. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨.
ـــــ. **طبقات الحنابلة**. وقف على طبعه وصحّحه محمد حامد الفقي. القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٢. ٢ ج في ١.
أخبار الحكماء.
أرنولد، توماس [وآخرون]. **تراث الإسلام**. عرّبه وعلّق حواشيه جرجيس فتح الله. ط ٣. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨.
الإزميري، اسماعيل حقّي. **فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندي**. ترجمة عباس الغزاوي. بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٦٤.
الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. **تهذيب اللغة**. حقّقه وقدّم له عبد السلام محمد هارون؛ راجعه محمد علي النجار. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر، [د. ت.]. ١٥ ج.

أشعار الحسين بن الضحاك. جمعها وحققها عبد الستار أحمد فرّاج. بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٠.
الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل. مقالات الاسلاميين واختلاف المصلّين. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠. ٢ ج.
الاصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. الأغاني. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، [د. ت.].
الإصطخري، أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الكرخي. الأقاليم (نشره موللر سنة ١٨٣٩).
أمير علي، مولاوي سيد، مختصر تاريخ العرب. ترجمة عفيف البعلبكي. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦١.
أمين، أحمد. ضحى الإسلام. ط ٧. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
ـــــ. ظهر الإسلام. ط ٣. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢. ٤ ج.
الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد. طبقات الأمم. نشره وذيّله بالحواشي وأردفه بالروايات لويس شيخو اليسوعي. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢.
الأنصاري، أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم. الخراج. ط ٢. القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٣٣.
بارتولد، فاسيلي فلاديميرويج. تاريخ الحضارة الاسلامية. ترجمه عن الروسية حمزة طاهر. ط ٤. القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٢.
باقر، طه. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. بغداد: مطبعة الحوادث، ١٩٧٢.
البتّاني، أبو عبد الله محمد بن جابر. الزيج الصابىء. اعتنى بطبعه وتصحيحه وترجمه إلى اللغة اللاتينية كارلو نالينو. رومية: مطبعة رومية، ١٨٩٩.
البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد الله. ديوان البحتري. تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣. ٤ ج. (ذخائر العرب؛ ٣٤)
البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل. الأدب المفرد. طشقند: مطبعة الأوفسيت، ١٩٧٠.
البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر. أصول الدين. استانبول: دار الفنون، ١٩٢٨.
ـــــ. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم. تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري؛ نشره عزت العطار الحسني. [د. م.: د. ن.]، ١٩٤٠.
البغدادي، اسماعيل بن محمد أمين. هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. استانبول: وكالة المعارف العامة، ١٩٥٤. ٢ ج.
البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى. فتوح البلدان. راجعه وعلّق عليه رضوان محمد رضوان. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، [د. ت.].
البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد. الآثار الباقية عن القرون الخالية. تحقيق ادوارد سخاو. ليبزك: ادوارد سخاو، ١٩٢٣.

ـــــ. التفهيم لأوائل صناعة التنجيم. ترجمه إلى الانكليزية رمزي ريت. لندن: مكتبة لوزاك، ١٩٣٤.
ـــــ. الجماهر في معرفة الجواهر. بيروت: عالم الكتب، [د.ت.].
البيهقي، ابراهيم بن محمد. تاريخ حكماء الإسلام. تحقيق محمد كرد علي. دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٦.
تاريخ فلاسفة الإسلام.
التحف والهدايا.
التنوخي، المحسن بن علي. الفرج بعد الشدّة. القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٥٥.
ـــــ. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ. تحقيق عبود الشالجي. بيروت: دار صادر، ١٩٧١. ٨ ج.
الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٦٥.
ـــــ. لطائف المعارف. تحقيق ابراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، [د.ت.].
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البخلاء. تحقيق وتعليق طه الحاجري. القاهرة: دار الكاتب المصري، ١٩٤٨.
ـــــ. البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. ط ٣. القاهرة: مكتبة الخانجي؛ بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٨. ٤ ج.
ـــــ. التاج في أخلاق الملوك. تحقيق أحمد زكي باشا. القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٤.
ـــــ. التبصر بالتجارة. عني بنشره والتعليق عليه حسن حسني عبد الوهاب. ط ٢. مصر: المطبعة الرحمانية، ١٩٣٥.
ـــــ. ثلاث رسائل. سعى في نشره يوشع فنكل. ط ٢. القاهرة: المطبعة السلفيّة، ١٩٦٢.
ـــــ. الحيوان. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٣٨ - ١٩٤٥. ٧ ج.
ـــــ. رسالة القيان.
ـــــ. رسائل الجاحظ. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٦٤.
الجُمحي، محمد بن سلاّم. طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٢. (ذخائر العرب؛ ٧)
الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس. الوزراء والكتّاب. حقّقه مصطفى السقّا، ابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٨٩٩.
حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. عني

بتصحيحه محمد شريف يالتقايا ورفعت الكليسي. استانبول: مطبعة الحكومة، ١٩٤١ - ١٩٤٣. ٢ ج.

الحاني، ناصر. النقد الأدبي وأثره في الشعر العباسي. بغداد: مطبعة العاني، ١٩٥٥.

حسن، ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن. النظم الاسلامية. ط ٤. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠.

حسين، طه. من حديث الشعر والنثر. ط ٢. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١.

خدّوري، مجيد. الصلات الديلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان. بغداد: مطبعة التفيض الأهلية، ١٩٣٩.

الخزاعي، دعبل بن علي. ديوان دعبل بن علي الخزاعي. تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلي. النجف: مطبعة الآداب، ١٩٦٢.

الخضري، محمد. محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية: الدولة العباسية. ط ٣. القاهرة: مطبعة مصطفى محمد، [د.ت.]. ٣ ج.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. تاريخ بغداد أو مدينة السلام. بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت.]. ١٤ ج.

الخوارزمي، أبو جعفر محمد بن موسى. صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار. تحقيق هانس فون مزيك. فيينا: مطبعة أدولف هولزهوزن، ١٩٢٦.

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. مفاتيح العلوم. القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٩٢٣.

الخوري، فارس. موجز في علم المالية. دمشق: مطبعة الحكومة، ١٩٢٤.

الخوئي، أبو القاسم. البيان في تفسير القرآن. النجف: المطبعة العلمية، ١٩٥٧.

دائرة المعارف الإسلامية.

الدوري، عبد العزيز، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠. (سلسلة نصوص ودروس؛ ١٠)

ـــــ. تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨.

ـــــ. النظم الإسلامية: الخلافة، الضرائب، الدواوين والوزارة. بغداد: مطبعة نجيب، ١٩٥٠.

دوزي، رينهارت بيتر آن. معجم مفصّل في أسماء الألبسة عند العرب: عربي - فرنسي. ترجمة أكرم فاضل. بغداد: دار الحرية، ١٩٧١.

دونالدسون، دوايت م. عقيدة الشيعة: وهو كتاب عن تاريخ الإسلام في ايران والعراق. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٤٦.

دي بور، ت.ج. تاريخ الفلسفة في الإسلام. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٨.

ديماند، موريس سفن. الفنون الإسلامية. تصدير أحمد فكري؛ ترجمة أحمد محمد عيسى. ط ٢. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٤.

الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود. الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر؛ مراجعة جمال الدين الشيّال. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٠.
ـــــ. النبات. حقّقه وشرحه برنهار لفين. بيروت: دار القلم، ١٩٧٤.
الذهب المسبوك.
الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٩٠٨. ٢ ج.
رسائل إخوان الصفاء. بيروت: دار صادر، ١٩٥٧.
رفاعي، أحمد فريد. عصر المأمون. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٧. ٣ ج.
الرفاعي، أنور. تاريخ العلوم في الإسلام. بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣.
روزنتال، فرانز. علم التاريخ عند المسلمين. ترجمة صالح أحمد العلي؛ مراجعة محمد توفيق حسين. بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٣.
الزاوي، الطاهر أحمد. ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٥٩. ٤ ج.
الزجّاج، أبو اسحاق ابراهيم بن السري. خلق الإنسان. تحقيق ابراهيم السامرائي. بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٢هـ.
الزركلي، خير الدين. الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. ط ٢. القاهرة: مطبعة كونستا توماس، ١٩٥٤ - ١٩٥٥. ١٠ ج في ٥.
الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار الكتاب العربي، [د. ت.]. ٤ ج.
زيادة، نقولا. الجغرافية والرحلات عند العرب. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٢.
زيدان، جرجي. تاريخ التمدن الاسلامي. القاهرة: دار الهلال، ١٩٢٢. ٥ ج.
سابق، السيد. فقه السُنّة. بيروت: دار الكاتب العربي، ١٩٧١.
السامرائي، كمال. مختصر تاريخ الطب العربي. بغداد: دار الحرية، ١٩٨٥.
السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي. طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة: المطبعة الحسينية، ١٩٠٦. ٦ ج.
سركيس، يوسف إليان. معجم المطبوعات العربية والمعرّبة: وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ الموافقة لسنة ١٩١٩ الميلادية. القاهرة: مطبعة سركيس، ١٩٢٨.
سزكين، فؤاد. محاضرات في تاريخ العلوم العربية الاسلامية. فرانكفورت: [د. ن.]، ١٩٨٤.
سهراب. عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة. تحقيق هانس فون مزيك. فيينا: مطبعة أدولف هولزهوزن، ١٩٢٩.

سويكة، أحمد. ري سامراء في عهد الخلافة العباسية. بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٩.
السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله. أخبار النحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض صنعة أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي. تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥.
السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. الإتقان في علوم القرآن. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. ط ٢. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥١.
ـــــ. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، حقّقه محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٤ - ١٩٦٥. ٢ ج.
ـــــ. تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٢. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩.
ـــــ. المستطرف من أخبار الجواري. حقّقه صلاح الدين المنجد. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٣. (رسائل ونصوص؛ ٢)
الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد. الديارات. تحقيق كوركيس عواد. ط ٢. بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٦٦.
الشهرزوري، شمس الدين محمد بن محمد. نزهة الأرواح وروضة الأفراح رُتّب في تواريخ الحكماء المتقدمين والمتأخرين. حيدر آباد الدكن: [د. ن.]، ١٩٧٦.
الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني. القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦٧. ٢ ج في ١.
ـــــ. نهاية الاقدام في علم الكلام. صحّحه وحرّره ألفرد جيوم. بغداد: مكتبة المثنى، [د. ت.].
الشيزري، عبد الرحمن بن نصر. نهاية الرتبة في طلب الحسبة. تحرير السيد الباز العريني؛ إشراف محمد مصطفى زيادة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦.
الصابىء، أبو الحسين هلال بن المحسن. رسوم دار الخلافة. تحقيق ميخائيل عواد. بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٤.
ـــــ. الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، [د. ت.].
الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. نكت الهميان في نكت العميان. مصر: المطبعة الجمالية، ١٩١١.
الطائي، فاضل أحمد. أعلام العرب في الكيمياء. بغداد: دار الحرية، ١٩٨١.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠ - ١٩٦٨. (ذخائر العرب؛ ٣٠)
ـــــ. تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. حقّقه وعلّق حواشيه محمود محمد شاكر؛ راجعه وخرّج أحاديثه أحمد محمد شاكر. ط ٢. القاهرة: مكتبة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٤. ٢ ج.
طوقان، قدري حافظ. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك. القاهرة: مطبعة المقتطف، ١٩٤١.
العباسي، الحسن بن عبد الله. آثار الأول في ترتيب الدول. مصر: مطبعة بولاق، ١٢٩٥هـ.
عبد الرازق، مصطفى. فيلسوف العرب والمعلّم الثاني. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥.
عبد القادر، علي حسن. نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي. ط ٢. القاهرة: مطبعة القاهرة الحديثة، ١٩٥٦.
عبد الوهاب، حسن حسني. ورقات عن الحضارة العربية في افريقيا الشمالية. تونس: مطبعة المنار، ١٩٦٤.
العبيدي، صلاح حسين. الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي. بغداد: دار الرشيد، ١٩٨٠.
العراق. مديرية الآثار القديمة العامة. حفريات سامراء، ١٩٣٦ - ١٩٣٩. بغداد: مطبعة الحكومة، [د. ت.].
العشر مقالات في العين.
علم الفلك عند العرب.
عواد، كوركيس، خزائن الكتب القديمة في العراق. بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٨.
العيون والحدائق في أخبار الحقائق. تحقيق نبيلة عبد المنعم داود. النجف: مطبعة النعمان، ١٩٧٢. ٤ ج.
غب، هاملتون ألكسندر روسكن. دراسات في حضارة الإسلام. تحرير ستانفورد شو ووليم بولك؛ ترجمة إحسان عباس، محمد يوسف نجم ومحمود زايد. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤.
الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد. إحصاء العلوم. تحرير عثمان محمد أمين. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٣١.
فرق الشيعة.
الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان. المعرفة والتاريخ. تحقيق أكرم ضياء العمري. بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، ١٩٧٤. (إحياء التراث الإسلامي؛ ١٠)
قدامة بن جعفر، أبو الفرج. الخراج وصناعة الكتابة. حقّقه محمد حسين الزبيدي. بغداد: دار الحرية، ١٩٨١.
ــــــ. نقد الشعر. تحقيق كمال مصطفى. القاهرة: مطبعة أنصار السنّة المحمدية، ١٩٤٨.
ــــــ. نقد النثر. تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي. ط ٤. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠.
القرطبي، عريب بن سعد الكاتب. صلة تاريخ الطبري. تحرير ميخائيل دو غويه. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٧.

القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف. انباه الرواة على انباه النحاة. تحقيق محمد أبـو الفضل ابراهيم. القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٠ - ١٩٧٣. ٤ ج.
ــــــ. تاريخ الحكماء: وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء. تحرير يوليوس ليبرت. ليبزك: ديتريخ، ١٩٠٣.
القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيد الأزدي. العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده. ط ٤. بيروت: دار الجليل، ١٩٧٢.
الكاتب البغدادي، محمد بن الحسن. الطبيخ. نشره داود الجلبي. الموصل: مطبعة أم الربيعين، ١٩٣٤.
الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد. مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية. عني بتحقيقها كوركيس عواد وميخائيل عواد. بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٦٢.
الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر. فوات الوفيات. القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٢٩٩هـ.
كحالة، عمر رضا. العلوم البحتة في العصور الإسلامية. دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٧٢.
ــــــ. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. ط ٢. بنغازي: دار مكتبة الأندلس، ١٩٦٨. ٣ ج.
كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم؛ مراجعة إيغور بليايف. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣ - ١٩٦٥. ٢ ج.
كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة اليونانية. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦.
الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف المصري. كتاب الولاة وكتاب القضاة. تهذيب وتصحيح رفن كست. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.
الكندي، أبو يوسف يعقوب بن اسحق. رسائل الكندي الفلسفية. حقّقها وأخرجها محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٠ - ١٩٥٣. ٢ ج.
ــــــ. كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ضمن رسائل الكندي. حقّقه أحمد فؤاد الأهواني. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨.
كونل، ارنست. الفن الاسلامي. ترجمة أحمد موسى. بيروت: دار صادر، ١٩٦٦.
لسترنج، غي. بلدان الخلافة الشرقية: يتناول صفة العراق والجزيرة وإيران وأقاليم آسيا الوسطى منذ الفتح الاسلامي حتى أيام تيمور. ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد. بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٤.
لوبون، غوستاف. حضارة العرب. ترجمة محمد عادل زعيتر. ط ٢. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨.
الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. الأحكام السلطانية والولايات الدينية. عني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٩٠٩.
ــــــ. أدب القاضي. تحقيق محيي هلال السرحان. بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١.

متز، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠. ٢ ج.
المخزومي، مهدي. مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. بغداد: دار المعرفة، ١٩٥٥.
مرزوق، محمد عبد العزيز. العراق مهد الفن الاسلامي. بغداد: وزارة الإعلام، ١٩٧١.
المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد. شرح ديوان الحماسة. نشره أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١ ـ ١٩٥٣.
المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين. التنبيه والإشراف. عني بتحقيقه ومراجعته عبد الله اسماعيل الصاوي. القاهرة: مكتبة الشرق الإسلامية، ١٩٣٨.
ـــــ. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٥. [د.م.: د.ن.]، ١٩٦٧.
مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد. تجارب الأمم. نسخه وصحّحه هـ.ف. أمدروز. مصر: مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٩١٤.
مظهر، اسماعيل. تاريخ الفكر العربي. القاهرة: دار العصور، ١٩٢٨.
معجم المؤلفين.
معروف، ناجي. أصالة الحضارة العربية. ط ٢. بغداد: مطبعة التضامن، ١٩٦٩.
ـــــ. المراصد الفلكية ببغداد في العصر العباسي. بغداد: دار الجمهورية، ١٩٦٧.
المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٦.
مقدمة في الشعر.
المقريزي، أبو العباس أحمد بن علي. الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار يختص ذلك بأخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة وما يتعلق بها وبإقليمها. مصر: مطبعة بولاق، ١٨٥٤. ٢ ج.
مكارثي، رتشرد يوسف. التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب. بغداد: مطبعة العاني، ١٩٦٢.
منتصر، عبد الحليم. تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. ط ٦. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٥.
المنجد في اللغة والاعلام. ط ٢٨. بيروت: دار المشرق، ١٩٨٦.
نالينو، كارلو ألفونسو. علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى. روما: مطبعة روما، ١٩١١.
النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، [د.ت.].
هرنشو، فوسي جان كوب. علم التاريخ. ترجمه وعلّق حواشيه وأضاف إليه فصلاً في التاريخ عند العرب عبد الحميد العبادي. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.

هِلْ، جوزيف. الحضارة العربية. ترجمة ابراهيم أحمد العدوي؛ مراجعة حسين مؤنس. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦. (الألف كتاب؛ ٨٨)
الهمذاني، أحمد بن محمد بن الفقيه. مختصر كتاب البلدان. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٥. (المكتبة الجغرافية العربية؛ ٥)
وايتهيد، ألفرد نورث. مقدمة للرياضيات. ترجمة محي الدين يوسف. بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٢.
الوشّاء، أبو الطيب محمد بن أحمد. الموشّى أو الظرف والظرفاء. حقّقه كمال مصطفى. ط ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٣.
وكيع، أبو بكر محمد بن خلف. أخبار القضاة. صحّحه وعلّق عليه عبد العزيز مصطفى المراغي. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٧. ٣ ج.
ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله. إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء. تحقيق د. ص. مرجليوث. ط ٢. القاهرة: مطبعة هندية، ١٩٢٣ - ١٩٢٦. ٩ ج.
ــــــ. معجم البلدان. بيروت: دار صادر، ١٩٧٥. ٥ ج.
اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. البلدان. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢.
ــــــ. تاريخ اليعقوبي. بيروت: دار صادر، ١٩٦٠. ٢ ج.
ــــــ. مشاكلة الناس لزمانهم. تحقيق وليم ملورد. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢.

دوريات

الكندي، أبو يوسف يعقوب بن اسحق. «رسالة في السيوف وأجناسها.» مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول): مج ١٤، ج ٢، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧.

فهرس

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

■ تاريخ الرياضيات العربية: بين الجبر والحساب
(سلسلة تاريخ العلوم عند العرب (١)) (٤٠٤ص - ١٠$) .... د. رشدي راشد
■ الاقتصاد الفلسطيني: تحديات التنمية في ظل احتلال مديد (٤٠٤ص - ٨$) .... ندوة فكرية
■ المغرب العربي الكبير: نداء المستقبل (١٨٤ص - ٤$) .... د. مصطفى الفيلالي
■ الاقتصاد الاسرائيلي (٤٠٤ص - ٨$) .... د. حسين أبو النمل
■ مستقبل الأمة العربية: التحديات... والخيارات (٥٧٦ص - ١٠$)
(سلسلة استشراف مستقبل الوطن العربي) .... د. خير الدين حسيب وآخرون
■ المجتمع والدولة في الوطن العربي (٤٥٢ص - ٩$)
(سلسلة استشراف مستقبل الوطن العربي) .... د. سعد الدين ابراهيم وآخرون
■ العرب والعالم (٤١٢ص - ٥٠و٨$)
(سلسلة استشراف مستقبل الوطن العربي .... د. علي الدين هلال وآخرون
■ المورد الواحد والتوجه الاتفاقي السائد (٢١٦ص - ٤,٥٠$) .... د. أسامة عبد الرحمن
■ السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولايات
العثمانية في بلاد الشام (سلسلة أطروحة الدكتوراه (١٣)) (٢٤٨ص - ٥$) .... د. وجيه كوثراني
■ الفلسفة العربية المعاصرة: مواقف ودراسات (٥٠٠ص - ١٠$) .... ندوة فكرية
■ المشاريع الوحدوية العربية ١٩١٣ - ١٩٨٩: دراسة توثيقية (٧٩٥ص - ٢٠$) .... د. يوسف خوري
■ البحر المتوسط في العالم المتوسط: دراسة التطور المقارن للوطن
العربي وتركيا وجنوب أوروبا (١٢٠ص - ٢,٥٠$) .... د. أمين ود. فيصل ياشير
■ سعياً وراء الرزق: دراسة ميدانية عن هجرة المصريين للعمل في الأقطار العربية
(٣٥٤ص - ٧$) .... د. نادر فرجاني
■ التشكيلات الاجتماعية والتكوينات الطبقية في الوطن العربي:
دراسة تحليلية لأهم التطورات والاتجاهات خلال الفترة ١٩٤٥ - ١٩٨٥
(٢٥٢ص - ٥$) .... د. محمود عبد الفضيل

سلسلة الثقافة القومية

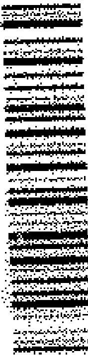
■ حقوق الإنسان في الوطن العربي (١) (١٨٠ص - ٢$) .... حسين جميل
■ عن العروبة والاسلام (٢) (٤٧٦ص - ٥$) .... د. عصمت سيف الدولة
■ الوطن العربي: الجغرافية الطبيعية والبشرية (٣) (١٨٤ص - ٢$) .... ناجي علوش
■ جامعة الدول العربية ١٩٤٥ - ١٩٨٥: دراسة تاريخية (٤)
(١٢٨ص - ١,٥٠$) .... أحمد فارس عبد المنعم
■ الجامعة الأوروبية: تجربة التكامل والوحدة (٥) (٢٨٨ص - ٣$) .... د. عبد المنعم سعيد
■ التعريب والقوميةالعربية في المغرب العربي (٦) (٢٠٠ص - ٢$) .... د. نازلي معوض أحمد
■ الوحدة النقدية العربية (٧) (١٦٨ص - ١,٥٠$) .... د. عبد المنعم السيد علي
■ أوروبا والوطن العربي (٨)
(٣٦٨ص - ٣,٥٠$) .... د. نادية محمود محمد مصطفى
■ المثقفون والبحث عن مسار: دور المثقفين في أقطار الخليج العربية في التنمية (٩)
(٢٤٤ص - ٢,٥٠$) .... د. أسامة عبد الرحمن
■ نحو عقد اجتماعي عربي جديد: بحث في الشرعية الدستورية (١٠)
(١٠٨ص - دولار واحد) .... د. غسان سلامة
■ السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي - الاسرائيلي ١٩٧٣ - ١٩٧٥ (١١)
(١٤٤ص - ١,٥٠$) .... د. محمد الأطرش
■ معوقات العمل العربي المشترك (١٢) (١٥٦ص - ٢$) .... د. وليد عبد الحي

هذا الكتاب

تجلّت الحضارة العربية، في القرن الثالث الهجري، بعلوّ قدر العلم والمعرفة والنتاج وازدهار البحث والترجمة والتأليف، وظهور الابتكارات والمخترعات، وانبساط رغد العيش في أرجاء الدولة العربية الاسلامية، وهو ما وسَم هذا القرن بسمات تفخر بها الأمم والشعوب، من حيث حضارتها ورقيّها، في شتّى مرافق الحياة، ومختلف نواحيها: الدينية والفكرية، والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية. وكان من نتائج هذه الحضارة مئات الكتب المتخصصة، التي أبدعتها قرائح عدد كبير من مشاهير العلماء والفلاسفة والفنانين، مما جعل هذا القرن ـ بحق ـ أساساً تقوم عليه حضارة العرب الذهبية.

وفي هذا الكتاب أحد عشر فصلاً، تنقل الى القارىء، بأمانة وعمق، عناوين حضارتنا في القرن الثالث، وتفاصيل تلك الحضارة، في مناحيها الشامخة في دنيا الفكر الانساني. فالكتاب يأخذنا، معرّفاً ومعلماً، الى مناحات العرب في اقتصادهم وميادين صناعتهم، وما كان لهم من شأو كبير في علوم الدين، والطب والصيدلة والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء وعلوم الحيوان والنبات، والتاريخ والجغرافيا، فيسجل بدقة ما أثروا به العقل الانساني من ابداعات وملاحظات واضافات وترجمات تشهد للعرب، أنهم ـ بحق ـ واضعو أسس العديد من العلوم، وأنهم نظّروا في اللغة والفلسفة والفقه والفن نظريات لمّا تزل مثار اهتمام المفكرين.

لقد أنجز هذا الكتاب بفضل ما قدّم المؤلف من جهد كبير، وما في نفسه من حب دافق لحضارة أمته، وبفضل مئات المصادر والمراجع التي كانت عوناً له في اقامة هذا البناء الضخم، الذي سيكون من أهم المراجع وأغناها في علم الحضارة العربية.





مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٦٩١٦٤
برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي. فاكسيميلي: ٨٠٢٢٣٣